ذاكرة القرن العشرين

د. ياسر طلعت

مكتبة الدار العربية للكتاب

ذاكرة القرن العشرين

◆ د. ياسر طلعت ◆

مكتبة الدار العربية للكتاب

24 ش الدكتور حسن إبراهيم من مكرم عبيد - ص. ب 7584 الحى الثامن - مدينة نصر - القاهرة - ت ، 2741721
e- mail ALMASRIAHRASHAD@LINK.NET

رقم الإيداع : 3342 / 2002
الترقيم الدولى : 977-293-125-7
تجهيزات فنية : النصرت : 7863199
طبع : آمون ت : 7944517 - 7944356
الطبعة الأولى : محرم 1423 هـ أبريل 2002 م

الإخراج الفنى والغلاف

حسين جبيل

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهــداء

إلى هــالة ..

النجمة الوحيدة في سمائي

.. هي فحسب !

مقدمة

هذا كتاب عن الذاكرة ، حتى لا يفلت التاريخ من بين أصابعنا .

فقد جمع القرن العشرون بين تناقضات الفظاظة والعبقرية، الوعود وخيبات الأمل.، لتمتزج الأحلام بالصدمات ، وتختلط التحولات بالتراجعات ، لتتشكل في النهاية لوحة سوريالية يجتمع فيها الأحسن والأسوأ تحت سماء واحدة. تجمع هذه اللوحة التي تستحق التأمل بين عقل العالم الفذ « ألبرت أينشتاين» .. رأس الممثل الأصلع « يول براينر » .. صوت فريق البيتلز الغنائي البريطاني .. أنف الرئيس المصري « جمال عبد الناصر » .. أذن الملاكم «إيفاندر هوليفيلد » التي قضمها خصمه « مايك تايسون » فوق الحلبة .. شارب الزعيم النازي « أدولف هتلر » الذي يرمز إلى التفوق المزعوم للجنس الآري .. لحية الثائر « تشي جيفارا » الذي تحول إلى رمز لثورات الشعوب ضد الطغاة والمحتلين .. أصابع الفنان التشكيلي الإسباني « بابلو بيكاسو » الذي وضع بصمته على عصره .. يد لاعب كرة القدم الأرجنتيني « دييجو مارادونا » التي أحرز بها هدفا في مرمى إنجلترا في مونديال ١٩٨٦ ثم زعم أنها

« يد الله » .. قبضة الملاكم الأسطوري « محمد علي كلاي » .. سيقان نجمة الإغراء « مارلين مونرو » حين طَيَّرَ الهواء فستانها في مشهد سينمائي شهير (وسيقان « شارون ستون » أثناء التحقيق معها في مشهد آخر لا يقل شهرة) .. قدم الجوهرة السوداء في ملاعب كرة القدم « بيليه » التي أحرز بها أهدافا رائعة .. خطوات الراقص الاستعراضي « چين كيلي » في « الغناء تحت المطر » .. قامة الرئيس الفرنسي « شارل ديجول » التي تشبه شجرة السنديان .. وقوام عارضة الأزياء السوبر « كلوديا شيفر » .

إنه أيضا قرن قبعة كلٍّ من « ديجول » و « لينين » و« العم سام » والزعيم التركي «مصطفى كمال أتاتورك » الذي حظر ارتداء الطربوش في بلاده .. عمامة « الخميني » الذي أسقط نظام الشاه في إيران .. كوفية الرئيس الفلسطيني « ياسر عرفات » .. حجاب رئيسة وزراء باكستان « بنازير بوتو » .. ساري « أنديرا غاندي » رئيسة وزراء الهند .. منديل سيدة الغناء العربي « أم كلثوم » .. نظارة عميد الأدب العربي الدكتور « طه حسين » التي كانت تداري بصره الكفيف لتكشف عن بصيرته الحادة .. غليون الرئيس المصري «أنور السادات» .. فستان المتدربة في البيت الأبيض « مونيكا لوينسكي » .. سيجار الزعيم الكوبي « فيدل كاسترو » ورئيس الوزراء البريطاني « ونستون تشرشل » (وينافسهما سيجار الرئيس الأمريكي « بيل كلينتون » في فضيحة مونيكا – جيت) .. عصا العبقري الساخر « شارلي شابلن » الذي رحل عن عالمنا في يوم عيد ميلاده (٢٥ ديسمبر ١٩٧٧) .. ياقة الزعيم الصيني « ماو تسي تونج » .. نول الزعيم الهندي « غاندي » الذي قاوم به الاحتلال البريطاني .. جيتار مغني الروك « إلفيس بريسلي » .. وحذاء الزعيم السوفيتي « نيكيتا خروتشيف » الذي استخدمه كمطرقة في جلسة للجمعية العامة للأمم المتحدة فى ١٩٦٠ احتجاجا على السياسات الغربية .

القرن العشرون هو قرن الإمبراطورية البرتغالية التي جعلتها ثورة القرنفل تلفظ أنفاسها الأخيرة ، وكذلك الإمبراطورية العثمانية التي تحالف ضدها خصوم رأوا أنها أصبحت « الرجل المريض » في أوروبا ، فأسقطوها قبل أن يتنازعوا ميراثها ، والإمبراطورية النمساوية – الهنجارية التي دفنتها الحرب العالمية الأولى ، والإمبراطورية البريطانية التي غابت عنها الشمس، والإمبراطورية السوفيتية التي وَقَّعَ آخر زعمائها « ميخائيل جورباتشيف » على وثيقة

انهيارها رسـميا بقلم استعـاره من مراسل شبكة « سي .إن . إن . » الإخبـارية ، والإمبراطورية الأمريكية التي ذاقت طعم الهزيمة في أدغال فيتنام .

القرن العشــرون هو أيضا قرن العار الإسرائيلي ، وقـرن الأيادي الملطخة بدماء الأبرياء ، من كفر قـاسم إلى دير ياسين وقبية ، وقانا في لـبنان ، وبحر البقر في مصـر ، ومجزرة النفق ، ومذبحة الحرم الإبراهيمي ، وفضـيحة ذبح الأسرى من الجنود العرب خـلال حـربي ١٩٥٦ و ١٩٦٧ ودفنهم أحياء!

القرن العشـــرون هو قرن الاقتصــاد ولغة المال ، من انهـيار بورصة نيويورك إلى اتفاقية « بريتون وودز » وصندوق النقـد الدولي والبنك الدولي .. ومن اتفاقية « الجـات » إلى منظمة التجـارة العالمية ، ومظاهرات سيـاتل ضد خطر العولمة .. ومن اكتـشاف البترول وأزمـة الطاقة ودور منظمـة «أوبك » إلى التـجـارة الإلكتـرونيـة .. ومن صانع الـسيـارات « هنري فـورد » (١٨٣٦-١٩٤٧) والاقتصادي المصـري « طلعت حرب » (١٨٦٧-١٩٤١) إلى رجل صناعة النفط « ديفيـد روكفلر » (١٨٣٩-١٩٣٧) ، وأعـجوبة صناعة الكمـبيوتر والمعلومات « بيل جيتس » .

إنه قرن الأيديولوجـيات ، وحقـوق المرأة ، وقضيـة البيـئة ، وتداخل الثقـافات ، وتطور السينمـا والموسيقى ، وانتشـار الطباعة ، والثقـافة ، وانفجار وسـائل الاتصال ، وسطوة الراديو فالتليـفزيون والكمـبيوتر والإنتـرنت . هو قرن العلم والمعـرفة وثورة المعلومـات وتقدم الطب واكتشاف الفضاء ، وهو أيضا قرن التـعصب الديني والإرهاب والحروب والصراعات العرقية والقبلية ، والثـورات والانقلابات ، والجماهير التـي نقلت غضبها إلى الشـارع ، وقرن أسلحة الدمار الشـــامل من القنبلة الذرية - التي ألقيت عـلى هيـروشـيما وناجازاكي - إلى صواريخ « باتريوت » التي أضاءت ليل العـراق ، وقرن لنجوم الـسينما والتليفـزيون والرياضة والأزياء . قرن مـشروب الكولا ، وحـبوب الفـياجـرا ، والبنطلون الجينـز ، والهاتف المحـمول ، وهوس البوكيمون .

إنه قرن الـرموز المختـصرة ، والأشـيـاء التي ترتبط بأسـماء شـــهـيرة ، والسرعـة التي تختزل المعــــاني والأشخاص في حـروف : UN (الأمم المتحـــدة) ، US (الولايـات

المتحدة) ، NY (نيويورك) ، G7(السبعة الكبار) ، حرف E يرمز إلى كل ما هو إلكتروني ، M (ماكدونالدز) ، CD الأقراص المدمجة ، IMF للدلالة على صندوق النقد الدولي ، و V الانتصار .

فيه لمع وهوى الصليب المعقوف رمز النازية ، والمطرقة والمنجل رمز الشيوعية السوفيتية ، وعرف الناس أن الحمار رمز الحزب الديمقراطي الأمريكي ، والفيل رمز الجمهوريين ، والكنجارو رمز أستراليا ، والنعجة دوللي رمز الاستنساخ ، ونجمة داوود رمز إسرائيل ، واليورو رمز الاتحاد الأوروبي ، والحجارة رمز الانتفاضة الفلسطينية ضد سلطات الاحتلال الإسرائيلى ، والحمامة رمز السلام . قرن بدأ بانتشار وباء الأنفلونزا وانتهى بكارثة الإيدز .

ولكن ، متى بدأ القرن العشرون؟

يجادل البعض بأن القرن العشرين لم يبدأ في ١٩٠٠ أو ١٩٠١ ، وإنما بدأ - عمليا - في ١٨٧٠ ، حين بدأ عصر الاختراعات في وضع الأسس التقنية للعالم الذي نعيش فيه اليوم . ويرى آخرون أنه بدأ في ١٩١٤ ، عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى ، وأدت إلى تفكيك التركيب السياسي والطبقي ، وتقديم تجربة الموت والدمار الجماعي التي تحولت إلى واحدة من أقسى تجارب القرن العشرين . وربما يذهب آخرون إلى أن القرن العشرين بدأ في ١٩١٧ ، حين أرست الثورة الروسية أسس التنافس والصراع الأيديولوجي ، الذي أوجد فكرة العالم الذي يتنازعه قطبان أو قوتان كبيرتان طوال ٧٢ سنة تالية ، وانتهى مع سقوط جدار برلين في يوم ٢٩ نوفمبر ١٩٨٩ .

ويرى أستاذ التاريخ « إريك هوبسباوم » أن القرون لا يصنعها تعداد السنين (مائة سنة) ، وإنما تصنعها كثافة الأحداث وعمر وعمق التجارب الحية والفاعلة في حركة المجتمعات الإنسانية . ووفق هذا المفهوم ؛ فإن القرن العشرين بدأ مع الحرب العالمية الأولى في ١٩١٤ ، واختتم بنهاية الحرب الباردة في ١٩٩١ ، أي أن القرن العشرين لم يستمر سوى ٧٥ سنة فقط!

وفي رأي الكثير من الباحثين والمؤرخين أن القرن العشرين ينتهي -عمليا- مع سقوط آخر أوراق ٢٠٠٠ ، وليس ١٩٩٩ حين احتفل العالم بشكل صاخب .

وبغض النظر عن تلك الرؤى والنظريات ، فإننا في هذا الكتاب سنعتبر أن القرن العشرين بدأ في ١٩٠٠ وانتهى في ٣١ ديسمبر ٢٠٠٠ . ولأن الإطار الزمني وحده لا يصنع تاريخا ، فقد ارتأى المؤلف أن يتم الحديث عن القرن العشرين من خلال طرح بعض القضايا الأساسية والسمات الدالة ، وجمعها في وحدة موضوعية تسهم في تحقيق فهم أعمق ورؤية أشمل لهذا القرن الذي نعد جزءا منه . وطبقا لهذا التصور ، فإن أول أيام القرن العشرين تزامن مع تاريخ ٢٩ شعبان وفق التقويم الهجري ، أي أنه حل حين كان المسلمون يقلبون وجوههم بحثا عن هلال شهر رمضان ، وانتهى في حدود الخامس من شوال١٤٢١ هجرية في معظم البلدان الإسلامية .

يسعى الكتاب إذًا إلى إعادة قراءة أحداث القرن العشرين بوعي وموضوعية ، ويقلب صفحات التاريخ بحثا عن الحقيقة ولا شيء سواها .

خط النهاية بالنسبة للأحداث والتواريخ والأعمار الواردة في الكتاب هو نهاية ديسمبر ٢٠٠٠ ، ما لم ترد إشارة تفيد بغير ذلك . وإذا كان الكتاب معنيا بأحداث القرن العشرين ، فإن المؤلف لم يتقيد بالترتيب الزمني للأحداث ، بقدر ما حرص على أن يكون الحديث عن الشخصيات والأحداث في كل فصل مترابطا وسلسا ، استنادا إلى المقارنات المعقودة ، وأوجه التشابه والاختلاف بين موضوعات كل فصل من الفصول .

ولدت فكرة الكتابة عن تاريخ القرن العشرين على صفحات جريدة « الأهرام المسائي » اعتبارا من ٨ من أغسطس ١٩٩٩ ، واستمر المشروع قائما عبر ٣٣ أسبوعا على التوالي ، حاولتُ خلالها تقديم صورة متكاملة عن هذا القرن الحافل بالأحداث والمنعطفات الحاسمة من مختلف الزوايا ، واعتمدتُ على مئات الدوريات والكتب والمراجع باللغتين العربية والإنجليزية التي اكتفيتُ بذكر أهمها ، وإلا تعين عليّ إفراد نصف مساحة هذا الكتاب لسردها بالتفصيل . وكم قضيتُ ساعات أبحث وأدقق ، بحثا عن المعلومة الصحيحة والتاريخ الصائب لما ورد في هذا الكتاب ، الذي أرجو أن يكون مفيدا للقارئ ، وأن يضيف إليه مرجعا مهما ودقيقا ما أمكن ذلك ، في زمن عَزَّتْ فيه الكتب العربية الجادة ، التي تنهل من بحور العلم والمعرفة ، وتهتم بتوثيق التواريخ والأحداث .

وفي ظل تعارض دقة عـدد من التواريخ في عديد من المراجع والمصادر التي لجأت إليها خلال مراحل إعداد الكتاب للنشر ، خاصة حين يتعلق الأمر بشخصية مصرية أو عربية ، فقد اخترت التواريخ التي تكررت في أكثر من مصدر موثوق به واطمأنت إليها نفسي قدر الإمكان ، على الرغم من انزعاجي وأسفي لهذه الذاكرة المثقوبة التي تجعل من المتعذر تحديد التواريخ بدقة وحسم . وينطبق الأمر نفسه على مسألة الأسماء والأعلام التي قد تختلف طريقة نطقها أو كتابتها ، تبعا للغة المستخدمة واللغة التي تترجم إليها هذه الأسماء .وإذا كنت أزعم أنني بذلت جهدا كبيرا في وضع هذا الكتاب والتدقيق في مضمونه ، فإن الكمال لله وحده .. ولذا فإنني أعتذر مسبقا عن أي خطأ غير مقصود .

وربما كان أصدق ما يرد في ذلك الشأن ما قاله « العماد الأصفهاني » حين فرغ من أحد مؤلفاته ؛ حيث قال: « إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتابا في يومه ، إلا قال في غده : لو غُيِّرَ هذا لكان أحسن ، ولو زيد كذا لكان يستحسن ، ولو قُدِّمَ هذا لكان أفضل ، ولو ترك هذا لكان أجمل . وهذا من أعظم العبر ، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر » !

ولعل صدور الكتاب مناسبة لتسجيل شكري و اعتزازي بتشجيع واهتمام كلٍّ من الزملاء : « حسين جبيل » ، و « محمد عطية » ، و « ياسر الكحكي » ، حتى فرغت من كتابة الحلقات التي أصبحت عماد هذا الكتاب ، وذلك بعد كثير من التصويب والتنقيح والإضافة . كما أتوجه بشكر خاص للزميل عبد الخالق صبحي ، الذي قدم مساعدات فنية جليلة حتى يخرج هذا العمل في أحسن صورة .

والله ولي التوفيق .

د . ياسر طلعت

مدينة نصر – القاهرة

سبتمبر ٢٠٠١

1

للقرن العشرين ذاكرة طويلة . . بحجم الأحداث التي وقعت فيه ، والتطورات التي شهدها ، والشخصيات التي صعدت - أو هوت - خلال سنواته المائة .

ولم تكن النساء قوة هامشية في هذا القرن ، فقد برزن وتألقت منهن السياسية والزعيمة والأديبة والمغنية والرياضية .

إن « شقائق الرجال » لهن بصمة قوية واضحة على ملامح القرن العشرين ، يتعين قراءتها بإمعان واستقراء تفاصيلها ؛ حتى نعرف بالضبط حجم ودور المرأة في هذا القرن وذلك العالم الذي نعيش فيه .

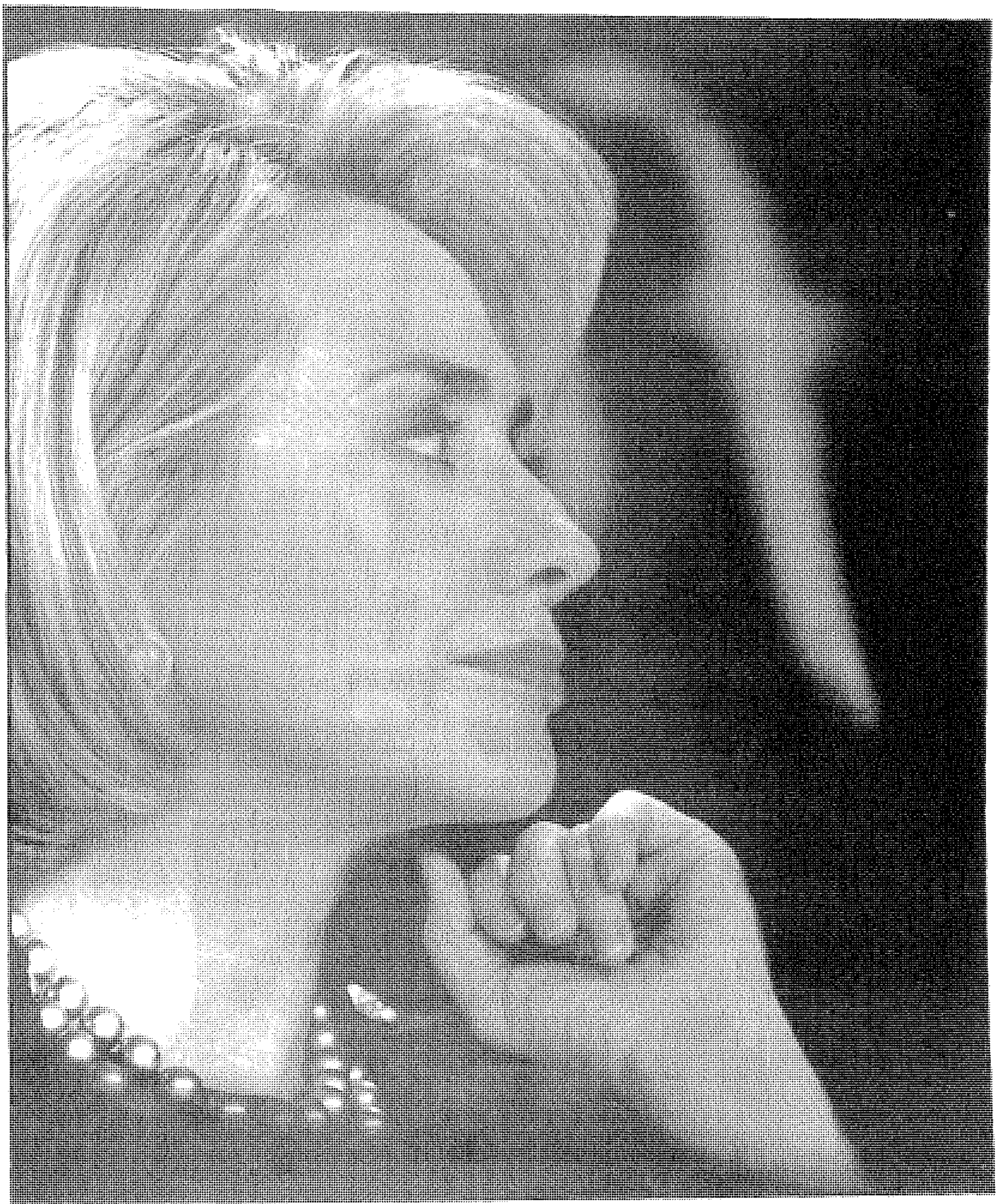


الأميرة ديانا

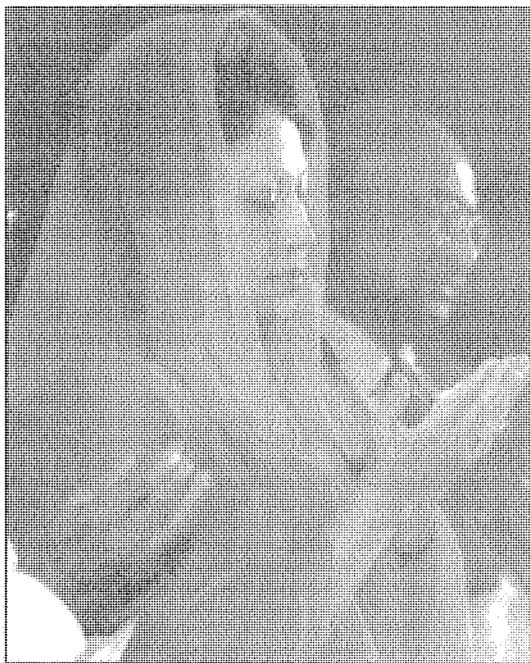
النساء .. صعود القوة الناعمة



ماري كوريني



هيلاري كلينتون



خالدة ضياء



فاتن حمامة



تشاندريكا كوماراتونجا

في ١٩٩٣ ، كتبت الصحفية « ميشيل فيتوس » في أحد أعداد المجلة النسائية الفرنسية « إيل » افتتاحية بعنوان : « ٢٠٩٣ . . كوكب النساء » ؛ متخيلة أنه في السنة المذكورة سيستقيل آخر رئيس حكومة من الرجال ، لتبدأ إمبراطورية النساء !

وفي مايو ١٩٩٩ ؛ توقعت عالمة الأنثروبولوجيا « هيلين فيشر » في كتابها الذي يحمل عنوان « الجنس الأول » أن تقود النساء العالم خلال القرن الحادي والعشرين .

لا أحد يدري على وجه التحديد الخيط الفاصل بين طموح « فيشر » وبين جموح « فيتوس » ، لكن الشيء المؤكد أن القرن العشرين شهد - خاصة خلال نصفه الثاني - تولي عديد من النساء مناصب الحكم والسلطة في عدد كبير من دول هذا العالم .

لا أحد ينسى -على سبيل المثال لا الحصر- أسماءً مثل : المرأة الحديدية «مارجريت ثاتشر » رئيسة الحكومة البريطانية سابقا ، ولا الراحلة « أنديرا غاندي » رئيسة وزراء الهند ، ولا شقيقتيها « سيريمافو باندرانايكا » و « بنازير بوتو » اللتين قادتا حكومتي سريلانكا وباكستان على التوالي ، وكانت الأولى أول سيدة ترأس حكومة في العالم .

المرأة الحاكمة ، منذ « كليوباترا » إلى اليوم ، كانت تمضي فترات طويلة في الحكم . هكذا فعلت « أنديرا غاندي » - المولودة في مدينة الله آباد في ١٩ من نوفمبر ١٩١٧ - التي ورثت زعامة حزب المؤتمر عن أبيها « جواهر لال نهرو » ، مثلما ورثت مرض السل الذي شفيت منه عن والدتها ، ومارست السياسة منذ صباها ، ثم أصبحت نائبة في البرلمان في ١٩٦٤ ، ثم وزيرة للإعلام قبل اختيارها رئيسة للوزراء في ١٩٦٦ بعد وفاة « لال بهادور شاستري » . وعلى الرغم من تراجع شعبيتها في ١٩٧٥ عندما اعتقلت رموز السلطة حتى خسرت الانتخابات في ١٩٧٧ ، فإن «أنديرا» - التي درست في جامعة أكسفورد- عادت إلى السلطة عبر انتصار كاسح خلال انتخابات ١٩٨٠ ، إلى أن اغتيلت على يد أحد حراسها من المنتمين إلى طائفة السيخ في ٣١ من أكتوبر ١٩٨٤ .

وإذا كانت « أنديرا » - والتي تزوجت من اليساري العابث « فيروز غاندي » الذي روج البعض قصصا عن علاقة جمعته بوالدتها ! - حكمت الهند لمدة ١٦ سنة ، فإن

« باندرانايكا » - التي توفيت في أكتوبر ٢٠٠٠ عن عمر يناهز ٨٤ سنة - حكمت مرتين: الأولى منذ ١٩٦٠ وحتى ١٩٦٥. وفي المدة الثانية حكمت بلادها خلال الفترة بين سنتي ١٩٧٠ و١٩٧٧، لكن إجراءاتها الاقتصادية الصارمة أدت إلى سقوطها بعد أن أمضت ١٢ سنة في رئاسة الوزارة.

ومثلما كانت « باندرانايكا » رئيسة لحكومة سريلانكا، جاءت ابنتها « تشاندريكا كوماراتونجا » (٥٢ سنة) لترأس البلاد في ١٩٩٤.

بذلت هذه الأرملة - التي اغتيل والدها « سولومون باندرانايكا » (١٩٥٩) وكذلك زوجها بسبب اشتغالهما بالسياسة، وفقدت النظر في إحدى عينيها إثر عملية انتحارية استهدفتها في ديسمبر ١٩٩٩ - بذلت جهودا جبارة لإنهاء حرب الانفصاليين التاميل وتسوية النزاع العرقي في البلاد.

وتبادلت كلٌّ من البيجوم « خالدة ضياء » والشيخة « حسينة واجد » رئاسة الحكومة في بنجلاديش. فقد تسلمت الأولى رئاسة الحكومة من ١٩٩١ حتى ١٩٩٦، في حين انتخبت الثانية رئيسة للوزراء من ١٩٩٦. والبيجوم « خالدة » شأنها شأن الشيخة « حسينة » (١٩٤٧-) ، سيدتان دخلتا بحر السياسة بعد جريمة اغتيال: الزوج المعارض سياسيا -الجنرال « ضياء الرحمن » الذي اغتيل في ٣٠ من مايو ١٩٨١- أو الأب السياسي - الشيخ « مجيب الرحمن » رئيس بنجلاديش الذي اغتيل في ١٥ من أغسطس ١٩٧٥- وهو السيناريو نفسه الذي دفع « كورازون أكينو » - أرملة المعارض « بينينو أكينو الابن » الذي اغتيل في أغسطس ١٩٨٣ في مطار العاصمة مانيلا لدى عودته من المنفى- إلى رئاسة الفلبين من ١٩٨٦ حتى ١٩٩٢، وذلك بعد إطاحة الدكتاتور الراحل « فرديناند ماركوس » وزوجته النهمة للإنفاق « إيميلدا ». وحين سقط « ماركوس » عن السلطة في ٢٧ من فبراير ١٩٨٦، كانت زوجته « إيميلدا » تملك ثروة تتجاوز ١٥ مليار دولار و٤٥ قصرا في أنحاء المعمورة، وقد تركت وراءها في القصر الرئاسي ثلاثة آلاف زوج من الأحذية. ولا ننسى نموذجا مشابها لـ « إيميلدا »، وهي قرينة « چان - كلود دوفالييه » . . تلك المرأة التي أسرعت بتصرفاتها الطائشة بإقصاء زوجها « بيبي دوك دوفالييه » من حكم هاييتي وهروبه إلى فرنسا في ٧ من فبراير ١٩٨٦.

الفلبين اختارت سيدة أخرى لمقعد الرئاسة في نهاية القرن العشرين ، وهي « جلوريا ماكاباجال أرويو » ، التي شغلت منصب نائب الرئيس في عهد « چوزيف إسترادا » إلى أن تم عزله من المنصب بتهمة الفساد ، ومن ثَمَّ تولت « أرويو » قيادة دفة الحكم .

و « أرويو » خبيرة اقتصادية ، درست في جامعة چورچ تاون الأمريكية -وهي تقول إن الرئيس الأمريكي « بيل كلينتون » كان زميلها في مقاعد الدراسة - ثم أصبحت وكيلة وزير التجارة والصناعة في عهد « أكينو » ، وانتخبت لعضوية مجلس الشيوخ في ١٩٩٢ قبل أن تصبح نائبة للرئيس في ١٩٩٨ ، على الرغم من كونها لا تنتمي للحزب الحاكم في الفلبين !

وفي فيتنام ؛ شغلت « نجوين شي بينه » منصب نائب الرئيس منذ ١٩٩٢ ، وتعد هذه المرأة نموذجا للدولة الفيتنامية خلال حرب المصادمات ، إذ لعبت دورا بارزا في الحكومة الثورية المؤقتة خلال محادثات باريس . وعقب فوز الشيوعيين في أبريل ١٩٧٥ ، أصبحت وزيرة للتعليم ، ثم نائبة للرئيس . « ميجاواتي سوكارنو بوتري » ابنة رئيس إندونيسيا الراحل « أحمد سوكارنو » وزعيمة الحزب الوطني الديمقراطي المعارض ، نجحت في قيادة حزبها للفوز في الانتخابات التشريعية الأولى التي تشهدها البلاد منذ عقود طويلة ، وذلك في ١٩٩٩ . ومن هنا،فإن « ميجاواتي » (٢٣ من يناير ١٩٤٧-) - والتي تزوجت ثلاث مرات ، وكان زواجها الثاني في ١٩٧٣ لمدة شهرين فقط من الدبلوماسي المصري « حسني جمال أحمد حسن » ، الذي كان ملحقا بسفارة مصر لدى إندونيسيا- تطلعت أيضا إلى رئاسة إندونيسيا بعد سقوط الدكتاتور «سوهارتو » وتولي « بحر الدين يوسف حبيبي » المنصب كرئيس انتقالي ، لكن إندونيسيا اختارت « عبد الرحمن وحيد » (٦٠ سنة) رئيسا ، في حين أصبحت «ميجاواتي » نائبة له في خريف ١٩٩٩ ، وذلك قبل أن يعزل البرلمان « وحيداً » ويعينها رئيسة لإندونيسيا في ٢٣ من يوليو ٢٠٠١ .

يجادل البعض بأن « ميجاواتي » - التي يعني اسمها « السحب الكثيفة » ، والتي طردت من جامعة باندونج سنة ١٩٦٦ وفشلت تعليميا في الداخل والخارج - ليست سوى ربة بيت ساقتها الظروف لكي تصبح زعيمة سياسية ، دون أن يعني ذلك بالضرورة امتلاكها مقومات الزعامة والحنكة السياسية والاقتصادية اللازمة !

وحملت « أونج سان سوكي » لواء المعارضة ضد الحكم العسكري وسياساته القمعية في ميانمار (بورما سابقا) ، حتى إنها استحقت جائزة نوبل للسلام في ١٩٩١ ، وهي نفسها ابنة جنرال يعد مؤسس بورما الحديثة .

« بنازير بوتو » تولت رئاسة الحكومة في باكستان من ١٩٨٨ إلى ١٩٩٠ ، ثم من ١٩٩٣ حتى ١٩٩٦ . و « بوتو » سليلة عائلة ذات تاريخ سياسي عريق ، فوالدها « ذو الفقار علي بوتو » رئيس وزراء باكستان الأسبق ، الذي أعدمته حكومة الجنرال « ضياء الحق » في ١٩٧٩ .

تلقت « بوتو » - المولودة في كراتشي في شهر يونيو من سنة ١٩٥٣ - تعليمها في جامعتي هارفارد وأكسفورد ، وحصلت على مؤهل عال في الفلسفة والسياسة والاقتصاد ، كما درست القانون الدولي والدبلوماسية في أكسفورد . وعلى الرغم من أن « بوتو » - التي صدر لها كتاب يروي سيرتها الذاتية تحت عنوان « ابنة الشرق »- استقر بها الأمر في صفوف المعارضة ، فإنها تظل أحد رموز الحركة النسائية في العالم .

الأمر نفسه ينطبق على « تانسو تشيلر » رئيسة الحكومة التركية سابقا ، والمولودة في ١٩٤٦ في إسطنبول .

و « تشيلر » - التي تخرجت في كلية روبرت وحصلت على مؤهل عال في الاقتصاد من جامعة بوجازيكي ، قبل أن تنال درجة الدكتوراه في الاقتصاد من جامعة كونيكتيكت الأمريكية - تولت زعامة حزب « الطريق القويم » ، ثم رئاسة الحكومة التركية في ١٩٩٣ وهي في سن السابعة والأربعين .

« تشيلر » التي قالت للجماهير التي أحاطت بمنزلها عشية فوزها في الانتخابات العامة : « سأكون والدة هذه الأمة وسأكون شقيقتها » ؛ خرجت من السلطة في ١٩٩٦ ، لكنها دخلت التاريخ كأول امرأة تتولى رئاسة الحكومة في تركيا .

« مارجريت تاتشر » (١٩٢٥-) حققت الرقم القياسي في رئاسة الحكومة البريطانية على نحو غير متقطع خلال القرن العشرين . فقد فازت - وهي ابنة البقال «ألدرمان ألفريد روبرتس » وزوجته الخياطة - في ثلاثة انتخابات عامة على التوالي منذ

مايو ١٩٧٩ حتى نوفمبر ١٩٩٠ ، أي أنها قضت أكثر من ١١ سنة في الحكم ، كانت خلالها من أقوى زعماء أوروبا وأكثرهم حنكة .

وفي أيرلندا ، انتخبت « ماري روبنسون » (٢١ من مايو ١٩٤٤-) لرئاسة البلاد من ١٩٩٠ حتى ١٩٩٧ ، ثم خلفتها « ماري ماكاليس » في المنصب الرئاسي من ١٩٩٧ . أما في فرنسا ، فقد انتخبت « إديث كريسون » رئيسة للحكومة ، واستمرت في منصبها لمدة ٣٢٣ يوما خلال الفترة بين عامي ١٩٩١-١٩٩٢ ، في حين اختارت قواعد حزب « التجمع من أجل الجمهورية » الديجولي في ٤ من ديسمبر ١٩٩٩ الوزيرة السابقة « ميشال اليو-ماري » (٥٣ سنة) رئيسة للحزب ، وعهدت إليها بمهمة العمل على إعادة توحيده وإصلاحه .

في ألمانيا تبحر « أنجيلا ميركل » بقارب حزبها المسيحي الديمقراطي المعارض ، وسط أجواء ملبدة بالغيوم ، منذ أن تولت رئاسة الحزب في أبريل ٢٠٠٠ .

« أجاتا باربار » انتخبت رئيسة في بلد أوروبي آخر هو مالطا ، وذلك خلال الفترة بين عامي ١٩٨٢-١٩٨٧ . وفي ١٩٩٩ أصبحت « روث درينوس » (٥٨ سنة) أول امرأة تتولى رئاسة الجمهورية في سويسرا . وكانت قد تبوأت منصب وزيرة الداخلية منذ ١٩٩٣ ، ثم تولت في ١٩٩٨ منصب نائبة الرئيس ، وقد تولت المنصب الرئاسي خلفا لـ « فلافيو كوتي » الذي تولى وزارة الخارجية . كذلك أصبحت « تاريا هالونن » أول سيدة تتولى رئاسة فنلندا من أول مارس ٢٠٠٠ ، وكانت قد شغلت من قبل منصب وزيرة الخارجية .

الطبيبة « جرو هارلم برونتلاند » (٥٩ سنة) تعد نموذجا للسياسية الصلبة ، وقد تولت رئاسة الحكومة في النرويج ثلاث مرات (من فبراير ١٩٨١ إلى ١٩٨٦ ، ومن ١٩٨٦ إلى ١٩٨٩ ، ومن ١٩٩٠ حتى ١٩٩٦) ، وكانت أول سيدة تنتخب كرئيسة للوزراء في هذا البلد الإسكندنافي في ١٩٨١ . ومنذ ذلك الحين وهي تسيطر على الساحة السياسية هناك . تقلبت « برونتلاند » في عدة مناصب ، إذ اختيرت من قبل وزيرة للبيئة ، كما عملت في إطار الأمم المتحدة .

وبعد اختيار « فيجديس فينبوجادوتير » رئيسة لأيسلندا في ١٩٨٠ ، ظل الناخبون يعتقدون أن إجراء الانتخابات الرئاسية يعد إهدارا للمال العام ما دامت تقود البلاد بنجاح ، لكن بحكم تقدمها في العمر (٦٨ سنة) فإن وقت التنحي عن الحكم حان في ١٩٩٦ . لكن يبقى أن « فينبوجادوتير » - التي تعد أول امرأة تتولى الرئاسة في القارة الأوروبية - ظلت دوما قادرة على إسداء النصح لمن يحكم أيسلندا بعدها من أجل مصلحة البلاد . وقد امتلكت هذه المرأة مقدرة فذة على إدارة شئون الدولة ، وأسهمت بقوة في الحفاظ على هوية أيسلندا الثقافية والتاريخية .

وفي لاتفيا ، يبرز اسم رئيسة البلاد « فيرافايك فرايبرجا » البالغة من العمر ٦١ سنة . وهذه السيدة التي جاءت إلى السلطة بالانتخاب الشعبي في ١٩٩٩ تتمتع بجماهيرية كبيرة ، خاصة في صفوف الطبقة الوسطى والمثقفين ، حيث إنها كانت تعمل أستاذة لعلم النفس .

وفي إستونيا المجاورة برزت في مطلع التسعينيات « ماريو لوريستين » نائبة رئيس البرلمان ، على حين عرفت ليتوانيا في تلك الفترة « كازيميرا برونسكاين » (المولودة في ١٩٤٣) التي ترأست الحكومة . وتولت الطبيبة « سابين بيرجمان-بول » رئاسة برلمان ألمانيا الشرقية في الفترة الانتقالية التي سبقت توحيد شطري ألمانيا . وأصبحت « لويزا فرناندو رودي » أول سيدة ترأس البرلمان الإسباني في سنة ٢٠٠٠ .

كذلك فإن القاضية « هانا سوشوكا » (٣ من أبريل ١٩٤٦-) كانت أول امرأة تدعى في يونيو ١٩٩٢ إلى رئاسة الحكومة في بولندا . وعلى الرغم من أن البرلمان أقالها في ٢٨ من مايو ١٩٩٣ ، فإنها بقيت في مركزها لفترة بفضل الرئيس البولندي السابق « ليخ فاونسا » الذي حل المجلس ، ودعا إلى انتخابات تشريعية جديدة لتطول فترة رئاستها للحكومة بعض الوقت .

مناضلة سياسية

وفي الجزء الآخر من العالم ، وبالتحديد في جزر الدومينيكان في البحر الكاريبي ، تربعت « ساري أوجينا شارل » (٧٧ سنة) على كرسي رئاسة الحكومة منذ سنة ١٩٨٠ إلى ١٩٩٥ على الرغم من وقوع أكثر من محاولة فاشلة لإطاحتها . كما

كانت « سيلا ماريا كلاديرون » هي أول سيدة تنتخب لمنصب الرئاسة في بورتوريكو في نوفمبر ٢٠٠٠ ، وقد تعهدت خلال حملتها بالعمل على استقلال بورتوريكو عن الولايات المتحدة اقتصاديا وعسكريا .

ومن فوق كرسي متحرك ، حكمت « فيوليتا تشامورو » (٦٨ سنة) نيكاراجوا لمدة ست سنوات ، اعتبارا من ١٩٩٠ ، وذلك عقب انتخابات رئاسية صعبة ضد قائد الساندنيستا « دانييل أورتيجا » .

كانت « تشامورو » جدة حين تولت المنصب الرئاسي ، وقد تمكنت بفضل الدعم الدولي من إنهاء حرب الكونترا التي استمرت لسنوات طويلة ، على الرغم من أن نيكاراجوا ما زالت من أفقر بلدان أمريكا اللاتينية ! وتملك أسرة « فيوليتا » واحدة من أشهر صحف البلاد وهي صحيفة « لابرينسا » ، أما زوجها « بيدرو جواكين تشامورو » فكان رئيس تحرير ، وأصبح شهيدا وطنيا عقب اغتياله في ١٩٧٨ بأوامر من الدكتاتور الراحل « أناستاسيو سوموزا » .

وفي جزر الأنتيل ، تتولى « سوزي رومر » رئاسة الحكومة ، وكانت « ماريا ليبيريا بيتر » رئيسة للوزراء من ١٩٨٤ حتى ١٩٩٣ .

وفي جويانا ، تولت « چانيت جاجان » رئاسة البلاد من ١٩٩٧ إلى ١٩٩٩ . وفي هذه السنة الأخيرة ، انتخبت « ميريا موسكوزو » رئيسة لبنما ، في حين شغلت « چيني سميث » بدورها منصب رئيسة وزراء برمودا .

وفي كندا تولت « كيم كامبل » منصب وزير الدفاع ، ثم خلفت رئيس الوزراء المستقيل « بريان مولروني » في رئاسة الحزب التقدمي المحافظ ، وتولت رئاسة الحكومة في يونيو ١٩٩٣ . لكن « كامبل » (٥٣ سنة) لم تعمر طويلا في المنصب بسبب اختلاف الكثير من حلفائها حول أسلوب إدارتها لشئون كندا ، فتركت منصبها في نوفمبر ١٩٩٣ .

« چين شيبلي » أول سيدة ترأس حكومة في نيوزيلندا ، وذلك في ١٩٩٩ ، في حين تعد « هيلين كلارك » شخصية بارزة في نيوزيلندا بوصفها أول سيدة تتزعم حزبا سياسيا كبيرا في تاريخ البلاد في السنة نفسها . « كلارك » - المتزوجة وذات الخلفية

المحافظة - غدت زعيمة لحزب العمل ، وقد نجحت في إجراء إصلاحات شاملة داخل الحزب ولَمّ شمله ليشارك بقوة في الحياة السياسية داخل نيوزيلندا . وعينت « سيلفيا كارترايت » (٥٦ سنة) - قاضية المحكمة العليا - في منصب الحاكم العام لنيوزيلندا خلال سنة ٢٠٠٠ .

« إيفا بيرون » المشهورة بلقب "إيفيتا" (١٩١٩-١٩٥٢) تحولت من مجرد فتاة قادمة من القرية الفقيرة لوس تولدوس إلى العاصمة الأرجنتينية بوينس أيريس ، إلى ممثلة ، ثم زوجة السياسي اللامع « خوان بيرون » في ١٩٤٥ ، وهي السنة نفسها التي تولى فيها الحكم . وفي ١٩٥١ أصبحت « إيفيتا » نائبة لزوجها في حكم الأرجنتين ، لكن سرطان الدم فتك بها وهي في سن الثالثة و الثلاثين .

وتعد « أنديرا كازيبوي » إحدى أشهر الشخصيات النسائية السياسية في إفريقيا ، حيث تولت منصب نائبة رئيس أوغندا ، وحظيت بمصداقية سياسية عالية بفضل مقدرتها الفذة على لَمّ شمل القبائل المتناحرة ، خاصة في شمال أوغندا .

« كازيبوي » (٤٥سنة) طبيبة في الأصل ، واعتبر انتماؤها إلى قبيلة موسوغا وإسهامها الفكري والثقافي أحد مصادر قوتها في أوغندا . وعلى الرغم من أنها لم تكن عضوة في أيٍّ من المجالس العسكرية في أوغندا -حيث تكمن مفاتيح السلطة- فإن دور هذه السيدة في الحكومة بدا مؤثرا وفاعلا . وفي رواندا ، كانت « آجات ويلينيمانا » رئيسة للوزراء خلال الفترة بين عامي ١٩٩٣-١٩٩٤ .

« جولدا مائير » (١٨٩٨-١٩٧٨) التي وصفها « ديفيد بن جوريون » ذات يوم بأنها « الرجل الوحيد في حكومتي » حين كانت تتولى منصب وزيرة الخارجية (١٩٥٦-١٩٦٦) ، وقبل ذلك كانت وزيرة للعمل (١٩٤٩-١٩٥٦) ، قبل أن ترأس الحكومة الإسرائيلية في ١٩٦٩ . . حظيت هذه السياسية المولودة في مدينة كييف الأوكرانية بشعبية كبيرة في إسرائيل ، إلى أن اهتزت الأرض من تحت قدميها بعد هزيمة إسرائيل عسكريا في حرب ٦ من أكتوبر ١٩٧٣ ، فدفعت الثمن غاليا واستقالت من منصبها في ١٩٧٤ ، وابتعدت عن السياسة حتى رحيلها .

الراهبة العجوز ذات الأصل الألباني « الأم تيريزا » (١٩١٠-١٩٩٧) غطى موت الأميرة « ديانا » على موتها لتزامن الحدثين . أمضت « الأم تيريزا » معظم سنوات

حياتها بين فقراء الهند وأوبئتها ، وعُرفت كرمز للمحبة والتضحية الإنسانية ، وتمكنت من أن تعيد للدين في الغرب سمته الأساسية .

وفي ١٩٩٩ رحلت « سميحة خليل » التي نافست الرئيس الفلسطيني « ياسر عرفات » في انتخابات الرئاسة للسلطة الفلسطينية في يناير ١٩٩٦ ، وكانت أول عربية ترشح نفسها للرئاسة . كما أنّ الفلسطينية « حسنية جبارة » (٤١ سنة) كانت أول عربية تصل إلى الكنيست الإسرائيلي عن طريق الانتخاب .

وإذا كانت الملكة « فيكتوريا » (١٨١٩-١٩٠١) قد حكمت المملكة المتحدة منذ تنصيبها ملكة في ٢٨ من يونيو ١٨٣٨ ، وظلت تحكم حتى أطل القرن العشرون ، فإن من أشهر الملكات اللاتي يحكمن العالم الآن ملكة بريطانيا « إليزابيث الثانية » (٢١ من أبريل ١٩٢٦-)، وقد أتت إلى الحكم بعد وفاة « چورچ السادس » في ١٩٥٢ ، وتوجت ملكة في ٢ من يونيو ١٩٥٣ ، وهي بذلك من أقدم الزعماء المحتفظين بالسلطة فى العالم . وعلى الرغم من أن سلطتها السياسية محدودة -وفق النظام البريطاني- فإنها تظل أحد رموز الحياة والتقاليد في بريطانيا . كما أنها ملكة متوجة على بريطانيا وكندا وأستراليا ونيوزيلندا وعدد آخر من الدول المستقلة ، إذ ترأس منظمة الكومنولث التي تضم ٦٥٠ مليون شخص في المستعمرات البريطانية السابقة . وتتسم « إليزابيث الثانية » بالشخصية الكتوم والجدية التامة والأسلوب التقليدي المحافظ .

وعلى العكس من ذلك تماما ملكة هولندا « بياتريس » (١٩٣٨-) ، فهذه الملكة التي ارتقت العرش في ١٩٨٠ متواضعة بشدة ، وتملك تواصلا دائما مع مختلف أبناء شعبها ، مما حافظ على هيبة المنزل البرتقالي الذي تقيم فيه العائلة المالكة في هولندا . وفي ١٥ من أبريل ٢٠٠٠ احتفلت ملكة الدنمارك « مارجريت الثانية » (١٩٤٠-) ببلوغها سن الستين في حفل حضره معظم أفراد الأسر المالكة في أوروبا .

وتعد الملكة « رانيا » ملكة الأردن أصغر ملكات العالم وآخرهن في القرن العشرين . عرفت « رانيا » (٣٠ من أغسطس ١٩٧٠-) ذات الأصل الفلسطيني كيف تكسب القلوب بسرعة في وطنها وخارجه ، بعد زواجها بالملك « عبدالله » في ١٠ من يونيو ١٩٩٣ ، وذلك بفضل بساطتها وسحرها الذين جعلاها تتصدر أغلفة الصحف والمجلات في أنحاء العالم ، كنموذج للمرأة العربية الحديثة .

أميرة القلوب

ومن يمكنه أن ينسى « ديانا » أميرة ويلز الراحلة التى لقيت مصرعها فى حادث سيارة أودى بحياتها مع صديقها المصري « عماد الفايد » أو « دودي » ، كما كان معروفا في الصحافة العالمية؟!

إن « ديانا » (١ من يوليو سنة ١٩٦١-٣١ من أغسطس ١٩٩٧) عاشت حياة صعبة مع زوجها السابق الأمير « تشارلز » ولي عهد بريطانيا - وكانت قد تزوجته في حفل أسطوري أقيم في ٢٩ يوليو ١٩٨١- قبل أن تعترف بخيانتها له في برنامج تليفزيوني ثم تنفصل عنه لاحقا. تحولت « ديانا » بعد وفاتها في حادث مأساوي إلى « أميرة القلوب » في بريطانيا ومختلف أنحاء العالم.

وسيتذكر العالم أيضا «ويني مانديلا » التي ظلت تناضل مع زوجها « نلسون مانديلا » ، الذي ظل قابعا في سجون نظام الفصل العنصري في جنوب إفريقيا لمدة ٢٧ سنة. ولكن بعد إطلاق سراح « مانديلا » ، سقطت أسطورة « ويني » بعد اكتشاف خيانتها لزوجها وتورطها في صراعات حزبية أخرى.

وسوف تعيش « جاكلين كينيدي أوناسيس » في ذاكرة القرن العشرين ، لأنها - أولا - كانت زوجة الرئيس الأمريكي « جون كينيدي » ، ولأنها - ثانيا - عاشت تفاصيل اغتياله في مدينة دالاس ، حينما كانا يستقلان معا سيارة مكشوفة خلال آخر جولاته الانتخابية في ٢٢ من نوفمبر ١٩٦٣

و« جاكي » ذات الأصول الفرنسية تزوجت في ١٩٦٨ من الثري اليوناني «أرسطوطاليس سقراطيس أوناسيس » ، الذي أراد يوما أن يضع أرملة الرئيس الأمريكي في فراشه !

« هيلاري رودام » أو « هيلاري كلينتون » (٢٦ من أكتوبر ١٩٤٧-) زوجة الرئيس الأمريكي السابق « بيل كلينتون » ، تعد واحدة من أبرز نساء القرن ، فقد كانت محامية بارعة ، وزوجة قوية تؤثر في الكثير من قرارات زوجها ، وتعمل على الإشراف على مشروع تطوير الرعاية الصحية في الولايات المتحدة. وبعد أن ساندت « كلينتون » في أزماته وفضائحه ، تحركت بقوة لتدخل غمار السياسة وتفوز بمقعد في

مجلس الشيوخ الأمريكي عن نيويورك في الانتخابات ، التي أجريت في ٧ من نوفمبر ٢٠٠٠ .

الرائدات

وعلى ذكر الكونجرس الأمريكي ، فإن أول امرأة تنتخب لعضوية مجلس النواب هي « چانيت رانكين » ، التي أدت اليمين الدستورية في ٤ من مارس ١٩١٧ ، بينما كانت « ريبيكا لاتيمير فيلتون » أول سيدة تدخل مجلس الشيوخ ، وكان ذلك في ١٩٢٢ . وفي ٣ من ديسمبر ١٩٤٨ نالت أول أمريكية ، هي « ماري الجس هالارن » لقب كولونيل . وكانت المرأة الأسترالية قد حصلت على حق التصويت في ١٩٠٢ - ولم تسبقها سوى النيوزيلندية في ١٨٩٣ - وتلتها الفنلندية في ١٩٠٧ ، وكل من الكندية والسوفيتية والألمانية والأمريكية خلال الفترة بين عامي ١٩١٨-١٩٢٠ ، والألبانية في ١٩٢٠ ، والمنغولية في ١٩٢٤ ، ثم الإنجليزية في ٢٨ من ديسمبر ١٩٢٨ ، والإكوادورية في ١٩٢٩ ، والتركية في ١٩٣٠ ، والسريلانكية في ١٩٣١ ، والفرنسية في ١٩٤٥ ، والبلجيكية في ١٩٤٦ . ونالت المرأة المصرية حقوقها السياسية في فبراير ١٩٥٦ ، ونالتها السورية في ١٩٥٨ في عهد الوحدة ، ونالت التونسية حقوقها بعد الاستقلال . أما أحدث الدول التي منحت المرأة حق التصويت فكانت سويسرا (١٩٧١) ، والعراق (١٩٨٠) ، وناميبيا (١٩٨٩) .

ولقد أسهمت « إيميلين بانكهيرست » (١٨٥٧- ٢٩ من يونيو ١٩٢٨) بقوة في حصول المرأة في بريطانيا وأوروبا على حق التصويت في الانتخابات ، وأثمر نضالها -الذي تعرضت خلاله للسجن ، وأضربت مرات عدة عن الطعام- تحولا كبيرا في الرأي العام البريطاني لمصلحة منح المرأة حق التصويت .

ومن رائدات تحرير المرأة في الوطن العربي نذكر « هدى شعراوي » (١٨٧٩- ٢٣ من ديسمبر ١٩٤٧) التي أسست الاتحاد النسائي المصري ، وهو أول اتحاد يطالب بحقوق المرأة ، وكانت أول من رفعت الحجاب في القاهرة في ١٩٢٣ ، وقادت بنات جنسها خلال ثورة ١٩١٩ الشعبية . و « درية شفيق » (١٤ من ديسمبر ١٩٠٨-٢٠ من سبتمبر ١٩٧٥) التي أسست في ١٩٤٨ اتحاد أو حزب « بنت النيل » ، وكانت من أشد المؤيدات لحصول المرأة على حقوقها ، حيث قادت في ١٩٥١ مسيرة نسائية إلى مبنى

البرلمان المصري ونظمت اعتصاما دام ثلاث ساعات؛ دفاعا عن حقوق المرأة . و«زينب محمد مراد» الشهيرة باسم «سيزا نبراوي» (١٨٩٨– ٢٤ من فبراير ١٩٨٥) التي لعبت دورا بارزا في نضال المرأة المصرية ودعم الحركة النسائية . و «نبوية موسى» (١٨٩٠-١٩٥١) أول مصرية تنال شهادة البكالوريا ، وذلك في ١٩٠٧ ، وأستاذة الرعيل الأول من المربيات المصريات ، وصاحبة مجلة «الفتاة» التي اتهمها البعض بمهادنة القصر على طول الخط . واللبنانية «لبيبة هاشم» (١٨٨٠-١٩٤٧) التي كانت أول من طالب بإنشاء جمعية نسائية . والسورية «فايقة مدرس» .

ومن الوطنيات والثائرات نذكر أيضا المناضلة الجزائرية «جميلة بوحيرد» (١٩٣٥-) التي تحملت التعذيب من أجل استقلال وطنها ، وصدر ضدها حكم بالإعدام في ١٩٥٧ مع أربع من زميلاتها الثائرات ضد الاحتلال الفرنسي . ولعبت السياسية والأستاذة الجامعية الدكتورة «حنان عشراوي» (المولودة برام الله في ١٩٤٦) دورا بارزا في المفاوضات الدبلوماسية والمحادثات السلمية على المسار الفلسطيني منذ أواخر الثمانينيات . وأكدت أم المصريين «صفية زغلول» (١٨٧٨-١٩٤٦) الدور السياسي والوطني للمرأة ، في حين كانت «راوية شمس الدين عطية» أول نائبة في مجلس الشعب المصري في ١٩٥٧ ، و «توجان الفيصل» (٥٢ سنة) أول نائبة في الأردن في ١٩٩٣ .

العالمة البولندية الأصل «ماري كوري» (١٨٦٧-١٩٣٤) نالت جائزتي نوبل عن إسهاماتها في مجال عزل الراديوم ودراسة الإشعاع . ومن العالمات العربيات ، نذكر – على سبيل المثال لا الحصر – عالمة الذرة المصرية «سميرة موسى» (٣ من مارس ١٩١٧-١٩٥٢) ، ومواطنتها الدكتورة «عزيزة أحمد يوسف» أول مصرية تتقلد منصب رئيس مركز بحوث وتطوير الفلزات في الفترة من ١٩٩٠ إلى ١٩٩٦ ، والعالمة اللبنانية «سلوى نصار» ، والمهندسة المعمارية العراقية «زهاء حديد» ذات الشهرة العالمية الكبيرة ، و «مها عاشور» أستاذة فيزياء الفلك في جامعة لوس أنجلوس في كاليفورنيا ؛ والمعروفة عالميا بأبحاثها في ظاهرة الشفق القطبي، و «شادية حبال رفاعي» الباحثة البارزة في جامعة هارفارد ، والتي أسهمت في تصميم «المسبار الشمسي» الذي سيطلق سنة ٢٠٠٧ ، و «قدورة داعوق» التي أنشأت شركة علمية بين جامعة

هارفارد ومعهد ماساتشوستس للتكنولوجيا في بوسطن ، لتمويل تجاربها الناجحة في إيجاد عقار لمرض الخَرَف « الزهايمر » والشلل الرعاش « باركنسون » واضمحلال العضلات الذي يصاحب التقدم في السن .

وفي المجال الفني برزت نجمات أسطوريات مثل « أودري هيبورن » (١٩٢٩-١٩٩٣) ، و « إنجريد بيرجمان » (١٩١٥-١٩٨٢) ، و « ريتا هيوارث » (١٩١٨-١٩٨٧) ، و « جريتا جاربو » (١٩٠٥-١٩٩٠) ، و « هيدي لامار » (١٩١٤-١٩٩٦) ، و « مارلين مونرو » (١٩٢٦-١٩٦٢) - التي ظهرت في أول ديسمبر ١٩٥٣ على غلاف العدد الأول من مجلة « بلاي بوي » الإباحية - و « صوفيا لورين » (١٩٣٤-) ، و « چين فوندا » (١٩٣٧-) ، و « لورين باكول » (١٩٢٤-)، و « بريچيت باردو » (١٩٣٤-) ، وقطة هوليوود « إليزابيث تايلور » (١٩٣٢-) ، و « ليف أولمان » (١٩٣٩-) ، و « كاثرين دونوف » (٢٢ أكتوبر ١٩٤٣-) بطلة « جميلة النهار » و « المترو الأخير » ، و « أرليتي » (١٨٩٨-١٩٩٢) بطلة « أطفال الجنة » ، و « دانييل داريو » (١٩١٧-) بطلة « عشيق الليدي تشاترلي » و « عائدة فجرا » ، بالإضافة إلى النجمات العالميات مثل « ميريل ستريب » (١٩٤٩-) بطلة « كرامر ضد كرامر » و « صرخة في الظلام » و « جسور مقاطعة ماديسون » ، و « چودي فوستر » (١٩٦٢-) بطلة « صمت الحملان » و « المتهمون » ، و « چوليا روبرتس » (١٨ من أكتوبر ١٩٦٧-) بطلة « امرأة جميلة » ، و « شارون ستون » (١٩٥٨-) بطلة « غريزة أساسية » ، و « ديمي مور » (١٩٦٣-) بطلة « الشبح » ، و « چان مورو » (١٩٢٨-) بطلة « مصعد المشنقة » و « لحن منسجم » ، و « إيزابيل إدجاني » - أو عجاني - (١٩٥٥-) الجزائرية الأصل بطلة « الملكة مارجو » و « كمي كلوديل » ، و « نيكول كيدمان » (١٩٦٧-) بطلة « عينان مغلقتان باتساع » . ومن المخرجات برزت النيوزيلندية « چين كامبيون » (١٩٥٥-) مخرجة فيلم « بيانو » .

وتألق في العالم العربي عديد من الفنانات ، بدءا من « عزيزة أمير » - واسمها الحقيقي « مفيدة محمد غنيم » - (١٧ من ديسمبر ١٩٠١-١٩٥٢) التي أنتجت ومثلت الفيلم المصري الرائد « ليلى » في ١٩٢٧ ، و « فاطمة رشدي » (١٩٠٩-١٩٩٧) ، و « بهيجة حافظ » (١٤ من أغسطس ١٩٠٨-١٣ من سبتمبر ١٩٨٣) ، و « ماري

منيب » (١١ من فبراير ١٩٠٥-١٢ من يناير ١٩٦٩) ، و « زينات صدقي » - اسمها الحقيقي « زينب محمد مسعد » - (١٩١٣-٢ من مارس ١٩٧٨) ، و « سناء جميل » - اسمها الحقيقي « ثريا يوسف عطا الله » - (١٩٣٠-) ، و « أمينة رزق » (أبريل ١٩١٠-) ، ووصولا إلى سيدة الشاشة العربية « فاتن حمامة » (٧ من مايو ١٩٣١-)، والسندريلا « سعاد حسني » (٢٦ من يناير ١٩٤٢-٢١ من يونيو ٢٠٠١) التي انتهت حياتها في حادث مأساوي في أثناء رحلة علاجها في العاصمة البريطانية لندن ، و « شادية » - اسمها الحقيقي « فاطمة أحمد كمال شاكر » - (٨ من فبراير ١٩٢٩-) ، و « نادية لطفي » - اسمها الحقيقي « بولا شفيق » - (١٩٣٨-) ، و « ماجدة » - اسمها الحقيقي « عفاف علي كامل الصباحي » - (٦ من مايو ١٩٣١-) ، واللبنانية « نضال الأشقر » (٤ من سبتمبر ١٩٤١-) .

ومن أبرز نجمات التليفزيون الممثلة الكوميدية الأمريكية « لوسيل بول » (٦ من أغسطس ١٩١١-٢٦ من أبريل ١٩٨٩) بطلة « أنا أحب لوسي » ، ومقدمة البرامج الشهيرة « أوبراه وينفري » (٢٩ من يناير ١٩٥٤-) صاحبة برنامج «استعراض أوبراه وينفري» الذي بدأ بثه في أنحاء الولايات المتحدة منذ ١٩٨٦ .

الراقصة الأمريكية « مارثا جرام » (١١ من مايو ١٨٩٤-١ من أبريل ١٩٩١) هي أشهر راقصات القرن ، وقد أنشأت مدرسة للرقص الحديث بكلّية بيننجتن في ١٩٣٥ ، وشاركت في تقديم رقصات « ربيع أبالاشي » (١٩٤٤) .

وفي الغناء برزت في هذا القرن الفرنسية « إديث بياف » (١٩١٥-١٩٦٣) ، والأمريكية من أصل يوناني « ماريا كالاس » (١٩٢٣-١٩٧٧) ، والمصرية « أم كلثوم » (٣٠ من ديسمبر ١٨٩٨-١٩٧٥) ذات الصوت القوي الساحر الذي اتفقت عليه الآذان والقلوب العربية ، وكذلك « ليلى مراد » (١٩١٨- ١٩٩٥) ، واللبنانيتان : « أسمهان» صاحبة الصوت والحضور الفريدين ، و « فيروز » (٢١ من نوفمبر ١٩٣٥-) جارة القمر التي حملت لدى ولادتها اسم « نهاد حداد » ، و « ميريام ماكيبا » التي عرفت خلال عقد الستينيات كيف تربط الفن بالعمل النضالي ، وكيف تسخّر الأغنية والنجاح من أجل مستقبل أفضل لقارتها الإفريقية .

وإلى جانب الأسماء السابقة ؛ استمتع العالم بأصوات رائعة مثل الفرنسية «ميراي ماتيو» ، واليونانية «نانا موسكوري» (٦٥ سنة) ، والأمريكية« بربارا سترايسند» (١٩٤٢-) ، والكندية «سيلين ديون» (٣٠ من مارس ١٩٦٨-) التي أدت أغنيات فيلم «تيتانيك» ، والأمريكية السمراء «بيلي هوليداي» (١٩١٥-١٩٥٩) أول امرأة من السود الأمريكيين تنضم إلى فرقة من ذوي البشرة البيضاء ، وذلك في ١٩٣٥ . وعلى الرغم من أنه من الصعب مقارنتها بـ« إيلا فيتزجرالد» أو «ماهاليا چاكسون» ، فإن «هوليداي» كانت السوداء المعذبة ، رمزا لجيل بأسره من الزنوج . من هنا كان غناؤها مفعما بالحنان و الألم . حتى «مادونا» (١٩٥٨-) بأدائها الغنائي المثير للجدل وأفلامها مثل «إيڤيتا» ، والأسترالية «كيلي مينوچ» ، و «مارياه كاري» (٢٧ من مارس ١٩٧٠-) ، وفتيات فريق "سبايس جيرلز" البريطاني نجمات عقد التسعينيات ، لمعن في القرن العشرين بفضل الأرقام القياسية لمبيعات أغنياتهن .

وبرزت في عالم الأدب كاتبات بارعات مثل : «نادين جورديمر» من جنوب إفريقيا - المولودة في ٢ من نوفمبر ١٩٢٣ ، مؤلفة «ابنة بيرجر» و« مناسبة للحب» و «ضيف شرف» - و «فرانسواز ساجان» من فرنسا - المولودة في ١٩٣٥ ، والتي فجرت العواطف على الورق منذ مطلع الخمسينيات - والكاتبة البوليسية الإنجليزية « أجاثا كريستي» (١٨٩٠-١٩٧٦) مؤلفة «جريمة قتل روجر أكرويد» و «جريمة قتل في قطار الشرق السريع» و «موت على النيل» ، والروائية الفرنسية «مارجريت يورسنار» التي كانت أول سيدة تنضم إلى الأكاديمية الفرنسية في ١٩٨٠ ، والأمريكية «توني موريسون» مؤلفة «محبوبة» و «أنشودة سليمان» .

ومن العالم العربي تبرز أسماء عديد من الكاتبات ، مثل : «عائشة التيمورية» (١٨٤٠-١٩٠٢) ، «مي زيادة» (١٨٨٦-١٩٤١) ، الرائدة المجهولة «زينب فواز» (١٨٦٠-١٩١٤) ، «وردة اليازجي» (١٨٣٨-١٩٢٤) ، باحثة البادية «ملك حفني ناصف» (٢٥ من ديسمبر ١٨٨٦- ١٩١٨)، «د. عائشة عبدالرحمن - بنت الشاطئ» (٦ من نوفمبر ١٩١٢ - أول ديسمبر ١٩٩٨) ، «د. لطيفة الزيات» (١٩٢٣-١٩٩٦)، «د. سهير القلماوي» (١٩١١-١٩٩٧) أول مصرية تنال درجة الدكتوراه ، «أمينة السعيد» (١٩١٠-١٩٩٥) أول طالبة في الجامعة المصرية ، «عزيزة

حسين » (١٩٢٠-) أول سيدة تمثل مصر في الأمم المتحدة ، وكانت من أبرز الشخصيات في الحركة النسائية في مصر ، الدكتورة « نوال السعداوي » (٢٧ من أكتوبر ١٩٣١-) ، « د. رضوى عاشور » (١٩٤٦-) ، « سلوى بكر » (١٩٤٩-) ، « هدى بركات » (١٩٥٢-) مؤلفة « حجر الضحك » و « أهل الهوى » ، « غادة السمان » (١٥ من نوفمبر ١٩٤٢-) كاتبة « ليل الغرباء » و « لا بحر في بيروت » ، « أحلام مستغانمي » (١٩٥٣-) مؤلفة « ذاكرة الجسد » ، « ليلى العثمان » (١٩٤٣-)، « آسيا جبار » (٤ من أغسطس ١٩٣٦-) مؤلفة « أطفال عالم جديد » ، «سحر خليفة» (١٩٤١-) ، « سلمى الحفار الكزبري » (١٩٢٢-) ، إضافة إلى الشاعرات « فدوى طوقان » (١٩١٧-) ، « نازك الملائكة » (١٩٢٣-) ، « د. سلمى الخضراء الجيوسي » ، و « د. سعاد الصباح » (مايو ١٩٤٢-) .

لكن يبقى دور «سيمون دي بوفوار» غير منكر بكتابها « الجنس الآخر » (١٩٤٩)، الذي يعد ثورة في عالم المرأة. فلئن كانت المرأة / النجمة قبل ذلك تعرف بغموضها في نظر الرجل (مارلين ديتريتش وجريتا جاربو) أو بإنتاجها في سياق أو إطار ذكوري (أجاثا كريستي وليني ريفنشتال) أو انطلاقا من علاقتها ، حتى ولو كانت مستقلة فنيا ، بالرجل (الرسامة التشكيلية المكسيكية « فريدا كالو » (١٩٠٧-١٩٥٤) تعرف أولا بكونها زوجة الرسام « دييجو ريفيرا » ، وعشيقة « تروتسكي » لبعض الوقت ، والتي نسي الكثيرون ما قاله الفنان السوريالي « أندريه بريتون » في ١٩٣٨ بأن لوحاتها الغرائبية الحزينة « تشبه شريطا يلتف حول قنبلة ») ، فإنها منذ ظهور « الجنس الآخر » أصبحت تعرف بذاتها (مارلين مونرو ، فرانسواز ساجان ، وبريچيت باردو في الغرب ، أو فاتن حمامة في العالم العربي) وأحيانا بمدى قدرتها على التمرد على وضعها الاجتماعي.

وحين بلغت اليابانية « چونكو تابير» قمة جبل إفرست في ١٩٧٥ مسجلة اسمها كأول سيدة تحقق هذا الإنجاز ، أسهمت في تقويض مقولة إن المرأة لا تصلح إلا لدور الحبيبة .

وفي الرياضة ، برزت بطلات عالميات خلال القرن الحالي ؛ مثل نجمة الجمباز الرومانية « ناديا كومانتشي » (١٩٦١-) التي أذهلت الجميع بأدائها الرفيع وحصولها على الدرجات الكاملة سبع مرات في مسابقات الجمباز ، وفوزها بثلاث ذهبيات في أوليمبياد مونتريال سنة ١٩٧٦ .

وفي مونديال ميونيخ ١٩٧٢ تألقت لاعبة الجمباز السوفيتية « أولجا كوربوت » (١٩٥٥-) وحصدت ثلاث ميداليات ذهبية ، وقبلها جمعت مواطنتها « لاريسا لاتينينا » ١٨ ميدالية أوليمبية كانت آخرها في طوكيو ١٩٦٤ ، وذلك في مقابل ١١ ميدالية حصدتها التشيكية « فيراتشا كاسالافسكا » عبر ثلاث دورات أوليمبية . وفي أوليمبياد لوس أنجلوس ١٩٨٤ حصدت الرومانية « إيكاترينا تشابو » أربع ذهبيات وفضية في مسابقات الجمباز . أما العداءة « چاكي جريفيث-چوينر » (١٩٥٩-١٩٩٨) فتعد أسطورة في عالم العدو وألعاب القوى ، وما زالت أرقامها القياسية تمثل لغزا للكثيرين .

العداءة الهولندية « فاني بلانكرز-كوين » (١٩١٨-) كانت نجمة أوليمبياد لندن ١٩٤٨ بفضل ذهبياتها الأربع ؛ حتى أطلق عليها « ربة البيت الطائرة » ، لأنها اشتاقت إلى أسرتها فتركت الأوليمبياد عائدة إلى بلادها !

وجمعت الأسترالية « بيتي كوثبيرت » أربع ذهبيات أوليمبية في أربعة سباقات مختلفة للعدو خلال دورتي هلسنكي ١٩٥٦ وطوكيو ١٩٦٤ ، في حين حصدت مواطنتها « شيرلي دي لا هنتي » ثلاث ذهبيات وفضية وثلاث برونزيات خلال دورات ١٩٤٨ ، ١٩٥٢ ، و١٩٥٦ .

البولندية « إيرينا شيفنسكا » هي البطلة الوحيدة التي حصدت ميداليات في أربع دورات أوليمبية متتالية ، حيث نالت ثلاث ذهبيات وفضيتين وبرونزيتين خلال دورات ١٩٦٤ ، ١٩٦٨ ، ١٩٧٢ ، و١٩٧٦ .

الجامايكية « ميرلين أوتي » حققت إنجازا مقاربا ، حيث فازت بفضيتين وخمس برونزيات خلال دورات ١٩٨٠ ، ١٩٨٤ ، ١٩٩٢ ، و١٩٩٦ . كما جمعت « أوتي » ثلاث ذهبيات وأربع فضيات وسبع برونزيات في بطولات العالم لألعاب القوى خلال

الفترة بين عامي ١٩٨٣-١٩٩٧ . أما العداءة « ماريا موتولا » فقد منحت موزمبيق أول ذهبية أوليمبية في تاريخها حين توجت بطلة لسباق ٨٠٠ متر في سيدني ٢٠٠٠ ، وكانت قد نالت برونزية أوليمبياد أطلانطا ١٩٩٦ ، كما أحرزت بطولة العالم في ١٩٩٣ ، وحملت منذ ١٩٩٥ الرقم القياسي العالمي لسباق ١٠٠٠ متر ومقداره ٢,٢٩,٣٤ دقيقة .

وفي ألعاب القوى برزت أيضا الأمريكيتان : « چاكي چوينر-كيرسي » (١٩٦٢-) الحائزة على أربع ذهبيات في بطولات العالم لألعاب القوى خلال الفترة بين عامي ١٩٨٧- ١٩٩٣ ، ونجمة أواخر عقد التسعينيات « جيل ديفرز » (١٩ من نوفمبر ١٩٦٦-) وقد حصدت أربع ذهبيات أوليمبية في برشلونة ١٩٩٢ وأطلانطا ١٩٩٦ في سباقي ١٠٠ متر وفي سباقي ٤ في ١٠٠ متر تتابع ، كما كانت نتائجها في بطولة العالم : ثانية في ١٠٠ متر حواجز في ١٩٩١ ، أولى في ١٠٠ متر حواجز و١٠٠ متر ، وثانية في التتابع ، ورابعة في ١٠٠ متر في ١٩٩٧ ، وأولى في ١٠٠ متر حواجز في ١٩٩٩ .

ومن النجمات العربيات : المغربية « نوال المتوكل » (١٩٦٢-) التي نالت ذهبية سباق ٤٠٠ متر في دورة ألعاب البحر المتوسط في ١٩٨٢ ، لتكون بذلك أول عربية تفوز بهذه الميدالية في تاريخ دورات البحر المتوسط ، ثم فازت بالسباق نفسه في فرنسا سنة ١٩٨٣ ، وحطمت الرقم القياسي الإفريقي لهذا السباق ، قبل أن تفوز بأربع ميداليات ذهبية في أوليمبياد لوس أنجلوس في ١٩٨٤ وتحطم الرقم القياسي الأوليمبي ، ولتصبح أول سيدة عربية وإفريقية تحقق هذا الإنجاز في تاريخ دورات الألعاب الأوليمبية . وفي ١٩٩٧ عينت « نوال المتوكل » وزيرة للرياضة وشئون الشباب في المغرب ، وهي أول سيدة عربية تتقلد هذا المنصب .

كما تبرز كل من العداءة الجزائرية « حسيبة بولمرقة » صاحبة ذهبية سباق ١٥٠٠ في أوليمبياد برشلونة ١٩٩٢ ، ومواطنتها « نورية بنت عيدة مراح » التي حصدت ذهبية سباق ١٥٠٠ متر في سيدني ٢٠٠٠ ، والسورية « غادة شعاع » صاحبة الميدالية الذهبية في السباعي خلال أوليمبياد أطلانطا ١٩٩٦ .

كما تألقت السباحة المصرية « رانيا علواني » أو « سمكة النيل الذهبية » التي حققت في ٢٦ من يوليو ١٩٩٩ رقما قياسيا عربيا في الدورات الرياضية العربية بحصدها تسع ميداليات ذهبية وفضيتين. وحصدت كذلك تسع ذهبيات وثلاث فضيات وبرونزية واحدة في بطولة إفريقيا للناشئين التي أقيمت بمصر في ١٩٩١ ، كما حصدت ذهبية وفضيتين وبرونزية في بطولة العالم للأحواض الصغيرة (٢٥ مترا). وفي بطولة إفريقيا التي أقيمت بزيمبابوي في ١٩٩٥ ، نالت ثلاث ذهبيات وثلاث فضيات وبرونزيتين ، كما نالت ذهبيتين وفضية في دورة ألعاب البحر المتوسط التي أقيمت في باري في يونيو ١٩٩٩ . أما السباحة التونسية « فاتن غطاس » فقد حصدت ثماني ذهبيات في الدورة الرياضية العربية السابعة ، التي أقيمت في مدينة اللاذقية السورية في ١٩٩٢ .

هناك أيضا لاعبات التنس : الألمانية « شتيفي جراف » ، والسويسرية « مارتينا هينجيس » ، والأمريكية من أصل تشيكي « مارتينا نافراتيلوفا » ذات العضلات النافرة، والأمريكية « كريس إيفرت » ، والفرنسية « سوزان لنجلن» نجمة عقد العشرينيات .

وعلى عرش الجمال برزت ملكة الأناقة « جابرييل - كوكو - شانيل » (١٨٨٣-١٩٧١) التي تركت بصمتها على أزياء المرأة الحديثة وابتكرت الجديد من الملابس والعطور والإكسسوارات ، قبل أن تظهر عارضات أزياء شهيرات مثل الألمانية « كلوديا شيفر » ، والأمريكية « سيندي كروفورد » ، وكذلك « كريستي برنكلي » ، و « إيل ماكفرسون » ، و « لورا بيلي » ، والصومالية « إيمان » ، والأمريكية السمراء « ناعومي كامبل » ، وغيرهن ممن تألقن في عالم الأزياء والجمال خلال القرن العشرين .

* * *

هؤلاء الذين أصابوا العالم بالدهشة ، والانبهار ، وربما الغضب . . شكلوا وجداننا وأثروا في عقولنا ، غيروا مسار حياتنا من خلال قرارات اتخذوها ، وتصرفات سلكوها ، ومآس عاشوها ، وأحيانا انتصارات حققوها .

إنهم رموز القرن العشرين . . الأبطال والأشرار على حد سواء ، الذين كان لهم دور وبصمة في الأحداث التي شهدتها السنوات المائة الأخيرة .

بعضهم قاد ثورات مثل « تشي جيفارا » ، البعض الآخر تحول إلى رمز للإغراء والإغواء مثل « مارلين مونرو » ، أو نجم

2

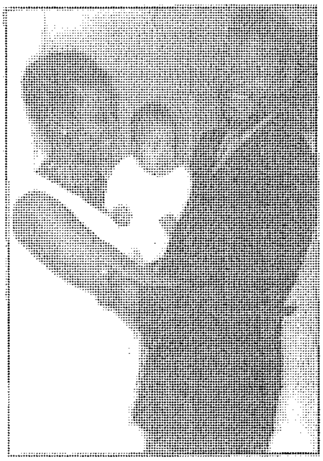
أبطال .. وأشرار



رادوفان كاراجيتش وسلوبودان ميلوسيفيتش



الأمير ناروهيتو ولي عهد اليابان مع قرينته الأميرة ماساكو



نلسون مانديلا مع زوجته السابقة
ويني وابنتهما زندزي في ١٩٦١



چاكلين كنيدي



أدولف هتلر

يتمتع بموهبة فذة مثل « بيليه » و « محمد علي كلاي » و « إلفيس بريسلي » ، أو عائلة تطاردها المآسي والأحزان مثل عائلة «كيندي» ، أو دكتاتور يرمز إلى الشر مثل « أدولف هتلر » و « بنيتو موسوليني » و « سلوبودان ميلوسيفيتش » .

عائلة « كيندي » - على سبيل المثال لا الحصر - تمزج بين النصر السياسي والمآسي الإنسانية ، إذ إن هذه العائلة الأمريكية الشهيرة لها تاريخ عريق في السياسة الأمريكية ، ومن هذه العائلة خرج « چون إف . كيندي » أحد الأحفاد الـ ٢٩ لـ « چوزيف » و « روز كيندي» ليصبح رئيسا للولايات المتحدة في١٩٦١ ، قبل أن يتعرض للاغتيال بالرصاص في دالاس في ١٩٦٣ وإلى جواره « چاكلين بوفييه كيندي » . كذلك أطلق الأردني من أصل فلسطيني « سرحان بشارة سرحان » النار على « روبرت كيندي » في ٨ من يونيو ١٩٦٨ ليلفظ « كيندي » آخر أنفاسه في اليوم التالي . وفي ١٩٩٤ توفيت « چاكلين كيندي » ، في حين لقي « چون كيندي » الابن مصرعه في حادث طائرة مع زوجته « كارولين » وشقيقتها في يوليو ١٩٩٩ .

ارتبط التاريخ السياسي لعائلة « كيندي » بعدة أحداث مهمة ، مثل أزمة خليج الخنازير بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي السابق ، وعلاقة الشقيقين « چون » و « روبرت » بنجمة الإغراء « مارلين مونرو » .

كذلك يبرز اسم عائلة « نهرو » التي قادها « جواهرلال نهرو » شريك الكفاح مع « المهاتما غاندي » من أجل استقلال الهند ، خلال عقدي الثلاثينيات والأربعينيات .

وفي سنة ١٩٤٧ ؛ أصبح « نهرو » - الذي تلقى تعليمه في كامبريدچ في بريطانيا - أول رئيس وزراء للهند عقب الاستقلال ، وقد اهتم بتعزيز الديمقراطية داخليا ، وانتهج سياسة الحياد الإيجابي خارجيا ، وأعيد انتخابه في المنصب ثلاث مرات قبل وفاته في ١٩٦٤ . وبعدها بسنتين فقط اختيرت ابنته « أنديرا غاندي » رئيسة للوزراء .

وفي ١٩٨٠ لقي ابنها « سانجاي » مصرعه في حادث تحطم طائرة ، ليصعد نجم شقيقه « راچيف » . وبعد اغتيال « أنديرا » في ١٩٨٤ - على يد أحد حراسها - أصبح « راچيف » رئيسا للوزراء . وبعد استقالة حزب المؤتمر الهندي استقال « راچيف » من

المنصب في ١٩٨٩ ، لكنه عاد في ١٩٩١ عقب فوزه في الانتخابات العامة ، إلى أن اغتيل في هجوم انتحاري من جانب أحد عناصر التاميل في ٢١ من مايو من السنة نفسها ، خلال إحدى حملاته الانتخابية .

لم تنته أسطورة عائلة « نهرو » بعد ذلك ، فقد واصلت أرملة « راجيف » -الإيطالية المولد- « سونيا » المسيرة ، وقادت حزب المؤتمر سياسيا في آخر الانتخابات العامة التي شهدتها الهند خلال القرن العشرين .

ومن أبرز العروش الأخرى التي كان لها دور خلال القرن العشرين ، العائلة المالكة في بريطانيا التي تقودها الملكة « إليزابيث الثانية » منذ بضعة عقود ، وكذلك العائلة المالكة في موناكو التي يتزعمها الأمير « رينيه » . وربما تكون موناكو إحدى أصغر دول العالم من حيث المساحة ، غير أن هذه العائلة تعد مادة دسمة للصحف والحكايات المختلفة، بدءا من أميرة موناكو الراحلة « جريس كيلي » التي لقيت مصرعها في حادث سيارة في ١٩٨٢ ، والأميرة « كارولين » التى تزوجت في ١٩٩٨ بأمير هانوفر ، في حين تزوجت وانفصلت شقيقتها « ستيفاني » أكثر من مرة ؛ كان آخرها من حارسها الشخصي «دانيال دوكرويه» . ويبقى الشقيق «ألبير» ، الذي ما يزال مضربا عن الزواج ، وإذا لم يحدث ذلك فمن المحتمل أن تفرض فرنسا سيطرتها على الإمارة لاحقا .

وفي اليابان ، فإن ولي العهد « ناروهيتو » (٢٣ من فبراير ١٩٦٠-) ، والذي أصبح وريثا للعرش في ٧ من يناير ١٩٩٠ ، وزوجته « ماساكو أوادا » (٩ من ديسمبر ١٩٦٣-) الموظفة بوزارة الخارجية سابقا ، ينتظران الدور لتولي السلطة ، في حين تولى الإمبراطور « أكيهيتو » الحكم بعد وفاة والده الإمبراطور « هيروهيتو » في يناير ١٩٨٩ .

وكانت إيران في سنة ١٩٧١ قد احتفلت بتولي شاه إيران « رضا بهلوي » عرش الطاووس ، وقد كان حاكما لإيران قبل ذلك بفترة طويلة . لكن عائلة « بهلوي » سقطت في إيران عقب اندلاع الثورة الإيرانية في ١٩٧٩ بقيادة « الخميني » ، لتعيش أرملة الشاه « فرح ديبا » - وكانت زوجته الثالثة - وأبناؤهما الأربعة في المنفى .

ولم يكن « خوان كارلوس » مرشحا لأن يصبح عاهلا لإسبانيا يوما ما ، نظرا لأن فرع عائلته من سلالة البوربون كان فقيرا ويعيش في روما ، ولكن نظرا لإصابة الفرع المرشح لذلك بمرض « الهيموفيليا » نقلا عن ملكة بريطانيا « فيكتوريا » ، فقد وصل « كارلوس » إلى عرش إسبانيا عقب رحيل دكتاتور إسبانيا « فرانسيسكو فرانكو » .

« كارلوس » تزوج في ١٩٦٢ رفيقة عمره « صوفيا » . وهو قائد الإصلاحات في إسبانيا الذي استعان بالجيش في ١٩٨١ للتصدي لمجموعة انقلابية .

ومثل الفرع الإسباني من عائلة البوربون ، فإن « آل رومانوف » قياصرة روسيا كانوا مصابين بجين "الهيموفيليا" أو "رعاف الدم" نقلا عن الملكة « فيكتوريا » . ووقعت زوجة القيصر « ألكسندرا » في قبضة الراهب الروسي « جريجوري إيفيموفيتش راسبوتين » (١٨٧١- ١٩١٦) الذي تدخل في علاج ابنها ولي العهد المصاب بالمرض باستخدام القوة الروحية مثلما تدخل في شئون الدولة ، في حين كان القيصر « نيقولا » ضعيف الشخصية . وبعد عدة محاولات فاشلة بالسم والرصاص ، تمكنت مجموعة من النبلاء بقيادة الأمير الروسي « ألكسندر يوزبوف » من اغتيال « راسبوتين » في بيتروجراد (الاسم الجديد لمدينة سانت بطرسبرج) ورميه في نهر نيفا في ٣١ من ديسمبر ١٩١٦ . وكان المصير المحتوم لهذه العائلة هو الانهيار بعد أن وقعت الثورة البلشفية ، وتم ذبح عائلة « رومانوف » في قبو أحد المنازل في يوليو ١٩١٨ ، على الرغم من ادعاء امرأة « زيفا » - كما اتضح لاحقا بعد تحليل أنسجتها وجيناتها الوراثية- أنها « أناستاسيا » الابنة الناجية من المذبحة المروعة للعائلة الحاكمة في روسيا سابقا .

خصام المعسكرين

« الحرب الباردة » هو المصطلح الذي صيغ لوصف العداء بين الأنظمة الشيوعية في الشرق بقيادة الاتحاد السوفيتي ، والغرب الرأسمالي برئاسة الولايات المتحدة الأمريكية . وقد سادت الحرب الباردة السياسات الدولية لأكثر من ٤٠ سنة ، أي منذ نهاية الحرب العالمية الثانية حتى انهيار الشيوعية في أوروبا في سنتي ١٩٨٩-١٩٩٠ .

وقد سميت الحرب الباردة لأنها لم تصل إلى حد الصراع المباشر بين القوتين العظميين أو حلفائهما الأوروبيين . وفي ١٧ من فبراير ١٩٤٨ بثت إذاعة صوت أمريكا بالروسية برامج موجهة إلى الاتحاد السوفيتي ، في حين أصدر الرئيس الأمريكي « هاري ترومان» (٨ من مايو ١٨٨٤ - ديسمبر ١٩٧٢) في ١٣ من مارس من السنة نفسها « مبدأ ترومان» عقب غزو السوفيت لليونان وتركيا ، وكان يهدف وقف المد الشيوعي . وقد نشبت عدة حروب إقليمية من شبه الجزيرة الكورية إلى فيتنام وأفغانستان ، حيث قدمت القوتان العظميان وحلفاؤهما المساعدة للفصائل المحلية المتناحرة . ودخلت القوات الأمريكية الصراع مباشرة في كوريا وفيتنام .

وتدخلت القوات السوفيتية في أفغانستان في نهاية السبعينيات ، كما تدخلت في المجر وتشيكوسلوفاكيا لقمع انتفاضات معادية في الخمسينيات والستينيات . ولكن القوتين العظميين كانتا تبدوان غير راغبتين في المخاطرة بصراع مباشر ، خشية أن يمتد خارج المنطقة ويكون بداية حرب عالمية ثالثة .

كان الروس حلفاء للغرب ضد ألمانيا النازية بقيادة « هتلر » خلال الحرب العالمية الثانية ، إلا أن التحالف انهار بسرعة بعد ذلك ، واتهم كلٌّ من الجانبين الآخر بانتهاج سياسة توسعية . واعتبر الأمريكيون وحلفاؤهم إقامة الأنظمة الشيوعية في أوروبا الشرقية عملا عدائيا من جانب الروس ، وكانوا معتقدين أن الروس يريدون السيطرة على أوروبا - وربما آسيا كذلك - بعد أن أصبحت الصين شيوعية في ١٩٤٩ . لكن موسكو كانت تقول إن نشر الشيوعية في أوروبا الشرقية مجرد إجراء دفاعي؛ بهدف الحيلولة دون وقوع غزو ألماني آخر لروسيا . وكان الروس يخشون أن ثروة الولايات المتحدة وقوتها وأيديولوجيتها المناهضة للشيوعية قد تدفع بواشنطن إلى مهاجمة الكتلة الشيوعية . وفي الواقع لم تكن أيٌّ من القوتين العظميين ترغب في السيطرة على العالم بقدر ما كان كل منهما يخشى أن تفعل الأخرى ذلك .

وأُرْسيَ خط تقسيم بين الشرق والغرب عبر وسط أوروبا ، عرف بالستار الحديدي ، وقُسِّمَتْ ألمانيا عقب هزيمتها في الحرب العالمية الثانية في سنة ١٩٤٥ إلى

شطرين ، غير أن ألمانيا توحدت في أكتوبر ١٩٩٣ مرة أخرى تحت قيادة المستشار السابق « هلموت كول » .

وفي ظل الحرب الباردة ؛ تشكل تحالفان عسكريان متعارضان هما (حلف وارسو) و (حلف شمال الأطلنطي) ، ولكن الحلف الأول انهار بعد تفكك الاتحاد السوفيتي في ١٩٩١ ، في حين يحاول حلف شمال الأطلنطي « الناتو » إيجاد دور جديد له ، ليكون فيه مكان للكثير من الدول الشيوعية السابقة في أوروبا الشرقية، وذلك بعد توسيع الحلف ومشاركته في قصف أهدافٍ يوجوسلافية لإجبار نظام « سلوبودان ميلوسيفيتش » على الالتزام باتفاق « رامبوييه » بشأن الوضع في كوسوفا .

وإذا كانت ألمانيا قد توحدت مرة أخرى في أكتوبر ١٩٩٣ ، فإن هونج كونج قد عادت إلى أحضان الصين في نهاية يونيو ١٩٩٧ بعد ١٥٦ سنة من حكم الإمبراطورية البريطانية التي تساقط أجرامها واحدا بعد الآخر إثر نهاية الحرب العالمية الثانية ، وتمثل هونج كونج آخر هذه الأجرام . ويكفي أن نشير إلى مشاعر الحزن التي غلبت ولي العهد البريطاني الأمير« تشارلز » خلال مشاركته في مراسم تسليم الجزيرة -رسميا- إلى السيادة الصينية . وتتطلع الصين الآن إلى استعادة تايوان وسط توتر عسكري بين الجانبين خلال عقد التسعينيات ، بعد أن استعادت مكاو في ديسمبر ١٩٩٩ .

مناهضات عنصرية

في ١٩٠٣ ، توقع الكاتب الأمريكي الأسود « وليام إدوارد بيرجهارت دو بوا » (١٨٦٨-١٩٦٣) أن تصبح « قضية اللون مشكلة القرن العشرين » . ولقد ثبتت صحة هذا الرأي ، حيث اعتبرت قضية الفصل العنصري من القضايا المهمة التى شهدها العالم خلال القرن ، بدءا من الولايات المتحدة ووصولا إلى جنوب إفريقيا ، التي كافح فيها « نلسون مانديلا » لـ ٢٧ سنة خلف القضبان حتى أطلق سراحه في ١١ من فبراير ١٩٩٠ ؛ ليقود بلاده نحو إلغاء الفصل العنصري (وهو ما أقره البِيض في استفتاء أُجري في ١٧ من مارس ١٩٩٢) ويتولى رئاسة جنوب إفريقيا ، حتى تقاعد في

منتصف سنة ١٩٩٩ وهو في سن الثمانين ، بعد أن خرجت بلاده من النظام العنصري البغيض ، الذي أسسه رسميا الحزب الوطني بقيادة « دانيال مالان » في ١٩٤٨ . وكانت سنة ١٩٤٩ قد شهدت منع التزاوج بين البيض و السود ، ثم اعتمد قانون تقسيم البلاد وفق قاعدة عرقية (بيض وسود ومُولَّدُون وهنود) في ١٩٥٠ . بعدها بثلاث سنوات (١٩٥٣) صدر قانون يحرم على السود ارتياد الأماكن العامة .

أمّا المذبحة العنصرية التي ارتكبها الجيش العنصري في سويتو وذهب ضحيتها ٦٠٠ طالب أسود في ١٩٧٦ ، وتلك التي ارتكبها رجال الشرطة البيض في شاربفيل في مطلع الستينيات وراح ضحيتها ٦٩ رجلا أسود قتلوا بالرصاص ، فستظلان دوما ماثلتين في أذهان مناهضي العنصرية في كل مكان .

أما في الولايات المتحدة ؛ فقد نشطت حركة إلغاء التفرقة العنصرية بين البيض والسود منذ مطلع القرن الماضي ، ولعل أبرز نماذج حركة المساواة بين البيض والسود « روز لويس ماكولي » المشهورة باسم « روزا باركس » ، و « مارتن لوثر كنج » ، إضافة إلى قائمة طويلة تضم الزعيم الأمريكى المسلم « مالكوم إكس » (١٩٢٦-١٩٦٥) والكاتب السياسي الفرنسي « فرانز فانون » (١٩٢٥-١٩٦١) .

فأما « روزا باركس » المولودة في ٤ من فبراير ١٩١٣ في ألاباما ؛ فقد نشطت في مجال إلغاء التفرقة العنصرية خلال الخمسينيات ، حتى إنها كانت أول من رفض من السود ترك مقعده (إذ كان ممنوعا عليهم الجلوس في الحافلات العامة إلا في المقاعد الخلفية!) ، وهو ما كان معمولا به آنذاك وفق « قانون چيم كراد » العنصري ، فألقي القبض عليها ، وأدى ذلك إلى مقاطعة الأمريكيين السود الحافلات العامة تحت قيادة «مارتن لوثر كنج » . وفي ديسمبر ١٩٥٦ انتهت هذه المقاطعة ، بعد صدور قرار من المحكمة العليا الأمريكية بعدم دستورية التفرقة العنصرية في الحافلات والأماكن العامة. وبعد إزالة آثار هذه التفرقة في الولايات المتحدة ، نالت « روزا باركس » في ١٩٩٦ تكريما رسميا تمثل في الميدالية الرئاسية للحرية ، والميدالية الذهبية من الكونجرس .

أما «مارتن لوثر كنج» (١٥ من يناير ١٩٢٥ - ١٤من إبريل ١٩٦٨)، فقد اكتسب شهرته لأنه قاد الأمريكيين السود في الولايات المتحدة لنيل حقوقهم المدنية والسياسية في الفترة من ١٩٥٥ وحتى تاريخ اغتياله في أحد فنادق ممفيس في ١٩٦٨ . كان «كنج» قسا معمدانيا ، انتهج أسلوب النضال السلمي الذي ابتدعه « المهاتما غاندي » في الهند من قبل ، وقامت فكرته على حشد الجماهير واستخدام أسلوب العصيان المدني .

استطاع « مارتن لوثر كنج » عن طريق قدراته الخطابية والبلاغية الفذة -بل وجسارته أيضا- أن يستقطب الملايين من السود للمطالبة بحقوقهم المدنية ، وهي الحقوق التي حرموا منها على نطاق واسع في الولايات الجنوبية من البلاد . ولم يقتصر الإعجاب بـ « مارتن لوثر كنج » على السود وحدهم ، فقد كان أيضا محط إعجاب الكثيرين من البيض ، وهو ما جعل الرئيسين « چون كيندى » و « ليندون چونسون » وغالبية أعضاء الكونجرس يتبنون حركته بهدف إكساب السود حقوقهم المدنية .

وعندما اندلعت ثورة احتجاج على عدم استخدام السود للمرافق العامة ، مثل : الفنادق والمطاعم والشواطئ والحافلات العامة ودورات المياه أسوةً بالمواطنين البيض ، قاد « مارتن لوثر كنج » الحركة التي نجحت في تأكيد دوره كزعيم للأمريكيين السود ، وكان لا يزال في العشرينيات من العمر !

وخلال الإحدى عشرة سنة التالية ، قاد هذا الرجل عددا كبيرا من المظاهرات وحركات الاعتصام والمسيرات في جميع أنحاء الولايات المتحدة ، وكانت مقاومة الحركة من جانب البوليس ومسئولي الولايات المتحدة تتسم أحيانا بالعنف ، إلا أن « مارتن لوثر كنج » ورفاقه واصلوا طريق الكفاح .

وقد تم الاعتراف دوليا بقيادة « مارتن لوثر كنج » عندما مُنِحَ جائزة نوبل للسلام في ١٩٦٤ ، وكان في الخامسة والثلاثين من العمر ، ليصبح أصغر من حصل على هذه الجائزة سنا .

اغتيل « مارتن لوثر كنج » - صاحب الجملة الشهيرة « إنَّ لَدَيَّ حلما » - في ممفيس بولاية تينيسي في ١٩٦٨ على يد رجل أبيض يدعى « جيمس إيرل راي » ،

وكما هو الشأن في اغتيال الرئيس « كينيدي » ، فقد استدعى اغتيال « كنج » الكثير من نظريات المؤامرة التي طال عددٌ منها بعضَ كبار المسئولين .

وتبقى إسرائيل نموذجا صارخا للنظام العنصري البشع ، إذ تعمد إسرائيل منذ نكبة إنشائها في ١٥ من مايو ١٩٤٨ إلى هضم حقوق المواطنين الفلسطينيين ، ومصادرة أراضيهم وممتلكاتهم ، وطردهم من منازلهم وتهجيرهم ، واقتيادهم إلى السجون ، وتهويد معالم المدن الفلسطينية والأماكن المقدسة ، وما إلى ذلك من ممارسات تعسفية متعنتة ، على الرغم من صدور عديد من القرارات الدولية في هذا الشأن ، من بينها القراران (٢٤٢) و (٣٣٨) ، بالإضافة إلى القرار (٤٢٥) ، الذي يدعو إلى انسحاب إسرائيلي فوري من الشريط الحدوديّ المحتل في جنوب لبنان ، وهو ما تم في مايو ٢٠٠٠ ، باستثناء مزارع شبعا التي يحتفظ بها الاحتلال الإسرائيلي .

جرائم الصهيونية . . تمتد قائمة أبطالها الأشرار من « ديفيد بن جوريون » (١٨٨٦-١٩٧٣) و « ليفي أشكول » و « أرييل شارون » (٧٢ سنة) و « رفائيل إيتان » (٧١ سنة) إلى « إسحق شامير » (٨٥ سنة) و « إسحق رابين » (١٩٢٢-١٩٩٥) و « موشي ديان » (١٩١٥-١٩٨١) و « مناحيم بيجن » (١٩١٣-١٩٩٢) و « شيمون بيريز » (٧٦ سنة) و « بنيامين نتانياهو » (٥١ سنة) و « إيهود باراك » . . وكلهم قتلة سفاحون من الدرجة الأولى .

وعلى الدوام احتفظ « شارون » لنفسه بأقوى مشاعر الكراهية من جانب العرب؛ بسبب الجرائم التي ارتكبها في حقهم - وخاصةً الفلسطينيين - خلال تاريخه العسكري الملطخ بدماء أطفال ونساء وشيوخ مخيميْ « صبرا » و « شاتيلا » في بيروت في ١٩٨٢ ، ومن قبلها مجازر « قبية » الواقعة على الخط الأخضر شمالي الضفة الغربية في مطلع الخمسينيات .

انضم « شارون » إلى عصابات الهاجاناه في ١٩٤٨ ، وكان قائد لواء مشاة في حرب احتلال فلسطين في ١٩٤٨ ، وعمل قائد لواء جولاني (١٩٤٩-١٩٥٠) ، ثم أصبح ضابط استخبارات في القيادتين الوسطى والشمالية (١٩٥١-١٩٥٢) ، ومؤسس وقائد الوحدة ١٠١ لمكافحة « الإرهاب » (١٩٥٣) ، وقائد القوات شبه

العسكرية التي شاركت في حرب السويس في ١٩٥٦ (١٩٥٤-١٩٥٧) ، وقائد لواءي المشاة والمدرع (١٩٥٨-١٩٦٢) ، ورئيس أركان قيادة الشمال (١٩٦٤-١٩٦٥) ، وقائد لواء المدرعات الذي شارك في حرب ٥ من يونيو واحتلال سيناء وغزة والضفة الغربية والجولان السوري (١٩٦٧) ، وقائد المنطقة الجنوبية - بما فيها جبهة السويس - خلال حرب الاستنزاف ، والهجمات الفدائية في قطاع غزة (١٩٦٩-١٩٧٣) . واستدعي « شارون » للخدمة بعد تقاعده ، في أعقاب نشوب حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، لقيادة اللواء المدرع ، وقيادة المجموعة التي فتحت ثغرة الدفرسوار على قناة السويس التي غيرت مجرى الحرب .

بعد اعتزاله العمل العسكري عقب حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، أصبح « شارون » نائبا في الكنيست منذ ١٩٧٤ حتى نهاية القرن العشرين ، كما شغل مناصب وزارية مختلفة ، أثبت من خلالها أن سموم التطرف والكراهية للعرب وحقوقهم العادلة تجري في شرايينه مجرى الدم .

ويقودنا الحديث عن التفرقة العنصرية إلى جرائم النازية والفاشية في الثلاثينيات والأربعينيات ، وكذلك جرائم العنصرية الصِّرْبية ، والصراع الطائفي في أيرلندا الشمالية بين البروتستانت والكاثوليك .

شهد القرن العشرون منذ بداياته عمليات تطهير واسعة . بدأ اليهود (الذين كانوا ضحايا التطهير العرقي في أوروبا شأنهم في ذلك شأن الغجروغيرهم) عمليةَ « تطهير » فلسطين لتحقيق توسعات وأطماع الحركة الصهيونية ، كما تطلع « هتلر » وزعماء الرايخ النازي إلى التخلص من اليهود والغجر واليوجوسلاف ، واستعادة الألمان المنحدرين من أصول ألمانية المقيمين في بقية القارة الأوروبية إلى وطنهم ، وأتوا بهؤلاء ليسكنوا أراضي أخليت من سكانها غير الألمان في بولندا .

وبحلول سنة ١٩٤٢ ؛ كان أكثر من ٧٠٠ ألف ألماني ، قد نقلوا من دول البلطيق وأوروبا الشرقية إلى أقاليم في بولندا أخليت من سكانها الأصليين . لذلك دفعت ألمانيا بمئات الألوف من الألمان إلى استيطان أقاليم أخرى في أوروبا الوسطى والشرقية بعد إخلائها .

وفي نهايات الحرب العالمية الثانية ، وعندما بدأ الجيش السوفيتي عملية اجتياح أوروبا في اتجاه ألمانيا ، وقعت إحدى كبرى عمليات التطهير العكسية ، وذلك حين أجبرت القوات السوفيتية أكثر من عشرة ملايين ألماني على الرحيل من أوروبا الشرقية . وعندما اجتمع في بوتسدام زعماء الاتحاد السوفيتي و الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا ، قرروا تطهير بولندا وتشيكوسلوفاكيا والمجر ورومانيا ويوجوسلافيا من أكثر من ١٢ مليون ألماني . في الوقت نفسه كانت تُجْرَى في الاتحاد السوفيتي عمليات تطهير عرقي واسعة النطاق ، إذ عاقب الدكتاتور « چوزيف ستالين » (١٨٧٩-٥من مارس ١٩٥٣) شعوبا بأكملها رأى أنها لم تتعاون بالقدر الكافي في المجهود الحربي في أثناء الحرب ، أو تعاونت مع الجيوش الألمانية . في هذه العملية فَقَدَ أكثر من ٦٠٠ ألف من التتر وسكان الشيشان والأنجوش وكالميك أوطانهم وتوزعوا على بقية الجمهوريات السوفيتية سابقا .

ومنذ مطلع التسعينيات ؛ بدأت يوجوسلافيا السابقة تشهد حلقة أخرى من حلقات التطهير العرقي في شبه جزيرة البلقان . وكانت في ١٩٤١ قد شهدت مصادمات دموية بينَ الصِّرب و الكُرْوَات . وفي ١٩٤٣ وقعت مصادمات عرقية بين الصرب من جهة ، والمجريين والبلغار من جهة أخرى ، كما قتل الصرب آلافَ الأسرى الكروات في ١٩٤٥ بعد تسلمهم من الجيش البريطاني .

وخلال السنوات العشر الأخيرة ، ارتكبت قوات الصرب مذابح وعمليات تطهير عرقية بشعة ضد البوسنيين والألبان في البوسنة والهرسك وكوسوفا ، على الرغم من إدانة المجتمع الدولي وقصف بلجراد من جانب قوات "الناتو" ، ليظهر الوجه القبيح لنظام الرئيس الصربي السابق « سلوبودان ميلوسيفيتش » - الذي سقط في انتخابات الرئاسة أمام « فوييسلاف كوستونيتشا » (٥٦ سنة) في سبتمبر ٢٠٠٠ ، ولم يترك السلطة إلا عقب ثورة شعبية اندلعت في شهر أكتوبر ، قبل أن يعتقل في السنة التالية ومن زامله من قادة التطهير العرقي أمثال « رادوفان كاراجيتش » ورئيس صربيا « ميلان ميلوتينوفيتش » ووزير دفاع يوجوسلافيا السابق « دراجوليوب أويدانيتش » والقائد

العسكري « راتكو ملاديتش » - الذي توفي متأثرا بمرضه - وهم جميعًا من مجرمي الحرب المطلوب اعتقالهم لمحاكمتهم على الجرائم ، التى وقعت في البوسنة على أيدي قوات الصرب .

ثورات جيفارا

إذا كان القرن العشرون قد شهد ثواراً كباراً مثل « تشي جيفارا » ورفيق نضاله «فيدل كاسترو » ، فإن « جيفارا » تحول إلى أحد رموز الثورة خلال هذا القرن . فقد حمل « إرنستو جيفارا دي لاسيرنا » - وهذا هو اسمه الحقيقي - المولود في ١٤ من يونيو ١٩٢٨ في روزاريو الأرجنتينية ، شعلة الثورة في أنحاء أمريكا الجنوبية . انضم « جيفارا » إلى « كاسترو » في المكسيك في ١٩٥٦ ، وأبحر مع قواته إلى كوبا ، ثم قاد حرب العصابات في ١٩٥٨ ، وأصبح جزءا من النظام الكوبي الجديد في ١٩٥٩ بعد إسقاط الدكتاتور العميل « زلاديفار باتيستا » (١٩٠١-١٩٧٣) .

وفي ١٩٦٥ ترك « جيفارا » - وهو بالمناسبة طبيب - الحكومة ليقود المزيد من الثورات في أمريكا اللاتينية وإفريقيا ، وحاول في السنة التالية قيادة الثورة في بوليفيا ، لكنه وقع في الأسر بعد أن أمسكت به القوات البوليفية ليتم إعدامه في ٩ من أكتوبر ١٩٦٧ . ساعتها تنفست المخابرات المركزية الأمريكية الصُّعَدَاء ، بعد أن تحقق هدفها الذي رصدت له ١٠ ملايين دولار . وعلى الرغم من مضيّ نحو ٣٣ سنة على وفاة « جيفارا » فإن اسمه ظل رنانا له صداه وجاذبيته بالنسبة للكثير من أبناء الشعوب في القرن العشرين .

ومن رموز القرن أيضا « ونستون تشرشل » (٣٠ من نوفمبر ١٨٧٤-٢٤ من يناير ١٩٦٥) رئيس وزراء بريطانيا الذي قادها منذ ٢٣ من مايو ١٩٤٠ نحو الصمود ثم النصر خلال الحرب العالمية الثانية . وعاد « تشرشل » - الذي كان أبوه اللورد «راندولف تشرشل » يظن أنه سيكون شابا محدود الذكاء- لرئاسة الحكومة في ٢٠ من أكتوبر ١٩٥١ .

« مـوهـانداس غـاندي » (٢ من أكـتـوبر ١٨٦٩-٣٠ من يناير ١٩٤٨) أبو الهند الحديثة ، وصاحب نظرية الكفاح السلمي « الساتيا جراها » ضد الاحتلال البريطاني ، اغـتيل على يد المتطرف الهندوسي « ناثوران جودس » بثلاث رصاصات اختـرقت جسده . أما « ميخائيل جورباتشيف » (٢ من مارس ١٩٣١-) فقد كان آخر زعماء الاتحاد السـوفيتي سابقا ، وهو الذي قاد الإصلاحات السياسية في البلاد تحت عنوان « الجـلاسنوست »و « البـيـريسـترويكا » ، إلى أن ترك السلطة عقب تفكك الاتحاد السوفيتي السابق في ١٩٩١ .

ولا ينسى الكثيرون « هوشي منه » البطل السياسي والعسكري لشمال فيتنام وأول رئيس للبلاد ، و « الخميني » (١٩٠٠- ٤ من يونيو ١٩٨٩) زعيم الثورة الإيرانية في ١٩٧٩ ، و « فلاديمير إيلليتش لينين » (١٨٧٠- ٢١ من يناير ١٩٢٤) مؤسس الاتحاد السـوفـيـتي سـابقـا ، وفق نظـريات « كـارل مـاركس » و « فـريدريك إنجـلز » ، التي تكـرس ما يسمى « دكتاتورية البروليتاريا » ، و « ماو تسي تونج » (١٨٩٣- سبتمبر ١٩٧٦) زعـيم الصين لعقـود عدة ، الذي تغلب جيشه الأحمر على قوات حزب «الكومينتانج » (الوطنيين) بعد معارك دامية خلال عقدي الثلاثينيات والأربعينيات ، ليسيطر على البلاد ويقيم الجمهورية الجديدة في أول أكتوبر ١٩٤٩ .

قاد « ماو » الثورة الثقافية في بلاده خلال الفترة بين عاميْ ١٩٦٥-١٩٦٩ ، وإليه ينسب « الكتاب الأحمر الصغير » و« الديمقراطية الجديدة » اللذان يشرحان فلسفة الحكم من وجهة نظره .

وخلال الفترة بين عاميْ ١٩٧٥-١٩٧٩ ؛ ارتكب « بول بوت » مذابح بشعة ضد مواطنيه في كمبوديا ، أدت إلى مقتل نحو مليون شخص دون ذنب جنوه !

لقد أقام « بول بوت » معسكرات للقتل والتصفية عقب سيطرته على كمبوديا ، وجَمَّعَ الأطباء ، والمدرسين ، وكلَّ مَنْ يجيد التحدث بلغة أجنبية ، أو حتى يرتدي نظارة طبية ، لكي يتولى تصفيتهم جسديا ، بدعوى أن قتل هؤلاء الأبرياء يفتح الطريق أمام إقامة مجتمع كمبوديا على أكتاف طبقة المزارعين ولا أحد سواهم .

« بول بوت » - الذي كان يهوى ترديد مقاطع من الشعر الفرنسي أمام ضيوفه - قاد « الخمير الحمر » خلال سنوات حكمهم الرهيبة ، غير أنه سقط قبل وفاته في الأسر في ١٩٩٧ ، لكنه لم يُبْدِ ندمًا على جرائمه المخيفة .

ويبرز اسم « ليخ فاونسا » (١٩٤٣-) زعيم حركة « تضامن » العمالية في بولندا ، والكهربائي في أحواض سفن جدانسك ، الذي تولى رئاسة بولندا في ١٩٩٠ بعد سقوط الشيوعية فيها ، و « أدولف هتلر » (٢٠ من أبريل١٨٨٩ - ٣٠ من أبريل ١٩٤٥) ، الذي حاول احتلال أوروبا تحت قيادة الحركة النازية ، لكنه فشل في خطته العسكرية فأقدم على الانتحار بالرصاص بعد إتمام زواجه على عشيقته « إيفا براون » - التي تناولت بدورها السم - في ٣٠ من أبريل ١٩٤٥ ، شأنه شأن « بنيتو موسوليني » (١٨٨٣-١٩٤٥) الذي اعتقله الإيطاليون في دونجو على بحيرة كومو في ٢٨ من أبريل ١٩٤٥ بعد سقوط حكمه الفاشي ، وبعد محاكمة قصيرة أُعدم « موسوليني » مع رفاقه الفاشيين بالرصاص ، وعرضت جثثهم علنا في كومو وميلانو ، المقرين السابقين للحكم الفاشي

الغريب أن « هتلر » أصدر أوامره - كما يروي المؤرخون - بمصادرة أية صورة له وهو يرتدي النظارة الطبية ، إذ كان يعتقد أنه من غير المعقول أن يقول إن ألمانيا فوق الجميع ، وفوقها يتربع زعيم يعاني قصر النظر ! وكان الرئيس الفرنسي « شارل ديجول » (٢٢ من نوفمبر ١٨٩٠-١٩٧٠) مثل عدوه التاريخي « هتلر » ، لا يرتدي نظارة طبية على الرغم من ضعف بصره ، حتى لا ينتقص ذلك من شأنه !

« مصطفى كمال أتاتورك » (٢٢ من مارس١٨٨١ -١٠ من نوفمبر١٩٣٨) - الذي يطلق عليه البعض لقب « الذئب الأغبر » ، في حين يطلق عليه آخرون « أبو الترك » - ولد في سالونيك والتحق بالكلية الحربية ، واشترك ضابطا في الثورة التي قام بها حزب « تركيا الفتاة » (١٩٠٨) ، وفي حرب البلقان (١٩١٣) ، وفي الحرب العالمية الأولى . نظم « أتاتورك » في ١٩١٩ الحزب الوطني التركي ، وكوّن جيشا لمحاربة الجيش اليوناني الذي كان قد احتل أزمير . خرج « أتاتورك » عن طاعة السلطان « محمد السادس » داعيا إلى إسقاط الخلافة العثمانية ، وأقام حكومة منافسة في أنقرة ، وانتهز فرصة نشوب خلافات بين الحلفاء ، فشن هجوما على اليونانيين وطردهم

(١٩٢١-١٩٢٢) ، وأعلن في أول نوفمبر ١٩٢٢ إلغاء السلطنة ، ليغادر السلطان «محمد السادس» تركيا على ظهر سفينة حربية بريطانية في ١٧ من نوفمبر بعد نزوله عن العرش ، في حين تخلى سلفه الأمير «عبد المجيد» عن فكرة السلطنة .

عقد «أتاتورك» في السنة التالية معاهدة لوزان مع الحلفاء ، وأقام جمهورية تركيا التي انتخب رئيسا لها ، وظل محتفظا بالرئاسة طوال حياته . وقد أثار «أتاتورك» جدلا واسعا بفصله بين الدين والدولة ، واستبدل بالحروف العربية الحروف اللاتينية في ١٩٢٩ ، وجعل القانون المدني يقوم على أصول التشريعات الأوروبية في ١٩٢٦ .

حارب «أتاتورك» علماء الدين ، وألغى وزارة الأوقاف في ١٩٢٤ ، وأغلق عديدًا من المساجد في السنة التالية ، حتى إن مسجد (آيا صوفيا) تحول إلى متحف ، ومسجد (الفاتح) إلى مستودع ، وأمر بإقامة الأذان باللغة التركية ! كما ألغى كلية الشريعة في جامعة إسطنبول وأغلقها في ١٩٣٢ ، ودعا إلى حظر الحجاب وتشجيع السفور . كما تخلص «أتاتورك» من الطربوش باعتباره رمز الدولة العثمانية ، وأمَّمَ البنوك ، وصفى معارضيه مثلما ذبح الأكراد والأرمن .

وفي إفريقيا برز زعماء كان لهم تأثيرهم على أوضاع القارة السمراء في مراحل دقيقة من تاريخها ، بدءا من الرئيس المصري «جمال عبدالناصر» (١٥ من يناير ١٩١٨-٢٨ سبتمبر ١٩٧٠) ، وزعيم غانا «كوامي نكروما» (١٩٠٩- مايو١٩٧٢) ، والزعيم الكونغولي «باتريس لومومبا» (١٩٢٥-١٩٦١) ، ورئيس غينيا «أحمد سيكوتوري» (١٩٢٢-مارس ١٩٨٤) ، ورئيس تنزانيا «چوليوس نيريري» (١٩٢٢-١٩٩٩) ، ورئيس جنوب إفريقيا «نلسون مانديلا» (١٨ من يوليو ١٩١٨-) .

وفي إفريقيا أيضا برز عدد من الطغاة ؛ مثل «عَيْدي أمين» (٧١ سنة) رئيس أوغندا السابق المتهم بقتل نحو ٥٠٠ ألف شخص ، والذي يعيش في المنفى في مدينة جدة السعودية منذ سقوط نظامه في ١٩٧٩ . كما أن «حسين حبري» دكتاتور تشاد المخلوع الذي يعيش في المنفى في السنغال منذ سقوط نظامه في ١٩٩٠ ، متهم بدوره بارتكاب عديد من جرائم القتل والتعذيب ، خلال فترة حكمه بين سنتي

١٩٨٢-١٩٩٠ . ويعيش « الإمبراطور الأحمر » دكتاتور إثيوبيا المخلوع « منجستو هيلا مريام » - الذي كان يستمتع بذبح شعبه ، حيث قتل منهم خلال سنوات حكمه (فبراير ١٩٧٧ - مايو ١٩٩١) نحو ٢٧٥ ألف شخص وأسس دولة بوليسية فيها ١٣ جهازا أمنيا - يعيش في المنفى متنقلا بين زيمبابوي وجنوب إفريقيا ، في حين مات دكتاتور نيجيريا الجنرال « ساني أباتشا » قبل أن يحاكمه شعبه على جرائمه المخزية ، التي ارتكبها خلال سنوات حكمه (١٩٩٣-١٩٩٨) .

واعتقل « أوجستو بينوشيت » في بريطانيا في ١٩٩٨ بناء على طلب القاضي الإسباني« بلتازار جارزون » بهدف محاكمته في اتهامات بالتعذيب والمسئولية عن موت مواطنين إسبانيين من بين نحو ثلاثة آلاف شخص ، قتلوا خلال سنوات حكمه لشيلي في الفترة بين ١٩٧٣-١٩٩٠ . لكن« بينوشيت » (٨٤ سنة) أفلت من دعوى تسليمه لإسبانيا لمحاكمته بسبب تقدم سنه وتدهور حالته الصحية ، ليلقى لدى عودته إلى بلاده استقبال الأبطال من الجنرالات والأدميرالات !

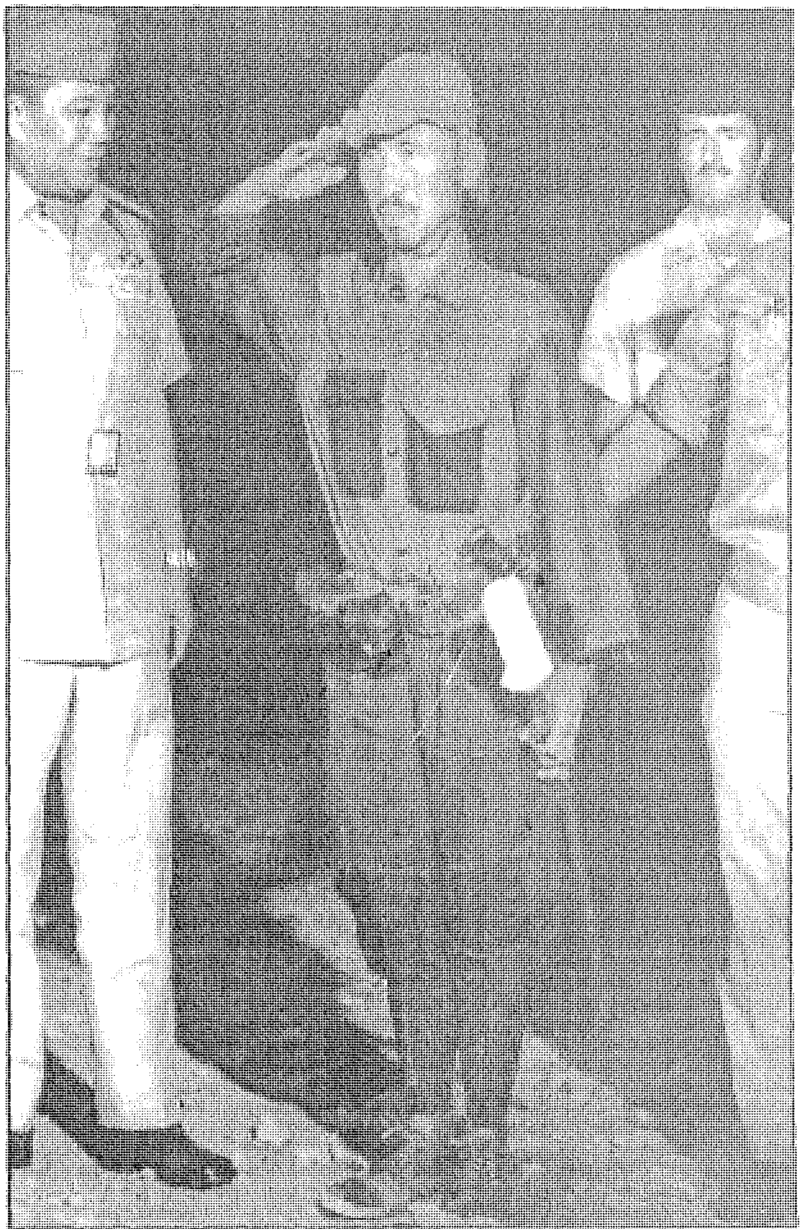
الطغمة العسكرية التي حكمت الأرجنتين في الفترة بين سنتي ١٩٧٦ - ١٩٨٣ كانت أسوأ بكثير من « بينوشيت » . وطبقا لتقارير منظمة العفو الدولية ، فقد « اختفى » ٣٠ ألف شخص على أيدي فرق الموت التابعة للنظام ، وتعرضوا غالبا للخطف والتعذيب والتخدير والإلقاء من الطائرات إلى نهر بلاتيه . وبعد سقوط العصبة العسكرية ، وجد الجنرال « خورخي رفائيل فيديلا » ، القائد العسكري لتلك المجموعة الوحشية ، وزميله في الحكم الأدميرال « إميليو ماسيرا » وغيرهما من كبار الضباط ، وجدوا أنفسهم مذنبين بتهمة انتهاك حقوق الإنسان ، وحُكم عليهم بالسجن لفترات طويلة .

وعقب ثورتين عسكريتين في سنتي ١٩٨٥ و١٩٨٧ ، قامت حكومة الرئيس « راءول ألفونسين » بإصدار تشريعين سيئي السمعة ، يعرفان باسم قانون نقطة الوقف ، وقانون الطاعة الواجبة . وتم بموجب القانون الأول إلغاء معظم التهم الموجهة إلى العسكريين ؛ أما القانون الثاني الأكثر شمولا فقد منح العفو لجميع الضباط من حقبة « الحرب القذرة » من رتبة كولونيل فما دون . ونتيجة لذلك ؛ فقد أُجبر المدنيون على قبول الرأي القائل بأن الجنود من ذوي الرتب المنخفضة « كانوا ينفذون الأوامر » . أما

« فيديلا » و « ماسيرا » وقادة الطغمة الآخرون ، فقد تم الصفح عنهم فيما بعد من قبَل الرئيس « كارلوس منعم » ، الذي تحدث عن الحاجة إلى « وفاق دائم » ، لتظل العدَالة مؤجلة في الأرجنتين في ظل ثقافة الحصانة ، التي جعلت آلاف المجرمين يتمتعون بحماية رسمية .

أما الرئيس العراقي « صدام حسين » (١٩٣٧-) فقد تسبب في كارثة عربية مروعة عانت شعوب المنطقة - بمن فيهم الشعب العراقي المغلوب على أمره - آثارها لفترة طويلة ، وذلك حين أمر قواته باحتلال الكويت في فجر ٢ من أغسطس ١٩٩٠ لتتدفق قوات الحلفاء إلى المنطقة وتقع « عاصفة الصحراء » ، ولتقع تغييرات كثيرة - أغلبها سلبية - في الخارطة العربية منذ كارثة الغزو .

* * *

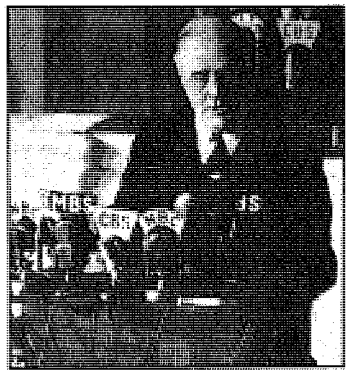


الضابط الياباني هيرو أونودا

يستسلم في الفلبين سنة ١٩٧٤ بعد ٢٨ سنة من انتهاء الحرب !



أطفال الحروب .. ظاهرة انتشرت في القارة الأفريقية



الرئيس الأمريكي فرانكلين روزفلت يعلن انضمام بلاده إلى الحرب

خيط من الدم تدفق من جسد العالم خلال القرن العشرين ، بسبب دورات العنف والحروب المدمرة ، وأبرزها الحربان العالميتان الأولى والثانية .

البشرية كلها اكتوت بنار الحروب والكوارث الناجمة عنهما . . . بعض هذه المعارك أسبابها سياسية ، لكن بعضها الآخر يعود إلى عوامل دينية واستراتيجية وصراعات قبلية وطائفية .

تقاتل البشر ، وظهرت الصراعات بمختلف صورها وأشكالها ، وبرز لوردات الحرب والقنبلة الذرية ، وصواريخ

3

دموع هيروشيما .. ودماء سراييفو



ضحايا الحرب العرقية بين الهوتو والتوتسي في رواندا

«توماهوك» و«باتريوت» والقاذفات «ستيلث»، مثلما كانت «البانزرز» أو «الدبابات» هي النجم الأوحد للحرب العالمية الأولى!

عشرة تواريخ دامية سجلها القرن العشرون للحروب والمعارك، كان أولها حين أطلق متطرف صربي النار على أرشيدوق النمسا «فرانز فرديناند» في ٢٨ من يونيو ١٩١٤ فأرداه قتيلا لتشتعل نار الحرب العالمية الأولى. الحدث الثاني وقع في ٢٢ من أبريل ١٩١٥ حين استخدمت القوات الألمانية الغاز السام ضد القوات الفرنسية، وفي ٢٧ من أبريل ١٩٣٧ دمرت الطائرات الحربية الألمانية مدينة جورنيكا الإسبانية، وفي أول سبتمبر ١٩٣٩ غزت قوات «أدولف هتلر» بولندا؛ مما أدى إلى إعلان كل من بريطانيا وفرنسا الحرب بعد ذلك بيومين. وفي ٧ من ديسمبر ١٩٤١، هاجمت اليابان الأسطول الأمريكي في ميناء بيرل هاربر، مما جر الولايات المتحدة إلى الحرب العالمية الثانية.

وفي ٣١ من يناير ١٩٤٣؛ تصدى الجنرال «فريدريك فون باولوسي» في ستالينجراد للهجوم الألماني في الحرب العالمية الثانية. وقد استمرت معركة ستالينجراد في الفترة بين ١٩ من أغسطس ١٩٤٢ وحتى ٢ من فبراير ١٩٤٣. أما مدينة لينينجراد فقد تعرضت لحصار دام ٨٨٠ يوما، من ٣٠ من أغسطس ١٩٤١ إلى ٢٧ من يناير ١٩٤٤، لكنها صمدت ببسالة نادرة. الحدث السابع الذي يمكن تأريخ الحروب خلال القرن العشرين به، هو إسقاط القنبلة الذرية على هيروشيما في ٦ من أغسطس ١٩٤٥، مما دشن عصر الحرب النووية.

وبعد ثلاثين سنة أخرى، وبالتحديد في ٣٠ من أبريل ١٩٧٥، سقطت مدينة سايجون.. ليؤدي ذلك إلى إنهاء حرب فيتنام، وتأكيد الهزيمة النهائية للقوات الأمريكية المتحدة في الهند الصينية.

وفي ١٧ من يناير ١٩٩١؛ قادت الولايات المتحدة قوات التحالف الدولية في حرب الخليج الثانية لإجبار القوات العراقية على الانسحاب من الكويت. وفي ٥ من أبريل ١٩٩٢ حاصر الصرب مدينة سراييفو ليشعلوا الصراع في البوسنة ويؤكدوا انهيار يوجوسلافيا السابقة، وهو ما بدا أكثر وضوحا وقسوة في حملة التطهير العرقي

للصرب ضد كوسوفا (مارس ١٩٩٨-١٩٩٩) ، التي لم تتوقف إلا بعد ضربات قوات « الناتو » التي استمرت ١١ أسبوعا ، لإجبار الصرب على قبول اتفاق «رامبوييه» للسلام .

الحرب إذًا كانت إحدى العلامات الرئيسية خلال القرن العشرين ، على الرغم من أن مؤرخا أوروبيا قال في ١٩١٤ : « إن الحملات العسكرية خرجت من أوروبا ولن نراها طوال حياتنا أبدا » . وبعد نحو ٨٠ سنة من مقولته ، بدأت أوروبا تشهد قدرا من الوحدة والعلاقات الطبيعية ، خاصة بعد أن انتهت الحرب الباردة وسقطت الأنظمة الشيوعية

لقد شهد القرن الماضي انهيار عديد من الإمبراطوريات مثل النمسا والمجر والاتحاد السوفيتي ، وكذلك تفكك يوجوسلافيا . وعادةً ما كان ذلك مرتبطا بالحروب وإراقة الدماء . بل إن البعض يرى أن الهزيمة العسكرية للسوفيت في أفغانستان ، التي دخلوها في ٢٦ من ديسمبر ١٩٧٩ وأُجبروا على الانسحاب منها في ١٥ من فبراير ١٩٨٩ ، دقت مسمارا أساسيا في نعش الإمبراطورية التي توفيت إكلينيكيا بعدها بسنوات قلائل . وحين طمأن الزعيم السوفيتي « ليونيد بريچنيف » السفير السوفيتي لدى الولايات المتحدة « فلاديمير دوبرنين » بشأن غزو موسكو لأفغانستان قائلا : «سينتهي الأمر في غضون ثلاثة أو أربعة أسابيع» ، لم يكن « بريچنيف » يدرك أن الورطة العسكرية السوفيتية ستحصد أرواح أكثر من عشرة آلاف جندي سوفيتي على مدار عقد كامل .

وتكبدت القوات الروسية خسائر فادحة خلال حرب الشيشان ، سواء في عهد الرئيس الروسي « بوريس يلتسين » أو بعد تولي « فلاديمير بوتين » - عميل الـ «كي . جي . بي » السابق ، وحامل الحزام الأسود في الجودو - مهامَّ الحكم إثر الاستقالة المفاجئة لـ « يلتسين » في نهاية ديسمبر ١٩٩٩ ، وانتخاب « بوتين » رئيسا في مارس ٢٠٠٠ .

وفي القرن العشرين ، أصابت العالم حمى غير مسبوقة من العنف والمصادمات بين الدول والقوى ، مما أدى إلى انهيار القيم التي أسهمت في تقدم العالم واستقراره .

ويكفي أن نشير إلى أنه حين وقعت الحرب العالمية الأولى في سنة ١٩١٤ ، لم يكن العالم قد شهد حربا رئيسة منذ ١٠٠ سنة ، باستثناء نزاع قصير ، ألا وهو حرب القِرَم (١٨٥٣-١٨٥٦) التي لم تتورط فيها سوى قوتين رئيستين .

إن الحرب الأوروبية الممتدة بين سنتي ١٩١٤ - ١٩٤٥ والتي تخللتها هدنة استمرت ٢١ سنة ، كانت شاملة ، وجرت إليها الدول المستقلة والاستعمارية حول العالم ، وتورط فيها العالم أجمع من مدنيين وعسكريين على حد سواء . وفي حين كانت النزاعات السابقة تعد مواجهات محدودة تشارك فيها الجيوش النظامية التي تقاتل لتحقيق أهداف محددة ، فإن الحربين العالميتين الأولى والثانية كانتا يائستين . . تعملان وفق مبدأ « الكل أو لا شيء » ، حرب بقاء ووجود ، كما حدث خلال الفترة بين سنتي ١٩١٤ و١٩١٨ ، أو حرب أيديولوجيا متعارضة كما حدث خلال الفترة بين سنتي ١٩٣٩و ١٩٤٥ .

سقوط المحارب

إن أخلاقيات المحارب القديم الذي يعمل بمقتضى أداء الواجب ودافع البطولة والتضحية ، اختفت مع قدوم الأسلحة التكنولوجية المتطورة ودخولها ساحة القتال في ١٩١٤ .

إن هذه « الحرب الكبرى » - كما كانت تسمى الحرب العالمية الأولى- تحولت إلى مقبرة ضخمة للجميع ، وأسفرت عن مقتل أكثر من عشرة ملايين شخص ، وإصابة ٢٠ مليونا آخرين ، وذلك في أشد التقديرات تواضعا .

أحدثت هذه الحرب - التي يصفها المؤرخون بأنها كانت في الأساس حرب خنادق ومواقع ثابتة - تطورا مذهلا في مجالي « فن » و « علم » الحرب . فقد شهدت استخدام الطائرات الحربية ومنطاد « زبلن » لأول مرة في القصف الجوي ، واستخدام الغازات السامة ضد الجنود في الخنادق ، واستخدام الدبابات ، والغواصات ، ووحدات المشاة الميكانيكية . لقد أدى هذا كله إلى ثورة في علم الحرب .

وحين وضعت الحرب أوزارها بتوقيع ألمانيا على الهدنة في يوم ١١ من نوفمبر ١٩١٨ ، لم تكن العداوات سوى نار تحت الرماد . وهكذا استأنفت الأطراف نفسها تقريبا القتال في جولة ثانية هي الحرب العالمية الثانية بعد عقدين من الزمان . الفارق الوحيد هو أنه في الحرب الثانية تراجع دور المواجهات المباشرة بين الجنود المتقاتلين ؛ لتصبح الكلمة الأولى للدبابات والطائرات والغواصات ، وهي الأسلحة التي حاولت إفناء وتجويع شعوب بأكملها .

امتدت مواقع القتال عبر الكرة الأرضية ، من "ريفربليت" قبالة أوروجواي إلى «أيوجيما» قبالة اليابان ، مرورا بستالينجراد التي تعد المعركة الرئيسية خلال القرن العشرين . والأدهى أن أكثر من ٥٥ مليون شخص دفعوا حياتهم ثمنا للحرب العالمية الثانية ؛ مما جعلها أكبر كارثة في تاريخ البشرية .

إن حروب الضم والدمج لم تشن ضد الجيوش أو الشعوب فحسب ، بل شنت أيضا ضد المجموعات العرقية ، وصك « هتلر » بحملته ضد الأقليات العرقية المختلفة كلمة حرب الإبادة . إن ضحايا معسكرات النازية يعدون رمزا للقتل الجماعي ، الذي قاده « هتلر » ضد الغجر واليوجوسلاف واليهود والمرضى والمعاقين وغيرهم ممن رأى ضرورة التخلص منهم .

وفي أحد الأركان المهملة من التاريخ ، تبرز حرب إبادة أخرى ارتكبها الألمان في ١٩٠٤ ضد أفراد قبيلة هيريرو في ناميبيا . لقد ارتكبت القوات الألمانية بأوامر مباشرة من القيصر « فيلهلم الثاني » مجازر بشعة ضد هؤلاء الرعاة الأفارقة ، واعتقلتهم وعذبتهم ، قبل أن تجبرهم على العمل كعبيد في مشروعات واستثمارات ألمانية ظل بعضها قائما حتى نهاية القرن . وانخفض تعداد أفراد الهيريرو من ٨٠ ألف شخص إلى ١٥ ألفا وفق إحصاء السكان في ١٩١٠ .

اسم هيروشيما سيظل عالقا فى الأذهان طويلا بعد أن تعرضت هذه المدينة لأسوأ ما يمكن أن تتعرض له أي مدينة أخرى : العقاب الذري ! ففي ٦ من أغسطس ١٩٤٥ ألقت طائرة أمريكية من طراز « بي- ٢٩ » ، يقودها الطيار « بول تيبتس » قنبلة ذرية

تدعى « الرجل النحيل » على هيروشيما اليابانية أبادت على الفور ٨٠ ألف شخص قبل أن يرفع السرطان رقم الضحايا إلى ٢٠٠ ألف ، ثم ألقيت قنبلة ذرية أخرى تدعى «الرجل البدين » على مدينة ناجازاكي في ٩ من أغسطس ١٩٤٥ لتقتل في لحظات ٤٠ ألف شخص ، في حين حصد الإشعاع أرواح بقية سكان المدينة ببطء قاتل ، ليعلن إمبراطور اليابان -في رسالة مسجلة بثها الراديو في ١٥ من أغسطس- استسلام بلاده .

وكانت أول دولة تلحق بالنادي النووي بعد الولايات المتحدة هي الاتحاد السوفيتي ، الذي أجرى أول تجربة ذرية له في سنة ١٩٤٩ ، ثم جرب أول قنبلة هيدروجينية (وهي تفوق قوة القنبلة الذرية بكثير) في ١٩٥٣ ، وبالتحديد بعد تجربة الولايات المتحدة لنوع القنابل نفسه بتسعة أشهر .

إن ما حدث بعد ذلك كان عبارة عن سيناريو للنزاع العالمي في المستقبل ، إذ إن المنتصرين في ١٩٤٥- الاتحاد السوفيتي السابق والولايات المتحدة - أصبحا غريمين وخصمين يقودان الحرب الباردة مدججين بآلاف الرءوس النووية . وانضمت دول جديدة إلى النادي النووي وهي بريطانيا وفرنسا والصين ، ثم الهند في السبعينيات ، وباكستان في ١٩٩٨ ، إلى جانب إسرائيل التي تحيط نشاطها النووي بجو من التكتم والسرية .

ووفق تقديرات سنة ١٩٩٨ ، فإن أبرز ملامح ترسانة الأسلحة النووية في العالم كانت كالتالي : الولايات المتحدة (١٢٠٧٠ رأسا نووية) ، بريطانيا (٣٨٠) ، فرنسا (٥٠٠) ، روسيا (٢٢٥٠٠) ، الصين (٤٥٠) ، الهند (٦٥) ، إسرائيل (١١٢) ، باكستان (٢٥) .

وبعد أن نالت منها الحربان العالميتان ، بدأت القوى الاستعمارية القديمة تفكك إمبراطورياتها ، أولا في إسبانيا ثم في إفريقيا .

نشطت الحركات الوطنية المقاومة للاحتلال ، وبدلا من المواجهة المباشرة التي كانت تهدد باستخدام الأسلحة النووية ، فإن القوتين الرئيستين خاضتا الحرب في العالم النامي وأماكن أخرى ، وأدى ذلك إلى تحويل إفريقيا -على وجه التحديد- إلى

مسرح لسلسلة من النزاعات المحدودة -وإن كانت طويلة الأمد نسبيا- بين الأنظمة المدعومة من الاتحاد السوفيتي سابقا ، وقوى الانفصال والتمرد التي تدعمها الولايات المتحدة .

وأدت نهاية الحرب الباردة إلى حلول الصراع العرقي محل الصراع الأيديولوجي ، ليتحول إلى وقود ومحرك للحرب ، خاصة في رواندا ويوجوسلافيا السابقة .

ومن بين ٦١ صراعا رئيسيا خاضتها قوى مختلفة خلال الفترة بين عامي ١٩٨٨-١٩٩٨ ، وقع ثلاثة منها بين دول ، في حين كانت بقية تلك الصراعات العسكرية حروبا أهلية . وتعد الحرب بين إثيوبيا وإريتريا التي اندلعت في مايو ١٩٩٨ ، أشبه بالصراع بين أقرعين على مشط ، فكلا البلدين يعاني ظروفا اقتصادية عصيبة تهدد الملايين بالموت جوعا ، لكنهما خاضا حربا شرسة باستخدام أسلحة حديثة من الصين وبلغاريا والاتحاد السوفيتي السابق - يقال إنها كلفت خزينة كلتا الدولتين مليون دولار يوميا - وأسفرت عن مقتل نحو مائة ألف شخص على الجانبين وتشريد الملايين من الأبرياء .

وإذا كان الصراع قد بدا حدوديا في ظاهره ، فإن المفارقة أن زعيمي البلدين (الإثيوبي « ميليس زيناوي » والإريتري « أسياس أفورقي ») كانا صديقين ورفيقي سلاح في الماضي القريب ، عندما كانا يحاربان معا نظام « منجستو هيلا مريام » الشيوعي في إثيوبيا ، بل إنهما ينتميان إلى قبيلة واحدة تجمع بينهما من جهة الأم ، قبل أن تتفرق بينهما السبل . لكن الجانبين وقعا في الجزائر في ١٣ من ديسمبر ٢٠٠٠ على اتفاق سلام نهائي وشامل لإنهاء تلك الحرب المجنونة .

وحصدت حرب الأجنحة المتصارعة على السلطة في ليبيريا أرواح ١٥٠ ألف شخص في غضون خمس سنوات ، قبل التوصل إلى اتفاق لوقف إطلاق النار في أغسطس ١٩٩٥ .

وضربت الحرب في الكونغو الديمقراطية رقما قياسيا من حيث عدد الدول المتورطة فيها على المستوى الإقليمي المباشر ، فقد وصل عدد الجيوش الأجنبية التي تحارب في الكونغو الديمقراطية إلى سبعة جيوش تنتمي إلى سبع دول من دول المنطقة ، إضافةً إلى عشر فصائل محلية متمردة ضد قوات الرئيس « لوران كابيلا » ، الذي لقي مصرعه في محاولة انقلاب دموية في ١٦ من يناير ٢٠٠١ ، لينتخب ابنه « چوزيف » رئيسا للبلاد . وحتى نهاية القرن ، فشلت جهود وقف القتال في هذه الحرب التي وصفتها مجلة « لوموند دبلوماتيك » الفرنسية بأنها « محرقة إفريقيا » .

وفي ١٩٩٩ ؛ تفجرت جولة جديدة من الحرب الأنجولية بدرجة القوة والمرارة نفسها التي كانت عليها الحرب في السبعينيات ، عندما حاولت القوات الحكومية الاستيلاء بالقوة المسلحة على أراض خاضعة لجبهة « يونيتا » المعارضة بزعامة « جوناس سافيمبي » ، لينهار بذلك اتفاق السلام الموقع بين الجانبين في ديسمبر ١٩٩٨ .

وتعد « يونيتا » من أغنى حركات المعارضة والتمرد في العالم بفضل تجارة تهريب الألماس ، التي منحتها القدرة على شراء أسلحة بأكثر من ثلاثة مليارات دولار خلال عقد التسعينيات ، بدعم من الاستخبارات الأمريكية . بل إن حكومة أنجولا تتهم توجو المجاورة بدعم « سافيمبي » طمعا في تجارة تهريب الألماس ، التي انتعشت على يدي الرئيس التوجولي « جناسنجبي إياديما » (٢٦ من ديسمبر ١٩٣٧ -) الذي تولى الحكم منذ ١٤ من أبريل ١٩٦٧ .

وأشعلت قوى التطرف -كما حدث في أفغانستان والجزائر- المزيد من الحروب ، وأثارت حالة من التوتر وعدم الاستقرار . بل إنه في بلد مثل الصومال كان الحصول على « كلاشينكوف » أسهل من اقتناء الكتب المدرسية ، ليبدأ العالم مرحلة إدارة عقارب الساعة إلى الوراء ، ونشهد مجددا لوردات الحرب وسقوط وانهيار الدول وأنظمتها ، مثلما هي الحال في الصومال ، إلى أن تغلب أهل الحل - وهم شيوخ القبائل وقادة الميليشيات المسلحة - على مصالحهم القبلية والشخصية ، فجرى خلال

مؤتمر سلام عقد في جيبوتي في أغسطس ٢٠٠٠ انتخاب « عبد القاسم صلاد حسن » (٥٨ سنة) رئيسا. وفي أفغانستان - التي كانت تسيطر حركة « طالبان » على معظم أراضيها - لا توجد قيادة موحدة وسلطة تدير شئون البلاد بالكامل.

وشهدت سيراليون في السنوات الثماني الأخيرة من القرن العشرين حربا أهلية قضت على الأخضر واليابس، على الرغم من جهود الأمم المتحدة لإنهائها، وعلى الرغم من توقيع اتفاقية لومي للسلام في يوليو ١٩٩٩.

وفي نوفمبر ١٩٧١، تحولت الشرارة إلى لهب بين كل من الهند وباكستان، واندلعت إحدى جولات الحرب بين الجارين اللدودين، لأسباب حدودية أو انفصالية -كما حدث بشأن استقلال بنجلاديش في السنة المشار إليها آنفا- أو طائفية، كما هي الحال بالنسبة إلى إقليميْ جامو وكشمير (أكتوبر ١٩٤٧ - ديسمبر ١٩٤٨، و١٩٦٥، و١٩٩٥).

نحو ٦٠ صراعا عسكريا هزت العقد الذي أعقب سقوط جدار برلين، وتراوحت هذه النزاعات ما بين القتال في جواتيمالا وكمبوديا، مرورا بسيراليون والسودان وسريلانكا. ومعظم هذه الحروب شهدت تقاتلا ليس بين الدول التي فقدت مع اقتراب نهاية القرن العشرين سيطرتها على العنف المنظم، ولكن بين الجيوش غير النظامية والميليشيات القبلية والعرقية أو الجماعات والتنظيمات السياسية المتناحرة.

الاستثناء البارز خلال القرن العشرين هو حرب الخليج، حيث كانت احتياطات العالم من البترول في خطر، فقادت الولايات المتحدة وقوات التحالف عمليات عسكرية ضد القوات العراقية، واستخدمت أحدث الأسلحة و أكثرها تعقيدا لضمان تقليل حجم الخسائر في صفوف التحالف.

أطفال الحروب

الظاهرة اللافتة للأنظار خلال القرن العشرين هي ظاهرة الأطفال المجندين، الذين يحملون السلاح ويشاركون في العمليات العسكرية وهم في عمر الزهور.

عرفت تلك الظاهرة انتشارا سريعا في العقود الأخيرة من القرن العشرين ، حيث تشير تقديرات الأمم المتحدة إلى أن نحو ٣٠٠ ألف طفل على الأقل - تحت ١٥ سنة - مشتركون ومنخرطون في القتال والنزاعات العسكرية المندلعة في نحو ٦٠ دولة ، من بينها سيراليون ورواندا وبوروندي وموزمبيق وغينيا بيساو . ويبلغ عدد الأطفال الذين لقوا مصرعهم في النزاعات المسلحة خلال العقد الأخير من القرن العشرين نحو مليوني طفل ، في حين أصيب ستة ملايين طفل من جراء تلك النزاعات التي أيتمت مليون طفل ، وفق تقديرات « أولارا أوتونو » ، الممثل الخاص لأمانة الأمم المتحدة للطفولة والنزاعات المسلحة .

مشكلة أخرى أفرزتها الحروب هي قضية اللاجئين ، إذ يبلغ عددهم في إفريقيا وحدها نحو سبعة ملايين لاجئ - خاصة من سيراليون والصومال وإريتريا وبوروندي وأنجولا - وفق تقديرات الأمم المتحدة لسنة ١٩٩٩ ، في حين كان عددهم ٤٠٠ ألف فقط في مطلع الستينيات .

وتعد قضية الألغام من أخطر القضايا خلال القرن الماضي ، فهذه الألغام التي تشبه « الموت المدفون » تنتشر في أنحاء العالم ، حيث يوجد نحو نصف مليون لغم في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا وآسيا الوسطى ، يتركز معظمها في مصر وإيران وأفغانستان . وفي جنوب الصحراء الكبرى تركت الحرب الأنجولية نحو ١٥ مليون لغم ، بمعدل لغم واحد على الأقل لكل مواطن . وفي شرقي آسيا يوجد ٢٣ مليون لغم ، من بينها ١٠ ملايين لغم مزروعة في كمبوديا وحدها . وفي شرقي ووسط أوروبا يوجد سبعة ملايين لغم ، من بينها ثلاثة ملايين في البوسنة . وفي أمريكا اللاتينية ينتشر ٢٤٠ ألف لغم ، من بينها آلاف الألغام في المنطقة الحدودية المتنازع عليها بين بيرو والإكوادور . وقد لقي الملايين مصرعهم خلال القرن الماضي نتيجة تلك الألغام المرعبة .

حـروب التمـرد

ولعل أولى حروب التمرد خلال القرن العشرين تلك التي وقعت في روسيا في ٩ من يناير ١٩٠٥ ، وكانت مقدمة للثورة البلشفية في ١٩١٧ .

ففي الأسبوع الدامي من أول شهور سنة ١٩٠٥ ، نظم ٣٠٠ ألف شخص مسيرة إلى القصر الشتوي للقيصر الروسي في سانت بطرسبرج ، مطالبين بإصلاحاتٍ من بينها إقامة مجلس للنواب ، وتحديد ساعات العمل بثماني ساعات يوميا كحد أقصى . وعلى الرغم من أن المتظاهرين حملوا صور القيصر مكتوبا عليها « الأب الصغير » ، فإن القيصر رفض المطالب ، وبعث بالجنود للتصدي لهم ، مما أدى إلى مصرع أكثر من ١٠٠ مواطن ، لتشتعل نار التمرد في البلاد .

وفي الفترة بين عاميْ ١٨٨٩-١٩٠٢ كانت جنوب إفريقيا تغلي بسبب « حرب البوير » بين القوات البريطانية والترنسفال والولاية البرتقالية الحرة ، وهي واحدة من أولى الحروب الإفريقية المناهضة للاحتلال . كما شهدت الصين إطاحة المتمردين الموالين للدكتور « صن يات - سن » (١٨٦٦-١٩٢٥) بأقدم مملكة في العالم آنذاك .

وفي ١٩٠٨ ، اهتزت الإمبراطورية العثمانية بسبب ثورة خصوم هذه الإمبراطورية . وسرعان ما بدأت « بلقنة » منطقة البحر الأدرياتي والبلقان لتشتعل شرارة الحرب العالمية الأولى .

وفي ٧ من نوفمبر ١٩١٧ ، وقبل أن تضع الحرب العالمية الأولى أوزارها ، نجحت الثورة البلشفية بفضل قادتها ومنظريها مثل « لينين » و « ليون تروتسكي » في الانقلاب على نظام حكم قيصر روسيا « نيقولاي الثاني » . وبعد نجاح الثورة وإعدام عائلة القيصر بالرصاص ، استقر الأمر للبلاشفة ، وحظر « لينين » في ١٩١٨ الأحزاب السياسية الأخرى في روسيا . وما إن حل ٢٨ من يونيو ١٩١٩ حتى تم توقيع معاهدة فرساي التي وافق فيها الألمان على شروط الحلفاء ، والتي وضعت بذرة الرغبة في الانتقام التى غذاها « هتلر » بعد ذلك بنحو ثلاثين سنة .

وفي ظل حالة الكساد بعد ثلاث سنوات وانهيار أسواق المال في ١٩٢٩ ، جاء «فرانكلين روزفلت » إلى البيت الأبيض الأمريكي في ٤ من مارس ١٩٣٢ ، في حين شهدت إسبانيا حربا أهلية بدءا من ١٨ من يوليو ١٩٣٦ وحتى ١٩٣٩ ، أيدت خلالها ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية تمردا عسكريا ضد الحكومة الجمهورية . وانتهى الأمر بسيطرة المتمردين القوميين بقيادة الجنرال « فرانشيسكو فرانكو » على البلاد .

وخلال عقد الثلاثينيات كانت شعوب أوروبا تقع تحت قبضة عدد من الحكام الشموليين ، ففي ألمانيا كان الفوهـــر « أدولف هتــلر » في الســلطة ، في حــين حـكم إل دوتشي «بنيتو موسوليني» إيطاليا بالحديد والنار ، وسيطر الدكتاتور إل كوديلو «فرانشيسكو فرانكو » على إسبانيا .

وسرعان ما بدأت نُذُر الحرب العالمية الثانية تتجمع في هذه الأجواء ، خاصة بعد أن احتلت القوات النازية النمسا في ١٢ من مارس ١٩٣٨ ، بما يؤكد أن « هتلر » ليس سوى نتاج الحرب العالمية الأولى ومعاهدة فرساي .

ثم غزت ألمانيا بقوات قوامها ١,٥ مليون جندي أراضي بولندا في أول سبتمبر ١٩٣٩ ، ثم بدأت تغزو هولندا ، وتسحق الجيش الفرنسي ، وبحلول منتصف يونيو ١٩٤٠ كان " الفوهرر" يحتفل بالنصر النازي في قلب باريس .

وفي ٢٨ من مايو ١٩٤٠ ، نجا الجيش البريطاني من مذبحة دنكرك ، وقاوم رئيس الوزراء البريطاني الجديد « ونستون تشرشل » القصف الجوي الشرس للقوات الألمانية على لندن والمدن البريطانية الأخرى . ومع ذلك فإن ٣٠ ألفا لقوا مصرعهم نتيجة هذا القصف الجوي ، قبل أن تتوقف الغارات الألمانية على بريطانيا في ربيع ١٩٤١ ، ليخسر الفوهرر للمرة الأولى معركة حربية .

وعقب استيلاء القائد العسكري الألماني « إروين روميل » ثعلب الصحراء على طبرق في يونيو ١٩٤٢ ونيله رتبة فيلد مارشال من « هتلر » ، وقعت مواجهة شرسة بين « روميل » و « برنارد مونتجمري » في معركة العلمين في الفترة بين ٢٣ من أكتوبر- ٤ من نوفمبر ١٩٤٢ انتهت بانتصـار قوات الحلفاء . ولقد كتب رئيس الوزراء البريطاني

« ونستون تشرشل » قائلا : « يمكن القول إنه قبل العلمين لم نحقق أي نصر ، وبعد العلمين لم نتعرض لأي هزيمة » .

وجاء الهجوم الجوي الياباني على بيرل هاربر في ديسمبر ١٩٤١ ؛ ليوسع نطاق الحرب أكثر فأكثر .

إن قصف هذا الميناء الذي يقع في جزر أوهو في هاواي أدى إلى مصرع ٢٤٣٣ أمريكيا وتدمير ١٨ سفينة حربية و ١٨٨ طائرة . وفي الوقت نفسه قصف اليابانيون مانيلا عاصمة الفلبين والمدن الرئيسية في سنغافورة وهونج كونج . لكن الأمريكيين لم يسكتوا عن ذلك ، فدخلوا الحرب ليعززوا من ثقل قوات الحلفاء في مواجهة قوات المحور ، وليتمكن الحلفاء من غزو أوروبا في « دي-داي » في ٦ من يونيو ١٩٤٤ تحت قيادة الجنرال الأمريكي « دوايت أيزنهاور » .

وبعد فشل القوات النازية في اقتحام ستالينجراد وهزيمتها الواضحة في معركة كورسك (٥-٢٣ من يوليو ١٩٤٣) ، بدأ العد العكسي للحكم الألماني ، وليتمكن الحلفاء من تحطيم الرايخ الثالث الألماني . وكم كانت هزيمة ألمانيا مريرة ، خاصةً بعد قصف القوات الأمريكية .

وعقب استسلام الألمان وانتحار « هتلر » وإعدام « موسوليني » ، أخذ شكل العالم يتغير بقوة ، وتم تقسيم ألمانيا على أيدي الحلفاء إلى شطرين ، كما بدأت عمليات برلين للإغاثة الجوية في ٢٦ من يونيو ١٩٤٨ .

وفي حين استقلت الهند عن بريطانيا في ١٥ من أغسطس ١٩٤٧ بعد احتلال دام ١٣٢ سنة ، استولى « ماو تسي تونج » بالقوات الموالية له على بكين لتنضم الصين إلى الاتحاد السوفيتي في المعسكر الماركسي ، مما زاد من حدة الاستقطاب الدولي وسط مؤشرات لا تخطؤها العين على تصاعد وتيرة الحرب الباردة بين المعسكرين الشيوعي والرأسمالي . بل إن الولايات المتحدة نفسها بدأت تشهد استغلال هذه الأجواء ، خاصة عندما قاد السيناتور « چون مكارثي » حملة مطاردة شرسة لكل من يشتبه في ولائه أو انتمائه إلى الشيوعية داخل الولايات المتحدة ، ودفع ثمن هذه الملاحقة عديد من الكتاب والمفكرين ونجوم السينما في هوليوود .

وفي ٢٥ من يونيو ١٩٥٠ اشتعلت الحرب في كوريا ، لتمثل - جنبا إلى جنب تقسيم برلين في ١٣ من أغسطس ١٩٦١ ، والمواجهة في خليج الخنازير فى أبريل ١٩٦١ ، والوضع في الكونغو - أبرز نماذج الحرب الباردة عقب الحرب العالمية الثانية . انتهت الحرب الكورية في ١٩٥٣ بهدنة ، لكن بقيت الكوريتان مقسمتين ، وتفصل بينهما منطقة منزوعة السلاح تمتد لمسافة أربعة كيلومترات .

وفي فيتنام تكبدت الآلة العسكرية الأمريكية كبرى هزائمها خلال الحرب الباردة .

لقد جندت الولايات المتحدة لحرب فيتنام ٨ ملايين و٧٦٢ ألف أمريكي ، قتل منهم ٤٧٢٤٤ ، وأصيب ١٣٥٣٢٩ بجراح خطيرة ، و١٥٠٣٧٥ بإصابات طفيفة ، وفقد منهم ٢٤٨٣ أمريكيا . على الجانب الآخر ، شملت خسائر الفيتناميين مصرع ٣٠٠ ألف مدني في فيتنام الجنوبية و٦٥ ألفا في فيتنام الشمالية ، وفي العمليات الحربية قتل ٢٢٣٧٤٨ ، وأصيب ٥٧٠٦٠٠ في فيتنام الجنوبية ، وقتل ٦٦٠ ألفا في فيتنام الشمالية . ولا تتضمن تلك الخسائر ما تكبدته القوات الأمريكية في كمبوديا ولاوس .

بدأت القوات الأمريكية في قصف شمال فيتنام في ١٩٦٤ بدعوى أنها تساند المقاومة التي يبديها الجنوبيون ، ثم أرسلت قوات إلى جنوب فيتنام في السنة التالية . وفي يناير ١٩٦٧ ، طلبت الإدارة الأمريكية من الكونجرس اعتمادا إضافيا لحساب الحرب الفيتنامية مقداره ١٢ مليار دولار . تواصلت المعارك منذ ٣٠ من يناير ١٩٦٨ وحتى ٣٠ من أبريل ١٩٧٥ ، قبل أن تلعق الولايات المتحدة جراحها وتنسحب من فيتنام، التي تحولت فيما بعد إلى عقدة متأصلة في الضمير العام الأمريكي .

ولم تكن حروب « تشي جيفارا » في أمريكا اللاتينية سوى إعلان للثورة في أنحاء القارة .

وفي ١٧ من يوليو ١٩٧٩ ، استولت قوات الساندنيستا على السلطة في نيكاراجوا ، وأطاحت بالدكتاتور « أناستاسيو سوموزا » المدعوم من الولايات المتحدة . وللرد على هذا التطور ، مَوّلت الولايات المتحدة « متمردي الكونترا » من عائدات مبيعاتها السرية من الأسلحة لإيران ، وهو ما عرف بعد ذلك باسم فضيحة « إيران - جيت » .

وفي صباح ٦ من أكتوبر ١٩٧٣ ، الذي وافق العاشر من رمضان وفق التقويم الهجري ، وعيد الغفران (يوم كيبور لدى اليهود) ، استيقظ الإسرائيليون على حقيقة مريرة : الهزيمة ! ففي ذلك اليوم تحركت القوات المصرية والسورية ، إلى جانب قوات عربية أخرى ذات وجود رمزي ، لشن هجمات صاعقة ومدروسة على القوات الإسرائيلية المرابطة عند قناة السويس وفي هضبة الجولان . وفي ١١ من نوفمبر تم توقيع اتفاق لوقف إطلاق النار بين مصر وإسرائيل .

إن حرب ٦ من أكتوبر لم تسقط فقط خط بارليف المنيع ، وإنما أسقطت أيضا الكثير من الخرافات عن القوة الإسرائيلية التي لا تقهر ، وردت الاعتبار ، واستعادت الكرامة العربية التي ضاعت في حرب ٥ من يونيو ١٩٦٧ ، وضاعت معها الكثير من الأراضي العربية ، من بينها : شبه جزيرة سيناء ، والضفة الغربية وقطاع غزة ، والجولان .

وعلى مدار ثماني سنوات (١٩٨٠-١٩٨٨) دارت حرب مدمرة بين العراق وإيران ، حصدت أرواح مليوني شخص ، ولم تنته إلا بقبول الزعيم الإيراني «الخميني» في أغسطس ١٩٨٨ قرار وقف إطلاق النار ، الذي وصفه بأنه يشبه «تجرع كأس من السم» !

وشهدت فترة الستينيات اندلاع «حرب الرمال» بين الجزائر والمغرب ، وتوترت العلاقات بين البلدين إثر اندلاع حرب الصحراء الغربية في ١٩٧٥ ، الأمر الذي «كهرب» آنذاك علاقات الدول المغاربية بعضها مع بعض . لكن الحرب المؤسفة حقا في المنطقة العربية هي الحرب الأهلية اللبنانية . هذه الحرب المجنونة اندلعت فجأة ظهر يوم ١٣ من أبريل ١٩٧٥ بمصادمات مسلحة بين شبان فلسطينيين من مخيم تل الزعتر ومسلحي حزب الكتائب في منطقة عين الرمانة ، لتستمر هذه الحرب نحو ١٥ سنة ، ولتأخذ مختلف الأبعاد السياسية و الطائفية والأيديولوجية الممكنة وغير الممكنة .

وفي نوفمبر ١٩٩٠ وافقت الميليشيات المختلفة على الانسحاب من بيروت ، وفي ديسمبر استكملت ميليشيا القوات اللبنانية انسحابها من شرقي بيروت ، لتسيطر قوات الجيش على العاصمة الموحدة . . أخيرا .

وفي أبريل ١٩٨٢ ، حاولت قوات من الأرجنتين فرض سيطرتها على جزر فوكلاند (أو المالوين) ، لكن رئيسة وزراء بريطانيا - آنذاك - « مارجريت تاتشر » أرسلت أسطولا عسكريا يضم ١٠٠ سفينة حربية إلى فوكلاند ؛ لخوض حرب قصيرة استمرت عشرة أسابيع لتأكيد هيمنة بريطانيا على هذه الجزر .

ولاشك أن الحرب الباردة بدأت طريق النهاية بعد سقوط جدار برلين في ٩ من نوفمبر ١٩٨٩ ، خاصة أن هذا الجدار الذي يمتد على مسافة ٢٨ ميلا كان يشكل ندبة في وجه وقلب أوروبا .

ولم يعمر طويلا برنامج « حرب النجوم » الذي تبناه الرئيس الأمريكي « رونالد ريجان » لنقل الصراع بين المعسكرين الشرقي والغربي ، وهو على أي حال لم ينل من الحرب إلا اسمها .

وتشبه حرب الخليج الثانية التي شنتها قوات التحالف بقيادة الولايات المتحدة ضد العراق لإجباره على الانسحاب من الكويت ، لعبة « الأتاري » ، إذ دارت عملية « عاصفة الصحراء » بأسلوب « الريموت كنترول » وباستخدام أسلحة متقدمة وحديثة مثل صواريخ « الباتريوت » التي تصدت لصواريخ « سكود » ، وكذلك صواريخ « توماهوك » ، إلى جانب القاذفات الأمريكية « ستيلث » أو « الشبح » و« القنابل الذكية » الموجهة ، إما بالأشعة تحت الحمراء أو الليزر أو كاميرات تليفزيونية لإصابة أهدافها بدقة .

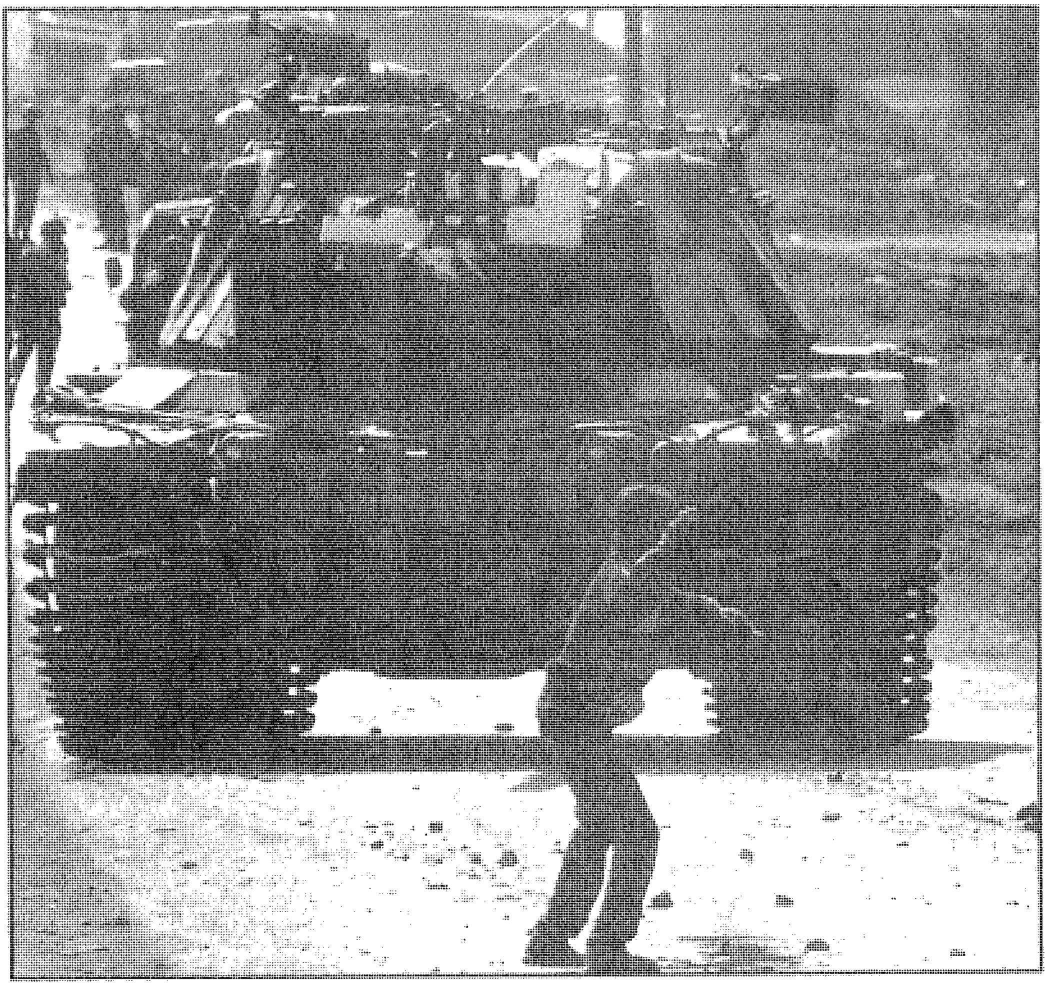
وفي خلال ١٠٠ ساعة انتهت الحرب فعليا ، وانهزم « صدام حسين » ، وقبل أن يخرج من الكويت أمر قواته بإشعال النار في المئات من حقول البترول الكويتية ، كآخر جرائمه ضد هذه الجارة الشقيقة ، التي غزتها القوات العراقية في فجر ٢ من أغسطس ١٩٩٠ .

أما الشرق الأوسط فقد اكتوى بنار الحروب المتتالية ، بدءا من حرب فلسطين - أو النكبة في ١٩٤٨ التي أقيمت إسرائيل كدولة على أثرها- ثم العدوان

الثلاثي على مصر في ١٩٥٦ ، ثم جاء انتصار ٦ من أكتوبر ١٩٧٣ الذي أعاد لمصر و العرب كرامتهم وكبرياءهم .

يتعين أن نشير أيضا إلى الغزو الإسرائيلي للبنان في يونيو ١٩٨٢ ، وإقامة الشريط الحدودي المحتل في جنوب لبنان ، الذي اضطرت إسرائيل إلى الانسحاب منه -باستثناء مزارع شبعا- في ٢٤ من مايو ٢٠٠٠ ، بعد أن كبدتها المقاومة اللبنانية الباسلة خسائر فادحة في الأرواح والمعدات طوال ١٨ سنة .

* * *



انتفاضة الأقصى ضد الاحتلال الإسرائيلي بدأت في سبتمبر ٢٠٠٠



هتلر

هربت السياسة خلال القرن العشرين من الغرف والمكاتب المغلقة ، لتصبح أكثر من أي وقت مضى شأنا عاما تؤثر فيه الشعوب مثلما تتأثر به . فالانتخابات التي أجريت في عدد محدود من الدول في مطلع القرن انتشرت وامتدت لتشمل شعوب كل القارات ، بعد أن أصبحت الديمقراطية البرلمانية نموذجا واسع الانتشار في عالم السياسة الآن .

النساء اللاتي كن مستبعدات من الحياة السياسية لقرون طويلة بدأن الحصول على حقوقهن السياسية ، ففزن بحق التصويت ، ثم أصبحن مرشحات لعديد من المناصب والمواقع المهمة سياسيا .

4

حديث رقيق وعصا غليظة



عمرو موسى



قمة ريتشارد نيكسون مع ماوتسي تونج فى ١٩٧٢

ومع بدء عصر التليفزيون عشية الحرب العالمية الثانية ، ظهر جيل جديد من الساسة أكثر اقترابا وتأثرا بالرأي العام . أظهر هذا الجيل الجديد من القادة مهارات ومواهب لم يكن الساسة السابقون بحاجة واضحة إليها ، وذلك بعد أن أصبح صوت الناخبين هو العامل الرئيس في تحديد اسم الفائز بالمنصب العام .

« السياسة القديمة كانت تشمل أحزابا وسياسات ومبادئ رئيسة ومعارضة ، أما السياسة الجديدة فهي معنية فقط بالصورة الذهنية عنها » . هكذا حدد الباحث الإعلامي الشهير «مارشال ماكلوهان » في ١٩٧٠ الفرق بين سياسة الأمس واليوم . وكنتيجة لذلك ، فإن الرئاسة الأمريكية التي تولاها ذات يوم سياسي مقعد هو « فرانكلين روزفلت » (١٨٨٢-١٩٤٥) صاحب « أحاديث المدفأة » الإذاعية ، ذهبت لاحقا إلى سياسي يتمتع بوجه جذاب هو « چون كيندي » (١٩١٧-١٩٦٣) ، ثم انتقلت بعد ذلك إلى ممثل هوليوود « رونالد ريجان » (١٩١١-) الذي اشتهر باسم « رجل الاتصالات الكبير » ، وانتهت في قبضة الفتى الوسيم « بيل كلينتون » .

واعتبر الكثيرون في الولايات المتحدة أن سنة ١٩٦٠ هي السنة التي غير فيها التليفزيون وجه السياسة الأمريكية إلى الأبد ، وذلك حين تمكن « كيندي » - وكان مجرد سيناتور شاب آنذاك - من التفوق على نائب الرئيس الأمريكي « ريتشارد نيكسون » (١٩١٣-١٩٩٤) في أربع مناظرات تليفزيونية .

وفي مناطق أخرى من العالم ؛ ظلت السياسة ساحة قتال بين الأفكار والأيديولوچيات المتعارضة . قوتان إقليميتان - هما الصين وروسيا - تخلصتا من السلطة الملكية الحاكمة فيهما واختارتا التجربة الاشتراكية ، التي ما زالت تلعب دورا في الصين الشيوعية . وجنبا إلى جنب الفاشية في أوروبا ، صنعت هذه الدول أيديولوچيات جاءت إلى السلطة بطريق القوة وحافظت على وجودها لفترة ما - طالت أم قصرت- عن طريق السيطرة التامة على مقدرات الشعوب ومنع التعددية السياسية .

« السياسة خلف الستار الحديدي » كان الشعار الذي رفعه عجائز الحزب الشيوعي في عديد من دول المعسكر الشيوعي ، وكانت السياسة وقراراتها تتخذ داخل غرف مغلقة ، وفي أثناء الاجتماعات الخاصة بالمكتب السياسي للحزب . . أما لجان الحزب فكانت تتخذ القرارات . ولعدة عقود مضت ، كانت قاعدة الحزب الواحد هي النموذج السائد في شرق أوروبا والصين وفيتنام وكوريا الشمالية وصولا إلى كوبا . لكن دول شرقي أوروبا تمكنت من كسر حاجز الصمت ، وأفلتت من قبضة المكاتب السياسية للحزب الحاكم خلال عقد الثمانينيات ، غير أن القيادات المسيطرة على الحزب الشيوعي في آسيا وكوبا ظلت متحكمة في الوضع هناك بقوة وحزم .

وفي أوروبا الغربية ، انتشرت الأحزاب السياسية بوصفها الطريقة الرئيسة ، خلال القرن العشرين للوصول إلى السلطة بالوسائل السلمية ، ورفعت هذه الأحزاب كل الشعارات ، وشهدت حالات تعايش سلمي بين توجهين مختلفين ، كما هي الحال بين الرئيس الفرنسي « چاك شيراك » ورئيس وزرائه الاشتراكي « ليونيل چوسبان » .

وجددت بعض هذه الأحزاب شبابها كما فعل « توني بلير » (١٩٥٣-) مع حزب العمال البريطاني منذ أن تولى قيادته في ١٩٩٤ ، ووقفت في مختلف الخنادق لتنادي بموضوعات متنوعة ، بدءا من حقوق العمال إلى تحرير المشروعات والشركات ، لكن بعضها أيضا لوح بأجندته الخاصة من القضايا ، مثل إباحة البغاء . . أو في حالات أخرى - مثل بولندا - الترويج لشرب الجعة !

ديمقراطية النازية

وبأسلوب ديمقراطي تماما ، فاز الحزب النازي بزعامة « أدولف هتلر » في انتخابات « الرايخستاج » في ١٩٣٢ بعد أن نال حصة الأسد من مقاعد البرلمان الألماني المذكور ، لكنه سرعان ما بدأ يستغل هذا الفوز لجر أوروبا والعالم أجمع إلى حرب شاملة ومدمرة . لكن « ونستون تشرشل » الذي انتخب رئيسا لوزراء بريطانيا تصدى لأطماع « هتلر » .

وفي آسيا ، بدأت رحلة التغيير حين أخذت القوى الاستعمارية تحزم حقائبها وتجلو عن الدول والقواعد التي تحتلها ، وأصبحت الهند أكبر قاعدة للديمقراطية البرلمانية في العالم ، حين أجرت انتخابات في ١٩٥١ عقب استقلالها في ١٩٤٧ عن التاج البريطاني .

وفي أمريكا اللاتينية ، وصلت عقود من حكم الأنظمة العسكرية خلال حقبة الحرب الباردة إلى خط النهاية ، مع إجراء مجموعة من الانتخابات خلال عقد التسعينيات ، ولكن هذا لم يحدث إلا بعد خوض سلسلة من « الحروب القذرة » ضد من اتهموا في مجال حقوق الإنسان ومؤيديهم ، مما أدى إلى وفاة و« اختفاء » عشرات الألوف في تلك القارة التي تعد الفناء الخلفي للولايات المتحدة ، ذات الدور البارز في عديد من أحداث أمريكا اللاتينية ، من الانقلاب على « سلفادور الليندي » (١٩٠٨-١٩٧٣) في تشيلي لاستشعار توجهاته الاشتراكية ، إلى حرب متمردي الكونترا ضد حكومة الساندينستا في نيكاراجوا ، إلى الحصار الاقتصادي المفروض على كوبا منذ أكثر من ثلاثة عقود ؛ بسبب المواقف والسياسات الثورية لـ « فيدل كاسترو » .

روسيا - بعد انهيار الاتحاد السوفيتي السابق في مطلع التسعينيات ومولد رابطة كومنولث الدول المستقلة- بدأت تتبنى النموذج السياسي الغربي ، إذ أجريت فيها أول انتخابات رئاسية منذ ١٠٠٠ سنة وذلك في يونيو ١٩٩١ ، وهي الانتخابات التي فاز بها « بوريس يلتسين » . . « الرجل المريض » في الكرملين لاحقا .

وإذا انتقلنا إلى جنوب إفريقيا ؛ فإن الانتخابات طوت صفحة استمرت ثلاثة عقود من الفصل العنصري ، في ١٩٩٤ ، لينتخب المناضل البارز « نلسون مانديلا » الذي أمضى في السجن ٢٧ سنة مكافحا ضد النظام العنصري إلى أن خرج من محبسه ؛ ليصبح بعد ذلك زعيما في السلطة يقود بلاده نحو الحرية والديمقراطية ، إلى أن ترك السلطة بعد انتهاء مدته الرئاسية في يونيو ١٩٩٩ .

كشفت الانتخابات في إفريقيا وبعض أجزاء من آسيا - وإن كان أغلبها غير مكتمل الأركان - عن حاجة بعض الأنظمة إلى الحصول على قدر أكبر من الشرعية . وبحلول أواخر التسعينيات ، كان أكثر من ٣٠ دولة إفريقية تملك حكومات منتخبة عبر انتخابات عامة تعتبر نزيهة وحرة .

ووفقا لتقديرات وزارة الخارجية الأمريكية ، فإن عدد الأنشطة العسكرية فى أنحاء العالم يواصل التراجع والتضاؤل ، وإن كانت الانقلابات العسكرية - مثل انقلاب « لوران كابيلا » على دكتاتور الكونغو « موبوتو سيسي سيكو » - شاهدا على استمرار هذه التحركات العسكرية .

وسرعان ما أصبحت استطلاعات الرأي إحدى وسائل قياس مؤشرات واتجاهات الرأي العام ، وتحولت إلى علم متقدم يحظى بأهمية خاصة ، إذ إن عديداً من الحكومات بدأت تتابع وترصد آراء وميول الناخبين . وفي الكثير من المناسبات ، كانت الحكومات تنتهز فرص ارتفاع أسهمها التي تدعمها استطلاعات الرأي ، لتدعو إلى انتخابات عامة .

الدعاية المؤثرة

وفي عالم تسيطر عليه وسائل الإعلام والاتصال ، فإن الأحزاب و السياسيين من كل اتجاه يوظفون خبراء في هذا المجال يطلق عليهم وصف Spin doctors ، أو ما يمكن أن نسميهم المستشارين الإعلاميين ، الذين يسيطرون و يتحكمون في أجندة الأخبار بما يخدم مصالح أطراف أو شخصيات معينة ، ويسعون لرسم صورة ذهنية معينة عن الشخصيات والأحزاب عبر اختيار الألفاظ والأخبار والصور المتعلقة بهم التي تستخدمها وسائل الإعلام .

ولعل أول نماذج المستشار الإعلامي خلال القرن العشرين هو « بول چوزيف جوبلز » (١٨٩٧-١٩٤٥) وزير الدعاية و « التنوير العام » خلال الحكم النازي (١٩٣٣-١٩٤٥) ، الذي صنع صورة « هتلر » . . بعد التجميل !

وكان « هتلر » قد أعلن بعد فشل « انقلاب » ميونيخ الذي حاول القيام به ، قائلا : **« الدعاية ، الدعاية ، الدعاية . إن الدعاية هي كل شيء»** ، ومنذ ذلك الحين وجهت طاقات الدعاية النازية إلى أحط غرائز الإنسان وأكثرها دونية . وكان قد كتب في كتابه الشهير« كفاحي » قائلا : « **لا تستجيب نفسية الجماهير لأي شيء ضعيف . إنهم مثل المرأة التي لا تتحدد حالتها النفسية بالعقل المجرد بقدر ما تتحدد من خلال الاشتياق الوجداني إلى قوة عاتية ترضي طبيعتها . وبالمثل ، تعشق الجماهير القائد الآمر ، وتحتقر المتوسل المستعطف** » . ولذلك تكونت الدعاية النازية من « **اجتذاب الحشد ، وليس من تعليم أولئك الذين تعلموا بالفعل** » . وسرعان ما استعان « هتلر » بـ« جوبلز » ، الذي بدأ منذ مارس ١٩٣٣ في تنفيذ حملة دعائية ترفع شعار استعادة ألمانيا مكانها « الصحيح والمشروع » في العالم .

ولتحقيق هذا الهدف ؛ استعانت وزارة « جوبلز » باثنتي عشرة إدارة تعالج شئون الصحافة والإذاعة والسينما والثقافة والتعليم والمسرح وما إلى ذلك ، بهدف الإشراف على « كل مهام التوجه الروحي للأمة » . اعتمد « جوبلز » على « المسيرة الجماهيرية » وتكريس عبادة الفوهرر (الزعيم) . وقد سجلت السينما الطبيعة المفعمة بالرهبة في تلك المسيرات ، وذلك في فيلم « ليني رايفنستال » - أي انتصار الإرادة - في ١٩٣٥ ، وصورت فيه المخرجة مسيرة سنة ١٩٣٤ ، التي حظيت بأهمية خاصة لدى « هتلر » ، بالنظر إلى أنه كان قد قضى أخيرا على ١٥٠ من خصومه من قادة الحزب النازي وآلاف من مؤيديهم في "ليلة السكاكين الطويلة" (ليلة ٣٠ من يونيو ١٩٣٤ وفجر أول يوليو حين نفذت المذبحة) . ولا يعد فيلم « ليني رايفنستال » مجرد شهادة على ألمعية الدعاية النازية وبراعتها ، وإنما يعد أيضا شهادة على دبلوماسية الحزب النازي في السيطرة على الجماهير ، حتى قال « رودلف هيس » في المسيرة المذكورة : « **الحزب هو هتلر ، وهتلر هو ألمانيا ، وألمانيا هي هتلر** » .

ومن بين جميع وسائل الاتصال الجماهيرية كانت أفلام السينما هي محور اهتمام « هتلر » و « جوبلز » ؛ ولقد كانت الجرائد السينمائية هي التي تولت إقناع الناس بعدالة

القضية الألمانية ، مثلما تولت هوليوود تهيئة الرأي العام الأمريكي ؛ لقبول فكرة دخول الولايات المتحدة في الحرب العالمية الثانية .

وأنتجت أفلام نازية معادية لبريطانيا على وجه الخصوص ، مثل « تمرد في دمشق » (١٩٣٩) و « حياتي من أجل أيرلندا » (١٩٤١) ، لكن الدعاية المعادية للبريطانيين تعرضت لضربة قوية عندما هبط « رودلف هيس » نائب « هتلر » بمظلته الواقية في أسكتلندا في مايو ١٩٤١ . وركز « جوبلز » على الراديو لدعم الدعاية النازية في زمن الحرب ، في حين اهتمت بريطانيا بالملصقات الدعائية والمنشورات لجذب المتطوعين للقتال وتفنيد المزاعم الألمانية ، إلى جانب برامج الراديو التي برز فيها « سيفتون ديلمر » عبقري الدعاية الإذاعية ضد النازية . وقدم الممثل الشهير « لورانس أوليفييه » فيلم « هنري الخامس » (١٩٤٤) ، وأخرج « نويل كوارد » « حينما تخدم » (١٩٤٢) لخدمة الدبلوماسية البريطانية في زمن الحرب ، في حين أضفى فيلم « المدرعة بوتمكين » الذي أخرجه « سيرجي أيزنشتاين » في ١٩٢٦ شرعية جديدة على الثورة البلشفية ، التي اهتمت بتحويل تمرد ميناء أوديسا وعملية قمعه بالقوة في ١٩٠٥ إلى رمز لبذور ثورة ١٩١٧ الحمراء . وجاء فيلم « أيزنشتاين » التالي « أكتوبر » لكي يحيي الذكرى العاشرة لنشوب الثورة . وكان الهدف من « قطار الثورة » - الذي كان يجوب أنحاء الاتحاد السوفيتي السابق حاملا معه آلة عرض سينمائية تقدم أفلاما دعائية ، وكذلك رحلات سفن مثل « النجم الأحمر » - هو تدعيم سيطرة البلاشفة على المدن ، ومد تأثيرهم إلى الريف ، عن طريق الوصول بالثورة إلى الناس .

إن هذه الدعاية الأيديولوجية التي توظف السينما لمصلحتها تتفق كثيرا مع ما قاله « لينين » ذات يوم من أن « **السينما هي أكثر الفنون أهمية بالنسبة لنا** » .

واشتهر الفرنسي « چاك سيجيلا » ، الذي درس الصيدلة قبل أن يهجرها إلى عالم الإعلانات ، بأنه « بائع الرؤساء » ، إذ نظم ١٣ حملة انتخابية في أنحاء العالم ، من بينها حملة الدعاية التي أوصلت الرئيس الفرنسي الراحل « فرانسوا ميتيران » إلى كرسي الحكم في مطلع الثمانينيات . وكان « سيجيلا » مبتكر عبارة « القوة الهادئة » التي أصبحت شعارا شهيرا لحكم « ميتيران » ، وأسهمت في تلميع صورة هذا السياسي البارز .

أما المرأة فقد نالت حق التصويت في بريطانيا وألمانيا في ١٩١٨ ، وفي الولايات المتحدة في ١٩٢٠ ، وفي فرنسا في ١٩٤٤ . وفي مناطق أخرى من العالم ، مثل الكويت -التي يؤمل أن تقر منح النساء حق التصويت والانتخاب في ٢٠٠٣ بعد التغلب على تحفظات نوابها- يتعين على الجنس الناعم الانتظار بعض الوقت لحين الحصول على كامل الحقوق السياسية التي يتمتع بها الرجال .

ولعل أبرز عشرة تواريخ حددت مسار السياسة خلال القرن العشرين تتمثل أولا في تنازل آخر إمبراطور للصين عن السلطة في ١٩١١ ، و ثانيا : تنازل قيصر روسيا « نيقولاي الثانى » عن الحكم في ١٧ من مارس ١٩١٧ ، و بعدها بعشرة أشهر وقع انقلاب البلاشفة . وفي ١٩١٨ فازت النساء بحق التصويت في بريطانيا وألمانيا ، ثم حصلن على حق التصويت في الولايات المتحدة في ١٩٢٠ ، حين تم ضم التعديل التاسع عشر إلى الدستور الأمريكي . وفي ١٩٣٣ ، تولى الحزب النازي بزعامة « أدولف هتلر » السلطة في ألمانيا عقب فوزه في انتخابات ديمقراطية . وفي ١٩٥١ ، أصبحت الهند أكبر دولة ديمقراطية برلمانية في العالم .

وجاءت سنة ١٩٦٠ لتجرى أربع مناظرات تليفزيونية بين السيناتور « جون كيندي» ومنافسه في الانتخابات الرئاسية « ريتشارد نيكسون » وكان نائبا للرئيس الأمريكي آنذاك ، وهو ما دشن عصر التليفزيون المؤثر في الحياة والانتخابات السياسية . وفي ١٩٨٩ انهار جدار برلين ليبدأ سقوط الأنظمة الشيوعية في أنحاء أوروبا الشرقية مثل قطع الدومينو . « بوريس يلتسين » فاز في ١٩٩١ في أول انتخابات ديمقراطية لانتخاب رئيس لروسيا ، الأمر الذي كرس انهيار وتفكك الاتحاد السوفيتي السابق . الحدث العاشر في قائمة أهم التواريخ التي حددت مسار السياسة خلال القرن العشرين هو انتخابات جنوب إفريقيا في ١٩٩٤ ، وهي أول انتخابات متعددة العرقيات تشهدها البلاد .

سقوط وصعود

أما أبرز عشرة تواريخ في عالم الدبلوماسية خلال القرن العشرين . . فتبدأ بتاريخ الأول من أغسطس سنة ١٩١٤ ، حين نشبت الحرب العالمية الأولى التي أسقطت النظام الدبلوماسي القديم في أوروبا . وفى ٢٨ من أبريل ١٩١٩ ، وقعت دول التحالف المنتصرة اتفاقية فرساي واتفقت فيما بينها على إنشاء عصبة الأمم . وفي ٣٠ من سبتمبر ١٩٣٨ ، تم توقيع معاهدات ميونيخ التي اتفقت فيها فرنسا وبريطانيا على نزع تسلح تشيكوسلوفاكيا ، وجسدت هذه المعاهدات حالة التهدئة بين البلدين . وفي١٢ من أغسطس عام ١٩١٤ ، وقع الرئيس الأمريكي « فرانكلين روزفلت » ورئيس الوزراء البريطاني ميثاق الأطلنطي ، وهو الوثيقة المؤسسة لجماعة الأطلنطي عقب الحرب العالمية الثانية ، ثم حلف شمال الأطلنطي « الناتو » .

ميثاق الأمم المتحدة -التي حلت محل عصبة الأمم- تم توقيعه في سان فرانسيسكو في ٢٦ من يونيو ١٩٤٥ ، على حين وافقت دول أوروبية في ١٨ من أبريل ١٩٥١ على تشكيل الاتحاد الأوروبي للفحم والصلب ، وهو أول خطوة باتجاه إنشاء الجماعة الأوروبية ، وإقامة قدر من التوازن مع القوتين الأمريكية والسوفيتية آنذاك .

وفي أول سبتمبر ١٩٦١ ، تأسست حركة عدم الانحياز في بلجراد كمنتدى رئيس ، يمثل مصالح وتطلعات الدول النامية . وفي ٢٠ من يونيو ١٩٦٣ ، وافقت الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي في چنيف على إقامة خط هاتفي ساخن بين البلدين لمناقشة القضايا المهمة والعاجلة .

ويعد رفض الثورة الإيرانية للمبادئ والأفكار السياسية والاقتصادية الغربية في يناير ١٩٧٩ حدثا مهما في تاريخ الدبلوماسية خلال القرن العشرين ، وربما يفوقه أهمية -مرة أخرى- انهيار جدار برلين في ٩ من نوفمبر ١٩٨٩ ، الأمر الذي ألغى تقسيم المدينة ، وفتح الطريق لسقوط الأيديولوچية الشيوعية أمام اقتصاد السوق الحرة والنظام الليبرالي .

الدبلوماسية التي كان ينظر إليها قديما على أنها فن الكذب من أجل مصلحة الوطن ، خرجت خلال القرن العشرين من تحت عباءة المستشاريات في الدول وانتقلت إلى المؤتمرات الدولية : السيرك الإعلامي العالمي . ولكن المبادئ الحاكمة التي أوردها الرئيس الأمريكي الأسبق « تيودور روزفلت » (١٨٥٨-١٩١٩) خلال لقائه مع الدبلوماسيين في مطلع القرن العشرين ظلت قائمة حتى الآن ، إذ نصحهم « روزفلت » بأن عليهم « التحدث برقة وهم يحملون عصا غليظة » !

« مادلين أولبرايت » (١٩٣٧-) وزيرة الخارجية الأمريكية في إدارة الرئيس الأمريكي « بيل كلينتون » علقت بدورها على الصراع المحتدم في البلقان بالقول إنها تفضل أيضا « الدبلوماسية المدعومة بالقوة » .

وربما كان وزير الخارجية الأمريكي الأسبق « هنري كيسنجر » (١٩٢٣-) المولود في بافاريا الألمانية نموذجا لدبلوماسية أخرى هي « الخطوة خطوة » ودبلوماسية « البنج بونج » التي اتبعها للتقارب مع الصين وللترتيب للانسحاب الأمريكي من فيتنام خلال عقد السبعينيات ، وكذلك خلال المحادثات المصرية - الإسرائيلية عقب حرب أكتوبر ١٩٧٣ . وقد كان من ثمار تكتيكات ثعلب السياسة الأمريكية ، الذي نال جائزة نوبل للسلام في ١٩٧٣ ، تلك القمة المفاجئة بين الرئيس الأمريكي « ريتشارد نيكسون » والزعيم الصيني « ماو تسي تونج » في فبراير ١٩٧٢ .

في مصر والعالم العربي ، برز عديد من الدبلوماسيين ، منهم -على سبيل المثال لا الحصر - الدكتور « محمود فوزي » (١٩٠٠-١٢ من يونيو ١٩٨١) ، الذي أصبح أول سفير لحكومة ثورة ١٩٥٢ في لندن ، واختير وزيرا للخارجية في ٩ من ديسمبر ١٩٥٢ ، وظل متقلدا هذا المنصب لفترة طويلة تعاقبت عليها الوزارات ، وشهدت هذه الفترة مفاوضات الجلاء ، واتفاقية السودان ، ومولد الدبلوماسية الجديدة ، ودبلوماسية الحياد الإيجابي ، وأزمة السويس ، والتأميم . وحين اختاره الرئيس المصري « أنور السادات » في ٢٠ من أكتوبر ١٩٧٠ لرئاسة الحكومة ، بعث رئيس الوزراء البريطاني - آنذاك - « إدوارد هيث » برسالة إلى الرئيس « السادات » محييا

القرار ، قائلا : « لقد وضعت النوتي الماهر قائدا لسفينة تتلاطمها الأمواج » . ومن أقوال الدكتور « فوزي » : « **هناك أناس تنفع معهم قوة المنطق ، وآخرون لا يجدي معهم إلا منطق القوة** » .

ووسط تغيرات وتحولات عدة في السياسة الخارجية ، خضعت الدبلوماسية بدورها لتغييرات رئيسة خلال القرن العشرين ، لعل أهمها هو ذلك التحول من الحوار القومي والإقليمي إلى الحوار العالمي . وفي حين أن الدول ذات السيادة - والتي تتراوح في الحجم بين الإمبراطورية مثل الاتحاد السوفيتي السابق ، إلى الدول المتناهية الصغر مثل جزر فانواتو - اكتسبت معظم قوتها الخارجية من مشاركاتها في المنظمات الدولية ، فإنها تظل الوحدة الرئيسة في العلاقات الدولية .

عصبة الأمم ، يمكن النظر إليها الآن على أنها كانت ناديًا خاصًا للقوى الكبرى التي تسعى للدفاع عن مصالحها أولا . ويكفي أن نشير إلى أن عصبة الأمم أعلنت أنه لن تكون هناك اتفاقية سارية المفعول ، إلا إذا تم إقرارها من جانب أمانتها العامة . غير أن عصبة الأمم التي اهتزت وفقدت قوتها حين قررت الولايات المتحدة عدم التوقيع بالانضمام إليها كعضو ، عرفت طريق النهاية بسبب عجزها عن تطبيق المبادئ التي قامت عليها . ولعل أبرز أوجه فشلها تمثل في غزو القوات الفاشية الإيطالية لإثيوبيا ، وإعادة تسليح ألمانيا في تحد واضح لاتفاقية فرساي ، وعجزها عن منع الغزو الياباني لمنشوريا .

آخر مسمار في نعش عصبة الأمم كان اتفاق ميونيخ في ١٩٣٨ ، حين عاد الزعماء الأوروبيون إلى عاداتهم القديمة واستغنوا عن تشيكوسلوفاكيا لاسترضاء ألمانيا النازية ، في محاولة لتجنب نشوب الحرب ، التي وقعت بعد ذلك بالفعل وامتدت إلى أرجاء المعمورة .

الهدف نفسه - الانفتاح والوضوح - قامت عليه الأمم المتحدة وريثة عصبة الأمم في حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية ، والتي تم توقيع ميثاقها في سان فرانسيسكو في ١٩٤٥ .

وفي فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية ؛ حل توازن الرعب محل توازن القوى، بعد أن أخذت الأسلحة النووية في الانتشار وأخفقت الوسائل الدبلوماسية في تهدئة هذا السباق المحموم . وهكذا تبنت الدبلوماسية نهجا جديدا يسير في اتجاهين متوازيين، في حين دخلت القوتان العظميان في صراع أشبه بمصارعة السومو ، وذلك على الساحة الدولية ، وبدأ ضخ المساعدات الدولية وصفقات الأسلحة ، إضافة إلى مزيج من الخدع والمناورات واستعراضات القوة والتهديدات ، كما حدث على سبيل المثال في أزمة خليج الخنازير ، أو أزمة الصواريخ الكوبية سنة ١٩٦٢ .

وفي ظل هذه الأجواء العصيبة ؛ لمع اسم وزير الخارجية السوفيتي الأشهر « أندريه جروميكو » (١٩٠٩-١٩٨٩) ، الذي اكتسب لقب « السيد لا » لمواقفه المعارضة في عديد من المحافل الدولية ، كما أصبح العالم كله على حافة المواجهات العسكرية ، على حين تحولت الأمم المتحدة إلى ناد ، مديره مسئول أمام أعضائه .

جماعات المصالح

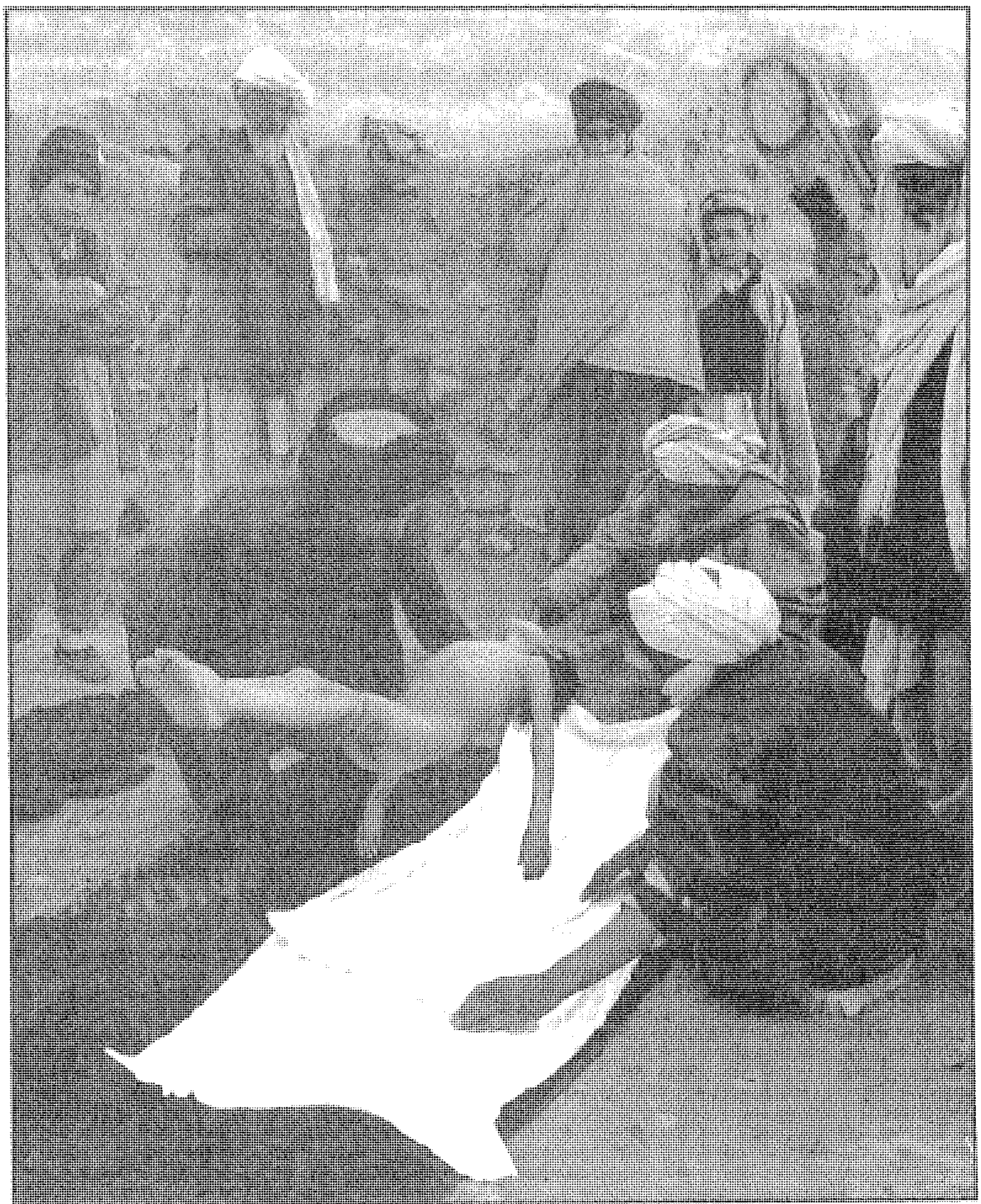
شهدت السنوات الأخيرة من القرن العشرين بروز دور الأمم المتحدة في حفظ السلام العالمي ، وظهور عديد من جماعات المصالح التي تؤثر بقوة في قرارات الدول والمنظمات العالمية ، بدءا من الأمم المتحدة والبنك الدولي وصندوق النقد الدولي ؛ إلى المنظمات غير الحكومية وجماعات حقوق الإنسان . والأهم من ذلك كله : الشركات متعددة الجنسيات ووسائل الإعلام النافذة ، وبدا دور الصحافة عميقا ومؤثرا في اتخاذ القرارات الدولية والكشف عن القضايا المختلفة والفضائح والفظائع الدولية .

وبطبيعة الحال ؛ تأثرت السياسة بالتقدم التكنولوچي المذهل . ففي حين كان بوسع قيصر روسيا « نيقولاي الثاني » قطع المفاوضات خلال الحرب العالمية الأولى ببساطة شديدة ، عن طريق قطع الحرارة عن خطه الهاتفي ، فإن الخط الساخن خلال الحرب الباردة أبقى رئيسي الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي على اتصال دائم حتى في فترات التوتر في العلاقات بين البلدين .

القمم العالمية والإقليمية تحولت إلى عمل روتيني لوكالات الأنباء ، في حين تمكنت الاتصالات عبر الأقمار الصناعية من توفير تغطية إخبارية تليفزيونية لأحداث مهمة ؛ مثل بوادر ووقائع حرب الخليج الثانية (١٩٩٠-١٩٩١) ، كما ساعد تطور وسائل النقل والسفر في تحويل العالم إلى قرية صغيرة .

السياسة والدبلوماسية أصبحتا إذًا مجرد لاعبين في ملعب ضخم تشارك فيه الأقمار الصناعية السريعة ، لتتهاوى الحواجز الثقافية في ظل حالة العولمة التي يشهدها المجتمع الدولي ، بغض النظر عن مدى الاتفاق والاختلاف مع هذا المفهوم الذي أصبح لغة العصر ، مع إسدال الستار على القرن العشرين . . . فقد سقطت الجغرافيا تحت سنابك ثورة المعلومات والاتصالات !

* * *



المجاعات والأوبئة حاصرت الشعب الأفغاني طوال عقدي الثمانينيات والتسعينيات



« حقول القتل » راح ضحيتها الأبرياء ضحيتها الأبرياء في البوسنة

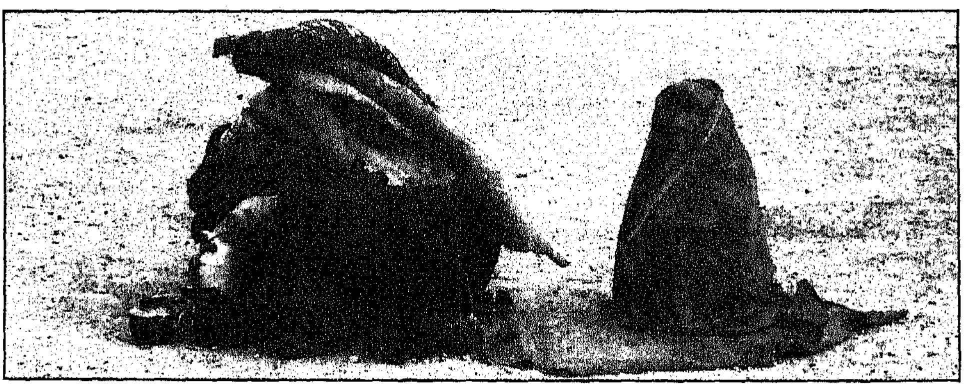
« بالإمكان دائماً أحسن مما كان » . . شعار رفعته البشرية خلال القرن العشرين ، بعد أن أنجزت سنة بعد أخرى ما عجزت عن تحقيقه طوال قرون مضت .

البداية كانت مجرد مواجهة مع الخطر الداهم والأمراض الفتاكة التي كانت تنهش في أجساد الضحايا ، والنتيجة أمراض حديثة أكثر فتكا بالإنسان ، وأمراض أخرى تستيقظ بعد سبات طويل ، وإشعاعات نووية تقتل وتصيب بتشوهات مختلفة !

إن إطالة العمر حرب غير مضمونة العواقب ، انتصر فيها البشر مرات بفضل

5

حرب الوجود .. ووهم الخلود



لاجئة أفغانية في أحد معسكرات اللاجئين

التطورات العلمية والطبية الحديثة ، غير أن أولى ضحايا هذه الحرب بكل تأكيد هم بنو البشر أنفسهم !

ربما يرى البعض أن الحياة - كما يقول الفيلسوف « توماس هوبز » - قاسية وقصيرة ، لكن شيئا واحدا على الأقل تغير إلى الأفضل خلال القرن العشرين : لقد أصبح الناس يعيشون فترة أطول .

الحقائق تتكلم عن نفسها ، ففي ١٩٠٠ بلغ متوسط العمر المتوقع للرجال في الدول الصناعية نحو ٤٥ سنة وللنساء ٥٠ ، ولكن بعد مرور ١٠٠ سنة على ذلك فإن الأرقام تشير إلى ارتفاع المتوسط المتوقع لأعمار الرجال إلى ٧٥ سنة ، وللنساء إلى ٨٠ سنة . وفي ١٩٠٠ كان ١٪ فقط من تعداد سكان العالم يبلغ ٦٥ سنة فأكثر . أما في ١٩٩٩ فإن الأرقام بلغت ٨٪ ، وفي ٢٠٢٠ ينتظر أن ترتفع النسبة إلى نحو ٢٠٪ في الولايات المتحدة ، وأن تصل هذه النسبة إلى رقم أعلى من ذلك في أوروبا .

ومن الواضح أن تحسن سياسات الصحة العامة ، والإسكان ، والعادات الغذائية ، وتقدم الرعاية الطبية بما في ذلك انتشار المضادات الحيوية والتطعيم وعمليات زرع الأعضاء ، قد أسهمت - في مجملها - في إحداث ثورة أدت إلى إطالة عمر الإنسان ، وهو أمر يتوقع أن يستمر مؤشره في الارتفاع خلال الفترة المقبلة .

ويتعين أن نتوقف قليلا أمام ما يقوله « توماس كيركوود » ، البروفيسور في التطور البيولوجي في جامعة مانشستر البريطانية ، إذ يؤكد أن « الناس يعيشون الآن عمرا يكاد يقترب كثيرا من أقصى طاقتهم البيولوجية » . ويضيف « كيركوود » قائلا : « جرت العادة على أن تتوقف مسيرة الحياة بسبب الشيخوخة ، وتراكم التدهور في الحالة الصحية وتقادم وظائف الأعضاء » . هذا الارتفاع في متوسط الأعمار المتوقعة حدث في قرن من أبرز ملامحه العنف المتزايد ونشوب حربين عالميتين ، وابتكار وسائل حديثة ومبتكرة للقتل الجماعي وفناء « الأعداء » ، من خلال ظهور أسلحة فتاكة مثل الغازات السامة والقنابل الهيدروجينية ، وكذلك الأسلحة الكيميائية والبيولوجية والنووية .

وتشير التقديرات إلى أن نحو ٩٠ في الألف من الوفيات خلال القرن الماضي كانت بسبب الحرب أو آثارها الجانبية ، مقارنةً بنسبة ١٥ في الألف خلال الفترة بين سنتي ١٨٠٠ و١٨٩٩ .

ولكن حتى خلال فترات السلم ، فإن الأعداء الجدد للبشرية كانوا بالمرصاد ، إذ إن نحو ٢٥ مليون شخص (أي ما يقرب من ثلاثة أمثال عدد ضحايا الحرب العالمية الثانية) راحوا ضحية حوادث السير ، في ظل تزايد استخدام السيارات والحافلات والقطارات خلال القرن العشرين .

مرة أخرى . . يبرز التفاوت الكبير حتى في الموت بين بني البشر : بين الطبقات الاجتماعية (الفقراء يموتون عادة أصغر) ، والشعوب (متوسط العمر المتوقع يظل أقل بكثير في الدول النامية) .

والخلود فكرة راودت الجنس البشري منذ أقدم العصور ، حتى إن ملحمة «جلجامش» السومرية المكتوبة قبل ٢٠٠٠ سنة من الميلاد تكشف عن مدى أهمية حلم الخلود . وهكذا فإن أعدادا كبيرة من الأمريكيين دفعوا مبالغ مالية طائلة لتجميد أجسادهم بعد الموت في درجات حرارة أقل من ١٩٦ مئوية ، على أمل- أو وهم - أن يتوصل العلم والتكنولوجيا في المستقبل إلى وسيلة ما ؛ لكي يستأنفوا الحياة أو يعودوا إليها !

وبعيدا عن هذه التخيلات ، فإن « كيركوود » يعتقد أن أولى مهام العلم في الفترة المقبلة هي تحسين ظروف معيشة البشر حين يتقدمون في العمر ، بما يزيد من اللياقة الصحية للكبار . . وهو في نظره أهم من المتوسط المتوقع للعمر .

إن متوسط العمر المتوقع ينتظر له مواصلة الارتفاع في القرن الجديد - كما يتوقع « كيركوود » - ولكن سرعة الارتفاع ستقل عما حدث خلال القرن العشرين . على أن هناك بصيصا من الأمل في أن يسهم العلم الحديث في الاحتفاظ بحالة صحية جيدة للإنسان على الرغم من تقدم عمره ، خاصة بعد أن تم اكتشاف بعض أسماك « الهيدرا »

التي لا تشيخ إلى أن تموت . . وربما تكون هذه هي نقطة البداية نحو مزيد من البحث والدراسة .

ويؤكد العلماء أنه لا يوجد جين معين مرتبط بالموت . وخلال القرن العشرين حدث تقدم مذهل في أبحاث الجينات الوراثية ، وهندسة الأنسجة ، وزرع ونقل الأعضاء ، والوقاية أو العلاج من أمراض فتاكة ، كانت فيما مضى أمراضًا ميئوسًا من الشفاء منها ؛ مثل : اكتشاف مزيد من الجينات المسئولة عن التسبب في أنواع مختلفة من السرطان ، ورسم خريطة وراثية (جينية) لجسم الإنسان ، وهي المنظومة المؤلفة من نحو ٢٠٠ ألف جين .

إن مشروع تسجيل الخريطة الكاملة لخيوط الجينات التي تعرف باسم « الجينوم البشري » الذي أعلن فريقان دوليان من العلماء - أحدهما في الولايات المتحدة بقيادة الدكتور « جي . كريج فينتر » ، والثاني في بريطانيا بقيادة الدكتور « فرانسيس كولينز » - في ٢٦ من يونيو ٢٠٠٠ إنجازه ، يتوقع أن يقدم قراءة تفك أسرار الشفرة الوراثية للإنسان ومعرفة طبية كاملة بالتركيبة المعقدة البالغة الروعة والإبداع لهذا المخلوق البشري وهو الإنسان ، وإدراك تفاصيل دقيقة في « كتاب الحياة » ، مما يمكن أن يسهم في تحديد نوع الأمراض المتوقعة في حياة الفرد ، والعلاج الطبي الذي يمكن استخدامه للوقاية من هذه الأمراض أو الشفاء منها .

وهكذا ، فإن العلماء في الولايات المتحدة أجروا تجربة ناجحة أبقوا خلالها «قردا» على قيد الحياة لمدة أسبوعين ، بعد زرع رأسه فوق جسد جديد !

إن مثل هذه التطورات العلمية التي لم تكن متخيلة في السابق ، هي التي جعلت البعض يندفع ليتحدث عن أسطورة الخلود أو الإنسان الخالد ، وهو عنوان مسرحية كتبها « هينكوت ولیامز » قبل ٢٠ سنة من نهاية القرن الماضي ، يقول فيها : إن هناك أناسا يولدون اليوم ربما لن يموتوا أبدا ، دون أن يدري هؤلاء الباحثون عن وهم الخلود أن الموت هو الحقيقة الأساسية في حياة جميع المخلوقات . والأخطر من ذلك ، ما أعلن عنه العالم الاسكتلندي « إيان ولموت » في فبراير ١٩٩٧ بشأن استنساخ النعجة

«دوللي» ، في إطار الأبحاث التي تستهدف استنساخ بني البشر للحفاظ عليهم أحياء أو ضمان عدم زوالهم ، و هو أمر أثار جدلا في أنحاء العالم ، خاصة في ظل ما تردد عن وجود محاولات لاستنساخ زعامات معينة ، مثل زعيم الثورة البلشفية الروسية «لينين» بعد موته بأكثر من ٧٨سنة ، على حد قول البروفيسور « فاليري بيكوف » رئيس المعهد الروسي للدراسات البيولوجية .

ولعل أبرز عشرة تواريخ في العلاقة بين الإنسان والموت خلال القرن العشرين كالتالي : في١٩١٠ نجح الألماني « بول إيرليش » (١٨٥٤- ١٩١٥) في تطوير علاج جديد لمكافحة مرض السفلس ، وفي الفترة بين سنتي ١٩٠٨ و١٩١٠ تم اعتماد نظام المعاشات الحكومية لأسر المتوفين في بريطانيا وفرنسا .

وفي الأول من يوليو سنة ١٩١٤ ، لقي ٢٠ ألف رجل مصرعهم في يوم واحد من القتال خلال معركة « سوم » في الحرب العالمية الأولى . وفي ١٩٣٢ اكتشف الألماني «جيرهارد دوماجك» نوعية جديدة من الخلود ؛ إذ كان « دوماج ؛ » - الذي توفي متأثرًا بمرض السرطان - أول رجل في العالم يتم تجميده في درجة حرارة معينة ؛ على أمل إعادته إلى الحياة يومًا ما .

وفي ٣ من ديسمبر ١٩٦٧ ، أجرى طبيب القلوب الشهير « كريستيان برنارد » في جنوب إفريقيا أول عملية زرع قلب ، وعلى الرغم من أن المريض (لويس فاشكانسكي) مات بعد ١٨ يوما من إجراء العملية متأثرا بالتهاب رئوي ، فإن هذا الفتح الطبي كان بالغ الأهمية .

وفي ١٩٦٨ ، أسست حركة دينية في لندن على يد « سيسلي ساوندرز » لرعاية الفقراء والمعوزين بدلا من أن يموتوا جوعا . غير أنه في ٢٢ من يناير ١٩٧٣ ، تمت إباحة الإجهاض في الولايات المتحدة ، وتبعتها دول عدة أخرى ليقتل الملايين من الأجنة دون سبب جنوه . وفي أكتوبر ٢٠٠٠ ، طرحت في الأسواق الأمريكية حبوب مايفيبريكس التي تحدث الإجهاض دون حاجة لجراحة أو عيادة . هذه الحبوب التي أعلن الدكتور « إتيان - إميل بوليو » اختراعها في مختبر فرنسي في ١٩٨٠ ، ومنحها مسمى RU 486 ، فتحت جبهة طبية وقانونية وأخلاقية في معركة الإجهاض .

وفي ٥ من يونيو ١٩٨١ ، اكتشف فريق من العلماء خمس حالات من نقص المناعة في صفوف الشواذ جنسيا ، وهو المرض الذي عرف فيما بعد باسم « الإيدز » الذي أدى إلى وفاة عشرات الملايين في أنحاء العالم حتى الآن ، دون ظهور علاج فعال له .

وفي الأول من يوليو سنة ١٩٩٦ ، تم في المقاطعة الشمالية من أستراليا تطبيق أول قانون يسمح بما يسمى « القتل الرحيم » ، أي إزهاق أرواح المرضى الذين يعتقد الأطباء أنه لا رجاء من شفائهم !

ومن الخطير حقا أن يدور خلال القرن العشرين جدل عنيف بين معسكرين متباينين : المعسكر الأول يدعو إلى « حق الحياة » للجميع ، من الأجنَّة الذين لم يخرجوا من بطون أمهاتهم ، والمرضى في المنازل والمستشفيات ، وصولا إلى الشيوخ والعجائز . أما المعسكر الآخر فهو يرفع شعار « حق الاختيار » ، وهو بطبيعة الحال شعار مراوغ ، يطالب بحق البعض في إنهاء حياتهم أو حياة أبنائهم أو ذويهم بدعوى عدم الرغبة في الإنجاب حينا ، أو الرغبة في وقف معاناة المريض أو إنهاء حياته حين لا يكون هناك معنى للبقاء على قيد الحياة !

على أي حال ، فإن مولد« لويز براون » - أول طفلة أنابيب - في لانكشاير في ٢٥ من يوليو ١٩٧٨ ، دشن عصرا جديدا من نجاح العلم في التغلب على مشكلات عدم الإنجاب ، إذ كانت أول طفلة في العالم تولد بالإخصاب خارج الرحم .

الأنفلونزا الإسبانية

وإذا عدنا إلى مطلع القرن العشرين ، وبالتحديد في مارس ١٩١٨ ، فإننا سنجد تاريخا آخر له أهميته في حياة البشرية . فقد انتشر وباء الأنفلونزا بين سنتي ١٩١٨ و١٩١٩ على نطاق واسع ليتحول إلى كارثة متحركة . انتشرت الأنفلونزا وعبرت الحدود بين الدول لتصيب بعدواها نحو مليار نسمة ، وتتسبب في وفاة أكثر من ٢٠ مليون إنسان في غضون أقل من سنة واحدة .

ولأن إسبـانيـا كـانت من أكـثر الدول المضـارة من هذا الوبـاء القـاتل ، فـإن المرض أطلق عليه اسـم « الأنفلونزا الإسبانية » ، على الرغـم مـن أنه يعتـقد أن الفيـروس ظهر أول ما ظهر في فـورت رايلي بولاية كنساس الأمريكية في مارس ١٩١٨ . وقد أسهم الجنود الأمريكيون الذين نزلوا في فرنسا للمشاركة في معارك الحرب العالمية الأولى في نشر المرض في أنحاء أوروبا ، أمـا البحارة الأمريكيون الذيـن سافـروا لاحقـا عن طريق البحر فقد شـاركوا في نشره في مناطق أخرى من العالم . وهنا وقف الأطباء عاجـزين عن فعل شيء لوقف انتشار الأنفلونزا القاتلة . وبحلول الوقت الذي توقفت فيه المسيرة السوداء للمرض - وربما بالسرعة نفسها التي ظهـر بهـا- فـإن ١٢ مليون إنسـان في الهند ونحو ٥٥٠ ألف شخص في الـولايات المتحدة رحلوا عن الدنيا بسبب هـذه الأنفلونزا الشرسة .

إن انتشارها السريع في رئتي وسوائل جسم المريض ، يؤدي إلى المصير المحتوم . . وكأن الضحية قد ماتت غرقا !

ومن الجـائز أن نقول إن اهتمام هؤلاء العلماء بالأنفلونزا الإسبانية ليس مجرد فضول تاريخي ، إذ يخشى علماء العصر الحديث أن تتكرر كـارثة انتشار أنفلونزا قاتلة مماثلة في أنحاء العـالم في أي وقت من الآن! على أن الأنفلونزا الإسبانية لم تكن سوى أحد الأوبئة القاتلة خلال السنوات المائة الأخيرة ، وإلى جانبها كان الجدري قاتلا خلال القرن العشرين ، حتى إنه كان يصيب أكثر من عشرة ملايين شخص سنويا ، وقتل نحو مليوني شخص في سنة ١٩٦٧ وحدها .

وفي ١٩٣٩ ، كان نحو ٧٠٠ مليون شخص في أنحاء العالم يعانون آثار الملاريا ، التي تسببت في وفاة أعـداد ضخمة من بني البشر . وفي الفـترة بين ١٩٧٢ و١٩٧٦ تراوح عدد حالات الإصابة بالملاريا بين ٢ ، ٣ و ٦ ، ٧ مليون حالة ، وذلك على الرغم من انتشار التطعيم واللقاحات المتطورة .

وكـان عـالم البكتيريا الإنجليزي السير « رونالد روز » قد اكتشف حركة ميكروب الملاريا في تسخين الدم واحتراقه ، واكتشف كيفية القضاء عليه ، فاستحق جائزة نوبل في ١٩٠٢ . وفي المناطق المدارية مـا زال عشرات الملايين يعانون الملاريا ، وأكثـر من

مليوني شخص منهم يموتون سنويا بسبب هذا المرض الذي يسهم البعوض في نقله وانتشاره . كما قتل مرض الكوليرا أكثر من ٤ آلاف شخص في مخيمات اللاجئين الرونديين في زائير خلال سنة ١٩٩٤ .

وفي ١٩٨٠ قدرت منظمة الصحة العالمية أن نحو ٢٥ مليون شخص بينهم ٦ ملايين طفل- يموتون كل سنة بسبب أمراض ناجمة عن استخدام مياه غير نظيفة وغير صالحة للشرب ، بل إن ٣٠ مليون شخص ماتوا خلال عقد التسعينيات من جراء إصابتهم بالسل في آسيا وإفريقيا .

أما الإيدز فإنه يتسبب في وفاة ٥٠ ألف شخص سنويا في الولايات المتحدة وحدها ، وذلك على الرغم من الجهود المحمومة للتوعية والوقاية والتحذير من أشكال انتقال هذا المرض القاتل ، الذي ينتشر بوجه خاص في جنوب الصحراء الكبرى في إفريقيا ، حتى إن نحو مليون صبي وفتاة دون الخامسة عشرة في تلك المنطقة كانوا مصابين بفيروس « إتش . آي . في » المسئول عن الإيدز في ١٩٩٩ .

ووفقا لتقديرات الأمم المتحدة التي أعلن عنها في ٢٨ من نوفمبر ٢٠٠٠ ، فإن فيروس الإيدز أصاب ٣٦ مليون شخص في أنحاء العالم ، من بينهم ٥ ,٣ مليون حالة خلال سنة ٢٠٠٠ وحدها . وتشير الإحصائيات إلى أن الإيدز تسبب في وفاة ٢١ مليون شخص خلال العقدين الأخيرين من القرن العشرين . وإضافةً إلى ذلك ؛ فقد ظهرت أمراض قاتلة أخرى حديثة العهد بالإنسان ، مثل « الإيبولا » التي أزهقت أرواح أعداد كبيرة من الأفارقة في ١٩٩٤ ، وكذلك حمى « دنفي وجونان » . . وهي أمراض أسهمت الحضارة والسياحة العالمية في انتشارها .

وفي سبتمبر وأكتوبر ١٩٩٤ ، استيقظ مرض الطاعون في مدينة سورات الهندية وأودى بحياة العشرات في الهند ، قبل أن ينتقل إلى زيمبابوي وغيرها من البلدان ، بعد أن كان قد انحسر في ١٩٦٦ . ولولا استخدام المضادات الحيوية لتكررت مجزرة الطاعون الرهيبة التي أودت بحياة ٤٤ مليون نسمة في أوروبا في القرن الرابع عشر ، و١٢ مليون نسمة في الهند في الفترة ما بين عامي ١٨٩٦ و١٩٣٦ . وزحفت أمراض

أخرى في منتصف عقد التسعينيات ، أبرزها انتشار الجرثومة التي تأكل لحم الإنسان وتسمم أنسجته وتؤدي - في غياب المعالج السريع - إلى الموت خلال ساعات .

ومن قلب أوروبا انتشر مرض « جنون البقر » ، الذي أثار الرعب في النفوس منذ ١٩٩٦ حتى نهاية القرن العشرين ، وأدى إلى حظر الكثير من الدول استيراد لحوم البقر الواردة من أوروبا ، وبالذات من بريطانيا ؛ نظرا لأن هذا المرض يهدد صحة وحياة الإنسان .

ونتيجةً لانتشار جنون البقر ، تعين على دول أوروبية عدة التخلص من رءوس الماشية ، حتى بلغت فاتورة مكافحة هذا المرض نحو ٢,٦٥ مليار دولار . وبسبب مرض القدم والفم -الذي حدده الإنسان في ١٨٩٧ واختفى من الولايات المتحدة في ١٩٢٩ ، ومن كندا في ١٩٥٢ ، ومن المكسيك في ١٩٥٤- عاشت دول أوروبية وإفريقية وآسيوية - مثل بريطانيا وجنوب إفريقيا وكوريا الجنوبية في سنة ٢٠٠٠ - حالة من الرعب ، خوفا من انتشار هذا المرض الذي ينتقل بسرعة رهيبة في صفوف قطعان الماشية .

وإذا كانت الأمراض والأوبئة قد تسببت في إزهاق أرواح الكثيرين خلال القرن العشرين ، فإن بني البشر يتحملون أيضا المسئولية عن مقتل ملايين عدة ، سواء خلال الحروب ، أو بسبب الكوارث التي ارتكبها فريق من البشر ضد عدد آخر منهم . ويكفي أن نشير إلى كابوس الحربين العالميتين الأولى والثانية ، إذ شاع مصطلح « حقول القتل » للإشارة إلى المعارك والحروب ، التي أسفرت عن مقتل أعداد ضخمة من المدنيين أو العسكريين .

وعلى الرغم من أن الأرقام الدقيقة لعدد ضحايا الحربين العالميتين صعبة التحديد ، فإن ضحايا جريمة تالية أو ناجمة عن هذه الحرب المدمرة بشكل أو بآخر - ونعني بذلك قصف هيروشيما وناجازاكي بالقنبلة الذرية في أغسطس ١٩٤٥ - بلغوا في نهاية السنة ١٤ ألف ضحية ، وفي ناجازاكي مات ٧٠ ألف شخص نتيجة هذه الجريمة خلال الأشهر الأربعة التالية .

وعلى يد طغاة بارزين مثل « چوزيف ستالين » في جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق ، و « أدولف هتلر » في ألمانيا وأنحاء العالم أجمع ، و « ماو تسي تونج » في الصين ، راح الملايين ضحية قرارات إبادة للتخلص من أعداء وخصوم ، أو لتنفيذ عمليات التطهير العرقي ، التي أعادها إلى الحياة الصرب بزعامة الدكتاتور « سلوبودان ميلوسيفيتش » خلال العقد الأخير من القرن العشرين ، فراح عدد كبير من المدنيين من البوسنة وكوسوفا وغيرهما من المناطق والجمهوريات في يوجوسلافيا السابقة ضحية سياسات عنصرية ، تتبع وسيلة القتل الجماعي والإبادة ضد الأعداء المحتملين !

ومن مواجهات البشر مع الموت خلال القرن العشرين ، يبرز الصراع مع ملوثي البيئة على نطاق واسع . ففي مطلع السبعينيات ، بدأت حملة ضخمة في اليابان ضد شركة « تشيسو » التي ثبت تورطها في إلقاء مخلفات سامة في خليج « ميناماتا » ، مما أدى إلى وفاة الآلاف وإصابة آلاف آخرين بأمراض وتشوهات مختلفة ، واضطرت الشركة في سنة ١٩٧١ إلى دفع تعويضات بلغت ٦٦٤ مليون ين (٥ ملايين دولار) للضحايا وأسرهم .

وفي٣ من ديسمبر ١٩٨٤ ، وقعت كارثة أخرى ، فقد تسبب انفجار في مصنع تابع لشركة « يونيون كاربايد » في بهوبال بوسط الهند ، في مصرع نحو ٢٥٠٠ شخص نتيجة استنشاق الغازات السامة ، وأصيب ٢٠٠ ألف شخص بالعمى ، أو أصبحوا مقعدين نتيجة انتشار هذه الغازات ، ودفعت الشركة – وفق تسوية قضائية – ٤٧٠ مليون دولار على سبيل التعويض .

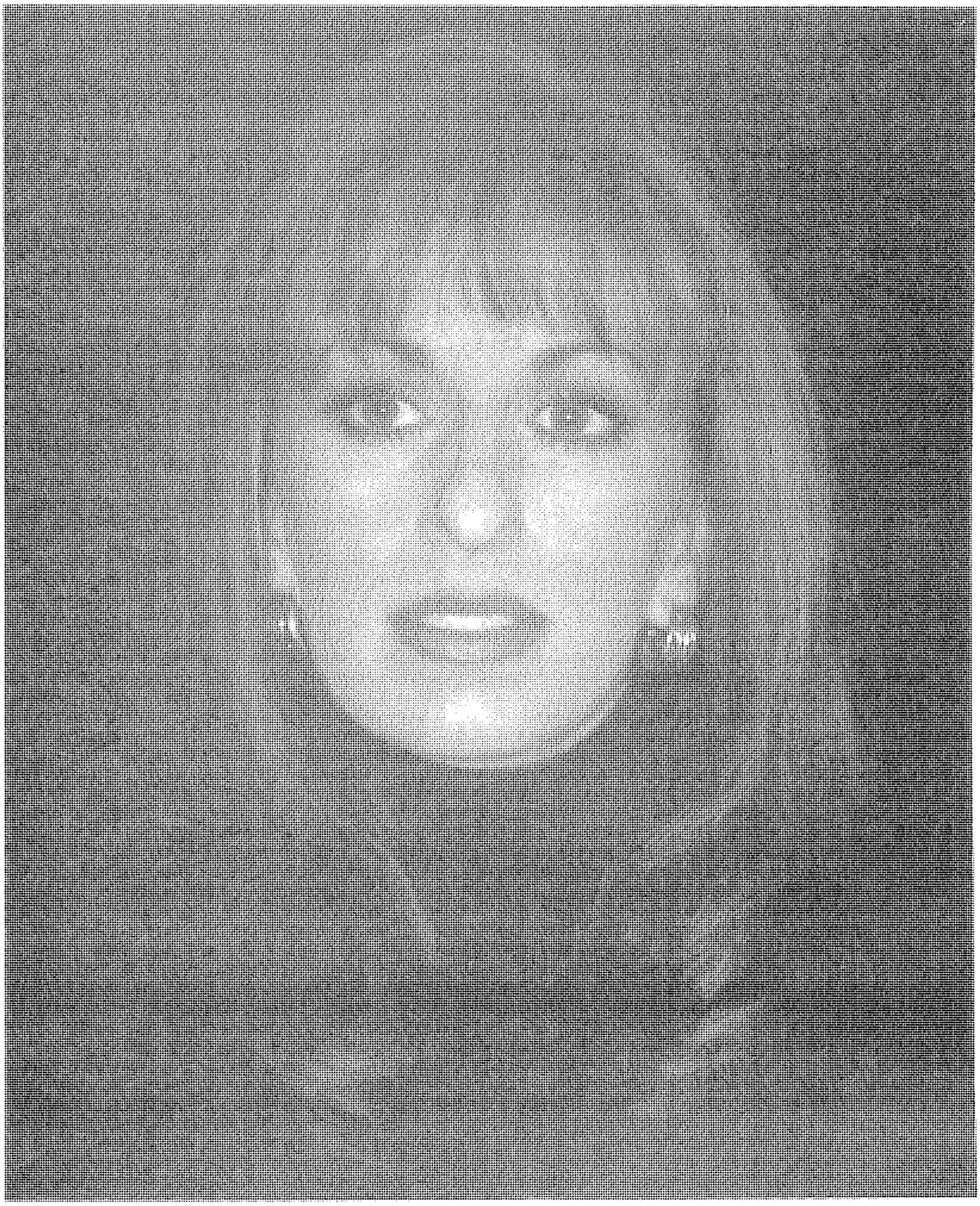
ولكن المأساة تكررت مرة أخرى وفي مكان آخر ، وذلك عندما اصطدمت ناقلة البترول « إكسون فالديز » باليابسة في آلاسكا في ٢٤ من مارس ١٩٨٩ ، مما أدى إلى انتشار التلوث القاتل على نطاق واسع ، وتسبب في نفوق المخلوقات في الحياة البرية في المنطقة . وعلى الرغم من إنفاق شركة « إكسون » ملياري دولار لتنظيف البيئة من آثار الكارثة ، فإنها اضطرت إلى دفع خمسة مليارات دولار أخرى على سبيل التعويض ، لما تسببت فيه الكارثة من دمار شامل لمختلف أشكال الحياة في تلك المنطقة .

وفي ١٩٨٧ ، وقع انفجار آخر في مصنع كيميائي بالقرب من بازل في سويسرا ، وتسربت المواد الكيميائية السامة إلى نهر الراين ؛ مما أدى إلى تسميم الأسماك في النهر وصولا إلى ألمانيا وهولندا .

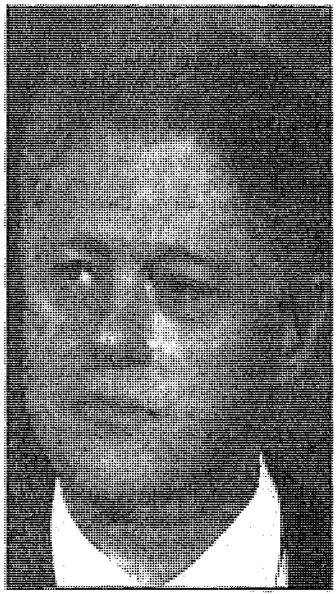
وفي ٢٦ من أبريل ١٩٨٦ ، أدى حادث في مفاعل تشيرنوبل ، القريب من كييف الأوكرانية - الذي تسربت منه إشعاعات نووية عقب خلل فني - إلى مصرع وإصابة أعداد ضخمة من البشر سواء في روسيا أو الدول المجاورة مثل بلغاريا .

ومع كل يوم جديد تتضح الصورة أكثر فأكثر ، لتبين للإنسان خطأ اعتقاده أنه انتصر على الموت ، لأنه في حقيقة الأمر انهزم أمام نفسه ورغباته المدمرة !

* * *



باولا چونز



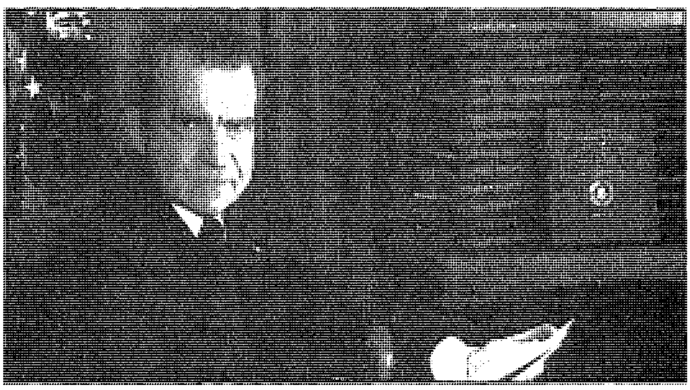
بيل كلينتون تعرض لفضيحة مونيكا لوينسكي .. وبينهما السكرتيرة السمراء كوري

البعض بكى . . البعض الآخر اعتذر علنا مثل « بيل كلينتون » . . فريق منهم استقال مثل « ريتشارد نيكسون » ، وفريق آخر دين وعوقب بالسجن مثل « مايك تايسون » . . مجموعة منهم خسرت مستقبلها السياسي أو الفني أو الرياضي مثل «چون بروفيومو » . . ومجموعة أخرى بقيت في السلطة أو على قمة النجومية ، وكأن شيئا لم يكن . . مثل الرئيس الأمريكي « كلينتون » .

الأكثر مأساوية . . أن بعض أبطال أشهر فضائح القرن العشرين دفعوا حياتهم ثمنا لعلاقاتهم ومغامراتهم العاطفية ، مثل «مارلين مونرو » والأميرة « ديانا » .

6

روائح الفضائح



ريتشارد نيكسون يعلن استقالته من منصبه الرئاسي



برنار تابيه

في ١٩١٢ ؛ كانت حكومة العمال البريطانية على وشك السقوط ، حين تكشفت تفاصيل فضيحة شراء ثلاثة من أعضاء الحكومة أسهما في شركة « ماركوني » للراديو التي تقرر أن يرسو عليها عطاء حكومي ضخم .

تبدأ القصة في ١٩١٠ حين اقترحت شركة « ماركوني » على الحكومة البريطانية إقامة شبكة محطات راديو للسماح باتصالات فورية بين أنحاء الإمبراطورية البريطانية المترامية . تمت الموافقة على الاقتراح في نهاية سنة ١٩١١ . وفي أبريل ١٩١٢ ، أبلغ المدير الإداري لشركة « ماركوني » - ويدعى « جودفري إيزاكس » - شقيقيه « هاري» و « روفوس » - وكان الأخير يشغل منصب المدعي العام في الحكومة العمالية البريطانية - بأن شركة « ماركوني » الأمريكية تعتزم إصدار أسهم بقيمة ١,٤ مليون دولار . واتفق الثلاثة على اغتنام الفرصة مبكرا وشراء كميات كبيرة من هذه الأسهم بقصد التربح ، وأوعز المدعي العام لأصدقائه وزملائه الوزراء مثل « ديفيد لويد جورج» (وزير الخزانة) و « ألكسندر موراي » بشراء أسهم الشركة منه بسعر رخيص وصل إلى جنيهين إسترلينيين (١٠ دولارات آنذاك للسهم) ، في حين ارتفع سعر السهم عقب طرح الأسهم إلى ٤ جنيهات إسترلينية (٢٠ دولارا) .

وهكذا استغل الوزراء الثلاثة المذكورون مناصبهم في شراء وبيع الأسهم .

وحين تكشفت تفاصيل الفضيحة ؛ نفى « روفوس إيزاكس » أي علاقة له أو لأعضاء حكومته بهذه الأسهم ، لكن سرعان ما تبين كذب ادعاءاته ، واضطر إلى الاعتراف أمام مجلس العموم البريطاني بالتورط في الفضيحة ، التي تناولتها الصحف البريطانية بتوسع . وفي حين اضطر « موراي » إلى مغادرة البلاد ، فإن « إيزاكس » و « جورج » عرضا الاستقالة ، لكن رئيس الوزراء البريطاني آنذاك « هربرت إتش . أسكويث » رفض قبول استقالتيهما ، اعتمادا على أن اللجنة النيابية التي تنظر الفضيحة تملك أغلبية موالية للحكومة ! ولذا تمت تسوية الفضيحة بهدوء ، ولكن بعد أن هزت حكومة العمال البريطانية بقوة .

فضيحة جنسية كبرى هزت هوليوود في سبتمبر ١٩٢١ ، بعد أن اتُّهمَ النجم الكوميدي « فاتي آربكل » ، المشهور بثقل وزنه وخفة ظله ، بأنه مغتصبٌ وقاتل . فأثناء حفلة صاخبة أقيمت في ٣ من سبتمبر من السنة نفسها ، تعالت صرخات من

إحدى غرف الجناح الذي أقيمت فيه الحفلة . وحين اقتحم المدعوون الغرفة ، وجدوا «آربكل» داخلها . . في حين كانت الممثلة الشابة « فرجينيا ريب » - التي صدت «آربكل» من قبل ولم تكن تراه وسيما - ترقد عارية في الفراش وهي تصرخ : « إنني أموت . . لقد أصابني » .

وبعد ثلاثة أيام توفيت « ريب » متأثرة بجروحها ، وقيل إن سبب إصابتها هو زجاجة الشمبانيا التي هاجمها بها « آربكل » ، أو من تأثير بدانته (١٣٣ كيلو جراما) وهو يحاول اغتصابها !

اتهم « آربكل » بالقتل ومحاولة الاغتصاب ، وأصبح منبوذا في هوليوود بعد اهتزاز سمعته . وعلى الرغم من أن هيئة الدفاع فى القضية ذكرت أن « ريب » امرأة سيئة السمعة ، وأنها أقامت علاقات مع نحو نصف العاملين في هوليوود ، وأجريت لها خمس عمليات إجهاض ، فإن المستقبل الفني للممثل الكوميدي انهار تماما ، حتى بعد أن برأته المحكمة من تهمة القتل في ١٢ من أبريل ١٩٢٣ . الطريف أن أسماء عديد من أفلامه كانت تدور حول هذه القضية ، من ذلك أفلامه : « حفلة فاتي السحرية » ، و« خطيئة مغازل » ، و« فعل ولم يفعل » !

وأثارت محاكمة « ألجير هيس » ضجة سياسية كبرى في الولايات المتحدة ، وسواء أكان مذنبا أم لا فقد كانت فضيحته مدوية ، إذ كان الشخص الذي رشحه الكثيرون ليقود الولايات المتحدة متهما بأنه جاسوس روسي ، في حين دافع البعض بأنه ليس سوى ضحية بريئة لقضية ، لفقها له مكتب التحقيقات الفيدرالي الأمريكي « إف . بي . آي » .

و « هيس » -الذي توفي في نوفمبر ١٩٩٦ عن عمر يناهز ٩٢ سنة- كان ممثلا رئيسا للرئيس الأمريكي « فرانكلين روزفلت » في مهام سياسية ودبلوماسية عدة ، بما في ذلك دوره في الإعداد لمؤتمر يالطا في ١٩٤٥ ، الذي شارك فيه رئيس الوزراء البريطاني « ونستون تشرشل » والزعيم السوفيتي « چوزيف ستالين » للتفاوض حول السلام العالمي .

وفي ٢١ من يناير ١٩٥٠ ، صدر حكم بسجن « هيس » لمدة خمس سنوات ، وأطلق سراحه في ٢٧ من نوفمبر ١٩٥٤ ، وكان يؤكد باستمرار أنه ضحية لمؤامرة رخيصة للتخلص منه في أروقة السياسة الأمريكية ؛ باعتباره نجما صاعدا في المجال الدبلوماسي . ولا أحد يدري هل كان « هيس » بريئا أم أنه كان ممثلا جيدا !

لكن أبرز الفضائح التي هزت بريطانيا ، هي تلك التي جمعت بين الجنس والتجسس والغدر والخيانة . كانت مجرد علاقة عابرة بين وزير بريطاني وفتاة حسناء ، انتهت بوفاة الرجل الذي جمع بين الاثنين ، ونعني بذلك فضيحة « بروفيومو » . فقد أقام وزير الحربية البريطاني « چون بروفيومو » علاقة مع راقصة الاستربتيز « كريستين كيللر » في ٨ من مايو ١٩٦١ ، وأهداها عددا من الهدايا . وبعد شهر من بدء العلاقة نصح أحد أصدقاء الوزير « بروفيومو » بإنهاء هذه المغامرة الغرامية ، التي تولى فيها طبيب شاذ أخلاقيا يدعى « ستيفن وارد » تعريف العاشقين بعضهما ببعض . لكن الوزير تجاهل هذه النصيحة ، ثم تبين فيما بعد أن « كيللر » تقابل عشاقا آخرين من بينهم جاسوس روسي ، هو الكابتن « يوچين إيفانوف » الذي كان يعمل كملحق في السفارة الروسية في لندن ، والذي تمكن من السيطرة على « كيللر » جنسيا وتجنيدها لمصلحة المخابرات السوفيتية .

وعندما انكشفت الفضيحة ؛ كذب« بروفيومو » في تصريحاته أمام مجلس العموم البريطاني ، فاضطر إلى الاستقالة من منصبه بعد عشرة أسابيع من فضح العلاقة الغرامية ، التي ارتبطت بتسريب معلومات إلى جاسوس روسي عن طريق « كريستين كيللر » . أما « وارد » فقد قُدِّمَ للمحاكمة بتهمة تسريب أسرار حكومية ، ولكنه تناول جرعة زائدة من الأقراص المنومة في ليلة ٣٠ من يوليو سنة ١٩٦٣ وتوفي بعد ذلك بأربعة أيام . وبقيت « كيللر » ، التي باعت قصة الفضيحة للصحف بمقابل مادي كبير !

أما السيناتور « إدوارد كينيدي » فما زال يدفع ثمن علاقته مع فتاة انتهت بحادث سيارة قاتل .

الحادث وقع حين كان « إدوارد كينيدي » - شقيق « چون » و « روبرت كينيدي » - في السابعة والثلاثين من العمر ، فقد عثرت قوات الشرطة على سيارة غارقة في الماء

في ١٩ من يوليو ١٩٦٩ . وبفحص اللوحة المعدنية للسيارة تبين أنها مملوكة للسيناتور «إدوارد كيندي » ، على حين عثر على جثة سيدة داخل السيارة الغارقة . وبعد أن سلم « كيندي » نفسه لقسم الشرطة ، تبين أنه كان مخمورا بشدة بعد حفلة عابثة غادرها مع « ماري چو كوبيتشين » . وحين وقع الحادث وسقطت السيارة من فوق الجسر في النهر ، تمكن « كيندي » من إنقاذ نفسه بالسباحة إلى الشاطئ ، لكنه تأخر عشر ساعات عن الإبلاغ عن الحادث ، مما هز صورته أمام الرأي العام الأمريكي ، وهو ما زال يدفع ثمن هذا التخاذل من سمعته السياسية .

وتعرض شخص آخر من عائلة « كيندي » لشبح فضيحة ، حين اتهمت سيدة تدعى « باومان » في التاسعة والعشرين من عمرها « وليام كيندي سميث » - وهو ابن شقيق « إدوارد كيندي » - باغتصابها في أثناء وجودها معه داخل منزل تملكه العائلة في أبريل ١٩٩١ . لكن التحقيقات ، ثم المحاكمة التي أجريت في ديسمبر من تلك السنة ، أثبتت أن رواية هذه السيدة مختلقة ، وأنها تعرفت على « وليام كيندي » في ملهى ليلي ورافقته إلى المنزل ، حيث أمضت الليلة هناك بمحض إرادتها .

رئيس أمريكي واحد استقال من منصبه بعد إدانته : « ريتشارد نيكسون » ، وذلك لتورطه في فضيحة « ووترجيت » .

والرئيس السادس والثلاثون للولايات المتحدة خرج من البيت الأبيض بأشهر فضيحة سياسية في تاريخ الولايات المتحدة . ففي الصباح الباكر من ١٧ من يونيو ١٩٧٢ ، ضبطت الشرطة خمسة أشخاص في الطابق السادس من مجمع ووترجيت ، مقر اللجنة القومية الديمقراطية ، التي كانت تشارك في الإعداد للحملة الرئاسية للديمقراطيين في ١٩٧٢ . وسرعان ما اتضح أن هؤلاء الخمسة ليسوا أشخاصا عاديين ، وإنما لهم علاقة بأجهزة أمنية من عينة مكتب التحقيقات الفيدرالي « إف . بي . آي . » ووكالة المخابرات الأمريكية « سي . آي . إيه » ، وأنهم جميعا على اتصال بالبيت الأبيض ، وبالتحديد « لجنة إعادة انتخاب الرئيس » .

نجح « نيكسون » في الفوز في الانتخابات الرئاسية على منافسه « سبيرو أجنيو» . لكن فضيحة « ووترجيت » كشفت خيوطها تدريجيا عبر سلسلة من التحقيقات ، وتبين

أن « نيكسون » وكبار مساعديه في الحزب الجمهوري تورطوا في التنصت على مقر الحزب الديمقراطي المنافس لمعرفة أسراره .

وفي ٣٠ من أبريل ١٩٧٣ ، ألقى « نيكسون » خطابا على الشعب الأمريكي اعترف فيه بالفضيحة ، وأعلن استقالة « بوب هالديمان » رئيس موظفي البيت الأبيض ، و« چون ايرليشمان » كبير مستشاريه للشئون المحلية . وعلى الرغم من نفي « نيكسون » تورطه أو علمه شخصيا بالتجسس وسرقة أسرار الحزب الديمقراطي المنافس ، فإن التحقيقات السياسية والصحفية -التي قام بها الصحفيان « كارل برنشتاين » و « بوب وودورد » في صحيفة « واشنطن بوست » - كشفت عن أن « نيكسون » كان يعلم بما يدور خلف الكواليس .

وفي أغسطس ١٩٧٤ ، اعترف « نيكسون » بالتورط في إخفاء الحقائق ودفن الفضيحة . وبعد أن أقرت اللجنة القضائية التابعة لمجلس النواب اتهامه بعرقلة سير العدالة وإساءة استخدام السلطة ، لم يكن أمام « نيكسون » سوى أن يستقيل في ٩ من أغسطس ١٩٧٤ .

ممثلة الإغراء « مارلين مونرو » ما زالت محور فضيحة شهيرة ؛ نتيجة ارتباطها بعلاقة غرامية مع كل من الرئيس الأمريكي « چون كيندي » ، وشقيقه المدعي العام «روبرت» ، انتهت بوفاتها في ظروف غامضة ، لا أحد يعرف على وجه التحديد هل هي جريمة قتل أم انتحار .

كانت « مارلين » - قنبلة السينما الأمريكية - تواعد « چون كيندي » في فنادق نيويورك . ويؤكد حرس « كيندي » أن « مارلين » لم تدخل البيت الأبيض على الإطلاق ، وإنما استمرت العلاقة الغرامية بينهما بعيدا عن مبنى الرئاسة . وكانت الشائعات قد انتشرت في مطلع ١٩٦٢ حول العلاقة بين « مارلين » و « كيندي » ، وزادت الشائعات قوة في أثناء احتفال الرئيس « كيندي » بعيد ميلاده الخامس والأربعين ، حين غنت له « مارلين » على الملأ وبصوتها المبحوح والمغري « عيد ميلاد سعيد . . السيد الرئيس » ! واندهش الأمريكيون للابتذال المثير والمفرط ، الذي هنأت به « مارلين » الرئيس الأمريكي الراحل ، خاصة أنها أجلت تصوير أحد أفلامها خصيصا لحضور هذا الحفل .

ومع علاقتها بـ « چون كينيدي » ، توثقت علاقة « مارلين » بشقيقه الأصغر «روبرت» ، الذي تعرفت إليه في أثناء إحدى الحفلات التي كانت تقيمها أخته « بات » وزوجها الممثل « بيتر لوفورد » . . والمثير أنه كان يطارحها الغرام في مقر عمله كمدع عام ! . . وحين أيقن « چون » أن علاقته مع « مارلين » ستضر بمستقبله وسمعته كرئيس ابتعد عنها ، وذكر أحد أصدقائها أنها كانت تنوي عقد مؤتمر صحفي بعد إعلان وفاتها بيوم ، تكشف فيه كيف غرر الأخوان « كيندي » بها ، كما كانت مصممة على أن تعلن في هذا المؤتمر أسرارا تخص الحكومة الأمريكية ، ألمت بها في أثناء علاقتها بالأخوين « كيندي » .

لكن عثر على جثة « مارلين مونرو » داخل شقتها في ٤ من أغسطس ١٩٦٢ ، وإلى جوار سريرها زجاجة دواء فارغة كانت تحتوي على خمسين قرصا منوما ، على حين قيل إن الممثلة الراحلة تناولت ٤٧ قرصا دفعة واحدة . وإذا كان الأطباء يرون أن « مارلين » انتحرت ، فإن البعض ما زال يؤكد أن فضيحة تورطها في علاقة غرامية مع الأخوين « كيندي » وراء تدبير خطة للتخلص منها وإسكاتها إلى الأبد .

تعرضت إدارة الرئيس الأمريكي « رونالد ريجان » لعاصفة من الانتقادات بعد الكشف عن تفاصيل فضيحة "إيران-جيت" في ١٩ من نوفمبر ١٩٨٧ ، بعد أن نشرت مجلة « الشراع » اللبنانية خبرا عن بيع المخابرات الأمريكية أسلحة من إسرائيل إلى إيران خلال حرب الأخيرة ضد العراق ، بوساطة من رجل الأعمال السعودي «عدنان خاشقجي» . وذهبت عائدات تلك الصفقة إلى عملية تمويل متمردي الكونترا في نيكاراجوا . وكان أبرز ضحايا الفضيحة هو الكولونيل الأمريكي «أوليفر نورث» ، الذي حوكم ودين بالتورط في « إيران - جيت » .

مسلسل كلينتون

الرئيس الأمريكي « بيل كلينتون » (١٩ من أغسطس ١٩٤٦-) تعرض بدوره لسلسلة من الفضائح والعلاقات الغرامية ، سواء مع المغنية المغمورة « چينيفر فلاورز » ، أو الموظفة « بولا چونز » (١٩٦٧-) التي حصلت على تعويض مالي ضخم قدر بمليوني دولار ؛ لتسوية دعواها بأن « كلينتون » تحرش بها جنسيا داخل جناحه في

فندق « إكسلسيور » في أركنسو في ٨ من مايو ١٩٩١ ، أو مع « مونيكا لوينسكي » (٢٣ من أغسطس ١٩٧٣-) المتدربة السابقة في البيت الأبيض .

وطوال أربع سنوات ، أخذ المدعي الأمريكي المستقل « كينيث ستار » (٢١ من يوليو ١٩٤٦-) يبحث وينقب في حياة « كلينتون » منذ مولده . البداية كانت متعلقة بالتحقيق في قضية « وايت ووتر » ، وهي تتناول تجاوزات مالية مزعومة ارتكبها « كلينتون » حين كان حاكما لولاية أركنسو الأمريكية . لكن كرة الثلج كبرت ، حين عثر « ستار » على قضية « مونيكا لوينسكي » التي دخلت البيت الأبيض كمتدربة ثم أوقعت الرئيس الأمريكي في شباكها . وكزير نساء محترف ، توالت اللقاءات الغرامية المثيرة بينهما داخل البيت الأبيض في أثناء أداء الرئيس الأمريكي لمهامه الرسمية بين سنتي ١٩٩٥ و١٩٩٧ . وكشفت التحقيقات أن « مونيكا » عقب تعيينها في وظيفة في البنتاجون في أبريل ١٩٩٦ ، كانت قد زارت البيت الأبيض ٣٧ مرة خلال الأشهر العشرين التالية ، وكانت عادة ما يؤذن لها بالدخول عن طريق « بيتي كوري » سكرتيرة « كلينتون » ، التي كانت تتولى أمر الهدايا المتبادلة بين الطرفين .

وبعد مداولات ، تم التوصل إلى اتفاق بين الفتاة اليهودية « مونيكا » ومكتب المدعي العام في ٢٨ من يوليو ١٩٩٨ حول منحها الحصانة ، مقابل التعاون في التحقيقات ، وقدمت الفتاة فستانا أزرق كانت ترتديه خلال لقاء جنسي مع الرئيس الأمريكي في يوم ٢٨ من فبراير ١٩٩٧ ، وبه آثار لهذه العلاقة ، وأقرت «مونيكا» - في اعترافاتها - بأنها مارست الجنس الشفهي مع « كلينتون » تسع مرات ، إلى أن أنهى الرئيس الأمريكي هذه العلاقة .

وعلى الرغم من أن « كلينتون » نفى في ١٧ من يناير ١٩٩٨ أي علاقة بينه وبين «مونيكا لوينسكي» ، فإنه اضطر بعد ذلك إلى الاعتراف في خطاب إلى الشعب الأمريكي بأنه كذب وأخفى تفاصيل هذه العلاقة ، طالبا العفو والمغفرة من الأمريكيين ، وذلك بعد محاكمة « كلينتون » أمام مجلس الشيوخ الأمريكي إثر توجيه خمسة اتهامات له بإساءة استخدام السلطة والحنث باليمين وتضليل العدالة والكذب .

وكاد « كلينتون » يدفع منصبه ثمنا لعلاقاته الساخنة مع « مونيكا لوينسكي » ، التي وضعت كتابا يحكي تفاصيل علاقتها بالرئيس الأمريكي ، في حين وقفت «هيلاري » - على الأقل علنا - إلى جوار زوجها حتى مرت الأزمة بسلام بعد تبرئة مجلس الشيوخ ساحته (١٢ من فبراير ١٩٩٩) ، ولكن بعد أن نالت كثيرا من سمعة الرئيس الأمريكي .

المرشح الديمقراطي « جاري هارت » تعرض بدوره لفضيحة أخلاقية في ١٩٨٨ ، نسفت أحلامه في الوصول إلى البيت الأبيض ، بعد أن كشفت صحيفة «ميامي هيرالد» علاقته المثيرة بالحسناء « دونا رايس » .

وبصعوبة بالغة أفلت « كلارينس توماس » (٢٣ من يونيو ١٩٤٨-) من شبح استبعاده من منصب قاض في المحكمة العليا في الولايات المتحدة .

نال « توماس » موافقة ٥٢ صوتا مقابل ٤٨ صوتا معارضا في مجلس الشيوخ الأمريكي في أكتوبر ١٩٩١ ، وهو أضأل هامش يحصل عليه قاض في المحكمة العليا خلال القرن العشرين ، بعد أن واجه اتهامات من جانب الموظفة السابقة « أنيتا هيل » (١٠ من يوليو ١٩٥٦-) بالتحرش بها جنسيا .

أما حادث مصرع الأميرة « ديانا » وصديقها المصري « عماد الفايد » - دودي - في ٣١ من أغسطس ١٩٩٧ في فرنسا ، فهو يجسد فضيحة لها فصول سابقة ، وما زالت هناك تساؤلات عما إذا كان مصرع « ديانا » و « دودي » مدبرا من جانب جهات بريطانية عليا كانت ساخطة على هذه العلاقة ، أم أنه مجرد حادث عادي !

و « ديانا » التي وصفت بأنها « أميرة القلوب » ، انفصلت عن زوجها الأمير «تشارلز» ولي عهد بريطانيا - الذي خانها مع عشيقته « كاميلا باركر » - وخانته مع الضابط « جيمس هيويت » - وربما مع آخرين أيضا يقال إن من بينهم الطبيب الباكستاني « حسنات خان » - ارتبطت بعلاقة حب مع « عماد الفايد » ، وانتهت بوفاتهما معا ، بعد شهور من النزهات البحرية واللقاءات في بريطانيا وفرنسا وفوق مياه البحر الأبيض المتوسط .

ولا أحد ينسى البرنامج التليفزيوني ، الذي اعترفت فيه « ديانا » للمذيع « مارتن بشير » بخيانتها لـ « تشارلز » . وفي ٩ من ديسمبر ١٩٩٢ أعلن « چون ميجور » رئيس الوزراء البريطاني - آنذاك - أن قصر بكنجهام كشف عن قرار « ديانا » و « تشارلز » بالانفصال . وفي يناير ١٩٩٣ تم نشر تفاصيل محادثة هاتفية مسجلة لـ « تشارلز » و « كاميلا » مليئة بالإيحاءات والألفاظ الجنسية ، وترددت أنباء عن تسجيلات أخرى لمحادثات بين « ديانا » وشخص آخر يتبادلان فيها عبارات الحب والغرام ، لكن نهاية «ديانا » وصديقها « عماد الفايد » بكل مأساتها زادت من حدة الفضيحة لتتحول إلى أسطورة خالدة . أما « سارة فيرجسون » زوجة « أندرو » دوق يورك . . فقد انفصلت عن زوجها ، بعد أن كشفت الصحف الشعبية البريطانية بالصور العارية عن تفاصيل علاقتها مع مستشارها المالي « چوني بريان » في أغسطس ١٩٩٢ .

ويتعين أن نشير أيضا إلى فضيحة مدام هوليوود « هايدي فلايس » ، التي كانت ترتب سهرات حمراء لنجوم السينما الأمريكية ، مثل « مارتن شين » (٣ من أغسطس ١٩٤٠-) في مقابل مبالغ مالية طائلة . الفضيحة الضخمة انتهت بإدانة « فلايس » في ديسمبر ١٩٩٤ ، وعوقبت بالسجن ثلاث سنوات . كذلك هزت فضيحة إصابة النجم الأمريكي « روك هدسون » (١٩٢٥-١٩٨٥) بالإيدز ووفاته متأثرا بالمرض في أكتوبر ١٩٨٥ الأوساط السينمائية الأمريكية ، في حين ضبط الممثل البريطاني « هيو جرانت » (٩ من سبتمبر ١٩٦٠-) مع فتاة الليل السمراء « ديفاين براون » في وضع مخل في المقعد الخلفي من سيارته في منتصف ١٩٩٥ . وتعرض « چيم بيكر » أول واعظ تليفزيوني أمريكي - والقس الشهير « چيمي سويجارت » - لفضيحتين أخلاقيتين مدويتين خلال عقد الثمانينيات .

طبيب الزعيم

الدكتور « لي جيسوي » طبيب الزعيم الصيني الراحل « ماو تسي تونج » كشف في كتاب نشر في ١٩٩٤ تحت عنوان « الحياة الخاصة للزعيم ماو » عن الكثير من غراميات الرجل الذي قاد الصين طوال ٢٦ سنة ، موضحا أن « ماو » أدمن السجائر والحبوب

المنومة ، وأنه كان يعشق الفتيات الصغيرات الجاهلات ، و كان يشترط أن يكُنَّ عذارى !

أما « ديفيد ميلور » وزير التراث القومي البريطاني . . فقد استقال من منصبه ، بعد الكشف عن علاقاته الجنسية مع الممثلة الإسبانية « أنطونيا دي سانشا » في ١٩٩٢ كذلك احتل وزير التجارة والصناعة البريطاني « سيسيل باركنسون » الصفحات الأولى من الصحف البريطانية في أكتوبر ١٩٨٣ بعد الكشف عن علاقته مع سكرتيرته « سارة كيز » والتي أثمرت الطفلة « فلورا » ، واستقال « باركنسون » من حكومة « مارجريت تاتشر » ، إلا أنه عاد بعد ذلك بسنوات إلى الحكومة ، ولكن كوزير للطاقة !

« چان بيدل بوكاسا » - الذي نصب نفسه إمبراطورا على إفريقيا الوسطى وحولها من جمهورية إلى إمبراطورية ، ليضع التاج على رأسه ويجلس على عرش من الذهب والقطيفة في ٤ من ديسمبر ١٩٧٧ - تبين بعد سقوطه في ٢٠ من سبتمبر ١٩٧٩ على يد ابن أخيه ، أنه كان يأكل لحم الأطفال على الإفطار !ودارت الأيام ليموت هذا الإمبراطور المخلوع وحيدا ، منفيا ، ومعدما لا يستطيع سداد فاتورة الكهرباء .

رئيس الإكوادور « عبد الله بوكرم » الذي كان يطلق على نفسه لقب « إل لوكو » أي المجنون ، عزله البرلمان من منصبه في ١٩٩٧ بدعوى عدم سلامة قواه العقلية ، فقد عين شقيقه وزيرا للرعاية الاجتماعية ، واختار ابن شقيقه وزيرا للمالية ، وكان يغني كالمهرج ، ويعاكس النساء في الشوارع . وفي ١٩٩٩ اعتقل خليفته في المنصب « فابيان آلاركون » بتهمة الفساد ، قبل أن يجبر الرئيس اللاحق « جميل معوض » على ترك منصبه .

« مارجريت ترودو » تسببت في نهاية السبعينيات في فضيحة مدوية لزوجها « بيير ترودو » رئيس الوزراء الكندي - الذي توفي في ٢٨ من سبتمبر ٢٠٠٠ عن عمر يناهز ٨٠ سنة - بسبب غرامياتها المتعددة وسوء سلوكها ، حتى إنه ترددت أنباء عن علاقتها بأعضاء فريق « البيتلز » الغنائي الشهير ، وكذلك مع الممثل « ريان أونيل » والممثل الشهير « چاك نيكلسون » .

وفي أغسطس ١٩٩٣ ، اتهم المغني الأمريكي « مايكل چاكسون » بالتحرش جنسيا بفتى في الثالثة عشرة من عمره . ومن مزرعته التي تسمى « نيفرلاند » في

كاليفورنيا ، تحدث المغني عن هذا الاتهام عبر الأقمار الصناعية في ديسمبر التالي ، شاكيا من أن الشرطة أخضعته لتفتيش مهين ، وأخذت صورا لأعضائه التناسلية . وفي سنة ١٩٩٤ وافق « مايكل » على أن يدفع لـ « جوردي تشاندلر » - وكان وقتها في الرابعة عشرة من العمر - مبلغا لم يتم الإفصاح عنه ، ويعتقد أنه يزيد على ٢٥ مليون دولار ، كي يوقف إجراءات قضية الاستغلال الجنسي ؛ كما دفع لوالديه مبلغا يقدر بملايين الدولارات . وقد تفاوض على الاتفاق باسم « مايكل » محاميه « چوني كوشران » الابن ، الذي سيمثل « أو . جي . سمبسون » فيما بعد ، و « لاري فيلدمان» الذي وكله والدا « تشاندلر » . ولم يكن هذا التعويض الأول في حياة «مايكل» ، حيث تبين أنه دفع مبالغ تصل إلى مليون دولار لآباء أطفال كانوا يبقون معه لفترات متفاوتة !

ولا ينسى أحد فضيحة إدانة « مايك - أو مالك - تايسون » (١٩٦٦-) بطل العالم للملاكمة في الوزن الثقيل بين سنتي ١٩٨٧-١٩٩٠ ؛ حيث قام في ١٩٩٦ باغتصاب الفتاة السمراء « ديزيريه واشنطن » ، والتي أدت إلى الحكم في ١٩٩٢ بسجنه نحو ست سنوات ، قضى منها ثلاث سنوات خلف أسوار مركز إنديانا للشباب .

« تايسون » تورط أيضا في فضيحة قضم أذن منافسه « إيفاندر هوليفيلد » في مباراتهما على لقب رابطة الملاكمة العالمية للوزن الثقيل في ٢٩ من يونيو ١٩٩٧ .

الملاكم« تشارلز - سوني - ليستون » بطل العالم للملاكمة في الوزن الثقيل خلال الفترة بين سنتي ١٩٦٢-١٩٦٤ سجن مرتين ، أولاهما عقب إدانته بالتورط في سطو مسلح في ١٩٥٠ ، والثانية عقب اعتدائه بالضرب على ضابط شرطة في ١٩٥٦ . وفي ١٩٧٠ ، توفي ليستون نتيجة تعاطيه جرعة زائدة من الهيروين .

ملاكم الوزن المتوسط « روبن - الإعصار - كارتر » قضى في السجن ٢١ سنة عقب إدانته في ثلاث جرائم قتل في مايو ١٩٦٧ . وحين أعيدت محاكمته ، وجدته المحكمة مذنبا ، فظل في السجن إلى أن أسفرت ضغوط مارستهاجماعة اجتماعية كندية عن إطلاق سراحه في نوفمبر ١٩٨٥ .

وعقب تحرشه جنسيا بامرأة في دورة مياه للسيدات في أحد مسارح سان أنطونيو ، وهو في سن الخامسة عشرة ، كرر الملاكم « طوني أيالا » جرمه وهو في سن التاسعة عشرة واعتدى جنسيا على مندوبة مبيعات ، ليحكم عليه في أبريل ١٩٨٣ بالسجن لمدة ١٥ سنة على الأقل ، مما دمر مستقبله كملاكم واعد في وزن خفيف المتوسط .

ومن جرائم وفضائح العنف الرياضي ، ما حدث حين سدد لاعب كرة القدم الفرنسي « إيريك كانتونا » ركلة « كونغ فو » لأحد مشجعي كريستال بالاس الإنجليزي ، عندما كان يلعب لمانشستر يونايتد الإنجليزي في ١٩٩٥ بعد أن أهانه المشجع . وحرم « كانتونا » من اللعب ثمانية أشهر ، كما صدر ضده حكم بالسجن لمدة أسبوعين ، وخفف الحكم إلى أداء خدمات اجتماعية لمدة ١٢٠ ساعة .

وعض « جوهان لو رو » لاعب منتخب جنوب إفريقيا للرجبي أذن « شون فيتزباتريك » كابتن فريق أولْ بلاكس ، أثناء مباراة تجريبية في ولنجتون في ١٩٩٤ ، فأوقف « لو رو » ١٨ شهرا وطرد من منتخب جنوب إفريقيا نهائيا .

وعوقبت « تونيا هاردينج » بغرامة مالية ومطلقها « چيف جيلولي » بالسجن سنتين ، بعد أن دبرا جريمة ضرب منافسة « تونيا » الأوليمبية « نانسي كيريجان » بماسورة من الصلب على ركبتها أثناء بطولة الولايات المتحدة للرقص على الجليد في ١٩٩٤ .

وركل لاعب كرة السلة المشاغب « دينيس رودمان » (١٩٦١-) مصورا خارج الملعب بعد أن تعثر به في يناير ١٩٩٧ ، فأوقف « رودمان » ١١ مباراة في دوري السلة الأمريكي للمحترفين وغرم ٢٥ ألف دولار .

وتسبب « ديل هنتر » لاعب هوكي الجليد في إصابة منافسه « بيير تورجون » بارتجاج في المخ وكسر في الكتف اليمنى في دوري الهوكي الأمريكي في ١٩٩٣ ، على حين توفي لاعب هوكي الجليد الإيطالي « ميران شروت » (١٩ سنة) فورتعرضه في أثناء مباراة في ١٩٩٢ لضربة في الصدر من عصاة « جياسينتو بوني » المعروف باسم « چيمي » ، الذي دين بتهمة القتل الخطأ

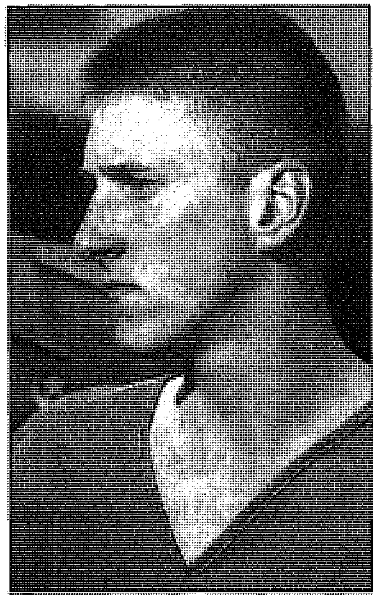
* * *



طالبتان من مدرسة كولومباين في حالة انهيار عقب مذبحة ١٩٩٩



أو. جي . سمسون يحتفل بتبرئة ساحته من تهمة قتل مطلقته وصديقها في ١٩٩٥



تيموثي مكفاي مدبر انفجار أوكلاهوما

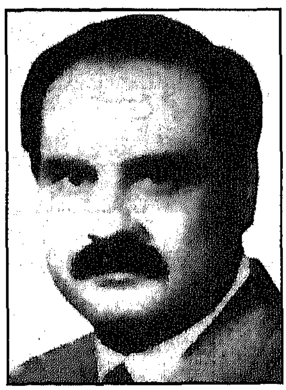
7

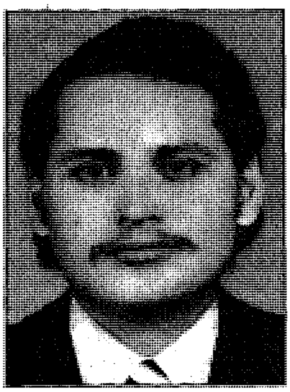
في الوقت الذي تقدمت فيه البشرية في مختلف مناحي الحياة خلال القرن العشرين ، فإنها تقدمت أيضا في مختلف أشكال ووسائل القتل !

وهكذا شهد القرن عديدًا من الجرائم ، والمذابح ، ومحاولات الاغتيال ، وعمليات القرصنة الجوية ، وأحداث العنف المروعة .

في هذا القرن المصبوغ بلون الدم الذي يأخذ شكل فوهة المسدس ونصل السكين ، حاولت العدالة أن تأخذ مجراها . وفي قاعات المحاكم حوكم كبار النازية في محاكمة نورمبرج الشهيرة عقب الحرب العالمية الثانية ، ومجرمو الحرب في البوسنة

سفاحون ومحاكم







كارلوس .. تعددت الوجوه ولم يتغير « ابن آوي »

خلال عقد التسعينيات . لكن آلة القتل وأدوات الجريمة ظلت تعمل بكل الحقد والكراهية في نفوس أصحابها .

في القرن العشرين اغتيل الأرشيدوق النمساوي « فرانز فرديناند » في ١٩١٤ ، والرئيس الأمريكي « جون كيندي » في ١٩٦٣ ، وداعية حقوق الإنسان « مارتن لوثر كنج » في ١٩٦٨ ، و « المهاتما غاندي » في ١٩٤٨ ، ورئيسة وزراء الهند «أنديرا غاندي» في ١٩٨٤ ، وابنها - رئيس الوزراء أيضا - « راجيف » ، والرئيس المصري الراحل «أنور السادات » في أكتوبر ١٩٨١ .

وجرت محاولات اغتيال لا تحصى لشخصيات وقيادات بارزة في أنحاء العالم ، من الرئيس الأمريكي « رونالد ريجان » ، وبابا الفاتيكان « يوحنا بولس الثاني » في الثمانينيات ، إلى الرئيس التركي السابق « تورجوت أوزال » .

الرئيس الأمريكي « رونالد ريجان » تعرض لمحاولة اغتيال على يد شخص مضطرب عقليا يدعى « جوزيف هنكلي » ، أراد أن يلفت نظر الممثلة الشابة « جودي فوستر » بجريمته ، على حين أقدم على محاولة اغتيال بابا الفاتيكان شخص يدعى «محمد علي أغا » .

الدين والانتماء العرقي ، كانا أبرز أسباب الانتقام والخلاف وأهم دوافع ارتكاب أشهر جرائم القرن ، سواء على أيدي جماعة كوكلوكس العنصرية ، كما حدث في ١٩٦٤ ، حين قتلت ثلاثة أشخاص يطالبون بالمساواة العرقية بين الجميع في الولايات المتحدة . منظمة أخرى كان لها دورها في عمليات التصفية الدموية ، ونعني بذلك المافيا . وهكذا فإن إطلاق النار على زعيم الزعماء« بول كاستيلانو » (الكبير) وحارسه الشخصي « توماس بيلوتي » في شارع ٤٦ في ١٩٨٥ ، ليس سوى مثال للصراع الدموي بين عصابات الجريمة المنظمة طوال مائة سنة .

المافيا إذًا اسم يرتبط بالقتل والغموض والاتحادات التجارية الفاسدة ، والخلاف - ويقال أيضا التحالف - مع آل « كيندي » ، والجريمة الغامضة لاختفاء الزعيم العمالي الأمريكي « چيمي هوفا » ، والتي لم تتكشف تفاصيلها حتى اليوم .

لكن الجريمة ارتبطت أيضا بعدد من المتهوسين ، مثل السفاحين الذين يرتكبون سلسلة من جرائم القتل لدوافع نفسية أو غريزية ، أو يطعنون الأصدقاء والزملاء وحتى الآباء والأمهات – في لحظة جنون أو طيش ، مثلما حدث في مدرسة كولومباين الثانوية الأمريكية في ٢٠ من أبريل ١٩٩٩ ، أو حين اعتقد السفاح «ريتشارد راميريز» نفسه – حسب اعترافاته – أنه ابن الشيطان ، فقتل ١٣ شخصا . وفي حادث انفجار مبنى ألفريد موراه الفيدرالي في أوكلاهوما سيتي ، الذي ارتكبه المجند الأمريكي السابق «تيموثي ماكفاي» – ابن السابعة والعشرين آنذاك – في ١٩ من أبريل ١٩٩٥ ، وأدى إلى مصرع ١٦٨ شخصا من بينهم ١٩ طفلا ، تبين مدى خطورة الميليشيات اليمينية المتطرفة في الولايات المتحدة ، مثل ميليشيا ميتشيجان التي ينتمي إليها الجاني ، والذي تعمد ارتكاب جريمته في ذكرى اقتحام مجمع طائفة الداوديين في واكو في ولاية تكساس في ١٩ من أبريل ١٩٩٣ ، للثأر مما اعتبره عدوانا على الحريات الدينية !

« بوني » و « كلايد » ، نموذج للثنائي المتورط في جرائم المافيا ، لكنهما تحولا في الولايات المتحدة إلى بطلين شعبيين ، وأنتج فيلم شهير يحكي قصتهما ، كما اشتهرت أغنية تدور حولهما .

ظهر « بوني » و « كلايد » خلال فترة الكساد في الولايات المتحدة ، وتورطا في جرائم سطو وقتل في ست ولايات على الأقل . وفي الوقت الذي كانت فيه أوروبا تعاني اضطرابات سياسية في ١٩٣٤ بعد اغتيال « ألكسندر » ملك يوجوسلافيا على يد متعصب كرواتي في فرنسا ، كانت الولايات المتحدة مشغولة بهموم أخرى : عصابات الجريمة المنظمة .

مواطنو شيكاغو الذين فرحوا بإلقاء القبض على عدو الشعب رقم واحد ، « چون ديلينجر » المشهور بارتكابه حوادث سطو على البنوك ، فوجئوا بالمجرم المذكور يفلت سريعا من قبضة العدالة . وفي ٢٣ من مايو ١٩٣٤ أطلقت الشرطة أكثر من ١٠٠ رصاصة على سيارة « فورد في ـ ٨ » ليلقى « بوني باركر » و « كلايد باور » مصرعهما في تلك المطاردة المثيرة .

كانت سلطات الأمن الأمريكية تبحث بقوة عن هذين المجرمين الشهيرين ، اللذين لفظا أنفاسهما الأخيرة وهما في سن مبكرة ، إذ كان « بوني » في الثالثة والعشرين ، و«كلايد » في الرابعة والعشرين .

« آل كابوني » - واسمه الكامل « ألفونسو كابوني » - ولد لعائلة إيطالية مهاجرة في أزقة نيويورك في ١٧ من يناير ١٨٩٩ ، وحين كبر أصبح زعيم عصابات الجريمة المنظمة في شيكاغو . وبحلول نهاية عقد العشرينيات ، امتد نفوذه من نيويورك إلى كاليفورنيا ، وكانت أرباح العصابات التي يتزعمها تبلغ نحو ٢٠ مليون دولار سنويا . ولعل أشهر الجرائم التي تورط فيها هي مذبحة يوم فالنتاين (عيد الحب) ، التي وقعت في ١٤ من فبراير ١٩٢٩ ، وراح ضحيتها أكثر من ٢٥ شخصا من أفراد عصابة منافسه « باجس موران » .

و « كابوني » الذي اعتبرته السلطات الأمنية الأمريكية العدو رقم واحد للشعب ، لم يُدَنْ إلا في قضية تهرب ضريبي وحكم عليه بالسجن لمدة ١١ سنة وغرامة مالية . ولدى خروجه من السجن في ١٩٤٠ ، كان « آل كابوني » قد أصبح شخصا آخر ، فقد سئم الأضواء وعاش آخر سنوات عمره مع زوجته معتزلا العالم ، حتى مات في ١٥ من يناير ١٩٤٧ .

وفي ٢ من مايو ١٩٤٦ ، احتشد مواطنو سان فرانسيسكو على امتداد الشاطئ بعد أن دوى الرصاص خلال محاولة هروب نفذتها مجموعة من السجناء في سجن «الكاتراز» الشهير المقام فوق إحدى الجزر الأمريكية . وفي هذا السجن الحصين وقعت معركة الصخرة التى استمرت لمدة ٤١ ساعة ، قاتل خلالها حرس السجن بضراوة مجموعة من السجناء المتمردين ، الذين نفذوا خطة محكمة لمفاجأة الحراس والهروب . وحين ظن السجناء الهاربون أنهم حققوا حلمهم ، فوجئوا بقوات "المارينز" الأمريكية تطوقهم وتقضي على حركة التمرد ، ليتم في النهاية الإفراج عن الحراس الذين حبسهم السجناء المسلحون داخل الزنزانة رقم (٤٠٣) .

أقنعة « الهالوين »

وفي مطلع الخمسينيات من هذا القرن ، انتشرت الأقنعة المرعبة المستخدمة في أعياد « الهالوين » في أنحاء الولايات المتحدة . لكن عصابة للسطو على البنوك شملت سبعة أشخاص استخدمت فى ١٦ من يناير ١٩٥٠ هذه الأقنعة المخيفة ؛ لارتكاب حادث سطو على سيارة مدرعة تابعة لشركة « برينكس » ، واستولت هذه العصابة المقنعة في غضون ٢٠ دقيقة على نحو ثلاثة ملايين دولار .

وعلى مدار ست سنوات ؛ ظل مكتب التحقيقات الفيدرالي الأمريكي يبحث عن هؤلاء اللصوص بقصد اعتقالهم . لكن خلافا حول بضعة آلاف من الدولارات هو الذي أدى إلى حل هذا اللغز الكبير ؛ فقد أدى الخلاف بين « چوزيف - سبيكس - أوكيف » مع زميله « أدولف - جاز - مافي » على نصيبه من المال المسروق بعد خروج الأول من السجن ، إلى الكشف عن خيط مهم في الحادث . إذ تبين للص « سبيكس » في فبراير ١٩٥٤ أن « جاز » يحاول غشه في مبلغ ٦٧ ألف دولار من إجمالى حصته عن حادث السطو ، فهدد وتوعد ، فما كان من زملائه إلا محاولة تصفيته جسديا . وبعد نجاته من الاغتيال قرر « سبيكس » عقد اتفاق مع مكتب التحقيقات الفيدرالي ، إذ أفشى سر زملائه وكشف عن هويتهم . وأجريت محاكمة لهؤلاء المجرمين في ٦ من أغسطس ١٩٥٦ في محكمة سافولك ، عرفت باسم محاكمة أقنعة الهالوين ، وكان «سبيكس» الشاهد الرئيس طوال ثلاثة أسابيع . وصدرت أحكام متفاوتة على هؤلاء اللصوص ، على حين قبض «سبيكس» خمسة آلاف دولار من مكتب التحقيقات الفيدرالي ثمن تعاونه معه ، وغَيَّرَ اسمه ، وأصبح لفترة سائقا للنجم السينمائي « كاري جرانت » !

وفي ١٩٩٦ ، تمكنت قوات الأمن الإيطالية من إلقاء القبض على « چيوفاني بروسكا » أو « الخنزير » ، في ضربة تعد الأكثر إيلامًا لعصابات المافيا الإيطالية ، إذ تورط هذا المجرم في سلسلة من جرائم التصفية الجسدية لرجال القضاء الذين جاهروا بعدائهم للمافيا . كما سقط قبله زعيم المافيا الإيطالي « سلفاتوري - توتو - ريينا » في ١٩٩٣ ، وحوكم على جرائمه المتعددة ضمن نشاط عصابات الجريمة المنظمة .

ومن أبرز سفاحي القرن العشرين شاب أمريكي كان عمره ١٧ سنة يدعى «تشارلز ستاركوثير » ، الذي كان يطلق على نفسه اسم « چيمس دين المتمرد » . ودون أي وازع من رحمة أو شفقة ، ارتكب هذا السفاح سلسلة من الجرائم في سنة ١٩٥٨ ، أسفرت عن مقتل عشرة أشخاص في غضون ثمانية أيام .

رفيقة درب « ستاركوثير » كانت الفتاة « كاريل فاجيت » (١٤ سنة) التي كانت أمها وأختها وزوج أمها أول ثلاث ضحايا لهذا السفاح! وخلال محاكمة « ستاركوثير » أبرز الادعاء رسالة، بعث بها السفاح لوالديه أكد فيها عدم ندمه على جرائمه . هذا السفاح استغنى عن محاميه خلال المحاكمة ودافع عن نفسه ، ولكن الحكم جاء سريعا ، إذ تقرر إعدامه ، ونفذ الحكم في ٢٤ من يونيو من السنة نفسها . أما الفتاة « كاريل » فقد أطلق سراحها في ٢٠ من يونيو ١٩٧٦ ، وكانت لا تزال تردد مزاعمها بأنها بريئة من جرائم صديقها السفاح .

وفي يناير ١٩٤٨ ؛ كانت الشرطة في كاليفورنيا تعتقد أنها ضبطت عصابة «الضوء الأحمر» التي ارتكبت جرائم سطو واعتداء جنسي على امرأتين ، وصدر حكم ضد المجرم « كاريل تشيسمان » بالإعدام . لكن الحكم ألغي بسبب الخلاف على أحكام الإعدام في كاليفورنيا . وظل الأمر معلقا لمدة ١٢ سنة ، كتب خلالها « تشيسمان » ثلاثة كتب عن قضيته ، مؤكدا أنه لا يستحق عقوبة قاسية مثل الإعدام ، والطريف أن هذه الكتب لاقت رواجا كبيرا !

وفي اليوم الذي تقرر فيه تنفيذ حكم الإعدام داخل غرفة الغاز ، اتصلت سكرتيرة القاضي برقم خطأ لوقف التنفيذ بدعوى وجود استشكال جديد في الحكم ، وحين اتصلت السكرتيرة بحاكم السجن لوقف التنفيذ ، أبلغها قائلا إن « الوقت قد فات » ، ليموت « تشيسمان » بطريق الخطأ !

واهتزت باكستان في ديسمبر ١٩٩٩ حين تكشفت أسرار السفاح «جواد إقبال» ، الذي قتل في مدينة لاهور أكثر من مائة طفل متسول بعد الاعتداء عليهم جنسيا ، ثم أذاب جثثهم في مواد كيماوية . وفي مارس ٢٠٠٠ ؛ أمر قاض باكستاني بشنق قاتل الأطفال أمام أعين آباء وأمهات الضحايا .

وفي يناير ٢٠٠٠ ؛ قضت محكمة جنايات لندن بالسجن مدى الحياة على الطبيب الممارس العام « هارولد شيبمان » بعد إدانته بقتل ١٥ سيدة من مرضاه ، معظمهن أكبر من ٧٥ سنة ، في مستشفى التأمين الصحي في ضاحية هايد في منطقة مانشستر الكبرى . لكن تقريرا أعده الدكتور « ريتشارد بيكر » - الأستاذ في جامعة ليستر - صعق الرأي العام البريطاني ، حين كشف عن أن سجل جرائم الطبيب السفاح خلال الفترة بين عامي ١٩٧٤-١٩٩٨ يتضمن قتل عدد يتراوح بين ٢٣٦ - ٣٤٦ مريضا ، معظمهم من العجائز ، وأنه كان يقتل الضحايا بحقنهم بحقنة مورفين .

وقبل يومين فقط من الانتخابات الرئاسية السودانية ، أطلق مسلح - قيل إنه يدعى « عباس الباقر » ، وإنه عضو في جماعة "التكفير والهجرة" - النار بشكل عشوائي في مسجد يقع في قرية الجرافة شمالي أم درمان في ٨ من ديسمبر ٢٠٠٠ ، ليقتل أكثر من ٢٠ مصليا ، ويصيب عشرات آخرين بجراح ، كانوا يؤدون صلاة التراويح ، قبل أن تردي قوات الشرطة الجاني بالرصاص .

القاتل والقتيل

افتتح القرن العشرون بجريمة اغتيال . ففي ٢٩ من أغسطس ١٩٠٠ اغتيل ملك إيطاليا « أومبرتو الأول » ، ثم تعرض الرئيس الأمريكي « وليام ماكينلي » لمحاولة اعتداء في ٦ من سبتمبر ١٩٠١ في نيويورك ، ليلفظ آخر أنفاسه في ١٤ من سبتمبر ، وليعدم الجاني ويدعى « ليون تشولجوش » عقابا له على جريمته في ٢٩ من أكتوبر .

وفي ٢٣ من فبراير ١٩١٣ ؛ اغتيل الرئيس المكسيكي « فرانسيسكو ماديور» نائبه « خوزيه بينو سواريز » ، في حين قتل ملك اليونان « چورچ » في ١٨ من مايو من السنة نفسها . وفي ٢٨ من يونيو ١٩١٤ اغتال الشاب المتعصب « جافريلو برنسيب » الأرشيدوق « فرانز فرديناند » وزوجته في سراييفو ؛ ليشعل الحادث شرارة الحرب العالمية الأولى . وفي ٢٠ من مايو ١٩٢٠ ؛ اغتيل الرئيس المكسيكي الجنرال «فينوستيانو كارانزا » ، كما قتل الثائر الأيرلندي « مايكل كولينز » في ٢٢ من أغسطس ١٩٢٢ ، واغتيل الرئيس البولندي « جابرييل ناروتوفيش » في العاصمة وارسو على يد أحد الفوضويين في ١٦ من ديسمبر من تلك السنة .

وفي ١٧ من يوليو ١٩٢٨ ، اغتيل الرئيس المكسيكي المنتخب الجنرال « ألفارو أوبريجون » في سان أنجيل . وفي ٦ من مايو ١٩٣٢ ، اغتيل الرئيس الفرنسي « بول دوميه » على يد المهاجر الروسي « بافل جورجولوف » ، وتولى الرئاسة من بعده « ألبير لوبرون » في ١٠ من مايو . لكن اغتيالا آخر وقع في ١٥ من مايو ١٩٣٢ ، حين اغتال ضباط الجيش والبحرية رئيس وزراء اليابان « تسويوشي إينوكاي » ، ليخلفه في المنصب « ماكوتو سايتو » . كما اغتال الإسباني « رامون ميركادور ديل ريو » وزير الحربية الروسي « ليون تروتسكي » في منفاه قرب مكسيكو سيتي في ٢٠ من أغسطس ١٩٤٠ .

وفى ٣٠ من يناير ١٩٤٨ ، اغتيل « المهاتما غاندي » على يد« ناثورام فيناياك جودس » ، وعقدت محاكمة في "ريدفورت" في دلهي لتسعة أشخاص اتهموا بأن لهم علاقة بجريمة الاغتيال . وصدر حكم الإعدام ضد « جودس » وزميله« نارايات ابت » ؛ لتورطهما في اغتيال « غاندي » وهو في سن الثامنة والسبعين ، على حين كانت الهند قد أعلنت الحداد على « غاندي » لمدة ١٣ يوما ، وأحرقت جثمانه في اليوم التالي لوفاته . لكن رماد جثمان غاندي ظل محتفظا به في أحد البنوك حتى تم في ٢ من أكتوبر ١٩٦٩ ذر هذا الرماد في نهرين مقدسين لدى الهندوس ، في الذكرى المئوية لميلاد هذا المناضل التاريخي .

وتوفي رئيس نيكاراجوا « أناستاسيو سوموزا » في ٢٩ من سبتمبر ١٩٥٦ ، متأثرا بإصابته خلال محاولة اغتياله التي وقعت في ٢١ من سبتمبر . كما قتل رئيس جواتيمالا « كارلوس كاستيلو أرماس » على يد أحد حراسه في ٢٦ من يوليو ١٩٥٧ .

ولا ننسى أيضا حادث اغتيال « چون كيندي » في ٢٢من نوفمبر ١٩٦٣ في دالاس على مرأى ومسمع من زوجته « چاكلين » ، وهو الحادث الذي اتهم بارتكابه «لي هارفي أوزوالد » ، لكن شخصا آخر يدعى « چاك رابي » أطلق النار على «أوزوالد» وسط حراسة الشرطة ، ليلقى الأخير مصرعه بعد أن لفظ آخر أنفاسه داخل مستشفى « باركلاند ميموريال » .

« روبرت كيندي » الشقيق الأصغر لـ « چون » ، تعرض لمأساة مماثلة في ٥ من يونيو ١٩٦٨ ، خلال حملته الانتخابية في كاليفورنيا في السباق إلى البيت الأبيض ، إذ

أطلق عليه الرصاص في فندق « أمباسادور » في لوس أنجلوس ، فمات متأثرا بإصابته في اليوم التالي ، في حين اتهم الفلسطيني « سرحان بشارة سرحان » بارتكاب الجريمة .

كما اغتال « چيمس إيرل راي » داعية حقوق الإنسان الأسود « مارتن لوثر كنج » في ٣ من أبريل عام ١٩٦٨ فى ولاية تينيسي الأمريكية . الداعية « مالكوم إكس » أو الحاج « مالك آل شباز » ، المولود في ١٩٢٥ ، تعمق نسبيا في فقه الدين الإسلامي ، وحج إلى بيت الله الحرام ، وكان بدهيا أن يرفض " خلطة " تعاليم أستاذه القديم « إليجا محمد » التي تمزج بين الدين الإسلامي والزنوجة بطريقة مشوشة ومشوهة . أسس الحاج « مالك » مؤسسته الجديدة على أسس الإسلام السني وهي « جامع الإسلام » ،. هنالك أصبح « مالك » خطرا على رفاق الأمس بقدر ما أصبح خطرا على دوائر المؤسسة الأمريكية الحاكمة . ولذا حين اغتيل « الحاج مالك » في ٢١ من فبراير ١٩٧٥ ، تفرق دمه بين القبائل .

وفي ١١ من فبراير ١٩٧٥ اغتيل رئيس مدغشقر « ريتشارد راتسيماندرافا » في تاناناريف ، على حين قتل رئيس بنجلاديش الشيخ « مجيب الرحمن » خلال انقلاب عسكري وقع في ١٥ من أغسطس من تلك السنة . وفي ١٣ من فبراير ١٩٧٦ اغتيل رئيس نيجيريا الجنرال « مرتالا رامات محمد » على أيدي عناصر ثورية .

شهدت شوارع العاصمة سول مصرع رئيس كوريا الجنوبية « بارك تشونج هي » ، وستة من حرسه الشخصي برصاص أطلقه رئيس « سي . آي . ايه » في كوريا الجنوبية ، وخمسة من مساعديه في ٢٦ من أكتوبر ١٩٧٩ . وفي ١٢ من أبريل ١٩٨٠ اغتيل رئيس ليبيريا « وليام تولبرت » خلال انقلاب عسكري ، في حين اغتيل رئيس وزراء السويد « أولاف بالمه » في ٢٨ من فبراير ١٩٨٦ وهو عائد إلى منزله بعد مشاهدة فيلم في إحدى دور العرض . وفي ٢١ من مايو ١٩٩١ اغتيل رئيس وزراء الهند « راچيف غاندي » في مدراس خلال حملة انتخابية . كما اغتيل رئيس سريلانكا « راناسينغ بريماداسا » في انفجار هز العاصمة كولومبو في أول مايو ١٩٩٣ . وفي ٦ من أبريل ١٩٩٤ قتل رئيس بوروندي سيبراين « نتارياميرا » ورئيس رواندا جوفينال هابياريمانا مع ثمانية آخرين ، حين تم إسقاط طائرتهما .

وفي ٣ من نوفمبر ١٩٩٥ ، اغتال متطرف إسرائيلي من أصل يمني يدعى « إيجال عامير » (٢٧ سنة في ذلك الوقت) بالرصاص رئيس الوزراء الإسرائيلي « إسحق رابين» (١٩٢٢-١٩٩٥) ، بعد أن أطلق عليه الرصاص خلال اجتماع حاشد شارك فيه «رابين» بالغناء من أجل السلام !

ولقي رئيس وزراء بلغاريا السابق « أندريه لوكانوف » مصرعه على يدي مسلح مجهول في ٢ من أكتوبر ١٩٩٦ . كما اغتيل نائب رئيس باراجواي « لويس ماريا أرجانيا » مع سائقه - في كمين نصب لهما - برصاص أربعة معتدين في ٢٣ من مايو ١٩٩٩ . وفي ٩ من أبريل ١٩٩٩ اغتيل رئيس النيجر « إبراهيم باري مناصرة » في أثناء توجهه لاستقلال إحدى الطائرات ، وذلك على أيدي أفراد من الحرس الرئاسي . وعقب اغتيال « مناصرة » أعلن الجيش الاستيلاء على السلطة ، وحل جميع المؤسسات السياسية الوطنية بما فيها البرلمان والمحكمة العليا ، ووقف العمل بالدستور ، وتشكيل مجلس مصالحة وطنية تولى قيادة البلاد خلال فترة انتقالية استمرت تسعة أشهر انتخب خلالها « مامادو تاندجا » كرئيس جديد للنيجر . وفي ٢٧ من أكتوبر ١٩٩٩ اغتيل رئيس وزراء أرمينيا « فازجين سركسيان » مع سبعة آخرين بالرصاص ، خلال إحدى جلسات البرلمان !

الملك « عبدالله بن الحسين » (١٨٨١-١٩٥١) مؤسس الأسرة الهاشمية ، اغتيل في ساحة المسجد الأقصى في القدس على يد شاب فلسطيني في ٢٠ من يوليو ١٩٥١ أمام ناظري « الحسين بن طلال » ، الذي أصبح عاهلا للأردن بعد ذلك الحادث بفترة قصيرة ، إذ ارتقى العرش في ١٢ من أغسطس ١٩٥٢ . وكان أبوه الملك « طلال» قد خلف الملك « عبد الله » ، ولكن سرعان ما تبين أنه غير مؤهل للحكم بسبب « عدم استقراره عصبيا » . كما اغتيل آخر ملوك العراق ، الملك « فيصل الثاني » المولود في ٢ من مايو ١٩٣٥ ، في الساعات الأولى للانقلاب الذي وقع في ١٤ من يوليو ١٩٥٨ . واغتيل « إبراهيم الحمدي » رئيس اليمن الشمالي في ١٢ من أكتوبر ١٩٧٧ ، على حين قتل الرئيس الجزائري « محمد بوضياف » برصاص شخص يدعى « ياسين بولمعراف » في ٢٩ من يونيو ١٩٩٢ .

العاهل السعودي الملك « فيصل بن عبد العزيز » (١٩٠٦-١٩٧٥) اغتيل داخل قصر الحكم في الرياض في صباح الثلاثاء الموافق ٢٥ من مارس ١٩٧٥ على يد ابن أخيه ، ويدعى « فيصل بن مساعد بن عبد العزيز » . كان القاتل قد تعلم في الولايات المتحدة ، وأعلن رسميا أن القاتل يعاني اضطرابات عقلية ونفسية ، لكن البعض أشار إلى دور محتمل للمخابرات الأمريكية ، للتخلص من الملك « فيصل » الذي لعب دورا بارزا خلال حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، وأزمة الطاقة في الغرب آنذاك .

أما الرئيس المصري « أنور السادات » ، فقد اغتيل في يوم فرحه ، إذ قتل في ٦ من أكتوبر ١٩٨١ برصاص مجموعة من المشاركين في العرض العسكري - بقيادة « خالد الإسلامبولي » - الذي أقيم بمناسبة ذكرى النصر في حرب أكتوبر ١٩٧٣ .

وفي حين تعرض الرئيس المصري « جمال عبد الناصر » لمحاولة اغتيال شهيرة - ومثيرة للجدل - في أثناء إلقائه خطابا في ميدان المنشية في الإسكندرية في أكتوبر ١٩٥٤ ، حين أطلق عليه الرصاص شخص يدعى « محمود عبد اللطيف » ، تعرض الرئيس المصري « حسني مبارك » لأكثر من محاولة اغتيال ، أبرزها في الخارج تلك التي وقعت في يونيو ١٩٩٥ في العاصمة الإثيوبية أديس أبابا ، حين أطلقت مجموعة من المهاجمين النار على سيارته المصفحة . وفي الداخل ، هاجم شخص يدعى « سيد سليمان » وشهرته « العربي » موكب الرئيس « مبارك » خلال زيارته لمدينة بورسعيد في ٦ من سبتمبر ١٩٩٩ ، وطعن الجاني الرئيس مبارك في ذراعه بمطواة كانت في يده ، قبل أن يتدخل رجال الحرس الرئاسي ويردوه قتيلا .

ولمصر تاريخ حافل بمحاولات الاغتيال السياسي ، سواء كانت ناجحة أم فاشلة . ففي الساعة الواحدة بعد ظهر يوم الأحد الموافق ٢١ من فبراير ١٩١٠ ، تربص شاب يدعى « إبراهيم ناصف الورداني » برئيس الوزراء (النظار آنذاك) « بطرس باشا غالي » عندما كان خارجا من نظارة الحقانية (العدل) ليستقل سيارته وأطلق عليه الرصاص . تم نقل المصاب بعد نصف ساعة إلى مستشفى ملتون ، وأجريت له عملية جراحية بدأت قبل الساعة السادسة ، تبين منها أن الرصاصة التي دخلت من جانب البطن الأيمن استقرت تحت الجلد في الجانب الأيسر وشقت الجلد ثلاثا ، والمعدة شقين من جانبها

ولمست الأمعاء ، ولم تثقبها . وعلى الرغم من استخراج الرصاصة ، فإن المجني عليه أسلم الروح في الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة عشرة من يوم ٢١ من فبراير- وفق ما جاء في وثيقة التقرير الطبي . وقد أعلنت الشرطة - آنذاك - أن الجاني في هذا الاغتيال السياسي تلقى علومه في إنجلترا وسويسرا ، وهو صيدلاني . وقد ألمحت الصحافة إلى أن الجاني عاد من لوزان إلى مصر محملا بأفكار الطلبة الروس الذين التقاهم في سويسرا .

وفي ١٨ من مايو ١٩١٠ حكمت المحكمة بإعدام « إبراهيم ناصف الورداني » شنقا ، وهتف المتهم بعد صدور الحكم « **الله أكبر الذي يمنح الحرية والاستقلال** » . وقد صدر قرار من الخديو يحرم على أي مصري الاحتفاظ بصورة القاتل . وفي ليلة تنفيذ الحكم التي وافقت ٢٨ من يونيو ، خرجت مظاهرات من شباب المدارس الثانوية والنساء في أنحاء مصر ، تردد وتغني بحزن وأسى : « قولوا لعين الشمس ما تحماشي أحسن غزال البر صابح ماشي » .

وفي مايو ١٩١٢ ، تعرض الخديو « عباس حلمي الثاني » وناظر النظار (رئيس الوزراء) « محمد سعيد باشا » واللورد « كتشنر » لمحاولة اغتيال ؛ اتهم فيها : « إمام واكد » ، و « محمود طاهر العربي » ، و « محمد عبد السلام » ، و « حسن حسني كامل » ، و « حسن حنفي » ، و « محمد عبدالرحمن الصباحي » ، و « محمود رمزي نظيم » . وفي ٢٥ من يوليو ١٩١٤ أطلق « محمود مظهر » الطالب بمدرسة البحرية التجارية نيران مسدسه على الخديو « عباس حلمي الثاني » - لدى خروجه من الباب العالي في الآستانة - فأصابه بأربع رصاصات في خده الأيمن ، وأصاب صهره « جلال الدين باشا فريد » واثنين من المارة ، فأطلق الياور الخاص للخديو الرصاص على الجاني فقتله .

وفي ٨ من أبريل ١٩١٥ تعرض السلطان « حسين كامل الأول » لمحاولة اغتيال اتهم فيها « محمد خليل » ، الذي قدم للمحاكمة وأعدم في ٢٤ من أبريل ١٩١٥ . وفي ٩ من يوليو ١٩١٥ تعرض السلطان « حسين كامل » لمحاولة اغتيال ثانية ، حين ألقيت قنبلة من المنزل رقم ٩٩ بشارع رأس التين في الإسكندرية على عربة السلطان

« حسين » في أثناء توجه الأخير إلى المسجد لكي يؤدي صلاة الجمعة . اتهم في الحادث «محمد نجيب الهلباوي » و « محمد شمس الدين » وحكم عليهما بالإعدام ، وعدل الحكم في ٢ من يونيو ١٩١٦ إلى الأشغال الشاقة المؤبدة . وفي ٤ من سبتمبر ١٩١٥ جرت محاولة اغتيال « إبراهيم باشا فتحي » وزير الأوقاف واتهم فيها « صالح عبداللطيف » ، وحكم عليه بالإعدام . وفي ١٠ من يونيو ١٩١٩ أطلق مجهولون النار في محاولة لاغتيال « محمد سعيد باشا » رئيس الوزراء . وفي ٢ من سبتمبر ١٩١٩ تعرض « محمد سعيد باشا » لمحاولة اغتيال أخرى في الإسكندرية باستخدام قنبلة ، وقد حكم على « سيد علي محمد » بالسجن عشر سنوات مع الشغل ، و « علي محمد شكري الكرداني » بالسجن ١٥ سنة مع الشغل . وفي ٢٠ من نوفمبر تعرض الكابتن « كومب » لمحاولة اغتيال بإطلاق النار عليه عند كوبري بولاق . وفي ١٥ من ديسمبر ١٩١٩ ، جرت محاولة اغتيال « يوسف وهبة باشا » .

وفي ١٢ من يوليو ١٩٢٤ أطلق طالب طالب في كلية طب برلين يدعى « عبد اللطيف عبد الخالق » النار على « سعد زغلول » وهو على رصيف محطة قطارات القاهرة ، وأصابه في ساعده اليمنى . ألقي القبض على الجاني ، وحملت القضية رقم ١٨١٣ جنايات قسم الأزبكية لسنة ١٩٢٤ ، وقيل وقتها إن الجاني مختل عقليا ، وإنه أودع مستشفى الأمراض العقلية !

ولقد شهدت الفترة من ١٢ من يناير ١٩٢٠ حتى ٨ من ديسمبر ١٩٤٤ محاولات اغتيال كثيرة للمسئولين ولضباط إنجليز ، من بينهم « إسماعيل سري باشا » ، « محمد شفيق باشا » ، « محمد إبراهيم هلا » ، « حسين درويش باشا » ، « محمد توفيق نسيم باشا » ، « محمد بدر الدين » ، « عبدالخالق ثروت باشا » ، «سليم زكي» ، « حسين مصطفى فرغلي » ، « سعد باشا زغلول » ، « إسماعيل صدقي باشا » ، وبعض الوزراء . وفي ١٨ من نوفمبر ١٩٣٧ ، أطلق حفيد الزعيم « أحمد عرابي » الرصاص على سيارة « مصطفى النحاس باشا » رئيس الوزراء ، ووصفت الصحف -آنذاك- المتهم ويدعى « عزالدين عبدالقادر » بأنه سفيه ، معتوه ، محموم ويائس . وقد ألقي القبض على الجاني في أثناء محاولته الفرار من شارع البوستة . وقرر الجاني في الجناية رقم ١٤٣ مصر الجديدة لسنة ١٩٣٨ أنه أطلق النار على « النحاس » بعد دراسته

للمعاهدة المصرية- الإنجليزية الموقعة في ١٩٣٦ ، واعتقاده بأن « النحاس » لم يستطع أن يخدم مصلحة بلاده بل أخرها ، فعقد النية على قتله منذ ذلك الحين . وبعد ١١ سنة من تلك المحاولة ، تعرض « النحاس » لمحاولة اغتيال أخرى لدى استقلاله سيارته عند خروجه من دار النادي السعدي ، فأطلق الرصاص على السيارة ثم ألقيت قنبلتان في الطريق ، ولم تنفجر الأولى وانفجرت الثانية . وأسفر الحادث عن مقتل اثنين من الحرس الخاص وإصابة حارسين وجندي .

وبعد ٤٩ يوما من محاولة اغتيال « النحاس باشا » ، اغتيل « محمود فهمي النقراشي باشا » رئيس الوزراء المصري ، الذي كان يشغل منصبي الداخلية والمالية معا ، عندما كان في طريقه إلى المصعد في وزارة الداخلية . وعندما اعتقل المتهم ويدعى «عبدالحميد أحمد حسن » (وآخرون) في الجناية رقم ١٥٩ عسكرية عليا لسنة ١٩٤٩ عابدين ، اعترف بأنه ارتكب الجريمة ردا على سياسات النقراشي . وفي ١٢ من فبراير ١٩٤٩ اغتيل الشيخ « حسن البنا » مؤسس حركة الإخوان المسلمين عندما كان يستقل سيارة تاكسي ، ووجهت اتهامات إلى أجهزة الأمن والقصر - آنذاك - بالتورط في الجناية رقم ١٠٧١ لسنة ١٩٥٢ ، والمتهم فيها « أحمد حسين جاد » وآخرون .

واغتيل « أحمد ماهر باشا » رئيس مجلس الوزراء في ٢٤ من فبراير ١٩٤٥ في الجناية رقم ١٨١٠ عسكرية السيدة زينب ، المتهم فيها « محمود عيسوي عوض الله » . واغتيل وزير المالية « أمين عثمان » في ٥ من يناير ١٩٤٦ في الجناية رقم ١١٢٩ لسنة ١٩٤٦ ، المتهم فيها « حسين توفيق » و « أنور السادات » وآخرون . واغتيل اللواء «سليم زكي » حكمدار بوليس العاصمة في ١٩٤٩ ، في حين تعرض لمحاولات اغتيال وزراء الداخلية « حسن أبو باشا » ، و « النبوي إسماعيل » ، و « زكي بدر » ، و «حسن الألفي » ، ورئيس الوزراء الدكتور « عاطف صدقي » ، ووزير الإعلام « صفوت الشريف » .

وفي الساعة الثانية من بعد ظهر يوم الأربعاء الموافق ١٩ من نوفمبر ١٩٢٤ ، اغتيل السير « لي ستاك » سردار الجيش المصري وحاكم عموم السودان ، في واحدة من أخطر جرائم الاغتيال السياسي في مصر خلال القرن العشرين ، لكون القتيل من أكبر

العسكريين في الجيش البريطاني وفي وزارة الخارجية ، وكانت آراؤه تتركز على إبقاء مصر محمية بريطانية . وبينما كان السردار عائدا في سيارته من مكتبه في وزارة الحربية إلى داره في الزمالك ، أطلق عليه النار خمسة أشخاص كانوا متربصين له داخل سيارة في شارع إسماعيل أباظة ، فأصيب السردار إصابات خطيرة في بطنه ويده وقدمه ، كما أصيب عدد ممن كانوا معه ، وتوفي السردار متأثرا بجراحه في ٢٠ من نوفمبر نحو منتصف الليل .

استمرت المحاكمة ستة أيام فقط ، وفي يوم الاثنين الموافق أول مايو ١٩٢٥ صدرت الأحكام في القضية التي حملت رقم ١١٠ جنايات السيدة زينب لسنة ٢٥ والمقيدة في الجداول برقم ٣٠٣ ، بإعدام « عبد الفتاح عنايت » ، « عبد الحميد عنايت» ، « إبراهيم موسى » ، « محمود راشد » ، « علي إبراهيم محمد » ، « شفيق منصور » ، « راغب حسن » ، و « محمود أحمد إسماعيل » . أما المتهم « محمود صالح » فحكم عليه بالحبس مع الشغل لمدة سنتين ، ونفذ الحكم في سبعة فقط ؛ لأن «عبد الفتاح عنايت » حكم عليه لاحقا بالأشغال الشاقة المؤبدة بدلا من الإعدام .

وعلى أرض مصر أيضا ، اغتالت العصابة الإرهابية الصهيونية « شتيرن » بتدبير من « إسحق شامير » - الذي تولى لاحقًا رئاسة الحكومة الإسرائيلية - اللورد « والتر موين » ، الذي كان يشغل منصب وزير الدولة البريطاني في الشرق الأوسط . وتبين من التحقيق أن القاتلين يهوديان من عصابة « شتيرن » . بدأت المحاكمة في يوم الأربعاء الموافق ١٠ من يناير ١٩٤٥ في تمام الساعة التاسعة صباحا ، وانتهت يوم ١٨ من يناير ١٩٤٥ ، حيث تقرر النطق بالحكم . في اليوم التالي ١٩ من يناير ١٩٤٥ أصدرت المحكمة قرارها بإحالة أوراق المتهمين إلى المفتي ، وفي ٢٢ من يناير المذكور تم تحديد النطق بالحكم على المتهمين . وحكمت المحكمة حضوريا « بمعاقبة كل من « إلياهو حكيم » ، و « إليا هوبت تسوري » بالإعدام ، وبمصادرة الأسلحة والذخائر والمفرقعات المضبوطة » .

وفي قبرص اغتيل الأديب المصري « يوسف السباعي » بالرصاص في ١٨ من فبراير ١٩٧٨ ، في أثناء توجهه إلى قاعة الاجتماعات لحضور مؤتمر التضامن الأفرو-آسيوي ، في حين قام متطرف آخر بالتغطية ، عن طريق احتجاز ٣٠ رهينة داخل كافيتيريا الفندق من بينهم وزير الداخلية القبرصي . وقد تمكن المعتديان ، ويدعيان « أبوخليل » و « زايد » ، من الهرب ومعهما ١١ رهينة على متن طائرة من الجزيرة . لكن قوات الكوماندوز المصرية تمكنت من تحرير الرهائن في مطار لارناكا .

وفي ١٣ من أكتوبر ١٩٩٠ ، اغتيل رئيس مجلس الشعب المصري الدكتور «رفعت المحجوب » وهو في طريقه إلى فندق « الميريديان » ، في كمين أمام فندق «سميراميس» أطلق فيه أربعة متطرفين الرصاص على سيارة « د . المحجوب » .

ومن أشهر الاغتيالات خلال سنوات الحرب الأهلية اللبنانية ، اغتيال الزعيم والمثقف اللبناني « كمال جنبلاط » في ١٦ من مارس ١٩٧٧ ، وهو الاغتيال الذي زاد من الطابع الطائفي والمذهبي لتلك الحرب المؤلمة . واغتيل الرئيس اللبناني المنتخب «رينيه معوض » في ٢٣ من نوفمبر ١٩٨٩ ، إثر انفجار قنبلة وقع في أحد شوارع بيروت الغربية ، وهو متوجه في موكب من السيارات في أثناء احتفالات لبنان بعيد الاستقلال، ولم يكن قد قضى في منصب الرئاسة سوى ١٧ يوما . ولقد لقي نحو ٢٠ شخصا آخر حتفهم معه .

وكان رئيس لبناني آخر هو« بشير الجميل » قد اغتيل خلال انفجار وقع في ١٤ من سبتمبر ١٩٨٢ . كذلك يبرز حادث اغتيال رئيس وزراء لبنان « رشيد كرامي » ، وهو على متن طائرة هليكوبتر في مطار حالات في أول يونيو ١٩٨٧ ، واغتيال الشيخ «حسن خالد » مفتي لبنان في ١٦ من مايو ١٩٨٩ .

واغتيل الكونت السويدي « فولك برنادوت » الوسيط الدولي الذي عينته الأمم المتحدة لحل النزاع العربي- الإسرائيلي بعد وصوله إلى فلسطين ، وذلك في ١٧ من سبتمبر ١٩٤٨ . وكانت أصابع منظمة « شتيرن » الصهيونية واضحة وراء هذا الاغتيال المدبر .

الضحايا فلسطينيون

ولقد اغتيل عديد من القيادات الفلسطينية خلال النصف الثاني من القرن العشرين ، وكان معظمهم ضحايا فرق الاغتيال الإسرائيلية ، ففي ١٣ من أبريل ١٩٧٣ نزلت مجموعة إسرائيلية مسلحة ليلا في بيروت واغتالت ثلاثة من كبار قادة منظمة التحرير الفلسطينية ، وهم : « كمال عدوان » المسئول عن الأراضي المحتلة ، والشاعر «كمال ناصر » المتحدث الرسمي باسم المنظمة ، و « يوسف النجار » . وحدث ذلك قبل سنتين بالتمام من بدء الحرب الأهلية اللبنانية . وفي ٤ من يناير ١٩٧٨ قتل « سعيد حمامي » ممثل منظمة التحرير الفلسطينية في بريطانيا برصاصة في رأسه في مكتبه في العاصمة لندن . وفي ١٥ من يونيو ١٩٧٨ اغتيل « علي ياسين » مدير مكتب المنظمة في الكويت . وفي أول يونيو ١٩٨١ قتل « نعيم خضر » ممثل المنظمة في بلجيكا بخمس رصاصات ، أصابته في وسط أحد شوارع العاصمة بروكسل . وفي ٩ من أكتوبر ١٩٨١ اغتيل « ماجد أبو شرار » مسئول الإعلام في المنظمة داخل غرفته في أحد فنادق العاصمة الإيطالية روما . وفي ١٧ من يونيو ١٩٨٢ ، اغتيل « كمال حسين » نائب رئيس المنظمة في إيطاليا من جراء انفجار قنبلة في روما .

وفي ٢٣ من يوليو ١٩٨٢ اغتيل « فضل الضاني » مساعد مدير مكتب المنظمة في فرنسا من جراء انفجار عبوة ناسفة وضعت في سيارته . وفي ٢٨ من سبتمبر من السنة نفسها قتل « سعد صايل » ، المعروف باسم « أبو الوليد » والمستشار العسكري لـ « ياسر عرفات » في كمين في سهل البقاع اللبناني . وفي ١٠ من أبريل ١٩٨٣ اغتيل « عصام السرطاوي » المستشار السياسي لـ « عرفات » في فندق في البوفيرا البرتغالي ، وأعلنت جماعة أبو نضال المنشقة عن المنظمة مسئوليتها عن الحادث .

وفي ١٠ من يونيو ١٩٨٦ قتل « خالد نزال » في العاصمة اليونانية أثينا ، وكان مسئولا عن العمليات في الأراضي المحتلة ، وعضوا في اللجنة المركزية للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين التي يتزعمها « نايف حواتمة » . وفي ٢١ من أكتوبر ١٩٨٦ اغتيل « منذر أبو غزالة » في أثينا ، وكان عضوا في « فتح » ومسئولا عن الوحدات البحرية الفلسطينية . وفي ١٤ من فبراير ١٩٨٨ اغتيل ثلاثة كوادر فلسطينية من « فتح »

في ليماسول القبرصية ، وهم : « مروان كيالي » ، و « محمد بحيص » ، و « محمد سلطان » عقب انفجار قنبلة في سيارتهم .

وفي ١٦ من أبريل ١٩٨٨ اغتيل « خليل الوزير » المعروف باسم « أبو جهاد » في تونس ، وكان قائدا للجناح العسكري لحركة فتح ومن أقرب معاوني « عرفات » ، وهو ثاني اعتداء على فلسطينيين ، يتم في تونس منذ قصف مقر المنظمة في حمام الشط جنوبي العاصمة التونسية في أول أكتوبر ١٩٨٥ ، مما أسفر عن مقتل أكثر من ٧٠ شخصا .

وفي ٢ و٣ من مايو ١٩٨٩ وقعت سلسلة من الاعتداءات في الجنوب اللبناني على كوادر من منظمة التحرير الفلسطينية ، في مقدمتهم « عصام سالم » الذي كان مندوبا خاصا لعرفات في لبنان ، وقد أصيب بجراح خطيرة في صيدا في الجنوب اللبناني (يوم ٢) . وفي اليوم التالي قتل « بسام حوراني » الضابط في الوحدة الخاصة للمنظمة « القوة ١٧ » في شرقي صيدا .

وفي ١٤ من يناير ١٩٩١ ، اغتيل ثلاثة قياديين فلسطينيين في تونس ، وهم : « صلاح خلف » المعروف باسم « أبو إياد » - وكان الرجل الثاني في المنظمة بعد «عرفات » - و « هايل عبدالحميد » المعروف باسم « أبو الهول » مسئول أجهزة الأمن في حركة « فتح » ، و « أبو محمد العمري » مستشار « أبو إياد » . وفي ٨ من يونيو ١٩٩٢ اغتيل الشاعر والسياسي « معين بسيسو » في باريس . وفي ٢٦ من أكتوبر ١٩٩٥ اغتال عملاء إسرائيل زعيم « الجهاد الإسلامي » « فتحي الشقاقي » في مالطا . وفي ٥ من يناير ١٩٩٦ اغتالت إسرائيل المهندس « يحيى عياش » خبير المتفجرات في حركة المقاومة الإسلامية « حماس » ، الذي كانت السلطات الإسرائيلية تطلب رأسه بأي ثمن . كما اغتيل « محيي الدين الشريف » أحد قادة « حماس » في ٢٩ من مارس ١٩٩٨ .

الحب القاتل

وفي حين حاول « جون هينكلي » التعبير عن حبه للممثلة « جودي فوستر » بمحاولة اغتيال الرئيس الأمريكي « رونالد ريجان » في ٣٠ من مارس ١٩٨١ ، أطلق

« محمد علي أغا » (٤٢ سنة) النار في ١٣ من مايو ١٩٨١ على البابا « يوحنا بولس الثاني » في أثناء عبور الأخير ساحة القديس « بطرس » في الفاتيكان ، فأصابه برصاصتين استدعيتا التدخل الجراحي لمدة ست ساعات لإنقاذ حياة البابا . وبعد خمسة أيام فقط ، ترأس البابا قداس الأحد من نافذة غرفته في المستشفى ، وتولت وسائل الإعلام نقله على الهواء مباشرة ، وقال خلاله جملته الشهيرة « إنني أصلي من أجل الأخ الذي أصابني ، وأدعو له بالرحمة والسماح » .

« أغا » الذي حكم عليه في يوليو ١٩٨١ بالسجن المؤبد ، وأمضى ١٩ سنة في سجون إيطاليا قبل أن يصدر عفو عنه في ٣ من يونيو ٢٠٠٠ ، التقى في سجن ريبيبيا في العاصمة الإيطالية روما البابا « يوحنا بولس الثاني » في ٢٧ من ديسمبر ١٩٨٣ ، واعتذر له عن جريمته التي جعلت البابا يستخدم في تنقلاته سيارة مصفحة ومغطاة بالزجاج الواقي من الرصاص ، أهدتها له إحدى أشهر شركات السيارات في ألمانيا .

قراصنة الجو

ومن أشهر حوادث القرصنة الجوية محاولة عناصر من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين خطف وتحويل مسار طائرة تابعة لشركة « العال » الإسرائيلية ، كانت في رحلة بين روما وتل أبيب ، لتتوجه إلى الجزائر في ٢٣ من يوليو ١٩٦٨ . وقد أطلق سراح آخر الرهائن في أول سبتمبر . كما خطف فدائيون فلسطينيون وألمان طائرة تابعة لشركة « إير فرانس » إلى مطار عنتيبي في أوغندا في ٢٥ من يونيو ١٩٧٦ ، مطالبين بالإفراج عن ٥٣ معتقلا من الفلسطينيين ومؤيدي القضية الفلسطينية في سجون إسرائيل وكينيا وأوروبا . لكن قوات الكوماندوز الإسرائيلية أغارت على الطائرة ، وأنقذت الرهائن في ٤ من يوليو ١٩٧٦ في حين قتل أربعة مدنيين في الهجوم .

وفي ٢ من مارس ١٩٨١ خطف ثلاثة باكستانيين طائرة خلال رحلة لها من كراتشي إلى بيشاور ، وأجبروا طاقم الطائرة على التوجه بها إلى أفغانستان ثم إلى سوريا . وغادر الخاطفون الطائرة في ١٤ من مارس بعد موافقة باكستان على إطلاق سراح ٥٤ معتقلا سياسيا . واختطف مسلحون من الشيعة طائرة تابعة للخطوط الجوية

الكويتية في دبي بالإمارات العربية المتحدة في ٣ من ديسمبر ١٩٨٤ ، وأجبروا طاقمها على التوجه إلى العاصمة الإيرانية طهران . وطالب الخاطفون الحكومة الكويتية بإطلاق سراح ١٧ مسجونا لإدانتهم بالاعتداء على منشآت فرنسية وأمريكية في الكويت . وقتل أمريكيان خلال عملية الخطف ، قبل إنهاء القرصنة في ٨ من ديسمبر ، حين تخفَّت قوات أمن إيرانية في هيئة عمال نظافة ، وتمكنت من اقتحام الطائرة والإفراج عن الرهائن .

طائرة كويتية أخرى تعرضت لقرصنة جوية من جانب مسلحين اختطفوا الطائرة الجامبو ، خلال رحلتها من تايلاند إلى الكويت في ٥ من أبريل ١٩٨٨ ، وحولوا مسارها إلى إيران ، ثم قبرص ، وأخيرا الجزائر . طالب الخاطفون السلطات الكويتية بإطلاق سراح ١٧ شخصا مواليا لإيران ، وقتلوا رهينتين ، قبل إطلاق سراح الباقين في ٢٠ من أبريل . وقد غادر الخاطفون الجزائر دون إلقاء القبض عليهم .

واختطف مسلحون شيعة أيضا طائرة « تي . دبليو . ايه . » من طراز بوينج ٧٢٧ ، وأجبروا طاقمها على التوجه إلى العاصمة اللبنانية بيروت في ١٤ من يونيو ١٩٨٥ . طالب الخاطفون بإطلاق سراح ٧٠٠ معتقل في السجون الإسرائيلية . وقتل خلال عملية الخطف غواص من البحرية الأمريكية ، واحتجز ٣٩ أمريكيا ، إلى أن أفرج عنهم في أول يوليو بعد وساطة سورية . واختطف خمسة قراصنة طائرة تابعة للخطوط الجوية الهندية كانت تقل ١٧٨ راكبا وطاقم قيادة يضم ١١ آخرين في ٢٤ من ديسمبر ١٩٩٩ ، عقب مغادرتها العاصمة النيبالية كاتماندو . قتل الخاطفون راكبا واحدا ، وأطلقوا سراح آخرين في المراحل الأولى من عملية الخطف . وغادر الخاطفون الطائرة الرابضة فوق أرض المطار في أفغانستان وعلى متنها ١٥٥ راكبا ، بعد موافقة السلطات الهندية على الاستجابة لمطالبهم بشأن الإفراج عن ثلاثة معتقلين .

أسماء ومحاكم

وبعد محاكمة صورية قصيرة في ١٩٣٨ ، انضم « نيقولاي بوخارين » (١٨٨٨-١٩٣٨) إلى قائمة ضحايا حملة « التطهير » التي نفذها الدكتاتور السوفيتي

«چوزيف ستالين» ضد خصومه . وبعد أن كان يطلق عليه لقب « معشوق الحزب » الشيوعي ، بدأت في ٢ من مارس ١٩٣٨ محاكمة الرجل الذي كان صديقا مقربا إلى مُنَظِّر الثورة البلشفية « فلاديمير لينين » ، بتهمة محاولة قتل « لينين » في ١٩١٨ ، والتآمر على الدولة السوفيتية ! وفي الساعة الرابعة من صباح يوم ١٢ من مارس ، حكم القضاة بالموت على بوخارين و١٧ آخرين من قادة الحزب الشيوعي ، ليطلق الرصاص على بوخارين في ١٥ من مارس ، بعد أن ترك رسالة قصيرة لـ « ستالين » ناداه فيها باسمه الخاص قائلا : « كوبا ، لماذا تريدني أن أموت؟ » .

وفي ٢٠ من نوفمبر ١٩٤٥ بدأت محاكمات نورمبرج ، التي صدرت فيها أحكام تدين ٢٢ من زعماء النازية على جرائمهم البشعة خلال الحرب العالمية الثانية . استمرت المحاكمات حتى ٣٠ من سبتمبر ١٩٤٦ ، في حين صدرت أحكام بإدانة ٢٣ من القادة اليابانيين في نوفمبر ١٩٤٨ . وجهت إلى المتهمين عدة تهم في هذه المحاكمات التي افتتحها كبير قضاة بريطانيا « لورد لورانس » . الكلمة الافتتاحية للادعاء في هذه القضية بدأها القاضي الأمريكي « روبرت چاكسون » ، الذي دان جرائم النازية التي روعت الإنسانية ، كما وصف ممثل الادعاء الفرنسي « فرانسوا دي مينثوت » هذه الجرائم بأنها ضد الإنسانية ، ضاربا عديدًا من الأمثلة لمذابح الجنود الألمان خلال الحرب العالمية الثانية . ممثل الادعاء السوفيتي الچنرال « رومان رودينكو » طالب بحكم الإعدام ضد جميع المتهمين ، وسرد قائمة الجرائم التي ارتكبوها . وخلال المحاكمات تمكن كل سجين من اختيار محاميه ، كما تحدث عن نفسه مادام أراد ذلك ، وقد دافعوا عن أنفسهم قائلين إنهم كانوا ينفذون الأوامر الصادرة إليهم بكل دقة .

وحين سئل الزعيم النازي « هيرمان جورنج » عما إذا كان أحد قد قال "لا" للأوامر الصادرة إليه رد ضاحكا : لا يوجد أحد على قيد الحياة فعل ذلك ! « جورنج » نفسه انتحر بالسم بعد أن صدر الحكم بإعدامه ، ليلحق بزعيم النازية « أدولف هتلر » الذي أفلت من العقاب بالانتحار . صدرت خلال المحاكمات عديدًا من الأحكام بالإعدام والسجن مدى الحياة . وكان أبرز السجناء النازيين هو « رودولف هيس »

(١٨٩٤-١٩٨٧) ، الذي مات في محبسه في سجن سبانداو ، الذي ظل السجين الوحيد فيه طوال آخر ١١ سنة من حياته .

وبعد محاكمة دامت خلال الفترة بين مايو ١٩٤٦ - يونيو ١٩٤٨ ، قضت محكمة عسكرية أقامتها قوات الحلفاء بإعدام « هيديكي توچو » رئيس وزراء اليابان خلال الحرب العالمية الثانية ، وقد نفذ الحكم في ٢٣ من ديسمبر ١٩٤٨ .

أجهزة المخابرات الإسرائيلية تعقبت القائد النازي « أدولف إيخمان » (١٩٠٦-١٩٦٢) حتى الأرجنتين وخطفته لتعود به إلى إسرائيل في ٢٢ من مايو ١٩٦٠ ، وتتم محاكمته خلال الفترة بين ١١ من أبريل - ١٥ من ديسمبر ١٩٦١ ، حيث صدر ضده حكم الإعدام الوحيد في تاريخها ، وقد نفذ الحكم في ٣١ من مايو ١٩٦٢ . أما الأرجنتين فقد شهدت في ٩ من ديسمبر ١٩٨٥ - بعد محاكمة استمرت خمسة أشهر ومثل فيها نحو ألف شاهد أمام هيئة المحكمة - الحكم بإدانة خمسة أعضاء سابقين في المجلس العسكري الحاكم ؛ من بينهم الرئيسان السابقان « خورخي فيديلا » والجنرال « روبرتو إدواردو فيولا » ، بارتكاب جرائم قتل وانتهاك حقوق الإنسان . وشهدت كوريا الجنوبية في منتصف التسعينيات محاكمة مماثلة ، انتهت بإدانة رئيسي البلاد السابقين « تشون دو هوان » وسلفه « روه تاي وو ، ليبكي » السجينان بمرارة أمام عدسات المصورين . . ولكن بعد فوات الأوان .

ولم تكن محاكمة الرئيس الباكستاني السابق « ذو الفقار علي بوتو » (١٩٢٨-١٩٧٩) من المحاكمات العادية ؛ نقد تشددت السلطتان التنفيذية والقضائية ضد « بوتو » خلال المحاكمة ، التي استمرت بين ٢٤ من أكتوبر ١٩٧٧ - ٢٤ من مارس ١٩٧٩ ، وانتهى الأمر بتنفيذ حكم الإعدام شنقا في « بوتو » في ٤ من أبريل ١٩٧٩ .

وشهدت الصين خلال الفترة بين نوفمبر ١٩٨٠ - يناير ١٩٨١ محاكمة « عصابة الأربعة » ، وفي مقدمتهم چيانج كينج (١٩١٤-١٤ من مايو ١٩٩١) الزوجة الثالثة للزعيم الصيني « ماو تسي تونج » ، بتهمة التورط في محاكمة ٧٥٠ ألف شخص ، مات منهم ٣٤ ألفا و٣٨٠ شخصا . وفي نهاية المحاكمة صدر حكم بالموت على «كينج» ، لكن الحكم لم ينفذ ، وخفض لاحقا إلى السجن مدى الحياة .

ومن المحاكمات الشهيرة ، محاكمة الزعيم الكردي « عبد الله أوجلان » في تركيا بعد اعتقاله المثير واقتياده من إفريقيا إلى أنقرة معصوب العينين وموثق اليدين في فبراير ١٩٩٩ ، ومحاكمة الرئيس الروماني « نيقولاي شاوشيسكو » وزوجته في ديسمبر ١٩٨٩ ، بعد سقوط النظام الشيوعي ، والحكم بإعدامهما معا بعد محاكمة وجيزة . كذلك تبرز محاكمة الرئيس الأمريكي « بيل كلينتون » في قضية التحرش الجنسي بالموظفة « بولا چونز » ، التي انتهت بحصولها على مليوني دولار كتسوية وتعويض على ما حدث . أما محاكمة « كلينتون » أمام مجلس الشيوخ الأمريكي ، التي انتهت في مطلع ١٩٩٩ حول علاقته بالمتدربة السابقة في البيت الأبيض « مونيكا لوينسكي » ، فقد حرقت أعصاب الرئيس وأساءت إلى سمعته كرئيس ، وكزوج ، إلى أن انتهت الفضيحة بغلق الملف بشأن الاتهامات الخمسة الموجهة إلى « كلينتون » . . دون أن يعني ذلك براءته من هذه الاتهامات ، على الأقل في عيون الرأي العام الأمريكي .

أما الإرهابي العالمي «كارلوس» - واسمه الحقيقي «خوزيه أنجيل جارثيا تالافيرا» - المعروف بلقب "ابن آوى" فإنه يقبع حاليا في أحد سجون فرنسا ، بعد أن تسلمته من السلطات السودانية في ١٩٩٤ . لكن السلطات النمساوية تطالب بدورها بتسليم «كارلوس » لمحاكمته بتهمة خطف وزراء بترول الدول الأعضاء في منظمة « أوبك » في ١٩٧٤ .

وفي ١٣ من ديسمبر ١٩٩٤ بدأت المحكمة الإثيوبية العليا محاكمة الدكتاتور المخلوع « منجستو هيلا مريام » غيابيا ، ومحاكمة أركان نظامه السابقين ، في أكبر محاكمة من نوعها منذ محاكمات نورمبرج للقادة النازيين بعد الحرب العالمية الثانية . وقرأ القضاة الثلاثة على مدى أربعة أيام ٢٦٩ صفحة تضمنت الاتهامات الموجهة إلى الدكتاتور المخلوع وإلى كبار مساعديه ، وبين هذه الاتهامات تشكيل « فرقة إعدام » ، وتعذيب ، وقتل أفراد ، وارتكاب مجازر ، وإبادة جماعية ، والتسبب في اختفاء أشخاص !

المحاكمة انتهت بالطبع إلى حكم غيابي بإعدامه ، لكن ما هو أهم أنها فضحت جرائم « الإمبراطور الأحمر » الذي تحول من عريف جيش إلى أحد قادة المجلس العسكري الحاكم ، بعد إسقاط نظام الإمبراطور السابق « هيلا سيلاسي » في سبتمبر ١٩٧٤ ، قبل أن ينفرد « هيلا مريام » بالسلطة في فبراير ١٩٧٧ بعد أن صفى رفاقه وشركاءه في مجزرة رهيبة . ومنذ ذلك التاريخ لم يتوقف حمام الدم ، وقتلت القوات الموالية لهذا الدكتاتور الماركسي نحو ٢٧٥ ألف شخص ، في حين كان هو يستمتع في قصره المنيف بلعب التنس وتربية الأسود ، وإلقاء جثث ضحاياه في قنوات مياه الصرف ليشاهدها المواطنون الخائفون في الصباح وهم ذاهبون إلى أعمالهم .

الشيخ « عمر عبد الرحمن » كان بطل محاكمة مثيرة ، بعد اتهامه وإدانته بالتحريض في حادث تفجير المركز التجاري العالمي في نيويورك ، الذي وقع في ٢٦ من فبراير ١٩٩٣ . ويقضي هذا الشيخ الضرير عقوبته في زنزانة منفردة في أحد السجون الأمريكية .

وفي مصر ، انشغل الرأي العام بمحاكمات دنشواي التي بدأت يوم الأحد الموافق ٢٤ من يونيو ١٩٠٦ ، والتي اتهم فيها - ظلما - ٥٢ من المصريين بقتل البريطاني الكابتن « بول » في دنشواي في ١٣ من يونيو ١٩٠٦ . وكان خمسة ضباط إنجليز قد أثاروا غضب الأهالي ، بعد أن أصابوا مواطنين خلال محاولتهم صيد الحمام ، قبل أن يشتبكوا مع الأهالي . وفي أثناء فراره من مكان الواقعة ، سقط الكابتن « بول » المصاب بجرح في رأسه متأثرا بضربة شمس عند قرية سرسنا .

شكلت هيئة المحكمة من « بطرس باشا غالي » رئيسا ، وعضوية « عثمان مرتضى» ، و « أحمد فتحي زغلول » (شقيق سعد باشا) ، والإنجليز « هبتر » و «بوند» ، والقائمقام « لادلو » ، وتولى الدفاع عن المتهمين كل من المحامين « أحمد لطفي السيد » ، و « محمد يوسف » ، و « عثمان يوسف » ، و « إسماعيل عاصم » . وتولى المحامي الشهير « إبراهيم الهلباوي » الترافع عن الجانب الآخر ، وهو ما لم يغفره المصريون له حتى مماته . أما الأحكام التي صدرت في ٢٧ من يونيو باسم

الخديو « عباس حلمي » فقضت بإعدام أربعة متهمين شنقا ، والحكم على متهمين بالأشغال الشاقة المؤبدة ، وآخر بخمس عشرة سنة ، وستة بالسجن بالأشغال الشاقة سبع سنين ، وثلاثة بالحبس لمدة سنة ، وخمسة بالجلد ٥٠ جلدة ، وبراءة الباقين ، كما صدرت أحكام على بعضهم بالجلد خمسين جلدة في قرية دنشواي . تم تنفيذ الأحكام الجائرة أمام الأهالي في اليوم التالي .

وشغلت محاكمة جماعة « شكري مصطفى » الشهيرة باسم جماعة « التكفير والهجرة » اهتمام الكثيرين ، خاصة بعد اتهام هذه الجماعة المتطرفة باغتيال الدكتور « محمد حسين الذهبي » وزير الأوقاف المصري الأسبق في يوليو ١٩٧٧ .

وتابع الكثيرون باهتمام محاكمة الفنان اللبناني « مارسيل خليفة » في قضية «تحقير الشعائر الدينية» بتضمين أغنية « أنا يوسف يا أبي » مقطعا من آية قرآنية من سورة يوسف ، ملحنة ومغناة . رافقت المحاكمة - التي أسدل الستار عليها ببراءة الفنان اللبناني في ١٥ من ديسمبر ١٩٩٩ - ضجة كبرى وجدل بين خصوم « مارسيل خليفة » والمدافعين عنه ، في حين تساءل « خليفة » خلال محاكمته : « لماذا تحاكمونني؟ لن أصدق أن اقتباس جزء من آية أو تضمينها قصيدة وترتيلها بوقار وشفافية روحية ، يبرر هذه الدعوى والقرار الظني والحملة الضارية ، وتقديمي إلى المحاكمة؟ » .

وفي ١٩٩٩ ، صدر الحكم برفض القضية المرفوعة من أحد المحامين لمنع تداول كتاب « أبي آدم . قضية الخليقة بين الأسطورة والحقيقة » للدكتور « عبد الصبور شاهين » ، على أساس أن الكتاب يحمل آراء تمس العقيدة . الطريف أن الدكتور «شاهين» هو الذي كان قد اتهم الدكتور « نصر حامد أبو زيد » (١٩٤٣-) بالتهمة نفسها (الخروج على العقيدة) في ١٩٩٣ ، مما أدى في النهاية إلى رفع المستشار « محمد صميدة عبد الصمد » وخمسة محامين آخرين دعوى قضائية ضد الدكتور « أبوزيد » ليصدر في ١٤ من يونيو ١٩٩٥ حكم قضائي بالتفريق بين الدكتور « أبوزيد » وزوجته الدكتورة « ابتهال يونس » . وعقب صدور حكم التفريق وسط انقسام واسع ما بين مؤيد ومعارض ، هاجر الدكتور « أبو زيد » مع زوجته إلى هولندا للتدريس في جامعة ليدن .

وبعد جلسات استمرت ١٨ شهرا ، صدر في ٢٧ من ديسمبر ١٩٩١ حكم بحبس الكاتب « علاء حامد » والناشر « محمد مدبولي » وصاحب المطبعة « فتحي فضل » ، ثماني سنوات مع الشغل والنفاذ ، بسبب ما ورد في رواية حامد « مسافة في عقل رجل» من تطاول على الذات الإلهية ، وسخرية من الأديان والرسل . ثم صدر ضد «حامد» حكم آخر بالحبس سنة ، وكفالة ٢٠٠ جنيه ، ومصادرة رواية « الفراش » التي اعتبر ما ورد فيها مساسا بالأديان ، وخروجا على الآداب العامة .

في الاتجاه نفسه ، قرر مكتب التصديق على الأحكام في مصر بتاريخ ١٤ من ديسمبر ٢٠٠٠ إلغاء الحكم ، الصادر من محكمة جنح أمن الدولة « طوارئ » في الجيزة، بالحبس لمدة ستة أشهر مع إيقاف التنفيذ على المتهم « صلاح الدين محسن » . كما تضمن القرار إعادة محاكمة المتهم أمام دائرة جديدة . وكانت محكمة أمن الدولة العليا قد طعنت في الحكم الصادر في القضية المتهم فيها « صلاح الدين محسن » - بائع مواد طلاء وعضو اتحاد الكتاب في مصر !- الذي عاقبته المحكمة بالحبس لمدة ستة أشهر مع إيقاف التنفيذ . وقالت مذكرة الطعن في الحكم إن المذكور في الفترة من ١٩٨٨ حتى ١٠ من مارس ١٩٩٩ استغل الدين في الترويج لأفكار متطرفة؛ بقصد إثارة الفتنة في الكتابة ، بأن قام بتأليف و طباعة وتوزيع مطبوعاته « مسامرة السماء » ، « مذكرات مسلم » ، « عبعاطي » ، « ارتعاشات تنويرية » ، التي تضمنت ازدراء وتحقير الدين الإسلامي ، والتطاول على الله عز وجل ، ووصف الرسول - صلى الله عليه وسلم - والقرآن الكريم بأوصاف التحقير والازدراء ، والتهكم على أركان الإسلام الخمسة ، والسخرية من المسلمين ومن أداء العبادات في الإسلام ، والدعوة إلى نبذ الأديان والإلحاد . وقدم المتهم للمحاكمة في ٦ من مايو ١٩٩٩ ، وبجلسة ٨ من يوليو ١٩٩٩ قضت المحكمة حضوريا بمعاقبته بالحبس ستة أشهر مع إيقاف التنفيذ . وأسست النيابة طعنا على الحكم بالخطأ في تطبيق القانون والفساد في الاستدلال لأسباب عدة ، ولذا تم إلغاء الحكم وإعادة المحاكمة .

وعلى الصعيد العربي ، شهدت المحاكم الكويتية في ١٩٩٩ الحكم على الدكتور « أحمد البغدادي » الأستاذ بجامعة الكويت بالسجن من جراء مقال له اعتبر البعض ما ورد فيه مساسا بالعقيدة ، قبل أن يصدر عفو أميري عن الدكتور «البغدادي» ، على حين حوكمت الكاتبتان « عالية شعيب » أستاذة الفلسفة بجامعة الكويت ، والروائية « ليلى العثمان » أمام محكمة الجنايات ، بسبب ما ورد في ديوان شعر الأولى الذي صدر في ١٩٩٣ بعنوان « عناكب ترثي جرحا » ، ورواية الثانية التي صدرت في ١٩٨٤ بعنوان « الرحيل » . واكتفت المحكمة بتغريم الكاتبتين في القضيتين اللتين أقامهما أربعة ممن ينتمون إلى التيار الإسلامي .

وفي ٢٠ من ديسمبر ٢٠٠٠ ؛ استؤنفت أمام محكمة تيزي أوزو الجزائرية محاكمة المتهمين باغتيال المغني البربري « معطوب الوناس » - المعروف بتشدده في المطالبة بجعل اللغة الأمازيغية لغة رسمية للجزائريين - في يونيو ١٩٩٨ ، وهو الاغتيال ، الذي قاد إلى أحداث عنف هزت منطقة القبائل لأكثر من ثلاثة أيام ، بوصف القتيل « رمز التمرد الثقافي » ضد السلطة في الجزائر .

وفي ٣ من مايو ٢٠٠٠ تابع العالم في قاعدة كامب زيست العسكرية في هولندا بدء محاكمة الليبيين « عبد الباسط المقراحي » ، و « الأمين خليفة فحيمة » ، المتهمين بتفجير طائرة « بان أمريكان » فوق بلدة لوكربي الاسكتلندية في ديسمبر ١٩٨٨ ؛ مما أدى إلى مصرع ٢٧٠ شخصا . وقد انتهت المحاكمة بتبرئة أحدهما وإدانة الآخر .

وفغر العالم فاه وهو يتابع خلال سنتي ١٩٧٠ و١٩٧١ وقائع محاكمة « تشارلز ميللر مانسون » ، زعيم الهيبيز ، المولود في سينسيناتي بولاية أوهايو في ١١ من نوفمبر ١٩٣٤ ، الذي حرض أتباعه على ارتكاب سلسلة من جرائم السرقة والقتل ، بدأت بقتل رجل وزوجته في سوبرماركت ، وشملت مجزرة في فيللا الممثلة الفاتنة « شارون تيت » في لوس أنجلوس في ٨ من أغسطس ١٩٦٩ ، أسفرت عن مقتل خمسة أشخاص بمن فيهم « تيت » نفسها التي كانت تحمل جنينا في أحشائها . بل إن الرئيس الأمريكي أعلن في أثناء نظر القضية أن « مانسون » مذنب بشكل مباشر أو غير مباشر

في ثماني جرائم قتل . و « مانسون » هذا انضم في ١٩٦٧ إلى كنيسة الشيطان ، التي أسسها في ٣٠ من أبريل ١٩٦٧ « انتو سزاندو لافي » الذي امتهن في حياته عديداً من الأعمال ، منها ترويض الأسود ، وتنظيم السيركات وممارسة السحر . ومن المفارقات الغريبة أن « لافي » نفسه لعب قبل سنة واحدة من مقتل « تيت » دور الشيطان في فيلم « طفل روز ماري » ، الذي أخرجه « رومان بولانسكي » زوج الممثلة الضحية .

جذبت الإباحية التي دعا إليها « لافي » عددا من كبار أسماء هوليوود ، بمن فيهم الممثل « سامي ديفيز » الابن والممثلة « چين مانسفيلد » ، والممثلة « مارلين مونرو » ، التي أقامت مع « لافي » علاقة حميمة لكنها قصيرة الأمد في سنة ١٩٤٨ . وإذا كانت كنيسة الشيطان قد أوحت لـ « مانسون » بجرائمه ، فإنه لم يكن الوحيد في ذلك ، فقد تأثر بهذه الطقوس الشيطانية التي تحرض على القتل مجرمون آخرون ، من بينهم « ريتشارد راميريز » المعروف باسم « جوال الليل » ، الذي ارتكب سلسلة من جرائم القتل في منتصف الثمانينيات في أنحاء مدينة لوس أنجلوس الأمريكية .

أما « باتي هيرست » وريثة عائلة « هيرست » الأمريكية التي امتلكت إمبراطورية صحفية ضخمة ، فقد حوكمت بتهمة التورط في « جيش تحرير سيمبيونيس » في ١٥ من أبريل ١٩٧٤ . لكن في مطلع ١٩٧٩ ، تم الإفراج عن « باتي هيرست » بعد أن قضت معظم مدة العقوبة ، بعد أن ناشد والدها الرئيس الأمريكي « چيمي كارتر » إطلاق سراحها .

وفي إسبانيا اختتم القرن العشرون بمحاكمة أشهر مغتصب للنساء في هذا البلد الأوروبي ، وهو « أرليندو لويس كاربايو » (٣٤ سنة) ، الذي اعترف باغتصاب ١٤٠ امرأة بين سنتي ١٩٨٨ و ١٩٩٦ في مدريد . وكان « أرليندو » يختار ضحاياه بدقة متناهية ، ويعرف المكان الذي يباغت فيه المرأة التي يحددها ، وهو - عادة - مدخل عمارة ، أو مصعد ، أو محطة مترو أنفاق . أما أكثر المناطق التي ارتكب فيها جرائمه فهي (ماركيز دي بايا » و (ابنيدا دي باث » و (خيتافي » و (الكوركون) و (ليجانيس) و (بيراميديس) ، أي الأهرام . ومن المنطقة الأخيرة اكتسب اسم الشهرة « مغتصب

بيراميديس » . وفي يناير ١٩٩٧ ، تمكنت فتاة قاصر هربت من براثنه من إبلاغ الشرطة برقم سيارته ، مما أدى إلى سقوطه أخيرا .

وفي مصر سقط سفاحون مماثلون ، أشهرهم الشقيقتان « ريا وسكينة » ، وقد اتهمتا مع زوجيهما « حسب الله سعيد » ، و « محمد عبد العال » ، بقتل ٢٧ سيدة بعد استدراج الضحايا من فتيات الليل ؛ ليتولى الزوجان مع مساعديهما « عرابي حسان » ، و « عبد الرازق يوسف » ، عملية القتل وسرقة مصوغات المجني عليهن . لكن « ريا وسكينة » لم تعترفا إلا بقتل ١٧ ضحية فقط ، خلال المحاكمة التي انتهت بالحكم بإعدام الجناة الستة ، وهو ما تم تنفيذه في ٢١ و٢٢ من ديسمبر ١٩٢١ .

وتم تنفيذ حكم الإعدام في سفاح كرموز « سعد إسكندر عبد المسيح » في ٢٥ من فبراير ١٩٥٣ ، في حين اتهم سفاح المطرية في ١٩٨٥ بقتل ١٣ شخصا خنقا بقصد السرقة . وقتل سفاح الإسكندرية « محمود أمين سليمان » في ١٠ من أبريل ١٩٦٠ برصاص الشرطة في أثناء مداهمة الوكر ، الذي كان يختبئ فيه في القرية القبلية بحلوان . وأنهت رصاصات الشرطة أسطورة سفاح بني مزار « عيد بكر عبد الرحيم دياب » ، الذي قيل إنه كان له ضحية في كل شارع ، على حين مات سفاح روض الفرج « مصطفى خضر » في السجن قبل تنفيذ حكم الإعدام فيه لمعاقبته على قتله ثمانية أشخاص ، وكان قد سقط في أيدي الشرطة في ٢٥ من سبتمبر ١٩٩٦ ، خلال محاولته استدراج ضحيته التاسعة . وسقط سفاح الأطفال ويدعى « صلاح » في ١٠ من أغسطس ١٩٨٩ بعد أن اتهم بقتل نحو ٢٠٠ طفل . وفي ١٠ من أبريل ١٩٩٦ ، وبعد سنوات طويلة من الشهرة المقرونة بالعنف والجنون ، التف حبل المشنقة حول سفاح المهندسين « أحمد حلمي » . وهناك أكثر من « خُط » للصعيد ، من الخط الأصلي « محمد منصور » الذي بدأ جرائمه سنة ١٩١٤ ، إلى « أبو عمر » خُط الغنايم في محافظة أسيوط ، و « هدية رفاعي » أسطورة جبل المطاريد (الذي أعلن توبته في مطلع السبعينيات بعد ٢٢ سنة من المطاردة) ، و « يونس » في منتصف الخمسينيات ، والذين ارتكبوا جرائم قتل مروعة ، وأرهبوا الناس قبل أن ينالوا القصاص العادل .

« أو . جي . سمسون » لاعب كرة القدم الأمريكية خضع لمحاكمة هزت المجتمع الأمريكي من الداخل . فقد اتهم « سمسون » بقتل مطلقته « نيكول » وصديقها « روني جولدمان » في ١٢ من يونيو ١٩٩٤ . وبعد مطاردة مثيرة مع الشرطة سلم « سمسون » نفسه في ١٧ من يونيو ، لتبدأ محاكمته التي أذيعت جلساتها على الهواء مباشرة في مختلف محطات التليفزيون الأمريكية ! وقد ترافع عنه فريق من المحامين البارزين ، واعتلى منصة القضاء القاضي « لانس إيتو » المنحدر من أصول آسيوية ، لتنتهي القضية بعدم إدانة « سمسون » والإفراج عنه ، وسط انقسام أمريكي حول الحكم ، خاصة أن « سمسون » الأسود كان متهما بقتل مطلقته البيضاء « نيكول » وصديقها اليهودي « روني » . ولا أحد يعرف حتى الآن سر هذه الجريمة ، التي وصفها البعض بأنها « تشيرنوبل » العدالة الأمريكية .

الولايات المتحدة اهتزت أيضا عندما وقع حادث إطلاق النار وإلقاء قنابل يدوية على المدرسين والطلبة في مدرسة « كولومباين » الثانوية في ٢٠ من أبريل ١٩٩٩ . ارتكب المذبحة الطالبان « ديلان كليبولد » ، و « إيريك هاريس » ، وأدت إلى مقتل ١٥ شخصا على الأقل ، وإصابة عشرات آخرين في حادث إطلاق النار عشوائيا داخل هذه المدرسة الواقعة في ولاية كولورادو . الغريب أن الحادث وقع في ذكرى عيد ميلاد الزعيم النازي « أدولف هتلر » !

وفي مايو ١٩٩٩ ؛ أطلق طالب آخر يدعى « توماس سولومون » (١٥ عاما) النار على زملائه في مدرسة « هيريتاج » الثانوية في كونيرز بولاية جورجيا . وقع الحادث الجديد في اليوم الذي كان « كلينتون » يزور فيه مدرسة « كولومباين » الثانوية ، ويقول للطلبة فيها « إن ما حدث لكم ثقب روح أمريكا . . شيء عميق حدث لبلدكم بسبب هذه المذبحة . . أريدكم أن تفهموا ذلك » .

« توماس هاميلتون » استخدم أربع بنادق ، ليقتحم مدرسة ابتدائية في قرية أسكتلندية ، ويقتل ١٦ طفلا ومدرستهم ، في مذبحة دنبلين التي وقعت في مارس ١٩٩٦ .

لكن المتهوسين والمضطربين عقليا والمفتونين بارتكاب جرائم قتل عشوائي أو بشكل متعمد موجودون في أنحاء العالم ، خاصة في نصف الكرة الشمالي ، حيث ينتشر العنف المسلح في المدارس والشوارع الأمريكية ، وتحكم المافيا روسيا الجديدة ، وتسيطر عصابات الياكوزا على حياة مئات الألوف في اليابان ، وتقول البندقية ، والقنبلة ، والمسدس ، والسلاح الأبيض ، كلمتها في عصر زاخر بسفاحين بالفطرة .

ربما تنجح العدالة البشرية مرة ، لكنها تفشل مرات في تنفيذ القصاص العادل فيهم !

* * *



أنطوني بلنت



ميليتا نوروود



دونالد ماكلين

8

جواسيس وخونة

في الحرب والسلم انتشر الجواسيس ، وشارك « الطابور الخامس » في جمع المعلومات، وتنفيذ المهام وتجنيد الآخرين ، وخطف الأشخاص المستهدفين وقتلهم .

لعبة التجسس خطيرة ، وهي أشبه بالوقوف على حافة مبنى آيل للسقوط في أي لحظة . لكن إغراء المال والجنس ، وربما الرغبة في الانتقام أو الشعور بالانبهار والانسحاق أمام دولة أو جهة استخبارية ما ، تجعل من التجسس أمرا مقبولا لدى البعض .

اللافت للنظر أن اليهود برعوا في التجسس والخيانة ، سواء لمصلحة إسرائيل أو روسيا أو ألمانيا . . فالمهم من يدفع أكثر!



كيم فيلبي



ماركوس وولف

والجاسوس المزدوج ، هو أخطر المغامرين في عالم الجاسوسية ، فهو يعمل لحساب دولتين أو أكثر في وقت واحد ، مجازفا بحياته في لعبة عادةً ما تكون خاسرة . من أشهر من قاموا بدور الجاسوس المزدوج « داسكو بوبوف » ، الذي عمل لمصلحة الاستخبارات البريطانية خلال الحرب العالمية الثانية ، على حين كان الألمان يتوهمون أنه عميل لهم .

« بوبوف » المولود لأسرة غنية في يوجوسلافيا ، درس القانون في ألمانيا ، ثم مَثَّلَ مصالح عدد من البنوك اليوجوسلافية في العاصمة البرتغالية لشبونة ، قبل أن تستهويه لعبة التجسس للألمان أولا ، ثم لمصلحة البريطانيين .

« بوبوف » الذي كان يعشق النساء والسهر ، سرَّب للألمان وثائق مطبوخة بأن البريطانيين أقوياء عسكريا أكثر مما تظن ألمانيا ، مما دفع الزعيم النازي « أدولف هتلر » إلى التخلي عن عملية « أسد البحر » ، التي كان مخططا لها أن تؤدي إلى غزو الجزر البريطانية .

« بوبوف » بعد تقاعده كتب مذكرات مسلية جدا ، لكنها غير دقيقة ، وظل ينعم بحياة الترف في جنوب فرنسا حتى مات في ١٩٨١ .

اليهودي الإنجليزي « چورچ بيهار » الذي عرف باسم « چورچ بليك » ، كان دبلوماسيا عميلا للمخابرات البريطانية في ألمانيا خلال الحرب العالمية الثانية ، لكنه تجسس في الوقت نفسه لمصلحة روسيا لفترة طويلة .

« بليك » درس في المدرسة الإنجليزية بالقاهرة ، وتأثر بشخصية خاله « هنرى كوريل » الذي لم يكن - فحسب - أحد مؤسسي الحركة الشيوعية فى مصر ، وإنما اعتبر أيضا أحد جواسيس جهاز الاستخبارات السوفيتي « كي . چي . بي » . ولكن في سنة ١٩٦١ ، استدعي « بليك » الذى اشتهر بلقب « مرشح منشوريا » إلى مقر قيادة جهاز الاستخبارات البريطاني « إم . آي . ٦ » وألقي القبض عليه ، ليصدر ضده حكم بالسجن لمدة ٤٢ عاما ، بتهمة التجسس لمصلحة السوفيت ، على الرغم من أنه قدم للبريطانيين أسماء ٤٢ جاسوسا ، جرى إعدامهم جميعا .

الجاسوس « لاري روتاي - شين » الذي اشتهر بحب القمار ، عمل لحساب دائرة الارتباط الخارجي المركزية « سيلد » التابعة لجهاز الاستخبارات الصيني ، وتغلغل في الدوائر الأمنية الأمريكية منذ الأربعينيات كمترجم بارع للجهات الصينية ، حتى إنه عمل لحساب الاستخبارات الأمريكية كمترجم بارز وحصل على الجنسية الأمريكية .

الطريف أن « شين » حصل على ميدالية من جانب دولة يفشي أسرارها كمترجم (الصين) ، على حين تسلم ميدالية أخرى من دولة كان يخون أسرارها (أمريكا) ، لكنه اتهم بعد افتضاح أمره في ١٩٨٦ .

وفي ١٧ من مايو ١٩٨٥ ألقي القبض على الأمريكي « چوني ووكر » ، الضابط الفني بالغواصات النووية ، الذي تزعم عددا من أفراد عائلته في أغرب قضية تجسس على الولايات المتحدة لمصلحة الاتحاد السوفيتي سابقا . أما الذي كشف سر هذا الجاسوس فهي مطلقته وتدعى « باربارا » .

چيمس بوند

أما « سيدني رايلي » ، فقد قال عنه « إيان فلمنج » مساعد رئيس المخابرات البحرية الإنجليزية السابق ومبتدع شخصية « چيمس بوند » العميل السري البارع : « إن چيمس بوند » الذي تصورته على أنه أخطر شخصية بوليسية يمكن أن يصل إليها الخيال، هو فقط جزء من « سيدني رايلي » . . « الشخصية الحقيقية » . قيل عن الجاسوس اليهودي البريطاني « رايلي » إنه كان ذلك الجاسوس الذي يمتلك ١١ جواز سفر و١١ زوجة ، إذ كان يصطحب في كل مرة يسافر فيها لتنفيذ عملية جديدة جواز سفر مختلفا ، مع زوجة مختلفة إمعانا في التنكر !

ولد « رايلي » في ١٨٧٤ في مدينة كونيمارا بأيرلندا ، وعمل في ميناء آرثر بالشرق الأقصى كعامل بشركة أخشاب ، ثم التحق بشركة أخشاب روسية ، وتولى خلال تلك الفترة تزويد الجيش الروسي بالذخيرة .

وفي السنوات الأخيرة من الحرب العالمية الأولى ، انضم بحيله الماكرة إلى صفوف البحرية الإنجليزية ، وتمكن من مد الإنجليز بأدق أسرار الجيش الألماني . وفي ١٩١٨ ،

كلفته المخابرات الإنجليزية بالتآمر لتغيير نظام الحكم في روسيا ، فنجح في إسقاط حكومة « بولشيفسكي » المعادية للإنجليز في موسكو .

وكما ظهر « رايلي » فجأة على مسرح الجاسوسية ، أعلنت الصحف في ١٩٢٥ عن مقتله على يد المخابرات الروسية . لكن التقارير الرسمية أكدت - فيما بعد - أن «رايلي» كان لا يزال حيا حتى ١٩٤٥ ، وهي السنة التى مات فيها بالفعل !

ويعد الصحفي الألماني « ريتشارد سورج » أحد أبرز جواسيس القرن العشرين ، فقد عمل لفترة في اليابان ، ولفت نظر القادة الألمان بمقالاته الصحفية ووثقوا به ، لكنهم لم يدركوا حقيقة « سورج » ، الذي كان يتجسس لحساب الروس ، وكان رئيسا لشبكة سرية في طوكيو مكونة من خمسة أعضاء من الشيوعيين .

ومنذ سنة ١٩٣٥ وحتى إلقاء القبض عليه في أكتوبر ١٩٤١ ، استمر « سورج » وأعضاء شبكته في نقل الأسرار الحربية إلى موسكو عن طريق مندوبين له ، ومدى إمكان كل من اليابان وألمانيا الاستمرار في الحرب من خلال وصف لأعداد وأنواع القطع الحربية التي يمتلكها كلا البلدين . وفي أكتوبر ١٩٤١ ، ألقت السلطات اليابانية القبض على « سورج » وأعضاء شبكته ، ونفذ فيه الحكم بالإعدام .

وتقديرا للخدمات الجليلة التي قدمها « سورج » للمخابرات السوفيتية في أثناء الحرب ، أصدر الاتحاد السوفيتي في ١٩٦٥ طابعا تذكاريا له ؛ تخليدا لذكراه ؛ وعرفانا بدوره في مساندته في أثناء الحرب .

أما الألماني الذي أسس منظمة خاصة للجاسوسية فهو « رينهارت جهلن » ، الذي اعتقله الأمريكيون بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية تمهيدا لمحاكمته بتهمة انضمامه إلى مخابرات « أدولف هتلر » ، لكن « جهلن » اتفق مع الأمريكيين على إطلاق سراحه ، مقابل مدهم بالوثائق السرية التي جمعها في أثناء فترة عمله بالجاسوسية والانضمام إلى العمل لحسابهم .

وفي ١٩٤٦ عاد « جهلن » إلى ألمانيا ، وبدأ نشاطه التجسسي ينمو بسرعة ، حتى تمكن خلال عشر سنوات من إنشاء منظمة خاصة للتجسس بمساعدة جهاز الاستخبارات الأمريكي « سي . آي . إيه » . ومن أشهر العمليات التي تعاون فيها

جهاز « سي . آي . إيه » مع منظمة جهلن عملية شبكة التليفونات في ١٩٥٥ للتجسس على خطوط التليفونات الرئيسة في ألمانيا الشرقية سابقا . ولكن في ٢٢ من أبريل ١٩٥٦ ، استطاع الروس اكتشاف الشبكة الموجودة تحت الأرض بطريق المصادفة ، فانتهت مهمة الشبكة وسط نفي أمريكي لدورهم في هذه العملية .

عين الفجر

ومن أشهر جاسوسات القرن العشرين « ماتا هاري » (١٨٧٦-١٩١٧) ، وهو اسم إندونيسي يعني « عين الفجر » ، إذ ولدت « مارجريت زيل » التي اشتهرت بلقب « ماتا هاري » في هولندا من أم إندونيسية وأب هولندي ، وبعد زيجة فاشلة بضابط في الجيش الهولندى ، رحلت « ماتا هاري » إلى باريس وهي في الثامنة والعشرين من عمرها ، لتعرف طريق الشهرة كراقصة إثارة ، وكعشيقة مرتفعة الأجر في أوساط الطبقات العليا في أوروبا .

تعددت سفريات « ماتا هاري » إلى روما وبرلين وأمستردام وفيينا ولندن ، وتنافس على حبها ورضاها رئيس وزراء هولندا ، وولي عهد ألمانيا . وعقب عودتها إلى باريس ، شك البوليس الفرنسي في أمرها ، وتبين أنها تنقل أسرارًا ومعلومات إلى ألمانيا داخل الحقيبة الدبلوماسية ، فتم اعتقال « ماتا هاري » والتحقيق معها في ١٩١٦ ، فنفت أي علاقة لها بألمانيا ، وأكدت استعدادها للعمل في خدمة فرنسا .

تظاهر الفرنسيون بالموافقة على اقتراحها وطلبوا منها معلومات سرية عن الألمان ، فسافرت في مهمة خاصة إلى بلچيكا للاتصال ببعض العملاء السريين لفرنسا . ولكن الألمان أحسوا بتشديد الرقابة على « ماتا هاري » وانكشاف أمرها ، فأرادوا التخلص منها ، وتعمدوا مراسلتها بعد عودتها إلى باريس برسائل سرية مفهومة للفرنسيين حتى يفضحوا أمرها .

هذه المرة ، لم تنجح « ماتا هاري » في التنصل من التهمة ، فتمت محاكمتها ، وصدر الحكم بإعدامها رميا بالرصاص ، الذي نفذ في سان لازار الفرنسية في ١٥ من أكتوبر ١٩١٧ . الغريب أن ابنتها أيضا « باندا ماكلويد » احترفت التجسس لمصلحة اليابان ، فالمقاومة الإندونيسية ، ثم الولايات المتحدة ، إلى أن اكتشف أمرها الكوريون الشماليون ، فأعدمت بالرصاص - تماما مثل أمها - في ٢٤ من مايو ١٩٥١ .

وأسهمت الراقصة الحسناء « كريستين كيلر » في استقالة وزير الدفاع البريطاني «چون بروفيومو » في ١٩٦١ ، بعد أن سقط صريع هواها ، وتعددت لقاءاته الخاصة معها ، دون أن يدري أنها عشيقة « يوچين إيفانوف » الملحق العسكري السوفيتي ، الذي كان في الوقت نفسه رئيسا لقسم المخابرات السوفيتية في السفارة الروسية بالعاصمة البريطانية لندن . وقد تمكن « إيفانوف » عن طريق « كريستين كيلر » من الحصول على معلومات سرية خطيرة تهم موسكو .

وبعد أن كشفت الصحف البريطانية عن أبعاد الفضيحة ؛ استقال الوزير «بروفيومو» من منصبه ، وتعرضت الحكومة كلها للانتقاد من مجلس العموم البريطاني . أما القَوّاد « ستيفن وارد » الذي أسهم في التعارف بين « كريستين » وكل من « إيفانوف » و « بروفيوم »و فقد انتحر مباشرة بعد تلك « الفضيحة » ، على حين اكتسبت « كريستين » شهرة كبيرة بفضل ذلك الحادث!

الجاسوسة الساحرة هو لقب الأمريكية « آمي ثورب باك » ، التي عانت الملل بعد زواجها بالدبلوماسي البريطاني « آرثر باك » ، فتطوعت لخدمة الاستخبارات البريطانية بحثا عن الإثارة المنشودة .

نجحت « آمي ثورب » بفضل جمالها الأخاذ في إغواء الكثير من الدبلوماسيين في بولندا وتشيكوسلوفاكيا ، والحصول على معلومات مهمة قدمتها لبريطانيا . وبعد انفصالها عن زوجها ، واصلت التغلغل في عالم الدبلوماسيين الألمان والإيطاليين في واشنطن لمصلحة بريطانيا ، بل إنها تولت مهمة الكشف والاطلاع على رموز الشفرات الإيطالية ، ثم الفرنسية أيام حكومة « فيشي » لحساب بريطانيا ، ثم الولايات المتحدة . وعنها قال « وليام ستيفنسون » رئيس محطة الاستخبارات البريطانية في أمريكا : « إن جهود « آمي ثورب » أنقذت حياة نحو ١٠٠ ألف رجل من الحلفاء » !

وتعد الألمانية « إليزابيث شراجموللر » من أشهر الجواسيس ، إذ قامت « الدكتورة الحسناء » - نظرا لحصولها على الدكتوراه في علوم الاقتصاد - بتدريب الجواسيس والعملاء لحساب ألمانيا خلال الحرب العالمية الأولى . الشقراء الجميلة « شراجموللر » لم تتزوج قط ، وعملت بعد الحرب كمحاضرة في علوم الاقتصاد بجامعة ميونيخ !

ومن أشهر الجواسيس الذين عملوا في الظلام ، اليهودي النمساوي « فريتز كودزر » ، الذي عمل لمصلحة السوفيت على إفشال العمليات العسكرية الألمانية خلال الحرب العالمية الثانية ، والروسي « أفانسي شورخوف » الذي كان يهوى تشجيع كرة القدم الأسترالية ، وسقط في شباك منظمة الاستخبارات السرية الأسترالية « اسيو » في منتصف الخمسينيات ، فأفشى لها أسرارًا عن نشاط جهاز الاستخبارات السوفيتي « كي . جي . بي » الذي كان يعمل أساسا لمصلحته . وبعد انتهاء كل إجراءات إفشاء الأسرار ، اكتفى « شورخوف » - الذي كان يحمل اسما مستعارا هو« فلاديمير بيتروف» - بالعيش وفق هوية جديدة كمواطن أسترالي هاجر إليها من اسكندنافيا .

الجاسوس « ليبا دومب » (١٩٠٦-١٩٨٣) كان يردد دائما « أنا شيوعي لأنني يهودي » ، وكان ذلك تفسيرا من جانب يهود أوروبا الشرقية الذين اعتبروا الماركسية صنيعتهم ، ومصدر خلاصهم الوحيد في أوروبا . تجسس « دومب » لمصلحة السوفيت تحت ستار منظمة « الأوركسترا الحمراء » ، ثم اعتقل وسجن بتهمة إفشاء أسرار أمنية إلى الألمان ، وبعد الإفراج عنه هاجر إلى موطنه الأصلي بولندا ، حيث تزعم الجالية اليهودية ، قبل أن يغادر إلى إسرائيل في ١٩٧٤ .

ويطلق على « ويلهلم واسموس » لقب « لورانس الألماني » نسبة إلى « لورانس العرب » أشهر الجواسيس البريطانيين الذين عاشوا في المنطقة العربية . وقد طارد البريطانيون « واسموس » الألماني بعد أن حَوَّلَ إيران وأفغانستان إلى عش دبابير ضد المصالح البريطانية ، وفي ١٩١٨ هرب إلى تركيا ، حيث اعتقله البريطانيون لينهوا أسطورته المدهشة كشوكة في جنب بريطانيا لسنوات عدة .

واعتبر الطيار الحربي البريطاني « إف . دبليو . وينتر بوثام » «جاسوس الأجواء»؛ بسبب نجاحه في التقاط صورة فوتوغرافية جوية لمواقع ألمانية ، كحيلة مبتكرة خلال الحرب العالمية الثانية ، ليصبح رائد التجسس الجوي من ارتفاعات عالية . واشتهر الأمريكي « هربرت ياردليني » (١٨٩٠-١٩٥٨) بأنه رائد فك الشفرات السرية دوليا ، وفقا لنموذج « الغرفة المظلمة » الخاص بكتابة رموز الشفرة في العالم .

أسرار القنبلة

أسهم الألماني « كلاوس فوتشي » في سرقة أسرار القنبلة الذرية من بريطانيا وتسريبها للسوفيت خلال عقد الأربعينيات ، وبعد اعتقاله وسجنه خرج إلى الحياة ، وهاجر إلى ألمانيا الشرقية سابقا ، ليعمل في معهد الفيزياء النووية . العلماء النوويون السوفيت اعترفوا في ١٩٩٣ بأنهم صنعوا أول قنبلة ذرية للاتحاد السوفيتي ، اعتمادا على المعلومات التي قدمها لهم الجاسوس الثمين « فوتشي » .

ولا ينسى الكثيرون اليهودي « ماركوس وولف » رئيس جهاز الاستخبارات الألماني الشرقي « إتش . ڤي . إيه . » الذي حوكم وأدين في ١٩٩٣ بتهمة التجسس ، إلى أن أصدرت المحكمة الدستورية الألمانية في ٢٣ من مايو ١٩٩٥ حكما يقضى بعدم جواز محاكمته على أعمال تجسس ، خلال الحرب الباردة ضد الغرب ليطلق سراحه .

البريطاني « كلود دانسي » أطلق عليه لقب « ملك الزد » لأنه أنشأ شبكة ظل للاستخبارات البريطانية « إم . آي . ٦ » في أوروبا لا تعتمد على الكتابة أو التصوير ، وإنما فقط الذاكرة القوية . وقد نجحت شبكة « زد » في إنقاذ الاستخبارات البريطانية كثيرا ، ولكن تمت إقالته في ١٩٤٤ بعد أن تآمر عليه زملاؤه في جهاز الاستخبارات البريطاني !

« فيليكس دزرشنسكي » كان بطل حملة الرعب الأحمر في عهد الزعيم السوفيتي « فلاديمير لينين » ، وقد أسهم مع «چان بيرزين» - واسمه الحقيقى « بيزكيوزيس بيتر »- في صنع جهاز استخبارات سوفيتي قوي ، لكن الأول تحول تمثاله إلى خردة في أواخر ١٩٩١ ، على حين اغتيل الثاني في حرب تصفيات داخلية بين جهازي « جي . آر . يو » و « كي . جي . بي » للاستخبارات في موسكو !

أما الياباني « كينجي دويها » (١٨٨١ - ١٩٤٨) ، فقد أطلق عليه زملاؤه لقب « البطة القبيحة » ، للسخرية من قصر قامته وامتلاء جسمه ، لكنه كان أشهر جواسيس اليابان ، حتى اعتقله الأمريكيون ، ونفذ فيه حكم الإعدام في نوفمبر ١٩٤٨ .

يهودي آخر هو « لافتري بافلوفيتش بيريا » ، كان مسئولا عن العمليات الخارجية في جهاز « كي . جي . بي » ورجل الدكتاتور السوفيتي « چوزيف ستالين » .

« بيريا » سقط بعد موت « ستالين » وحوكم على جرائمه المفزعة ، ودين بالخيانة في ٢٣ من ديسمبر ١٩٥٣ ثم أطلق عليه النار وأحرقت جثته !

بعض هؤلاء الجواسيس ورجال المخابرات ارتقى في المناصب العليا في الدولة ، ومن هؤلاء « يفجيني بريماكوف » رئيس جهاز « كي . جي . بي » الذي ترأس الحكومة الروسية لفترة قصيرة في ١٩٩٩ ، و « فلاديمير بوتين » الذي أصبح رئيسا لروسيا بالإنابة بعد استقالة « بوريس يلتسين » من منصبه في آخر أيام ١٩٩٩ ، قبل أن ينتخب رئيسا في مارس ٢٠٠٠ .

مجموعة الخمسة

ولعل أشهر شبكة تجسس سوفيتية في الغرب هي « مجموعة الخمسة » ، التي ضمت خمسة جواسيس للبريطانيين شغلوا مواقع بارزة ومؤثرة ، ودرسوا في أرقى جامعات بريطانيا . من أبرز هؤلاء الخمسة « هارولد أدريان رسل فيلبي » ، الذي عرف باسم « كيم فيلبي » ، الذي اندس في صفوف جهاز الاستخبارات البريطاني ، على حين كان يسرب أسراره لمصلحة موسكو لمدة تقترب من ٣٠ عاما . وكان « فيلبي » - الذي درس في جامعة كامبريدج - على وشك أن يصبح رئيسا لجهاز الاستخبارات البريطاني ، على الرغم من الشكوك التي كانت تحوم حوله ، لكن « فيلبي » هرب بعد افتضاح أمره إلى موسكو في ٢٣ من يناير ١٩٦٣ . أحد أفراد « مجموعة الخمسة » هو « أنطوني بلنت » الذي درس أيضا في كامبريدج ، وأصبح مؤرخا للأدب الانجليزي ، وحصل على لقب « سير » ، وعين مستشاراً لشئون صور الملكة « إليزابيث الثانية » ، لكنه كان في حقيقة الأمر جاسوسا لجهاز « كي . جي . بي » السوفيتي ، على الرغم من أنه عمل في الأربعينيات ضمن جهاز الاستخبارات البريطاني « إم . آي . ٦ » . «بلنت » جَنَّدَ أيضا « جاي بيرجيس » و « دونالد ماكلين » ، وكان يهدد المجندين الجدد بإفشاء أسرار شذوذهم أيام كانت تهمة الشذوذ كبرى في بريطانيا .

وبعد كشف أمره ؛ حصل « بلنت » على الحصانة ، ليدلي بالأسرار التي يعرفها في ١٩٦٤ ، ولكنه جرد بذلك من وسام الفارس ، ومات مذمومًا في مارس ١٩٨٣ ، وظل يدافع حتى نهاية حياته عن مبادئه الشيوعية التي دفعته إلى خدمة موسكو . أما

الجاسوس الخامس في هذه الشبكة ، فقد رجح البعض أن يكون العميل « چون كيرنكروس » ، أو اليساري الإنجليزى « ليوناردو لونج » ، أو« أليستر واطسون » أستاذ علم الطبيعة الذي عمل بمنظمة أبحاث البحرية البريطانية !

وفي شهر سبتمبر ١٩٩٩ ، تكشفت أسرار الجاسوسة الإنجليزية « ميليتا نوروود » (٨٧ سنة) التي عملت طوال ٤٠ سنة جاسوسة لحساب الاستخبارات السوفيتية قبل افتضاح أمرها . نوروود التي كانت تعرف بالاسم الحركي « هولا » أكدت أنها غير نادمة على نشاطها التجسسي لحساب موسكو ، وهي ابنة لاجئ من لاتفيا تزوج بريطانية . نقلت « هولا » معلومات خطيرة إلى موسكو ، أفضت لاحقا إلى سرقة برامج التسليح النووي البريطاني في أثناء عملها سكرتيرة في المكتب البريطانى للأبحاث المتعلقة بالمعادن غير الحديدية . الطريف أن سن « نوروود » منحتها حصانة من ملاحقتها قضائيا ، بعد أن كشف المنشق الروسي « فاسيلي ميتروخين » (٧٧ سنة) عن أدق أسرار « كي . جي . بي » للغرب !

بل إن صحيفة « صنداي ميرور » البريطانية ذهبت إلى أبعد من ذلك ، حين قالت إن جهاز « كي . جي . بي . » زرع خلال الحرب الباردة عميلين داخل قصر بكنجهام ، حيث وضعا أجهزة تنصت على الملكة « إليزابيث الثانية » . أما صحيفة « لوموند » الفرنسية فقالت أخيرا إن المخابرات السوفيتية السابقة نجحت في خداع زعماء غربيين كبار ، من بينهم الرئيس الفرنسي السابق « فاليري جيسكار ديستان » ، وذلك عن طريق دس معلومات صحيحة عليهم إبان فترة الحرب الباردة .

وفي المقابل . . فإن المخابرات الأمريكية لم تَأْلُ جهدا لدس الجواسيس والعلماء في دول وأنظمة تعتبرها معادية ، مثل الاتحاد السوفيتي سابقا ، وكوبا التي يتزعمها « فيدل كاسترو » عدو واشنطن اللدود .

ومن الجواسيس البارزين اليهوديان « وولفجانج لوتز » ، و « إلياهو كوهين » . الأول استغل جنسيته الألمانية في الاستقرار بمصر سنة ١٩٥٩ ، وفتح مزرعة لتربية الخيول وإسطبلا للفروسية خارج القاهرة ، ثم شرع في جمع المعلومات الأمنية بالاستعانة بزوجته الألمانية الشقراء المنتدبة للمهمة ، كما تغلغل في صفوف علماء الصواريخ الألمان ، لتبدأ بعد ذلك حملة الرسائل الملغومة والتهديدات الشخصية

لإجبار هؤلاء العلماء على مغادرة مصر . لكن جهاز مكافحة التجسس المصري كشف « لوتز » وحكم عليه بالسجن مدى الحياة مع زوجته الجاسوسة .

وفي ٢٨ من نوفمبر ٢٠٠٠ كشفت المخابرات المصرية العامة النقاب عن قضية تخابر جديدة - في إطار حرب الجواسيس ، التي دأبت إسرائيل على شنها ضد مصر وعدد من الدول العربية الأخرى - تورط فيها كل من المهندس المصري « شريف فوزي محمد أحمد الفيلالي » (٣٤ سنة) ، وضابط في الجيش الروسي يدعى « جريجوري شفنيتس » ، حيث اتهما بالعمل لحساب جهاز المخابرات الإسرائيلية "الموساد" بقصد الإضرار بالمصالح القومية لمصر ، وإمداد دولة أجنبية بمعلومات وتقارير عن الأوضاع الاقتصادية والسياسية والعسكرية بما يضر بمصلحة مصر . وقد أحيل « الفيلالي » إلى محكمة أمن الدولة العليا في دائرة محكمة استئناف القاهرة لتجرى وقائع محاكمته - التي انتهت في يونيو ٢٠٠١ - إلى الامتناع عن النطق بالحكم ضده ؛ لأنه أبلغ السلطات المصرية عن نشاطه قبل اعتقاله ، على حين ظل المتهم الثاني - الذي حكم عليه غيابيا بالسجن المؤبد - هاربا . غير أن نيابة أمن الدولة عارضت الحكم ، وتمت الموافقة على إعادة محاكمة المتهمين في وقت لاحق .

الجاسوس الإسرائيلي المولود بالإسكندرية « إلياهو كوهين » استقر في سوريا فى يناير ١٩٦٢ ، وتقمص شخصية رجل سوري ثري ومستهتر يدعى « كمال أمين ثابت » ، قبل أن يحاول التغلغل في صفوف العسكريين والمسئولين السوريين .

سرب « كوهين » معلومات خطيرة للموساد عن سلاح الجو السوري ، استفادت منها إسرائيل لاحقا خلال حرب يونيو ١٩٦٧ ، بل إنه لفرط شعبيته كان مرشحا لمنصب نائب وزير الدفاع . لكن العقيد « أحمد سويدان » رئيس جهاز المخابرات السوري - الذي نبهته المخابرات المصرية للشكوك ، التي تحوم حول شخصية « كوهين » ونشاطه - تمكن من كشف سر هذا الجاسوس الإسرائيلي ، الذي اعتقل في ١٨ من يناير ، وحوكم ونفذ فيه حكم الإعدام شنقا في ساحة عامة بالعاصمة السورية دمشق في ١٨ مايو ١٩٦٥ ، ليلقى جزاءه العادل .

وفي تونس ، افتضح أمر الجاسوس الفلسطيني « عدنان ياسين » الذي كان كبير مساعدي القيادي الفلسطيني « حكم بلعاوي » في أكتوبر/ نوفمبر ١٩٩٣ ، ليتبين دور

الجاسوس المذكور في تمكين الموساد الإسرائيلي من اختراق الصف الفلسطيني من الداخل ، وزرع أجهزة تنصت داخل مكاتب قياداتها .

الجاسوس اليهودي الأمريكي « چوناثان بولارد » سرب أسرارًا أمريكية خطيرة لإسرائيل . وحين حوكم وأدين ثارت إسرائيل ، وأصبح الإفراج عن « بولارد » مطلبا أساسيا لكل رئيس وزراء أو مسئول إسرائيلى يزور الولايات المتحدة ، خاصة بعد أن تقرر الاعتراف بأهمية هذا الجاسوس ، ومنحه الجنسية الإسرائيلية تقديرا لخدماته ضد حليفة إسرائيل الأولى!

على أن للجاسوسية وجها آخر ، تتحول فيه الدولة نفسها إلى جهاز تجسس من الطراز الأول ، يستعين عادة بأحدث وسائل التكنولوجيا لتحقيق الأهداف المرسومة .

ففي أواخر ١٩٩٠ نشرت أجهزة الإعلام العالمية صورة للرئيس العراقي « صدام حسين » وهو يحلق ذقنه ، وقيل وقتها إن هذه الصورة التقطها أحد الأقمار الصناعية الأمريكية للرئيس العراقي داخل ملجأ آمن يحميه من غارات قوات التحالف الدولي . وقيل أيضا إن الأقمار الصناعية يمكنها إظهار نوع الملابس الداخلية للرئيس العراقي ومقاساتها . البعض صدق والبعض الآخر اعتبرها مبالغة .

لكن بحلول ١٩٩٩ اعترفت الولايات المتحدة بوجود برنامج سري للتجسس يدعى « ايكيلون » ، يهدف اعتراض جميع الاتصالات الدولية في أنحاء الكرة الأرضية، سواء تمت عبر الهاتف أو البريد الإلكتروني ، عن طريق الأقمار الصناعية أو الكابلات الضخمة الموجودة في أعماق المحيطات .

عبر هذا النظام ظهرت صورة « صدام » السابقة ، وسجلت واشنطن مكالمات أميرة ويلز الراحلة « ديانا سبنسر » ، وجمعتها في ملف يتكون من ١٠٥٦ صفحة ، وأبلغت أمير الكويت الشيخ « جابر الأحمد الصباح » بساعة الغزو العراقي فجر ٢ من أغسطس ١٩٩٠ ، ومن خلال هذه الشبكة تساقط أعوان المتهم بتمويل الإرهاب الدولي « أسامة بن لادن » في باكستان و إفريقيا و كندا وغيرها من البلدان ، وكذلك مراقبة شركات « بن لادن » ، وحجم أرصدته في البنوك العالمية ، والتدخل أحيانا فيه .

وتراقب وكالة الأمن القومي الأمريكية التحويلات المالية ، التي يجريها « بن لادن » عبر الهاتف المحمول الخاص به والمتصل عبر القمر الصناعي . وبهذا النظام تنصتت الولايات المتحدة على مكالمات الرئيس الباكستاني الراحل الجنرال « ضياء الحق » ، قبل اغتياله في الجو لمنعه من المضي قدما في مشروعاته النووية . وبه أيضا تم تحديد مكان إقامة الزعيم الليبي العقيد «معمر القذافي» ، حيث أغارت الطائرات الأمريكية على مقر إقامته في ١٥ من أبريل ١٩٨٦ ، لكنه نجا من الموت ، على حين قتل نحو ١٠٠ في هذا العدوان الجوي . وبمعلومات هذا النظام - التي أهدتها الولايات المتحدة لإسرائيل - تم اغتيال القيادي الكبير في منظمة التحرير الفلسطينية « خليل الوزير » (أبو جهاد) في منزله في العاصمة التونسية ، والقائمة تطول في هذا الصدد .

والتجسس على العالم ليس هواية أمريكية فقط ، وإنما أصبح عملية عالمية معقدة . وإذا كانت الولايات المتحدة صاحبة السبق في هذا المجال ، فهي الأكثر خسارة فيه ، حيث تقدر حجم الخسائر الأمريكية بنحو ٢٠٠ مليار دولار سنويا ، بسبب تجسس الحلفاء وخصوم الماضي على أسرارها الاقتصادية والصناعية والعسكرية أيضا . وتعتبر الصين وفرنسا وروسيا وإيران واليابان وكوبا وألمانيا من أكثر البلدان تجسسا على الأسرار الصناعية الأمريكية .

ومثلما تتجسس ينجح الآخرون في اختراق أدق أسرارك !

* * *



بيل جيتس

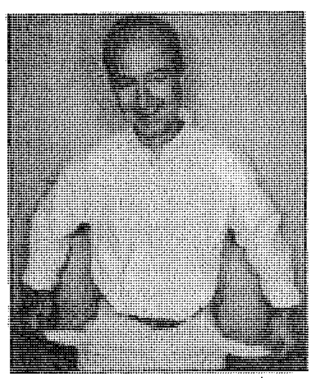
9

« أعتقد أن السوق العالمية لن تستوعب أكثر من خمسة أجهزة كمبيوتر » .

هذه الكلمات التي قالها في ١٩٤٣ «توماس واطسون» رئيس مجلس إدارة شركة « آي . بي . إم » آنذاك تستحق أن يذكرها التاريخ كواحدة من أبرز التوقعات الخاطئة على مر العصور .

لكن في ١٩٤٣ لم يكن سهلا أن يتوقع أحد أن تتحول هذه الأجهزة البدائية للحاسب الآلي إلى معدات وأجهزة كمبيوتر متطورة ، تكاد تنتشر الآن في كل منزل في أنحاء العالم ، ليصبح لها اقتصاد خاص بها ، وسوق ضخمة للمعلومات .

الكمبيوتر .. جنرال العالم الجديد



جيف بيزوس

بدأ تطور الكمبيوتر في خطوات بطيئة في مطلع القرن العشرين ؛ اعتمادا على الجهود التي قام بها المخترع البريطاني « تشارلز بابيج » (١٧٩٢-١٨٧١) في القرن التاسع عشر ، مع إضافة الدوائر الكهربائية وتوظيفها لتطوير الفكرة ، وكان « بابيج » مدرس الرياضيات بجامعة كامبريدچ قد تصور إمكان وجود آلة ميكانيكية ، يمكنها إنجاز سلسلة من العمليات الحسابية المترابطة .

غير أن الاختراع الذي يستحق مسمى « كمبيوتر » كان من صنع بريطاني آخر يدعى « ألن تورينج » (١٩١٢-١٩٥٤) ، وهو عالم متميز من خريجي جامعة كامبريدچ ، وحمل اسم كولوسوس . تم استخدام هذا الجهاز خلال الحرب العالمية الثانية لحل الشفرات السرية الألمانية . والطريف أن وجود « كولوسوس » ودوره البارز في إلحاق الهزيمة بالنازية ظلا طي الكتمان حتى سنة ١٩٧٠ ، بل إن تفاصيل دور الكمبيوتر آنذاك لم يكشف عنها النقاب بعد .

وسرعان ما قدمت الولايات المتحدة أول إسهام في هذا المجال : « مارك ـ ١ » ، الذي شاركت في تصميمه كل من جامعة هارفارد وشركة « آي . بي . إم » ، وقد استخدم من قِبَل البحرية الأمريكية لبرمجة بعض الأسلحة ، وأثمر « مارك ـ ١ » أول برنامج كمبيوتر حقيقي بفضل إسهامات أول مبرمج كمبيوتر وهو « جريس موراي هوبر » (١٩٠٦-١٩٩٢) .

نشطت المؤسسات الأكاديمية في إخراج فكرة الكمبيوتر إلى الوجود ، وشجعت الشركات المختلفة على خوض تجارب في هذا المجال ، مما أسفر عن ظهور أول كمبيوتر حقيقي ، وهو عملاق تبلغ زنته ٨٠ طنا ويضم ١٨ ألف صمام مفرغ وكان يدعى « اينياك » . رأت مجلة الأجهزة الشعبية « بوبيولر ميكانيكس » في جهاز «اينياك» صورة للمستقبل ، وأعربت عن أملها في أن يصغر حجم الكمبيوتر ، وتوقعت المجلة في سنة ١٩٤٩ أن تكون أجهزة كمبيوتر المستقبل ذات ألف صمام مفرغ فقط ، وربما يصل وزنها إلى ١,٥ طن فقط .

وبعد سنتين من هذا الحدث ، خطف الأضواء جهاز كمبيوتر جديد ، يحمل اسم « يونيفاك » حين تم عرضه على شاشة التليفزيون الأمريكي خلال الانتخابات الرئاسية آنذاك ، ونجح بدقة في توقع فوز ساحق لـ « دوايت أيزنهاور » بعد إحصاء خمسة في المائة فقط من الأصوات . ولفترة قصيرة تالية ، ارتبط اسم «يونيفاك» بكلمة كمبيوتر ، وأصبح استخدام الكمبيوتر في تحديد النتائج المتوقعة في الانتخابات صيحة منتشرة .

وفي مارس ١٩٥٥ ، ظهر أول أجهزة كمبيوتر مكتبية لتغطي على جهاز «يونيفاك» ، الذي أنتجته « ريمنجتون راندا » وقدمته لمكتب الإحصاء الأمريكي في ١٩٥١ .

وقدمت « آي . بي . إم » جهازها « ٧٠٢ » كنموذج للكمبيوتر المكتبي لشركة «مونسانتو» الكيميائية العملاقة في ١٩٥٥ . وهكذا بدأت تباشير عصر المعلومات واستخدام الكمبيوتر في النشاط التجارى والصناعى تلوح فى الأفق .

وبحلول الستينيات ، بدأت أجهزة الكمبيوتر تنتشر في المكاتب الأمريكية ، ولكن « آي . بي . إم » أخفقت في إنجاز ما وعدت به من نشر الكمبيوتر الشخصي . وأسهم في انتشار الكمبيوتر توصل العالم الياباني « يشيروا ناكامتس » في ١٥ من أكتوبر ١٩٧٠ إلى « الفلوبي دسك » ، الذي جعل من السهل تخزين واسترجاع الملفات عبر جهاز الكمبيوتر . وسرعان ما تبنت « آي . بي . إم » إنتاج « الفلوبي دسك » ، وحين أطلقت « آبل » جهازها الرائع « آبل ـ٢ » في ١٩٧٧ ، تراجعت أهمية « آي . بي . إم » . وبطبيعة الحال فإن مشغل سنة ١٩٧٧ يبدو أشبه بلعبة الآن ، والواقع أن عديداً من اللعب الرخيصة الثمن تحتوي بالفعل الآن على رقائق كمبيوتر ، أقوى كثيرا من رقائق السبعينيات التي بدأت بها ثورة الكمبيوتر .

الكمبيوتر الشخصي

وظلت شركات الكمبيوتر التي انتشرت خلال عقد السبعينيات لا ترى في هذا المجال سوقا ضخمة ، إلى أن بدأ شاب يدعى « بيل جيتس » (١٩٥٥-) ، مع صديقه

«بول ألن» ، في تأسيس شركة « مايكروسوفت » التي بدأت عملها في ١٩٧٥ من مدينة ألبوكيرك بولاية نيومكسيكو ، لأنها أرادت أن تكون قريبة من مقر شركة « إم . آي . تي . إس » ، وهي الشركة الصغيرة التي كان نموذجها المجمع للكمبيوتر الشخصي ، هو أول جهاز شخصي غير مكلف يباع للجمهور .

وبحلول ١٩٧٧ ، كانت « آبل » و« كومودور » و« راديو شاك » قد دخلت المجال أيضا . وسرعان ما باعت « مايكروسوفت » نظام التشغيل الخاص بها ms - DOS إلى « آي . بي . إم » لتسيطر على صناعة الكمبيوتر في العالم . وأقبل المستهلكون على شراء كمبيوتر « آي . بي . إم » الشخصي بثقة تامة ، وبدأ مطورو البرمجيات في ١٩٨٢ في تعديل التطبيقات الخاصة بالكمبيوتر لتتوافق معه ، لكن بقي الجهازان اللذان طرحتهما شركة آبل كمنافسين ، وهما « آبل ـ ٢ » و« ماكنتوش » .

وهكذا ظهر خطأ اعتقاد « كين أولسن » رئيس ومؤسس شركة « ديچيتال إيكويبمنت كورب » ، حين قال في ١٩٧٧ إنه ليس هناك سبب يدعو أحدا إلى اقتناء كمبيوتر في المنزل ، فقد انفجرت سوق الكمبيوتر لتنتشر أجهزة الكمبيوتر في عديد من المنازل ، ولتتحول إلى شيء حيوي في عديد منها ، كما تحول الكمبيوتر إلى ضرورة للآلات الأوتوماتيكية وأجهزة المسح الضوئي « سكانر » وأجهزة تليفون «الموبيل » والتليفزيون . . إلخ .

وحتى ندرك مدى أهمية أجهزة الكمبيوتر في الاقتصاد العالمي ؛ فإنه يكفي أن نشير إلى أن أضخم شركة في العالم الآن من حيث القيمة السوقية هي «مايكروسوفت» ، حتى إن وزارة العدل الأمريكية أصدرت بالاشتراك مع ١٧ ولاية مجموعة من التوصيات ، تقضي بضرورة تفكيك « مايكروسوفت » العملاقة إلى شركتين منفصلتين : الأولى تختص بنظم التشغيل المعروفة باسم النوافذ « ويندوز » ، والثانية تختص بالبرامج الجاهزة التي تبتكرها الشركة ، والتي من أبرزها برنامج « إكسبلورر » المصمم لتصفح شبكة الإنترنت ، لمعاقبة الشركة على انتهاكها قوانين الاحتكار المعمول بها في الولايات المتحدة ، وتعمدها إلحاق الضرر بالشركات المنافسة العاملة في هذا المجال .

وبعد معركة وصلت إلى القضاء ، وشهدت جدلا واسعا خلال سنتي ١٩٩٩-٢٠٠٠ ، اضطر « جيتس » إلى قبول قرار تفكيك « مايكروسوفت » ، وإن ظل متربعا على قائمة أغنى أثرياء العالم في ١٩٩٩ - التي أعلنت في منتصف ٢٠٠٠ - للسنة السادسة على التوالي ، بفضل تكتيكاته التجارية الناجحة وطرح برنامج « ويندوز ٢٠٠٠ » ، الذي تطورت فيه نظم حماية أجهزة الكمبيوتر ؛ بحيث لا تعمل إلا مع أنظمة « مايكروسوفت » ، وليس مع البرامج التشغيلية الأخرى مثل برنامج « لينوكس » .

لقد أصبحت تكنولوچيا المعلومات واحدة من أكبر عناصر الإنفاق بالنسبة للشركات في دول العالم الصناعية . وفي ١٩٨٤ ، سجلت « آي . بي . إم » الرقم القياسي لأكثر أرباح حققتها أي شركة خلال سنة ، وهو ٦,٦ مليار دولار .

ويمكن أن نتعلم دروسا مهمة من إنشاء ومسيرة تطور صناعة الكمبيوتر الشخصي باستثماراتها البالغة ١٢٠ مليار دولار ؛ فالكمبيوتر الشخصي - بمكوناته المادية المتواصلة التطور وتطبيقاته في عالم التجارة والأعمال ، وبنظم خدمة الاتصال المباشر ووصلات الإنترنت ، والبريد الإلكتروني والعناوين متعددة الوسائط « ملتي ميديا » والألعاب - هو الأساس والركيزة لثورة المعلومات المقبلة .

وربما يلفت الأنظار أن وسائل الإعلام لم تُبْدِ اهتماما كبيرا ، خلال المرحلة الأولى من نمو صناعة الكمبيوتر الشخصي ، بما يجرى داخل هذا المجال الجديد من مجالات النشاط الصناعي التجاري ، لكن هذه الرحلة الجديدة إلى ما يطلق عليه الآن «طريق المعلومات السريع » أصبحت موضوع الاهتمام الرئيس لعدد لا ينتهي من مقالات الصحف والمجلات ونشرات وبرامج الإذاعة والتليفزيون والمؤتمرات ، وموضوعًا للتأمل والتفكير على نطاق واسع .

البعض يعتقد خطأ أن طريق المعلومات السريع - أو ما يسمى أيضا « الشبكة » - ليس سوى « الإنترنت » كما نعرفها اليوم ، أو هو « نقل » خمسمائة قناة تليفونية متزامنة معا . ويأمل آخرون - أو يخشون - أنه سيؤدي إلى ظهور أجهزة كمبيوتر تطاول في ذكائها العقل البشري .

إن الثورة في مجال الاتصالات قد بدأت لتوها على حد قول « بيل جيتس -روكفلر » ، هذا العصر الذي جعله الكمبيوتر أغنى أغنياء العالم- في كتابه «المعلوماتية بعد الإنترنت طريق المستقبل » ، وسوف تستغرق تطوراتها عدة عقود مقبلة ، وستدفعها إلى الأمام « التطبيقات الجديدة » ، التي ستلبي غالبا حاجات غير متوقعة حاليا ، وينتظر أن تمثل الطبيعة الكونية لسوق الكمبيوتر الشخصي عنصرا حيويا في تطوير طريق المعلومات السريع ، بل إن أوجه التعاون بين الشركات الكبرى ستصبح أكثر أهمية ، فيما يتعلق بالكمبيوتر الشخصي عما كانت عليه في الماضي .

على أن نشوء طريق المعلومات السريع يأتي تجسيدًا لالتقاء منجزات التقدم التكنولوجي في كل من عالم الاتصالات والكمبيوتر ؛ فليس بإمكان تقدم تكنولوجي بمفرده أن ينجز التطبيقات المؤثرة الضرورية ، لكن مجموع تلك المنجزات في المجالين يمكنه ذلك . وسوف يصبح طريق المعلومات السريع شيئا لا غنى عنه ؛ لأنه سيوفر منظومة مجمعة من المعلومات والخدمات التعليمية والترفيهية والتسوق والاتصالات الشخصية .

حمى المعلومات

حمى الإنترنت تمثل بدورها ثورة في عصر المعلومات الذي نعيشه . ويشير تعبير « الإنترنت » إلى مجموعة من أجهزة الكمبيوتر الموصلة معا ، وتستخدم «بروتوكولات » لتبادل المعلومات ، وتمثل الشعبية الواسعة للإنترنت التطور الأكثر أهمية في عالم الكمبيوتر ، منذ ظهور الكمبيوتر الشخصي « آي . بي . إم . بي . سي » في ١٩٨١ .

واليوم تتألف الإنترنت من تجمع فضفاض من شبكات الكمبيوتر التجارية وغير التجارية المتصلة معا ، بما في ذلك خدمات الاستعلام مباشرة بالاتصال بالكمبيوتر ، التي « يشترك » فيها المستخدمون .

وتتناثر وحدات الخدمة في أماكن مختلفة من العالم ، وترتبط بالإنترنت عبر مجموعة متنوعة من المسارات عالية ومنخفضة السعة . ويستخدم أغلب المستهلكين أجهزة الكمبيوتر الشخصية لدخول الإنترنت عبر شبكة التليفونات .

الخطة الرئيسة في تجسيد « حمى الإنترنت » وقعت في أغسطس ١٩٩٥ ، حين طرحت « نتسكيب » – صانعة أول نظام بحث عام عن طريق الإنترنت – معروضها من الأسهم على نطاق جماهيري .

افتتحت أسعار الأسهم في الشركة بسعر ١٤ دولارًا للسهم ، وفي غضون أيام قلائل ارتفع السعر إلى ١٧٢ دولارا ، الأمر الذي عكس مدى قيمة وأهمية شركات الإنترنت في عصر المعلومات .

تطور فكرة الإنترنت قفز من مجرد وصلة بين أفرع الجيش الأمريكي ، خلال عقد الستينيات إلى وسيلة اتصال عالمية ، وكمركز للتسوق ، ومكتبة هائلة تربط بين أنحاء العالم . ولقد أصبح ممكنا الآن بالفعل أن يرسل أي إنسان إلى أي إنسان آخر رسالة عبر الإنترنت لأغراض تجارية ، أو تعليمية ، أو حتى لمجرد التسلية ، وبإمكان الطلاب في مختلف أنحاء العالم أن يرسلوا الرسائل بعضهم إلى بعض . كما يمكن لأي شخص قعيد أو ملازم لبيته أن يجري محادثات بالصوت والصورة مع أصدقاء ، ربما تعذر أن يلتقوا معا . كذلك استطاع المتراسلون – الذين ربما لن يرتاح كل منهم للآخر لو تبادلوا الكلام بشكل شخصي مباشر – أن يشكلوا روابط صداقة عبر الشبكة .

وتوفر الإنترنت –علاوة على البريد الإلكتروني وتبادل الملفات– تصفح قواعد البيانات عبر شبكة WEB ، والذي يعد أحد أكثر تطبيقاتها شعبية . ويشير تعبير «الشبكة عالمية الانتشار » وتختصر إلى WWW ، إلى تلك المجموعة من « الخوادم » المتصلة بالإنترنت ، والتي توفر صفحات جرافيكية من المعلومات يمكن تصفحها واحدة بعد الأخرى . ولقد غيرت السهولة التي يمكن أن تنشر بها الشركات والأفراد « المعلومات » عبر الإنترنت المفهوم الكامل لكلمة « نشر » ، كما رسخت الإنترنت نفسها كموقع لنشر المحتوى . وهكذا ظهرت الصحافة الإلكترونية التي تنشر على مواقع محددة كمًا ضخما من المعلومات والموضوعات الصحفية ، وتوفر فرصا للوصول إلى مجالات شديدة التخصص ، تعني مجموعات محددة من القراء . وفي حين تعد

المساحة مشكلة أساسية بالنسبة للصحيفة المكتوبة ؛ فإن « الإنترنت تقدم فضاء بلا حدود » على حد تعبير « لورنز مبير » ، رئيس تحرير موقع مجلة « دير شبيجل » الألمانية على الإنترنت .

الصحافة الإلكترونية إذًا تتيح فرصة قراءة الموضوعات والأخبار في أي وقت ، وفق اهتمامات القارئ الذي قد يبحث عن موضوع معين دون غيره ، في أثناء وجوده في أي مكان في العالم ، ومراجعة تلك الموضوعات المصنفة والمحفوظة بشكل مستمر . لكن التغيير الأساسي الآخر هو أن الإنترنت تغير جذريا طريقة قراءة المقالات ، فصفة هايبرتكست أو "النص المتفوق" تتبع استدعاء نصوص مختلفة ، عبر التأشير على الأيقونات والمربعات وحتى على كلمات-مفتاح في قلب المقال ، أو استدعاء مواقع أخرى ، مما يجعل الانتقال الآني من موقع إلى آخر متعة غير مقتصرة على مشاهدي التليفزيون .

وعلى ذكر التليفزيون ، فقد ذكرت إحصائية أجريت في ١٩٩٩ أن الإنترنت في بريطانيا خفضت مشاهدي التليفزيون بنسبة ٢٩٪ ، في حين خفضت قراء الصحف بنسبة ١٢٪ ، وأضيفت أعباء جديدة إلى عمل الآلاف من الصحف هنا وهناك ، وهي خدمة متطلبات قراء الإنترنت وتعليقاتهم المتزايدة .

وبحلول نهاية القرن العشرين ، أصبحت الشبكة تضم أكثر من ٢٠٠ مليون موقع ، يضاف إليها ١٥ ألف موقع يوميا ، وهي تملك ما يكفى من المستخدمين لكي تفيد من دورة التغذية المرتدة ، فكلما زاد عدد مشتركيها ، زاد المحتوى الذي تتضمنه ، وكلما زاد المحتوى الذي تتضمنه زاد عدد المشتركين المنضمين إليها .

ويقول الإنجليزي« تيم برنرز- لي » (١٩٥٥-) ، الذي أسهم في اختراع الشبكة العالمية للإنترنت سنة ١٩٩٠ ، في كتابه « نسج الشبكة » ، إنها « إبداع اجتماعي أكثر منها إبداعا تكنولوجيا » ، مضيفا « لقد صممتها لتحقيق تأثير اجتماعي ، لمساعدة الناس على العمل معا ، وليس بغرض أن تكون دمية تقنية » .

ولأن الإنترنت لا يكلف استخدامها مبالغ طائلة ، فإن الكثيرين يعتقدون أنها ممولة من الحكومات ، لكن الأمر ليس كذلك ، لأنها ممولة من جانب المعلنين . وكانت الإنترنت ثمرة لمشروع حكومي أمريكي بدأ تنفيذه في ١٩٦٠ وسمي « الآربانت » ، واستخدمت في البداية للأغراض المتعلقة بعلوم الكمبيوتر والمشروعات الهندسية ، ثم كشبكة طوارئ أمنية للاستخدام عند انهيار شبكات الهاتف العامة ، واستفادت منها وزارة الدفاع الأمريكية بشكل أساسي . غير أن هذه الثمرة سرعان ما تحولت إلى شجرة تظلل العالم أجمع .

ففي سنة ١٩٨٩ ؛ قررت الحكومة الأمريكية وقف تمويل «الآربانت» ، ووضعت خططا لإنشاء حلف تجاري لها في شكل شبكة تقرر تسميتها « الإنترنت » ، وقد اشتق الاسم من اسم البروتوكول الأساسي للاتصالات . وظل أغلب عملاء الإنترنت -حتى بعد أن أصبحت خدمة تجارية- من بين العلماء داخل الجامعات ، والشركات العاملة في صناعة الكمبيوتر ، الذين استخدموها لتبادل البريد الإلكتروني .

أما الآن . . فإن الإنترنت تستخدم لنقل وتبادل المعلومات ، ولعرض الصور ومتابعة الأحداث ، وهي وسيلة للتحادث الإلكتروني ، والتسوق والبحث العلمي . وأخيرا أسهمت الإنترنت في نقل وقائع عمليات جراحية على الهواء مباشرة من مكان آخر ، مما يعني ثورة علمية كبرى في المستقبل القريب .

وفي سن الحادية والثلاثين ، تشبه الإنترنت نجمة الإغراء « مارلين مونرو » ، فهي مكشوفة تماما ، ومع ذلك تحوط الشبهات ماضيها وتدور التساؤلات حول علاقاتها الخطيرة ، ويلفع الغموض مستقبلها ، والأنكى من ذلك كله أنه لا أحد يعرف شكلها الحقيقي ، مهما أمعن النظر فيها بعد أن أصبحت عالما قائما بذاته .

ومن المحطات البارزة في تاريخ الإنترنت : ربط الشبكة لأول مرة أربع جامعات أمريكية هي ستانفورد ، ولوس أنجلوس ، وسانتا بربارا ، ويوتا (١٩٧٠)، إرسال أول رسالة بالبريد الإلكتروني (١٩٧١) ، بدء استخدامها في التراسل الإلكتروني العالمي

(١٩٧٣) ، تأسيس أول ندوات النقاش العالمية على الإنترنت (١٩٧٩) ، ابتكار لغة الإنترنت TCP/IP (١٩٨٢) ، نحت مصطلح الفضاء السبرنيتي Cyber Space (١٩٨٤)، رفع القيود التجارية عن الإنترنت (١٩٩١) ، انطلاقة الشبكة العالمية (١٩٩٣) ، بيع أول كتاب عن طريق موقع أمازون كوم الإلكتروني (١٩٩٤) ، أول بحث عن طريق موقع « ياهو » (١٩٩٥) ، أول مزاد على الإنترنت (١٩٩٥) ، أول استخدام للكاميرا «٢٤-٧ ويب » في الإنترنت (١٩٩٦) ، الشبكة تتحول إلى فضاء لجميع النشاطات البشرية تقريبا (١٩٩٧) ، وافتتاح أول جامعة على الإنترنت (١٩٩٩).

كذلك فإن أسطوانات الليزر أو الأقراص المدمجة (CD) تتيح تخزين واسترجاع النصوص والوثائق ، والاستمتاع بالموسيقى ومشاهدة الأفلام ، وقراءة الموسوعات وممارسة الألعاب ، واستخدام مختلف الوسائل متعددة الوسائط « ملتي ميديا » ، وتسهم طابعة الليزر المكتبية - ومعها برنامج الناشر المكتبي للكمبيوتر الشخصي - في إنتاج الرسائل الإخبارية والمذكرات والخرائط للمفارز العسكرية والملاحين الجويين ، والوثائق الأخرى المخصصة لأي جمهور محدود العدد .

إن الكمبيوتر أدهشنا جميعا عندما شاهدنا فيلم « فورست جمب » ، وتابعنا كيف صافح بطل الفيلم « توم هانكس » الرؤساء الأمريكيين : « چون كيندي » ، و « ليندون چونسون » ، و « ريتشارد نيكسون » ، عن طريق برامج وتطبيقات الكمبيوتر . وفي الفيلم نفسه أسهمت « المعالجة الرقمية » في إزالة ساقي الممثل « جاري سينيس » السليمتين لكي يؤدي دور رجل مبتور الساقين ، وتكرر الأمر نفسه في أفلام أخرى من بينها « الحديقة الجوراسية » و« العالم المفقود » للمخرج « ستيفن سبيلبرج » وأخيرا «حرب الكواكب » في جزئه الأول « تهديد الشبح » للمخرج « چورچ لوكاس » ، الذي أكد فى صيف ١٩٩٩ أن الكمبيوتر يصنع عالما جديدا ، على حين أن الإنترنت تؤكد أن ثورة المعلومات ستقع لا محالة ، وتثبت صحة مقولة الباحث الكندي «مارشال ماكلوهان » بأن العالم أصبح قرية صغيرة .

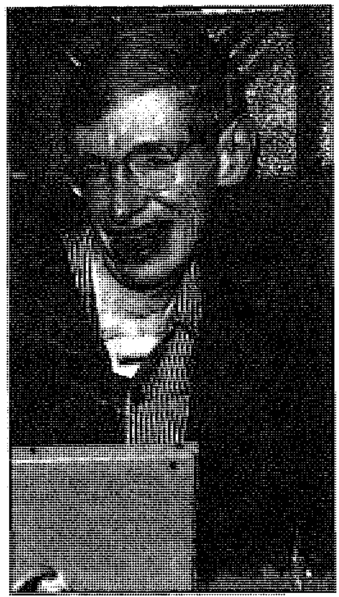
لكن مخاطر استخدامات الكمبيوتر بدت قائمة في ظل مشكلة الألفية الجديدة ، التي تحركت عديد من دول العالم لمواجهتها ؛ خوفا من " أزمة الصفرين " في الكمبيوتر التي زعم البعض أنها ستؤدي إلى ارتباك واضطراب واسع في استخدام الكمبيوتر في الشركات والهيئات والمؤسسات المختلفة ، ثم اتضح بعد ذلك أن الأمر ليس سوى خدعة كبيرة ، استنزفت مليارات الدولارات من الدول والأفراد لمصلحة شركات تعمل في مجال الكمبيوتر والصيانة .

ويبقى أن الكمبيوتر الذي أصبح يفكر للكثيرين حتى في غرف نومهم في عالمنا اليوم ، والإنترنت التي تحولت إلى ثقافة وإدمان لا شفاء منه ، أحد محاور المستقبل .

* * *



ماري كوري


ستيفن هوكينز

10

علماء وعباقرة

أدت الاكتشافات العلمية خلال القرن العشرين إلى تغيير وجه العالم وطريقة حياة البشرية . وفي هذا القرن تحول التقدم العلمي إلى رمز للقوة المذهلة ، كما أصبحت العلوم الحديثة سببا في الكثير من المآسي الإنسانية ، مثلما حدث بالنسبة للقنابل الذرية والصواريخ .

للتكنولوجيا إذًا وجهان : وجه يدفعنا إلى الأمام، ووجه آخر يدمرنا . . وعلينا أن نختار بين ثمرة المعرفة وأشواكها السامة .

لكن العقول التي فكرت ، والعلماء الذين اخترعوا ، والعباقرة الذين غيروا وجه الحياة على الأرض ، يظلون - على الرغم


أحمد زويل

من كل شيء - رموزا لا تنسى ، وشخصيات تستحق إلقاء الضوء على بصماتها الفريدة في حياتنا ، خلال قرن من الزمان .

والقراءة السريعة للقرن العشرين تكشف عن التناقض بين كونه قرن الثورة العلمية والتكنولوجية ، وكونه أيضا قرن الحروب العالمية المدمرة ، الذي لعب العلماء فيه دورا مؤثرا . وتشير الإحصاءات إلى أن أكثر من ٩٠ في المائة من العلماء الذين عرفتهم البشرية عاشوا حتى السنوات الأخيرة من القرن العشرين ، وأغلبهم يعمل بشكل مباشر أو غير مباشر في تكنولوجيا السلاح والدمار !

إن الانفجار المعرفي يتضاعف حاليا في أقل من عشر سنوات ، بعد أن كان يتضاعف مرة كل ١٧٥٠ سنة منذ بداية الألفية الأولى حتى منتصف القرن الثامن عشر .

ولنبدأ من النهاية ، فقد أظهر استطلاع للرأي أجرته هيئة « بي . بي . سي » البريطانية على شبكة الإنترنت أن « أبو الشيوعية » « كارل ماركس » اختير من جانب المشاركين في الاستطلاع بوصفه مفكر الألفية الثالثة ، متفوقا بذلك على العالم الكبير « ألبرت أينشتاين » صاحب « نظرية النسبية » .

ومع ذلك فإن أثر « أينشتاين » كعالم وعبقري يجعل مكانته غير قابلة للمنافسة مع « ماركس » الذي دفنت نظرياته حول الشيوعية و« رأس المال » تحت أنقاض جدار برلين في ١٩٨٩ . ويشير الاستطلاع إلى أن الفيزيائي المقعد « ستيفن هوكنج » صاحب كتاب « تاريخ موجز للزمن » جاء في المركز السادس ، وأن « إسحق نيوتن » حل ثالثا ، و « تشارلز داروين » رابعا ، و « توما الأكويني » (١٢٢٦ - ١٢٧٤) خامسا ، و « عمانوئيل كانط » سابعا ، وجاء بعده « چيمس كيرك ماكسويل » ، و « فريدريك نيتشه » .

ويعد « ألبرت أينشتاين » من أبرز علماء العصر ، إذ إن نظرية النسبية التي قدمها للعالم كان لها تأثير كبير في تقدم الكثير من الاختراعات العلمية .

ولد « أينشتاين » في ١٤ من مارس ١٨٧٩ في مدينة أولم الألمانية ، وعمل موظفا في مكتب براءات الاختراع في بيرن بسويسرا منذ ١٩٠٢ . وفي السنة التالية - وكان

في السادسة والعشرين من عمره - كتب ثلاث أوراق بحثية غيرت مجرى العالم ، نشرها في مجلة « أنالين دير فيزيك » . ووصف العالم الفيزيائي « لويس دي بورجلي » تلك الدراسات بأنها صواريخ متوهجة أنارت فجأة لجة الظلام في منطقة مجهولة . وفي ١٩١٦ عرض نظرية النسبية بشكل عام ، واستغرق الأمر ثلاث سنوات أخرى حتى يقتنع زملاؤه العلماء بصحتها .

نال « أينشتاين » جائزة نوبل في الفيزياء في ١٩٢٢ (ليس عن نظرية النسبية وإنما عن عمل آخر أقل أهمية ، يتعلق بتأثير الصورة الكهربائية) ، ثم ارتحل إلى الولايات المتحدة في ١٩٣٣ ليكون عضوا في معهد الدراسات المتقدمة في برينستون من ١٩٣٣ إلى ١٩٤٥ . وفي خطاب سري بعث به في ١٩٣٩ إلى الرئيس الأمريكي « فرانكلين روزفلت » طرح فكرة صنع قنبلة اليورانيوم . وفي ١٩٣٤ جردته حكومة « هتلر » النازية من الجنسية الألمانية ، وصادرت أمواله ، غير أنه حصل على الجنسية الأمريكية .

ودراساته حول نظرية « الكهروضوئية » تعد أساس نظرية « الكوانتوم » (وضع مجمع اللغة العربية مصطلح « الكمومية » ترجمة لمصطلح « الكوانتوم » لكنه يظل غير شائع الاستخدام) وبالنسبة للكون رأى « أينشتاين » أنه كون ساكن غير متحرك ، معارضا النظرية الديناميكية عن الكون لـ « دي ستر » . وفي ١٩٥٠ أصدر نظرية «المجال الواحد» ، التى قلصت الكهرومغناطيسية والجاذبية إلى مجموعة واحدة من الصيغ الرياضية .

وفي المقابل ، تردد أن « أينشتاين » لم يكن يهتم بالجوارب أوربطات العنق أو الأحذية ، بل قيل إنه كان ينسى عنوان سكنه على وجه التحديد - ١١٢ ميرسير ستريت في برينستون في نيوجرسي - حيث استقر به الحال في نهاية الأمر ، قبل أن يتوفى في ١٩ من أبريل ١٩٥٥ . و « أينشتاين » - الذي رفض اقتراحا بأن يكون رئيسا لإسرائيل - استحق أن يحفظ مخه في الفورمالدهايد ، فربما تمكن عبقري آخر ذات يوم من التوصل إلى سر نبوغ « أينشتاين » ، الذي فوجئ ذات يوم ، وهو يفتح كتابا بوجود شيك بمبلغ ١٥٠٠ دولار ، كان قد استخدمه كمحدد للصفحة بسبب كثرة شروده !

عالم الفيزياء الألماني « ماكس بلانك » (١٨٥٨-١٩٤٧) اشتهر بطرحه فرض « الكوانتوم » في ١٧ من ديسمبر ١٩٠٠ ، وقد حصل على جائزة نوبل للفيزياء في ١٩١٨ ، ثم حصل على عضوية الجمعية الملكية البريطانية .

« بلانك » ترك أعمالا قيمة في الديناميكا الحرارية والميكانيكا والبصريات والإشعاع وفي النسبية . أما نظرية « الكوانتوم » التي عرضها ، فهي تشرح كيف يتحرك الضوء والطاقة ، وهي أساس الكثير من النظريات الفيزيائية الحديثة .

عالم الأحياء الأمريكي « توماس هنت مورجان » (١٨٦٦-١٩٤٠) كان حجة في موضوع الوراثة وله مؤلفات في الوراثة وعلم الأجنة ، وحصل على جائزة نوبل لاكتشافاته القيمة - في ١٩١٠ - المتعلقة بالأجسام الوراثية الملونة «الكروموسومات» ، وذلك في ١٩٣٣ . ومن أشهر كتبه حول موضوع الوراثة « نظرية الجين » ، وذلك في ١٩٢٦ و«علم الأجنة التجريبي» في ١٩٢٧ .

ويرى الكثير من العلماء أن الفيزيائي الدنماركي « نيلز بور » عبقري من طراز خاص . تلقى « بور » (١٨٨٥-١٩٦٢) علومه في كوبنهاجن وكامبريدج ، وعمل مع العالم الشهير « رذرفورد » في مانشستر ، ثم عاد إلى كوبنهاجن أستاذا للفيزياء .

حصل « بور » على جائزة نوبل للفيزياء سنة ١٩٢٢ ، واختير عضوا في الجمعية الملكية . وقد كان لبحوثه أثر مباشر في توسيع نظرية الذرة ، وقد وضع نموذجا للذرة أمكن به شرح تكون طيوف العناصر وأماكنها في جدول « مندليف » الدوري . وبالاشتراك مع « سمرفيلد » طور نظرية « الكوانتوم » ، وبالتعاون مع « ويلر » وضع « بور » نظرية في بناء الذرة . وبعد أن كانت الفيزياء الكلاسيكية ترى أن الظاهرة إما ذرة وإما إشعاع ، طرح « بور » مبدأه المعروف باسم مبدأ التكامل ، الذي لبى الاحتياج لكلا المفهومين بغير أن يتصادما أو يتعارضا ، مؤكدا تآلفهما واتحادهما . وقد هاجر إلى الولايات المتحدة عندما احتلت ألمانيا النازية بلاده ، وفي أمريكا عمل في بحوث القنبلة الذرية ، ثم عاد إلى بلاده بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية . ويمكن القول إن « بور » نجح في ١٩١٣ في تطبيق نظرية « الكوانتوم » لشرح حركة الإلكترونات ، وأرسى بذلك نموذجا أساسيا للذرة مازال مستخدما حتى يومنا هذا .

دراسة العـالم الفيـزيائي الأمـريكي « آرثر هـولي كـومبـتـون » (١٨٩٢-١٩٦٢) للظاهـرة الكهروضـوئية من أهم تعزيزات نظـرية « الكوانتوم » وتطبيق « أينشتاين » لها . ومع « فيرنر هيزنبرج » (١٩٠١-١٩٧٦) حدث التطور الأبرز أو الميلاد الثاني لنظرية «الكوانتوم » ، وذلك حين وضع مبدأه الـشهير المعروف باسم مبدأ اللاتعين Indeterminacy Principle ، وهذا المبدأ بصـورته العـامـة يأخـذ في اعـتبـاره أدوات القيـاس أو الأجهـزة المعملية وتأثيرها في الظواهر المرصـودة ، فينص على استحـالة التعيين الدقيق لموضع الإلكترون وسرعته في الوقت نفسه ؛ لأن دقة تحديد أحد الجانبين تكون على حساب الدقة في تحديد الجانب الآخر .

وفي ٢ من ديسمبر ١٩٤٢ نجح الفيـزيائي - الإيطـالي المولد الأمريكي الجنسـية - « إنريكو فـيرمي » (١٩٠١-١٩٥٤) في إقـامـة أول مـفـاعل ذري في إطار تجربة سـرية أجـريت في شيكاغو . وبعد ثلاث سنوات أسهمت القنابل الذرية الأمـريكية في قتل عشرات الألوف من اليابانيين ، وإصابة مئات الألوف بأمراض ناجمة عن الإشعاع .

تلقى « فـيرمي » تعليمـه في جيتيجن وليـدن ، ثم عمـل أسـتـاذا للفيـزياء في جامعة روما ، وقد أطلق عليه زملاؤه لقب « البابا » لاعتقادهم أنه معصوم من الخطأ في حـقل العلوم . وكـان أول من حـاول تحويل العناصر إلى عناصر أخـرى عن طريق تغيير بنيتها الذرية بقصف العناصر الثقيلة بالنيوترونات وذلك في ١٩٣٤ . وقد شكل مع زملائه من العلمـاء المهاجـرين إلى الولايات المتحـدة ، كالعـالم المجـري « ليو سـريلارد » ، و « يوجـين ويجنر » ، و « چـون فـون نيومـان » ، و « إدوارد تيـلان » ، و « هانز بيث » ، ما عرف فيما بعد بأنه القوة الضاربة في حقل اختراع القنبلة النووية . ويقـال إن اكتشـاف « فيرمي » حـال دون اندلاع حـرب عـالمية أخرى ، لأن الدمـار الذي سينجم عن حـرب كـهذه سيضع جميع الأطراف في مركز الخاسر ، ولن يكون هناك رابح على الإطلاق .

حصل « فيرمي » على جائزة نوبل للفيزياء في ١٩٣٨ ، وهاجر على الفور من استوكهولم حيث تسلم الجائزة ، إلى الولايات المتحدة ، وأصبح أستاذا في جامعة كولومبيا .

أستاذ علم وظائف الأعضاء الأمريكي « چيمس ديوي واطسون » اشترك مع البريطاني « فرانسيس كريك » في تقديم بحوث عديدة ، حول البناء النظري للأحماض النووية DNA ، وقدما نموذجا لهذا الحامض النووي في ١٩٥٣ . اقتسم العالمان جائزة نوبل للطب -علم وظائف الأعضاء - مشاركين بذلك العالم « ولكنز » في ١٩٦٢ .

العالم الكبير « إدوين هابل » (١٨٨٩-١٩٥٣) صمم أعظم تليسكوب فضائي دون أن ينال شرف الحصول على جائزة نوبل . ففي ١٩٢٣ ، اكتشف « هابل » في أثناء فحصه لمجموعة من النجوم العملاقة المعروفة بمجرة « اندروميدا » أن الكون الذي نعيش فيه مكون من مجرات أخرى ، إلى جانب مجرة درب التبانة ، التي كان معظم علماء الفلك يعتقدون أنها وحدها الكون . وفي ١٩٢٥ أنشأ أول خطة مفيدة لتصنيف المجرات .

وبحلول سنة ١٩٢٩ ، اكتشف أن السرعة التي تتحرك بها المجرة بعيدا عن الأرض تعتمد على مدى بعدها عن كوكب الأرض ، وهذا ما يعرف الآن باسم « قانون هابل » . واكتشف أيضا أن المجرات القريبة من درب التبانة تكون مرتبطة بها بواسطة قوة الجاذبية ، وهو ما فسره العلماء على أنه يعني أن الكون يتمدد طبقا لنظرية النسبية التي وضعها « أينشتاين » . وهكذا قدم « هابل » أول نظرية لما يسمى « الانفجار الكبير» التي تصف ميلاد وتطور الكون ، إذ اكتشف الكون وأسس لعلم الكونيات أو الكوزمولوچيا . وبعد ذلك بسنة واحدة نشر كتابه « عالم السديم » الذي حقق له شهرة كبيرة .

حقل كرنب

يعد أستاذ الفيزياء الأمريكي « روبرت جودارد » المولود في ١٨٨٢ الرجل الذي دشن عصر الفضاء . ففي سنة ١٩١٥ برهن جودارد على إمكان تشغيل محركات الصواريخ في الفراغ ، وفي ١٦ من مارس ١٩٢٦ أطلق أول صاروخ يعمل بالوقود من حقل كرنب ، وانطلق الصاروخ الذي سماه « نيل » وبلغ طوله عشرة أقدام بسرعة ٦٠ ميلا فى الساعة ، وارتفاع ٤١ قدما . استمرت عملية الطيران بأكملها ٢,٥ ثانية فقط ،

ولكن كانت هذه المدة الزمنية أطول من أي صاروخ مزود بوقود سائل ، كان قد تمكن من الطيران من قبل ، غير أن الصحف سخرت من تجارب أستاذ الفيزياء في جامعة كلارك بولاية ماساتشوستس الأمريكية .

وفي ١٩٣٠ بدأ العمل في مدينة روزيل ، وطور فيها صواريخ متعددة المراحل ، حيث تمكن من صنع صاروخ تزيد سرعته على سرعة الصوت ، وآخر بأجهزة دقيقة للتوجيه والقيادة . ومع نهاية الحرب العالمية الثانية ، تم الاعتراف رسميا بأن « جودارد » هو المخترع الأول للصاروخ ،ولكنه لم ينعم طويلا بهذا الاعتراف ، فقد اكتشف الأطباء إصابته بسرطان الحنجرة . ولم تنقض سنة ١٩٤٥ حتى وافته المنية عن عمر يناهز ٦٢ سنة؛ تاركا وراءه ٢١٤ براءة اختراع .

ولن ينسى العالم التطور الكبير الذي حققه الأخوان « أورفيل » و « ولبور رايت » في مجال الطيران ، ليحققا حلما قديما للبشرية . ففي ١٧ من ديسمبر ١٩٠٣ قاد «أورفيل » طائرة مصنوعة من الخشب والموسلين ، وأقلع من كيتي هوك مرتفعا ١٢٠ قدما ، أي ما يزيد قليلا عن نصف عرض المسافة بين جناحي طائرة بوينج ٧٤٧ . وغيرت هذه الرحلة القصيرة – التي لم تتعد مدتها ١٢ ثانية – مجرى العالم ، وحملته إلى ارتفاعات جديدة . وعلى الرغم من أن هذا الإنجاز حقق طفرة هائلة في القرن العشرين ، فإنه لم يهتم بهذا الشأن آنذاك سوى أربع صحف فقط في الولايات المتحدة .

ويتعين أن نشير إلى دور البريطاني « ألن تورينج » (١٩١٢-١٩٥٤) في اختراع الحاسوب أو الكمبيوتر ؛ إذ درس « تورينج » المنطق الرياضي بجامعة كامبريدج ، ثم قدم في ١٩٣٧ ورقة بحثا حول أرقام الكمبيوتر . وفي الفترة ما بين ١٩٣٩ و١٩٤٥ انضم إلى العمل السري لفك شفرة الحكم النازي ، وكتب في ١٩٥٠ ورقة بحث في جريدة « مايند » الفلسفية البريطانية تتوقع ظهور الذكاء الاصطناعي . وقال ذات مرة : «سيأتي يوم تشغل فيه السيدات أجهزة الكمبيوتر في أثناء التنزه في الحديقة ، وستقول كل منها للأخرى : كمبيوتري الصغير قال لي نكتة ظريفة هذا الصباح» !

لكن « تورينج » أزهق روحه بيده في سنة ١٩٥٤ إثر تعرضه لفضيحة أخلاقية ، بعد أن وضع أسس علم الحاسوب أو الكمبيوتر .

ونجح « چون موتشلي» و « چى برسبر » في اختراع كمبيوتر « إينياك » ، وقدم «چون أتناسوف» مع «كلنفورد بيل» في أواخر ١٩٣٠ جهازا يسمح بحل المعادلات الخطية الكبيرة في الجبر يدعى ABC . وأسهم تيم برنرز-لي المولود في لندن في ٨ يونيو سنة ١٩٥٥ ، وخريج جامعة أكسفورد في تقديم الشبكة العنكبوتية في ١٩٨٩ ، وبعد ذلك بسنتين تم طرح نظام Web . ظهرت هذه الشبكة لأول مرة على الإنترنت التي يدخلها نحو ١٥٠ مليون مستخدم كل أسبوع حسب تقديرات ١٩٩٩ . ويتعين أن نشير إلى أن باحثين في المختبر الأوروبي لفيزياء الجزيئات "سيرن" وضعوا في ١٩٨٠ برنامج الكمبيوتر ، الذي مهد لتأسيس شبكة الإنترنت .

الفيلسوف النمساوي « لودفيج فيتجنشتاين » (١٨٨٩-١٩٥١) هو أول من ألف كتابا عن الحاسب الآلي ، وقد تتلمذ على يدي العالم الكبير « برتراند راسل » ، ثم عمل في كامبريدچ كمحاضر . أثرى « فيتجنشتاين » علم الفلسفة بالكثير من الأفكار المهمة واهتم بالمنطق الرياضي . وعلى مدار ٧٤ سنة من البحث ، وضع العالم والفيلسوف « راسل » (١٨٧٢-١٩٧٠) شروط الحوار في المسائل المنطقية والفلسفية ، خاصة مع ظهور كتابه « أصول الرياضيات » (١٩١٠-١٩١٣) ، الذي اشترك في كتابته مع الفيلسوف « ألفريد نورث وايتهيد » .

في هذا الكتاب بدأ المؤلفان بثلاثة لا معرفات : الإثبات والنفي والبدائل ، ومنها فقط تمكنا بواسطة التدوين الرمزي من استنباط قواعد المنطق الصوري بأسرها ، ثم الرياضيات البحتة بأسرها .

في ١٩٣١ ؛ أخرج « كورت جودل » (١٩٠٦-١٩٧٨) بحثا قيما بعنوان « حول قضايا غير قابلة للبت صوريا في أصول الرياضيات ومنظومات ذات صلة » يتضمن نظرية ، تعد بدورها من معالم تطور العقل الصوري في القرن الماضي .

الصندوق العجيب

ويميل البعض إلى الاعتقاد بأن القرن العشرين كان قرن ظهور التليفزيون ، ومعظم هؤلاء لا يعلم أن مخترع ذلك الصندوق العجيب الذي يدهش العالم هو شخص أمريكي يدعى « ميلو فرانسوورث » ، الذي ولد في كوخ خشبي فقيرا بولاية يوتاه الأمريكية في ١٩٠٦ . وإذا كان « فلاديمير زوركين » قد دفع فكرة التليفزيون إلى الظهور خلال العشرينيات والثلاثينيات من هذا القرن ، فإن ميلو فرانسوورث حقق القفزة الأساسية ، وفق ما أعلنه مكتب براءات الاختراع الأمريكي في ١٩٣٤ ، من أن هذا العالم كان الأسبق في اختراع التليفزيون . وكانت معركة قضائية قد اشتعلت بين « فرانسوورث » و « زوركين » الذي هاجر إلى الولايات المتحدة من روسيا ، وكان يحمل درجة الدكتوراه في الهندسة الكهربائية ، وساندت الأخير شركة كبيرة لصناعة الأجهزة الإلكترونية هي شركة « آر . سي . اي » ، إلى أن حسمت المعركة لمصلحة «فرانسوورث» .

لكن « فرانسوورث » لم يهنأ طويلا بدخله من اختراعه ، فقد حظرت الحكومة الأمريكية إنتاج وبيع الأجهزة التليفزيونية خلال الحرب العالمية الثانية . وبعد انتهاء الحرب انتهت الفترة التي يحق لـ « فرانسوورث » خلالها الاستفادة ماديا من اختراعه ، فانسحب هذا المخترع من الأضواء ، وأدمن معاقرة الخمر ، ليتعرض لانهيار عصبي اضطره لقضاء فترة في مصحة عقلية . وفي ١٩٧١ مات « فرانسوورث » في ولاية يوتاه ، شخصا مغمورا يكاد لا يعرفه أحد ، على الرغم من أن مئات الملايين من بني البشر تستمتع باختراعه حتى اليوم . الغريب أن « فرانسوورث » كان أول من وجهوا إلى جهاز التليفزيون سهام النقد ، لما رآه من إهدار لوقت المشاهدين !

وفي ١٩٣٥ ، توصل المخترع الأمريكي « لو جي » إلى شاشة تليفزيون ذات بعد ثالث للصورة ، قبل أن تبدأ خدمة التليفزيون الملون في الولايات المتحدة في ١٩٥١ .

ويعد « توماس إديسون » (١١ من فبراير ١٨٤٧ - ١٨ من أكتوبر ١٩٣١) « أبو المخترعين » بفضل إسهامه في تطوير واختراع أكثر من ألف جهاز جعلت حياتنا

أسهل ، بدءا بمصائد الفئران ومرورا بكاميرات السينما والمكانس الكهربائية وآلات التسجيل ، وحتى المصباح الكهربائي أعظم اختراعاته على الإطلاق .

وينبغي أن نشير إلى الفيزيائي الإيطالي « جوليلمو ماركوني » (٢٥ من أبريل ١٨٧٤- ٢٠ من يوليو ١٩٣٧) الذي اخترع اللاسلكي ، وتمكن في ١٩٠١ من إرسال إشارة لاسلكية بين القارات عبر المحيط الأطلنطي . حصل « ماركوني » - الذي أيد بقوة في سنوات عمره الأخيرة الدكتاتور الفاشي « موسوليني » - على جائزة نوبل في الفيزياء مناصفة مع « كارل فرديناند براون » في ١٩٠٩ .

وفي ١٩٨٩ أعلن الكيميائيان « لي ستانلي بونز » ، و « مارتن فليشمان » أنهما تمكنا من استخدام مرشح اندماج طاقة مكون من قطبين كهربائيين ، وجرعة من ماء ثقيل في تحقيق فكرة « الاندماج البارد » .

وأسهم العالم الروسي « تروفيلم ليسينكو » في « معالجة البذور » بما أدى إلى توجيه نمو قمح الربيع بطريقة ما ليصير قمح الشتاء ، وبذلك يزيد المحصول ، وكان « ليسينكو » لهذا السبب العالم المفضل لدى الدكتاتور الراحل « چوزيف ستالين » .
وتمكن « ليو بايكلاند » المولود في مدينة جنت البلجيكية في ١٨٦٣ من اختراع ثم بيع حقوق إنتاج مادة الفيلوكس الصناعية ، لصناعي آخر يدعى « چورچ ايستمان » .

وفي ١٩٠٤ ، شرع «بايكلاند» في البحث عن بديل صناعي لتلك المادة الطبيعية ، وطور في ١٩٠٧ أول نوع من مادة البلاستيك الذي أطلق عليه اسم « باكلايت » . في ١٩٠٩ قدم « ليو بايكلاند » مادة البلاستيك إلى العالم في مؤتمر للكيمياء وأسس الشركة العامة لإنتاج الباكلايت . وفي ١٩٤٤ توفي في مدينة بيكون الأمريكية عن عمر يناهز الثمانين ، بعد أن غير اكتشافه مجرى التاريخ الصناعي ، إذ يقال عن البلاستيك إنه ذهب القرن العشرين .

ونجح عالم الأرصاد الجوية الألمانية « ألفريد فيجينز » في طرح أفكار راديكالية عن التركيب المعقد للقارات چيولوچيا . وأدت أفكار « فيجينز » إلى التوصل إلى التغييرات التي تحدث في باطن الأرض ، ولكن هذا العالم - الذي دفن في ثلوج جزر جرين لاند في ١٩٣٠ عن عمر يناهز ٥٠ سنة - لم يعش ليشاهد الاحتفاء بأفكاره .

« إليزابيث كبلر دوس » الطبيبة النفسية السويسرية سجلت في كتابها المشهور « في الموت الانتصار » ، الذي نشرته في ١٩٦٩ دراسات بالغة الأهمية عن لحظة الاحتضار ، وتمكنت من تقسيمها إلى خمس مراحل نفسية . « كبلر دوس » (٧٢ سنة) أسهمت بذلك في تطوير سبل العلاج النفسي للمرضى في أثناء مراحل احتضارهم .

وتمكن العالم الدنماركي « ستين ويلادسن » من استنساخ خراف من خلايا جينية في ١٩٨٤ ؛ ليمهد بذلك لإنشاء صناعة جديدة لتكاثر الماشية . و لكن المسألة لم تتوقف عند هذا الحد ، ففي ١٩٩٦ أسهم الباحثان البريطانيان « كيث كامبل » و « إيان ولموت » في إحراز تقدم كبير في مجال الاستنساخ في عالم الثدييات ، وذلك عندما قدما للعالم النعجة « دوللي » . الطبيب الأمريكي « هاريسون » قام في ١٩٨٥ بأول عملية لجنين قبل الولادة أجريت خارج الرحم ، وأعيد الجنين وهو في الأسبوع السادس والعشرين إلى الرحم .

كما شهدت سنة ١٩٨٦ في الولايات المتحدة أولى العمليات الناجحة لتفتيت حصى الكلية لدى المرضى باستخدام المنظار وأشعة الليزر . وفي ١٩٨٦ طور علماء فرنسيون لقاحا ضد البلهارسيا ، ثم وضعت في السنة التالية تقنية تغيير المواصفات الجينية للكائن الحي .

عالم البكتيريولوجي الألماني « روبرت كوخ » (١٨٤٣-١٩١٠) نال جائزة نوبل للطب في ١٩٠٥ لابتكار التيوبر كيولين كاختبار للدرن ، وهو كشف عن عديد من الجراثيم المسببة لكثير من الأمراض المعدية ، وعمل لفترة في مستشفى الإسكندرية ، حيث كشف عن ميكروب الدرن ، ودرس الكوليرا بتعمق .

أما الطبيب البريطاني « رونالد روس » (١٨٥٧-١٩٣٢) فقد تابع رحلة حياة طفيل الملاريا ، وأوضح علاقته ببعوضة « الأنيفوليس» الأنثى . وبرز دور عائلة «ليكي» (الزوجان لويس وماري والابن ريتشارد) في تأصيل علم الأنثروبولوجيا ودراسة الإنسان الأول منذ سنة ١٩٥٩ حتى ١٩٧٨ .

« أيوچين شوميكر » عالم الچيولوچيا عثر على نوع من الكوارتز ، تم إنشاؤه بواسطة تصادمات هائلة في فوهة بركان . وبالعثور على المعدن نفسه في أماكن

أخرى انتهى « شوميكر » إلى أن هذه المعادن لم تكون بواسطة البراكين ، كما كان يعتقد معظم العلماء ، ولكن بواسطة أجسام ضخمة جدا اصطدمت بالأرض ، وأنها مسألة وقت فقط -على حد قوله- حتى يضربها جسم هائل مرة ثانية .

ومن أشهر المهندسين المعماريين في القرن العشرين « لو كوربوسييه » (٦ من أكتوبر ١٨٨٧ - ٢٧ من أغسطس ١٩٦٥) ، الذي ولد في لا شو دو فوند في سويسرا باسم « تشارل إدوار چانيريه » ، وألف كتاب « نحو فن عمارة جديد » (١٩٢٣) ، ووضع خطة لمدينة تشانديجاره الهندية ، وأقام كنيسة في رونشان في فرنسا (١٩٥١-١٩٥٥) .

قدم « لو كوربوسييه » (وهو اسمه المستعار الذي استوحاه من اسم جده) للعالم أسلوبا جديدا في التصميم المعماري ، وهيمن على هذا المجال منذ عقد العشرينيات وحتى وفاته . وتفوق« لو كوربوسييه » في ذلك على أقرب منافسيه الأمريكي « فرانك لويد رايت » ، الذي ولد في ١٨٦٧ - وقيل في ١٨٦٩ - ومات في ١٩٥٩ . صمم «رايت» الفندق الإمبراطوري في طوكيو ومتحف جاجنهايم في نيويورك وأكثر من ٤٥٠ مبنى آخر . جمعت أعمال « رايت » بين الحس الشاعري والوظيفية في الوقت نفسه .

سر البنسلين

« ألكسندر فلمنج » (١٨٨١-١٩٥٥) المولود في إيرشايه باسكتلندا هو مكتشف البنسلين في ١٩٢٨ ، وفي السنة التالية نشر أول أبحاثه عن خصائص البنسلين المقاومة للإصابة بالبكتيريا . وفي ١٩٣٩ قدم البنسلين بطريقة غير مباشرة لمجموعة من العلماء بقيادة الأسترالي « هوارد فلوري » و « أرنست تشين » . نال « فلمنج » في ١٩٤٥ جائزة نوبل مشاركة مع « فلوري » و « تشين » . وفي ١١ من مارس ١٩٥٥ توفي إثر إصابته بأزمة قلبية ، بعد أن ترك وراءه حبة البنسلين العجيبة ، التي تستخدم كمسكن لعديد من الأمراض بشكل سحري .

« جوناس إدوارد سالك » المولود في ٢٨ من أكتوبر ١٩١٤ في إيست هارلم بنيويورك ، والذي تخرج في كلية الطب بجامعة نيويورك في ١٩٣٩ ، أجرى أولى

تجاربه لإنتاج أول لقاح تجاري ضد الأنفلونزا في ١٩٤٢ . وفي ١٩٤٩ بدأ أبحاثا للعثور على دواء للشلل بدعم من بازل أوكونور . وفي ١٩٥٥ أعلن نجاح لقاحه ضد الشلل وبدأ مشوار التطعيم الجماعي ، ثم أنشأ بعد خمس سنوات معهد سالك للأبحاث البيولوچية . الرئيس الأمريكي « فرانكلين روزفلت » الذي كان مصابا بشلل الأطفال ، رصد بدوره ٥ ,٧ مليون دولار لدعم أبحاث الوقاية من شلل الأطفال . « سالك » توفي في ١٩٩٥ ، بعد أن ساعدت أبحاثه في إنقاذ الكثيرين في أنحاء العالم من مأساة الشلل .

وسيبقى اسم العالم « ألبرت سابين » مرتبطا بتوصله إلى إنتاج لقاحات ضد حمى الدنج والالتهاب السحائي ، ودراسته دور الفيروسات في مرض السرطان . توفي « سابين » في ١٩٩٣ عن عمر يناهز ٨٦ سنة . وأدت أبحاث « دونالد هندرسون » إلى تحديد أماكن نشوء مرض الجدري ، مما أدى إلى القضاء على هذا المرض بصورة كبيرة خلال القرن العشرين .

عالمة الحيوان « راشيل كارسون » المولودة في سبرينجديل بوادي أليجني في ١٩٠٧ ، كانت أول من نبه لمخاطر المبيد الحشري المعروف باسم « دي . دي . تي » على الكائنات الحية وعلى الحياة النباتية ، ولها كتاب شهير بعنوان « الربيع الصامت » (١٩٦٢) يحكي قصة إبادة الطيور بالمبيدات الحشرية . « كارسون » توفيت في أبريل ١٩٦٤ .

أما العالم الفرنسي « چاك إيف كوستو » (١٩١٠-١٩٩٧) ، فهو معروف بأنه كان بحارا ومستكشفا ومخترعا ومؤلف كتب ، ومنتجا سينمائيا نال جائزة الأوسكار .

اخترع « كوستو » الرئة المائية في ١٩٤٣ ، التي مكنت الإنسان من الغوص إلى أعماق المحيطات . ولقد أبحر في ١٩٥١ بسفينته الاستكشافية « كاليبسو » للكشف عن شعاب المرجان في البحر الأحمر .

ومن المحيطات إلى الفضاء ، حيث يبرز اسم العالم الإنجليزي المقعد « ستيفن هوكنج » المولود في مدينة أكسفورد في ١٩٤٢ ، الذي وضع كتاب « تاريخ موجز

للزمن » (١٩٨٨) الذي قدم رؤية متكاملة للفضاء والكون . هذا العالم المصاب بداء لوجيريج الذي يدمر جهازي الأعصاب والعضلات تدريجيا ، تمكن على الرغم من فقدانه القدرة على الكتابة والنطق من نيل درجة الدكتوراه من جامعة كامبريدج في ١٩٦٦ ، ثم عين أستاذا في الفيزياء التجاذبية في ١٩٧٧ ، وشغل المقعد الأكاديمي المرموق الذي كان يشغله العالم السير إسحق نيوتن كأستاذ في الرياضيات ، وذلك في ١٩٨٨ . ومن أهم دراساته تلك التي تتناول نظرية « الانفجار الكبير » للكون ، خلال مرحلة التكوين في ١٩٦٠ ، وإعلانه أن « الثقوب السوداء » تبث إشعاعات ، وليست مجرد نجوم ميتة ، كما كان شائعًا من قبل .

وقد شهد القرن العشرون وضع أسس لاكتشافات مهمة في مختلف أفرع العلم منها الكيمياء ، مثل استخلاص عنصر الفلور سنة ١٩٠٦ ، وفصل الكولوروفيل في ١٩١٥ ، وتصنيع الأمونيا في ١٩١٨ . وفي ١٩٤٤ تم اكتشاف الانشطار النووي للذرات . في مجال الغذاء وضع الفنلندي « آرتوري إلماري فيرتانين » (١٨٩٥-١٩٧٣) أول نظام لحفظ الغذاء ، كما أسس علم كيمياء الغذاء ، ونال جائزة نوبل في الكيمياء نتيجة لإسهاماته في هذا المجال .

وفي ١٩٦١ ، فسر الأمريكي « ميلفن » أسس التمثيل الضوئي للنبات ، وفي ظل أزمة تآكل طبقة الأوزون تمكن ثلاثة علماء من هولندا والمكسيك والولايات المتحدة من حل ذلك الغموض ، وحصلوا على جائزة نوبل في الكيمياء في ١٩٩٥ .

وبداية جوائز نوبل للكيمياء نالها الفيزيائي الهولندي « چاكوبس فانت هوف » ، الذي نال الجائزة في ١٩٠١ ؛ نظرا لإسهاماته في مجال الضغط الاسموزي في المحاليل واكتشافه قوانين الديناميكا الكيميائية ، تلاه العالم الألماني « فيشر » في ١٩٠٢ تقديرا لأبحاثه في مجال السكريات وتصنيع مركبات البيورين . ثم جاء الكيميائي السويدي « أوجست أرينيوس » في ١٩٠٣ ، ليدرس التواصل الكهربي لمحاليل الأحماض ، ويضع نظرية جديدة لقياس نسبة تفكك الإلكترونات . وفي ١٩٠٤ حصل « وليام رمزي » على الجائزة لاكتشافه الغازات الخاملة . وتعد الولايات المتحدة صاحبة نصيب الأسد من جوائز نوبل للكيمياء ؛ إذ نالتها ٣٩ مرة ، تلتها إنجلترا ٢٦ مرة ، وألمانيا ٢٥

مرة ، وكل من فرنسا وكندا خمس مرات . من جهة أخرى ، لم تفز روسيا بالجائزة سوى مرة واحدة في ١٩٥٦ ، حين وضع العالم « نيقولاي سيرجينوف » الأسس الميكانيكية في التفاعلات الكيميائية .

علماء عرب

وكانت التجارب السابقة التي أجراها « فانت هوف » عن علاقة المواد والتفاعلات الكيميائية مدخلا لعلم نهاية القرن : « الفيمتو كيمياء » الذي يتابع حركة الذرات داخل التفاعل الكيميائي بسرعته نفسها وفي الزمن نفسه . أي أن العلم الذي أسسه « فانت هوف » استكمله عديد من العلماء ، وآخرهم العالم المصري الدكتور « أحمد زويل » الحائز على جائزة نوبل في الكيمياء لسنة ١٩٩٩ لدوره في الكشف عن «الفيمتو ثانية» . و « وزويل » المولود في ٢٦ من فبراير ١٩٤٦ ، الذي يعمل أستاذا للفيزياء الكيميائية في معهد كاليفورنيا للتقنية في باسادينا في الولايات المتحدة ، ليس سوى حلقة ضمن سلسلة العلماء العرب ، ومن بينهم العالم المصري الكبير الدكتور « علي مصطفى مشرفة » (٢١ من يوليو ١٨٩٨-١٩٥٠) ، الذي وضع أكثر من ١٥ مؤلفا علميا عن النسبية والرياضة البحتة والذرة وغزو الفضاء ، كما أجرى عديدًا من البحوث العلمية المبتكرة في نظرية الكم ، والبحوث المتعلقة بالذرة وتركيبها ومخاطرها .

ويطلق على عالم الكيمياء المصري الكبير « أحمد رياض تركي» (١٩٠٢-١٩٧١) لقب « أبو الكيمياء » ؛ فقد حصل على الدكتوراه من جامعة ميونيخ الألمانية ، وله نحو ٢٥٠ بحثًا في مجال الكيمياء ، وتقلد مناصب علمية عديدة ، وأشرف على ترجمة المعجم العلمي المصور ، كما كان أول عربي يحصل على عضوية أكاديمية العلوم في روسيا . أما الطبيب الجراح « علي إبراهيم » (١٨٨٠-٢٠ من يناير ١٩٤٧) . . فقد كان رائد النهضة الطبية الحديثة في مصر .

ويعد الدكتور « يحيى المشد » من أبرز علماء الذرة في العالم العربي والعالم ، حيث سجل اسمه ضمن أفضل ٢٠ عالما للذرة في العالم . وقد توالت بحوثه في هذا المجال . وبعد حصوله على الدكتوراه من روسيا عمل لمدة خمس سنوات في كلية

التكنولوجيا في العراق ، حيث عين مشرفا على المشروع النووي العراقي ، إضافة إلى تعاونه مع وكالة الطاقة الذرية . إلا أن المخابرات الإسرائيلية اغتالته في غرفته في أحد فنادق العاصمة الفرنسية باريس في ١٩٨٠ ، في أثناء إيفاده لشراء معدات خاصة بالمفاعل النووي العراقي من فرنسا .

وتميز أيضا عالم الطبيعة « محمد عبدالمقصود النادي » المولود في ١٩١٨ ، الذي درس قوى الترابط في النويات المختلفة للذرة ودرس التفاعلات النووية التي تنشأ من قذف النويات المختلفة بجسيم الهليوم . الدكتور « محمد عبده » أستاذ ورئيس قسم الهندسة الميكانيكية والنووية وعلم الفضاء ، ومدير مركز بحوث البلازما والطاقة الاندماجية في جامعة كاليفورنيا ، صاحب مدرسة علمية مرموقة بفضل دراساته في مجال تعجيل إنتاج الطاقة من الاندماج النووي ، مع تقليل التكاليف والمساحة وحجم المفاعل للعشر . وقد اختير رئيسا لفريق البحوث في مشروع المفاعل الاندماجي الدولي ، الذي تموله الولايات المتحدة واليابان وأوروبا وآسيا .

والعالم المصري المهاجر الدكتور « عمر السيد الألفي » أستاذ الأمراض الوراثية وتحليل الكروموزومات ورئيس مؤسسة الوراثة في لوس أنجلوس في كاليفورنيا والأستاذ في جامعة جنوب كاليفورنيا ، من الأعلام البارزة في مجال تشخيص الأمراض الوراثية ، وهو بالمناسبة خريج كلية طب القاهرة في ١٩٤٩ .

ويعرف المهندس « حسن فتحي » (١٩٠٠ - ٣ من نوفمبر ١٩٨٩) بلقب « شيخ المعماريين العرب » ، وقد كرس حياته كلها لبناء القرى العصرية ؛ اعتمادا على عناصر البيئة ، ومستوحيا تصميماته من البناء العربي التقليدي الأصيل . فقد صمم ونفذ أكثر من ٤٠ مسجدا ومنزلا ، بالإضافة إلى ثلاث قرى أشهرها القرنة في الضفة الغربية من الأقصر ، ويعد كتابه « عمارة الفقراء » الذي صدر بالإنجليزية وترجم إلى ٢٢ لغة برنامجا مدروسا في الأعمال المعمارية ، التي تراعي الملامح الثقافية والاجتماعية والاقتصادية للمجتمع . وقد طبق ذلك من خلال تصميمه لمستوطنة شيدها بالطوب اللبن في نيو مكسيكو في الولايات المتحدة ، أثارت اهتماما كبيرا في الأوساط المعمارية الأمريكية .

ومن أشهر المعماريين العرب كل من المصريين : « فريد شافعي » ، الدكتور « سيد كريم » – الذي نال بكالوريوس العمارة من جامعة زيوريخ والدكتوراه في العمارة ، ثم عاد إلى مصر في ١٩٣٥ ، وخَطَّطَ وعَمَّرَ ١٦ مدينة عربية ، منها : بغداد الجديدة ، دمشق الجديدة ، جدة ، الرياض ، عمان ، العقبة – والمغاربة : « إيلي أزاجوري » – الذي درس في مدرسة الفنون الجميلة في باريس في الفترة بين ١٩٣٦ و١٩٤٧ تحت رعاية « أوجست بيريه » ، وأسهم في إعادة إعمار مدينة أغادير ، التي دمرتها الزلازل في ١٩٦٠ – و « عبد السلام فراوي » (المولود في ١٩٢٨ في القنيطرة) ، وشريكه في عديد من المشروعات المعمارية « باتريس دي مزيير » (المولود في ١٩٣٠ في الرباط) ، والعراقيين : « محمد صالح مكية » (المولود في ١٩١٧) – الذي درس في إنجلترا ، وأسهم في تخطيط مدينة بغداد ، وصمم جامع الخلفاء في العاصمة العراقية والجامع الكبير في الكويت ، وكان المؤسس الرئيس لقسم الهندسة المعمارية في جامعة بغداد – و « رفعت الجادرجي » (المولود في ١٩٢٦) – الذي درس في مدرسة هامر سميث للفنون والحرف في بريطانيا ، وانتشرت تصميماته المعمارية في العراق والكويت والبحرين وأبوظبي – والأردني « راسم بدران » (المولود في ١٩٤٥) ، الذي درس في المدرسة الفنية العليا في دارمشتات في ألمانيا ، وصمم مدينة أبو غويلة بعمان في ١٩٧٩ ، ونادي الضباط في أبو ظبي ، ومنشآت أخرى في الكويت .

ثلاثة من أعلام مصر تم اختيارهم من بين ٢٠٠٠ من علماء ٨٠ دولة في موسوعة علماء القرن العشرين ، التي تصدر في إنجلترا ، هم : الدكتور « محمود مختار عبد الرحيم » (١٩٠٧ –) العميد الأسبق لكلية العلوم في جامعة القاهرة ، الذي أسهم في إنشاء أول مدرسة للبحث في علم ما فوق الصوتيات في مصر في ١٩٤٠ في جامعة القاهرة ، وأسهم في أول لجنة تكونت في مصر لإنشاء مؤسسة للطاقة الذرية وإدخال دراستها في كليات العلوم ، والدكتور « أحمد عبد الوهاب عبد الجواد » أستاذ علوم البيئة في جامعة الزقازيق ، الذي أنقذ مصر من وباء الكوليرا في ١٩٧١ ، والدكتور «محمد عامر » رئيس جامعة الزقازيق ، وله بحوث مهمة في مجال قهر مرض الجذام .

قائمة الشرف تضم أيضا العالم اللبناني الأصل السير « بيتر مدور » الذي نال جائزة نوبل في الطب سنة ١٩٦١ عن اكتشافه أسس الكبح المناعي ، ممهدا بذلك الطريق أمام عمليات زرع القلب ، و « محمد عبد السلام » الذي نال جائزة نوبل في الفيزياء ، والعالم اللبناني الأصل « إلياس خوري » الذي نال جائزة نوبل في الكيمياء عن أعماله في تركيب مواد طبيعية وصناعة أدوية منها ، والسير « مايكل عطية » الذي نال أعلى الجوائز في الرياضيات وتسنم أرقى المناصب العلمية في بريطانيا ، و « مصطفى شاهين » رئيس العلماء في مختبر «الدفع النفاث» التابع لوكالة الفضاء الأمريكية « ناسا » ، والدكتور « مصطفى كمال طلبة » الذي قاد برنامج الأمم المتحدة للبيئة فترة ١٨ سنة ، والدكتور « فخري البزاز » أستاذ الأحياء في جامعة هارفارد وعضو أكاديمية العلوم والفنون الأمريكية ، والدكتور « منير نايفة » أستاذ الفيزياء النظرية في جامعة إيلينوي في أربانا شامبين ، الذي ارتبط اسمه برصد وتحريك الذرات المنفردة ، والعالم اللبناني الأصل البروفيسور « جان مخول » ، المتخصص في تعليم أجهزة الكمبيوتر التخاطب مع البشر ، والذي طور « حيوانات افتراضية » في مختبر «ميديا لاب» الموجود في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا .

وفي مجال دراسة التخوم العلمية البعيدة ، يمكن الإشارة إلى عدد من الأعضاء العرب في الأكاديمية القومية للعلوم في الولايات المتحدة ، مثل « صالح الوكيل » الحائز على جائزة الكويت للتقدم العلمي ، الذي قال عنه بيان انتخابه عضواً في الأكاديمية القومية للعلوم في الولايات المتحدة إنه أحدث ثورة في علوم الطب ، و « مصطفى السيد » الحائز على جائزة الملك فيصل للعلوم عن أبحاثه الرائدة في الطاقة الشمسية ، و « رمزي قطران » مؤلف « أسس علم الأمراض » ، وهو الكتاب المقرر للتدريس في معظم كليات الطب ، وترجم إلى أكثر من ٤٠ لغة بينها الصينية واليوجوسلافية والفارسية ، و « مجيد كاظمي » رئيس قسم الهندسة النووية في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا . كما نذكر جراحي القلب الشهيرين السير « مجدي يعقوب » و « ذهني فراج » ، والدكتور « فاروق الباز » مدير مركز الاستشعار عن بعد في جامعة بوسطن الأمريكية وغيرهم الكثيرون .

الرغبــة والكبت

ويتعين أن نشير إلى إسهامات المحلل النفسي « سيجموند فرويد » (١٨٥٦-١٩٣٩) ، الذى يعد أول من فتح نافذة اللاوعى ، حيث اكتشف أن الرغبة والغضب والكبت تتنازع فيما بينها لتفرض سيطرتها على الإنسان ، وبذلك غير الطريقة التى نفكر بها فى أنفسنا . و « فرويد » المولود في ٦ من مايو ١٨٥٦ في بلدة فرايبرج في بروسيا الشرقية (النمسا حاليا) تخرج في كلية الطب في ١٨٧٨ ، ولم يعمل في مستشفى ، لكنه أخذ يكتشف ألغاز العلم ودرس الكيمياء وعلم الحيوان وعلم وظائف الأعضاء وعلم الأعصاب .

وفي ١٨٨٥ سافر إلى باريس حيث تتلمذ على يدي العالم «چان مارتان شاركو» ، الذي فتح أمامه آفاقا جديدة في الوظائف الداخلية للعقل البشري وفي الاضطرابات العصبية . الغريب أن رائد مدرسة التحليل النفسي وصاحب كتاب « تفسير الأحلام » الصادر في ١٩٠٠ كان يتعاطى الكوكايين ، ويضعه عادة داخل جيب معين! الأغرب من ذلك أن « فرويد » كان يعالج نفسيا ، كما جاء في كتاب طبيبه النفسي المعالج «ماكس تور» ، الذي قال إن « فرويد » استدعاه قبل وفاته بيوم ، وطلب منه إنهاء حياته بحقنة مورفين تلاها بأخرى ، ليتوفى في ٢٣ من سبتمبر ١٩٣٩ في لندن عن عمر يناهز ٨٣ سنة .

وأثرت أبحاث الفيلسوف وعالم النفس السويسري « چان بياچيه » مجال دراسة المعرفة الإنسانية وطريقة تفكير الصغار . « بياچيه » (١٨٩٦-١٩٨٠) نشر أول ورقة علمية له في سنة ١٩٠٧ ، أي عندما كان في العاشرة من العمر . وفي ١٩٢٠ ، وبعد أن نال درجة الدكتوراه في علم الحيوان ، بدأ دراسته لعلم النفس لدى الأطفال ، ونشر في سنة ١٩٢٣ أول كتاب من أصل ٦٠ كتابا في هذا الموضوع . في ١٩٢٩ ، عين «بياچيه» مديرا للمكتب الدولي للتعليم ، وأسس في ١٩٥٥ مركز المعرفة الوراثية .

ونشر عالم النفس الفرنسي « ألفريد بينيه » أول اختبار موحد لقياس الذكاء الإنساني سنة ١٩٠٥ ، لكن أستاذ علم النفس الأمريكي « لويس تيرمان » الذى يعمل

فى ستانفورد هو الشخص الذى فكر فى تقسيم الاختبار لقياس العمر العقلي للشخص المختبر ، من خلال نتائجه في الاختبار ، ومقارنتها بعمره الزمنى للحصول على رقم سماه معدل الذكاء ، ويرمز له بـ IQ . رأى « تيرمان » أن اختبار الذكاء يجب أن يكون هدفه تصنيف تلاميذ المدارس حسب ذكائهم ، ليتم ضم كل واحد منهم إلى المستوى الدراسي المناسب له ، وتخصيص رعاية إضافية للذين يحتاجونها منهم ، غير أن مقياس الذكاء لم يستخدم دائما في الهدف الذي وضع من أجله . ففي ١٩٢٧ ، واعتمادا على نتائج قياس معدلات الذكاء حسب مقياس « تيرمان » ، أقر القاضي « أوليفر وينديل هولمز » القرار الحكومي بمنع الذين لايحققون معدل ذكاء مقبول من الإنجاب ، وهو القرار الذي أصدرته المحكمة الأمريكية العليا في تلك السنة تحت شعار غريب هو : « يكفينا ثلاثة أجيال من المتخلفين حتى الآن » . وفي ١٩٧١ ، حظرت المحكمة الأمريكية العليا استخدام مقياس الذكاء في مجال التوظيف .

ولم يستخدم مقياس الذكاء استخداما جادا حتى اندلاع الحرب العالمية الثانية ، عندما اعتمده الجيش الأمريكي رسميا لاختبار مستوى ذكاء ١,٧ مليون متطوع أمريكي، واعتبرت تلك الخطوة أول اختبار جماهيري للذكاء باستخدام مقياس «تيرمان» ، ويمكن عزو جميع اختبارات الذكاء التي تجرى حتى اليوم إليها .

أما البولندية الأصل «مانيا سكلودوفسكا» ، التي عرفها العالم باسم «ماري كوري» (١٨٦٧-١٩٣٤) فقد نالت جائزتي نوبل : الأولى في الفيزياء سنة ١٩٠٣ مع زوجها «بيير كوري» ، والفرنسي أنطوان هنري بوكريل لاكتشافهم الراديوم ، والثانية في الكيمياء سنة ١٩١١ بعد أن نجحت في عزل الراديوم النقي .

ومن المخترعات الشهيرة خلال القرن العشرين « الترموس » الذي ابتكره الألماني « رينولد بيرجر » في ١٩٠٣ . أما مواطنه المهندس النووي « هانز جايجر » (١٨٨٢-١٩٤٥) فقد توصل - بالتعاون مع النيوزيلندي « إرنست راذرفورد » (١٨٧١-١٩٣٧) - في ٧ نوفمبر ١٩٠٨ إلى عداد « جايجر » ، الذي يقيس الإشعاع النووي . وفي ١٩٢٨ ، تولى « جايجر » و «دبليو موللر » تحسين وتطوير هذا العداد . ونال الكولونيل الأمريكي « چاكوب شيرك » براءة اختراع أول ماكينة حلاقة كهربائية ،

والتي طرحت في الأسواق في ١٩٢٣ . وتمكن « چورچ جرانت » من تصميم ولاعة السجائر « زيبو » المقاومة للهواء في الولايات المتحدة في ١٩٣٢ ، بينما اكتشف « وارين ألفين ماريزون » الكوارتز الذي سارع اليابانيون إلى استخدامه في صناعة الساعات في ١٩٦٥ .

وتمكن « والت ديزني » (٧ ديسمبر ١٩٠١-١٥ ديسمبر ١٩٦٦) من إلهاب خيال الصغار والكبار علي حد سواء ، بفضل رسوماته وشخصياته المبتكرة في عالم الرسوم المتحركة ، التي تحولت بمرور الزمن إلى علامة تجارية مسجلة ترمز إلى الفن كوسيلة للترفيه .

أجرى الأمريكي « چون جيبون » في ١٩٥٣ أول جراحة لقلب مفتوح ، بينما دشنت الولايات المتحدة في السنة التالية أول غواصة تعمل بالطاقة النووية . ووضع الفرنسي « چان دو جوشيه » أول خريطة للجينات البشرية في ١٩٧٥ ، وهي السنة التي شهدت اكتشاف الأجسام الضدية Antibodies ، التي تعتبر « طلقة سحرية » للعثور على المضادات Antigenes التي تسبب المرض . وفي ١٩٧٨ ولدت « لويز براون » أول طفلة أنابيب في العالم ، بينما ظهر مرض الإيدز (مرض نقص المناعة المكتسب) في ١٩٨١ ، في مفارقة عبثية بين البحث عن الحياة والصراع مع الموت . وشهدت سنة ١٩٨٣ نجاح الباحثين الفرنسي « لوك مونتانييه » ، والأمريكي « روبرت جالو » في عزل الفيروس الذي يسبب مرض الإيدز . وفي ١٩٨٠ أعلن عالم الفيزياء « لويس ألفاريز » (١٩١١-١٩٨٨) نظرية تفسر اندثار الديناصوزات نتيجة اصطدام جسم فضائي بالأرض .

والاختراعات والاكتشافات التالية كان لها حضورها خلال القرن العشرين : مكيف الهواء (كاريير ، الولايات المتحدة ، ١٩١١) ، مصباح النيون (كلود ، فرنسا ، ١٩٠٩) ، الغسالة الكهربائية (فيشر ، الولايات المتحدة ، ١٩٠١) المغسلة العامة (كانتريل ، الولايات المتحدة ، ١٩٣٤) ، المكنسة الكهربائية (سبانجلر ، الولايات المتحدة ، ١٩٠٧) ، الستانلس ستيل (بريرلي ، إنجلترا ، ١٩١٦) ، الدبابة الحربية (سوينتون ، إنجلترا ، ١٩١٤) ، الطيار الآلي للطائرة (سبيري ، الولايات المتحدة ،

١٩١٢) ، المحرك النفاث للطائرة (أوهين ، ألمانيا ، ١٩٣٩) ، حبوب منع الحمل (روك بنكوس ، الولايات المتحدة ، ١٩٥٤) ، الأقراص المهدئة « فاليوم » (ستيرنباخ ، الولايات المتحدة -من أصل بولندي ، ١٩٦٣) ، الفيبرجلاس (أوينز- كورنينج ، الولايات المتحدة ، ١٩٣٨) ، الهليكوبتر (إيجور إيفان سيكورسكي ، الولايات المتحدة - من أصل روسي ، ١٩٣٩) ، سبراي الأيروسول (روتايم ، النرويج ، ١٩٢٦) ، بطاقة الائتمان الذكية (رولان مورينو ، فرنسا ، ١٩٧٤) .

وفي حين اخترعت شركة « فيليبس » الهولندية أول جهاز لتسجيل الأشرطة الصوتية في ١٩٦٣ ، بعد أن ظهر التسجيل الصوتي المجسم « ستيريو » في ١٩٥٥ ، وصنعت الشركة الأمريكية « آمبيكس » أول جهاز تسجيل فيديو بالألوان في ١٩٥٨ ثم قدمت « سوني » اليابانية للعالم أجهزة أشرطة الفيديو في ١٩٦٩ ، واخترعت «فيليبس» قرص الفيديو المدمج في ١٩٧٢ . القرص المدمج « سي دي روم » اخترعته شركة « هيتاشي » اليابانية في ١٩٨٤ ، وكان جهاز الأشرطة الصوتية المدمج من نصيب « سوني » اليابانية في تلك السنة . صنعت شركة « تكساس إنسترومنت » الأمريكية أول حاسبة جيب إلكترونية في ١٩٧١ ، وبعد ذلك بسنتين ابتكرت آلة تصوير المستندات بالألوان في كندا . وفي ١٩٥٣ اخترعت شركة فرنسية قدر الطبخ السريع «البريستو » ، واخترعت مختبرات شركة الهاتف الأمريكية « بيل » البطارية الشمسية في ١٩٥٤ .

وفي ١٩٥٥ ابتكرت العدسات اللاصقة من مادة بلاستيكية ، وظهرت في السنة نفسها الألياف الضوئية والحوامة البحرية « هوفر كرافت » . وفي ١٩٥٦ اكتشف عدد من الصبغيات « الكروموسومات » في جسم الإنسان ويبلغ ٢٣ زوجا ، ثم ابتكرت تقنية « دمغة الأصابع » الجينية في ١٩٨٤ . كما أجري في ١٩٥٦ أول استخدام للطاقة النووية من أجل توليد الكهرباء وذلك في بريطانيا ، ووضعت لغة الكمبيوتر «فورتران» . وأطلقت الصواريخ الباليستية عابرة القارات في الاتحاد السوفيتي السابق في ١٩٥٧ ، كما اخترع جهاز منظم ضربات القلب Pacemaker .

وفي ١٩٥٧ أيضا ، أجرى الفرنسي « چورچ ماتيه » أول عملية زرع ناجحة لنخاع شوكي . ونجحت أول عملية لزرع كبد بشري ورئة بشرية في ١٩٦٣ ، ثم اكتشفت الألياف الكربونية في السنة التالية . وفي ١٩٦٧ أجرى الدكتور « كريستيان برنارد » من جنوب إفريقيا أول جراحة ناجحة لزرع قلب بشري ، في حين أسهم الجراح اللبناني « ندى حكيم » سنة ١٩٩٨ في أول عملية ناجحة لزراعة ذراع بشرية . وفي ١٩٩٨ أيضا تمت تربية خلايا الأرومة في المختبرات ؛ الأمر الذي يفتح الطريق أمام تنمية أعضاء وقطع غيار بشرية . وفي ١٩٨١ استخدم جهاز الفحص الطبي بالصدى المغناطيسي (المرنان) ، وفي السنة التالية اخترع القلب الاصطناعي ، وظهرت طابعة الليزر .

وعرف الأمريكيون مشروب الكوكاكولا في ١٩٠٠ ، لكن شكل الزجاجة المعروف حاليا ظهر في ١٩١٦ ، لتصبح الكوكاكولا أحد رموز الحضارة الأمريكية وأحد أبرز أشكال العولمة .

* * *



كهوف لاسكو الأثرية المدهشة



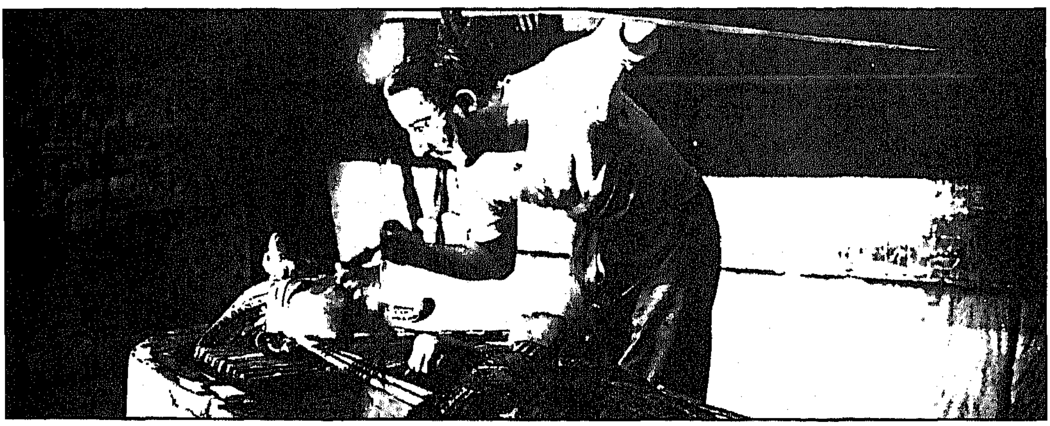
الجيش الصيني المدفون تحت الرمال

11

زيـارة إلى التـاريخ

في الوقت الذي كان فيه إيقاع القرن العشرين يسير بسرعة مذهلة نحو مزيد من التقدم العلمي ، كانت الكشوف الأثرية والتاريخية تميط اللثام عن تاريخ موغل في القدم للإنسانية . . تاريخ تمت إزالة الغبار عنه بعد استخراجه من تحت الرمال ، لنطل من خلاله على قصص وحكايات مذهلة عن تاريخ البشر وحضارات الأمم .

ومن مقبرة « توت عنخ آمون » ، وأسرار أبي الهول ، إلى حضارة "إبله" المنسية في حوض الفرات ، والجيش المدفون تحت الرمال للإمبراطور الذي وحد الصين ، مروراً بكهوف الرسوم الجدارية في فرنسا



هوارد كارتر داخل مقبرة توت عنخ آمون

وإسبانيا . . اكتشفنا المزيد من تاريخ العالم ، الذي كان يضع قدميه على طريق المستقبل ، بينما عيناه على تاريخ وآثار إنسان ما قبل التاريخ !

ويتعين أن نشير إلى جهود عدد من علماء الآثار في مصر ، الذين شاركوا في البحث والتنقيب عن عديد من كنوز الحضارة الفرعونية ، وفي مقدمتهم الدكتور «سليم حسن » صاحب موسوعة « مصر القديمة » ، والدكتور « أحمد فخري » ، والدكتور « زاهي حواس » .

في ٢٥ نوفمبر ١٩٢٢ وقع حدث تاريخي مهم ، زار فيه العالم مرة أخرى تاريخ قدماء المصريين ، فقد ظل البريطاني « هوارد كارتر » لمدة ١٥ سنة ينقب في وادي الملوك بحثا عن كنزه الثمين . وأخيرا نجح في التاريخ المذكور آنفا في تحقيق حلمه بطريق المصادفة ، حين اكتشف أعضاء فريقه الأثري إحدى الدرجات الست عشرة المؤدية إلى مقبرة « توت عنخ آمون » ، الذي حكم كفرعون لفترة قصيرة خلال القرن الرابع عشر ق .م ، لكنه توفي قبل أن يبلغ العشرين من العمر .

وبمجرد أن اقترب « كارتر » من كشفه الأثري المهم ، أدرك أنه لم يكتشف فقط مقبرة « توت عنخ آمون » المتوفى في سن الثامنة عشرة ، وإنما عثر أيضا على أغراض وحاجيات هذا الفرعون الشاب من أكواب ومجوهرات ومواد أخرى .

وفي مقبرة الملك « توت » عثر على نماذج وتماثيل لحيوانات وسبائك ذهبية وثروات عديدة أخرى ، أدهشت فريق الكشف الأثري ، أما القناع الذهبي الشهير الذي يغطي رأس « توت عنخ آمون » فقد كشف إلى أي مدى برع قدماء المصريين في مجال الفن ، إضافة إلى أن ذلك عكس ثرواتهم وكنوزهم التي أدهشت العالم أجمع على مدى آلاف السنين .

إن مقبرة « توت عنخ آمون » ليست سوى رمز لحضارة عريقة ، عاشت وتحدت عناصر الزمن وظروف الطبيعة وبقيت على حالتها بكامل رونقها وبهائها ، لتظل شاهدا على حضارة قدماء المصريين ، أولى حضارات العالم أجمع .

مقابر أبي الهول

ولعل أقدم قبور جبانة الجيزة مصطبة كبيرة من زمان الأسرة الأولى ، موقعها على مسيرة ٥ ,١ ميل تقريبا إلى الجنوب الشرقي من الهرم الأكبر ، كشف عنها « برزيتي » سنة ١٩٠٤ ، وخلال عقد العشرينيات من القرن الماضي كشف المهندس« باريز » ، خلال تنقيباته حول أبي الهول ومعبده ، عن بعض آثار مهمة تضم لوحات من العصر الإغريقي الروماني ، وقطعة من الحجر الجيري يظهر أنها جزء من طنف ، نقشت عليه خراطيش « رمسيس الثاني » ، وبعض ودائع الأساس من معبد « أمنحتب » ، الذي لم يكن قد كشف عنه آنذاك .

وودائع الأساس تشمل عادة آلات نموذجية ، وأدوات وأواني حقيقية أو قرابين نموذجية ، وعينات صغيرة للمواد التي تستعمل في البناء ، وعدة لوحات مكتوب عليها اسم صاحب البناء . وكانت هذه الأشياء تدفن في حفرة صغيرة في أحد أركان أساس المعبد أو القبر على رقعة من الرمل النقي ، وكان الغرض من تلك العادة أن يحظى المعبد بطريقة سحرية بمدد ، لا ينفد من المواد اللازمة لصيانة المبنى الذي وضعت فيه .

وكشف « باريز » عن ثلاث لوحات من مجموعة نصبها « تحتمس الرابع » ، ولوحات أخرى متنوعة ، كما كشف أيضا عن مجموعة من النذور ، تتمثل في دمى أبي الهول مصنوعة من الحجر الجيري والجص ملونة باللون الأحمر ، والظاهر أن هذا اللون كان اللون التقليدي لتمثال أبي الهول . كما قام « باريز » بتنظيف بعض أجزاء المعبد الكبير من أيام الأسرة الرابعة ، والواقع أمام تمثال أبي الهول .

وفي النصف الثاني من عقد التسعينيات ، كشف عالم الآثار « كنت ويكس » ، الأستاذ بالجامعة الأمريكية في القاهرة ، عن مقبرة ضخمة تضم أسرة « رمسيس الثاني » ، من أبناء وبنات ، أمراء وأميرات . هذه المقبرة المدهشة تضم عشرات الغرف وفق نظام هندسي مازال محل بحث ودراسة ؛ لنعلم سر عبقرية قدماء المصريين .

وتتويجا لبحث بدأ سنة ١٩٩٦ ، ضم علماء في الآثار البحرية والفيزياء الجيولوجية في خليج أبو قير ، أعلن العالم الفرنسي « فرانك جوديو » في يونيو ٢٠٠٠

أنه تم اكتشاف مدينتي مينوثيس وهيراقليون ، اللتين غرقتا بالقرب من ساحل الإسكندرية قبل ما يزيد على ألف سنة . ورجح العلماء أن تكون زلازل قوية وراء الدمار الذي أصاب المدينتين ، اللتين عثر فيهما على صفوف من الأعمدة وقد سقطت في اتجاه واحد ، في دلالة واضحة على تحول زلزالي . كما عثر على قطع أثرية للحياة اليومية ، تضم عددا كبيرا من النقود الذهبية والمجوهرات المبعثرة ، بما يوحي بأن شيئا ما مفجعا ومفاجئا أغرق المدينتين قرب نهاية القرن الثامن بعد الميلاد . وباستخدام أجهزة مراقبة للنشاط الزلزالي لمعرفة هيئة قاع البحر المطمورة تحت الطمي ، تمكن فريق الباحثين في نهاية المطاف من العثور على أنقاض كبيرة تخلفت عن المدينتين ، وتمكن الغواصون من رفع آثار منها تمثال من الجرانيت الأسود طوله ٥ , ١ مترًا لإيزيس منحوت بشكل بديع . وتشير سجلات مطلع التاريخ إلى أن هاتين المدينتين كانتا حلقة وصل للتجارة بين مصر وبلاد الإغريق ، وبقية بلدان البحر المتوسط آنذاك .

كشف بالمصادفة

وفي ١٢ سبتمبر ١٩٤٠ ، اكتشف أربعة مراهقين ، كانوا يتنزهون مع كلبهم بالمصادفة ، كهفا في وسط فرنسا ، يعد من أحدث مكتشفات فن الكهوف ، التي تعود إلى العصر الحجري القديم . كانت جدران هذا الكهف تضم معرضا فنيا من الرسوم الشهيرة للحيوانات يعود تاريخها إلى نحو ١٥ ألف سنة . شمل هذا « المعرض التاريخي » رسوما لثيران حمراء يبلغ ارتفاعها عشرة أقدام ، وأحصنة تتقافز في الهواء ومجموعة أخرى من الحيوانات ، قيل إنها ربما ترمز إلى طقوس سحرية لمساعدة الرسامين في صيد هذه الحيوانات .

معظم الحيوانات المرسومة في كهف « لاسكو » هي من الثور البري (الأرخص) أو الجاموس الأوروبي الذي انقرض في بولونيا في القرن السابع عشر ، وقد رسمت بحيث تبدو للعيان القوائم الأربعة والقرنان .

ويقتصر فن الكهوف على منطقة صغيرة في فرنسا وإسبانيا : وادي الدوردوني وجبال البيرينيه العليا والجبال الكنتابرية . تم تعرف أكثر من مائة كهف تشتمل على

مواقع شهيرة ، مثل : لاسكو ، ألتاميرا ، « الإخوة الثلاثة » ونشبان وفون دي جوم ، لكن يصعب تحديد تاريخ هذه الكهوف ورسومها إلا بالنسبة إلى عدد قليل منها . والفن الموجود في روفنياك مازال موضع شك منذ زمن طويل .

وعلى أساس الأدلة الحالية ، يبدو أن أقدم موقع هو لافيراسي ، حيث عثر على صخور مرسومة ، تنتمي إلى مراحل الحضارة الأورنياشية العائدة إلى ما قبل نحو ٢٩ ألف سنة .

هناك حضارة أخرى ظهرت أيضا في منطقة فن الكهوف نفسها هي الحضارة الصولوترية القصيرة الأمد ، التي تميزت بأعمالها الصوانية الرائعة ، ففيها نماذج فنية في « صخرة سير » المعروفة . كذلك ترك لنا طور أخير من العصر الحجري القديم ، هو العصر المجدلاني -الذي قام على صيد الوعول في أوروبا الغربية- رسوما متعددة الألوان مدهشة في ألتاميرا شمالي إسبانيا ، وقد اعتقد البعض أن معظم مواقع فن الكهوف ترقى إلى هذه الحقبة المتأخرة . وكان « مرشلينو دي ساوتولي » المتوفى سنة ١٨٨٨ قد اتهم بتزوير الرسوم المكتشفة في ١٨٧٥ عن هذه الحقبة القديمة من العصر الحجري القديم . وهو الرجل الذي اكتشف قاعات التاميرا الكبرى ، ولم يضطر المشككون إلى التراجع عن اتهاماتهم ، حتى اكتشفت رسوم أخرى في الموقعين الفرنسيين في « بير ـ نون ـ بير » و« لاموت » ، وقد غطتها رواسب حضارية أخرى ترقى إلى العصر الحجري القديم .

أما الرجل الذي برهن في النهاية على وجود فن العصر الحجرى القديم ، فهو الأب « هنري بروي » (١٨٧٧-١٩٦١) . تكاد الأدلة المتعلقة بفن العصر الحجري الأول تقتصر على أوروبا الغربية ، مع أنه توجد بعض المواقع المنعزلة مثل كابوف في جبال الأورال بروسيا ، ولفنسو في صقلية ، وبلديبي ويلباس في تركيا . كما توجد آثار كثيرة من فن الصخور التقليدي في ظفار في سلطنة عمان ، وفي إفريقيا الشمالية والصحراوية ، في أماكن مثل هضبة تاسيلي في الجزائر . وفي الموقع الأخير ، توجد رسوم على الصخر مصورة بالألوان الخالصة ، يرمز أحدها إلى رجلين راكضين مع الاهتمام بإبراز الزينة التي تغطي جسميهما وأعضائهما ، ويرجح أن هذه الزينة تمثل

طلاء الأجسام بأصباغ طبيعية ، على غرار ما يمارسه أهل النوبة في السودان حتى يومنا هذا ، وهذا يرجح أن فن طلاء الأجساد كان معروفا في العصر الحجرى القديم .

وفي ديسمبر ١٩٩٤ اكتشف ثلاثة رجال كهفا آخر ، يضم رسوما تعود إلى العصر الحجري ، وذلك في منطقة أرديشيه -جنوب شرق فرنسا- وسرت دهشة كبيرة في صفوف العلماء والخبراء ، حين أشارت اختبارات الكربون إلى أن هذه الرسوم الجدارية يعود تاريخها إلى ٣٠ ألف سنة ، أي ضعف عمر الرسوم التي عثر عليها سابقا في كهف « لاسكو » .

حضارة منسية

عرفت « إيبلا » - أو « إبله » - وحضارتها الزاهرة منذ عهد قريب ؛ نتيجة الحفريات الأثرية التي أجريت بين ١٩٦٤ و ١٩٧٥ في تل يعرف باسم تل مرديخ ، فقد كشف عن القصر الملكي فيه وعن كنز أثري مهم جدا ، هو مكتبته الضخمة المؤلفة من آلاف الرقم الطينية المكتوبة باللغة المسمارية .

لم تقرأ بعد معظم هذه الرقم أو اللوحات ، لكن ما قرئ أخيرا منها كشف عن الملك « أجريسي حليم » الذي أنشأ القصر الملكي سنة ٢٤٠٠ ق . م والملك « أرانيوم » (٢٣٤٠ ق . م) الذي أخضع بلدة ماري والملك أبيريوم (إبراهيم) ، الذي عاصر «سرجون» الأكادي وانهزم أمامه . كما كشفت الرقم أن "إبله" عرفت عهدين من الازدهار : الأول بين ٢٤٠٠و ٢٢٥٠ ق . م ، وكانت تحتل فيه المركز الثالث في الشرق الأدنى بين مصر وما بين النهرين ، ثم اصطدمت مع الأكاديين بسبب التجارة وهزمتهم . . ثم استطاع « نارام سين » الأكادي نحو سنة ٢٢٥٠ ق . م أن يفتحها ويهزم ملكها « أبي سيبش » ويجعلها خرابا بالحريق الذي لاتزال بعض آثاره واضحة .

على أن « إبله » استردت بالتدريج مكانتها بين ٢٠٠٠ق و١٨٥٠ ق . م ، أي في الوقت الذي برز فيه العموريون البابليون (شعب حمورابي) . ومن ملوك هذه الفترة الثانية « أبي فريكوك » ١٨٥ ق . م المعاصر لـ « حمورابي » . و بينت الرقم أن « إبله » شكلت إمبراطورية سيطرت على ما بين وادي الفرات حتى مدينة جبيل على الساحل السوري ، كما سيطرت على بلاد آشور قبل أن تدمر .

برزت مع « إبله » في فترة ازدهارها الأولى ثم بعد تدميرها سنة ٢٢٥٠ ق . م مملكة مدينة ماري ، التي بدأ اكتشاف آثارها على حوض الفرات الأوسط (قرب منطقة أبي كمال) منذ سنة ١٩٣٣ ، ولا تزال مستمرة قراءة النقوش الأثرية ، التي أوضحت أن ماري قديمة تتكون من عدة مدن ، عرفت بدورها مرحلتي ازدهار أولاهما في الألف الثالثة قبل عهد « سرجون » الأكادي ، والثانية في الألف الثانية ق . م .

وفي ١٩٧٦ ، اكتشف عالم الآثار العراقي « طه باقر » وثائق بابلية في موقع تل حرمل قرب بغداد ، تثبت أن سكان العراق القدماء عرفوا أول جداول الترقيم واحتساب الحجم والجذر التربيعي والتكعيبي ومعادلات الجبر قبل « إقليدس » بقرون عدة . وفي أبريل من سنة ١٩٨٩ اكتشف فريق من علماء الآثار العراقيين بقيادة «مزاحم محمود حسين» كنز نمرود ، الذي يعد من أهم الاكتشافات الأثرية في العصر الحديث . يضم الكنز المكتشف في مدينة نمرود الآشورية -التي انطفأ مجدها في ٦١٢ قبل الميلاد- نحو ٥٧ كيلوجرامًا من الذهب والمجوهرات كالأساور والتيجان والأقراط ، بعضها يجعل مصمم المجوهرات العالمي «فان كليف» يتوارى خجلا !

وتبين لاحقًا أن أغلب هذه المجوهرات تخص الأميرة الشابة « ياباهيا » ابنة الملك الآشوري المشهور « سرجون الثاني » ، بينما يعود بعضها الآخر إلى ملكة آشورية ، يرجح أن تكون زوجة الملك « آشور بانيبال » الذي عاش في القرن التاسع قبل الميلاد ، وأنشأ مدينة نمرود المعروفة في التوراة باسم « قلعة » .

وبينما كان « آرثر إيفانز » (١٨٥١-١٩٤١) ، عالم الآثار البريطاني ، يقوم بالحفريات في كنوسوس بجزيرة كريت من سنة ١٩٠٠ إلى ١٩٣٦ ، عثر على قصر فخم الزخرفة ، هو رائعة معمارية تدل على حضارة مبكرة ، تفوق في تميزها وتقدمها أي حضارة أوروبية قديمة أخرى اكتشفت حتى ذلك الحين . ومنذ ذلك التاريخ اكتشفت قصور أخرى مماثلة في فايستوس على يد الإيطاليين ، وفي ماليا على يد الفرنسيين ، وأخيرا في زاكروس على يد اليونانيين .

تشير هذه الكشوف الأثرية إلى الحضارة المينوية (نسبة إلى ملك كنوسوس الأسطوري) ، وتركزت في جزيرة كريت ، ولعلهم كانوا مهاجرين من بلاد الأناضول

أو -كما دلل بعضهم أخيرا- من فلسطين . تبين محتويات قبورهم المستديرة التي تكثر خاصة في سهل ميسارا ، أنهم كانوا على اتصال بالعالم الخارجي ، وأن اتصالاتهم أدت تدريجيا إلى قيام شبكة تجارية كبرى عبر شرقي المتوسط .

وخلال القرن العشرين ، عثر في منطقة الخليج العربي على عديد من الكشوف الأثرية : في جزيرة فيلكا بالكويت عثر على أعداد من المعابد والأبنية والتماثيل والأختام والنقود ، يعود تاريخها إلى ثلاثة آلاف سنة ق . م ، ونجد آثارا مماثلة في جزيرة تاروت وتلال مستوطناتها الهلينية بالإحساء ، وفي بلدة تاج الداخلية التي كشف فيها ، وبالقرب منها عن مدينتين ذواتي طابع سلوقي (خلفاء الإسكندر الأكبر) لإحداهما سور ضخم (٩٠٠م) ، بالإضافة إلى موقعي دارين والجرهاء المشهورين هناك .

أما في البحرين - وهي أهم المواقع الأثرية المكتشفة في الخليج - فإن ثمة مواقع عديدة اكتشفت من مملكة دلمون ، منها موقع بهار الذي وجدت فيه بقايا فخارية وأسلحة وتماثيل ومعابد وحلي ، ومنها قلعة البحرين التي كشف عندها عن ست مدن تنطبق بعضها فوق بعض ، أقدمها من الألف الثالثة ق . م ، ومنها تلك المدافن المنتشرة في شمال جزيرة البحرين ، والتي تزيد على مائة ألف مدفن من عصور مختلفة .

إذا تجاوزنا مواقع مماثلة اكتشفت في أم النار وهيلي (في الإمارات العربية المتحدة) إلى سواحل عمان ، فسنجد أن بعثات المسح الأثري كشفت على امتداد الوديان الكثيرة عن عشرات المستوطنات البشرية ، من الألف الثالثة حتى الألف ق . م ، معظمها قرى ذات بناء مركزي يحيط بها سور من الحجارة الضخمة .

الحفريات التي أجريت سنة ١٩٥٠ في موقع تمنع عاصمة دولة قتبان في اليمن (تمنع هي هجر كحلان اليوم في ليجان) أخرجت بعض المخربشات ، التي ترجع بدء هذه الدولة إلى القرن الـ ١١ أو١٠ ق . م . حكم قتبان ملوك بلقب « مكرب » منذ القرن السابع ق . م . في القرن الرابع كانت قتبان تسيطر على الشريط الساحلي ما بين باب المندب إلى ماوراء عدن . . وبلغت ذروة قوتها في القرن الأول الميلادي تحت

ضغط دولة حمير ، وأحرقت عاصمتها ، ولا تزال في آثارها بقايا الحريق . أقام القتبانيون عاصمة جديدة لهم بعد ذلك ، ولكنهم سرعان ما انضووا تحت لواء سبأ .

مدينة الشمس

مملكة عربايا (الحضر) وهي واحة قديمة جنوب الموصل بالعراق ، لم تصبح معروفة إلا بعد أن تناولتها الحفريات الأثرية سنة ١٩٥١ ، بعد دراسة قيمة كتبتها عنها بعثة أثرية ألمانية سنة ١٩١٢ . أخذت هذه المملكة - شأنها شأن مملكة تدمر الشهيرة - في الازدهار منذ القرن الأول للميلاد ، كمركز عسكري على الحضر ، مع تزايد الحركة التجارية عبرها ، وحكمت فيها سلالة عربية أكثر من ثلاثة قرون ، بدأت بأمير عربي اسمه « سنطروق » (يدعى لدى العرب : الساطرون) ، وكان يلقب بملك العرب .

عرفت المملكة - كما ذكرنا - باسم عربايا ، ووصفت بأنها مدينة الشمس ، وكانت ضمن النفوذ الفارسي شبيهة تدمر بالنسبة لروما . اشتهرت الحضر أيضا بالقوة الحربية ؛ فقد صدت « سبتميوس سيفروس » في اقتحامها سنة ١٩٨-١٩٩م ، بعد أن واجهته بقذائف نارية ، عرفت بالنار الحضرية وبأقواس مبتكرة .

بعد هذه المعركة استقلت الحضر عن النفوذ الفارسي ، لكن ظهور الأسرة الساسانية واستيلاءها على العراق سنة ٢٢٠ جعلا أهل الحضر يواجهون الساسانيين ويحالفون الرومان ، ولم يستطيعوا المقاومة طويلا ؛ لأن « شابور الأول » حاصرها سنة كاملة (٢٤٠-٢٤١) ، فلما دخلها تركها بعد النهب خرائب .

جيش مدفون

وفي مارس سنة ١٩٧٤ ، اكتشفت مجموعة من الهواة - وليس الخبراء المتخصصين - كنزا تاريخيا وأثريا له مكانته وأهميته . ومثلما هي الحال بالنسبة لمقبرة « توت عنخ آمون » ، كان هذا الكشف الأثري دليلا ومؤشرا على مدى ثراء ورفاهة الحاكم . إن جيش محاربي تبرا -كوتا الذي تم الكشف عنه في ١٩٧٤ قرب شيان وسط الصين ، كان شيئا مذهلا بكل المقاييس .

تم اكتشاف أول جندي على يدي مزارعين ، كانوا يحفرون بئرا ، ولكنهم عثروا فجأة على تمثال بحجم الإنسان العادي لمحارب يملك كامل مواصفات المحاربين في ذلك الزمان . وبدأ علماء الآثار والحفريات مهمة البحث والتنقيب ، على أمل استكمال هذا الكشف الأثري ، ولفرط دهشتهم عثروا على جيش كامل ، يضم أكثر من ٧٥٠٠ تمثال مصنوعة من الطين والفخار .

كل محارب من هؤلاء المحاربين كان مرتديا زيه العسكري وأسلحته المختلفة ، التي كانت متداولة آنذاك . وفي الأصل كان كل تمثال مطليا بألوان فاتحة ، غير أن التخزين الطويل لهذه التماثيل أدى إلى خفوت هذه الألوان؛ حتى كادت تختفي تماما .

هذا الجيش الضخم من الجنود يعود تاريخه إلى نحو ٢٢ قرنا من الزمان ، وأفراده كانوا مكلفين بأداء مهمة محددة ، تتلخص في حراسة القبر الملكي لكيان « شي هوانج دي » ، أول إمبراطور يوحد الصين . « هوانج دي » - كما تقول المراجع وكتب التاريخ - كان مفكرا عظيما ، فقد كان هو الذي بدأ بناء سور الصين العظيم ، أما قبره الإمبراطوري الذي ضم هذا الجيش الضخم . . فإن العلماء يرون أن ما اكتشف منه لا يزال جزءا من كل ، وأن البقية تأتي !

* * *



طابور البطالة خلال سنوات الكساد الكبير

تماما مثلما يقود العقل الجسد ، قاد الاقتصاد العالم خلال القرن العشرين .

هذا هو قرن « الكساد الكبير » واتفاقية « بريتون وودز » و« خطة مارشال » و« اليورو » و« الجات » و« وول ستريت » و« الاثنين الأسود » .

إنه قرن الذهب الأسود وإمبراطوريات الأثير والبورصات على الإنترنت ، والدور المتزايد لصندوق النقد والبنك الدوليين .

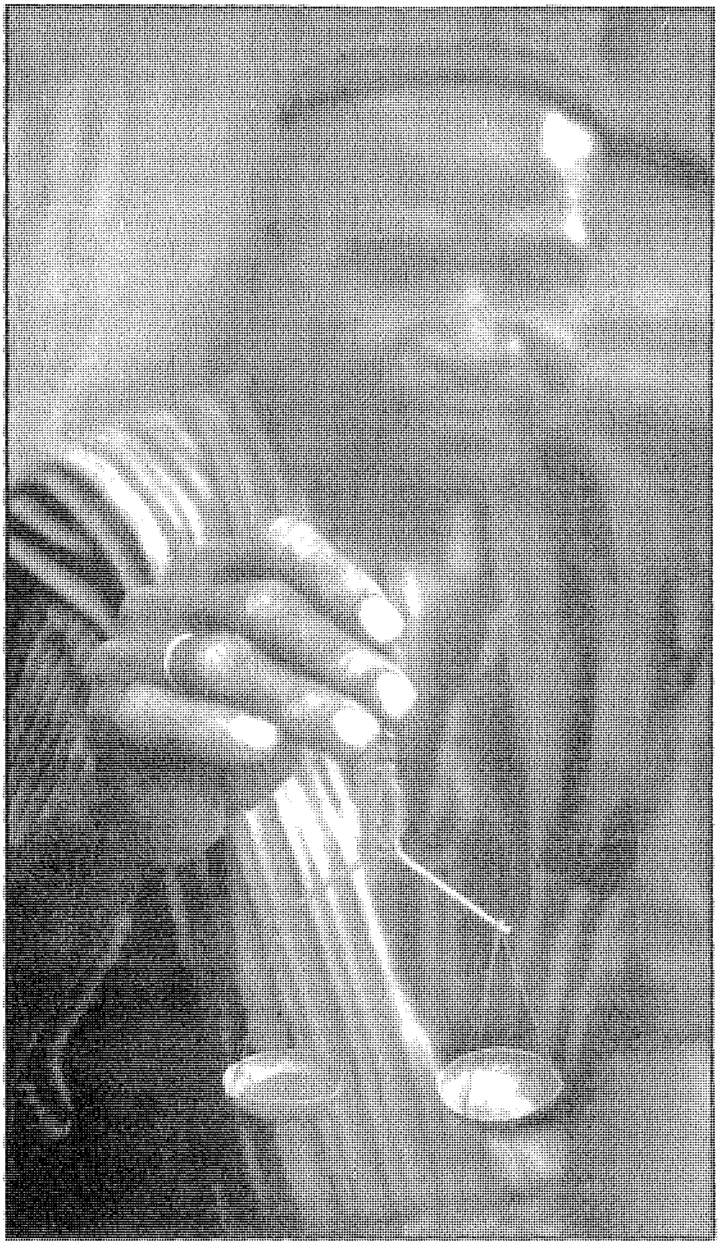
وفي عصر الخصخصة والتجارة الإلكترونية والتكتلات الاقتصادية «الكارتل» والأزمات الاقتصادية التي تهز الدول ،

12

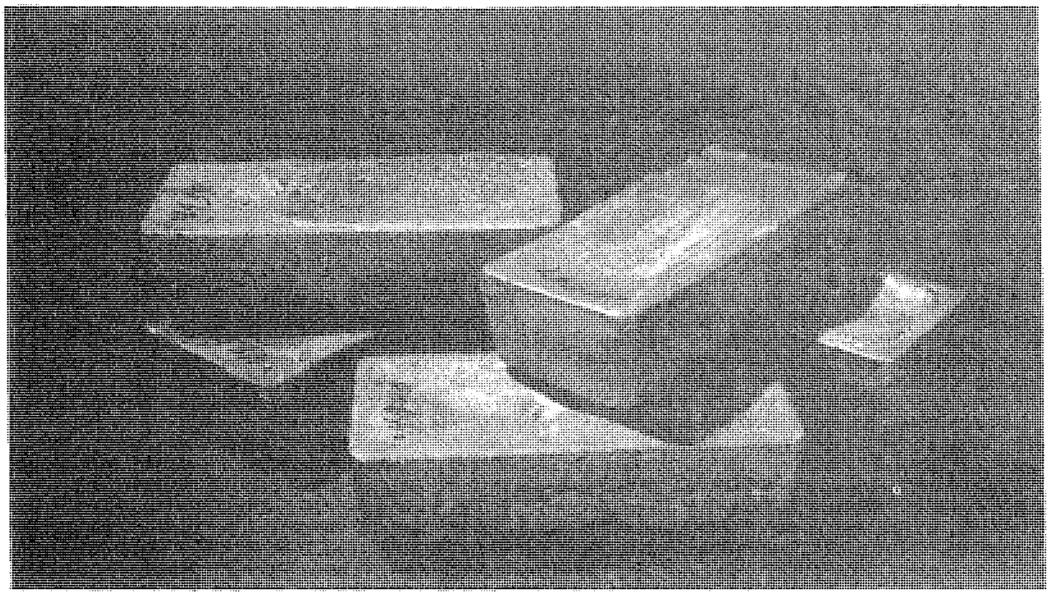
عصر بلا أموال



متظاهرون ضد اتفاقية « النافتا » للتجارة الحرة بين دول أمريكا الشمالية



الديون المتراكمة صداع في رأس إفريقيا



ولى عصر الذهب كمعيار مالي



جموع المتظاهرين ضد شركة عابرة للقارات

وغسيل الأموال عن طريق الأفراد والدول على حد سواء ، تبدو لغة المال والاقتصاد أعلى صوتا .

إن المال والاقتصاد هما الأب الروحي (وربما أيضا الابن الشرعي) لعصر العولمة ، والسيارات التي تحولت إلى خطوط إنتاج وشركات عملاقة ، والطائرات التي تخترق حاجز الصوت .

ونحن لا نجاوز الحقيقة حين نقول إن الاقتصاد كان القاطرة التي قادت أعوام القرن العشرين ، سواء في الولايات المتحدة أو روسيا - التي اهتزت الأرض من تحتها بسبب متاعب مالية - أوالصين ، التي حققت أعلى معدل للنمو الاقتصادى خلال السنوات الأخيرة من القرن الماضي ، أو دول الخليج أو البرازيل أو المكسيك أو شرقي آسيا .

نحن نتجه إذًا إلى . . عصر بلا أموال !

على مدار ١٠٤ دقائق من يوم ٤ أكتوبر سنة ١٩٢٩ ، اجتاحت موجة من الذعر حي المال والبيزنس في نيويورك ، لتقتل الثقة ، وتتسبب في حالة كسوف جزئي للرأسمالية ، امتدت آثارها نحو ٥٠ سنة تالية .

وفي غضون أقل من ساعتين ، أدى انهيار « وول ستريت » إلى حدوث صدمة أسفرت عن خسارة المستثمرين ٧٤ بليون دولار ، وإفلاس أكثر من ٤ آلاف بنك في غضون ثلاث سنوات . مهدت تلك الأجواء لحقبة « الكساد الكبير » ؛ الأمر الذي كان مواتيا لظهور دكتاتور من عينة « أدولف هتلر » كزعيم للحزب النازي الألماني ، يتطلع إلى الثأر من هزيمة ألمانيا في ١٩١٨ .

هذه الأحداث الثلاثة : الكساد ، والحربان العالميتان ، تعد من وجهة نظر خبراء الاقتصاد فترة عصيبة لها خصوصيتها ، أدت إلى ظهور العجز في موازنات عديد من الدول . وفي ظل الكساد الكبير ، انتشرت البطالة وارتفعت معدلات التضخم والجريمة ، وامتدت طوابير العاطلين الباحثين عن إعانة أو وجبة طعام متواضعة تسد الرمق ، بينما لجأ البعض إلى العنف والنهب للحصول على المال .

وفي فصول الارتباك والاضطرابات الاقتصادية خلال القرن العشرين يبرز حدث رابع له أهميته : في ١٩٧١ اضطرت السلطات الأمريكية ، مدفوعة بتنامي التجارة العالمية بدرجة مذهلة ، وتفريق القوة إلى التخلى عن العلاقة الثابتة بين الدولار والذهب .

طوال نحو ثلث هذا القرن ، تعايش العالم مع الأسعار الحرة ، التي تقوم فيها أسعار العملات محولة عبر الكمبيوتر والأقمار الصناعية بمعاقبة أو مكافأة الاقتصادات العالمية الكبرى ، سواء من جهة وزارة الاقتصاد أو البنوك المركزية فيها ، وفقا للقرارات التي يتم اتخاذها في هذه الجهات الاقتصادية المسئولة . من هذه الأحداث الأربعة يرسم المحللون الاقتصاديون صورة مستفزة للاقتصاد خلال القرن العشرين ، ويقترحون فكرة مؤداها أن التغييرات الراديكالية في دور الحكومات واتجاهات الشعوب هي عنوان القرن العشرين .

بدأت هذه الثورة مع عودة سياسات الخصخصة والتحرير وإعادة الهيكلة ، ومع بروز فكرة العولمة ، بدأ الكسوف الآن يتخذ صورة أوضح ، كما يقول خبراء الاقتصاد. ويؤكد « دادلي بينز » ، الأستاذ بكلية الاقتصاد في لندن ، أنه في القرن العشرين تعرض العالم لدورة اقتصادية كاملة فيما يتعلق بسياسات الانفتاح ، ويؤيده في هذا الرأى « مايكل كيندي » من منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية .

ويوجد شبه اتفاق على أنه بخلاف عدة عوامل أخرى ، أسهمت في تشكيل الوجه الاقتصادي للعالم خلال القرن العشرين - أبرزها تطور الاتحادات التجارية ، ونشوء نظم الرعاية الاقتصادية والاجتماعية ، وإنشاء صندوق النقد الدولي ، ودوران عجلة « الجات » عبر جولات تفاوض متعاقبة ، وتشكيل الاتحاد الأوروبي وعملة «اليورو»- فإن الظروف التي طرأت على العالم خلال الحربين العالميتين أوجدت مناخا اقتصاديا ، له قواعده الحاكمة ربما حتى يومنا هذا .

ومن أبرز النقاط التي يتعين التوقف عندها في سياق الحديث عن اقتصاد القرن العشرين ، نشر كتاب « چون ماينارد كينيز » « النظرية العامة للتوظيف والفائدة والمال »

سنة ١٩٣٦ ، الذي أصبح أساسا للنمو المخطط طوال الأربعين سنة التالية . والفكرة الأساسية للكتاب بسيطة وغريبة في آن معا ، وهي أن على الحكومات أن تقع من تلقاء نفسها في عجز مالي ، لكي تؤمن نسبة مرتفعة من العمالة ، ذلك لأن القطاع الخاص سيحجم عن الاستثمار في حالة الركود الاقتصادي ، وسرعان ما يصل الاقتصاد إلى حالة التوازن بينما ترتفع القدرة على الطلب .

وحين طبق الرئيس الأمريكي « روزفلت » أفكار « كينيز » خلال الحرب العالمية الثانية ، برهنت هذه النظرية الاقتصادية على صحتها تماما ، وما زالت أفكاره تطبق حتى اليوم ، حتى إن الرئيس الأمريكي « ريتشارد نيكسون » قال يوما : « **نحن جميعا كينيزيون (نسبة إلى كينيز) ، ولو كان (كينيز) اليوم حيا لشعر بالرضى عما حققته أفكاره من تقدم في الاقتصاد الأمريكي بشكل خاص ، والرأسمالي بوجه عام** » .

وفي ٢٢ يوليو ١٩٤٤ أخذ مؤتمر بريتون وودز النقدي الدولي في الإعداد للنظام الاقتصادي في فترة ما بعد الحرب . وفي ٣ إبريل ١٩٤٨ تبنى الكونجرس الأمريكي «خطة مارشال» ، التي وفرت قروضا ضخمة تهدف إقالة أوروبا من عثرتها الاقتصادية وتمكينها من تنفيذ خطط طموح ، لإعادة الإعمار بعد أن دمرتها الحرب العالمية الثانية وقوضت اقتصاداتها .

وما إن حل الأول من يناير سنة ١٩٤٩ ، حتى سرى مفعول الاتفاقية العامة للتعريفات الجمركية والتجارة التي وقعتها ٢٤ دولة . وفي ٢٥ مارس ١٩٥٧ أقرت ست دول أوروبية اتفاقية روما ، التي أسهمت في تشكيل وحدة اقتصادية أوروبية مصغرة في مجالات محددة . وفي ١٣ سبتمبر ١٩٧٤ ، صوتت منظمة الأقطار المصدرة للبترول « أوبك » لمصلحة رفع أسعار البترول إلى مستوى التضخم في الدول الصناعية، مما أدى إلى ارتفاع الطاقة بدرجة كبيرة .

لكن ١٩ أكتوبر ١٩٨٧ - أو «الاثنين الأسود» كما يسميه الكثيرون- شهد الانهيار الكبير في « وول ستريت » ، بعد أن تراجع مؤشر « داو چونز » بنسبة ٢٢,٦٪ في غضون يوم واحد . وشهدت سنة ٢٠٠٠ عودة شبح أزمة البورصات العالمية للظهور

من جديد ، مع انهيار بورصة وول ستريت في نيويورك يوم الجمعة ١٤ أبريل ، وهبوط مؤشر ناسداك لأسعار أسهم شركات التكنولوجيا المتقدمة التي اعتبرها المستثمرون في فترات سابقة الملاذ الآمن في الأسواق . كما انخفض مؤشر داو جونز لأسهم الاقتصاد القديم ، وبلغت خسائر انهيار بورصة وول ستريت نحو ١٠ تريليونات دولار ، بينما خسر بعض الأشخاص والشركات مليارات الدولارات ما بين غمضة عين وانتباهتها ، وكانت أسوأ خسارة تشهدها وول ستريت منذ أكثر من عقد . وقد أثر ذلك على جميع البورصات العالمية التي تعرضت لسلسلة من الانهيارات المتلاحقة في الأسواق .

وفي الأول من يناير سنة ١٩٩٥ ، تم إنشاء منظمة التجارة العالمية التي خلفت «الجات» ، وبدأت ترسي قواعد ومبادئ جديدة للمعاملات التجارية والاقتصادية في العالم . وبعد أربع سنوات أخرى ، أي في مطلع يناير ١٩٩٩ ، تبنت ١١ دولة عضوة في الاتحاد الأوروبي « اليورو » كعملة تستخدم في تلك الدول . كان طرح العملة الأوروبية الموحدة أهم حدث في تاريخ أوروبا وربما العالم منذ نهاية الحرب الباردة ، فقد مثل آخر الخطوات الاقتصادية التي تمت تدريجيا على طريق تحقيق حلم الوحدة الاقتصادية ، الذي راود أوروبا منذ عقود عدة .

والحدث لم يكن مهما فقط لأنه عمل على توحيد أسواق ١١ دولة أوروبية وافقت على نظام « اليورو » ، وهي : ألمانيا وفرنسا وإسبانيا وبلجيكا وهولندا ولكسمبورج وأيرلندا والبرتغال والنمسا وفنلندا ، بل إن أهمية الحدث تكمن أيضا في أنه أطلق العنان لإقامة قوة تجارية دولية كبيرة ، واقتصاد أوروبي عملاق يحتل المرتبة الثانية في العالم بعد الولايات المتحدة ، حيث يبلغ نصيب مجموعة « اليورولاند » من الإنتاج العالمي كله وفقا لبيانات البنك الدولي نحو ٦٣٠٨ مليارات دولار بما يعادل نحو ٤ , ٢٢٪ من الإنتاج العالمي ، مقارنة بنحو ٧٧٤٦ مليار دولار للولايات المتحدة بما يوازي نحو ٥ , ٢٧٪ من الناتج العالمي . كما أن منطقة اليورو مجتمعة هي القوة التجارية الأكبر في العالم ، حيث تبلغ صادراتها مجتمعة نحو ١٦٨٠ مليار دولار مقابل صادرات أمريكية بقيمة ٦ . ٥٨٧ مليار دولار .

أصبحت الصناعات الثقيلة والرأسمالية ذات أهمية كبيرة في عدد من الدول النامية مثل كوريا الجنوبية والبرازيل والصين والهند . ويتضح الاتجاه العام نحو التصنيع الثقيل في الدول النامية من زيادة نصيب الصناعات الثقيلة فى القيمة المضافة بقطاع الصناعة بهذه الدول ، فقد كانت تمثل ٤٣٪ سنة ١٩٥٥ وزادت إلى ٥٧٪ سنة ١٩٦٣ ووصلت إلى ٦٧٪ سنة ١٩٧٨ .

وشهد القرن العشرون بروز دور الشركات الصناعية متعددة الجنسيات ، وهي شركات عملاقة يتراوح حجم مبيعاتها بين ١٠ مليارات و١٠٠ مليار دولار ، وهي ذات أهمية كبيرة في الإنتاج الصناعي والتجاري على مستوى العالم . ويتراوح حجم الإنتاج الذي تقدمه أكبر ٦٠٠ شركة صناعية من الشركات متعددة الجنسيات بين ٢٠ و٢٥٪ من مجموع الإنتاج الصناعي العالمي . ويتراوح ما تقدمه الشركات متعددة الجنسيات العاملة في بريطانيا والولايات المتحدة بين ٨٠ و٩٠٪ من صادراتها .

معظم الشركات متعددة الجنسيات نشأت في الدول المتقدمة خاصة الولايات المتحدة ، وكانت استثماراتها تمثل نصف الاستثمارات الخارجية المباشرة سنة ١٩٨٥ على مستوى العالم ، ثم بدأت اليابان تستثمر أموالها في الدول النامية ، بعد أن ارتفعت أجور العمال بها ، وأخيرا بدأت بعض الشركات متعددة الجنسيات تظهر في العالم الثالث .

والشركات متعددة الجنسيات تستفيد من الأوضاع الخاصة التي تتيحها لها الدول النامية ، إلى جانب قدرة الدول التابعة لها على حمايتها من التأميم ، أو نزع الملكية ، وخوض المعارك لمصلحتها وفتح الأسواق أمامها ، مما يحقق مصالحها ويزيد من أرباحها .

المشهد الاقتصادي سنة ٢٠٠٠ - وفق ما ذكرته مجلة « نيوزويك » في عدد خاص صدر في ديسمبر ١٩٩٩ - يشير إلى أن الهوة تتسع بين الأغنياء والفقراء في أنحاء العالم ؛ ففي حين كانت الشقة بين أغنى وأفقر الدول تبلغ نحو ٣ : ١ سنة ١٨٢٠ ، و١١ : ١ سنة ١٩١٣ و٣٥ : ١ سنة ١٩٥٠ و٤٤ : ١ سنة ١٩٧٣ ، فإن هذه الهوة ارتفعت إلى ٧٢ : ١ سنة ١٩٩٢ ونحو ٧٢٧ : ١ سنة ١٩٩٧ .

وبلغت أصول ثلاثة من أغنى الشخصيات في العالم - « بيل جيتس » ، « الوليد ابن طلال بن عبد العزيز » ، « فيليب اف . أنشوتز » - ما يفوق إجمالي الدخل القومي في ٢٦ دولة مجتمعة من أفقر دول العالم . أما أصول أغنى ٢٠٠ شخص في العالم فهي تفوق دخل نحو ٤١ في المائة من دول العالم مجتمعة . وهناك عشر دول يعيش أكثر من نصف تعداد سكانها على ما يعادل دولاراً في اليوم الواحد . ويبلغ إجمالي الدخل السنوي لعصابات الجريمة المنظمة ١,٥ تريليون دولار ، على حين ارتفعت ديون الدول المتوسطة الدخل والمنخفضة الدخل ليصل إجماليها إلى ٢,٣ تريليون دولار في نهاية القرن ، مقابل ١,٥ تريليون دولار سنة ١٩٩٠ .

وفي الوطن العربي لمع عديد من رجال المال والاقتصاد البارزين ، من « طلعت حرب » (٢٥ نوفمبر ١٨٦٧-٢١ أغسطس ١٩٤١) مؤسس الاقتصاد الوطني في مصر ، ونخص بالذكر بنك مصر (١٩٢٠) وأستوديو مصر وصناعة النقل (مصر للطيران) والغزل والنسيج ، مرورا بالأمير السعودي « الوليد بن طلال » صاحب الاستثمارات الناجحة في نهاية القرن العشرين من «كناري وارف» إلى «يورو ديزني» ، وصولا إلى « عبد الله الطريقي » (١٩١٩-١٩٩٨) وزير البترول السعودي (١٩٦٠-١٩٦٢) الذي أسهم في تأسيس منظمة «أوبك» مع نظيره الفنزويلي « بيريز ألفونسو » ، وكرس حياته للدفاع عن مصالح الدول العربية المصدرة للبترول الخام .

هناك أيضا المصرفي الفلسطيني « عبدالحميد شومان » (١٨٩١-١٩٧٤) ، الذي ولد في بيت حنينا في فلسطين المحتلة ، وقطع مشوارا طويلا من الفقر إلى عالم المصارف الدولية ، متغلبا في طريقه على عديد من العقبات . وفي ١٩١١ هاجر «شومان» إلى الولايات المتحدة على ظهر سفينة ، مفلسا ودون قدر كاف من التعليم ، وأمضى سنوات عدة من العمل المتواصل والتقشف في مصنع نسيج ، قبل أن يعود إلى فلسطين ويؤسس البنك العربي متأثرا بنهج وسياسات «طلعت حرب» في مصر . وفي ١٩٤٨ ، كان بنك « شومان » الوحيد الذي يشتري عملات فلسطينية مقابل قيمتها كاملة بالعملة المصرية . ونتيجة لمساندته القوية للثورة الفلسطينية تعرض « شومان » للمحاكمة والسجن . لكن فروع البنك العربي أخذت في الانتشار في معظم العواصم

العربية ، إضافة إلى عواصم إفريقيا وأمريكا اللاتينية ، ليؤسس « شومان » مكانته كمصرفي بارز ، شارك في تمويل مشروعات وطنية في أنحاء المنطقة ، على الرغم من تأميم ستة أفرع من البنك العربي في كل من مصر وسوريا خلال عقد الستينيات . بل إن « شومان » أنشأ جوائز سنوية تحمل اسمه ؛ لدعم جهود البحث العلمي في المنطقة العربية ، وواصلت مؤسسة « شومان » في الأردن أداء هذه المهمة النبيلة بعد رحيله .

محطات رئيسة

ومن أبرز الأحداث المالية في القرن العشرين الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ ، التي قوضت النظام المالي الدولي ، حين قررت الدول المتقاتلة وقف تحويل عملاتها إلى الذهب . وفي سنة ١٩٢٣ هز التضخم المارك الألماني ، مما التهم ٢ ، ٤ تريليون مارك ، وابتلع مدخرات الطبقة المتوسطة ، وهيأ الأجواء - كما ذكرنا - لظهور النازية . وإضافة إلى الانهيار الكبير في سوق المال والأسهم في ٢٤ أكتوبر ١٩٢٣ واتفاقية بريتون وودز الذي أنشأ آلية أسعار الصرف وصندوق النقد والبنك الدوليين سنة ١٩٤٤ ، فإن إنشاء بطاقة الائتمان « داينرز » قدم للعالم أول بطاقة ائتمان دولية ، تناسب المسافرين ورجال الأعمال ، ومهد لظهور ما يسمى الآن بعصر المعاملات المالية دون نقود .

وجاءت سنة ١٩٥٨ لتشهد تأسس سوق « اليورو دولار » ، وفي ١٩٧١ تخلت الولايات المتحدة عن معيار الذهب ، مما أدى إلى إنهاء أسعار الصرف الثابتة . وحين حلت سنة ١٩٧٧ بدأ طرح أول أجهزة كمبيوتر شخصية للبيع كمنتج عام ، وهو ما جعل الكمبيوتر وتكنولوجيا المعلومات تدخل سوق المال والاقتصاد ، خاصة في الدول الصناعية المتقدمة .

ولا ينسى أحد أزمة العملات بين سنتي ١٩٩٨ و ١٩٩٩ ، التي أدت إلى خسائر مالية واقتصادية جسيمة ، تكبدتها اقتصادات عديد من دول شرقي آسيا . والركود الذي شهدته ثلاثة اقتصادات آسيوية متأزمة هي إندونيسيا وكوريا الجنوبية وتايلاند كان أضخم مما شهدته الاقتصادات الغربية ، خلال فترة الركود الكبير بين سنتي ١٩٢٩

و١٩٣١ ، فقد انخفض الناتج القومي في إندونيسيا بنسبة ١٤٪ فى ١٩٩٨ ، مما عرض ثالثة أكثر دول العالم سكانًا لضغوط اجتماعية هائلة . إن أزمة ١٩٩٧-١٩٩٨ قد تكون الأولى في سلسلة من الأزمات المشابهة ، فقد عدنا إلى أزمات أسواق رأس المال التي كانت سمة لدورة الأعمال المعهودة حتى الانهيار الكبير سنة ١٩٢٩ .

وبالنسبة لأجهزة الكمبيوتر وشبكة الإنترنت ، فقد أسهمت في دعم الاقتصاد الأمريكي . ويرى الكثيرون أن الإنترنت تعد المجاز العصري للحرية الاقتصادية ، فهي تمنح القوة للناس العاديين وتنتزعها من الحكومة . إنها تولد الثروة وتزيد النمو وتولد فرص عمل وتوفر إمكانات الرخاء ، وتقف وراء الإنترنت القوة السياسية لما يزيد عن ١٠٠ مليون مستثمر ومالك للأصول . إن الإنترنت هي المجال الحيوي للتجارة الإلكترونية والبيع والشراء بالضغط على زر في جهاز كمبيوتر .

حمى الاندماج

وفي الاتحاد الأوروبي ، شهد عقد التسعينيات حمى الاندماجات لمواجهة منافسة الشركات الأمريكية العملاقة . وفي سبتمبر ١٩٩٩ ، تم دمج شركتي التجزئة العملاقتين في فرنسا « كارفور » و« بروموديه »؛ لإقامة شركة يتجاوز إجمالي مبيعاتها سنويا ٤٩ مليار دولار . كما تمت عمليات اندماج عبر الحدود ؛ إذ اندمجت شركة الصناعات الصيدلانية الفرنسية « رون بولان » مع منافستها الألمانية « هويكست » في يوليو ١٩٩٩ ؛ لإقامة شركة « فنيتس » لعلوم الحياة بمستوى دولي ، واندمجت شركة صناعة الألومنيوم الفرنسية الرئيسة « بيتسين » مع شركتي « ألكان » الكندية و«الجروب» السويسرية؛ لكي تتحدى شركة « الكوارينولدز » الأمريكية على المركز الأول في هذه الصناعة . ومن أهم صفقات سنة ٢٠٠٠ تلك التي تم بموجبها الاتفاق بين شركة الموسيقى والنشر الألمانية العملاقة « بيرتلسمان » و « نابستر » المتخصصة في خدمات الإنترنت ، مما يسمح لمستخدمي الإنترنت بتبادل الموسيقى المفضلة لديهم دون مقابل .

وفي ١٧ يناير ٢٠٠٠ أعلنت شركتا « جلاكسو ويلكم بي . إل . سي » و«سميثكلاين بيتشام بي . إل . سي » اندماجهما لتكوين أكبر شركة صانعة للعقاقير في العالم . بعدها بأسبوع بالتمام والكمال أعلنت شركة الموسيقى البريطانية إي . إم . آي وتايم وورنر الأمريكية اندماجهما لتصبحا ثاني أكبر شركة في هذا المجال .

وللسيارات نصيب مهم من حركة المال والاقتصاد خلال القرن العشرين ، ففي خريف ١٩١٣ بدأ خط الإنتاج الجماهيري للسيارات في ديترويت على يدي صانع السيارات الأمريكي « هنري فورد » ، وكان لهذه الخطوة صدى كبير ، بعد أن نجحت شركة « فورد » في تجميع وصنع أجزاء السيارات ، وبدأت خطوط الإنتاج في العالم . «فورد» كان والد ثورة أخرى ، سمحت بانتشار السيارات في الولايات المتحدة ، التي أصبح تجميعها في سنة ١٩١٤ لا يستغرق ٩٣ دقيقة لكل سيارة ، مما استدعى إنشاء الطرق ومحطات التزود بالوقود وما إلى ذلك . وهكذا وقع القرن العشرون في غرام السرعة . وفي ١٩٧٦ أنتجت بريطانيا وفرنسا طائرة الكونكورد ، ولأول مرة يستطيع الأفراد العاديون من رجال ونساء اختراق حاجز الصوت ، وهم جالسون إلى مقاعدهم المريحة على متن الطائرات !

الذهب الأسود

النفط ، الذي اكتشف في ولاية تكساس الأمريكية سنة ١٩٠١ ، كان لغة العصر ، بفضل أهميته كثروة ضخمة صنعت ثورة مالية واقتصادية بكل المقاييس . و في ٢٦ مايو ١٩٠٨ اكتشف النفط في إيران ؛ لتبدأ رحلة هذا الذهب الأسود في منافسة الكهرباء والفحم وغيرهما من مصادر الطاقة . وسرعان ما أدى النفط إلى تغيير وجه الحياة في مناطق مختلفة من هذا العالم ، خاصة في منطقة الخليج ، إذ اكتشف سنة ١٩٣٢ في البحرين ، ثم في الكويت (١٩٣٨) ، فالسعودية (١٩٤٨) . وأدت حمى النفط إلى ظهور الشركات المسيطرة على استكشاف وإنتاج النفط في العالم ، والتي أطلق عليها اسم « الشقيقات السبع » .

كان النفط هو محور إصلاحات السياسي القومي الإيراني « محمد مصدق » ، الذي رسم ونفذ سياسات نفطية أغاظت الإنجليز ، وأدت إلى حدوث تحولات مهمة في إيران في مطلع الخمسينيات . بدأ « مصدق » الاهتمام بقضية النفط ، وتحدث علنا عن ضرورة تأميم تلك الثروة الوطنية ، أو على الأقل الحفاظ عليها ، منذ شهر ديسمبر ١٩٤٤ . كان « مصدق » آنذاك نائبا في « المجلس » (البرلمان الإيراني) ، وألقى خطابا عنيفا وحادا في البرلمان ، طالب فيه بأن يصدر « المجلس » قانونا يمنع الدولة « من إعطاء أي امتياز للتنقيب عن النفط لأية شركة ، طالما أن ثمة قوات أجنبية ترابط فوق الأراضي الإيرانية » . وكانت تلك هي المرة الأولى التي يرتبط فيها الحديث عن النفط بالقضية الوطنية في إيران . أدت دعوة « مصدق » إلى حالة غليان شعبي في إيران ، ونظمت مظاهرات تندد بنهب الأجانب ثروات البلاد . تحول « مصدق » إلى بطل شعبي في إيران ، وهو الذي ربط بعد تلك الجلسة بسنتين بين إقرار الاتفاقية النفطية المعقودة مع السوفيت ، وانسحاب قوات الجيش الأحمر المرابطة شمالي إيران . تولى « مصدق » - الذي قاد انقلابا على شاه إيران في ١٦ أغسطس ١٩٥٣- لاحقًا رئاسة الحكومة وخاض تجربة تأميم النفط الإيراني مما زاد من شعبيته آنذاك .

وبسبب النفط أيضا قاد الرئيس العراقي « صدام حسين » قواته لغزو جارته الكويت فجر ٢ أغسطس ١٩٩٠ ، ليبدأ سيناريو حرب الخليج الثانية ، ونجح الرئيس الأمريكي « چورچ بوش » - الذي كانت أول وظيفة له في حقول بترول تكساس - في قيادة نحو ٣٠ دولة ؛ لإجبار القوات العراقية على الانسحاب من الكويت في فبراير ١٩٩١ .

النفط إذًا عاش فترة ذهبية خلال عقد السبعينيات -خاصة عقب حرب أكتوبر ١٩٧٣- ارتفعت معه قيمة "أوبك" التي تأسست سنة ١٩٦٠ ووصل عدد أعضائها إلى ١١ عضوا ، قبل أن يصل سعر برميل البترول إلى ٣٩ دولارا نتيجة اندلاع الحرب العراقية- الإيرانية .

وحين زادت « أوبك » من إنتاجها انخفضت أسعار البترول بمعدل النصف خلال سنتي ١٩٨٥ - ١٩٨٦ . تسبب ارتفاع أسعار البترول في أربع صدمات لأوروبا ، في أوائل السبعينيات وأواخرها وسنة ١٩٩٠ وفي سبتمبر ٢٠٠٠ . وقد تعرضت أسعار البترول إلى ضربات متلاحقة خلال عقد التسعينيات لأسباب عدة ؛ حتى انخفضت أسعاره واهتزت اقتصادات الدول ، التي تعتمد على النفط بشكل أساسي . والذهب الأسود كان في مطلع القرن العشرين سببا في ارتفاع أسعار الأراضي في تكساس من ١٠ دولارات فقط للأكر (الفدان تقريبا) إلى ٩٠٠ ألف دولار للأكر ، وتحول من مصدر للثروة إلى سبب للقلاقل والهزات السياسية ، مثلما حدث في منطقة الخليج ومن قبل في نيجيريا وغيرها من أرجاء العالم .

القوة العاملة كانت أبرز عناصر المال والاقتصاد خلال القرن العشرين ، وعلى سبيل المثال نذكر ما حدث من إضرابات لعمال المصانع في فرنسا في مايو سنة ١٩٦٨ ، كذلك في ٢٨ ديسمبر ١٩٣٦ تظاهر وأضرب عمال « جنرال موتورز » ضد الإدارة وأغلقوا ٢٨ مصنعًا . شارك في هذه الإضرابات ٩٣ ألف عامل من إجمالي القوة العاملة في « جنرال موتورز » البالغة ١٣٥ ألف شخص . وبعد ٤٤ يوما من الإضرابات اضطرت الشركة العملاقة إلى الاعتراف بهزيمتها ، مما دشن عهد الاتحادات العمالية في الولايات المتحدة وربما العالم أجمع ، لتظهر أسماء قيادات عمالية بارزة في أمريكا ، مثل « چيمي هوفا » خلال عقد الستينيات .

وفي مطلع ديسمبر ١٩٩٩ ، كشفت المظاهرات التي وقعت على هامش انعقاد مؤتمر منظمة التجارة العالمية في مدينة سياتل الأمريكية ، عن تزايد المخاوف الشعبية والعمالية من الآثار السلبية للعولمة ، خاصة على الصعيدين التجاري والاقتصادي . إن تحول شوارع سياتل إلى ساحة حرب لدرجة إعلان حظر التجول فيها ، يعد رسالة احتجاج لا تخطؤها العين على اختلال موازين التجارة العالمية بحلول نهاية القرن العشرين . يكفي أن نشير إلى الشعارات التي رفعها آلاف المتظاهرين ، مثل «الرأسمالية تقتل كل مظاهر الحياة » ، « الشعب قبل الأرباح » ، « الطفيليات الشرهة

في منظمة التجارة العالمية تخرج عن كل سيطرة » ، « منظمة التجارة العالمية تضر بالسيادة الوطنية » ، و« منظمة التجارة العالمية مصاصة دماء » .

الغريب حقا أن عالم التجارة يتفكك ، فالتجارة العالمية ارتفعت بمعدل ٦٠ في المائة إلى ٥,٥ مليار دولار في التسعينيات من القرن العشرين ، ولكنها تدفقت على نحو متزايد في داخل كل من أوروبا ، وآسيا ، والأمريكتين وليس فيما بينها . كل الضجيج حول العولمة حجب هذه النزعة الإقليمية ، التي تقسم العالم ببطء ، ولكن بوضوح ، كتلة فكتلة .

وفي سنة ٢٠٠٠ وقعت ثلاث مظاهرات ضخمة ضد رياح العولمة : في مؤتمر دافوس ، وفي قمة نيس الأوروبية ، وعلى هامش اجتماعات صندوق النقد الدولي والبنك الدولي في واشنطن في إبريل من تلك السنة . وعكست المظاهرات مدى رفض المتظاهرين للسياسات التي تكرس هيمنة الشركات الكبرى ، وتحمي مصالحها ولو كان ذلك على حساب دول العالم الثالث .

إمبراطوريات موجات الأثير -ونعني بذلك شبكات الإذاعة و التليفزيون- كان لها دور مؤثر في عالم المال والاقتصاد خلال القرن العشرين . ففي الأول من يوليو سنة ١٩٤١ ، بدأت أول شبكة تليفزيون إرسالها في الولايات المتحدة . وتحت رعاية هيئة الاتصالات الفيدرالية ، بدأت شبكتا « إن . بي . سي » و« سي . بي . إس » تبثان أول برامج التليفزيون التجاري في يوم واحد .

لعب التليفزيون دورا بالغ التأثير كنشاط اقتصادي مهم ، وكعمل إعلامي يؤثر في حركة المال والاقتصاد ، وفي تشكيل الرأي العام اقتصاديا وسياسيا .

ولا ننسى دور شبكة « سي . إن . إن » الإخبارية الأمريكية في تغطية أحداث حرب الخليج الثانية ، ولا المنافسة الحادة بين شبكات التليفزيون العالمية ، وإفراد هذه الشبكات التليفزيونية مساحات كبيرة للجزء التجاري والإعلاني والترويج للبضائع والخدمات المختلفة . علاوة على ذلك فإن الإذاعة والتليفزيون أصبحا شديدي الارتباط بالنشاط الاقتصادي العالمي ، ومتابعة حركة الأسهم وأسواق المال ، إلى أن

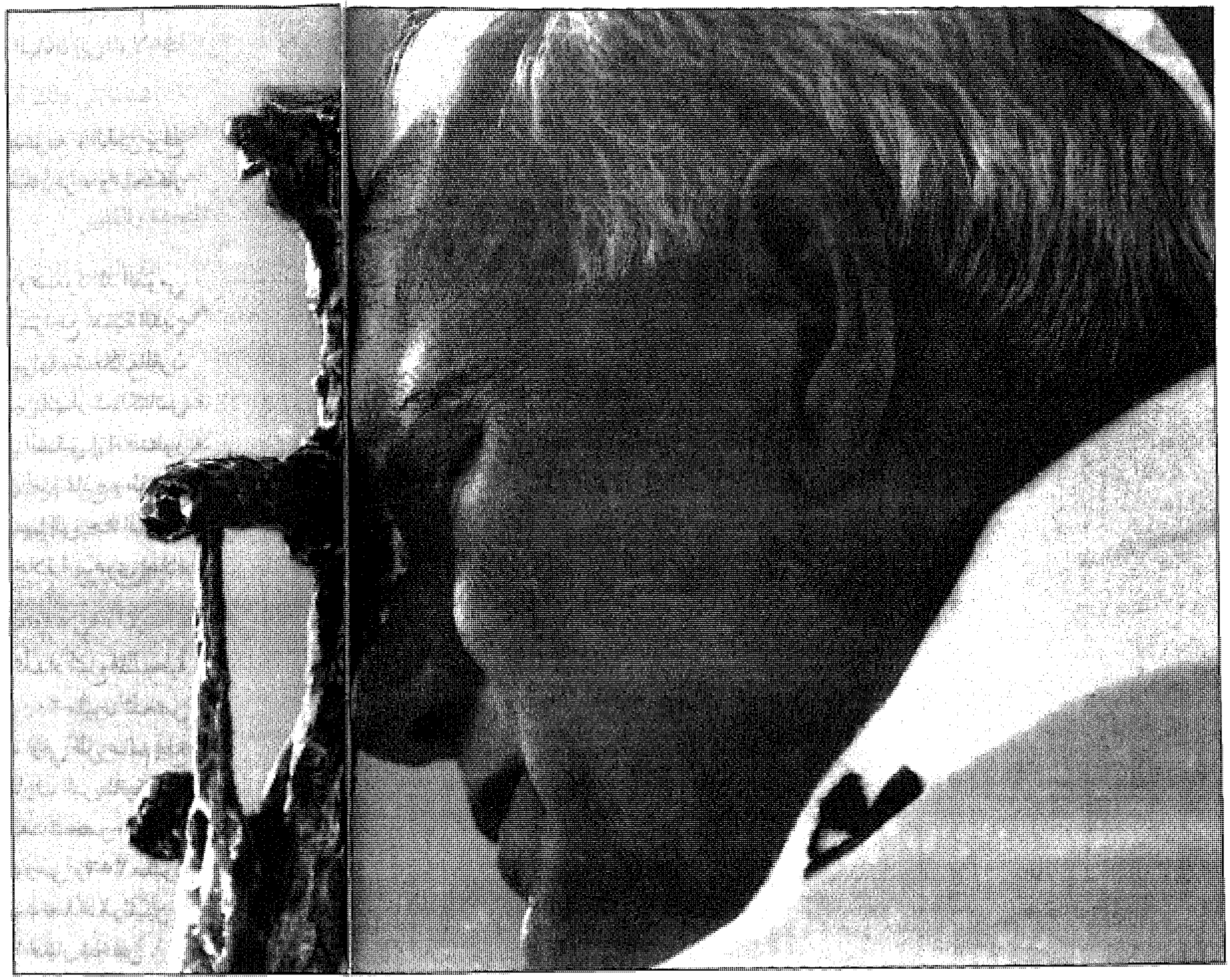
جاء الكمبيوتر والإنترنت ليسحبا البساط من تحت أقدام الجميع ، ويوفرا متابعة فورية وتغطية حية لما يحدث داخل البورصات العالمية لحظة بلحظة .

ونختم بلمحة عن قائمة نشرتها مجلة « فوربس » الأمريكية لأغنى ٢٠٠ ملياردير في العالم خلال سنة ١٩٩٩ ، إذ ذكرت المجلة أن« بيل جيتس » رئيس شركة «مايكروسوفت » العملاقة للكمبيوتر - الذي تنحى عن منصبه كرئيس تنفيذي في ١٣ يناير ٢٠٠٠ ليتم اختيار « ستيف بالمر » لهذا المنصب - مازال أغنى شخص في العالم (٦٠ مليار دولار) على الرغم من خسارته ٤٠ مليار دولار أخرى من قيمة أسهمه خلال الأشهر الأخيرة من القرن العشرين ، بسبب حالة عدم الاستقرار في الشركة الناجمة عن إدانة الحكومة الأمريكية لها بممارسة الاحتكار ، وانتهاك الإقرار المكتوب سنة ١٩٩٤ في هذا الشأن .

وفي المركز الثاني يأتي « لاري إليسون » رئيس شركة « أوراكل » لبرامج الكمبيوتر (٤٧ مليار دولار) ، ثم « بول ألن » الشريك المؤسس في مايكروسوفت في المركز الثالث ، « ووارين بافيت » المستثمر الذي يدير « بركشاير هاسواي » الأمريكية (٢٨ مليار دولار) . وفي المركز الخامس الألمانيان « ثيو » و « كارل ألبريشت » اللذان يمتلكان سلسلة متاجر الدي (٢٠ مليار دولار) ، ثم الملياردير السعودي الأمير « الوليد بن طلال آل سعود » (٢٠ مليار دولار) ، وهو ثمرة زواج الأمير « طلال بن عبد العزيز »من «منى الصلح » ابنة رئيس وزراء لبنان الراحل « رياض الصلح » . واحتل رئيس سلسلة متاجر «وول مارت» الأمريكية « روبسون والتون » المركز السابع (٢٠ مليار دولار أيضا) . أما «ماسايوشي» رئيس مجلس إدارة سوفت بنك فحل ثامنا (١٩,٤ مليار دولار) ، وتلاه «مايكل ديل» رئيس ومؤسس شركة « ديل » للكمبيوتر (١٧,٨ مليار دولار) ، في حين حل عاشرا إمبراطور الإعلان الكندي « كينيث طومسون » صاحب مجموعة طومسون كورب . وصنفت أكبر ثروة فرنسية في المرتبة الثالثة عشرة (ليليان بتنكور) ، تليها ثروة رجل الأعمال الإيطالي « سيلفيو برلوسكوني » ، في حين اعتبر رجل صناعة الأدوية والعقاقير « إرنستو برتارللي » الذي احتل المركز الثالث والعشرين أغنى رجل في سويسرا . ضمت القائمة تسعة هنود نصفهم يعملون في مجال تكنولوجيا المعلومات .

ويشير « تقرير الثروة في العالم سنة ٢٠٠٠ » إلى أنه يوجد في العالم كله سبعة ملايين شخص لدى كل منهم أموال سائلة تزيد عن مليون دولار ، و٥٥ ألفا « أغنياء سوبر » تزيد ثروات كل منهم عن ٣٠ مليون دولار ، و٥١٤ مليارديرا ليس بينهم ملياردير واحد في إفريقيا . ومما يسترعي الانتباه لدى قراءة قائمة أغنى أثرياء العالم أن عصر « الاقتصاد الجديد » القائم على الإنترنت والمعلومات والاتصالات أفرز أصحاب مليارات في جميع أنحاء العالم ، من الولايات المتحدة (مثل چيف بيزوس مؤسس موقع أمازون كوم لتجارة الكتب إلكترونيا) إلى الهند (عظيم بريمجي صاحب شركة ويبرو لبرامج الكمبيوتر) ومصر (أنسي ساويرس رئيس مجموعة أوراسكوم للبناء والاتصالات) .

* * *



البابا يوحنا بولس الثاني

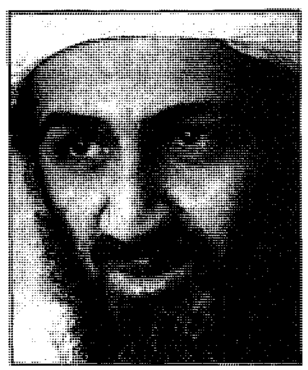
13

الـديـن .. والديناميت

يبدو الحديث عن الدين خلال القرن العشرين أشبه بفتح ملف شائك ، حافل بالأحداث والتوتر والعلاقات المعقدة من الأطراف والجبهات المختلفة بين بني البشر .

وبدلا من أن يصبح الدين عقيدة سامية، وصفاء روحانيا ، ودعوة إلى السلام والتسامح ، تحول إلى ذريعة للتخلص من «الآخر » والتطهير العرقي ، كما حدث في كوسوفا والبوسنة ، والتقاتل بين أبناء الدين الواحد كما حدث في أفغانستان ، ووسيلة للوصول إلى السلطة في بعض الأحيان كما هي الحال في أمريكا اللاتينية .

الدين إذًا تم تحريفه وتشويهه ، لتحاول إسرائيل - على سبيل المثال - اتخاذه قناعا



أسامة بن لادن

وحجة للبقاء على حساب أصحاب الأرض والحق الشرعي من الفلسطينيين . كما انتشــر ســرطان الطوائف والحـركات والجماعات الغـريبة من اليابان إلى الولايات المتحدة .

المواجهة إذًا ساخنة خلال القرن العشرين بين الدين وخصومه ، الذين يرفع بعضهم شعارات التقدم العلمي حينا ، و« النظام السياسي أولا » حينا آخر ، و« احتكار الدين » في أحيان ثالثة .

لأسباب يصعب على البعض فهمها ، ارتبط التقدم العلمي وصعود المد القومي في أنحاء متفرقة من الكرة الأرضية خلال السنوات المائة الأخيرة بتراجع أهمية الدين في حياة البشر ، لكن الدين ظل - على الرغم من كل شيء - حاضرا بقوة خلال القرن العشرين ، حتى إنه أصبح أكثر تأثيرا في نهاية القرن . وفي حين انهارت الكنائس المنظمة في الغرب بشكل درامي منذ ١٩٠٠ ، تحالف رد الفعل السلبي إزاء التطور الاقتصادي والتكنولوجي مع نمو التعددية الثقافية ، ليفسح الطريق أمام نماذج وطقوس من مختلف الأديان والمذاهب والمعتقدات ، التي وصل بعضها إلى حد الشطط والتطرف ، ردا على ابتعاد الحضارة العالمية عن المفاهيم الدينية والأخلاقية بدعوى إعلاء عصر العلم والمعرفة ، وكأن هناك تعارضا بين الأديان والعلم .

وفي سنة ١٩٠٠ ، وفق التقديرات الإحصائية المتاحة ، بلغ تعداد أتباع المسيحية نحو ٤٩٠ مليون شخص ، بينما كان تعداد المسلمين والهندوس ٢٠٠ مليون شخص لكل منهما ، مقابل ١٣٠ مليون بوذي . وبعد مرور قرن كامل ، وفي ظل عالم يبلغ تعداد سكانه ٦ مليارات نسمة ، يشير الكتاب السنوي لدائرة المعارف البريطانية لسنة ٢٠٠٠ إلى أن عدد المسيحيين أصبح مليارا و٩٧٤ مليونا و١٨١ ألف شخص ، مقابل مليار و١٥٥ مليونا و ١٠٩ آلاف مسلم ، ونحو ٨٠٠ مليون هندوسي و٣٥٦ مليون بوذي ، و١٤ مليونا و٣١٣ ألف يهودي . وفي الوقت نفسه شهد تعداد الوثنيين ، والذين يعتبرون أنفسهم ملاحدة ارتفاعا كبيرا ، إذ وصلوا إلى ١,٥ مليار شخص .

في غضون ذلك بدأت بعض الأديان والمذاهب تشهد انقسامات داخلية إلى طوائف وحركات وجماعات ، تمثل توجهات جديدة مثيرة للجدل في كثير من الأحيان

للمعتقدات السائدة ، وهكذا ظهرت حركات وجماعات تجمع - على سبيل المثال لا الحصر - بين أفكار المسيحية والبوذية أو علم الفلك واليوجا !

أضف إلى ذلك أن مواطن أكبر تجمع بشري للديانتين الرئيستين في العالم قد اختلفت جغرافيا عن ذي قبل ، فبالنسبة للمسيحية ، كانت كبرى الدول الكاثوليكية في العالم هي فرنسا وإيطاليا وألمانيا ، لكنها أصبحت الآن البرازيل والمكسيك والولايات المتحدة والفلبين .

أما بالنسبة للإسلام . . فإن كبرى الدول الإسلامية من حيث التعداد السكاني ، هي : إندونيسيا وباكستان وبنجلاديش ، وتقع كلها في شرقي شبه الجزيرة الهندية .

ومع التقدم الهائل الذي شهدته البشرية في مجالات الفيزياء و الأحياء - ومع تعرف العلماء عديد من المعلومات والأسرار المذهلة عن الحياة والكائنات الحية - تعرضت الكنيسة التقليدية لهزة كبيرة فقدت بموجبها الأنصار والأتباع ، بعد أن نجحت جماهيرية بعض الحركات والمذاهب السياسية في سحب البساط من تحت أقدامها ، كما هي الحال بالنسبة للتيارات القومية والشيوعية .

وتحت وطأة الاحتلال لعب الدين دورين مختلفين ، إذ تشبث وتمسك به الأهالي والمواطنون ، في عدد من مناطق العالم ، خاصة دول العالم الإسلامي كرد فعل على حركات التغريب ، وأصبح الدين الحصن الحصين ورمز المقاومة ضد قوات الاحتلال وربما حركات التبشير والتنصير ، وهكذا أصبح الدين هو الملاذ الآمن لتأكيد الثقافة والهوية وروح الانتماء ، وتحولت القيادات الدينية إلى رموز للمقاومة والبطولة . وفي الوقت نفسه . . فإن قوات الاحتلال -خاصة البريطانية والفرنسية- اهتمت بشدة بدعم جهود التنصير وبالذات في أنحاء القارة الإفريقيةوفي شرقي آسيا ، وكان القصد من هذا الأمر إعادة تشكيل هوية الدول والشعوب المحتلة ؛ حتى تنساق للنمط الاستهلاكي والاقتصادي الغربي أولا وقبل كل شيء ، ثم يأتي الوازع الديني في المقام الثاني ، كما يشير عديد من الدراسات والأبحاث التى أجريت في هذا الصدد .

ومع اندلاع الثورة الروسية في سنة ١٩١٧ ، تحرك البلاشفة إلى الأمام ، وتسلموا السلطة ، وسرعان ما أصبح سدس سكان العالم من أتباع الشيوعية ، وتحول الدين إلى

«أفيون الشعوب» وفق مفهوم قادة الشيوعية ، الذين ركزوا على العمل والإنتاج الجماعي بأسلوب يحول دون حرية الفرد في التعبير أو الاعتقاد الديني .

وعقب سنة ١٩٤٥ ، تسارعت وتيرة تدهور المفهوم التقليدي في كثير من الدول الغربية ، لتصبح الكنائس والمعابد خاوية ومهجورة من روادها . وفي مقاطعة كويبك الكندية التي تدين بالمذهب الكاثوليكي الروماني ، تراجع معدل حضور المناسبات الدينية في الكنائس خلال عقد الستينيات من ٨٠ ٪ إلى ٢٠ ٪ .

وعلى الرغم من محاولات التحديث ، خاصة من جانب مجلس الفاتيكان الثاني (١٩٦٢-١٩٦٥) ، حيث تم تناول قضايا مثل حقوق الإنسان ودور رجال الدين في السياسة ، فإن السلطة المعنوية للكنيسة على أتباعها ، خاصة النساء ومطالبهن بتحديد النسل وحق الطلاق ، واصلت التراجع والضعف إلى حد كبير .

قوة انتخابية

وفي مناطق أخرى أصبح الدين قوة سياسية جماهيرية ذات تأثير ونفوذ يكتسح الانتخابات ، ويحقق الانتصارات ، بل ويقود الانقلابات على نظم سياسية عتيدة وحكام عسكريين أشداء . وتحت لافتة الدين والمذهب الكاثوليكي ظهرت قوى وأحزاب مؤثرة في الحياة السياسية ، خاصة في أوروبا وأمريكا اللاتينية . الأحزاب المسيحية هي التي أسهمت في وصول المستشار الألماني السابق « هلموت كول » إلى السلطة سنة ١٩٨٢ ، ودعمت سلطة الرئيس الأرجنتيني السابق « كارلوس منعم » . وفي أمريكا اللاتينية عارضت القوى الكاثوليكية مؤسسات الحكم المحافظة ، وقاومتها عقودا طويلة خلال القرن العشرين .

هناك دول الآن تحكمها - أو على الأقل تزعم ذلك - الرابطة الدينية مثلما تدعي إسرائيل ، التي قامت على اغتصاب الأراضي الفلسطينية في ١٥ مايو ١٩٤٨ ، وإعلان الكيان الإسرائيلي استنادا إلى تاريخ زائف ، يعطي - ظلما - اليهود حق العودة إلى « أرض الميعاد » ، ولو كان ذلك على حساب أصحاب الأرض الشرعيين من الفلسطينيين .

وهكذا نمت بذرة التطرف اليهودي ، وظهرت المستوطنات الصهيونية وارتكب المتطرفون الصهاينة مذابح عدة ضد الفلسطينيين يندى لها جبين الإنسانية ، مثل مذبحة

دير ياسين (٩ إبريل ١٩٤٨ - ٢٥٠ شهيدا) ، مذبحة بلدة قبية (١٩٥٣ - ٦٧ شهيدا) ، مذبحة قلقيلية (١٩٥٦ - ٣٠٠ شهيد) ، مذبحة كفر قاسم (١٩٥٦ - ٥٠ شهيدا) ، مذبحة الأقصى (١٩٩١ - ٢٠٠ شهيد) ، ومذبحة الحرم الإبراهيمي التي ارتكبها السفاح « باروخ جولدشتاين » (٢٥ فبراير ١٩٩٤ - ٩٣ شهيدا) .

كما ارتكب الإسرائيليون مذابح أخرى في الدول العربية ، مثلما حدث في مذبحة مدرسة بحر البقر الابتدائية بمحافظة الشرقية في مصر ، والتي راح ضحيتها ٤٦ طفلا ومدرسا ، استشهدوا نتيجة الغارة الإسرائيلية التي وقعت في ٨ أبريل ١٩٧٠ . ولا تحتاج إلى تعليق مذابح مخيمي صبرا وشاتيلا للاجئين الفلسطينيين في ١٥-١٧ سبتمبر ١٩٨٢ ، ولا جريمة قتل عشرات الأبرياء في بلدة قانا في جنوب لبنان إثر غارة إسرائيلية في ١٩٩٦ !

دولـة روحانيـة

أما دولة الفاتيكان ، التى اتخذت وضعها الحالي وفقًا لاتفاق سنة ١٩٢٩ بين الفاتيكان وإيطاليا ، فهى تشغل مساحة لا تزيد على نصف كيلو متر مربع داخل العاصمة الإيطالية . وتتصرف الفاتيكان بطريقة الملكية المنتخبة ، فالبابا الحاكم يتمتع بسلطات تنفيذية وتشريعية وقضائية ويحتل منصبه مدى الحياة ، ويجرى انتخابه من قبل مجمع الكرادلة المقدس ، الذي يضم ١٢٠ عضوا من الكرادلة .

وإذا كانت الفاتيكان تحتفظ بموقف محايد في القضايا الدولية ، وتتمتع بوضع المراقب في كثير من المنظمات العالمية ، فإنها قد توسطت في كثير من النزاعات ، ومن بين ما حققته التوصل إلى اتفاقية السلام في موزمبيق سنة ١٩٩٥ . وقام البابا « يوحنا بولس الثاني » - الذي اختارته مجلة « تايم » الأمريكية للقب « رجل السنة » في ١٩٩٥ - بجولات وزيارات أكثر من أي بابا آخر لأنحاء العالم ، مؤكدا أهمية معالجة مشكلة التمييز الديني والعرقي ، ودعم حقوق الأقليات ، بالإضافة - طبعا - إلى نشر مذهب الكاثوليكية الرومانية .

دافع البابا « يوحنا بولس الثاني » عن كثرة ترحاله داخليا وخارجيا خلال لقائه مع عدد من الأساقفة بقوله : « إن المسيح لم يقل لنا اجلسوا في الفاتيكان ، ولكنه قال لنا

اذهبوا إلى كل مكان في العالم » . والبابا « يوحنا بولس الثاني » بولندي الأصل ، وقد أصبح بعد اختياره لهذا المنصب في ١٦ أكتوبر ١٩٧٨ أول بابا غير إيطالي ، منذ أكثر من ٤٢٠ سنة ، واسمه الحقيقي « كارول يوزيف فويتيوا » . وقد ولد في ١٨ مايو ١٩٢٠ لأب يعمل أستاذا في فن الخياطة ، وهو يحتل المركز الثاني عشر في قائمة باباوات الفاتيكان من حيث طول مدة البابوية ، بعد أن قضى في منصبه ٢٢ سنة ، في حين يتصدر القائمة البابا « بيوس الرابع » ، الذي احتفظ بمنصب البابوية نحو ٣٢ سنة اعتبارا من ١٨٤٦ وحتى ١٨٧٨ .

ولعل الهجوم العسكري الذي شنته روسيا على الشيشان ، اعتبارا من أغسطس ١٩٩٩ ، هو أحد فصول المواجهة بين موسكو وجمهوريات القوقاز وآسيا الوسطى الإسلامية . ويمكن القول إن حربا قوقازية جديدة هي الثالثة قد نشبت ، بعد حرب «الإمام شامل» الكبرى في القرن التاسع عشر ، وحرب الجنرال « جوهر دوداييف » في منتصف التسعينيات . فبعد ١٤٠ سنة على هزيمة الإمام « شامل » أمام القوات الروسية فى الحرب الشيشانية الأولى ، عقب تأسيسه دولة الإمامة الشيشانية الداغستانية ، التى استمرت ٢٠ سنة حتى قضى عليها الروس ، حاولت القوات الانفصالية مقاومة الروس مرة أخرى ، والنتيجة هي هجوم كاسح للقوات الروسية بهدف القضاء على أي احتمالات لاستقلال داغستان ، بالإضافة إلى التخلص من موالاة القيادة الشيشانية لهذه القوات الانفصالية التى يقودها « شامل باساييف » ، ويتعاطف معها الرئيس الشيشانى « أصلان مسخادوف » . يذكر أن الدكتاتور السوفيتي « چوزيف ستالين » كان قد قرر في ٢٣ فبراير ١٩٤٦ ترحيل الشعب الشيشاني كله في ليلة واحدة ، بحجة أن أي شيشاني متعاون مع المحتلين الألمان . وبينما يعتبر الشيشانيون يوم ٢٣ فبراير يوافق « ذكرى المأساة الكبرى » ، تحتفل روسيا في هذا اليوم تحديدا بعيد القوات المسلحة .

وفي جمهوريات آسيا الوسطى أكثر من قنبلة موقوتة تنتظر الانفجار ، بعد تفكيك الاتحاد السوفيتي السابق في مطلع التسعينيات ، خاصة في آذربيجان وطاجيكستان وأوزبكستان . والعامل الإسلامي يلعب الدور الأول في تلك الجمهوريات ذات الأغلبية المسلمة . والاتجاه السائد في الحياة الدينية هو الأصولية ، التي تدعو إلى الجهاد، وتعمل على اجتذاب سائر الحركات الوطنية .

وللمرة الأولى في تاريخ روسيا المعاصرة ، يلجأ الكرملين إلى أسلوب التعامل المزدوج ، من تشدد وتحرك عسكري ، كما هي الحال في الشيشان وداغستان ، أو التهدئة كما يحدث الآن في جمهورية قرة شايفو الشركسية ، أو في الأنجوش التي تضخ إليها موسكو الجرعات المالية ، وتعمد إلى فتح المزيد من الأسواق الحرة فيها ؛ لامتصاص الغضب المكتوم .

وتقع جمهورية قرة شايفو الشركسية في القسم الأوسط من شمال القوقاز ، وتحدها جورجيا وأبخازيا جنوبا ، وروسيا شمالا وغربا ، وتقع في الشرق منها البقع الساخنة جدا فى القوقاز : أوسيتيا والأنجوش والشيشان وكاباردينو- بالكاريا . وتعد جمهورية قرة شيفو الشركسية الآن أحدث « دمل متقيح » ينفجر في القوقاز الروسي ، ولكنه على الأرجح لن يكون الأخير ؛ إذ إن الوضع فى ناجورنو قرة باخ يزداد اشتعالا بمرور الوقت بين أذربيجان وأرمينيا .

والصراع على التبت التي غزتها الصين سنة ١٩٥٠ له بعد ديني ، حيث عمدت السلطات الصينية إلى إزالة المراكز الدينية في المنطقة ، وتشير بعض التقديرات إلى مقتل نحو ١,٢ مليون مواطن من التبت منذ استيلاء الصين على المنطقة . لكن أتباع « الدالاي لاما » - الذي فر من التبت سنة ١٩٥٩ - احتفظوا بولائهم الروحي لزعيمهم البوذي ، الذي يعتبرونه التجسد الرابع عشر لـ« الدالاي لاما » الأول .

في قلب أوروبا ، شهدت الأقليات المسلمة خلال عقد التسعينيات في البوسنة والهرسك وكوسوفا حملات تطهير عرقية وعمليات إبادة منظمة ، شنتها القوات الصربية بشكل أساسي ، والكرواتية إلى حد ما ، مما أوقع عشرات الألوف من القتلى ، وشرد مئات الألوف في أنحاء الغرب . ووقف العالم يتفرج على المذابح البشعة والقصف الوحشي للقوات الصربية دون أن يتم التصدي بشكل فعال لجنرالات القتل من أمثال الرئيس « سلوبودان ميلوسيفيتش » - الذي سقط في انتخابات سبتمبر ٢٠٠٠ وأقر بالهزيمة عقب ثورة أكتوبر الشعبية ، ثم قدم إلى محكمة لاهاي الدولية كمجرم حرب- والجنرال « راتكو ملاديتش » ، و « رادوفان كاراجيتش » .

وبعد أن تحول الوضع في البوسنة ثم كوسوفا إلى كارثة إنسانية بكل المقاييس ، تذكر العالم فجأة تلك الحرب المنسية ، وبدأت الولايات المتحدة تقود « الناتو » في

حملة عسكرية لإجبار الصرب على وقف عمليات الإبادة الوحشية ، في محاولة لتطبيق اتفاق « رامبوبيه » للسلام بالنسبة لكوسوفا ، مثلما عملت على تطبيق اتفاق «دايتون» بالنسبة للوضع في البوسنة والهرسك من قبل .

ولعل المفارقة الواضحة في هذا الصدد ، تبرز في وضع إقليم تيمور الشرقية -ذي الأغلبية المسيحية- الذي تحركت الولايات المتحدة والقوى الغربية بسرعة شديدة ومارست ضغوطًا على حكومة إندونيسيا ، لينال الإقليم استقلاله في ١٩٩٩ ، وليصبح « زانانا جوسماو » القائد الأبرز لتيمور الشرقية و« البطل » الذي تستقبله العواصم الغربية بحفاوة بالغة .

التليفزيون .. ممنوع

وفي أفغانستان ، أدى الفراغ السياسي الناجم عن انهيار نظام الحكم الموالي للسوفيت ، والتقاتل بين الجماعات بعد سقوط « نجيب الله » في أبريل ١٩٩٢ ، ورحيل « برهان الدين رباني » عن كابول في سبتمبر ١٩٩٦ ، إلى ظهور حركة «طالبان» المتشددة التي يقودها الطلبة والدارسون للدين . وتحت حكم «طالبان» أصبحت الأوضاع الدينية متشددة في أفغانستان؛ إذ تم تهميش دور المرأة ومنعها من حق التعليم والحياة العامة ، وجرى منع انتشار التليفزيون الذي تحول إلى رجس من عمل الشيطان ! ومن قبل كانت القوات السوفيتية قد غزت الأراضي الأفغانية في ١٩٧٩ ، ولكن قوات «المجاهدين» تمكنت من التصدي والمقاومة لهذا الزحف السوفيتي .

وبعد عشر سنوات كاملة من القتال فوق الأراضي الأفغانية ، اضطرت القوات السوفيتية إلى الانسحاب في ١٩٨٩ ، ليبدأ فاصل جديد من التقاتل الداخلي ، والحرب الأهلية بين الحركات والجماعات الأفغانية ، لتبرز أسماء «برهان الدين رباني»، و « قلب الدين حكمتيار » ، و « أحمد شاه مسعود » - الذي اغتيل في سبتمبر ٢٠٠١ - ، و « عبد الرشيد دوستم» ، قبل أن تسيطر القوات الموالية لحركة «طالبان» بقيادة « ملا محمد عمر » - وهو أعور - على ثلثي الأراضي الأفغانية في ١٩٩٧ .

وتصر الولايات المتحدة على أن «طالبان» تستضيف « أسامة بن لادن » ، المتهم

بتمويل الإرهاب الدولي ، والذي تُحَمِّلُه واشنطن مسئولية عمليتي تفجير السفارتين الأمريكيتين في نيروبي ودار السلام في ٧ أغسطس ١٩٩٨ ، واللتين أودتا بحياة ٢٦٨ شخصا ، وتشك في تورطه في تفجير المدمرة الأمريكية « كول » في ١٢ أكتوبر ٢٠٠٠ قرب سواحل اليمن ، مما أدى إلى مصرع ١٧ بحارا أمريكيا .

« بن لادن » (المولود سنة ١٩٥٧ لأب عصامي ، جمع المليارات من مجال الإنشاءات) الذي جرد من جنسيته السعودية سنة ١٩٩٤ ، بسبب تورطه في تمويل المتطرفين دينيا ، عضو فاعل في جبهة تسمي نفسها « الجبهة العالمية الإسلامية للجهاد ضد اليهود والصليبيين » ، وهو بثروته الشخصية الموروثة ، ومصالحه الاستثمارية الكبرى ، وبإسهام عدد من المتعاطفين معه في عدد من الدول ، يدرب ويمول ويقدم دعما لوجستيا (إمداد معلومات وخلافه) لعدد من الجماعات الدينية والمتطرفة ، التي تستهدف مصالح الولايات المتحدة في أنحاء العالم .

بدأ نشاط « بن لادن » في أفغانستان عقب الغزو السوفيتي سنة ١٩٧٩ (وهي السنة نفسها التي أنهى فيها دراسته الجامعية) عندما سافر إلى باكستان وقابل لاجئين وزعماء معارضة من أفغانستان ، قبل أن يعود إلى بلاده ويبدأ في إرسال أموال لحركات المقاومة الأفغانية . وفي ١٩٨٤ أقام دار ضيافة في مدينة بيشاور الباكستانية على الحدود ؛ لإيواء المتطوعين العرب قبل ذهابهم للقتال في أفغانستان ، ثم أقام معسكرات في أفغانستان لدعم المقاومة الأفغانية .

وبعد تجريده من الجنسية السعودية ، ومغادرته بلاده لمعارضته للوجود العسكري الأمريكي ، قضى « بن لادن » فترة في السودان ، ثم غادره إلى أفغانستان ليستقر هناك . وقد رصدت السلطات الأمريكية مكافأة ، تبلغ قيمتها خمسة ملايين دولار لمن يساعد على اعتقال « بن لادن » .

ومن أشهر المتشددين الإسلاميين في نهاية القرن العشرين « أيمن الظواهري » وهو طبيب مصري ، والشيخ « مير حمزة » ، وهو مسئول الجماعة الإسلامية في باكستان ، و « عماد مغنية » ، وهو مسئول الأمن في جماعة « حزب الله » اللبنانية ، خطط لتفجير ثكنات جنود المارينز الأمريكيين في بيروت في ٢٣ أكتوبر ١٩٨٣ ؛ مما أدى إلى مصرع

نحو ٢٤٢ أمريكيا ، و « جمعة نامانجاني » ، القائد العسكري للحركة الإسلامية في أوزبكستان .

ويبقى الصراع المشتعل بين باكستان والهند منذ سنة ١٩٤٧ على ولاية جامو وكشمير هو أحد نماذج الصراع الديني بين دولتين جارتين ، وآخر جولات النزاع في صيف ١٩٩٩ كادت تهدد بنشوب حرب ثالثة بين الهند وباكستان .

وفي الجزائر ، أدى رفض النظام الاعتراف بالهزيمة في الانتخابات النيابية ، وإلغاء الجولة الثانية من الانتخابات ، إلى اختفاء جبهة الإنقاذ الإسلامية بزعامة «عباس مدني» (٦٧ سنة) و « علي بلحاج » (٤٤ سنة) وصعود دور الجماعات المسلحة والمتشددة ، التي اتهمت بارتكاب عمليات إرهابية ومجازر بشعة ، لتغرق الجزائر في بحر من الدماء ، كلف البلاد - حسب بعض التقديرات- أرواح أكثر من ٣٠٠ ألف شخص . لكن الجزائر بدأت في عهد الرئيس « عبد العزيز بوتفليقة » - الذي انتخب في أبريل ١٩٩٩ ، وهو بالمناسبة أعزب-صفحة جديدة من المصالحة والوفاق الوطني ، لمداواة جروح الماضي ، بعد أن خسرت خلال حرب الإرهاب نحو نصف ما تكبدته من أرواح الشهداء خلال « حرب التحرير » من فرنسا .

وفي السودان ، قاد « حسن عبد الله الترابي » - المولود في مدينة كسلا زنبقة السودان الشرقي سنة ١٩٣٢ - بلاده نحو النموذج الأصولي منذ استيلاء الجناح العسكري لحزب الجبهة القومية الإسلامية ، الذي تزعمه على السلطة في ٣٠ يونيو ١٩٨٩ بالتنسيق مع السودانيين الأفغان ، لتسقط حكومة « الصادق المهدي » - وهو بالمناسبة شقيق زوجة « الترابي » - المنتخبة ، وليصبح « الترابي » « الأب الروحي » للحكم العسكري و« ثورة الإنقاذ » ، يحرك الأمور من وراء ستار ، ويدعم تنظيمات أصولية ومتطرفة في دول عربية مجاورة من بينها مصر . لكن الرئيس السوداني « عمر البشير » اتخذ اعتبارا من نهاية١٩٩٩ سلسلة إجراءات؛ للتخلص من «الترابي» ونفوذه المتزايد في دوائر صنع القرار . و « الترابي » الذي بايع الرئيس السوداني المخلوع «جعفر نميري» إماما ، واستحدث تعبير « الفقه الأمني » الذي يجوز بموجبه : « اتخاذ وسائل المراقبة والاستعلام والتجسس على الآخرين ، والنيل منهم من حيث لا يعلمون» ، انضم إلى تنظيم الإخوان المسلمين سنة ١٩٥٤ ، ودرس في كلية الحقوق بجامعة

الخرطوم ، ثم نال الماجستير من إنجلترا ودرجة الدكتوراه في القانون الدستوري من فرنسا سنة ١٩٦٤ .

وفي أيرلندا الشمالية ، أخذ النزاع بين البروتستانت والكاثوليك شكلا دمويا ومواجهة صريحة ، حتى تحولت بلفاست إلى بؤرة توتر دائمة ، وصداع في رأس الحكومة البريطانية منذ الستينيات . ففي أغسطس ١٩٦٩ ، وعقب أعمال شغب علمانية في لندنديري وبلفاست ، تم إرسال الجيش البريطاني إلى أيرلندا الشمالية لاحتواء الموقف . وسرعان ما تأسست منظمة الجيش الجمهوري الأيرلندي بحلول نهاية تلك السنة . وفي ٣٠ يناير ١٩٧٢ وقعت مصادمات في لندنديري بين المتظاهرين من أنصار الحقوق المدنية والجنود البريطانيين الذين أطلقوا النار على الحشود ، مما أدى إلى مصرع ١٣ كاثوليكيا . وعقب « الأحد الدامي » زادت حدة المعارضة الكاثوليكية للوجود البريطاني . واستأنفت بريطانيا الحكم المباشر في مارس ١٩٧٢ ، لتحل محل حكومة الحزب الاتحادي ؛ الأمر الذي عزل البروتستانت . وفي ٢٢ فبراير ١٩٧٢ دشنت منظمة الجيش الجمهوري الأيرلندي هجماتها بالقنابل في انجلترا ، بتدبير انفجار في مقر عسكري في ألدرشوت ؛ مما أسفر عن مقتل سبعة أشخاص وإصابة أكثر من ١٢ آخرين بجروح .

وفي ٢٧ أغسطس ١٩٧٩ ، وفي أثناء إبحاره في مياه أيرلندا ، قتل اللورد «مونتباتن» وثلاثة آخرون في انفجار دبرته منظمة الجيش الجمهوري . وبعد ساعات قلائل قتل ١٨ جنديا بريطانيا في هجوم حدودي نفذته تلك المنظمة .

وفي ٥ مايو ١٩٨١ ماتت « بوبي ساندز » من الجيش الجمهوري الأيرلندي داخل سجن ميز في بلفاست ، وذلك في اليوم السادس والستين من إضرابها عن الطعام ؛ احتجاجا على رفض بريطانيا منح وضع سياسي للسجناء الجمهوريين . ومات تسعة آخرون قبل إلغاء الإضراب عن الطعام . وفي ١٢ أكتوبر ١٩٨٤ أفلتت رئيسة الوزراء « مارجريت ثاتشر » من الموت ، نتيجة انفجار دبرته منظمة الجيش الجمهوري ، هز فندق جراند هوتيل في برايتون خلال المؤتمر السنوي لحزب المحافظين ، وأدى إلى مصرع خمسة أشخاص ، وإصابة ٣٠ آخرين بجروح . وفي ١٥ نوفمبر ١٩٨٥ وقعت « ثاتشر » ورئيس الوزراء الأيرلندي « جاريت فيتزجيرالد » الاتفاق الإنجليزي-

الأيرلندي الذي عزز التعاون بين لندن ودبلن ، ومنح أيرلندا دورا استشاريا في شئون أيرلندا . لكن سياسيي الحزب الاتحادي رفضوا الاتفاق .

وفي ١٥ ديسمبر ١٩٩٣ وقع رئيس الوزراء البريطاني « چون ميجور » ، ونظيره الأيرلندي « ألبرت رينولدز » على إعلان داوننج ستريت ، الذي وضع إطار التسوية السلمية ، غير أن الإعلان لقي معارضة من الاتحاديين و« شين فين » الذي يعد الجناح السياسي للجيش الجمهوري الأيرلندي .

وفي ٣١ أغسطس ١٩٩٤ أعلنت منظمة الجيش الجمهوري « الوقف الكامل لكل العمليات العسكرية » ليعقد أول اجتماع عام بين شين فين والحكومة في ديسمبر من تللك السنة . وفي ديسمبر ١٩٩٥ اختير السيناتور الأمريكي « چورج ميتشيل » للإشراف على محادثات السلام . وأوصى تقرير « ميتشيل » في يناير ١٩٩٦ بمشاركة جميع الأحزاب في المحادثات وفق ستة مبادئ ، من بينها نزع سلاح القوات غير النظامية .

لكن منظمة الجيش الجمهوري أنهت الهدنة في ٩ فبراير ١٩٩٦ بانفجار في لندن قتل اثنين ، وتسبب في خسائر مادية جسيمة . وبعد اتهامات متبادلة استؤنفت الهدنة في ١٩ يوليو ١٩٩٧ . وفي ١٠ إبريل ١٩٩٨ أبرم اتفاق « الجمعة الطيبة » الذي نص على إجراء انتخابات نيابية ، وتشكيل حكومة متعددة الأحزاب ، غير أن انفجاراً مروعا وقع في بلدة أوماه غربي بلفاست في ١٥ أغسطس ١٩٩٨ ، نفذته جماعة منشقة تسمى « الجيش الجمهوري الأيرلندي الحقيقي » أدى إلى مصرع ٢٩ شخصا ، وإصابة ٢٢٠ آخرين بجروح .

وعلى الرغم من التوصل إلى خطة واتفاق سلام بين حزب أولستر الاتحادي وشين فين في أيرلندا الشمالية في نوفمبر ١٩٩٩ ، فإن المباحثات بين أطراف الصراع -وهو ديني في الأساس- مازالت تتلمس طريقها للتوصل إلى تطبيق هادئ ، يحاول إخماد نار العداء وعقود الكراهية المتبادلة بين البروتستانت والكاثوليك في تلك المنطقة من العالم .

أما في تركيا . . فإن « مصطفى كمال أتاتورك » - الذي أطلق آخر رصاصة رحمة على الخلافة العثمانية ، وأعلن إقامة دولة علمانية فيها خلال القرن العشرين ، وألغى

عديداً من القواعد والأسس الدينية مثل الحجاب - قد يفاجأ لو عاد إلى الحياة ووجد أن « نجم الدين أربكان » زعيم حزب «الرفاه» ، الإسلامي يقود حزبه إلى الفوز سنة ١٩٩٥ في انتخابات المجالس البلدية بأكبر عدد من المقاعد ، ثم الحصول على ١٥٨ مقعدا في البرلمان في مطلع ١٩٩٦ ، قبل أن يتولى رئاسة حكومة ائتلافية قصيرة العمر في السنة نفسها . و إذا كان « أربكان » الذي يكنى باسم « أبو مجاهد » قد جعل «أتاتورك» يتقلب في قبره ، فإن تركيا كانت ساحة لجدل كبير في ١٩٩٩ حول نائبة حزب «الفضيلة» « مروة قاوقجي » ، التي رفض البرلمان عضويتها ، وتم حرمانها من الجنسية التركية بعد أن استمسكت بالحجاب !

محطات أساسية

ولعل أحد أبرز الأحداث الدينية خلال القرن العشرين - وفق تقرير لوكالة الأنباء الفرنسية - هو إنهاء الفاتيكان بقايا ملفات التحقيق عن محاكم التفتيش والتعذيب في ١٩٠٨ . وفي ١٩١٧ سيطر البلاشفة على السلطة في روسيا ليؤسسوا النظام الشيوعي في إمبراطورية متسعة الأرجاء .

وفي مارس ١٩٢٨ أنشئت حركة « الإخوان المسلمون » في مدينة الإسماعيلية ، لتولد من رحمها عديداً من الحركات والجماعات الأصولية والمتطرفة ، خلال العقود القليلة الماضية . أسس جماعة الإخوان « حسن البنا » ، المولود في قرية المحمودية - محافظة البحيرة في أكتوبر ١٩٠٦ . تخرج« البنا » في كلية دار العلوم في ١٩٢٧ ، ثم شكل الجماعة وأثر في نفوس الكثيرين بدعوته وشخصيته . تميزت جماعة الإخوان المسلمين عن غيرها من الجماعات بالشخصية القوية لمؤسسها ومرشدها العام ، وحسن تنظيمها . وفي ١٩٣٢ انتقلت جماعة الإخوان المسلمين إلى القاهرة .

ومع بداية الحرب العالمية الثانية نمت الجماعة الدينية ، وتشعبت إلى شبكة عمل تغطي أنحاء البلاد ، وجذبت إليها العمال والمزارعين والطلاب وموظفي الحكومة على حد سواء . وسرعان ما دخلت الجماعة في دوامة العنف السياسي . وفي ١٩٤٨ ، وبعد سنة من الاغتيالات وتدبير الانفجارات ، قامت الحكومة السعدية برئاسة «محمود فهمي النقراشي » باشا ، بحل جماعة الإخوان المسلمين . وبعدها بأيام لقي

«النقراشي» مصرعه على يد أحد أعضاء الجماعة ، قبل أن يتعرض البنا نفسه للاغتيال في ١٢ فبراير ١٩٤٩ ، في مؤامرة تورطت فيها حكومة « إبراهيم عبدالهادي » السعدية بتواطؤ من القصر والبوليس السياسي .

وأصبح الداعية الإسلامي الشيخ « محمد متولي الشعراوي » (١٩١١-١٩٩٨) أشهر واعظ تليفزيوني خلال العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين ، بفضل برنامجه الذي كان يقدم فيه خواطر عن آي الذكر الحكيم ، وكان قد تولى منصب وزير الأوقاف لفترة وجيزة (١٩٧٦-١٩٧٨) . وتأثر العالم الإسلامي بأفكار عدد من الكتاب والمفكرين الإسلاميين ، مثل ابني شبه القارة الهندية : « أبو الأعلى المودودي » (١٩٠٣-١٩٧٩) ، والعلامة « أبو الحسن الندوي » (١٩١٣-١٩٩٩) ، والمصريين : «سيد قطب» (١٩٠٦-٢٦ أغسطس ١٩٦٦) الذي أعدم بعد محاكمته ، والشيخ «يوسف القرضاوي» (٩ سبتمبر ١٩٢٦-) أبرز دعاة الوسطية ، والشيخ « محمد الغزالي » (٢٢ سبتمبر ١٩١٧-مارس ١٩٩٦) ، و « فهمي هويدي » (أغسطس ١٩٣٧-) ، والدكتور « محمد عمارة » (١٩٣١-) ، ومفتي السعودية الشيخ «عبد العزيز بن باز » (١٩١٢-١٣ مايو ١٩٩٩) ، والإيراني الدكتور « علي شريعتي » (ديسمبر ١٩٣٣-١٩٧٧) ، والتونسي الدكتور « رشيد الغنوشي » .

وفى ١٩٤٧ تم تقسيم الهند وفق اعتبارات دينية لتولد باكستان ، ثم تنشأ بعد ذلك بنجلاديش وهما ذواتا أغلبية مسلمة . وفي مايو ١٩٤٨ تأسست إسرائيل على أسس ودعاوى دينية ، على الرغم من كونها حركة صهيونية في الأساس .

وفي الفترة بين ١٩٦٢ و١٩٦٥ تأسس مجلس الفاتيكان الثاني ، ثم أصبح البابا «يوحنا بولس الثاني» في ١٩٧٨ أول بابا من بولندا ، وكان لذلك الأمر إيحاءاته السياسية ، إذ أسهم فى إسقاط الشيوعية في بولندا وشرقي أوروبا . ولا يمكن إغفال دور الثورة الإيرانية في ١٩٧٩ بقيادة « الخميني » في إسقاط حكم الشاه ، وإقامة دولة تعتمد على الدين وتطبيق الشريعة -وفق المفهوم والمنظور الإيرانيين- مما غير من وجه إيران وربما المنطقة بأكملها .

على أن إيران تحت قيادة « محمد خاتمي » ، الذي انتخب رئيسا في ٢٣ مايو ١٩٩٧ أسهم في دعم توجه الإيرانيين نحو الاعتدال ، على الرغم من المقاومة القوية

من جانب المعسكر المحافظ . في ١٨ فبراير ٢٠٠٠ انتزع التيار الإصلاحي السلطة التشريعية من أيدي المحافظين في الانتخابات البرلمانية ، كمؤشر آخر علي أن تيار الاعتدال في إيران يحظى بتأييد شعبي .

الانتحار الجماعي

وفى ١٩ إبريل ١٩٩٣ قتل ٨٠ شخصا من أعضاء طائفة الداووديين في هجوم فيدرالي أمريكي على واكو ، وكان من بين القتلى في الهجوم زعيم تلك الطائفة ويدعى « ديفيد قورش » . هذا الحادث - الذي اعتبرته السلطات الأمريكية نوعًا من الانتحار الجماعي لتلك الطائفة ، وجادل كثيرون بأنه جريمة قتل رسمية باستخدام أسلحة ومعدات حديثة ، أشعلت النار في المجمع الذي حوصر داخله أبناء تلك الطائفة- سبقه أكثر من انتحار جماعي لجماعات وطوائف مختلفة ، مثلما حدث حين انتحر ٩٢٣ شخصا في چونزتاون في جويانا في ١٣ نوفمبر ١٩٧٨ ، بعد أن خدعهم «الإمبراطور» « چيم چونز » زعيم طائفة « هيكل الشعب » ، وأقنعهم بضرورة الانتحار عن طريق تناول أغلبهم شرابا ممزوجا بحامض السيانيد ، بينما أطلق بعض أتباع الطائفة النار على البعض الآخر بأمر من الأمريكي الأسود « چونز » ، الذي زعم لهم أنه يجسد « السيد المسيح » و « لينين » ، وأنه ابن روحي للزعيم الصيني « ماو تسي تونج » !

وقد عثر على « چونز » بعد أن قتل برصاصة في رأسه . وفي ٣ يونيو ١٩٨٣ ، وقعت في سميث فيل بولاية أركنساس الأمريكية معركة بالأسلحة النارية بين قوات الشرطة وأتباع منظمة ، أطلقت على نفسها اسم « حشد التشريع » ، كانت تعترض على الضرائب ونظام الحكومة الحديثة بصورة عامة . وأودت المجابهة بحياة شخصين ، هما : زعيم المجموعة چوردون كاهل ، وقائد الشرطة في المنطقة . وفي ١٣ مايو ١٩٨٥ ، قتلت قوات الشرطة في فيلادلفيا بولاية بنسلفانيا الأمريكية ١١ شخصا من أتباع طائفة اسمها « الحركة » ، عندما اقتحمت مقر الطائفة بعد يوم من محاصرته .

وفي جزيرة مندناو الفلبينية ، انتحر نحو ٦٠ من أفراد قبيلة « آتا » في ١٩ سبتمبر ١٩٨٥ بتناول السم ، بناء على أوامر زعيمهم الديني « داتو منجايانون » . وعثر على جثث سبع نساء في ١ نوفمبر ١٩٨٦ في واكاياما غربي اليابان ، وإلى جانب الجثث

رسالة تقول إنهن قتلن أنفسهن بعد موت زعيمهن الروحي « كيوهارو مياموتو » . وفي أغسطس ١٩٨٧ ، عثر على ٣٢ شخصا من أتباع الكاهنة « بارسون جا » ، التي ادعت الألوهية ، قتلى قرب العاصمة سول . وذكرت الشرطة أن معظمهم ماتوا نتيجة تناول السم .

وفي سويسرا وكندا عثر على جثث ٥٣ شخصًا من أتباع طائفة «الهيكل الشمسي» ، بعد أن نفذوا عملية انتحار جماعي في ٤ و ٥ أكتوبر ١٩٩٤ ، بناء على أوامر من البلجيكي « لوق جوريه » الزعيم الأيديولوجي للطائفة ، والكندي « چوزيف دي مامبرو » الزعيم الروحي . وشهدت ضاحية رانشو سانتا في الكائنة في ولاية كاليفورنيا الأمريكية حادثا مماثلاً في الفترة بين ٢٣-٢٥ مارس ١٩٩٧ عندما أقنع زعيم جماعة « بوابة الفردوس » أتباعه بفكرة الانتحار الجماعي ، زاعمًا لهم أنهم بعد أن ينجحوا في تصفية أنفسهم جسديا . . فإن أرواحهم سيتم نقلها على متن طبق طائر ، وزائرين من السماء وراء مذنب « هال - بوب » .

وقد عثرت الشرطة الأمريكية على شريط فيديو تركه «مارشال هيرف أبلوايت» ، المعروف باسم « دو » زعيم الجماعة وأتباعه - الذين استخدموا مواقع على شبكة الإنترنت لترويج أفكارهم الغريبة - تحدثوا فيه بانفعال عن رغبتهم الجامحة في الانتقال إلى المرحلة التالية من حياتهم أو «مغادرتهم لهذا الكوكب» على حد تعبيرهم . وفي نهاية الأمر عثرت الشرطة على جثث ٣٩ ضحية تتراوح أعمارهم بين ٢٦-٧٢ سنة ، انتحروا وهم يرتدون ملابس أنيقة وكأنهم على موعد مع الموت !

وحظرت اليابان نشاط جماعة « أوم شينريكيو » أو « الحقيقة السامية » التي تزعمها « شوكو أساهارا » ؛ لاتهامها بمقتل عدد من الأشخاص بعد تسريب غازالسارين السام عبر فتحات التهوية فى محطات مترو الأنفاق في العاصمة طوكيو في ٢٠ مارس ١٩٩٥ ، مما أودى بحياة ١٢ شخصا ، بينما أصيب ٥٥٠٠ آخرون باختناقات وحالات إغماء . وفي ١٩ إبريل ١٩٩٥ وقع حادث هجوم مماثل بغاز السارين في مدينة يوكوهاما ، أدى إلى إصابة ٤٠٠ شخص . وكشفت التحقيقات أن « أساهارا » كان يعظ أتباعه دائما محذراً من « تجفيف الروح البشرية » ، وكان يطلق

على نفسه «المسيح» و« بوذا العائد متجسدا » . بل إن أساهارا شكل حكومة سرية موازية للحكومة اليابانية أملا في الاستيلاء على الحكم يوما ما .

اللافت للنظر أن « الحقيقة السامية » ليست سوى واحدة من ١٨٣ ألف جماعة دينية يابانية ، وأبرزها جماعتان هما « نور الحقيقة » التي أسسها « كوتاما أوكادا » خلال عقد الستينيات ، و« مون » التي أسسها في سنة ١٩٥٤ « سون ميونج مون » ، المولود في كوريا الشمالية في ٦ يناير ١٩٢٠ .

ويزعم « مون » أن المسيح ظهر له يوم عيد الفصح سنة ١٩٣٦ ، وكلفه بإقامة مملكة سماوية على الأرض . ونشر «مون » في ١٩٥٧ كتابه الأساسي « مبادئ إلهية » الذي يقول فيه : « أنا المعلم ، لم أكتشف الحقيقة فحسب ، بل إنني أجسد الحقيقة كلها . إذا شعر المريدون أن الموت فرح ، فإن عليهم أن يقدموا على ذلك . إنني أطلقت نظرية يساومني عليها الله لشرائها . . إنني المعلم . . إنني الحقيقة » !

والمذهل أن هناك عشرات الألوف ممن يصدقونه !

وفي نوفمبر ١٩٩٩ عثرت الشرطة اليابانية على جثة محنطة لأحد أتباع جماعة تعرف باسم « فضاء الحياة » ، وزعمت أسرته أنه لا يزال على قيد الحياة ، وأن معلم الجماعة « كوجي تاكاهاشي » يعالجه من نزيف في المخ بضربات على الرأس ! وقد اعتقل « تاكاهاشي » ووجهت إليه تهمة القتل .

ولم يسمع الكثيرون عن طائفة « فالون جونج » إلا في إبريل ١٩٩٩ ، حين اصطف نحو عشرة آلاف من أبناء الطائفة في شوارع العاصمة الصينية بكين في مسيرة احتجاج لافتة للأنظار . ومنذ ذلك الوقت ، وعلى الرغم من حظر السلطات الصينية لتلك الطائفة واعتقال ثلاثة آلاف ومقتل العشرات من أتباعها ، فإن « فالون جونج » التي يتزعمها لي هونجزهي (٤٩ سنة) - الذي يعيش في منفاه في الولايات المتحدة منذ سنة ١٩٩٦ - بدأت تكتسب المزيد من الأتباع ، الذين يقدر عددهم بنحو ١٠٠ مليون شخص في الصين ، وليصبح لها أعضاء جدد في ٤٠ دولة .

* * *



جون لينون مع فريق « البيتلز » الغنائي



بروس لي

ربما كانوا نجوم القرن ، لكنهم احترقوا سريعا مثل الشهب والنيازك !

سنوات عمرهم القصيرة حفلت بالشهرة ، والنجومية ، وهتافات المعجبين . . لكن النهايات المفاجئة ، والأقدار الدامية ، وضعت حدا لحياتهم .

ومع ذلك ، فإن هؤلاء النجوم تحولوا إلى أسطورة في عالم الفن أو الرياضة أو السياسة . . فمات النجم وعاشت الأسطورة، على غرار ما قاله ذات يوم الروائي الأمريكي « سكوت فيتز جيرالد » «أعطني بطلا . . لأكتب لك مأساة » !

14

مات النجم .. عاشت الأسطورة



مارلين مونرو

في صباح الأحد ٣٠ أغسطس ١٩٩٧ ، رحلت عن عالمنا الأميرة « ديانا » مع صديقها المصري « عماد الفايد » ، إثر حادث سيارة مازال مثيرا للغموض في العاصمة الفرنسية باريس . ولئن كان « عماد الفايد » الشهير بلقب « دودي » جديدا على عالم الأساطير ، حيث إن اسمه لم يكن لينتشر مع صوره ، إلا بفضل العلاقة العاطفية التي أقامها في صيف ١٩٩٧ مع أميرة ويلز المتمردة ، فإن «ديانا» (١ يوليو ١٩٦١-١٩٩٧)، لم تكن بحاجة إلى ذلك الموت المأساوي لكي تدخل عالم الأساطير .

فمنذ مطلع الثمانينيات ، حين اقترنت بالأمير « تشارلز » ولي عهد بريطانيا ، تمكنت « ديانا » من الحلول تدريجيا محل مختلف الأساطير التى صنعها القرن العشرون لنفسه ، من « مارلين مونرو » إلى « چون كيندي » ، ومن « رومى شنايدر » إلى «إيزادورا دنكان» ، و من « چاكلين أوناسيس - كيندي » إلى « داليدا » و «جريس كيلي» . و « ديانا » تملك كل المقومات التي مكنتها من ذلك : الجمال أولا ، والأناقة ثانيا ، وحكاية سندريلا التي أحاطت بتألقها على ساحة العالم كله ، وبعد ذلك مأساة حياتها الزوجية ، ووجهها المثير للشفقة ، واهتمامها بالقضايا الإنسانية ، وكونها الأميرة المنتمية إلى العائلة المالكة البريطانية التي تحولت إلى « أميرة الشعب » و« أميرة القلوب » .

« ديانا » ابنة العائلة الأرستقراطية ، وابنة الطلاق الذي وقع باكرا بين والديها ، تحولت في مطلع الثمانينيات إلى زوجة لولي عهد بريطانيا ، وكانت لم تبلغ العشرين من عمرها . يومها أطلت على الناس بابتسامتها المتألقة وبساطتها وجمالها ، الذي كان لا يزال بحاجة إلى أن يكتمل . ذلك الجمال اكتمل بالتدريج ، منذ اليوم الأخير من شهر يوليو ١٩٨١ ، موعد زواجها بـ«تشارلز» . وبقدر ما راح العالم يكتشفها ويحبها ، أميرة سعيدة ثم أما هادئة ، ثم سيدة مجتمع من طراز رفيع ، بقدر ما راحت « ديانا » تزداد جمالا وتألقا وأناقة ، وراحت عشرات الملايين من نساء العالم يقلدنها في تصفيفة شعرها ، وابتسامتها ، وأناقتها ، ومشيتها .

ولكن راحت الغيوم تخيم على حياتها العائلية ، وبدأ التناقض يظهر بينها وبين زوجها الأمير « تشارلز » ، وراحت الصحافة تتحدث عن مغامرات له ، وعن مغامرات لها ، وهكذا انتقلت « ديانا » من صحافة المجتمع إلى صحافة الفضائح .

وكان الطلاق الذي أعلنه رئيس الوزراء البريطاني - آنذاك - « جون ميجور » في ١٩٩٦ ، بعد أن اعترف « تشارلز » في حديث تليفزيوني أجري معه في يوليو ١٩٩٤ بإقامته علاقة غير مشروعة مع سيدة أخرى ، كما اعترفت « ديانا » في حديث مثير لمحطة « بي . بي . سي » في ١٩٩٥ بعلاقتها العاطفية مع الضابط « چيمس هيويت » ، الذي غدر بها وكشف تفاصيل علاقته معها مقابل إغراء مالي . غير أن الطلاق لم يمنع الصحف من متابعة أخبار « ديانا » وغرامياتها الجديدة ، حتى نشأت علاقة بينها وبين «عماد الفايد» ، خاصة بعد أن قضيا معا إجازة سعيدة ، توزعت بين الشاطئ الفرنسي في سان تروبيز ، وبحر جزيرة سردينيا في الشرق الإيطالي ، علاوة على شوارع إمارة موناكو التابعة للأمير « رينيه جاريبالدي » .

لكن آخر فصول القصة المأساوية لـ « ديانا » وقعت تفاصيله في رحلة سيارة من فندق «ريتز» في باريس مع « عماد الفايد » ، وانتهى الأمر بحادث أودى بحياة العاشقين ، وسط ذهول وتساؤلات وشكوك مازالت تدور في رءوس الكثيرين بشأن هذه النهاية الدامية لـ « أميرة القلوب » .

رمز الإغراء

« نورما چين بيكر » التي عرفها العالم باسم الشهرة « مارلين مونرو » ، ولدت في الأول من يونيو سنة ١٩٢٧ في لوس أنجلوس ، قبل أن تغير اسمها في سنة ١٩٤٦ ، بعد أن بدأت تعرف طريق الشهرة والنجومية . و « مارلين مونرو » التي كتب المؤلفون عنها أكثر من ٣٠٠ سيرة ذاتية ، ونشرت عنها أعداد لا تحصى من الوثائق والصور وتحولت إلى رمز للسينما والأنوثة معًا ، هذه النجمة التي أصبحت أيقونة لا يضاهيها اسم آخر في الولايات المتحدة - باستثناء « إلفيس بريسلي » ، و « چيمس دين » -

تحولت إلى علامة تجارية ومجال للاستثمار ، شأنها في ذلك شأن مشروب كوكاكولا وجينز « ليڤايس » .

ومما زاد من حجم أسطورة « مارلين مونرو » أنها ماتت - أو انتحرت - وهي في سن السادسة والثلاثين ، بعد أن شاركت في عدد محدود من الأفلام ، التي عززت من نجوميتها كنجمة إغراء لا مثيل لها . وبعد طفولة معذبة ، افترست هوليوود تلك النجمة ، وحولتها إلى سلعة ، عقب مرورها بمراحل عدة ، منها ظهورها عارية في تقويم زمني في ١٩٤٩ ، وتقديمها أول أدوارها السينمائية في فيلم « كل شيء عن حواء » في ١٩٥٠ ، وتألقها في فيلم « البعض يفضلونها شقراء » في ١٩٥٣ . ارتبطت «مارلين» في زواجها الثاني بلاعب البيسبول الشهير « چو دي ماجيو » في ١٩٥٤ ، ثم تزوجت المؤلف البارز « آرثر ميللر » في ١٩٥٦ ، كما أقامت علاقات مع المغني الشهير «فرانك سيناترا» ، والشقيقين الرئيس الأمريكي « چون كيندي » ، والمدعي العام «روبرت كيندي» .

وتاريخ « مارلين مونرو » حافل بالفضائح ، وحكايات الإجهاض ، وتناول العقاقير والأدوية بإفراط ، انتهاء بموتها المثير للجدل حتى الآن .

وربما كان للملابسات الغامضة لوفاتها علاقة بغرامياتها مع « چون » و « روبرت كيندي » . إن « مارلين » التي قدمت في ١٩٥٩ فيلم « البعض يفضلها ساخنة » ، بعد أن كانت قد فشلت فشلا ذريعا على مسارح برودواي في بداياتها ، وصفت يوما بأنها « أجمل شقراء على وجه الأرض » و « سندريلا السينما » - تفوقت في الشهرة على « چين هارلو » ، و « كارول لومبارد » ، و « چين مانسفيلد » ، و« مامي فاند أوين » ، و « مادونا » . غير أن ميراث «مارلين » الفني ليس كبيرا على أي حال ، ولكنها الأسطورة التي تحيط بها هي التي حولتها إلى رمز خالد للإغراء . . ويرى الكثيرون أنها لم تكن ممثلة موهوبة ، ولكن حضورها وأنوثتها وبحة صوتها -التي غنت بها ذات يوم « عيد ميلاد سعيد . . أيها الرئيس » فأدارت عقل « كيندي » والحضور - رفعتها إلى مصاف أشهر النجوم .

وعلى غرار اسم فيلمه « متمرد بلا قضية » عاش النجم السينمائي « چيمس دين » (١٩٣١-١٩٥٥) حياته القصيرة كرمز للشباب والتمرد . ولد « چيمس بايرون دين » في ٨ فبراير ١٩٣١ في فيرماونت في ولاية أنديانا الأمريكية . وخلال سنوات دراسته ظهر « چيمس دين » في عدد من المسرحيات ، وعمل في عدة وظائف ، مثل « منادي سيارات » في محطة التليفزيون « سي . بي . إس » قبل أن يتعرف إلى « روچرز براكيت » وهو منفذ إعلانات اشتهر بشذوذه الأخلاقي . تمكن « براكيت » من تقديم « دين » في عدة برامج إذاعية ، بالإضافة إلى دور قصير جدا في أفلام « سام فوللر » ، وفي فيلم « دين مارتن » و « چيري لويس » « حذار يا بحار » . لكن النجم الشاب كان يطمح إلى ما هو أكبر من ذلك ، وسرعان ما تحققت أحلامه لدى عرض مسرحية « شاهد الچاچوار» في ٣ ديسمبر ١٩٥٢ ، ثم تقدم خطوة أخرى في عمل مأخوذ عن رواية أندريه جيد « غير الأخلاقي » .

وكان « چيمس دين » محظوظا حين شاهد المخرج «إليا كازان» «غير الأخلاقي» ؛ إذ رشحه لدور رئيس في فيلم « شرقي عدن » ، وكانت ميزانية الفيلم ضخمة بمقاييس سنة ١٩٥٤ إذ بلغت مليونا و ٦٠٠ ألف دولار .

وفي ٤ يناير ١٩٥٥ أعلن أن « چيمس دين » وقع عقدا لأداء دور البطولة في فيلم «متمرد بلا قضية» من إخراج « نيكولاس راي » ، كما وقع عقب ذلك عقدا لأداء شخصية «جيت رتيك» في «العملاق» الذي أخرجه « چورچ ستيفنز » ، وشارك في بطولته « روك هدسون » ، و « إليزابيث تايلور » . وعلى الرغم من قصر قامته (١٧٠ سنتيمترا) فإن « چيمس دين » المشهور بملابس الچينز التي كان يرتديها ، والسيارات السريعة التي كان يهوى قيادتها ، تمكن من تحقيق شهرة مدوية كرمز للشباب والتمرد . وفي أحد أيام أغسطس من سنة ١٩٥٥ قاد « دين » سيارته «بورش ٥٥٠» وهو يحلم بمزيد من الشهرة ، بعد أن قدم ثلاثة أفلام كبيرة طوال مشواره السينمائي ، لكن السيارة - التي كانت تسير بسرعة لا تقل عن ٨٥ ميلا في الساعة - تعرضت لحادث أليم في أحد الطرق السريعة ، لينقل إلى المستشفى . لكن «چيمي» نقل إلى المستشفى مكسور العنق ، واعتبرت شهادة الوفاة أنه مات قبل وصوله إلى مستشفى ذكرى حرب

باسور ، ليموت النجم وتعيش الأسطورة ، وبحلول يوليو ١٩٥٦ كان الممثل المتوفى يتلقى على عنوانه سبعة آلاف رسالة شهريا من المعجبين .

التنـــين

وفي ٢٧ نوفمبر ١٩٤٠ ، «سنة التنين» وفق التقويم الصيني ، ولد « بروس لي » في أحد مستشفيات سان فرانسيسكو . كان أبوه « لي هوي شوين » مغنيا مغمورا ، يقوم بجوله فنية في الولايات المتحدة حين ولد هذا الابن ، أطلق « لي هوي » وزوجته «جريس» على ابنهما الرابع اسم « لي چون فان » الذي يعني «عد ثانية» . وفي سنة ١٩٤١ عاد بروس لي مع عائلته إلى هونج كونج ، ولكن في غضون سنة نشبت الحرب . وظلت طفولة « بروس لي » تقاسي ظروف الحياة تحت الاحتلال الياباني . ومع رحيل القوات اليابانية في سنة ١٩٤٥ ، بدأت مرحلة إعادة إعمار هونج كونج ، وكان الفن إحدى الصناعات التي أعطيت الأولوية .

أصبح « بروس » نجما في طفولته من خلال مشاركته في بعض الأعمال الفنية بفضل جهود والده . وفي سن السادسة ، حصل على دور في أحد أفلام هونج كونج وذلك سنة ١٩٤٦ ، وفي ١٩٤٩ بدأ بروس يتعلم الكونغ فو ، بعد أن شكا لوالديه تعرضه للإيذاء من جانب أحد زملاء الدراسة ، وتلقى تعليمه على يد أستاذ شهير يدعى « سيفويب مان » . وخلال الفترة بين ١٩٤٩ و ١٩٥٩ ، تدرب « بروس » على يدي أستاذه ، وأتقن فنون القتال بالأيدي والأرجل ، وفي سن الثامنة عشرة أصبح « بروس » خبيرا في الكونغ فو ، وبدأ يشكل أفكاره الخاصة بهذا الفن القتالي .

وفي ١٩٥٩ إعتقل « بروس » بسبب تورطه في مشاجرة دامية مع عصابة من الأشقياء ، وتعين على والدته أن توقع أوراقًا تقضي بتهذيب ابنها ، فقررت العائلة أنه من الأفضل إرسال الابن إلى الولايات المتحدة ، ليعود « بروس » بذلك إلى مسقط رأسه سان فرانسيسكو .

وفي الولايات المتحدة ، حيث كان الصينيون ينظر اليهم – آنذاك – على أنهم لا يصلحون إلا كخدم أو عمال قطارات ، بدأ « بروس » يشق طريقه ، عاش « بروس » – بحكم المولد – كمواطن أمريكي ، لكنه أقام في البداية في أحد الأحياء الصينية ،

ثم عمل في أحد المطاعم ، قبل أن يعود إلى المدرسة ثانية ويحصل على دبلوم الدراسة الثانوية .

وفي ١٩٦٢ التحق بجامعة واشنطن . وفي سياتل ، بدأ « بروس » يدرّس فنون الكونغ فو لمجموعة من الآسيويين ، قبل أن يتطلع إلى تحقيق الحلم الأمريكي الخاص به ، ونعني بذلك جمع الأموال .

وفي ١٩٦٣ أنشأ معهد « چون فان جونج فو » في سياتل ، وكان في ١٩٦٤ قد تزوج « ليزا إيمري » زميلته في الجامعة ، ثم انتقل إلى أوكلاند بولاية كاليفورنيا ، حيث أنشأ « بروس » فرعا ثانيا لمعهده للتدريب على الكونغ فو . وفي ١٩٦٤ أيضا شارك في بطولة الكونغ فو الأمريكية الأولى ، التي أقيمت في « لونج بيتش » في ولاية كاليفورنيا ، ففاز على حامل الحزام الأسود « دان إنسوانتو » بسرعة قياسية ، حتى إن «دان» طلب منه بعد المباراة أن يسمح له بأن يكون تلميذا لديه .

وفي ١٩٦٥ ، ولد لـ « بروس » ابن سماه « براندون » ، ولكن بعد أسبوع واحد توفي والد « بروس » . وفي السنة التالية لعب دور « كاتو » في مسلسل تليفزيوني كوميدي صنع نجوميته ، لكنه لم يتخل عن إعطاء الدروس في فن الدفاع عن النفس ، وكان من أشهر تلامذته الممثلان « ستيف ماكوين » ، و « چيمس كوبرن » . وفي ١٩٧٠ أصاب « بروس » نفسه بشدة خلال التدريب على رفع الأثقال ، ونصحه الأطباء بعدم العودة إلى ممارسة الكونغ فو . وعقب ستة أشهر استأنف التدريب ثانية ، وفي غضون سنة عاد إلى مستواه السابق . وفي يوليو ١٩٧٣ بدأ تصوير «الزعيم الكبير» كما عرض فيلمه « قبضة الغضب » الذي حقق إيرادات كبيرة ، بينما حقق فيلمه « طريق التنين » خمسة ملايين دولار من عملة هونج كونج .

شارك « بروس لي » في نحو ٢٠ فيلما في هونج كونج ، وثلاثة أخرى في الولايات المتحدة ، لكنه في ٢٠ يوليو ١٩٧٣ وقبل عرض فيلمه « ادخل التنين » تعرض لأزمة استسقاء في الدماغ - نجمت عن تناول مادة تستخدم كمخفف قوي للألم - أودت بحياته في منزل عشيقته ، بينما حصد فيلمه الأخير إيرادات فاقت ٢٠٠ مليون دولار .

وقد اشتهر عن« بروس لي » ولعه بكل ما يمت للرياضة بصلة ، من الركض ، إلى حمل الأثقال ، إلى استخدام النبضات الكهربائية لتحريض العضلات أثناء النوم ، وكان يتناول الفيتامينات والجنسينج وعسل ملكة النحل والعصائر بمختلف أنواعها .

نجم فريق « البيتلز » الغنائي البريطاني « چون لينون » (١٩٤٠-١٩٨٠) كان رمز الستينيات ، وأسطورة لا مثيل لها . ولد « چون ونستون لينون » في ليفربول في ٩ أكتوبر ١٩٤٠ ، وقد تزوج اليابانية « يوكو أونو » في سنوات حياته الأخيرة ، لكن شهرته مع فريق « البيتلز » فاقت كل شيء . . لكن الأسطورة تعرضت لنهاية مفاجئة ، حين أطلق « مارك تشابمان » البالغ من العمر ٢٥ سنة ، أربع رصاصات على ظهر «چون لينون» لدى عودة الأخير من الاستوديو في نيويورك سنة ١٩٨٠ . وتوفي «جون» في مستشفى « روزفلت » عقب فترة قصيرة من وصوله ، وشارك ١٠٠ ألف شخص في مراسم تأبينه في ١٤ ديسمبر من السنة نفسها .

أما « إلفيس بريسلي » الذى يطلق عليه نجم « الروك آند رول » ، فقد ولد في ٨ يناير ١٩٣٥ ، وتوفي في ١٦ أغسطس ١٩٧٧ ، وعاش حياته كأشهر نجم غنائي في العالم ، وحصلت ٦٣ أغنية له على الجائزة الذهبية ونال ٢٦ ألبوما بلاتينيا ، و ٢٧ ألبوما ذهبيا ، وتصدرت ١٨ أغنية له قائمة أكثر الأغنيات رواجا . شارك « إلفيس » في ٣٣ فيلما ونال ثلاث جوائز Grammy بفضل شهرته كنجم للغناء ، قاد ثورة في عالم الأغنيات التي هزت قلوب ومشاعر الكثيرين .

لكن « إلفيس بريسلي » عثرت عليه صديقته الأخيرة في النهاية ميتا فوق أرضية حمام المنزل !

ويتعين ألا ننسى كذلك « رودولف فالنتينو » (١٨٩٥-١٩٢٦) الذي يحمل لقب «العاشق الكبير» وتحول من مجرد مزارع بسيط إلى معشوق للنساء ، ومن مجرد راقص إلى إحدى أساطير السينما الصامتة حتى توفي في سن الحادية والثلاثين . كذلك يبرز اسم « مارك بولان » (١٩٤٧-١٩٧٧) نجم موسيقى الروك ، والمغنية « داليدا » ، التي انتحرت في مايو ١٩٨٧ عن عمر يناهز ٥٤ سنة تاركة وراءها عبارة « لم أعد أطيق

الحياة ، سامحوني » ، والمغنية « كارين كاربنتر » (١٩٥٠-١٩٨٣) ، التي ماتت بسبب استحواذ فكرة الريجيم والرشاقة عليها . . . و « كيرت كوبين » (١٩٦٧-١٩٩٤) أسطورة أغنيات « النيرفانا » الذي انتحر تاركا وراءه ورقة تقول : « من الأفضل أن تحترق على أن يخبو ويأفل نجمك » !

نهايات مأساوية

ومن أساطير القرن العشرين الذين ماتوا صغارا ، نذكر رائدة الرقص الحديث «إيزادورا دنكان» (١٨٧٨-١٩٢٧) ، التى لقيت مصرعها فى حادث سيارة في ليلة شتوية وافقت ١٢ سبتمبر ١٩٢٧ ، أما المغني والمؤلف الغنائي « مارفن جاي » (١٩٣٩-١٩٨٤) ، فقد لقي مصرعه بالرصاص أمام ناظري أمه وعلى يدي والده ، الذى كان « مارفن » قد أهداه من قبل سلاح الجريمة . كما اغتيلت الممثلة الفاتنة «شارون تيت» في منزلها الكائن في لوس أنجلوس على يد مجموعة من الهيبيز بقيادة شخص متهوس ، يدعى « تشارلز مانسون » في ٨ أغسطس ١٩٦٩ . « تيت» (٢٦ سنة) بطلة فيلم « وادي الدمى » ، التي كانت حاملا من زوجها المخرج السينمائي « رومان بولانسكي » ، تلقت ١٦ طعنة في أنحاء جسدها ، قبل أن يعلقها المعتدون بسقف غرفتها مربوطة بحبل من النايلون ، وهم يتأملون نظرات الرعب في عينيها .

عازف الجيتار المدهش « چيمي هندريكس » (١٩٤٢- ١٨ سبتمبر ١٩٧٠) كان يعزف على الجيتار وهو مستلق على الأرض ، ويحقق نجاحا مدويا ، قبل أن يسقط صريع إدمانه المخدرات . أما رائد « الروك آند رول » « بادي هولي » (١٩٣٦-١٩٥٩) فقد لقي مصرعه في حادث طائرة مأساوي . واغتيل داعية حقوق الإنسان « مارتن لوثر كنج » (١٩٢٩- ١٩٦٨) برصاص متعصب أبيض ، يدعى « چيمس إيرل راي » أطلق عليه الرصاص في ٤ أبريل ١٩٦٨ .

صوت موسيقى « الريجي » القادمة من چامايكا ،« بوب مارلي » (١٩٤٥-١٩٨١) افترسه مرض السرطان وهو في أوج شهرته ، بينما دفع نجم الغناء « فريدي ميركوري » (١٩٤٦-١٩٩١) ثمن نزواته الخاصة ، فسقط متأثرا بمرض الإيدز القاتل .

« چيم موريسون » (١٩٤٣-١٩٧١) نجم الروك الثائر عثر عليه ميتا ، بعد أن دهمته أزمة قلبية في باريس ، لكن محبيه يزعمون أن وفاة «موريسون» جريمة مدبرة . فتى هوليوود الذهبي « ريفر فينيكس » (١٩٧٠-١٩٩٣) لقي مصرعه بسبب إدمانه للماريجوانا والهيروين .

وبالطريقة نفسها توفي عازف الجيتار في الفريق الغنائي « سكس بستولز » أو « ست مسدسات » « سيد فيشيز » (١٩٥٧-١٩٧٩) . وفي سن الثلاثين توفي نجم موسيقى « الكنتري » - أو الريف - الأمريكي « هانك وليامز » الأب ، متأثرا بمعاقرته الخمر . أما النجمة المكسيكية « سيلينا » أو « مادونا » موسيقى « تيجانو » ، فقد لقيت مصرعها وهي في سن الثالثة والعشرين على يد الرئيس السابق لنادي المعجبين بها ، لتتحول إلى أسطورة شأنها في ذلك شأن متسابق السيارات البرازيلي « إيرتون سينا » (١٩٦٠-١٩٩٤) ، الذي لقي مصرعه في حادث سيارة ، ليبكي البرازيليون والعالم نجم سباقات « فورمولا - ١ » و« الجراند بري » .

كما لف الغموض ظروف أسباب وفاة الملياردير « مارك هيوز » ، مؤسس إمبراطورية هيربالايف العالمية لبيع منتجات خفض الوزن في سنة ٢٠٠٠ . وقيل إن السبب في وفاة « هيوز » - عن عمر يناهز ٤٤ سنة - هو الإفراط في تناول المهدئات . وفي ١٧ سبتمبر ٢٠٠٠ توفيت نجمة التليفزيون البريطانية « باولا ييتس » في سن الحادية والأربعين ، إثر تناولها جرعة زائدة من الهيروين ، بعد حياة صاخبة ومأساوية في الوقت نفسه .

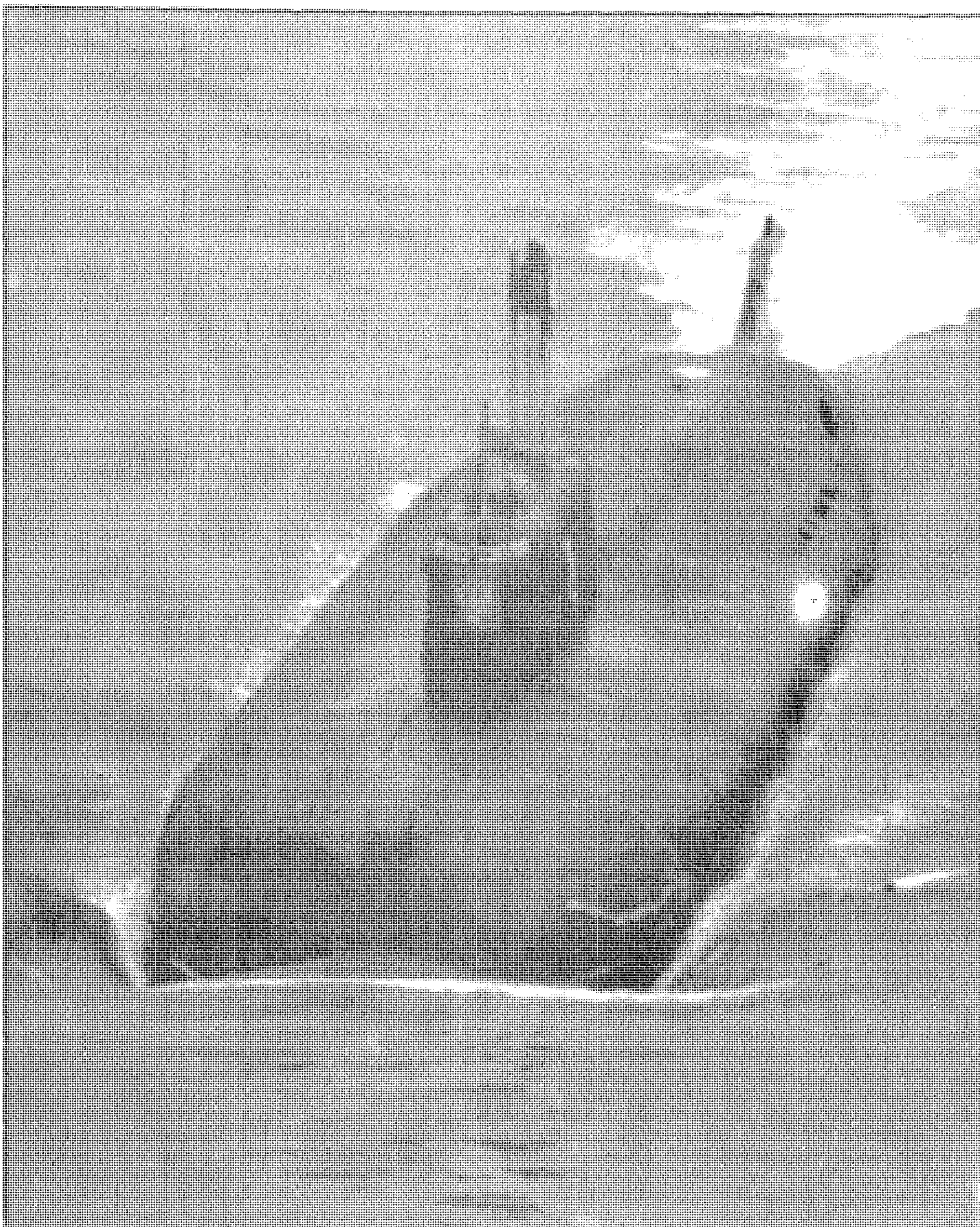
الممثل الكوميدي الأمريكي « سام كينيسون » (٣٨ سنة) ، الذي اشتهر بدور الشخصية الفظة العدوانية ذات الصوت الجهوري ، كان يردد باستمرار أنه سيعثر عليه مقتولاً ذات يوم ، في فندق رخيص ، ومعه مراهقتان في سن السادسة عشرة ، وقد اخترق ظهره مقص كبير . لكنه في الحقيقة مات على قارعة طريق سريع موحش ، نتيجة حادث مروري في ١٠ إبريل ١٩٩٢ . « كينيسون » ، الذي أهمل ربط حزام الأمان ، توفي خلال دقائق من اصطدام سيارته بعربة نقل على الطريق رقم ٩٥ قرب

لاس فيجاس ، بينما نجت بأعجوبة عروسه مليكة ، التي لم يكن قد مضى على اقترانه بها يومئذ خمسة أيام ، وكانت تجلس بجانبه مستخدمة حزام الأمان .

وفي حادث غامض ، ماتت الممثلة السينمائية ذائعة الصيت « ناتالي وود » (٤٣ سنة) غرقا إثر انزلاقها ، وهي تستعد لمغادرة يخت زوجها الممثل « روبرت واجنر » «سبلندور» الرابض قبالة شواطئ كاليفورنيا ، في ليلة ٢٩ نوفمبر ١٩٨١ . وكشف الطب الشرعي عن أن « ناتالي وود » قد تعاطت قبل الحادث مزيجا قاتلا من المخدرات ، غير أن البعض يعتقد أنها ماتت مقتولة في حادثٍ كان - ولا يزال - لغزا محيرا .

ونتيجة جرعة قاتلة من المخدرات أيضا مات الممثل الهزلي الأمريكي « چون بيلوشي » في ٥ مارس ١٩٨٢ ، وكان في سن الثالثة والثلاثين . وبطريقة مماثلة وفي تلك السن أيضا توفي زميله في البرنامج الاستعراضي « ليلة السبت » كريس فارلي في ١٨ ديسمبر ١٩٩٦ .

* * *



الغواصة الروسية الغارقة « كورسك »

ملايين الأشخاص لقوا مصرعهم ومثلهم تشردوا ، بينما تكبد العالم خسائر بمليارات المليارات من الدولارات خلال القرن الحالي ، نتيجة لسلسلة من الكوارث الطبيعية ، والحوادث الأخرى ، التي تنسب إلى القضاء والقدر ، أو خطأ الإنسان إن لم يكن من عمله .

وحين يكون الحديث عن مآسي البشر الناجمة عن أعاصير وزلازل وحرائق مدمرة ، أو حوادث سفن وطائرات ومفاعلات نووية ، تكون الصورة أبلغ تعبيرا من الكلمات !

15

مآسي القدر وأخطاء البشر



زلزال كاليفورنيا

مازالت سان فرانسيسكو الأمريكية تتذكر كابوس ذلك الزلزال الرهيب ، الذي ضربها في ١٨ أبريل ١٩٠٦ . كانت الساعة تشير إلى الخامسة و١٢ دقيقة صباحا ، حين هز الزلزال المدينة على موجتين : استمرت الأولى ٤٠ ثانية ، بينما انتهت الأخرى بعد ٢٥ ثانية . غير أن الحرائق التي أشعلتها موجتا الزلزال استمرت مشتعلة لمدة ثلاثة أيام متتالية ، مما أدى إلى حدوث دمار على مساحة أربعة أميال ؛ خاصة في مناطق الغابات . أكثر من نصف سكان المدينة البالغ تعدادهم ٤٠٠ ألف نسمة أصبحوا مشردين بفعل ذلك الزلزال المدمر الذي أودى بحياة ٧٠٠ شخص . واضطر سكان سان فرانسيسكو إلى إعادة بنائها مجددا ، بعد أن هدم الزلزال ٢٨ ألف مسكن ، فأنشأوا ٢٠ ألف مسكن جديد في غضون ثلاث سنوات من ذلك التاريخ .

وفي ٢٨ ديسمبر ١٩٠٨ ، هز جزيرة صقلية أعنف زلزال شهدته خلال القرن العشرين، وراح ضحيته ما بين ٧٥ ألفا و ٨٠ ألف شخص في مدينة مسينا وما حولها .

وتظل كارثة السفينة « تيتانيك » رمزا خالدا للكوارث والمآسي ؛ ففي ليلة ١٤-١٥ أبريل ١٩١٢ ، اصطدمت « تيتانيك » - التي كان البعض يصفها بأنها « السفينة التي لا تغرق » - بجبل جليدي قبل منتصف تلك الليلة ، فانقسمت وغرقت في غضون ساعتين لا أكثر . لم يكن هناك وقت كاف لإجلاء جميع الركاب ، ولم يجد الباحثون عن طوق النجاة قوارب إنقاذ تكفي الجميع . وفي حين كان الأوركسترا يعزف لحن النهاية ، غرق نحو ١٥١٧ من إجمالي أكثر من ٢٢٠٠ راكب وطاقم السفينة بقيادة الكابتن « إدوارد جي . سميث » . الغريب أن الغواصين اكتشفوا في ١٩٩٦ أن الضرر الذي أحدثه جبل الجليد بالسفينة البريطانية لم يكن كبيرا بالدرجة التي تسقط بها أسطورة « تيتانيك » ، لكنه كان إصابة في الموقع القاتل ، وفي منطقة جعلت المأساة تقع . . ولا عزاء للضحايا !

وفي ٦ مايو ١٩٣٧ ، وقعت كارثة أخرى إثر انفجار منطاد « هندنبرج » الألماني . كان المشهد مروعا نظرا لأن « هندنبرج » هو أول منطاد جوي يحقق شهرة كبيرة ، حتى إنه أصبح حديث وسائل الإعلام لفترة طويلة آنذاك .

واهتمت عدسات المصورين بالتقاط مشهد انفجار المنطاد ، الذي يبلغ حجمه ٨٠٣ أقدام . الأخطر من ذلك هو إذاعة تقرير المذيع الإخباري « هربرت موريسون » عن تفاصيل الانفجار المدوي في وقت لاحق ، إذ قال لحظة الحادث : « إن المنطاد يشتعل . . أوه . . الإنسانية ! » .

بلغ حجم خسائر الحادث ٣٦ راكبا ، وطاقم قيادة لقوا مصرعهم ، بعضهم قفز من نوافذ المنطاد ! بينما نجا ٦٢ آخرون كانوا على متن المنطاد . واكتشف المحققون أن الانفجار نجم عن كهرباء في الجو ، تسببت في حدوث تسرب في الهيدروجين سريع الاشتعال ، الذي كان مستخدما في ارتفاع المنطاد عن سطح الأرض . وهكذا وضع «هندنبرج» نهاية لتجربة المنطاد الجوي في العالم أجمع ! بحلول ٢٨ يناير ١٩٨٦ ، كان الأمريكيون قد صعدوا الفضاء ٥٥ مرة على مدار ٢٥ سنة ، وكانت مسألة هبوط سفنهم الفضائية أمرا مفروغا منه . . إلى أن وقع حادث المكوك الفضائي «تشالنجر» الذي ضم مدرسة الثانوي في نيو هامبشاير « كريستا ماكوليف » ، أول مواطنة عادية تنطلق إلى الفضاء ، لتجسد حلم البشرية في اكتشاف الكون الذي نعيش فيه .

وبعد ٧٣ ثانية فقط ، وأمام أعين ملايين الأمريكيين الذين شاهدوا إطلاق «تشالنجر» عبر شاشات التليفزيون ، انفجر المكوك الفضائي لتلقى « ماكوليف » وستة من زملائها رواد الفضاء في المكوك مصرعهم ، بعد أن تحول « تشالنجر » إلى كتلة من لهب . أدت المأساة إلى وقف رحلات الفضاء الأمريكية حتى سنة ١٩٨٨ ، بينما اتهمت تحقيقات وكالة « ناسا » الظروف الجوية السيئة .

فاتورة الأعاصير

أدى إعصار « فلويد » الذي اجتاح عددا من الولايات الأمريكية في منتصف سبتمبر ١٩٩٩ ، إلى مصرع العشرات ، وتشريد عشرات الألوف ، وخسائر مادية تزيد عن مليار دولار . وتسبب « إعصار القرن » في الهند خلال الأسبوع الأخير من شهر أكتوبر ١٩٩٩ في مصرع أكثر من عشرة آلاف شخص ، وتشريد مليوني مواطن أغلبهم من العمال والصيادين .

واجتاحت فنزويلا في ١٦ ديسمبر ١٩٩٩ فيضانات مدمرة ، وأمطار غزيرة ، وتعرضت لانهيارات أرضية وصل عدد ضحاياها إلى نحو ٣٠ ألف قتيل و٢٠ ألف مصاب ، بينما بلغ عدد المشردين ٨٠ ألفا . واجتاح إعصار « ميتش » المدمر مجموعة دول في أمريكا الوسطى -خاصة نيكاراجوا- في أكتوبر ١٩٩٨ ؛ مما أسفر عن مصرع نحو تسعة آلاف شخص .

ويقدر عدد ضحايا فيضان نهر تشانج جيانج في الصين سنة ١٩١١ بنحو ١٠٠ ألف شخص ، وقد تكررت المأساة على نطاق أوسع في أغسطس ١٩٣١ حين مات نحو ثلاثة ملايين و٧٠٠ ألف شخص ، نتيجة فيضان نهر هوانج هي في الصين . وفي ١٩٣٩ ، مات نحو ٢٠٠ ألف إثر فيضانات في شمالي الصين . وتوفي ما بين خمسة آلاف و١٥ ألف شخص نتيجة فيضانات اجتاحت مورفي الهندية في ١١ أغسطس ١٩٧٩ . وفي ١٩٦٠ ، لقي ١٢ ألف شخص مصرعهم في الفيضانات التي اجتاحت المغرب ، في حين مات ستة آلاف شخص في ١٠ أكتوبر ١٩٦٠ نتيجة فيضانات اجتاحت أنحاء بنجلاديش . وقتل ٢٠٠٠ شخص في فيضانات اجتاحت عدة مدن في غربي أوروبا في ٣١ يناير ١٩٥٣ ، في حين توفي عدد مماثل من الضحايا إثر فيضانات غمرت إيطاليا في ٩ أكتوبر ١٩٦٣ .

وفي أكتوبر ١٩٦٣ أيضا ، أودى إعصار « فلورا » الذي اجتاح جزر الكاريبي بحياة ستة آلاف شخص . وفي ١٣ نوفمبر ١٩٧٠ ، لقي ٢٠٠ ألف شخص مصرعهم في موجات مد عاتية ناجمة عن إعصار في خليج البنغال في شرقي باكستان ، ومات ٧٠ ألفا نتيجة إعصار اجتاح بنجلاديش في ٣٠ أبريل ١٩٩١ ، كما لقي أكثر من ثلاثة آلاف شخص مصرعهم خلال فيضان نهر يانجتسي ، والأنهار الأخرى في وسط وشمال شرقي الصين في يوليو ١٩٩٨ . والأعاصير لها أسماء لا تعكس حجم الدمار الذي تسببه ، مثل « فلويد » و« فيفي » و« نينا » و« هيلدا » و« ميتش » و« فلورا » و« هوجو » و« بربارة » و« ميشيل » . . إلخ .

رحلة سكر

ووقعت أعظم كوارث ١٩٩٤ في عرض البحر ، بل إن حادث غرق السفينة السياحية « إستونيا » قرب جزيرة توركو في بحر البلطيق في ٢٨ سبتمبر ١٩٩٤ ، يعد أسوأ كارثة بحرية تشهدها أوروبا منذ الحرب العالمية الثانية ، وثاني أسوأ كارثة من نوعها منذ غرق « تيتانيك » .

كانت السفينة « إستونيا » في رحلة اعتيادية بين موانئ بحر البلطيق والبلدان الإسكندنافية ، وتقل ١٠٤٩ شخصا في رحلة « سكر » -كما تلقب رحلاتها السياحية بسبب توافر الخمور المعفاة من الرسوم الجمركية على متنها- عندما انقلبت على نفسها فجأة ودون سابق إنذار ، وغرقت في غضون دقائق قلائل ، آخذة معها معظم الركاب الذين كانوا يغطون في النوم في « سهرة شرب » طويلة .

يذكر أنه في ١٥ يونيو ١٩٠٤ احترقت الباخرة « جنرال سلوكم » في إيست ريفر قبالة مدينة نيويورك ؛ مما أودى بحياة ١٠٢٠ شخصا . وفي ٢٨ أبريل ١٩١٢ غرقت السفينة اليابانية « كيتشمارو » قبالة السواحل اليابانية وعلى متنها نحو ١٠٠٠ شخص ، بينما لقي ١٣٧٠ حتفهم في ٢٤ مايو ١٩١٤ بعد غرق السفينة البريطانية « إمبراطورة أيرلندا » إثر اصطدامها بسفينة نرويجية في نهر سانت لورانس الكندي . وفي ٧ مايو ١٩١٥ غرقت العبارة « لوزيتانيا » خلال ١٨ دقيقة ، بعد إصابتها - قبالة الساحل الجنوبي لأيرلندا - بقذيفة أطلقتها غواصة ألمانية ، مما أسفر عن مصرع ١٩٩٨ شخصا . ومات ١٦٠٠ شخص إثر اصطدام سفينة الذخيرة الفرنسية « مون بلانك » بالسفينة البلجيكية « إيمو » في ميناء هاليفاكس الكندي في ٦ ديسمبر ١٩١٧ . وفي بحر الصين جنوبي شنغهاي ، تحطمت سفينة اللاجئين الصينية « كيانجيا » ؛ نتيجة انفجار كبير حصد أرواح ١١٠٠ شخص في ٣ ديسمبر ١٩٤٨ . وفي ٢٦ سبتمبر ١٩٥٤ غرقت العبارة اليابانية « تويا مارو » في مضيق تسوجارو ؛ مما أودى بحياة ١١٧٢ شخصا .

وفي ٢٠ ديسمبر ١٩٨٧ وقع تصادم بين العبارة الفلبينية « دونا باز » وناقلة النفط « فيكتور » في مضيق تابلاس في واحدة من أسوأ الكوارث المدنية في البحار ؛ مما قضى

على أكثر من ثلاثة آلاف شخص . وفي ١٦-١٧ فبراير ١٩٩٣ غرقت العبارة « نبتون » من هاييتي قبالة هاييتي ؛ مما أسفر عن وفاة ٨٠٠ شخص ، واعتبر مئات آخرون في عداد المفقودين . وفي ٢٧ يناير ١٩٨١ اشتعلت النيران في سفينة الركاب الإندونيسية « تامبانوس ٢ » ؛ مما أدى إلى غرقها في بحر جاوة ، ووفاة ٥٨٠ شخصا . وحين حاول نحو ٥٠٠ شخص النجاة بأنفسهم من العنف الطائفي المشتعل في جزر مالوكو الإندونيسية ، غرقت بهم السفينة المكتظة بالركاب في ٢٩ يونيو ٢٠٠٠ ، مما أدى إلى غرق جميع الركاب باستثناء عشرة منهم وهبوا حياة جديدة .

وفي ١٥ ديسمبر ١٩٩١ ، اصطدمت العبارة المصرية « سالم اكسبريس » بالشعب المرجانية قرب ميناء سفاجا ، مما أودى بحياة ٤٧٦ شخصا كانوا على متنها . وفي ٣١ أغسطس ١٩٨٦ اصطدمت سفينة الركاب الروسية « أدميرال نخيموف » بسفينة الشحن السوفيتية « بيتور فاسيف » في البحر الأسود ؛ مما أدى إلى وفاة ٣٩٨ شخصا .

وفي ١٠ أكتوبر ١٩٩٣ غرقت عبارة تحمل عددا من الركاب يفوق سعتها قبالة سواحل كوريا الجنوبية ليتوفى نحو ٣٠٠ شخص في الحادث . وفي ١٥ أبريل ١٩٩٢ وقع تصادم بين عبارتين قبالة سواحل جنوب شرقي نيجيريا قرب الحدود مع الكاميرون ليتوفى أكثر من ٣٠٠ شخص . وفي ٢٩ أبريل ١٩٩٤ غرقت العبارة « متونجوي » ، التي تحمل عددا زائدا عن سعتها من الركاب في ميناء مومباسا الكيني ؛ مما أسفر عن وفاة ٢٧٧ شخصا على الأقل .

وفي ٢١ أغسطس ١٩٩٤ انقلبت عبارة قبالة سواحل تشانبور شرقي بنجلاديش ؛ مما أودى بحياة ٢٥٠ شخصا على الأقل . وفي ٢٥ مايو ١٩٨٦ غرقت عبارة بين دكا وجزيرة بهولا في جنوب بنجلاديش ليتوفى ٢٢٤ شخصا على الأقل . وفي ٦ مارس ١٩٨٧ انقلبت عبارة السيارات البريطانية « هيرالد أوف فري إنتربرايز » قبالة سواحل زيبروجي البلجيكية ؛ مما أودى بحياة ١٩٣ شخصا .

وفي ٦-٧ أبريل ١٩٩٠ اندلعت النار في عبارة السيارات الدنماركية « نجمة اسكندنافيا » في بحر الشمال ؛ مما أسفر عن وفاة ١٥٨ شخصا . وفي ١١ أبريل ١٩٩١

وقع تصادم بين العبارة الإيطالية « موبي بونس » وناقلة نفط خارج ميناء ليفورنو الإيطالي مما أدى إلى وفاة ١٤٢ شخصا إما حرقا أو نتيجة الاختناق .

ومن أبرز حوادث الغواصات مقتل ١٢٩ بحارا بعد غرق الغواصة النووية الأمريكية « ثريشر » قبالة سواحل « نيو انجلند » ، وكذلك اختفاء الغواصة النووية الأمريكية « سكوربيون » قرب الساحل الشرقي للولايات المتحدة مع بحارتها البالغ عددهم ٩٩ بحارا ، وذلك في سنة ١٩٦٨ . وبعدها بسنتين ، أعلنت وزارة الدفاع الأمريكية عن اختفاء غواصة نووية سوفيتية من طراز « نوفمبر » قبالة سواحل إسبانيا في المحيط الأطلنطي وعلى متنها ٨٨ بحارا . وفي ١٩٨٣ غرقت غواصة نووية سوفيتية من فئة « تشارلي » مع بحارتها البالغ عددهم ٩٠ بحارا قبالة سواحل كامتشتاكا شمالي المحيط الهادي . وفي ١٩٨٩ اندلع حريق على متن غواصة سوفيتية من طراز « مايك » بسبب انفجار أدى إلى غرقها قرب سواحل النرويج مع بحارتها البالغ عددهم ٤٢ بحارا . وفي ١٢ أغسطس ٢٠٠٠ مات ١١٨ بحارا في مأساة غرق الغواصة الروسية « كورسك » ؛ التي تعمل بالطاقة النووية في مياه بحر « بارنتس » ؛ مما أثار حرجا شديدا للرئيس الروسي « فلاديمير بوتين » ، الذي تأخر في قبول عروض بالمساعدات الدولية لإنقاذ هؤلاء البحارة ، بحجة الحفاظ على سيادة روسيا . لقد جرحت كارثة « كورسك » آخر ما تبقى لروسيا من كبرياء ، وغرقت حكومة كاملة في قاع الفشل والتقصير كما غرقت الغواصة .

ولعل أشهر الكوارث البيئية خلال القرن العشرين ، تلك التي وقعت عند سواحل بريتاني الفرنسية خلال الأسبوع الثالث من شهر مارس ١٩٧٨ ، واتضحت معالمها بعد أن كشفت صور تليفزيونية عن الآثار المدمرة لغرق ناقلة البترول « آموكو جاديز » قرب تلك السواحل . إن غرق « آموكو جاديز » التي كانت في طريقها إلى مستودعات مدينة روتردام الهولندية ، أدى ببساطة إلى تلوث مياه البحر من حمولتها البالغة ٢٣٠ ألف طن من البترول .

ولا ينسى الكثيرون حادث بلدة « درنكة » في جنوب الوادي المصري في ٢ نوفمبر ١٩٩٤ ، حين أوى معظم سكان البلدة البالغ تعدادهم ٢٢ ألف شخص إلى فراشهم

مبكرا في تلك الليلة؛ نتيجة لهطول أمطار غزيرة ، لكن الأمطار انحدرت على البلدة الآمنة وجرفت في طريقها صهريجًا للوقود قرب محطة للقطارات ، أعقبه انفجار خزان آخر أكبر حجما فرغ محتواه الملتهب على السيول الجارفة . وهكذا زحفت على درنكة أمواج من « جهنم سائل » ! -حسب وصف أحد الناجين- ولقي أكثر من ٤٠٠ مواطن مصرعهم ، وأصيب المئات بحروق ، بينما وقعت خسائر بمئات الملايين من الجنيهات في الممتلكات والأراضي الزراعية .

هـزات قاتـلـة

أدى الزلزال العنيف الذي ضرب تركيا في ١٧ أغسطس ١٩٩٩ إلى مصرع نحو ١٧ ألف شخص ، وإصابة ٤٣ ألفا آخرين بجروح . هذا الزلزال -الذي أعقبته نحو ٣٠٠ هزة تابعة- بلغت قوته ٧,٨ درجة بمقياس ريختر ، حتى إنه وصف بأنه أحد أقوى الزلازل في العالم .

وعلاوة على الدمار الكبير الذي ألحقه الزلزال بأنحاء تركيا ، وتصاعد ألسنة النار والدخان من محطة لتكرير البترول في مدينة أزميت ، فإن الكارثة أشارت إلى مشكلة تتعلق بالفساد في قطاع المقاولات أدت إلى انهيار المباني كأنها مصنوعة من ورق ، مما زاد من حجم المأساة والخسائر البشرية .

وعلى الرغم من أن زلزال تركيا كبير ، فإنه ليس ضخمًا مقارنة بالزلزال الذي ضرب تشيلي في ٢٥ يناير ١٩٣٩ ، وكانت قوته ٨,٣ درجة بمقياس ريختر ، وقتل ٢٨ ألف شخص ، ولا بالزلزال المدمر الذي أصاب بيرو في ٣١ مايو ١٩٧٠ وبلغت قوته ٧,٨ درجة بمقياس ريختر ، وراح ضحيته نحو ٦٦ ألف شخص ، بينما أصيب نحو ١٠٠ ألف آخرين ، إلى جانب تشريد نحو مليون مواطن ووقوع خسائر مادية جسيمة .

وفي ١٧ أغسطس ١٩٠٦ ، هز زلزال عنيف بلغت قوته ٨,٦ درجة بمقياس ريختر ميناء فالباريسو التشيلي ، مما أودى بحياة ٢٠ ألف شخص . وتعرضت الإكوادور في ٥ أغسطس ١٩٤٩ لزلزال بلغت قوته ٦,٨ درجة بمقياس ريختر حصد أرواح نحو ستة آلاف شخص . وحصد زلزال آخر ضرب جواتيمالا في ٤ فبراير ١٩٧٦ وبلغت قوته ٧,٥ درجة بمقياس ريختر ، أرواح ٢٣ ألف شخص .

وقبل أشهر قلائل من انطلاق نهائيات كأس العالم لكرة القدم في المكسيك ، اهتزت مدينة مكسيكوسيتي وأقاليم أخرى مجاورة بسبب زلزال بلغت قوته ٨,١ درجة بمقياس ريختر ، حصد أرواح ٩٥٠٠ شخص على الأقل .

وربما تعين أن نشير إلى أن سلسلة من الزلازل ضربت تركيا في ٢٧ ديسمبر ١٩٣٩ مما أدى إلى مصرع ١٠٠ ألف شخص . أما الزلزال الذي ضرب اليونان في سبتمبر ١٩٩٩ وأسفر عن سقوط نحو ١٠٠ قتيل ، فقد وصف بأنه « الأعنف منذ قرنين » .

وتعرضت أفغانستان في ٣٠ مايو ١٩٩٨ لهزة أرضية أسفرت عن مقتل أكثر من ٤٠٠٠ شخص وتدمير ٥٠ قرية ، تلتها في نوفمبر من السنة نفسها هزة أرضية أدت إلى مقتل نحو ٤٥٠٠ شخص . وكانت إيران من الدول التي تضررت كثيرا من الزلازل خلال القرن العشرين ، إذ اهتزت أراضيها بشدة في أربعة زلازل قوية في سنوات ١٩٦٠ و١٩٦٨ و١٩٧٨ و١٩٩٠ ، وفقدت بسببها نحو ٨٠ ألف ضحية .

وفي فجر ٢١ سبتمبر ١٩٩٩ ضرب زلزال ، عنيف شدته ٦,٧ درجة بمقياس ريختر ، أنحاء تايوان ، مما أدى إلى مصرع أكثر من ٢٢٠٠ شخص وتشريد عشرات الألوف من المواطنين . السلطات التايوانية اضطرت إلى اعتقال واستجواب عدد كبير من المقاولين في قطاع البناء ، بعد أن كشفت التحقيقات حول انهيار بعض المباني إثر الزلزال عن عيوب في البناء .

وتعرضت مدينة كوبي اليابانية لزلزال عنيف في منتصف يناير ١٩٩٥ بلغت قوته ٧,٢ درجة بمقياس ريختر دمر المدينة الصناعية ، وقتل ٦٣٣٦ شخصا ، وأعاد إلى الأذهان زلزال طوكيو ويوكوهاما ، الذي ضرب اليابان في أول سبتمبر ١٩٢٣ ، وحصد أرواح ما يقرب من نصف مليون شخص حسب بعض التقديرات .

٢٠٠ ألف شخص راحوا ضحية الزلزال المدمر (٨,٦ درجة بمقياس ريختر) الذي هز مقاطعة جانسو الصينية في ١٦ ديسمبر ١٩٢٠ ، وقتل عدد مماثل نتيجة زلزال آخر (٨,٣ درجة بمقياس ريختر) ضرب نان شان في الصين في ٢٢ مايو ١٩٢٧ . مرة

أخرى ، اهتزت جانسو في ٢٦ ديسمبر ١٩٣٢ في زلزال بلغت قوته ٧,٦ درجة بمقياس ريختر ، ليلقى ٧٠ ألفا مصرعهم .

ودمر زلزال رابع جزءا كبيرا من تانجشان الصينية في ٢٨ يوليو ١٩٧٦ ، وأسفر عن مقتل ٢٥٥ ألف شخص حسب التقديرات الرسمية . وتعرضت الهند لثلاثة زلازل قوية في سنوات ١٩٠٥ و١٩٣٤ و١٩٩٣ ، وبلغ إجمالي خسائرها البشرية فيها نحو ٤٠ ألف قتيل .

واستفاقت مدينة لوس أنجلوس على زلزال مدمر في ١٧ يناير ١٩٩٤ ، أسفر عن مصرع ٦١ شخصا ، وجرح المئات وخسائر مادية زادت على ملياري دولار . وبعد شهر بالتمام ، قتل زلزال آخر ١٨٤ شخصا في إندونيسيا وجرح المئات .

وحين انفجر بركان مون بيليه في المارتينيك في ٨ مايو ١٩٠٢ ، أدى إلى تدمير مدينة سان بيير في ثلاث دقائق ، ومقتل نحو ٣٠ ألف شخص .

حوادث جوية

وبالنسبة إلى حوادث الطائرات ، فإن أبرزها إسقاط المقاتلات الإسرائيلية في ٢١ فبراير ١٩٧٣ طائرة ركاب ليبية من طراز « بوينج ٧٢٧ » فوق سيناء ، مما أسفر عن مصرع ١٠٨ أشخاص ونجاة خمسة فقط . وفي ١٦ مارس ١٩٦٩ تحطمت طائرة فنزويلية عقب إقلاعها من مطار ماراكايبو الفنزويلي ؛ مما أودى بحياة ٨٤ راكبا و٧١ شخصا على الأرض . وفي ٣٠ يوليو ١٩٧١ تحطمت طائرة يابانية من طراز بوينج ٧٢٧ عقب تصادمها مع طائرة مقاتلة فوق موريوكا اليابانية ؛ مما أسفر عن مصرع ١٦٢ شخصا . وإذا كان قائد الطائرة المقاتلة قد نجا وهبط بمظلة ، فإنه لم ينج من اتهام رسمي بالإهمال .

وفي ٣ مارس ١٩٧٤ قتل ٣٤٦ شخصا إثر تحطم طائرة تركية في إيرمونفيل قرب العاصمة الفرنسية باريس .

وفي ٢٧ مارس ١٩٧٧ اصطدمت طائرة تابعة لشركة KLM بمدرج مطار سانتا كروز في جزر الكناري مما أسفر عن مصرع ٥٨٢ شخصا .

وفي يناير ١٩٧٨ انفجرت طائرة ركاب هندية ، وسقطت في مياه الخليج العربي ، وقتل في الحادث ٢١٣ شخصا .

وفي ٢٥ مايو ١٩٧٩ تحطمت طائرة ركاب أمريكية ، وقتل ٢٧٥ شخصا . وفي نوفمبر من السنة نفسها اصطدمت طائرة ركاب نيوزيلندية وقتل ٢٥٧ شخصا .

وفي ١٩ أغسطس ١٩٨٠ أدى تحطم طائرة سعودية في الرياض إلى مصرع ٣٠١ شخصا .

وفي ١ سبتمبر ١٩٨٣ قتل ٢٦٩ شخصا إثر تحطم طائرة تابعة للخطوط الجوية الكورية قرب جزيرة سخالين .

وفي ٢٣ يونيو ١٩٨٥ لقي ٣٢٩ شخصا مصرعهم إثر تحطم طائرة تابعة للخطوط الهندية قرب ساحل جمهورية أيرلندا .

وفي ١٢ أغسطس ١٩٨٥ لقي ٥٢٠ شخصا مصرعهم نتيجة تحطم طائرة «بوينج ٧٤٧ » يابانية . وفي ديسمبر ١٩٨٥ تحطمت طائرة أمريكية عقب إقلاعها في جاندر في نيوفوندلاندوقتل ٢٥٦ راكبا .

وفي ٢١ ديسمبر ١٩٨٨ ، انفجرت طائرة تابعة لخطوط « بان أمريكان » من طراز « بوينج ٧٤٧ » فوق بلدة لوكربي الاسكتلندية ؛ نتيجة عمل إرهابي ، مما أسفر عن مصرع الركاب البالغ عددهم ٢٥٩ ، إضافة إلى ١١ شخصا من أهالي البلدة . وشهدت سنة ١٩٨٨ سقوط طائرة أخرى في ٣ يوليو ، وهي طائرة إيرانية ، سقطت فوق مياه الخليج العربي بعد أن أصابها صاروخ أطلقته السفينة الحربية الأمريكية «فينسنز » ، مما أسفر عن مصرع ٢٩٠ راكبا .

وفي مايو ١٩٩١ انفجرت طائرة ركاب نمساوية بعد اصطدامها بالجبال ، مما أدى إلى مصرع ٢٢٣ شخصا . وفي ١٨ ديسمبر ١٩٩٥ لقي ١٤١ شخصا مصرعهم إثر تحطم طائرة زائيرية في أنجولا بعد إقلاعها من جامبيا . وبعدها بيومين قتل ١٦١ شخصا ونجا ثلاثة آخرون في تحطم طائرة « بوينج ٧٥٧ » تابعة لشركة « أمريكان إيرلاينز » قرب كالي جنوب غربي كولومبيا . وفي تلك السنة أيضا ، أسفر تحطم طائرة شحن

« أنتونوف-٣٢ » وسقوطها على سوق قرب مدينة كينشاسا الزائيرية عن مصرع أكثر من ٣٠٠ شخص .

وفي ١٧ يوليو ١٩٩٦ ، انفجرت طائرة تابعة لخطوط طيران « تي . دبليو . ايه » من طراز « بوينج ٧٤٧ » وهي في طريقها إلى باريس ، مما أدى إلى سقوطها في المحيط الأطلنطي ومصرع ٢٣٠ شخصا . وأدى اصطدام في الهند بين طائرة « بوينج ٧٤٧ » سعودية و« اليوشين-٧٦ » من قازاقستان قرب مطار نيودلهي في ١٢ نوفمبر ١٩٩٦ إلى مقتل ٣٤٩ شخصا . وفي ٢٣ نوفمبر ١٩٩٦ تحطمت طائرة ركاب إثيوبية بالقرب من موروني في أثناء هبوطها ، بعد عملية قرصنة جوية استمرت ساعات عدة ، ولقي ١١٧ راكبا مصرعهم ، بالإضافة إلى ٩ من طاقمها و٣ من الخاطفين .

وكانت ١٩٩٧ من أسوأ السنوات بالنسبة إلى حوادث الطائرات ، حيث سجلت ١٦ حادثة ، كان أبرزها في ٥ أغسطس حين اندلع حريق في طائرة كورية جنوبية من طراز « بوينج ٧٤٧ » أدى إلى تحطمها في جزيرة جوام قبيل هبوطها ومصرع نحو ٢٢٦ شخصا . كما قتل ٢٣٤ شخصا نتيجة تحطم طائرة « إيرباص اي . ٣٠٠ » إندونيسية شمال شرقي سومطرة .

وفي سنة ١٩٩٨ وحدها سجلت ٥٦ حادثة طيران ، منها تحطم طائرة تابعة للخطوط السويسرية في كندا ومقتل ٢٢٩ من ركابها ، وحادث اصطدام طائرة أفغانية بجبل جنوب غربي باكستان في يناير ١٩٩٨ ، مما أودى بحياة ٩٠ شخصا . وفي ١٧ يوليو ١٩٩٩ ، تحطمت طائرة صغيرة ، كانت تقل « جون كيندي » الابن وزوجته « كارولين » وشقيقتها قبالة سواحل ماساتشوستس .

وكانت حادثة سقوط الطائرة المصرية في ٢١ أكتوبر ١٩٩٩ من مآسي الطائرات خلال القرن العشرين ، إذ تحطمت هذه الطائرة وهي من طراز « بوينج ٧٦٧ » قبالة سواحل جزيرة نانتكت الأمريكية ؛ مما أسفر عن مصرع ٢١٧ شخصا في حادث تحول إلى لغز كبير ، أثار عديداً من السيناريوهات والاتهامات ، حيث حاولت جهات التحقيق في واشنطن الترويج لنظرية انتحار مساعد الطيار « جميل البطوطي » ؛ استنادا لمزاعم واهية ؛ ومنعا لاتهام شركة بوينج بوجود عيب فني في الطائرة المنكوبة .

وسقطت طائرة تابعة للخطوط الجوية الكينية في البحر ، بعد فترة قصيرة من إقلاعها من مطار أبيدجان في ٣٠ يناير ٢٠٠٠ ، مما أدى إلى مصرع ١٦٩ شخصا .

« الكونكورد » التي كانت حلما أوروبيا خالصا بسرعتها المجاوزة لسرعة الصوت ، وبمقدمتها المدببة المائلة ، التي شقت عنان الأجواء لأكثر من ٢٤ سنة متصلة ، عرفت خلالها بعض الأعطال الميكانيكية والحوادث الطارئة ، لم تتوقع أن تنتهي أسطورتها بكابوس راح ضحيته ١١٤ شخصا (١٠٩ ركاب وخمسة على الأرض) لقوا حتفهم في حادث تحطم طائرة « إير فرانس » في ٢٥ يوليو ٢٠٠٠ ، عقب فترة وجيزة من إقلاعها من مطار شارل ديجول . وجاء الحادث الذي وقع بعد انفجار أحد إطارات « الكونكورد » ليقضي على الحلم الأوروبي ، الذي دام نحو ٤٠ سنة منذ توقيع اتفاق إنتاج الطائرة بين بريطانيا وفرنسا سنة ١٩٦٢ ، لتبدأ « الكونكورد » في العمل بكفاءة سنة ١٩٧٥ حاملة شهادة طيران ، تؤهلها للتحليق لمدة ١٥ سنة . وفي سنة ١٩٩٧ ، قررت هيئة الطيران البريطانية تجديد فترة عمل الطائرة ٢٠ سنة أخرى ، بينما منحت فرنسا أسطولها إجازة للعمل حتى سنة ٢٠٠٧ . لكن أحدا لم يتوقع أن يتم وقف طائرات « الكونكورد » البالغ عددها ٢٠ طائرة عن الطيران نهائيا عقب الحادث .

وفي ٢٣ أغسطس ٢٠٠٠ لقي ١٤٣ شخصا مصرعهم في حادث سقوط طائرة تابعة لشركة « طيران الخليج » في مياه الخليج العربي ، خلال رحلتها من القاهرة إلى البحرين .

ومن أشهر حوادث القطارات ما حدث في بيهار الهندية في ٦ يونيو ١٩٨١ ؛ مما أدى إلى مصرع نحو ٨٠٠ شخص ، في أسوأ كارثة قطارات في التاريخ .

وفي ٤ يونيو ١٩٨٩ لقي ٦٠٠ شخص حتفهم إثر حادث قطار في تشيليابنسك في الاتحاد السوفيتي سابقا . وفي ١٦ يناير ١٩٤٤ قتل ٥٠٠ شخص نتيجة حادث قطار في مقاطعة ليون الإسبانية ، في حين قتل ٥٤٣ شخصا في مودين الفرنسية في ١٢ ديسمبر ١٩١٧ .

كما قتل ٥٢١ شخصا في ساليرنو الإيطالية في ٢ مارس ١٩٤٤ نتيجة حادث قطار مأساوي .

وفي ٢٢ سبتمبر ١٩٩٤ قتل ٣٠٠ شخص نتيجة حادث قطار وقع في تولوندا في أنجولا .

رقم مماثل من الضحايا وقع في فيروز أباد الهندية نتيجة حادث مأساوي في ٢٠ أغسطس ١٩٩٥ ، كما سقط الرقم نفسه ضحايا حادث وقع في وادي الحجارة في المكسيك في ٣ أبريل ١٩٥٥ . وقتل ١٥٥ شخصا إثر اشتعال النيران في قطار نمساوي داخل نفق ألبي في ١١ نوفمبر ٢٠٠٠ .

تلوث وإشعاع

ولعل أحد أبرز أخطاء البشر التي كلفتهم كثيرا ، هو التسرب النووي في مفاعل « تشيرنوبل » في ٢٦ أبريل ١٩٨٦ ، الذي أدى إلى مصرع وإصابة عشرات الألوف (حتى في الأجيال التالية التي ولد الكثير من أبنائها ، وهم يعانون تشوهات خلقية) تأثرا بالإشعاع النووي . واستلزم الأمر نحو ١٤ سنة ليصدر قرار في أوكرانيا بإغلاق مفاعل تشيرنوبل بشكل دائم في ١٥ ديسمبر ٢٠٠٠ . وفي أسوأ كارثة نووية تتعرض لها اليابان ، وقع تسرب نووي في منشأة توكايمورا لإعادة استخدام اليورانيوم في ٣٠ سبتمبر ١٩٩٩ ، أدى إلى إصابة ٥٥ يابانيا على الأقل بالتسرب الإشعاعي . وفتح هذا الحادث مجددا ملف الكوارث النووية المحتملة ؛ مما دفع الولايات المتحدة إلى مراجعة الإجراءات الأمنية في المنشآت النووية الأمريكية . وكان تسرب نووي آخر قد وقع في ماياك بروسيا في ١٩٥٧ ، كما تعرض مفاعل نووي في « ثري مايلز أيلاند » بالولايات المتحدة لعطل طارئ في ١٩٧٩ .

كما شهد القرن العشرون حالات عدة من تلوث الهواء ، ففي سنة ١٩٤٨ خيم ضباب كثيف على مدينة دونورا في بنسلفانيا الأمريكية ، مما أدى إلى حجب الشمس تماما ، وتساقط هباب أسود على أرصفة الشوارع إلى درجة جعلت آثار الأقدام تظهر بوضوح .

وحدثت حالة تلوث كبرى للهواء في العاصمة البريطانية لندن في ١٩٥٢ ، أسفرت عن الوفاة الفورية لنحو أربعة آلاف شخص ، والوفاة خلال شهرين لما يقرب

من ضعف هذا العدد؛ نتيجة الالتهاب الحاد في الحلق والعينين . وفي المكسيك ، حيث حقل الغاز الطبيعي « بسيوزايكا » ومصنع إنتاج الكبريت من شوائب غاز كبريتيد الهيدروجين ، انطلقت كميات كبيرة من ذلك الغاز الذي تلاحم مع ضباب المنطقة ، مما أدى إلى وفاة وإصابة أكثر من ٣٠٠ شخص .

ونتيجة تسرب عشرة آلاف متر مكعب من السيانيد والمواد الكيماوية القاتلة من أحد مصانع إعادة تصنيع الذهب في شمال غربي رومانيا إلى نهر الدانوب في ٣٠ يناير ٢٠٠٠ ، نفقت أعداد لا تحصى من الأسماك والكائنات البحرية ، وتلوثت المياه في المجر ويوجوسلافيا .

لكن الكوارث الطبيعية ، وأخطاء البشر المدمرة تتلازمان معا ، لتستمر المآسي جنبا إلى جنب مع تقدم البشرية ودخولها الألفية الثالثة !

***



مركز كورولوف الفضائي ومحاولة معالجة مشكلة « مير »



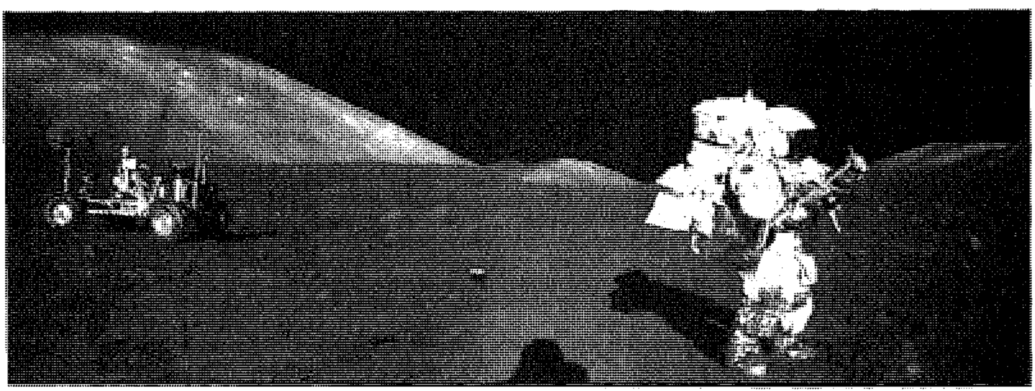
رائد الفضاء الأمريكي چون جلين

منذ زمان . . والإنسان يرنو بعينيه إلى الفضاء البعيد . حلمه الأزلي كان غزو ذلك المجهول، وكشف أسرار ذلك الكون الفسيح . وخلال القرن العشرين تحقق الحلم . . فهبط الإنسان فوق سطح القمر ، وبدأ رحلة البحث عن احتمالات الحياة فوق المريخ . . والبقية تأتي !

ومن صخور القمر والمريخ ، وعبر تجارب بدأت بالكلبة « لايكا » ، ومرت بالمركبات الفضائية : « أبوللو » و«ديسكفري» ، ومرورا بكارثة المكوك «تشالنجر» ، ووصولا إلى محطة المتهالكة «مير» ، والسفينة المتطورة « إنديفور » . .

16

البحث عن كوكب آخر



نيل أرمسترونج يسير فوق القمر لأول مرة

تتواصل رحلة الإنسان ، بحثا عن مفاتيح ألغاز الكون ، وسعيا للوصول إلى « كوكب تاني » .

نقل القرن العشرون بني البشر من الأرض إلى الفضاء الخارجي ، في رحلة تحبس الأنفاس ، ليحقق الإنسان نقلة كبيرة في مجال فهم الكون المحيط به ، واستكشاف المجموعة الشمسية . وبرحلتهما التاريخية على متن أول طائرة في ١٧ ديسمبر ١٩٠٣ ، تمكن الأخوان «أورفيل » و « ولبور رايت » من إثارة خيال البشر بمزيد من التحليق في الفضاء ، بعد أن تحول حلم البشر القديم بالطيران إلى واقع معاش .

وبعد أقل من ٦٦ سنة من ذلك الحدث التاريخي ، أخذ العالم يراقب بدهشة وإعجاب رائد الفضاء الأمريكي « نيل أرمسترونج » ، الذي أصبح أول إنسان يسير فوق سطح القمر . يومها كان « أرمسترونج » أحد ثلاثة رواد فضاء على متن المركبة الفضائية «أبوللو ١» .

في ذلك اليوم المشهود ، ٢٠ يوليو ١٩٦٩ ، وضع « أرمسترونج » قدمه فوق ما يطلق عليه « بحر الهدوء » في القمر ، وبث عبر الراديو إلى الأرض مقولته الشهيرة « لقد هبط النسر . . خطوة صغيرة لإنسان . . قفزة عملاقة للبشرية » .

ويقول « ديفيد بولين » - وهو عالم فلك في الوكالة القومية الأمريكية للفضاء والطيران «ناسا» في واشنطن - : « كان هذا بالفعل حدثا كبيرا » .

ولكن قبل ذلك الحدث ، كان السوفيت قد سبقوا الأمريكيين في مجال الفضاء . ففي ١٢ إبريل ١٩٦١ أصبح رائد الفضاء السوفيتي « يورى جاجارين » أول إنسان يدور حول الأرض في رحلة على متن سفينة الفضاء « فوستوك » ، استغرقت ساعة و ٤٨ دقيقة . وفي ٥ مايو من السنة نفسها أصبح ألن شيبرد - من الناحية التقنية - أول أمريكي يحلق في الفضاء ، ولكنه قام برحلة خارج المدار لم تصل إلى السرعة والارتفاع المطلوبين للدوران حول الأرض .

أما « چون جلين » فقد أصبح أول أمريكي يدخل مدار الأرض ، حيث إنه قام في ٢٠ فبراير ١٩٦٢ بثلاث دورات حول الأرض في رحلة استمرت أربع ساعات و٥٥ دقيقة . ويصعب أن نتجاوز اسم السوفيتية « فالنتينا تيريشكوفا » التي تعد أول رائدة فضاء في العالم ؛ إذ حلقت فوق مدار الأرض على متن « فوستوك ١ » في ١٦ يونيو ١٩٦٣ ، في رحلة استغرقت ساعة و٥٠ دقيقة .

رائد الفضاء « إلكسي ليونوف » أصبح بدوره أول شخص يسير في الفضاء ، خلال رحلة فضائية استمرت ٢٦ ساعة وذلك في ١٨ مارس ١٩٦٥ .

لكن « أرمسترونج » - الذي سار فوق أرض القمر - كان شيئا آخر ؛ ربما لأنه جسد إنجازا بشريا بالهبوط والسير فوق أرض أخرى غير تلك التي نعيش فوقها . كانت عيون الملايين تتابع عبر شاشات التليفزيون رائد الفضاء الأمريكي ، وهو يرتدي زيه الأبيض الثقيل كأنه شبح يهبط فوق كوكب مجهول . وفي تمام الساعة العاشرة و٥٦ دقيقة بتوقيت شرقي الولايات المتحدة من ٢٠ يوليو ١٩٦٩ ، لمست قدما أرمسترونج سطح القمر ، ونطق بأولى كلماته فوق القمر ، الذي كان حتى ذلك الوقت مجرد شيء مجهول بالنسبة للبشرية ، وبعد لحظات من السير فوق أرض ناعمة مثل البودرة ، لحق به زميله « إدوين باز ألدرين » .

وأخذ الاثنان يكتسبان ثقة متزايدة كلما سارا خطوة جديدة فوق القمر ، واستمر الأمر ساعتين و١٤ دقيقة ، بينما تولت الكاميرا التي وضعاها على بعد ٥٠ قدما من «إيجل» (أو النسر) نقل خطواتهما وتعليقاتهما بوضوح إلى المشاهدين الأمريكيين الذين كانوا على بعد ٢٥٠ ألف ميل . وعبر خطوات متثاقلة - بسبب ضعف جاذبية القمر - كان الاثنان يسيران متقافزين مثل حيوان « الكنجارو » ، وأخذا يجريان بعض التجارب ، ويجمعان الصخور ، ويلتقطان الصور ، ويفحصان التربة ، وهما يستمتعان بكل لحظة من إقامتهما فوق أرض القمر الغريبة . وربما كان الاثنان على حق ، فبعد قرون من التوقعات والأحلام والرغبات حانت لحظة الحقيقة : لأول مرة يخترق الإنسان حاجز الفضاء ويثبت قدميه فوق عالم آخر . . في الفضاء .

ثلاثة رواد

وخلال الفترة من ١٩٦٩ إلى ١٩٧٢ ، قام رواد الفضاء الأمريكيون بإجمالي ست عمليات هبوط فوق أرض القمر ، تولوا خلالها دراسة تربة القمر . وأخذ عينات من صخوره ، مما أثرى مجال البحث الفضائي .

ولا شك أن مغامرة القمر تعد تتويجا لعقود من أبحاث الفضاء ، التي كان فضل الريادة فيها يعود إلى ثلاثة رجال : « روبرت جودارد » وهو عالم فيزياء أمريكي ،

والروسي « قسطنطين تسيولكوفسكي » ، والألماني « هيرمان أوبيرت » . فقد عمل الثلاثة -كل على حدة- على تذليل العقبات التقنية أمام إطلاق الصواريخ وبدء الرحلات الفضائية . وفي ١٩٢٦ أطلق جودارد أول صاروخ في العالم يعمل بالوقود السائل ، وتمكنت سفينة الفضاء - التي لم يزد طولها عن أربعة أقدام - من الارتفاع لمسافة ١٨٤ قدما . ولكن على العكس من زميليه السوفيتي والألماني اللذين نالا دعما حكوميا ، فإن « جودارد » - كما يقول عالم الفلك الأمريكي « بولين » - كان رائدا غير معترف به في وطنه . وتمكن المدرس الروسي « تشيولكوفسكي » بدوره من قياس السرعة ، التي يتوجب على صاروخ اعتمادها لاجتياز حاجز الكرة الأرضية .

وخلال عقدي الثلاثينيات والأربعينيات ، كانت الشخصية المهيمنة على مجال أبحاث الفضاء هو الألماني « ڤيرنر ڤون براون » ، الذي أصبح أول رئيس لبرنامج تطوير الصاروخ العسكري في ألمانيا في ١٩٣٦ ، غير أن حلمه في القيام برحلات فضائية اضطره إلى التراجع أمام رغبات ومطالب العهد النازي بتكثيف صناعة الأسلحة في ألمانيا . وفي ١٩٤٢ ، وتحت قيادة « ڤون براون » ، تمكن علماء الصواريخ الألمان من تطوير صاروخ « إيه ٤ » الموجه ، المعروف عادة باسم « ڤي٢ » ، وتم إطلاق الآلاف من صواريخ « ڤي ٢ » على المدن الأوروبية خاصة لندن ، مما تسبب في حدوث دمار مادي وخسائر بشرية على نطاق واسع .

ومع اقتراب الحرب العالمية الثانية من وضع أوزارها ، قاد « ڤون براون » مجموعة تضم بضع مئات من علماء الصواريخ والمهندسين الألمان ؛ للانتقال إلى الولايات المتحدة ، وواصل « ڤون براون » لعب دور بارز في برنامج الفضاء الأمريكي ، حيث بنى نظام « چوبيتر » الذي استخدم في إطلاق أول قمر صناعي أمريكي . ولا يمكن أن ننسى دور الاكتشافات الرائعة في علوم الفيزياء و الفضاء والرياضيات التي أرسى قواعدها العالمان « ألبرت أينشتاين » و « ستيفن هوكنج » ، كالنظرية النسبية والثقوب الفضائية السوداء وإمكان السفر عبر الزمن ، وهي اكتشافات فتحت الباب مشرعا أمام غزو الفضاء ، علاوة على تغذية طموح الإنسان لزيارة المستقبل والعودة منه إلى الحاضر . أما الطيار « تشاك ييجر » من سلاح الجو الأمريكي ، فقد أصبح أول رجل يخترق حاجز الصوت ، وهو يحلق بطائرة الصواريخ « إكس » في سنة ١٩٤٧ .

وفي ٤ أكتوبر ١٩٥٧ أدهش الاتحاد السوفيتي السابق العالم بإطلاق أول قمر صناعي ويدعى « سبوتنيك ١ » . وعلى الرغم من أن حمولته كانت بدائية وأن الغرض منه هو تحويل الإشارات اللاسلكية ، فإنه كان رمزا لا يستهان به لتفوق السوفيت على نظرائهم الأمريكيين في مجال الفضاء . لكن هذا التفوق لم يستمر طويلا ، فبعد أربعة أشهر ردّ الأمريكيون بإطلاق القمر الصناعي « إكسبلورر » أو (المستكشف) .

الكلاب أولا

وفي أواخر الخمسينيات ، بدأ البلدان يطوران برامج إطلاق البشر في الفضاء ، وأخذا في إرسال الكلاب -مثل الكلبة السوفيتية « لايكا » التي كانت على متن القمر الصناعي « سبوتنيك ٢ » الذي أطلق في ٣ نوفمبر ١٩٥٧- إلى الفضاء المجهول لدراسة تأثير انعدام الوزن على الكائنات الحية . وكما أسلفنا ، فإن السوفيت كانوا أول من أرسلوا إنسانا إلى مدار الأرض ، وهو رائد الفضاء « يوري جاجارين » الذي كان على متن المركبة الفضائية « فوستوك ١ » .

وفي محاولة للحاق بالسوفيت أنشأ الأمريكيون وكالة « ناسا » ، وكان برنامجها الأصلي يقوم على التفوق على السوفيت في سباق الفضاء . الرئيس الأمريكي « چون كيندي » تعهد بدوره بأن يهبط أول أمريكي فوق سطح القمر قبل نهاية عقد الستينيات. . وقد كان !

وإذا كان الأمريكي « چون جلين » قد أصبح أول أمريكي يدور حول الأرض في ٢٠ فبراير١٩٦٢ ، فإنه في ١٩٩٨ عاد إلى الفضاء مرة أخرى وهو في سن السابعة والسبعين ، وذلك في أول تجربة فضائية من نوعها .

وسرعان ما حل التعاون الفضائي بين واشنطن وموسكو محل المنافسة لتبدأ الرحلات المشتركة في ١٩٧٥ ، وامتد نطاق التعاون ليشمل عدة دول أخرى ، بينما كانت الصين آخر أعضاء نادي غزو الفضاء ، بعد أن أطلقت في ١٩٩٩ أول مركبة فضائية غير مأهولة بواسطة صاروخ بعيد المدى ، وقد دارت هذه المركبة حول الأرض ١٤ مرة .

وخلال الفترة بين ١٩٦٩-١٩٧٢ ، أطلقت « ناسا » ١٧ مهمة فضائية ضمن برنامج « أبوللو » ، نقلت خلالها ١٢ رائد فضاء إلى القمر ، ثم أعادتهم إلى الأرض

بسلام . وإذا كان الروس قد أطلقوا في ١٩٧١ أول محطة فضائية عملاقة اسمها «ساليوت» ، فإن الأمريكيين ردوا في ١٩٧٣ بإطلاق أول محطة فضائية لهم تحت اسم «سكاي لاب» ، وكانت عبارة عن مختبرات تدور حول الأرض وبداخلها طاقم من رواد الفضاء يعيشون فيها فترات تتراوح بين أسابيع وشهور ، بهدف قياس قدرة الإنسان على العيش في المركبات الفضائية لفترات طويلة .

وتعتبر المحطة المدارية « مير » إنجازاً انفرد به الاتحاد السوفيتي السابق لسنوات طويلة ، حيث بدأت الدوران في الفضاء منذ فبراير ١٩٨٦ ، وهي تمثل الجيل الثاني من المحطات المدارية ؛ إذ سبقتها سبع محطات من طراز « ساليوت » جرى تطوير تصميماتها منذ سنة ١٩٧١ . وظلت محطات « ساليوت » السبع وبعدها « مير » محلا لإجراء تجارب فضائية . . وسجل الرواد الذين عملوا بها أرقاما قياسية في مدة البقاء في الفضاء ، التي تدرجت من ٢٣ يوما سنة ١٩٧١ إلى ٣٦٥ يوما و٥٩ دقيقة - لرائدي الفضاء « موسى ماناروف » و « فلاديمير تيتوف » ، على متن « مير » - سنة ١٩٨٨ . وفي سنة ١٩٩٥ عاد رائد الفضاء الروسي « فاليري بولياكوف » إلى الأرض بعد قضائه ٤٣٧ يوما و١٨ ساعة داخل محطة « مير » الفضائية ، لكنه لم يحطم رقم « ماناروف » البالغ ٥٤١ يوما قضاها في الفضاء سنة ١٩٩١ ، إلى أن قضى « سيرجي أفيديف » على متن « مير » نحو ٧٤٧ يوما (١٩٨٢-١٩٩٩) ، وهو أطول رقم قياسي لبقاء الإنسان في الفضاء .

فوق المريخ

وفي ٢٠ يوليو ١٩٧٦ ، هبطت سفينتا الفضاء الأمريكيتان « فايكنج ١ » و«فايكنج ٢ » فوق المريخ وأرسلتا إلى الأرض خمسين صورة عن هذا الكوكب ، وعملت « فايكنج ١ » على أداء مهمتها طوال ست سنوات ونصف سنة . وقد أكدت تحاليل عينات تربة المريخ وجود بعض المواد العضوية على سطح الكوكب ، وعدم حسم مسألة وجود حياة بدائية .

وفي ١٩٧٣ ، أطلق المسبار « مارينر ١٠ » و هو أول مسبار يزور كوكبين في رحلة واحدة هما كوكبا الزهرة وعطارد . وفي الأول من سبتمبر ١٩٧٩ تجاوزت المركبة الفضائية الأمريكية « بايونير ١ » كوكب المشترى واكتشفت قمرين تابعين له ، وفي

١٩٨٣ أطلق أول مختبر فضائي متخصص اسمه « سبيس لاب » . وفي ٨ نوفمبر ١٩٨٤ أجرى طاقم المكوك الفضائي الأمريكي « ديسكفري » أول عملية إصلاح وتشغيل لقمر صناعي في الفضاء ، بينما شارك الأمير « سلطان بن سلمان ابن عبد العزيز » في رحلة فضائية حول الأرض ، ليكون بذلك أول رائد فضاء عربي .

لكن لحظة الحزن والصدمة وقعت في ٢٨ يناير ١٩٨٦ ، حين انفجر مكوك الفضاء الأمريكي « تشالنجر » بعد ٧٣ ثانية من إطلاقه ليلقى رواد الفضاء الستة ، والمدرسة المرافقة لهم كريستا ماكوليف مصرعهم في ذلك الحادث المأساوي ، الذي أوقف رحلات الفضاء في الولايات المتحدة فترة بلغت سنتين .

وفي ٢٥ إبريل ١٩٩٠ تم إطلاق التليسكوب الفضائي « هابل » ، الذي كانت التوقعات تشير إلى أنه سوف يسهم في تحقيق قفزة هائلة في مجال مراقبة تطورات الوضع في الفضاء ، لم تحدث منذ أن وجه العالم الشهير « جاليليو » تليسكوبه إلى الفضاء في ١٦٠٩ . وهكذا كان مأمولا أن يصبح بوسع علماء الفلك مشاهدة الكواكب التي تدور حول النجوم البعيدة ، ومراقبة الموجات المتتابعة للطاقة حول الثقوب السوداء في الفضاء ، ومتابعة مولد المجرات . وقد نجح تليسكوب « هابل » في ١٩٩٥ في التقاط صور مهمة لموقع ولادة النجوم ، والأعمدة الضخمة الحاضنة لها والمكونة من غاز الهيدروجين ودقائق الغبار المجهرية ، التي يصل طولها إلى ٩,٥ تريليون كيلومتر . كما اكتشف هذا التليسكوب فجوة عميقة أو ثقبا أسود بحجم ثلاثة مليارات كوكب الشمس داخل لب إحدى المجرات ، وأرسل صورا فريدة عن ارتطام مذنب «شوميكر-ليفي» بكوكب المشترى في ١٩٩٤ . وباشر التليسكوب في حل لغز المنارات الضوئية المشعة خارج المجرات التي تعرف باسم « كوازار » ؛ غير أن هذا التليسكوب الفضائي - الذي حمل اسم عالم الفلك الكبير « إدوين هابل » ، الذي اكتشف في ١٩٢٣ وجود مجرات أخرى غير مجرة درب التبانة ، التي تحوي مجموعتنا الشمسية ، وبين في ١٩٢٩ كيفية تباعد المجرات عن بعضها البعض ، وهو أساس نظرية « الانفجار الكبير » - تعرض لعدة مشكلات ، منعته من تحقيق مهمته الأساسية ، وهي تمكين العلماء من مشاهدة الفضاء بدرجة تصل إلى عشرة أمثال درجة الوضوح ، التي نشاهده بها من أي تليسكوب آخر .

وعلى الرغم من أن التليسكوب « هابل » تكلف ٥ , ١ مليار دولار ووضع على ارتفاع ٣٧٠ ميلا من مدار الأرض ، بعد أن أطلقه المكوك الفضائي « ديسكفري » في ١٩٩٠ ، فإنه تعرض لمتاعب عدة منها أن المرآة الرئيسة فيه ، التي يبلغ حجمها ٤ , ٢م ، والتي تركز الضوء من الفضاء على مجموعة من الكاميرات والآلات ، لم تكن زاويتها مثبتة بدرجة دقيقة ، وأدى ذلك إلى كون الصور المرسلة من « هابل » إلى الأرض غائمة وغير واضحة . دفعت هذه المشكلات « ناسا » في ديسمبر ١٩٩٣ إلى إرسال بعثة لإصلاح التليسكوب ، بلغت تكلفتها ٦٢٩ مليون دولار ، وواجه رواد الفضاء السبعة الذين أقلتهم سفينة الفضاء « إنديفور » مشكلات بالغة التعقيد ؛ إذ كانت مهمتهم الرئيسة هي تعديل مستوى رؤية الصور المرسلة من التليسكوب ، وتصحيح العدسات وزواياها من خلال تثبيت صندوق يدعى « كوستار » يعوض المرآة المشوشة ، إضافة إلى تصحيح مشكلات « هابل » الأخرى . لكن هؤلاء الرواد نجحوا في النهاية في أداء المهمة ببراعة .

وفي ١٩٩٥ ، دخل مسبار « جاليليم » أجواء كوكب المشترى . وبعد سنتين من الأبحاث أعلن فريق من العلماء في منتصف أغسطس ١٩٩٦ أن قطعة الصخر ، التي تم فحصها بعد التقاطها من « أنتاركتيكا » تشير إلى وجود حياة فوق كوكب المريخ قبل ٦ , ٣ مليار سنة . فتح هذا الكشف شهية العلماء لاستكشاف المريخ ، امتدادًا لرحلة بدأت مع إرسال الروس سفينة الفضاء « مارس ١ » في ١٩٦٢ . ولم تحاول « ناسا » غزو الكوكب الأحمر إلا سنة ١٩٩٧ ، حين هبطت « باثفايندر » على سطحه و شفت عن وجود حوض نهر قديم هناك ، إضافة إلى دراسة أنواع من الصخور . وفي ديسمبر ١٩٩٨ أرسلت « ناسا » بعثة تتكون من سفينتين ، الأولى « مارس كلايمت أوربتر » (مسبار المريخ المناخي) .

وفي ٣ يناير ١٩٩٩ أطلقت السفينة الثانية « مارس بولار لاندر » (مركبة الهبوط القطبية المريخية) ؛ حيث وصلت الكوكب يوم ٣ ديسمبر ١٩٩٩ لتهبط على سطحه بالقرب من القطب الجنوبي في محاولة للبحث عن آثار مياه متجمدة فوق المريخ . لكن السفينة الأولى تحطمت قبل أن تتخذ مدارها حول المريخ ، أما السفينة الثانية فلم يعرف أحد مصيرها منذ هبوطها ، وما إذا كانت قد هبطت بسلام أم تحطمت .

محطة .. للإيجـار

وفي منتصف ١٩٩٧ ، تسمرت أعين المشاهدين على التغطية الحية للحادثة ، التي تعرضت لها المحطة الفضائية الروسية « مير » بعد اصطدامها بسفينة الإمداد ، وعجز أفراد طاقم المحطة الثلاثة عن إصلاح الأضرار التي لحقت بنظام توليد الطاقة ، واضطرارهم إلى العيش والعمل في الظلمة . وبسرعة تم إرسال سفينة النجاة الفضائية « سويوز » ؛ لتكون على مقربة من « مير » المتهالكة التي كانت قد أقيمت لاستخدامها خمس سنوات فقط ، لكن الروس « رمموها » وأصلحوها فعاشت -حتى تم الاستغناء عن خدماتها ، وسقطت في المحيط الهادي في ٢٣ مارس ٢٠٠١ - وسط أزمات متلاحقة .

الطريف أن الروس قاموا بتأجير « مير » للقيام بأبحاث دولية ، على غرار ما فعله الأمريكيون حين دفعوا لموسكو نحو ٥٠٠ مليون دولار مقابل إرسال طاقم أمريكي للمكوك مع الروس ، وإجراء تجارب وأبحاث علمية . كما دفعت فرنسا ١٣,٧ مليون دولار مقابل اشتراك « كلودي أنديه ديشايس » - وهي طبيبة متخصصة في التهاب المفاصل ، وخبيرة في علم الأعصاب - في رحلة المركبة الفضائية « سويوز تي . إم . ٢٣ » التي عادت إلى الأرض في مطلع سبتمبر ١٩٩٥ . وتعد « ديشايس » أول رائدة فضاء فرنسية ، وقد درست خلال رحلتها أثر فقدان الوزن في جسم الإنسان . أما رائدة الفضاء البريطانية « هيلين شيرمان » فقد التحقت بمحطة « مير » سنة ١٩٩١ ، وقضت على متنها أسبوعا ، لتصبح أول شخص بريطاني على الإطلاق يصعد إلى الفضاء .

وفي إبريل ١٩٩٩ اكتشفت مجموعة من علماء الفلك الأمريكيين ثلاثة كواكب ضخمة ، تدور في فلك النجم « أبسيلون أندروميدا » ، وهي تعد بذلك المرة الأولى التي تسمع فيها البشرية عن مجموعة شمسية أخرى تدور حولها كواكب ، تماما مثلما هي الحال مع الشمس وكوكب الأرض . وربما تكون تلك المجموعة الشمسية هدفا للرصد في الرحلة الفضائية المقررة - وفق خطط « ناسا » - في سنة ٢٠٠٥ ، خاصة أن ذلك قد يكون مؤشرا -حسبما يرى بعض العلماء- على وجود حياة أخرى في هذا الكون الفسيح .

* * *



تشارلز لندبيرج



قاهرا قمة إيفرست : تنزنج وهيلاري

روح المغـــامــرة نصف النجـــاح . . والذكاء، وحسن التخطيط والتصرف ، هي النصف الآخر .

ربما فسرت تلك الكلمات مغامرة الشاب الألماني «ماتياس راست» ، التي هبط فيها وهو في التاسعة عشرة من العمر بطائرة صغيرة في قلب الميدان الأحمر في موسكو في ٢٩ مايو ١٩٨٧ ، مخترقا بذلك الدفاعات والتحصينات السوفيتية آنذاك . وفي اليوم التالي أقيل رئيس أركان الدفاعات الجوية السوفيتية من منصبه ، في دلالة واضحة على تأثير تلك المغامرة -التي قام بها المغامر الشاب من هلسنكي إلى روسيا- على القيادة السوفيتية .

17

رواد الخطـــر



المغامر الألماني ماتياس راست خلال محاكمته

وحين نجح المغامران « برتران بيكار » ، و « بريان چونز » في الدوران حول العالم في مارس ١٩٩٩ على متن منطاد عملاق مملوء بالهواء الساخن ، تذكر الكثيرون مغامرات رائد أدب الخيال العلمي الفرنسي « جول فيرن » ، خاصة قصته « حول العالم في ٨٠ يوما » .

وفي القرن العشرين ، كان الأخوان الأمريكيان « أورفيل » و « ولبور رايت » من أنجح المغامرين ، حين قاما في ١٩٠٣ بأربع رحلات ناجحة قرب كيتي هوك في ولاية نورث كارولينا الأمريكية . أما « تشارلز ليندبيرج » ، فقد أضاف اسمه إلى سجل أبرز مغامري القرن ، حين أصبح أول شخص يقوم - بمفرده - برحلة طيران دون توقف عبر المحيط الأطلنطي في ٢١ مايو ١٩٢٧ .

وتعد « إيميليا إيرهارت » أول سيدة تقود بمفردها طائرة عبر المحيط الأطلنطي ، وذلك في ٢٠-٢١ مايو ١٩٣٢ . لكن تلك المغامرة اختفت في يوليو ١٩٣٧ خلال رحلة طيران لها حول العالم .

. . . وبدأت حبات المسبحة تكر !

في ٢٩ مايو ١٩٥٣ ، تمكن الإنسان من صعود قمة العالم ، حين تم تسلق قمة إيفرست في جبال الهيمالايا البالغ ارتفاعها ٢٩ ألفا و٢٨ قدما . ويعد تسلق إيفرست مغامرة كبرى ، قام بها النيوزيلندي « إدموند هيلاري » و «شيبرا تنزنج نوركاي» .

وبحلول ١٩٥٣ ، كانت ١٣ بعثة استكشافية قد انطلقت في محاولة قاتلة لقهر الجبل ، الذي يطلق عليه الأهالي من عشيرة شيبرا اسم « تشومولونجا » . بل إن ١٥ متسلقا للجبال توقفوا فوق منحدرات الجبل بمن فيهم « چورج مالوري » ، ذلك الرجل الذي اشتهر بمقولته إنه رغب في تسلق إيفرست لأنه موجود هناك !

كان « هيلاري » و « نوركاي » عضوين ضمن بعثة استكشافية ضخمة بقيادة الكولونيل « چون هنت » من الجيش البريطاني . وصل سبعة متسلقين إلى « كامب ٨ » على ارتفاع ٢٥ قدما ، واستعد فريقان للمغامرة النهائية . وبعد فشل الفريق الأول ، استعد « هيلاري » و « نوركاي » ، وعسكرا لدى حلول الليل على ارتفاع ٢٧ ألفا

و٩٠٠ قدم . وفي صباح اليوم التالي وصلا إلى قمة إيفرست . أهمية إنجازهما بدت واضحة في الأذهان في مايو ١٩٩٦ ، حين قام ثمانية متسلقين مزودين بمعدات أفضل ، بمغامرة لتسلق إيفرست ، لكن نهاية هؤلاء المغامرين كانت مأساوية ، إذ لقوا حتفهم جميعا في يوم واحد ، عقب هبوب عاصفة هوجاء قرب القمة التي تعد سقف العالم .

وفي تمام الساعة ١١ صباح يوم ١٤ ديسمبر ١٩١١ ، وقف النرويجي الكابتن «رولد انجيبيرت جرافنينج أموندسن » في قاع الأرض ليحتفل بانتصاره على منافسه البريطاني « روبرت سكوت » في السباق المحموم ؛ للحصول على لقب أول شخص يصل إلى القطب الجنوبي المتجمد .

وصل « أموندسن » إلى هدفه بعد رحلة استمرت ٥٣ يوما ، استعان خلالها بالكلاب التي تجره على زلاجات . وبعد شهر واحد ، وصل سكوت وأربعة من رفاقه إلى القطب الجنوبي ، ولكن حظهم التعيس أنهم لقوا مصرعهم؛ بسبب الظروف الجوية السيئة خلال رحلة العودة .

وعلى الرغم من أن الأمريكي « روبرت آي » . بيري زعم أنه وصل إلى القطب الشمالي في ١٩٠٩ ، فإن عديدين يشككون في كونه حقق ذلك الإنجاز . الطريف أن منافسا آخر يدعى الدكتور « فريدريك كوك » ، زعم - كاذبا - أنه سبق « بيري » إلى الوصول إلى القطب الشمالي بسنة كاملة ، لكن سرعان ما اكتشف الجميع زيف ادعاءاته .

ويعد الروس : « إيفانسفيتش جوردينكو » ، و « فافيل كونفيتش سينكو » ، و « ميخائيل ميخائيلوفيتش سوموف » ، و « ميخائيل ليميلياتوفيتش أوستريكن » ، أول من ثبت بالدليل القاطع وصولهم إلى القطب الشمالي برا ، وذلك في ٢٣ إبريل ١٩٤٨ . وعن طريق البحر ، فإن أول رحلة مؤكدة وصلت إلى القطب الشمالي تمت في ١٩ إبريل ١٩٦٨ ، حين وصل « رالف بليستيد » وبرفقته « وولتر بيديرسون» و«جيرالد بيتزل » و « چان لوك بومبارديه » إلى القطب الشمالي ، بعد كفاح مرير مع البرودة القارسة طوال ٤٢ يوما . لكن هؤلاء المغامرين تمكنوا في النهاية ، باستخدام أربع قطع جليدية متحركة ، من تحقيق إنجازهم المثير .

« ناومي أومورا » من اليابان هو أول شخص يصل بمفرده إلى القطب الشمالي ، في أول مايو ١٩٧٨ . قطع « أومورا » مسافة ٧٢٥ ميلا لكي يحقق هدفه المنشود . ويعد الفرنسي الدكتور « چان لويس إيتيان » أول إنسان يصل إلى القطب الشمالي بمفرده ، ودون مساعدة كلاب في عملية الانتقال فوق الجليد ، في ١١ مايو ١٩٨٦ ، بعد أن قطع رحلة استمرت ٦٣ يوما .

أما أول أشخاص يصلون إلى القطب الشمالي على زلاجات لقطع المسافات الشاسعة فوق الجليد ، فهم سبعة أفراد من بعثة استكشافية سوفيتية ، يقودهم « ديميتري شبارو » . وصلت البعثة الاستكشافية إلى القطب الشمالي في ٣١ مايو ١٩٧٩ بعد رحلة استمرت ٧٧ يوما ، قطعوا خلالها مسافة ١٥٠٠ كيلومتر .

ويبقى الدكتور « ألبرت بادكوك كراي » من الولايات المتحدة صاحب رقم قياسي آخر ، إذ وصل إلى القطب الشمالي على متن طائرة « داكوتا » في ٣ مايو ١٩٥٢ .

وفي ١٢ فبراير ١٩٦١ ، وصل إلى القطب الجنوب « سنوكات » ، لكن سير « رانولف فاينز » و « تشارلز بيرتون » من بعثة « ترانس جلوب » (عبر العالم) الاستكشافية البريطانية ، تمكنا من الارتحال جنوبا من بلدة جرينتش البريطانية في ٢ سبتمبر ١٩٧٩ ؛ ليعبرا القطب الجنوبي في ١٧ ديسمبر ١٩٨٠ والقطب الشمالي في ١٠ إبريل ١٩٨٢ ، ثم عادا إلى جرينتش في ٢٩ أغسطس ١٩٨٢ بعد رحلة ، قطعا خلالها مسافة ١٥٦ ألف كيلو متر .

النرويجي « بورج أوسلاند » أكمل رحلة استغرقت ٦٤ يوما عبر قارة «أنتاركتيكا» في ١٨ يناير ١٩٩٧ ، ليصبح بذلك أول إنسان يعبر تلك القارة المتجمدة بمفرده ودون مساعدة من أحد . أما أطول رحلة إلى « أنتاركتيكا » فكانت من نصيب بعثة استكشافية دولية ، تضم ستة أفراد قطعوا ٦٠٤٠ كيلو مترا ، على مدى ٢٢٠ يوما من سيل نتاتاكس في ٢٧ يوليو ١٩٨٩ إلى ميرني في ٣ مارس ١٩٩٠ .

وأول من سار على قدميه إلى القطبين الشمالي والجنوبي ، هو الأسكتلندي « روبرت سوان » الذي قاد مجموعة تضم ثلاثة أفراد ، وصلت إلى القطب الجنوبي في

١١ يناير ١٩٨٦ ، كما قاد « سوان » بعثة تضم ثمانية أفراد سارت على الأقدام حتى وصلت إلى القطب الشمالي في ١٤ مايو ١٩٨٩ .

وأول بعثة استكشافية كل أفرادها من النساء للقطب الشمالي ، كانت تضم خمسة فرق ، كل منها يضم أربع سيدات ، سرن مسافة ١٠٠٠ كيلو متر حتى وصلن إلى القطب الشمالي في الفترة بين مارس ومايو ١٩٩٧ ، وخلال الرحلة تمكنت تلك الفرق البريطانية من التغلب على عديد من المصاعب والمخاطر الناجمة عن سوء الأحوال الجوية .

عبــور بـرمـائي

يعد الأسترالي « بن كارلن » الوحيد الذي خاض مغامرة عبور المحيط الأطلنطي باستخدام سيارة برمائية . فقد أكمل « كارلن » آخر مرحلة من عبور الأطلنطي (قناة المانش) في ٢٤ أغسطس ١٩٥١ ، ثم عاد إلى مونتريال في كندا في ٨ مايو ١٩٥٨ ، ليقطع بذلك مسافة ٦٢ ألفا و٧٦٥ كيلو مترا فوق اليابسة ، و١٥ ألفا و٤٥٠ كيلو مترا في البحر والنهر ، باستخدام سيارة الجيب البرمائية «هاف سيف» التي يعني اسمها باللغة العربية « نصف آمنة »!

وفي سنة ١٩٠٣ تمكنت الأمريكية « جلاديس جريديلي » من الإبحار من الساحل الغربي إلى الساحل الشرقي للمحيط الأطلنطي عبر قارب شراعي ، بدءا من نوفا سكوتيا في كندا ، وصولا إلى هوب كوب في ديفون ببريطانيا ، عبر رحلة استمرت ٦٠ يوما . وبهذا الإنجاز أصبحت « جريديلي » أول امرأة ، تعبر من غربي إلى شرقي المحيط الأطلنطي باستخدام قارب شراعي .

أما الفرنسي « لوران بورنون » ، فقد استخدم قاربه « بريماجاز » ليبحر من غربي إلى شرقي المحيط الأطلنطي بدأت الرحلة من أمبروز لايت تاور في الولايات المتحدة في ٢٧ يونيو ١٩٩٤ ، وانتهت في ليزارد بوينت في كورنوول ببريطانيا في يوليو ، أي أن الرحلة استغرقت سبعة أيام وساعتين و٣٤ دقيقة و٤٢ ثانية!

وبالنسبة لأول رحلة تجديف عبر المحيط الهادي ، فقد كانت على ظهر السفينة «بريتانيا ٢» وقام بها « چون فيرفاكس » و « سيلفيا كوك » . انطلقت الرحلة من سان فرانسيسكو بالولايات المتحدة في ٢٦ إبريل ١٩٧١ ، وانتهت في جزيرة هايمان الأسترالية في ٢٢ إبريل ١٩٧٢ ؛ أي أن الرحلة استغرقت ٣٦٢ يوما . قاد « تشارلز كينجسفورد » أول محاولة ناجحة لعبور المحيط الهادي بطائرة « فوكر » في ٩ يونيو ١٩٢٨ . بدأ « كينجسفورد » رحلته في سان فرانسيسكو في ١٣ مايو ، وكانت بريسبان نقطة الوصول .

حــول العـــالم

ويعتبر « چون دي . كلوز » من ولاية إنديانا الأمريكية أكثر رحالة على وجه الأرض ، إذ زار جميع الدول ذات السيادة في العالم وجميع البلدان والمناطق غير ذات السيادة ، باستثناء ست من الأخيرة فقط . أما أكثر زوجين ارتحالا في العالم فهما الدكتور « روبرت » و « كارمن بيكر » من ولاية فلوريدا الأمريكية ، إذ زار الزوجان كل الدول المستقلة ، وجميع البلدان والمناطق غير المستقلة في العالم ، باستثناء سبع فقط من الدول الأخيرة .

يعتقد أن الأمريكي « چورچ ماثيو شيلينج » ، أول شخص طاف حول العالم مشيا على الأقدام . فقد بدأ رحلته في ٣ أغسطس ١٨٩٧ وأكملها في ١٩٠٤ . لكن الشيء المؤكد أن مواطنه « ديفيد كونست » قد سار مسافة ٢٣ ألفا و٢٥٠ كيلو مترا على قدميه عبر أربع قارات خلال الفترة بين ٢٠ يونيو ١٩٧٠ و٥ أكتوبر ١٩٧٤ . مسافة أطول قطعها الأمريكي « آرثر بليسيت » ، الذى سار على قدميه مسافة ٥١ ألفا و ٥٠٠ كيلو متر خلال أكثر من ٢٦ سنة منذ ٢٥ ديسمبر ١٩٦٩ . زار« بليسيت » ٢٦٧ بلدا فى جميع القارات .

ومن فوق مقعد متحرك ، تمكن الكندي « ريك هانسن » - الذي أصيب بالشلل في نصفه الأسفل إثر حادث دراجة بخارية - من قطع مسافة بلغت ٤٠ ألفا و٧٥ كيلو مترا و١٦ مترا عبر أربع قارات و٣٤ بلدا . بدأ هانسن مغامرته في فانكوفر بكندا في ٢١ مارس ١٩٨٥ ، وقفل عائدا في ٢٣ مايو ١٩٨٧ .

وفوق دراجة ، تمكن « وولتر ستول » من قطع مسافة ٦٤ ألفاو ٩٦٠ كيلو مترا من ٢٤ يناير ١٩٥٩ إلى ١٢ ديسمبر ١٩٧٦ . زار ستول ١٥٩ بلدا ، بدءا من رومفورد في إيسيكس ببريطانيا . وخلال الفترة ما بين ١٩٢٢ و٢٥ ديسمبر ١٩٧٣ ، قاد « تومي تشامبرز » في جلاسجو ببريطانيا دراجته ليقطع مسافة بلغت مليونا و٢٨٦ ألفا و٥١٧ كيلو مترا . ومنذ مغادرته بلده ألمانيا في نوفمبر ١٩٦٢ ، قطع هاينز شتوك بدراجته ٣٦٥ ألف كيلو متر وزار ٢١١ بلدا .

وأطول رحلة بالدراجات البخارية كانت من نصيب الأرجنتيني «إيميليو سكوتو» ، الذي تمكن خلال الفترة ما بين ١٧ يناير ١٩٨٥ و٢ إبريل ١٩٩٥ من قطع رحلة غطت أكثر من ٧٣٥ ألف كيلو متر ، وشملت ٢١٤ بلدا . « چيم روچرز » و « تابيثا إيستابروك » من نيويورك بالولايات المتحدة ، سافرا على ظهر دراجة بخارية مسافة إجماليها ٩١ ألفا و٧٦٦ كيلو مترا ، عبر ست قارات خلال الفترة ما بين مارس ١٩٩٠ ونوفمبر ١٩٩١ .

تعد البرازيلية « مونيكا فيجا » من ريو دي جانيرو بالبرازيل أول امرأة تطوف حول العالم بمفردها باستخدام دراجتها البخارية « هوندا ١٢٥ سي سي » . بدأت تلك المغامرة رحلتها في ميلانو بإيطاليا في ٧ مارس ١٩٩٠ ، وعادت إلى إيطاليا في ٢٤ مايو ١٩٩١ ، بعد أن قطعت مسافة ٨٣ ألفا و٥٠٠ كيلو متر وزارت ٥٣ بلدا .

وفي ١٤ أكتوبر ١٩٤٧ أصبح الطيار الحربي الأمريكي « تشاك ييجر » أول إنسان يخترق حاجز الصوت ، على الرغم من أن هذا النبأ لم يكشف عنه النقاب إلا بعد مرور بضعة شهور تالية . البريطاني « ديفيد جي . سبرنجيت » صاحب الرقم القياسي في الطواف حول العالم باستخدام طائرة ، إذ سجل ٤٤ ساعة و٦ دقائق طيران ، سافر خلالها من لوس أنجلوس بالولايات المتحدة عبر لندن والبحرين وسنغافورة وبانكوك ومانيلا وطوكيو وصولا إلى هونولولو ، خلال الفترة ما بين ٨ و ١٠ يناير ١٩٨٠ .

أما أطول رحلة طيران دون توقف باستخدام خط طيران تجاري ، فكانت لمسافة ١٨ ألفا و٥٤٥ كيلو مترا من أوكلاند في نيوزيلندا إلى لوبورجيه في العاصمة الفرنسية باريس ، وتم ذلك في ٢١ ساعة و٤٦ دقيقة خلال يومي ١٧ و ١٨ يونيو ١٩٩٣ . أما

أطول رحلة طيران دون توقف يقوم بها شخص ، فكانت حين سافر « روبرت فيري » من كالفرسيتي في كاليفورنيا إلى أورموند بيتش في فلوريدا بالولايات المتحدة في إبريل ١٩٦٦ . قطع هذا المغامر في تلك الرحلة مسافة ثلاثة آلاف و٦٥١ كيلو مترا و٦٠٠ متر .

وبالنسبة للمغامرات بالمنطاد ، فإنه على الرغم من فشل محاولة « ستيف فوسيت» الطواف حول العالم باستخدام المنطاد « فري سبيريت » (أي الروح الحرة) ، فإن هذا الرجل سجل أكبر مسافة طيران باستخدام المنطاد وبلغت ١٦ ألفا و٧٣ كيلو مترا و٨١٠ أمتار . انطلق فوسيت في ١٣ يناير ١٩٩٧ من سانت لويس في ولاية ميزوري الأمريكية ، ووصل إلى سلطانبور في الهند في ٢٠ يناير ١٩٩٧ .

الكولونيل الأمريكي «چو كيتنجر » هو أول من عبر بمفرده المحيط الأطلنطي باستخدام منطاد مملوء بغاز الهيليوم . انطلق المنطاد « روزي أوجلادي » من كاريبو في ولاية مين الأمريكية في ١٤ سبتمبر ١٩٨٤ ، وهبط في مونتينوت قرب سافونا بإيطاليا بعد رحلة استمرت ٨٧ ساعة ، قطع خلالها خمسة آلاف و٧٠١ كيلو متر . رجل الأعمال البريطاني « ريتشارد برانسون » ومواطنه « بير ليندستراند » هما أول من عبر المحيط الأطلنطي باستخدام منطاد مملوء بالهواء الساخن ، خلال الفترة بين ٢ و ٣ يوليو ١٩٨٧ . انطلق الاثنان من واحة شوجرلوف في ولاية مين الأمريكية ، وأكملا الرحلة التى تبلغ أربعة آلاف و٩٤٧ كيلو مترا ، حتى وصلا إلى ليما فادي في أيرلندا الشمالية بعد رحلة استمرت ٣١ ساعة و٤١ دقيقة .

سرعة قياسية

وربما لن يصدق البعض أن المغامر البريطاني « ريتشارد نوبل » هو صاحب الرقم القياسي لقيادة السيارات السريعة ، حين قاد سيارته النفاثة « ترست٢ » من طراز « رولز رويس أفون ٣٠٢ » التي صممها چون أكرويد في ٤ أكتوبر ١٩٨٣ بسرعة بلغت ألفا و١٩ كيلو مترا و٤٦٧ مترا في الساعة .

أما الحلبة التي سجل فيها هذا الرقم المذهل فلم تكن سوى صحراء «بلاك روك» أو الصخرة السوداء في ولاية نيفادا الأمريكية .

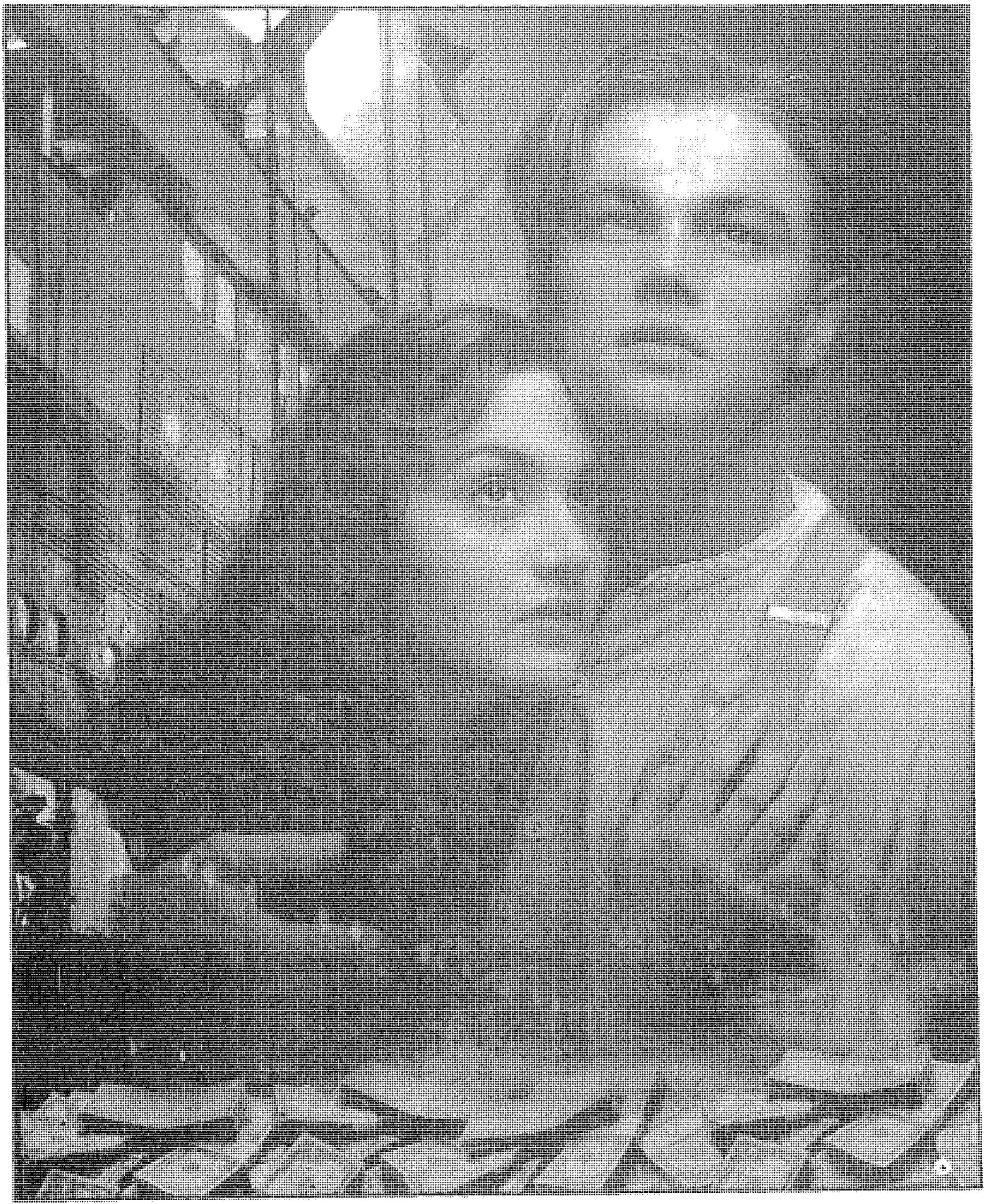
أما أقصى سرعة قادت بها امرأة سيارة فوق اليابسة ، فكانت من نصيب الأمريكية « كيتي هاميلتون » ، حين حققت سرعة ٨٤٣ كيلو مترا و٣٢٣ مترا في الساعة بسيارة آي . إم . ١ « موتيفيتور » فوق صحراء ألفارد في ولاية أوريجون الأمريكية ، في ٦ ديسمبر ١٩٧٦ .

وبالنسبة لأقصى سرعة سجلها شخص باستخدام سيارة ذات إطارين ، فهي باسم السويدي « جوران الياسون » ، الذي قاد سيارته بسرعة ١٦٤ كيلو مترا و٧١٠ أمتار في الساعة ، في ٢٠ إبريل ١٩٩٦ .

قاد الأمريكي « ديف كامبوس » الدراجة البخارية « إيزي رايدرز » لتسجل سرعة قياسية بلغت ٥١٨ كيلو مترا و٤٥٠ مترا في الساعة ، في ولاية يوتاه الأمريكية في ١٤ يوليو ١٩٩٠ . أما صاحبا أسرع رقم قياسي بطائرة ، فقد سجل في ٢٨ يوليو ١٩٧٦ ، وبلغ ثلاثة آلاف و٥٢٩ كيلو مترا و٥٦٠ مترا في الساعة . صاحبا هذا الرقم القياسي ، هما : الكابتن « إيلدون جوريش » ، والميچور « چورچ تي » . مورجان الابن اللذان استخدما الطائرة لوكهيد إس . آر . ٧١ إيه . « بلاك بيرد » في تحقيق هذا الإنجاز قرب قاعدة « بيل إيرفورس » الجوية في كاليفورنيا .

إنها روح المغامرة ، والرغبة في تحطيم أرقام وإنجازات الآخرين ، لتسجيل أسماء المغامرين – ولو لفترة زمنية وجيزة – في سجل أشهر المغامرين في هذا العالم الفسيح .

* * *



كيت وينسلت وليوناردو دي كابريو بطلا فيلم « تيتانيك »



مارلون براندو

18

السينما .. قرن من السحر

آلاف المحظوظين ، وملايين الثانويين ، ومليارات المعجبين . . هذه هي حال السينما : صندوق العجائب الذي يدهشنا بقصص تمس المشاعر ، وتلهب الخيال ، وتنتزع الضحكات ، وتستدر الدموع . . إنها فن التمثيل أمام الكاميرا ، وسباق النجوم والمخرجين على جوائز الأوسكار في الولايات المتحدة ، و « البافتا » في بريطانيا ، و« السعفة الذهبية » في فرنسا ، و « الدب الذهبي » في ألمانيا .

إنها السينما التي جمعت - عبر قرن من الزمان - بين المخرجين البولندي « رومان بولانسكي » والسويدي « إنجمار بيرجمان » ،



يوسف شاهين

والتشيكي « ميلوش فورمان » ، والأمريكي « ستانلي كوبريك » ، والإسباني« بيدرو المودوفار » ، والياباني « أكيرا كوروساوا » ، والبريطاني « ألفريد هيتشكوك » .

سحر السينما الذي أثر في وجدان المتفرجين في كل مكان، وصنع نجوما أمثال «روبرت دي نيرو» ، و «داستن هوفمان» ، و « كلارك جيبل » ، و « كاري جرانت » ، و « آل باتشينو » ، و « أورسون ويلز » ، و « سلفستر ستالوني » ، و « چاك نيكلسون » ، و « أنطوني هوبكنز » ، و « مارلون براندو » ، و « همفري بوجارت » ، و« سبنسر تريسي » ، و «مارشيللو ماستروياني»، و « شارلي شابلن » ، و « ميشيل بيكولي » ، مثلما صنع نجمات من طراز « إليزابيث تايلور » ، و « أودري هيبورن » ، و « ميريل ستريب » ، و « چودي فوستر » ، و « ليليان جيش » ، و « ماري بيكفورد » ، و « چين راسل » ، و « چوليا روبرتس » ، و « ديمي مور » ، واليونانية «ميلينا ميركوري » ، والفرنسيات : « كاترين دونوف » ، و « آنابيلا » ، و « أرليتي » ، و « دانييل داريو » ، و « ميشيل مورجان » ، و « چان مورو » ، و « بريچيت باردو » ، و « صوفي مارسو » ، و « چوليت بينوش » ، والسويدية « إنجريد بيرجمان » ، والإيطاليتين « صوفيا لورين » ، و «چوليتا ماسينا » .

سحر السينما جعلنا نحبس أنفاسنا ، ونحن نتابع مشاهد خالدة في الأذهان ، مثل مشهد الوداع بين « همفري بوجارت » و « إنجريد بيرجمان في » « كازابلانكا » ، والحوار بين « چون ترافولتا » و « صمويل چاكسون » في « قصص شعبية » ، ورأس الحصان المقطوع في فراش المخرج السينمائي في « الأب الروحي » ، ولعبة الروليت بالمسدس في « صائد الغزلان » ، والحفلة داخل مستشفى المجانين في « أحدهم طار فوق عش الوقواق » ، والمطاردة القاتلة في «المعان» ، والقتل تحت الدش في «سايكو» ، والمواجهة بين « كلينت إيستوود » و « لي فان كليف » في «الطيب والشرس والقبيح» ، ورقصة « زوربا اليوناني » « أنطوني كوين » (١٩١٥-٢٠٠١) ، و « أنطوني هوبكنز » مقيدا ومكمم الوجه في « صمت الحملان » ، و « داستن هوفمان » مقاطعًا حفل زفاف حبيبته في « الخريج » ، ومغامرات « شون كونري » (١٩٣٠-) ، أو « روچر مور » (١٩٢٧-) ، أو « تيموثي دالتون » (١٩٤٤-) ، أو « بيرس بروسنان » (١٩٥١-) في سلسلة أفلام « چيمس بوند » .

وكم عشقنا مشاهد من أفضل الأفلام المصرية ، مثل بكاء « نجيب الريحاني » في «غزل البنات» ، والحوارات المدهشة في « الناصر صلاح الدين » ، و « الأرض » ، و« المومياء » ، و « سواق الأوتوبيس » ، و « الطوق والأسورة » ، و « العزيمة » ، و« شباب امرأة » ، و « القاهرة ٣٠ » إخراج « يوسف شاهين » و « شادي عبد السلام » و « عاطف الطيب » و « كمال سليم » و « صلاح أبوسيف » .

وكم استهوانا أداء النجوم : « زكي رستم » (١٩٠٣-١٩٧٢) ، و«صلاح منصور» (١٩١٨-١٩٧٩) ، و« محمود المليجي » (١٩١٠-١٩٨٣) ، و « فريد شوقي » (١٩٢٤-١٩٩٨) ، و« استيفان روستي » (١٨٩١-١٩٦٤) ، و « يوسف وهبي » (١٨٩٨-١٩٨٢) ، و«بشارة واكيم» (١٨٩١-١٩٤٩)، و «توفيق الدقن» (١٩٢٤-١٩٨٨)، «عبد الوارث عسر » (١٨٨٩-١٩٨٢) ، و « شكري سرحان » (١٩٢٥-١٩٩٧)، و«عادل أدهم» (١٩٢٨-١٩٩٦)، و«أحمد رمزي» (١٩٣٠-) ، و « أحمد مظهر » (١٩١٧-) ، و« يحيى شاهين » (١٩١٧-١٩٩٥) ، و « حسين رياض » (١٨٩٧-١٩٦٥) ، و«عماد حمدي » (١٩٠٩-١٩٨٤) ، و «كمال الشناوي» (١٩٢١-) ، و « محمود مرسي » (١٩٢٣-) ، و « عمر الشريف » (٤ أكتوبر ١٩٣٢-) ، و « أنور وجدي » (١٩٠٤-١٩٥٥) ، و«عبد الحليم حافظ » (١٩٢٩-١٩٧٧) ، و « حسن يوسف » (١٩٣٣-) ، و«رشدي أباظة » (١٩٢٧-١٩٨٠) ، و « نور الشريف » (١٩٤٦-) ، و «محمود ياسين» (١٩٤١-)، و « عزت العلايلي » (١٩٣٤-) ، و « حسين فهمي » (١٩٤٠-) ، و« أحمد زكي» (١٩٤٩-) ، و « يحيى الفخراني » (١٩٤٥-) ، و « محمود عبد العزيز» (١٩٤٦-) ، و « نجيب الريحاني » (١٨٩٢-١٩٤٩) ،و « عبد الفتاح القصري » (١٩٠٥-١٩٦٥) ، و « إسماعيل ياسين » (١٩١٢-١٩٧٢) ، و « علي الكسار » (١٨٨٧-١٩٥٧) ، و « عادل إمام » (١٩٤١-) ، و « عبد السلام النابلسي » (١٨٩٩-١٩٦٨) ، و « عبد المنعم إبراهيم » (١٩٢٤-١٩٨٧) ، و « فؤاد المهندس » (١٩٢٤-) ، وموهبة النجمات : « فاتن حمامة » (١٩٣١-) ، و « سعاد حسني » (١٩٤٣-٢٠٠١) ، و « نادية لطفي » (١٩٣٨-) ، و « شادية » (١٩٢٩-) ، و «مريم فخر الدين » (١٩٣٣-)، و «أمينة رزق» (١٩١٠-)، و «سناء جميل» (١٩٣١-) ،

و « هند رستم » (١٩٣١-) ، و « ماري منيب » (١٩٠٥-١٩٦٩) ، و « تحية كاريوكا » (٢٢ فبراير ١٩١٥-٢٠ سبتمبر ١٩٩٩) ، و « ميرفت أمين » (١٩٤٦-) ، و « يسرا » (١٩٥٥-) ، و « ليلى علوي » (١٩٦٢-) ، و « لوسي » (١٩٦٣-) .

ليست « السينما الوريث المتعسف للرواية ، أو المسرح ، أو الرسم ، ولا هي سابقة تاريخ الصورة الإلكترونية ، إنما هي اختراع نظرة ، واكتشاف العالم ، وعلاقة بالعالم » . بهذه العبارات شبه الفلسفية ، عرف « چان ميشيل فريدون » - في كتابه « العصر الحديث للسينما » الصادر سنة ١٩٩٥ - اختراع الفن السابع .

ومنذ بداياتها الأولى كساحة للموسيقى وللمعارك ، حظيت السينما باهتمام الكثيرين ، حتى تحولت إلى واحدة من كبرى الصناعات في العالم . ونافس الإنتاج السينمائي الصناعات الثقيلة والزراعة كنشاط اقتصادي ذي طابع ترفيهي في المقام الأول ، والأهم من ذلك أن السينما جسدت أحلام ورؤى العالم ، وصنعت جماهيرية شملت جميع أبناء كوكب الأرض .

اتسمت السنوات الأولى من القرن العشرين باهتمام واسع بتطوير هذا الفن الوليد، الذي شهد أول عروضه للعامة على يد الأخوين « لوميير » في ليون بفرنسا في ١٨٩٥ . وفي ١٩٠٠ عرض ليون جوامون في فرنسا صوتا وصورا سينمائية متزامنين . في بريطانيا أسس ويل باركر في ١٩٠١ شركة « أوتوسكوب » ، وبنى استوديو بدائيا مفتوحا (بلا أسقف) في ستامفورد هيل بلندن . وفي السنة التالية صنع الفرنسي «چورچ ميلييس» فيلم « رحلة إلى القمر » وهو أول فيلم من أفلام الخيال العلمي . وفي ١٩٠٨ أصبح فيلم « ٣٥ ملليمترا » هو النموذج المعتمد في صناعة السينما .

وبحلول ١٩١٤ ، بدأت صناعة السينما تقوي أركانها في غربي أوروبا وروسيا والدول الإسكندنافية ، بالإضافة إلى الولايات المتحدة ، لتصبح الأفلام أطول ، والقصص أكثر درامية وجذبا للجمهور من رواد دور العرض الجديدة . بدأت هوليوود تملك قواعد جديدة لصناعة السينما في العالم ، وهي في الأساس مولود من ثمار جهود المهاجرين من شرق أوروبا وأيضا الساحل الشرقي الأمريكي إلى هوليوود! وكانت سنة ١٩١٣ قد شهدت موجة من التعاقدات مع كبار النجوم من جانب شركات

الإنتاج ، فقد وقعت « ماري بيكفورد » (١٨٩٣-١٩٧٩) عقدا مدته خمس سنوات مع « أدولف زوكور » (١٨٧٣-١٩٧٦) لتصبح إحدى أوليات نجمات السينما ، بينما وقع « فاتي آربكل » (١٨٨٧-١٩٣٣) عقدا لإنجاز أفلام كوميدية لحساب « ماك سينيت » . « شارلي شابلن » (١٦ إبريل ١٨٨٩- ٢٥ ديسمبر ١٩٧٩) أيضا تم اكتشافه على يدي « ماك سينيت » (١٨٨٠-١٩٦٠) وذهب إلى هوليوود .

وفي ١٩١٥ ، أثار فيلم « دي . دبليو . جريفيث » (١٨٧٤-١٩٤٨) « مولد أمة » ضجة عند افتتاح عرضه في نيويورك ، وهو أول فيلم يتم عرضه فى البيت الأبيض ، أدهش « مولد أمة » الكثيرين بسبب استعانته بتقنيات أكثر تطورا في فن السينما .

كما أخرج « سيسيل دي ميل » (١٨٨١-١٩٥٩) فيلم « المخادع » ، الذي ترك أثرا بالغا لجودته الفنية واشتماله على بعض الإثارة الجنسية . وفي ١٩١٦ أنتج « جريفيث » الفيلم الملحمي الرائع « التعصب » ، لكنه لم يحظ بإقبال جماهيري . وبعد ثلاث سنوات أسس « جريفيث » مع « شارلي شابلن » و « ماري بيكفورد » شركة « يونايتد أرتست » لتعلق هوليوود بسخرية « المجانين تولوا مسئولية البيمارستان » . ووسط ظهور « دوجلاس فيربانكس » (١٨٨٣-١٩٣٩) ، و « رودولف فالنتينو » (١٨٩٥-١٩٢٦) ، و « جريتا جاربو » (١٩٠٥-١٩٩٠) ، تألق « شارلي شابلن » ، و « ماري بيكفورد » ، و « هارولد لويد » (١٨٩٣-١٩٧١) ، و « لون تشيني » (١٨٨٣-١٩٣٠) . وفي ١٩٢٣ تحول « سيسيل دي ميل » من الأفلام الجنسية إلى الأفلام الدينية بفيلم « الوصايا العشر » . شركة « مترو جولدين ماير » تأسست في السنة التالية ، بينما أخرج « سيرچي أيزنشتاين » في ١٩٢٥ الفيلمين السوفيتيين «الإضراب» ، و « المدرعة بوتمكين » ، اللذين تركا أثرا كبيرا لدى صانعي السينما في العالم ، بفضل الأسلوب الجديد في المونتاج والتقنيات المتطورة .

« مغني الچاز » الذي افتتح بدار سينما وارنر الأمريكية في ٦ أكتوبر ١٩٢٧ ، دشن عصر السينما الناطقة بصرخة « آل چولسون » «انتظر دقيقة . . لم تنل شيئا بعد» ، وحقق هذا الفيلم إيرادات بلغت ٣,٥ مليون دولار . وفي ألمانيا أخرج « فريتز لانج » فيلمه المستقبلي الفذ « متروبوليس » . في السنة التالية أنتجت شركة وارنر أول فيلم ناطق بالكامل بعنوان « أضواء نيويورك » ، بينما أنجزت « والت ديزني » أول فيلم

رسوم متحركة لميكي ماوس ، وأتبعته بأول فيلم رسوم متحركة ناطق بطولة « ميكي » أيضا . كما أنجز « ألفريد هيتشكوك » (١٨٩٩-١٩٨٠) فيلم « ابتزاز » ، أول فيلم بريطاني ناطق ، وأدت « چوان باري » جمل الحوار الخاصة بنجمته البولندية الأصل « آني أوندرا » . لكن المعارضة للسينما الناطقة تظل مستمرة ، فها هو « إدوارد وود » يكتب في حولية « بيكتشر شو » أن « التقدم الحقيقي في التمثيليات السينمائية ينبغي أن يبنى على الحفاظ على صمت الشاشة » .

العصر الذهبي

ألمانيا قادت في السنة نفسها محاولة إنشاء اتحاد أوروبي للسينما لمنافسة هوليوود بشروط متكافئة ، لكن المحاولة أخفقت ، بينما أنجز « أيزنشتاين » تحفة دعائية «أكتوبر». في ١٩٢٩ أصبح عدد رواد دور السينما ٩٥ مليونا في السنة الثانية للأفلام الناطقة ، بزيادة مقدارها ٣٨ مليونا على ١٩٢٧ . وفي ١٩٣٠ وافق المنتجون والموزعون السينمائيون في الولايات المتحدة على « ميثاق شرف » للإنتاج السينمائي ، وضع صيغته « دانييل إيه . لورد » ، ويتمثل المبدأ الرئيس في أنه « لن يتم إنتاج أي فيلم سينمائي يتسبب في إضعاف المعايير الأخلاقية لمشاهديه » .

كان عقد الثلاثينيات العصر الذهبي للسينما في هوليوود ، خاصة بعد تزايد أعداد زوار دور السينما . بعض نجوم السينما خلال النصف الأول من القرن العشرين أصبح في مثل شهرة « هاملت » رائعة الكاتب المسرحي الإنجليزي « وليام شكسبير » ، ولوحة «موناليزا» للفنان الإيطالي « ليوناردو دافنشي » . وهكذا برز اسم « شارلي شابلن » بقبعته وعصاه وشاربه الصغير وأدائه الكوميدي الراقي ، و « چون واين » (١٩٠٧-١٩٧٩) في دور راعي البقر الفظ ، و « همفري بوجارت » (١٨٩٩-١٩٥٧) رمز الكبرياء الجريح في « كازابلانكا » ، و « مارلين مونرو » سيدة الإغراء في « البعض يفضلها ساخنة » .

وفي الثلاثينيات والأربعينيات ، قدم المخرجون عدة أفلام كلاسيكية يمكن الإشارة إليها زمنيا كالتالي . . ١٩٣٤ : « حدث ذات ليلة » (فرانك كابرا) ، ١٩٣٦ : «السيد ديدز يذهب إلى البلدة» (فرانك كابرا) ، « الكابتن شجاع » (فيكتور فليمنج) ، «ساحر أوز» (فيكتور فليمنج) ، « العربة » (چون فورد) ، « ذهب مع الريح » (فيكتور

فليمنج) ، ١٩٤٠ : « عناقيد الغضب » (چون فورد) ، ١٩٤١ : « المواطن كين » (أورسون ويلز) ، « الصقر المالطي » (چون هيوستون) ، « كيف كان الوادي أخضر » (چون فورد) ، « اشتباه » (ألفريد هيتشكوك)، ١٩٤٢ : «كازابلانكا» (مايكل كيرتز) ، ١٩٤٥ : «إنها حياة رائعة» (فرانك كابرا) ، ١٩٤٦ : « النوم الكبير » (هوارد هوكس) ، « حبيبتي كليمنتين » (چون فورد) .

ومع تراجع نظام الاستوديو في الخمسينيات وإقبال الجمهور على شاشة التليفزيون ، بعد بدء أول بث تليفزيوني في لندن سنة ١٩٣٦ ، بدأت قبضة هوليوود تضعف . وعقب خروجها من حطام الحرب العالمية الثانية ، بدأت أوروبا تحاول صنع أسلوب سينمائي خاص بها ، بالاستعانة بروائع الأدب والاعترافات الذاتية ، و « سينما المؤلف » التي انتهجها « إنجمار بيرجمان » و « فيدريكو فيلليني » و « روبرتو روسيليني » و « أندريه فايدا » و « لويس بونويل » و « چان لوك جودار » و « فرانسوا تروفو » .

وفي مناطق أخرى من العالم بدأت صناعة السينما تتطور ، خاصة في مصر التي شهدت مولد الأفلام الروائية في مطلع العشرينيات ، خاصة «برسوم يبحث عن وظيفة» (١٩٢٣) ، و « الباشكاتب » (١٩٢٤) ، و « قبلة في الصحراء » (١٩٢٧) ، و « ليلى » (١٩٢٧) ، و « بنت النيل » (١٩٢٩) ، قبل أن يشهد عقد الثلاثينيات أفلاما أكثر نضجا ، مثل فيلمي المخرج « محمد كريم » « زينب » (١٩٣٠) ، و « أولاد الذوات » (١٩٣٢) وهو أول فيلم مصري ناطق ، وفيلم « أحمد جلال » « عيون ساحرة » (١٩٣٤) ، وتحفة « كمال سليم » « العزيمة » (١٩٣٩) ، وفيلم « فريتز كرامب » «لاشين» (١٩٣٩) .

غير أن مصنع الأحلام بدأ ينتج سينما دعائية أيضا ، وهكذا لعبت السينما السوفيتية والنازية دورا في بروز أعمال سينمائية ذات طابع دعائي ، وإن كان بعضها ذا مستوى فني متميز . أما السينما الأمريكية ، فقد كانت تروج بدورها للحلم الأمريكي في أوروبا والعالم الثالث ، وتغذي شعور الأمريكيين بالتفوق . وبفضل وسائل الإعلام المطبوعة والتليفزيون ، بدأت العلاقات العامة والدعاية تدخل على خط السينما ، ليظهر النجوم والنجوم السوبر وغيرهم ، حتى إن النجم الأمريكي « بروس

ويليس » (١٩٥٥-) قال في مهرجان « كان » السينمائي في ١٩٩٧ للحاضرين: «نحن هنا فوق » ، ليؤكد أن نجوم السينما أصبحوا أسطورة في عالمنا اليوم .

الدكتاتور العظيم

وفي سنة واحدة هي ١٩٣٣ ، رقص « فريد أستير » (١٨٩٩-١٩٨٧) لأول مرة مع « جنجر روچرز » في فيلم « الطيران إلى ريو » ، ومثلا معا بعد ذلك تسعة أفلام ، بينما بلغ الإخوة « ماركس » مستوى جيدا من الأداء الحركي في فيلم « حساء البطة » ، وحقق فيلم « ماي ويست » « لست ملاكا » أعلى الإيرادات ، واعتزلت « ماري بيكفورد » العمل في السينما . « لوريل » (١٨٩٠-١٩٦٥) و « هاردي » (١٨٩٢-١٩٥٧) أعلنا عن نفسيهما كنجمين للكوميديا في فيلم « الخروج من الغرب » في ١٩٣٧ ، وهي السنة التي شهدت فيلم الرسوم المتحركة الأول لـ « والت ديزني » «سنووايت والأقزام السبعة » ، وقد حقق نجاحا كاسحا . كانت الطفلة « شيرلي تمبل » لا تزال تأسر خيال الجمهور آنذاك ، وتتصدر قائمة نجوم أمريكا الأعلى دخلا ، بينما «ألفريد هيتشكوك» يقدم أفلامه « تخريب » ، و « الخطوات التسع والثلاثون » ، و « السيدة تختفي » ، والفرنسي « چان رينوار » (١٨٩٤-١٩٧٩) يخرج فيلمه الرائع «الوهم الكبير» ، الذي يدعو إلى التسامح بين الأمم . وفي ١٩٣٩ أصبح فيلم « ديفيد سليزنيك » (١٩٠٢-١٩٦٥) « ذهب مع الريح » المصنوع بالألوان بالكامل أكثر الأفلام الأمريكية كلفة وربحية في آن واحد .

وفي حين أخذ « شابلن » يسخر من « هتلر » و « موسوليني » في « الدكتاتور العظيم » (١٩٤٠) ، و « أورسون ويليس » يهاجم إمبراطور الصحافة « وليام راندولف هيرست » في تحفته « المواطن كين » (١٩٤١) ، كان الإيطالى « لوتشيانو فيسكونتي » في أول أفلامه « ساعي البريد يدق دائما مرتين » يدشن حقبة ازدهار أفلام الواقعية الجديدة ، أكدها « فيتوريو دي سيكا » (١٩٠١-١٩٧٤) في «سارق الدراجة» (١٩٤٨) و « روبرتو روسيليني » (١٩٠٦-١٩٧٧) بفيلمه « روما مدينة مفتوحة » (١٩٤٤) ، الذي يستعين فيه بممثلين هواة . ووسط ذلك كله بدأت في ١٩٤٧ موجة التصنيف السياسي لصانعي السينما في الولايات المتحدة ، التي استبعدت الكثيرين بتهمة الانتماء أو التعاطف مع الشيوعية .

وفي مصر ، أسهم افتتاح استوديو مصر رسميا في ١٢ أكتوبر ١٩٣٥ في تطور صناعة السينما ، ليشهد عقدا الأربعينيات والخمسينيات إنتاج أفلام جيدة المستوى ، مثل : « دنانير » (١٩٤٠) لـ « أحمد بدرخان » ، و « سي عمر » (١٩٤١) للمخرج «نيازي مصطفى» ، و « غرام انتقام » (١٩٤٤) لـ « يوسف وهبي » ، و « السوق السوداء » (١٩٤٥) لـ « كامل التلمساني » ، و « النائب العام » (١٩٤٦) لـ « أحمد كامل مرسي » ، و « دايما في قلبي » (١٩٤٦) أول أفلام المخرج « صلاح أبو سيف » ، و«غزل البنات» (١٩٤٩) لـ « أنور وجدي » ، و « أسير الظلام » (١٩٤٧) لـ « عز الدين ذو الفقار » ، و « نادية » (١٩٤٩) أول أفلام المخرج « فطين عبد الوهاب » . كذلك برزت أفلام « صلاح أبو سيف » : « لك يوم يا ظالم » (١٩٥١) ، و « ريا وسكينة » (١٩٥٣) ، و « الوحش » (١٩٥٤) ، و « شباب امرأة » (١٩٥٦) ، و « الفتوة » (١٩٥٧) ، و « بين السماء والأرض » (١٩٥٩) ، و « أنا حرة » (١٩٥٩) ، وأفلام «يوسف شاهين» : « ابن النيل » (١٩٥١) ، و « صراع في الوادي » (١٩٥٤) ، و « باب الحديد » (١٩٥٨) الذي أخرجه ولعب بطولته ، و « جميلة » (١٩٥٨) ، وفيلما « كمال الشيخ » : « المنزل رقم ١٣ » (١٩٥٢) ، و « حياة أو موت » (١٩٥٤) ، و«درب المهابيل » (١٩٥٥) لـ « توفيق صالح » ، وأفلام « عاطف سالم » : « جعلوني مجرما » (١٩٥٤) ، و « إحنا التلامذة » (١٩٥٩) ، و « صراع في النيل » (١٩٥٩) ، و « زينب » (١٩٥٢) لـ « محمد كريم » ، و « أيامنا الحلوة » (١٩٥٥) لـ «حلمي حليم» ، وأفلام « عز الدين ذو الفقار » : « رد قلبي » (١٩٥٧) ، و « امرأة في الطريق » (١٩٥٨) ، و « بين الأطلال » (١٩٥٩) ، وفيلما « هنري بركات » : « دعاء الكروان » (١٩٥٠) ، و « أمير الانتقام » (١٩٥٠) ، و « أين عمري؟ » (١٩٥٦) لـ « أحمد ضياء الدين » .

فتح فيلم « أكيرا كوروساوا » (١٩١٠-١٩٩٨) « راشومون » أعين الغرب على السينما اليابانية في ١٩٥١ ، وأكد ذلك « ياشوجيرو أوزو » في « قصة طوكيو » (١٩٥٣) ، بينما تألق « چين كيلي » (١٩١٢-١٩٩٦) في الفيلم الاستعراضي الغنائي « غناء تحت المطر » من إخراج « ستانلي دونين » (١٩٥٢) . ووسط أفلام « إيليا كازان » (٧ سبتمبر ١٩٠٩-) «في الميناء» و « ألفريد هيتشكوك » « النافذة الأمامية » و«فيلليني»

« الطريق » و « كوروساوا » « الساموراي السبعة » (١٩٥٤) - يقدم المخرج « نيكولاس راي » النجم الشاب « چيمس دين » في « متمرد بلا قضية » (١٩٥٥) ويخرج « سيسيل دي ميل » « الوصايا العشر » (١٩٥٦) في ثوب جديد ، ويشاهد الجمهور رائعة « چون فورد » « الباحثون » ، وتصبح « بريچيت باردو » (٢٨ سبتمبر ١٩٣٤-) نجمة عالمية مع بداية عرض « وخلق الله المرأة » إخراج « روچيه فاديم » (١٩٥٧) .

ومع إعلان المخرجين « لوي مال » و « فرانسوا تروفو » ظهور « الموجة الجديدة » الفرنسية في ١٩٥٨ ، وإخراج « فيلليني » (١٩٢٠-١٩٩٣) « الحياة الجميلة » بطولة «مارشيللو ماسترورياني » (١٩٢٤-١٩٩٦) و « أنيتا إكبرج » ، يخرج « ستانلي كوبريك » (١٩٢٨-١٩٩٩) الكوميديا السوداء « الدكتور سترانجلوف » بطولة « بيتر سيلرز » و « چورچ سكوت » ، ويقتبس الإيطالي« سيرچيو ليوني » حبكة فيلم «كوروساوا » « يوجيمبو » ، ليقدم فيلم « الإسباكيتي » الشهير « حفنة دولارات » (١٩٦٤) بطولة الممثل الشاب « كلينت إيستوود » الذي تحول إلى نجم . وقدم المخرج «ديفيد لين » (١٩٠٨-١٩٩١) النجم العالمي المصري الأصل « عمر الشريف » (٤ أكتوبر ١٩٣٢-) في « دكتور زيفاجو » (١٩٦٥) .

وفي السنة نفسها أصبح « صوت الموسيقى » بطولة «چولي أندروز» (أول أكتوبر ١٩٣٥-) من كلاسيكيات السينما ، وقدمت قطة هوليود « إليزابيث تايلور » (٢٧ فبراير ١٩٣٢-) أداء ناضجا في فيلم « من يخاف فرچينيا وولف » (١٩٦٦) ، بينما لمس فيلم « مايك نيكولز » (٦ نوفمبر ١٩٣١-) «الخريج» (١٩٦٧) وترا لدى الشباب، وأثار فيلم « في لهيب الليل » بطولة « سيدني بواتييه » (٢٠ فبراير ١٩٢٧-) و « رود شتايجر » قضية التعصب العنصري ، وأخرج «بونويل» (١٩٠٠-١٩٨٣) الفيلم الفرنسي « جميلة النهار » ليطلق شهرة « كاترين دونوف » . في السنة التالية قدم « كوبريك » فيلم الخيال العلمي « ٢٠٠١ أوديسا الفضاء » .

وفي حين حصد المخرج «شادي عبد السلام » شهرة عالمية له وللسينما المصرية بفيلمه « المومياء » (١٩٦٩) ، شهد عقد الستينيات عرض أفلام جادة ، مثل فيلمي «صلاح أبو سيف » : « القاهرة ٣٠ » (١٩٦٦) ، و «القضية ١٩٦٨» (١٩٦٨)، وأفلام

« توفيق صالح» : «المتمردون» (١٩٦٧) ، و « يوميات نائب في الأرياف » (١٩٦٨) ، و « السيد البلطي » (١٩٦٩) ، و « حسين كمال » : «المستحيل» (١٩٦٥)، «البوسطجي » (١٩٦٨) ، و « شيىء من الخوف » (١٩٦٩) ، وأبدع « يوسف شاهين » « الناصر صلاح الدين » (١٩٦٣) ، وقدم « بركات » « في بيتنا رجل » (١٩٦١) ، و«الحرام» (١٩٦٥) ، وأخرج « أحمد بدرخان » « سيد درويش » (١٩٦٦) ، ولمع اسم « حسن الإمام » في « بين القصرين » (١٩٦٤) ، و « قصر الشوق » (١٩٦٧) ، وتألق « كمال الشيخ » في « اللص والكلاب » (١٩٦٢) ، و « الرجل الذي فقد ظله » (١٩٦٨) ، و « ميرامار » (١٩٦٩) ، وبرز « حسام الدين مصطفى » مخرج « السمان والخريف » (١٩٦٧) ، و « خليل شوقي » مخرج « الجبل » (١٩٦٥) ، و « كمال عطية» في « قنديل أم هاشم » (١٩٦٨) ، و « جلال الشرقاوي » في « العيب » (١٩٦٧) ، و « حلمي حليم » في «حكاية من بلدنا » (١٩٦٩) . وقدم المخرج «فطين عبد الوهاب» أفلاما كوميدية مميزة ، مثل « الزوجة رقم ١٣ » (١٩٦٣) ، و « مراتي مدير عام » (١٩٦٦) ، و « أرض النفاق » (١٩٦٨) .

« فرانسيس فورد كوبولا » (٧ أبريل ١٩٣٩-) قدم للجمهور أول جزء من فيلمه الرائع « الأب الروحي » (١٩٧٣) بطولة « مارلون براندو » (٣ إبريل ١٩٢٤-) و « آل باتشينو » (٢٥ إبريل ١٩٤٠-) ، الذي يتناول عصابات المافيا كمؤسسة عائلية طبيعية ، بينما لعب « مارلون براندو » بطولة فيلم « التانجو الأخير في باريس » للإيطالي «برناردو برتولوتشي » (١٦ مارس ١٩٤١-) في دراسة صريحة عن الشبق الجنسي .

وفي السنة التالية شق « بروس لي » طريقه إلى النجومية فى فيلم « روبرت كلوز » « ادخل التنين » ، الذى يبدأ سلسلة من أفلام (فنون القتال) ، بينما استحدثت شركة «يونيفرسال» في ١٩٧٤ مؤثرات صوتية عالية الحساسية لإضفاء الإحساس بوقوع الزلزال ، ويلقى النظام الصوتي الجديد قبولا محدودا . وبينما يقدم « ساتياجيت راي » أعماله الفنية الجادة في الهند ، كان السنغالي « عثمان سمبين » يقدم فيلمه الساخر المفعم بالحيوية « زالا » في ١٩٧٤ ، فاز فيلم « أحدهم طار فوق عش الوقواق » وبطله

«چاك نيكلسون» (٢٨ إبريل ١٩٣٧-) وبطلته « لويز فليتشر » ومخرجه « ميلوش فورمان » (١٨ فبراير ١٩٣٢-) بأهم جوائز حفل الأوسكار (١٩٧٥) ، في حين عالج « آلان باكولا » قضية سياسية مهمة ، وهي فضيحة « ووترجيت » في فيلمه « كل رجال الرئيس » (١٩٧٦) بطولة « داستن هوفمان » (٨ أغسطس ١٩٣٧-) و « روبرت ريدفورد » (١٨ أغسطس ١٩٣٧-) ، وقدم « مارتن سكورسيزي » (١٧ نوفمبر ١٩٤٢-) فيلمه المتميز « سائق التاكسي » بطولة « روبرت دي نيرو » (١٧ أغسطس ١٩٤٣-) ، ولمع نجم « سلفستر ستالوني » (٦ يوليو ١٩٤٦-) في أول أجزاء فيلمه «روكي» ، وأثار الياباني « ناجيزا أوشيما » جدلا بفيلمه « في دنيا الحواس » . ١٩٧٧ ، كانت سنة الفيلم الكوميدي « آني هول » بطولة « وودي ألن » (أول ديسمبر ١٩٣٥-) و « ديان كيتون » (٥ يناير ١٩٤٦-) ، و « چورچ لوكاس » (١٤ مايو ١٩٤٤-) بفيلم الخيال العلمي « حرب النجوم » بطولة « هاريسون فورد » (١٣ يوليو ١٩٤٢-) ، و « چون ترافولتا » (١٨ فبراير ١٩٥٤-) بطل « حمى ليلة السبت » .

وفي حين لعب « دي نيرو » بطولة فيلم « صائد الغزلان » (١٩٧٨) ، الذي يتناول بشاعة الحرب في فيتنام ، فاجأ المخرج التركي « يلماظ جوناي » الجمهور من داخل سجنه بتصوير فيلم « القطيع » . الدراما العائلية « كرامر ضد كرامر » وفيلم « ريتشارد دونر » « سوبرمان » ، والفيلم الألماني « الطبلة الصفيح » لـ « فولكر شلون ورف » - هي أبرز عناوين سينما ١٩٧٩ .

وفي سينما السبعينيات المصرية ، برزت أفلام « يوسف شاهين » : « الأرض » (١٩٧٠) ، و« الاختيار » (١٩٧١) ، و« العصفور » (١٩٧٤) ، و«عودة الابن الضال» (١٩٧٦) ، و« اسكندرية ليه؟ » (١٩٧٩) ، و « صلاح أبو سيف » : « السقا مات » (١٩٧٧) ، و « حسين كمال » : « ثرثرة فوق النيل » (١٩٧١) ، و« امبراطورية ميم » (١٩٧٢) ، و « سعيد مرزوق » : « زوجتي والكلب » (١٩٧١) ، و « الخوف » (١٩٧٢) ، و « أريد حلا » (١٩٧٥) ، و « المذنبون » (١٩٧٦) ، و « كمال الشيخ » : «غروب وشروق» (١٩٧٠) ، و« شيء في صدري » (١٩٧١) ، و« على من نطلق الرصاص » (١٩٧٥) ، و « الصعود إلى الهاوية » (١٩٧٨) ، و « علي بدرخان » :

«الكرنك» (١٩٧٥) ، و « شفيقة ومتولي » (١٩٧٨) ، و « ممدوح شكري » : « زائر الفجر » (١٩٧٥) ، و « علي عبد الخالق » : « أغنية على الممر » (١٩٧٢) ، و « أشرف فهمي » : « ليل وقضبان » (١٩٧٣) ، و « حسن الإمام » : « خلي بالك من زوزو » (١٩٧٢) ، و « محمد راضي » : « أبناء الصمت » (١٩٧٤) ، و« حسام الدين مصطفى » : « الشحات » (١٩٧٣) ، و « عاطف سالم » : « الحفيد » (١٩٧٤) ، و « سمير سيف » : « دائرة الانتقام » (١٩٧٦) .

قدم « سكورسيزي » أحد أفضل أفلام الثمانينيات على الإطلاق ، من خلال « الثور الهائج » (١٩٨٠) بالأداء المدمر لـ « روبرت دي نيرو » ، وأخرج « تروفو » (١٩٣٢-١٩٨٤) « المترو الأخير » ، الذي حصل على مكانة مماثلة بالنسبة للسينما الفرنسية .

يعد آخر أفلام « إنجمار بيرجمان » (١٤ يوليو ١٩١٨-) « فاني وألكسندر » (١٩٨٢) من أفضل أفلامه ، لكن « غاندي » ومخرجه « ريتشارد أتنبورو » (١٩٢٣-) وبطله « بن كينجسلي » (٣١ ديسمبر ١٩٤٣-) كانوا نجوم ليلة الأوسكار (١٩٨٢) ، بينما يظهر « أرنولد شوارزنجر » (٣٠ يوليو ١٩٤٧-) كنجم لسينما العضلات في فيلم « جيمس كاميرون » (١٦ أغسطس ١٩٥٤-) « المدمر » (١٩٨٤) . وفي قائمة الأوسكار ، سرق « أماديوس » (١٩٨٤) و « الخروج من إفريقيا » (١٩٨٥) و Platoon (١٩٨٦) الأضواء . ويخرج الهندي « ساتياجيت راي » (١٩٢١-١٩٩٢) « الوطن والعالم » ، وفي السنة نفسها أخرج الإيطالي « برتولوتشي » فيلمه البديع « الإمبراطور الأخير » (١٩٨٧) عن حياة آخر إمبراطور للصين ، بينما حقق فيلم «روبرت زيميكس» (١٤ مايو ١٩٥١-) « من لفق تهمة للأرنب روجر؟ » أعلى الإيرادات في ١٩٨٨ ، وتألق « داستن هوفمان » ، و « توم كروز » (٣ يوليو ١٩٦٢-) في « رجل المطر » .

شهد عقد الثمانينيات صعود نجم المخرج « ستيفن سبيلبرج » (١٨ ديسمبر ١٩٤٦-) في «إي . تي» (١٩٨٢) ، بينما عانت السينما البريطانية انخفاض أعداد المشاهدين .

وبدأت السينما المصرية مرحلة تيار الواقعية الجديدة على يد مخرجين ، أمثال : « عاطف الطيب » في « سواق الأوتوبيس » ، (١٩٨٣) ، و « البرئ » (١٩٨٦) ، و « الحب فوق هضبة الهرم » (١٩٨٦) ، و « خيري بشارة » في « الطوق والأسورة » (١٩٨٦) ، و « محمد خان » في « خرج ولم يعد » (١٩٨٥) ، و « زوجة رجل مهم » (١٩٨٨) ، و « أحلام هند وكاميليا » (١٩٨٨) ، وتبعهم في التسعينيات « داود عبد السيد » في « الكيت كات » (١٩٩١) ، و « رضوان الكاشف » في « ليه يا بنفسج » (١٩٩٣) ، و « شريف عرفة » في « اللعب مع الكبار » (١٩٩١) ، وأخرج « محمد خان » « سوبرماركت » (١٩٩٠) ، في حين قدم « رأفت الميهي » فيلمين مهمين : « للحب قصة أخيرة » (١٩٨٦) ، و « الأفوكاتو » (١٩٨٤) ، واستمر المخرج الكبير « يوسف شاهين » على الساحة بأفلامه المثيرة للجدل ، وأبرزها « المهاجر » (١٩٩٤) ، و « المصير » (١٩٩٧) الذي نال عنه جائزة خاصة في مهرجان « كان السينمائي » .

فيلم الإثارة العنيف « صمت الحملان » للمخرج « چوناثان ديم » (١٩٤٤-) في ١٩٩١ رفع « أنطوني هوبكنز » (٣١ ديسمبر ١٩٣٧-) إلى مصاف النجوم ، و«ريدلي سكوت» أخرج الفيلم النسائي « ثيلما ولويز » تمثيل « سوزان ساراندون » (١٠ إبريل ١٩٤٦-) و « چينا ديفيز » (٢١ يناير ١٩٥٧-) ، بينما أثار « أوليفرستون » (١٥ سبتمبر ١٩٤٦-) الجدل بفيلمه « چي . إف . كي » عن اغتيال الرئيس الأمريكي «چون كينيدي» .

« كلينت إيستوود » (٣١ مايو ١٩٣٠-) أعاد إحياء أفلام الويسترن بفيلم الأوسكار « بلا غفران » (١٩٩٢) ، بينما أخرج « بول فيرهوفن » فيلمه الحسي « غريزة أساسية » ، الذي صنع نجومية «شارون ستون» أمام « مايكل دوجلاس » ، وقدم « كونتين تارانتينو » فيلمه المروع « كلاب المستودع » ، و أخرج « سبيلبرج »فيلم الخيال العلمي « متنزه العصر الجوراسي » ، الذي حقق ١٠٠ مليون دولار في تسعة أيام ، وفيلم الدعاية لليهود « قائمة شندلر » في ١٩٩٣ ، بينما تألق « توم هانكس » في دور محام مريض بالإيدز في فيلم « چوناثان ديم » « فيلادلفيا » ، وحققت « چين كامبيون »

نجاحا كبيرا بفيلمها الأسترالي الأخاذ « البيانو » ، وأخرج الصيني « شين كيج » ملحمته «وداعا يا خليلتي » .

« فورست جمب » بطولة « توم هانكس » ، الذى لعب دور بطل معاق كان أنجح أفلام ١٩٩٤ ، بينما أصبح فيلم « ديزني » « الملك الأسد » أكثر أفلام التحريك نجاحًا على الإطلاق . « كوينتين تارانتينو » (٢٧ مارس ١٩٦٣-) حقق بدوره نجاحا كبيرا بفيلمه « قصص شعبية » معيداً إحياء مسيرة «ترافولتا» ، في حين سخر « أوليفر ستون » من التناول الإعلامي للقتلة السفاحين في فيلمه المثير للجدل «مولودون قتلة بالفطرة» .

وفي ١٩٩٥ فشل أعلى الأفلام تكلفة في تاريخ السينما -آنذاك- « عالم الماء » في تحقيق النجاح المأمول ، واكتسح فيلم « القلب الشجاع » من بطولة وإخراج « ميل جيبسون » (٣ يناير ١٩٥٦-)جميع الأفلام المنافسة حتى في ليلة الأوسكار ، بينما حقق فيلم « يوم الاستقلال » (١٩٩٦) نجاحا كبيرا . « چيمس كاميرون » قدم فيلمه الضخم «تيتانيك» (١٩٩٧) ، الذي حصد معظم جوائز الأوسكار ، وجمع ٢ , ٣ مليار دولار كإيراد في أنحاء العالم ، بينما حقق الإيطالي « روبرتو بنيني » (٢٧ أكتوبر ١٩٥٢-) نجاحا كبيرا في ليلة توزيع جوائز الأوسكار في ١٩٩٨ ، بعد فوزه بجائزة أحسن ممثل عن فيلمه « الحياة حلوة » .

وبين الفيلمين الأخيرين ، كانت الغلبة في ليلة توزيع جوائز الأوسكار لفيلم «شكسبير عاشقا » (١٩٩٨) بطولة «جوينيث بالترو» ومن إخراج « جون مادن » ، ليخرج من سباق الجوائز الفيلم الأخاذ «استعراض ترومان» بطولة « چيم كاري » (١٧ يناير ١٩٦٢-) ، ومن إخراج «بيتر واير» .

أخرج « چورج لوكاس » أضخم أفلام ١٩٩٩ وهو « حرب النجوم الجزء الأول : تهديد الشبح » بطولة « ليام نيسون » وحصد من ورائه إيرادات كبيرة على مستوى العالم ، بفضل التكنولوجيا الرقمية « الديجيتال » التي استعان بها هذا المخرج . وجاء فيلم « لاري فاشوفسكي » « ماتريكس » (أو المصفوفة) في ١٩٩٩ أيضا ليؤكد التأثير البالغ للتقنيات المتطورة على صناعة السينما في نهاية القرن العشرين . لكن فيلم

«الجمال الأمريكي» بطولة « كيفين سبيسي » (٢٦ يوليو ١٩٥٩-) و « آنيت بيننج » (٢٩ مايو ١٩٥٨-) ومن إخراج « سام مينديز » ، كانت له الغلبة في ليلة الأوسكار (١٩٩٩) ، حين قال كلمته بشأن أهمية المشاعر الإنسانية في مجتمع تطغى عليه المادة مثل الولايات المتحدة .

« المصارع » الذي لعب بطولته - ونال عنه أوسكار أفضل ممثل - « رسل كرو » ، هو أحد أهم أفلام آخرسنوات القرن العشرين ، في حين تألق المخرج « ستيفن سودربرج » في سنة ٢٠٠٠ بفيلميه « إيرين بروكوفيتش » الذي نالت عنه « جوليا روبرتس أوسكار أفضل ممثلة ، و « تهريب » الذي نال عنه « بينشيو ديل تورو » أوسكار أفضل ممثل في دور ثان .

من الأفلام اللافتة للانتباه في سنة ٢٠٠٠ « نغمات وركمايستر » (المجر) للمخرج « بيلا تار » ، « بلا إخلاص » (السويد/ النرويج) من إخراج « ليف أولمان » ، « جمعة » (إيران) للمخرج « حسان يكتبانه » ، « يوريكا » (اليابان) « لأيواما شينجي » ، «تشونجيانج » (كوريا الجنوبية) للمخرج « إيم كون تاك »، « ظل مصاص الدماء » (الولايات المتحدة) « لإلياس مرهج » ، « بيت المرح » (الولايات المتحدة) للبريطاني «تيرنس ديفيز » ، و « تايتوس » (الولايات المتحدة) للمخرجة « جولي تايمور » . وحقق فيلم « ملائكة تشارلي » المأخوذ عن مسلسل تليفزيوني شهير نجاحا تجاريا كبيرا لبطلاته الثلاث لمخرجه « إم . سي . دجي » ، بينما اعتبر « هروب الدجاج » البريطاني أفضل فيلم رسوم متحركة .

أرقام واستفتاءات

وبلغة الأرقام . . فإن الفيلمين اللذين فازا بأكبر عدد من جوائز الأوسكار في دورة واحدة هما « بن حور » لوليام ويلر (١٩٥٩) ، و« تيتانيك » « لجيمس كاميرون » (١٩٩٧) -١١ جائزة لكل منهما- بينما نال فيلم « كل شيء عن حواء » « لجوزيف مانكفيتش » (١٩٥٠) أكبر عدد من الترشيحات ، حيث رشح ١٤ ، مرة وفاز بست جوائز . « چون فورد » كان أكبر فائز حيث نال أوسكار أفضل مخرج أربع مرات .

وفي التمثيل نال « سبنسر تريسي » الأوسكار مرتين ، وكذلك فعل « فريدريك مارتن » و« جاري كوبر » و « مارلون براندو » و « توم هانكس » و « چاك نيكلسون » ، وضربت « كاترين هيبورن » الرقم القياسي بالنسبة للممثلات ؛ حيث نالت أوسكار أفضل ممثلة ثلاث مرات كان آخرها عن دورها في « الأسد في الشتاء » (١٩٦٨) ، وهي نفسها رشحت للأوسكار ١٢ مرة ، وهو رقم قياسي لم تقترب منه سوى « ميريل ستريب » التي رشحت ١١ مرة .

وفي استفتاء أجرته سنة ١٩٩٢ مجلة Sight and Sound البريطانية المتخصصة في النقد السينمائي حول أهم الأفلام والمخرجين ، شارك فيه عدد من أبرز صانعي السينما في أنحاء العالم ، جاءت النتائج -التي نثبتها بلغتها الأصلية ؛ منعا للوقوع في فخ الأسماء التجارية- كالتالي :

أفضل ١٠ أفلام (اختيارات النقاد) :

1- Citizen Kane (Orson Welles, 1941)
2-La Regle du Jeu (Jean Renoir, 1939)
3-Tokyo Story (Yasujiro Ozu, 1953)
4-Vertigo (Alfred Hitchcock, 1958)
5-The Searchers (John Ford, 1958)
6- L'atalante (Jean Vigo, 1934)
7- The Passion of Joan of Arc (Carl Theodor Dreyer, 1928)
8- Pather Panchali (Satyajit Ray, 1955)
9- Battleship Potemkin (Sergei Eisenstein, 1925)
10- 2001: A Space Odyssey (Stanlley Kubrick, 1968)

وجاءت اختيارات المخرجين لأفضل ١٠ أفلام كالتالي :

1- Citizen Kane (Orson Welles, 1941)
2- Raging Bull (Martin Scorsese, 1980)
8 1/2 (Federico Fellini, 1963)
4-La Strada (Federico Fellini, 1954)
5-L'atalante (Jean Vigo, 1934)

6- Modern Times (Charlie Chaplin, 1936)
7- The Godfather (Francis Ford Coppola, 1972)
8- Vertigo (Alfred Hitchcock, 1958)
9- Seven Samurai (Akira Kurosawa, 1954)
10- The Passion of Joan of Arc (Carl Theodor Dreyer, 1928)
11- The Godfather Part II (Francis Ford Coppola, 1972)
12- Rashomon (Akira Kurosawa, 1950)

واختار النقاد أفضل ١٠ مخرجين كالتالي :

1- Orson Welles
2- Jean Renoir
3- Jean-Luc Godard
4- Alfred Hitchcock
5- Charlie Chaplin
6- John Ford
7- Satyajit Ray
8- Yasujiro Ozu
9- Carl Theodor Dreyer
10- Sergei Eisenstein

واختار المخرجون بدورهم الأسماء التالية كأفضل ١٠ مخرجين :

1- Federico Fellini
2- Orson Welles
3- Akira Kurosawa
4- Francis Ford Coppola
5- Martin Scorsese
6- Luis Bunuel
7- Ingmar Bergman
8- Charlie Chaplin
9- John Ford
10- Alfred Hitchcock

أما موسوعة « ١٠٠٠ صانع للسينما » 1000 Makers of the Cinema ، فقد اختارت أفضل ١٠ أفلام درامية كالتالي (حسب ترتيب الأبجدية الإنجليزية وليس الترتيب الفني) :

The Bicycle Thief (Vitorio De Sica, 1948)
Brief Encounter (Noel Coward, 1945)
Casablanca (Michael Curtiz, 1942)
Citizen Kane (Orson Welles , 1941)
La Dolce Vita (Federico Fellini, 1960)
la Grand Illusion (Jean Renoir, 1937)
La Regle du Jeu (Jean Renoir, 1939)
One Flew Over the Cuckoo's Nest (Milos Forman, 1975)
Tokyo Story (Yasujiro Ozu, 1953)
Wild Strawberries (Ingmar Bergman, 1957)

وجاء اختيار الموسوعة لأفضل ١٠ أفلام إثارة وتشويق كالتالي :

The Asphalt Jungle (John Huston, 1950)
Double Indemnity (Billy wilder, 1944)
The Godfather (Francis Ford Coppola, 1972)
Goodfellas (Martin Scorsese, 1990)
The Maltese Falcon (Johm Huston, 1941)
Psycho (Alfred Hitchcock, 1960)
Scarface (Howard Hawks, 1932)
The Third Man (Carol Reed, 1949)
Touch of Evil (Orson Welles, 1958)
Vertigo (Alfred Hitchcock, 1958)

وكان أحسن ١٠ أفلام موسيقية واستعراضية كالتالي :

The Band Wagon (Vincente Minnelli, 1953)
Cabaret (Bob Fosse, 1972)
42nd Street (Lloyd Bacon, 1933)
Meet Me in St Louis (Vincente Minnelli, 1944)
On the Town (Stanley Donen/Gene Kelly, 1949)

Singin' in the Rain (Stanley Donen/Gene Kelly, 1952)
Top Hat (Mark Sandrich, 1935)
The Umbrellas of Cherbourg (Jacques Demy, 1964)
West Side Story (Robert Wise/Jerome Robbins, 1961)
Yankee Doodle Dandy (Michael Curtiz, 1942)

واختيرت الأفلام التالية كأفضل ١٠ أفلام كوميدية في تاريخ السينما :

Annie Hall (Woody Allen, 1977)
Bringing Up Baby (Howard Hawks, 1938)
City Lights (Charlie Chaplin, 1931)
The General (Buster Keaton/ Clyde Bruckman, 1935)
Kind Hearts and Coronets (Robert Hamer, 1949)
Monsieur Hulot's Holiday (Jacques Tati, 1953)
A Night at the Opera (Sam Wood, 1935)
The Producers (Mel Brooks,1967)
Some Like It Hot (Billy wilder, 1959)
To Be or Not to Be (Ernst Lubitsch, 1942)

وفي استفتاء أجراه القائمون على مهرجان القاهرة السينمائي الدولي سنة ١٩٩٦ ، وشارك فيه عدد كبير من السينمائيين والنقاد والصحفيين ، تم اختيار أفضل ١٠٠ فيلم في تاريخ السينما المصرية ، وجاءت الأفلام العشرون الأولى وفق الاستفتاء المذكور على النحو التالي :

١- العزيمة (كمال سليم- ١٩٣٩) .

٢- الأرض (يوسف شاهين- ١٩٧٠) .

٣- المومياء (شادي عبد السلام- ١٩٦٩) .

٤- باب الحديد (يوسف شاهين- ١٩٥٨) .

٥- الحرام (هنري بركات- ١٩٦٥) .

٦- شباب امرأة (صلاح أبو سيف- ١٩٥٦) .

٧- بداية ونهاية (صلاح أبو سيف- ١٩٦٠) .

٨- سواق الأتوبيس (عاطف الطيب- ١٩٨٣) .

٩- غزل البنات (أنور وجدي- ١٩٤٩) .

١٠- الفتوة (صلاح أبو سيف- ١٩٥٧) .

١١- الناصر صلاح الدين (يوسف شاهين- ١٩٦٣) .

١٢- البوسطجي (حسين كمال- ١٩٦٨) .

١٣- رد قلبي (عز الدين ذو الفقار- ١٩٥٧) .

١٤- دعاء الكروان (هنري بركات- ١٩٥٩) .

١٥- اللص والكلاب (كمال الشيخ- ١٩٦٢) .

١٦- الزوجة الثانية (صلاح أبو سيف- ١٩٦٧) .

١٧- أم العروسة (عاطف سالم- ١٩٦٣) .

١٨- القاهرة ٣٠ (صلاح أبو سيف- ١٩٦٦) .

١٩- شيء من الخوف (حسين كمال- ١٩٦٩) .

٢٠- الطوق والأسورة (خيري بشارة- ١٩٨٦) .

وجوه متعددة

غيرت السينما خلال القرن العشرين جلدها أكثر من مرة ، واتسمت بالتحدي والخروج على السائد ، ومحاولة الابتكار والتجريب عبر تيارات ومدارس سينمائية جديدة ، مثل : « الموجة الجديدة » في فرنسا ، و « السينما الجديدة » في البرازيل ، و « السينما الحرة » في بريطانيا ، و « سينما تحت الأرض » في نيويورك ، كذلك ظهرت « السينما سكوب » أو الشاشة العريضة ، والسينيراما أو الشاشة الثلاثية ، والصوت المجسم ، ونظام « دولبي سيستم » و « الأودوراما » . وتم عرض الأفلام في التليفزيون والفيديو وعلى الأقراص المدمجة ، وأخيرا « دي . في . دي » . . والبقية تأتي .

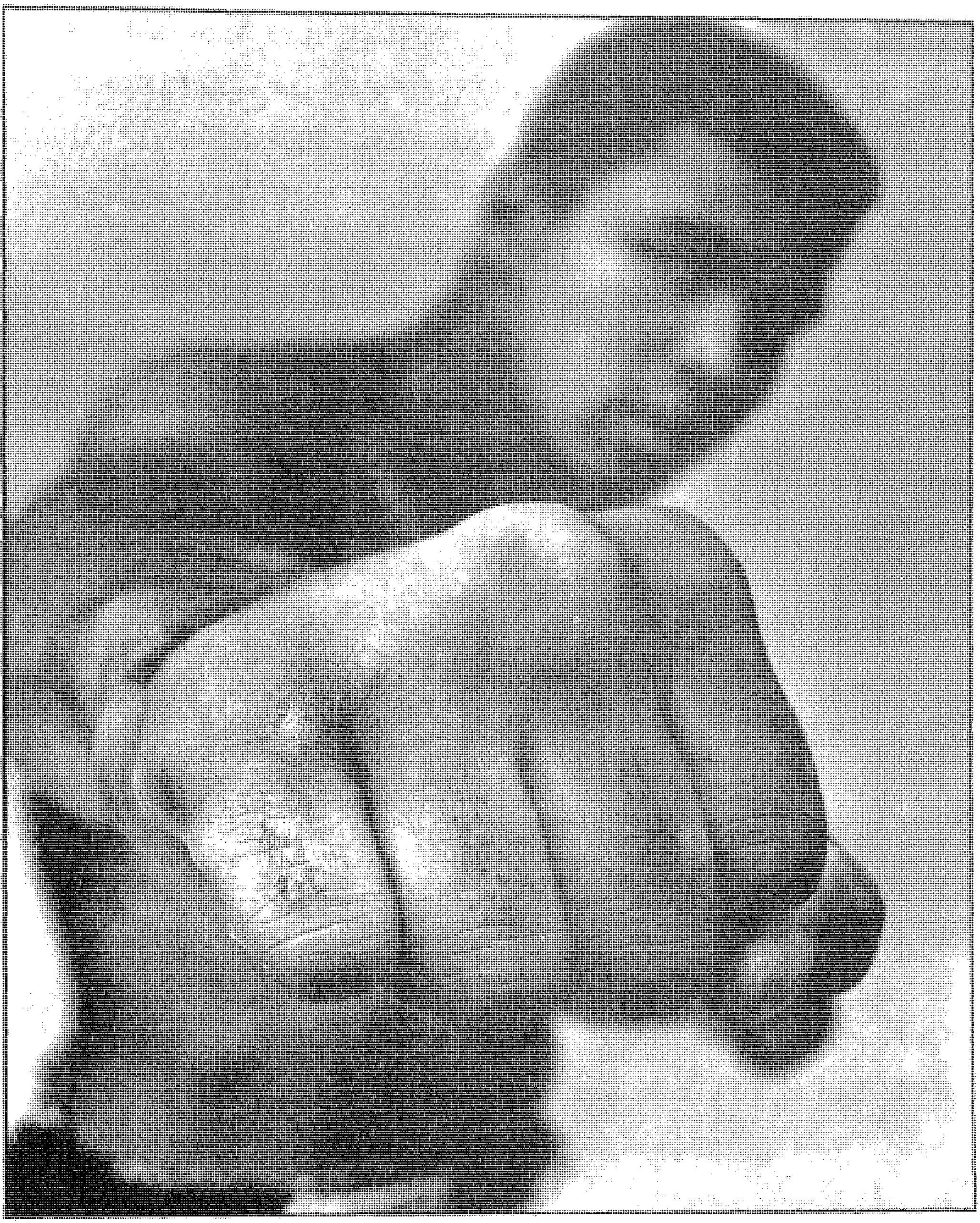
وخلال القرن العشرين حدث تطور انتعاش في صناعة السينما في الهند – التي تحولت مدينة بومباي فيها إلى « بوليوود » – وهونج كونج . وفي العقدين الأخيرين من القرن العشرين برزت السينما الصينية بفضل مخرجها « يانج زيمو » ، واليابانية على أكتاف « كوروساوا » ورفاقه ، والإيرانية بقيادة المتألق « عباس كياروستامي » – مخرج «طعم الكرز» ، الذي نال السعفة الذهبية في « كان » سنة ١٩٩٧- ، و « محسن مخملباف» ، وابنته «سميرة مخملباف» ، التي نالت جائزة لجنة التحكيم في مهرجان « كان » سنة ٢٠٠٠ عن فيلمها « الألواح السوداء » ، والإسبانية على يدي « بدرو المودوفار » (٢٥ سبتمبر ١٩٥١-) .

وعلى المستوى العربي ، برزت السينما في المغرب العربي ؛ خاصة في الجزائر (مثل « رياح الأوراس » لـ « محمد الأخضر حامينا » . الذي نال جائزة أحسن مخرج في فيلمه الأول سنة ١٩٦٧ ، وكذلك فيلم « وقائع سنوات الجمر » الذي نال الجائزة الكبرى ؛ أي السعفة الذهبية في مهرجان كان السينمائي سنة ١٩٧٥ ، و « باب الواد الحومة » لمرزاق علواش) ، وكذلك المغربية (« الأيام الأيام » لأحمد المعنوني ، و « الزفت » للطيب الصديقي) ، والتونسية التي تقدمت على يد «نوري بوزيد » مخرج « ريح السد » الفائز بجوائز عدة سنة ١٩٨٦ و « صفائح من ذهب » ، و « بوفريد بوغدير » مخرج «حلفاوين : عصفور السطح» و «حلق الوادي» ، و « مفيدة تلاتلي » مخرجة « صمت القصور » ، و « ناصر خمير » مخرج « طوق الحمامة المفقود » و «الهائمون » ، و « رضا الباهي » مخرج « شمس الضياع » و « عتبات ممنوعة » .

وفي حين بدأت السينما اللبنانية تستعيد عافيتها على يد مخرجين واعدين مثل «رندة شهال » مخرجة « حائط الرمال » ، قدمت السينما السورية أفلاما متقنة مثل «أحلام المدينة » (١٩٨٤) للمخرج « محمد ملص » ، وهو أول فيلم سوري يواجه الواقع الاجتماعي بدرجة عالية من النضج الفني والفكري ، وكذلك « الليل » «الملص » و « رسائل شفهية » لـ « عبد اللطيف عبد الحميد » ، وكلاهما من إنتاج سنة ١٩٩٢ .

وفي العراق قُدِّمَتْ أفلام حربية الطابع مثل « الحدود الملتهبة » (١٩٨٤) إخراج « صاحب حداد » ، و « المنفذون » (١٩٨٥) لـ « عبد الهادي الراوي » ، و« صخب البحر » لـ « صبيح عبد الكريم » (١٩٨٥) ، في حين كتب وأخرج « قيس الزبيدي » (١٩٣٩-) أفلاما عن القضية الفلسطينية ، منها : « شهادة الأطفال الفلسطينيين في زمن الحرب » (١٩٧٢) ، و « وطن الأسلاك الشائكة » (١٩٨٠) ، و« فلسطين . سجل شعب » (١٩٨٥) . وأخرج الكويتي « خالد الصديق » فيلمه « بس يا بحر » سنة ١٩٧١ ، ثم قدم « عرس الزين » (١٩٧٧) المأخوذ عن رواية للأديب السوداني « الطيب صالح » . ومن إنتاج فلسطيني - هولندي مشترك قدم المخرج الفلسطيني « رشيد مشهراوي » فيلم « حتى إشعار آخر » ، الذي حصد جوائز عدة في سنتي ١٩٩٣ و١٩٩٤ ، في حين قدم « ميشيل خليفي » فيلميه « عرس الجليل » و« نشيد الحجر » وهما من إنتاج فلسطيني - بلجيكي مشترك .

* * *



محمد علي كلاي



بوريس بيكر

وكأنها اكتشاف جديد، تحولت الرياضة خلال القرن العشرين إلى حمى أصابت الجميع دون تفرقة .

ومن مضمار ألعاب القوى، واستادات كرة القدم، وأحواض السباحة، وحلبات الملاكمة ، إلى الغرف المغلقة ، حيث يدار «بيزنس » الرياضة ، ثم إلى كواليس السياسة التي تولت « تسييس » الرياضة خلال العهد النازي في ألمانيا ، والفاشي في إيطاليا .

لكن كرة القدم بقيت تاج الرياضات شعبيا، مثلما تعد ألعاب القوى «أم الألعاب» تاريخيا ، ولذا استمرت حمى كرة القدم في اجتياح العالم وسط هتافات المشجعين ، وصراخ المدربين ،وأهداف اللاعبين !

19

حمى .. كرة القدم



بيليه

وفي الوقت الذي أقيمت فيه كأس العالم لكرة القدم في أوروجواي سنة ١٩٣٠ ، كانت كرة القدم الإنجليزية تعتبر نفسها معقل اللعبة الشعبية في العالم ، لكن غياب إنجلترا عن عرش المونديال جعلها على الهامش ، في حين كان نحو ٩٠ ألف متفرج يملأون استاد « سنتناريو » في مونتفيديو عاصمة أوروجواي ، لمشاهدة نهائي كأس العالم الأولى لكرة القدم ، التي فازت بها أوروجواي ، بعد أن هزمت جارتها الأرجنتين ٤/ ٢ ، بفضل تألق لاعب أوروجواي « كاسترو » الذي كان يلقب بـ « أبو ذراع » ؛ لكونه بذراع واحدة !

في مطلع ١٩٠٠ كان هناك لاعبو كرة قدم وكريكيت محترفون في بريطانيا ، ولاعبو بيسبول وملاكمون محترفون في الولايات المتحدة ، لكن معظم بلدان العالم كانت تمارس الرياضة آنذاك على سبيل الهواية ، ومن أجل متعة اللعب والرغبة في الفوز أكثر مما كان المال هو الهدف . وكانت الألعاب الأوليمبية ، بعد إحيائها على يدي البارون « بيير دو كوبرتان » ، تدعم فكرة الهواية في عالم الرياضة .

وفي أوليمبياد ستوكهولم سنة ١٩١٢ ، خسر الرياضي الأمريكي « چيم ثورب » (١٨٨٨-١٩٥٣) الميداليتين الذهبيتين ، اللتين فاز بهما بعد اكتشاف تلقيه أموالا من قبل للعب البيسبول .

ومن كبار نجوم البيسبول الأمريكيين بين « بيب » روث (١٨٩٥-١٩٤٨) ، الذي حقق في ٣٠ سبتمبر ١٩٣٧ رقما قياسيا في « الجري حول الملعب » ؛ إذ كرر ذلك في مباراة واحدة ٦٠ مرة ، وصمد هذا الرقم حتى حطمه روچر ماريس في ١٩٦١ . وحين اعتزل روث في ١٩٣٥ كان قد حقق ٧١٤ دورة حول الملعب ، خلال مباريات البيسبول ، وهو رقم فريق أطلانطا بريفز في ٨ إبريل ١٩٧٤ .

لون الرياضة

السيطرة البيضاء على عدد من الرياضات توقفت عند عدد آخر من الرياضات ، وأبرزها الملاكمة ، التي تفوق فيها السود بشكل واضح . في البداية سيطر الأمريكيون من أصل أيرلندي على الملاكمة في الولايات المتحدة ، وكانوا يواجهون منافسة من جانب البولنديين وإيطاليي الأصل . وفي ١٩١٠ سقط بطل وزن المتوسط « كيتشل »

بالضربة القاضية ، على يد الملاكم الأسود « چاك چونسون » (١٨٧٨-١٩٤٦) ، وفي السنة نفسها (٤ يوليو) واجه « چونسون » البطل المتقاعد « چيم چيفريز » ، وهزمه أيضا في الجولة الخامسة عشرة بالضربة القاضية ؛ ليحصل على ١٢٠ ألف دولار مقابل ١١٧ ألف دولار للمهزوم .

لكن الفوز أشعل مصادمات عنصرية في أنحاء الولايات المتحدة ، أدت إلى مصرع ١١ شخصا وإصابة المئات بجراح . وسرعان ما تم تلفيق اتهام عنصري للملاكم الأسود «چونسون» ، أدى إلى سجنه لمدة سنة! ولم تهضم أمريكا البيضاء سيطرة « چاك چونسون » على عرش الملاكمة لمدة سبع سنوات ، لذا تم حرمان السود من بطولات الملاكمة حتى سنة ١٩١٧ .

وحين ظهر الملاكم الأسود « چو لويس » « باور » (١٩١٤-١٩٨١) حذره منظم مبارياته من أن تلتقط له أي صورة مع امرأة بيضاء . . أو أن يذهب إلى ملهى ليلي بمفرده . وفي يونيو ١٩٣٧ نجح « چو لويس » فى الفوز على « چيمس برادوك » على بطولة الوزن الثقيل فى شيكاغو بعد ثماني جولات . وفي ١٩٥١ ، فاز الملاكم « روكي مارشيانو » (١٩٢٣-١٩٦٩) على« لويس » ، وظل سجل « مارشيانو » خاليا من الهزيمة إلى أن اعتزل كبطل للعالم في الوزن الثقيل في ١٩٥٦ .

لكن لعبة الملاكمة شهدت المزيد من النجوم السود أمثال « محمد علي كلاي » (١٩٢٤-) الذي حقق ٥٩ انتصارا ، منها ٥٦ بالقاضية ، والذي كان يتحرك بخفة فوق الحلبة مثل الفراشة ، ويلسع كالنحلة . وفي ٣٠ أكتوبر ١٩٧٤ وفي كينشاسا بزائير ، نجح « محمد علي » - واسمه السابق «كاسيوس» قبل أن يشهر إسلامه - في إلحاق الهزيمة بخصمه العنيد « چورچ فورمان » (١٩٤٩-) في مباراة « قعقعة في الأدغال » .

تمكن « محمد علي » من الفوز على عديد من أبطال الملاكمة طوال مشواره كملاكم ، فقد فاز على « فورمان » ، و « چو فريزر » ، و « سوني ليستون » وغيرهم ، وكان يعلق على تألقه قائلا : « الثور أقوى لكن الماتادور أذكى » . « محمد علي » استحق جائزة أفضل ملاكم خلال القرن العشرين ، خلال الاحتفال الذى أقيم فى فيينا عاصمة النمسا لتوزيع الجوائز على أفضل رياضيي القرن .

وفي ٢٠ نوفمبر ١٩٩٩ قال « محمد علي » - الذي يعاني الشلل الرعاش « مرض باركنسون » : إن هذه الجائزة هي الأعظم بالنسبة له . كان « محمد علي » قد جرد من لقبه العالمي للوزن الثقيل في ١٩٦٧ ؛ لرفضه التجنيد للقتال في فيتنام لأسباب دينية ومبدئية تصب في خانة احتجاجه المدوي ضد تلك الحرب . ونتيجة لذلك ، منع «محمد علي » من ممارسة الملاكمة ، وحكم عليه بالسجن خمس سنوات ، ودفع غرامة قدرها ١٠ آلاف دولار .

ومن نجوم الملاكمة في هذا القرن « إيفاندر هوليفيلد » (١٩٦٢-) ، الذي قضم البطل السابق « مايك تايسون » أذنه في مباراتهما الثأرية ، و « البرنس » اليمني الأصل «نسيم حميد » ، الذي اختتم القرن العشرين وسجله كملاكم خال من الهزائم - لكنه هزم في مطلع القرن الحادي والعشرين - ، و « شوجار راي ليونارد » (١٩٥٦-) ، و«أوسكار دي لاهويا » (١٩٧٢-) ، و « لاري هولمز » ، وأخيرا البريطاني «لينوكس لويس » (١٩٦٥-) الذي انتزع الفوز بلقب بطل العالم في الوزن الثقيل في لقاء ثأري مع «هوليفيلد» ، الذي لم يخسر المباراة الأولى بسبب شبهات في تحيز تحكيمي لمصلحته .

السود أيضا كانوا ممنوعين من المشاركة في فرق دوري البيسبول الأمريكي ، بينما أقيم دوري خاص بهم كانوا يتقاضون فيه نصف أجور اللاعبين البيض . لكن الوضع بدأ يتغير تدريجيا ، وفتح الطريق « چاكي روبنسون » (١٩١٩-١٩٧٢) حين وقع للعب ضمن صفوف فريق مونتريال رويالز في ١٩٤٦ . وبعد بضع سنوات أخرى ، كانت أغلبية لاعبي دوري البيسبول الأمريكي من السود ؛ بفضل مهاراتهم التي أجبرت بقية الأمريكيين على احترامهم كرياضيين وبشر !

استغلال سياسي

وبحلول عقد الثلاثينيات ، لم تكن التجارة فقط هي التي بدأت الاستثمار في مجال الرياضة ، بل السياسة أيضا . فمع صعود التيار القومي المتعصب في عدد من الدول خاصة ألمانيا وإيطاليا ، تحولت الرياضة إلى ملعب جديد للقادة المتشددين مثلما هي الحال في ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية . وفي الاتحاد السوفيتي السابق أصبحت الرياضة أداة مهمة لصنع الرجل السوفيتي والمرأة السوفيتية . أما الإيطاليون فقد اعتبروا

الرياضة جزءا من السياسة الخارجية ، وزاد من إصرارهم على استغلالها فوزهم بكأس العالم لكرة القدم في بطولتين متتاليتين في سنتي ١٩٣٤ و١٩٣٨ .

أما فكرة تفوق الجنس الآري في ألمانيا النازية ، فقد سيطرت على الدكتاتور «أدولف هتلر» ، الذي اهتم بالإنجازات الرياضية للدعاية لمبادئ حزبه . وعلى هذه الخلفية ، يمكن فهم الأجواء المحمومة ، التي صاحبت النزال بين الملاكمين الأمريكي الأسود « چو لويس » ، والألماني « ماكس شميلنج » في استاد يانكي في نيويورك فى يونيو ١٩٣٦ ، وهو أحد اللقاءات النادرة التي خسرها « چو لويس » . وبينما كانت النازية تصفق وتهلل لهذا الفوز السياسي ، زادت شعبية « چو لويس » داخل الولايات المتحدة بغض النظر عن اللون أو العرق . ولم يستغل أحد الرياضة سياسيا مثلما فعل «هتلر » ، فعلى الرغم من الاحتجاجات ، قررت اللجنة الأوليمبية الدولية إسناد مهمة استضافة أوليمبياد ١٩٣٦ إلى برلين . وكان أول أوليمبياد يتم بث وقائعه تليفزيونيا وسط دعاية نازية ضخمة للرايخ الثالث وأسطورة تفوق الجنس الآري . تفوق الرياضيون الألمان في معظم اللعبات ، غير أن الرياضيين السود في الفريق الأمريكي سيطروا على ألعاب القوى .

ومن بين هؤلاء برز « چيسي أوينز » (١٩١٣-١٩٨٠) ، الذي أحرز في أغسطس ١٩٣٦ أربع ذهبيات للولايات المتحدة (١٠٠ متر ، ٢٠٠ متر ، وسباق تتابع ٤×١٠٠ متر ، والوثب الطويل) ؛ مما أثار ضيق وحنق « هتلر » الذي غادر الملعب غاضبا . لكن « هتلر » صدم مرة أخرى حين فاز « چو لويس » على الألماني « شميلنج » في مباراة ثأرية بينهما ، وذلك في أول دقيقتين من المباراة . وحين اندلعت الحرب العالمية الثانية استخدم كل من الأمريكيين والألمان « چو لويس » و « شميلنج » كوسيلة للدعاية العسكرية ، وشارك هذان الملاكمان البارزان في صفوف قوات بلديهما في حرب عالمية مدمرة .

وفي ١٢ يناير ١٩٦٩ ، أقيمت أول مباراتي « سوبر باول » بين أفضل فريقين في دورى كرة القدم الأمريكية بين نيويورك جيتس وبالتيمور كولتس ، لتزداد شعبية تلك اللعبة ، التي يعد أحد أبرز نجومها خلال هذا القرن النجم الأسود « أو . چي .

سمسون » (١٩٤٧-) الذي حوكم في ١٩٩٤ بتهمة قتل مطلقته وصديقها ، ولكنه برئ من هذه التهمة ، وسط انقسام داخل المجتمع الأمريكي ليس بعيدا عن العنصرية .

لكن هل يمكن أن ينسى أحد نجومًا مثل التشيكية الأصل - الحاملة للجنسية الأمريكية - « مارتينا نافراتيلوفا » (١٩٥٦-) التي حصدت ١٩ لقبًا في بطولات ويمبلدون للتنس ، منها تسعة ألقاب لفردي السيدات ، وهو رقم قياسي في اللعبة البيضاء يصعب أن يتحطم في المستقبل القريب . كذلك يبرز اسم لاعبة التنس الألمانية « شتيفي جراف » (١٩٦٩-) ، التي حصدت ١٠٧ بطولات ، وهي اللاعبة الوحيدة التي فازت بـ « الجراند سلام » أي الألقاب الأربعة الرئيسة في اللعبة ، إضافة إلى الميدالية الأوليمبية الذهبية في ١٩٨٨ .

فازت الفرنسية « سوزان لنجلن » بدورها بثمان من بطولات فردي الجراند سلام التسع التي خاضتها، وفازت بـ٢١ جائزة جراند سلام خلال الفترة بين ١٩١٥-١٩٢٦ . أما جبل الجليد السويدي « بيورن بورج » (١٩٥٦-) فقد فاز ببطولة ويمبلدون خمس مرات متتالية (١٩٧٦-١٩٨٠) ، في حين يعد النجم الأمريكي « بيت سامبراس» (١٩٧١-) أول لاعب في تاريخ بطولات التنس ، يحتفظ بصدارة التصنيف العالمي لمدة ست سنوات متتالية (١٩٩٣-١٩٩٨) ، كما فاز بلقب فردي الرجال سبع مرات في بطولة ويمبلدون ، ليتساوى مع سجل اللاعب « وليام رينشو » ، الذي ظل لفترة طويلة غير قابل للتحطيم . ومن أعظم لاعبات التنس خلال القرن العشرين السويسرية « مارتينا هينجيس » (١٩٨٠-) - التي تعد أصغر فائزة ببطولة زوجي السيدات في بطولة ويمبلدون في ١٩٩٦ (١٥ سنة و٢٨٢ يوما) ، والأمريكية السوداء « ألثي چيبسون » ، التي فازت ببطولة ويمبلدون في سنتي ١٩٥٧و ١٩٥٨ ، والشقيقتان « فينوس وليامز » (١٩٨٠-) - التي كانت أول سوداء البشرة تفوز ببطولة ويمبلدون (سنة ٢٠٠٠) منذ أن فازت بها «چيبسون» سنة ١٩٥٨ - و «سيرينا وليامز» (١٩٨١-) - التي كانت أول سوداء البشرة تفوز ببطولة أمريكا المفتوحة (سنة ١٩٩٩) ، منذ أن فازت بها « چيبسون » أيضا سنة ١٩٥٨ .

ولا يفوتنا أيضا ذكر اسم الألماني « بوريس بيكر » « بوم بوم » (١٩٦٧-) ، الذي كان أصغر فائز بفردي الرجال في بطولة ويمبلدون سنة ١٩٨٥ (١٧ سنة و٢٧٧ يوما) ،

والأمـريكيين : « أندريه أجـاسي » (١٩٧٠-) و « چيـمي كـونورز » (١٩٥٢-) والمشـاغب « چون مـاكنرو » (١٩٥٩-) والتـشـيكي الأصل - الحـامل للجنسـيـة الأمريكية - « إيفان ليندل » (١٩٦٠-) الملقب بـ « إيفان الرهيب » .

وفي ١٩٣٠ - وكهاوٍ - أحرز « بوبي چونز » (١٩٠٢-١٩٧١) أعظم إنجاز يمكن أن يحققه لاعب جولف ، إذ فاز بالجراند سلام عقب حصده البطولات الأربع الرئيسة للعبة . وأشعل « أرنولد بالمر » رياضة الجولف في الستينيات قبل أن يحصد « تايجر وودز » (١٩٧٥-) - وهو أمريكي تسري في عـروقه دمـاء آسيوية وإفريقيـة ، ومن الهنود الحمر - معظم جوائز مسابقات الجولف الكبرى منذ احترافه في أغسطس ١٩٩٦ حتى نهاية القرن .

« مايكل چوردان » (١٩٦٣-) نجم السلة الأمريكي ، قاد الولايات المتحدة مرتين للذهب الأوليمبي ، وقاد فريقه للتفوق في بطولة دوري السلة الأمريكي للمحترفين خلال عقد التسعينيات ، ولقب بالرجل الذي يتحدى الجاذبية الأرضية ، لقفزاته الرائعة وقدرته على التهديف من أي مكان في الملعب . « چوردان » نال لقب هداف دوري السلة الأمريكي عشر مرات ، وكان معدل تهديفه -٥ , ٣١ نقطة لكل مباراة -هو الأعلى في تاريخ اللعبـة ، وإلى جانبه أسـمـاء : « إيرفين » « مـاچيك » « چونسـون » (١٩٥٩-) و « لاري بيرد » (١٩٥٦-) و « كريم عبد الجبار » (١٩٤٧-) .

لاعبة الجمباز الرومانية « نادية كومانتشي » ، في سن الرابعة عشرة أذهلت العالم بعد حصـولها سبع مـرات على الدرجة النهـائية (١٠ من ١٠) لأول مـرة في التـاريخ الأوليمبي الحديث ، خلال أوليمبياد مونتريال في ١٩٧٦ .

على القمة في سباقات السيارات ، يقف وحده الأرجنتيني «خوان مانويل فانجيو » الذي فـاز ببطولة العـالم لسبـاقـات « فورمولا ١ » خـمس مـرات (١٩٥١ ، ١٩٥٤ ، ١٩٥٥ ، ١٩٥٦ ، ١٩٥٧) ، في حين فـاز نجم الراليـات الفـرنسي « ألن بروست » بسبـاقـات « جراند بري » ٥١ مـرة وتوج بطلا للعـالم أربع مـرات (١٩٨٥ ، ١٩٨٦ ، ١٩٨٩ ، ١٩٩٣) ، وفاز الألماني « مايكل شوماخر » (٣ يناير ١٩٦٩-) ببطولة العالم أربع مـرات أيضـا (١٩٩٤ ، ١٩٩٥ ، ٢٠٠٠ ، ٢٠٠١) ، وقد حطم في ٢ سبـتمبر

٢٠٠١ الرقم القياسي للانتصارات المسجل باسم« بروست» حين حقق فوزه رقم ٥٢ . كذلك يبرز اسم البطل البرازيلي « إيرتون سينا » الفائز بلقب بطل العالم في سباقات « فورمولا ١ » ثلاث مرات (١٩٨٨ ، ١٩٩٠ ، ١٩٩١) ، إلى أن لقي مصرعه خلال أحد السباقات في ١٩٩٤ ، والنمساوي « نيكي لاودا »(٥١ سنة) الفائز باللقب العالمي ثلاث مرات (١٩٧٥ ، ١٩٧٧ ، ١٩٨٤) ، الذي أصيب بحروق بالغة شوهت وجهه ، لكنه عاد إلى السباقات مرة أخرى ، قبل أن يعلن اعتزاله .

العداء الأمريكي « كارل لويس » (١٩٦١-) صاحب لقب « الملك كارل » فاز بتسع ميداليات أوليمبية ذهبية ، خمس منها في الوثب الطويل ، وحصد ثمانية ألقاب في بطولات العالم لألعاب القوى ، وهو صاحب رقم قياسي في ١٠٠ متر ، حين أحرز ٩,٨٦ ثانية في ١٩٩١ . وجمع مواطنه « مايكل چونسون » (١٩٦٧-) -الذي اعتزل مع بداية الألفية الثالثة- خمس ذهبيات أوليمبية وتسعة ألقاب في بطولات العالم لألعاب القوى ، ورقمين قياسيين عالميين في سباقي ٢٠٠ متر و٤٠٠ متر عدوا .

وفي نهاية القرن العشرين ، تألق العداء الدنماركي من أصل كيني «ولسون كيبكيتر» ، الذي تقاسم في ١٩٩٩ مع العداءة الرومانية « جابرييلا تشابو » جائزة المليون دولار ، التي يمنحها الاتحاد الدولي لألعاب القوى للعداء الذي يفوز بسباق الدوري الذهبي ، الذي يتألف من سبعة لقاءات .

وفي الرياضات المائية ، تألقت الأسترالية « دون فريزر » الفائزة بسباق ١٠٠ متر حرة في ١٩٥٦ ، و١٩٦٠ ، و١٩٦٤ . وفي ٢٢ أكتوبر ١٩٦٢ أصبحت « فريزر » أول امرأة تفوز بـ ١٠٠ متر حرة تحت حاجز الدقيقة : ٥٩,٩ ثانية ، وظل سجلها خاليا من الهزائم لمدة ثماني سنوات في سباقات السباحة الحرة ، وأحرزت ٢٠ رقما عالميا . ويقف بموازاتها السباح الأمريكي « مارك سبيتز » (١٩٥٠-) الفائز بتسع ميداليات ذهبية -الذي حقق ٢٨ رقما قياسيا عالميا في السباحة- سبع منها في الألعاب الأوليمبية الصيفية في ميونيخ ١٩٧٢ . وفي أوليمبياد سيدني ٢٠٠٠ تألق السباح الهولندي « بيتر فان دين هوجنباند » ، الذي حطم رقمين قياسيين في طريقه للفوز بذهبيتي ٢٠٠ متر و١٠٠ متر حرة ، بينما حطمت مواطنته « إنجي دي بروين » ثلاثة أرقام في طريقها للفوز بذهبيات ١٠٠ متر فراشة ، و٥٠ مترا ، و١٠٠ متر حرة .

ونال السباح الأسترالي « أيان ثورب » ثلاث ذهبيات فضية ، في حين حصدت بطلة الغطس الصينية « فو مينجشيا » رابع ميدالية ذهبية أوليمبية لها ، لتواصل تألقها الذي بدأ في أوليمبياد برشلونة ١٩٩٢ ، حين كان عمرها لا يتعدى ١٣ سنة .

أما الألعاب الأوليمبية الشتوية ، فقد ظهرت فيها « آن ماري موزير برول » من النمسا ، التي فازت بالميدالية الذهبية في رياضة التزحلق على الجليد في ١٩٨٠ ، وحازت خمسة ألقاب بطولة عالم ، إضافة إلى عديد من الانتصارات ، من بينها ٣٦ بطولة أخرى . ومن الرجال ، يتألق اسم المتزلج الفرنسي « چان-كلود كيلي » الحائز على الميدالية الذهبية في التزلج ، وحفنة ألقاب في أوليمبياد جونيويل الشتوي في ١٩٦٨ ، كما فاز بكأس العالم في ١٩٦٧ ، و١٩٦٨ وبطولة العالم للتزلج .

وفي مسيرة الرياضة خلال القرن العشرين أسماء أخرى كبيرة ، مثل بطل ألعاب القوى « بوب بيمون » (١٩٤٦-) ، صاحب الرقم القياسي العالمي في أوليمبياد المكسيك ١٩٦٨ في الوثب ، الذي صمد رقمه القياسي (٨,٩٠ متر) حتى ١٩٩١ عندما وثب الأمريكي « مايكل باول » ٨,٩٥ متر ، وبطل سباقات الدراجات الإسبانى « ميخيل أندورين » وبطل القفز بالزانة الأوكراني « سيرجي بوبكا » (٤ ديسمبر ١٩٦٣-) الذي هيمن على رياضته ، وفاز ببطولة العالم ست مرات متتالية ، وحطم أرقامه القياسية ١٧ مرة دون منافس ، لكن سجله الأوليمبي لا يضم سوى ذهبية يتيمة أحرزها في سول ١٩٨٨ . نجم البيسبول الأمريكي « ساي يانج » (١٨٦٧- ١٩٥٥) الذي حمل لقب «الإعصار» اعتزل سنة ١٩١١ وفي جعبته ثلاثة أرقام ربما لن تتكرر أو تتحطم : ١٥١١ انتصارا ، ٥١٨ مشاركة منذ بداية المباراة ، و٧٤٩ مباراة كاملة .

غشاشون ومآس

وإذا كان النجم الشهير « مارادونا » قد خدع الحكم في مباراة انجلترا والأرجنتين في مونديال ١٩٨٦ ، فأودع الكرة بيده في مرمى الحارس الإنجليزي « بيتر شيلتون » ، فإن هناك عديدًا من نماذج الغش الرياضي التي يذكرها القرن العشرون . ولا ينسي الكثيرون تمثيلية المدافع الكرواتي « سلافان بليتش » ، التي ادعى فيها إصابته في مباراة الدور قبل النهائي بين فرنسا وكرواتيا في مونديال فرنسا ١٩٩٨ ، مما دفع حكم المباراة

الإسباني « جارسيا أرندا » إلى طرد الفرنسي « لوران بلان » ظلما ، وبالتالي حرمانه من المشاركة في نهائي المونديال .

كما خدع لاعب الأرجنتين « دييجو سيموني » الحكم الدنماركي « نلسون » في مباراة الأرجنتين وانجلترا في الدور الثاني من مونديال فرنسا ، مما جعل الحكم يطرد نجم خط الوسط الإنجليزي « ديفيد بيكام » . وفي أوليمبياد لندن ١٩٠٦ ، استبعد الإيطالي « دوراندو بييتري » من سباق الماراثون عقب اكتشاف تلقيه مساعدة عند الخط .

ومن نجوم « اللعب القبيح » منتخبا ألمانيا والنمسا في مونديال إسبانيا ١٩٨٢ ، اللذان تواطآ لإخراج الجزائر ، والصعود معا بدلا منها إلى الدور الثاني من البطولة ، وسط استهجان دولي لهذه المؤامرة المكشوفة .

ومن المآسي الرياضية ، مصرع ٢٥ شخصا إثر انهيار دعامة خشبية في جلاسجو خلال مباراة كرة قدم بين اسكتلندا وانجلترا في ١٩٠٢ . وأدى مقتل ١٨ شخصا في ١٩٠٥ إلى تغيير قوانين لعبة كرة القدم الأمريكية في السنة التالية . وفي ١٩٤٩ قتل جميع اللاعبين السبعة عشر الذين يلعبون لنادي تورينو بطل الدوري الإيطالي في حادث تحطم طائرة . وفي ١٩٥٥ قتل ٨٣ شخصا في أسوأ كارثة سباق سيارات في لو مان . وبعد ذلك بثلاث سنوات فجع عشاق وجمهور نادي مانشستر يونايتد لكرة القدم بخبر تحطم طائرة كانت تقل لاعبي النادي الإنجليزي ، مما أدى إلى مصرع ٣٢ شخصا . وفي ١٩٨٥ شهد استاد هيزيل في العاصمة البلجيكية بروكسل مأساة أخرى نتيجة الاشتباكات الدامية بين مشجعي ليفربول الإنجليزي ويوفينتوس الإيطالي في المدرجات في نهائي الأندية أبطال الدوري في أوروبا ، مما أدى إلى مقتل ٣٩ شخصا معظمهم من الإيطاليين .

حصاد الأوليمبياد

وينظر الكثيرون باحترام إلى الدور الذي لعبه البارون الفرنسي « بيير دو كوبرتان » في إحياء الألعاب الأوليمبية ، وإقامة الدورات الأوليمبية الحديثة التي بدأت في أثينا سنة ١٨٩٦ . « دو كوبرتان » إذًا هو الرجل الذي صنع شهرة النجوم الأوليمبيين «چيسي أوينز» ، « كارل لويس » ، « ألبرتو تومبا » ، و « محمد علي كلاي » . ولكن للألعاب الأوليمبية وجها آخر بعيدا عن روح وأهداف الرياضة ، تمثل في فضيحة

تعاطي العداء الكندي « بن چونسون » للمنشطات في أوليمبياد سول ١٩٨٦ ، وفضيحة الفساد وبيع الأصوات الانتخابية ، التي هزت الحركة الأوليمبية في نهاية التسعينيات ، والمقاطعة السياسية التي تكررت في أكثر من دورة أوليمبية .

وفي حين جذبت أول دورة أوليمبية حديثة (أثينا سنة ١٨٩٦) ٣١١ رياضيا فقط -جميعهم من الرجال - من ١٣ دولة ، شارك نحو عشرة آلاف رياضي من ٢٠٠ دولة في دورة سيدني الأوليمبية سنة ٢٠٠٠ . وفي أول دورة أوليمبية خلال القرن العشرين (باريس ١٩٠٠) عمت الفوضى التنظيمية ، التي كادت تخنق تجربة إحياء الحركة الأوليمبية في مهدها . الألعاب الأوليمبية التي بدأت في نطاق الهواة فقط ، وتحولت تدريجيا خلال القرن العشرين إلى ملتقى للنجوم المحترفين في مختلف الرياضات . ولأن السياسة - كما أسلفنا - لم تكن بعيدة يوما عن الرياضة ، فقد شهد أوليمبياد لندن سنة ١٩٠٨ محاولة الروس منع أفراد الفريق الرياضي الفنلندي من استخدام علمهم ، في حين اعترض الإنجليز على استخدام الأيرلنديين لعلمهم . وفي أوليمبياد برلين ١٩٣٦ ، كان ما كان بين الأمريكي الأسود « چيسي أوينز » والدكتاتور العنصري « أدولف هتلر » .

وأضيفت الألعاب الشتوية إلى الأجندة الرياضية اعتبارا من ١٩٢٤ ، في حين أدت الحرب العالمية الثانية إلى توقف الدورات الأوليمبية لمدة ١٢ سنة . لم يدع الألمان واليابانيون -الذين هزموا في الحرب-إلى المشاركة في أوليمبياد لندن سنة ١٩٤٨ ، الذي فازت فيه العداءة الهولندية الموهوبة « فاني بلانكرز- كوين » بأربع ذهبيات . النجم الأبرز في أوليمبياد ١٩٥٢ في هلسنكي ، كان عداء المسافات الطويلة التشيكي « إميل زاتوبيك » (١٩٢٢-ديسمبر ٢٠٠٠) الذي فاز بسباقات ٥,٠٠٠ متر ، ١٠,٠٠٠ متر والماراثون ليضمهما إلى رصيده في الأوليمبياد السابق ، الذي شمل ذهبية سباق ١٠,٠٠٠ متر وفضية ٥,٠٠٠ متر . الطريف أن زوجته « دانا » فازت أيضا بذهبية رمي الرمح في دورة ١٩٥٢ . كانت تلك هي السنة التي شارك فيها الاتحاد السوفيتي السابق كفريق موحد لأول مرة ، في تجربة كتب لها النجاح على مدار أربعة عقود تالية . وتحولت الدورات الأوليمبية إلى منافسة من نوع خاص بين الأمريكيين والسوفيت ، بينما كانت ألمانيا الشرقية سابقا تؤكد وجودها كقوة رياضية رئيسة على

الساحة العالمية ، على الرغم من أن التاريخ كشف لاحقًا عن أنها لجأت إلى بعض وسائل الغش والتحايل أحيانًا للبقاء على القمة .

وأقيم أوليمبياد ١٩٦٨ فوق مستوى البحر ، في العاصمة المكسيكية مكسيكو سيتي ، وتألق فيه « بوب بيمون » بطل الوثب الطويل ، الذي قفز لمسافة ٨,٩٠ متر متجاوزا بذلك علامة التسجيل بمسافة ٠,٥٥ متر . كما برز « لي إيفانز » (١٩٤٧-) الذي سجل زمنا قدره ٤٣,٨٦ ثانية في سباق ٤٠٠ متر ، وهو رقم ظل صامدا لعشرين سنة تالية . ويتذكر الكثيرون دورة المكسيك الأوليمبية بوصفها أوليمبياد «القوة السوداء » حين لوح الأمريكيان الفائزان في سباق ٢٠٠ متر « تومي سميث » و « چون كارلوس » بقبضة اليد المغطاة بقفاز أسود ، وهما فوق منصة التتويج بينما كانت الموسيقى تعزف السلام الوطني الأمريكي . كانت ١٩٦٨ أيضا السنة التي فاز فيها الفرنسي « چان-كلود كيلي » (١٩٤٣-) بالميداليات الذهبية الثلاث للتزلج على الجليد ، مؤكدا مكانته كواحد من أبرز الأسماء في عالم التزلج فوق الجليد .

فاز السباح الأمريكي « مارك سبيتز » بسبع ميداليات ذهبية في دورة ميونيخ الأوليمبية سنة ١٩٧٢ ، بينما أصبحت لاعبة الجمباز السوفيتية « أولجا كوربوت » (١٩٥٥-) ذات السبعة عشر ربيعا والابتسامة الفاتنة ، نجمة عالمية بفضل ذهبياتها الثلاث . وفي مونتريال ١٩٧٦ ، اندهش الجمهور لبراعة لاعبة الجمباز الرومانية « نادية كومانتشي » ، التي كانت أول متسابقة تنال درجة كاملة (١٠/ ١٠) في طريقها لحصد ثلاث ذهبيات ، قبل أن تضيف ذهبيتين أخريين في أوليمبياد موسكو ١٩٨٠ . في ليك بلاسيد سنة ١٩٨٠ ، فاز السويدي « إنجمار ستنمارك » بسباقي التزلج المتعرج ؛ مما جعله أبرز فائز في تاريخ سباقات التزلج .

وقادت الدول الإفريقية حركة مقاطعة أوليمبياد ١٩٧٦ لسبب سياسي متعلق برياضة ، لم تكن حتى جزءا من الألعاب الأوليمبية - اتحاد الرجبي - بينما قاطع الأمريكيون بتأييد من ألمانيا الغربية - سابقا - واليابان دورة موسكو الأوليمبية سنة ١٩٨٠ ، احتجاجا على الغزو السوفيتي لأفغانستان . ورد السوفيت بالتغيب عن أوليمبياد لوس أنجلوس ١٩٨٤ ، وهي الدورة الأوليمبية التي بدأ فيها الأمريكي « كارل لويس » مشوار نجوميته ، مقلدًا « أوينز » بالفوز بسباقين للعدو وفي الوثب

الطويل ، إلى جانب ذهبية رابعة في سباق التتابع . كرر « لويس » فوزه بسباق ١٠٠ متر في دورة سول ١٩٨٨ ، بعد تجريد الكندي « بن چونسون » من الميدالية الذهبية لثبوت تعاطيه منشطات ، كما نال لويس ثاني ذهبية أوليمبية على التوالي في الوثب الطويل . وفاز هذا الرياضي الأمريكي بذهبية أخرى في سباق التتابع ليصبح صاحب رقم قياسي يبلغ إجماليه ثماني ذهبيات. ولاتفوتنا الإشارة إلى الأمريكي « آل أورتر » (١٩٣٦-) الذي توج بطلا أوليمبيا في مسابقة رمي القرص في أربع دورات متتالية .

وفي أوليمبياد سيدني ٢٠٠٠ واصل العداء الإثيوبي « هايلي جبريسلاسي » (١٩٧٣-) مشواره الخالي من الهزائم في سباق عشرة آلاف متر ، منذ بطولة العالم لألعاب القوى في شتوتجارت في ألمانيا سنة ١٩٩٣ ، ليؤكد مكانته كعداء أسطوري . وأحرز التشيكي « يان زيليزني » اللقب الأوليمبي الثالث له في مسابقة رمي الرمح في سيدني ٢٠٠٠ ، محطما رقمه الأوليمبي السابق ، مسجلا رقما جديدا مقداره ٩٠,١٧ متر . وحصد الرباع « أكاكيس كاكياسفيليس » في آخر دورات القرن العشرين (سيدني) لقبه الأوليمبي الثالث على التوالي ، حين انتزع ذهبية وزن ٩٤ كيلوجراما في رفع الأثقال .

كان « كاكياسفيليس » قد نال أول لقب أوليمبي له في هذا الوزن ، عندما كان يدافع عن ألوان چورچيا تحت اسم « كاخي كاخياشفيللي » ، ثم توج بطلا أوليمبيا لوزن ١٠٠ كيلوجرام في أوليمبياد أطلانطا ممثلا لليونان . وبات هذا الرباع ثاني رياضي في التاريخ يحرز الذهبية وهو يمثل دولتين مختلفتين ، أما الأول فهو لاعب الرجبي « ديفيد كارول » الذي لعب باسم أستراليا سنة ١٩٠٨ ، ثم دافع عن ألوان الولايات المتحدة سنة ١٩٢٠ .

وعلى الزلاجات أصبح « تومبا » « كارل لويس الألعاب الأوليمبية الشتوية » عقب فوزه بثلاث ذهبيات وفضيتين على مدار ثلاث دورات أوليمبية ما بين ١٩٨٨-١٩٩٤ ، على الرغم من أن هذا المتزلج الإيطالي تجنب المشاركة في سباقات التزلج من فوق المنحدرات بناء على طلب والدته!

ومن بين النجوم الأوليمبيين المشهورين ، تلمع أسماء عداء المسافات المتوسطة الكيني « كيب كينو » ، الذي تألق في دورة المكسيك ١٩٦٨ ، وعدائي المسافات

الطويلة الفنلنديين « بافو نورمي » (١٨٩٧-١٩٧٣)، الذي فاز بثماني ذهبيات أوليمبية خلال الفترة بين ١٩٢٠-١٩٢٨ ، و « لاس فيرين » (١٩٤٩-) نجم دورتي ١٩٧٢ و١٩٧٦ ، ونجم الماراثون الإثيوبي « أبيبي بيكيلا » (١٩٣٢-١٩٧٣) عضو الحرس الإمبراطوري الذي حطم الرقم العالمي لسباق الماراثون في دورتي ١٩٦٠ و١٩٦٤ ، والمتزلجة النرويجية « سونيا هيني » (١٩١٢-١٩٦٩) التي فازت بثلاثة ألقاب أوليمبية علي التوالي بين ١٩٢٨-١٩٣٦ ، والأسترالية « دون فريزر » التي حققت إنجازا مماثلا في سباق ١٠٠ متر سباحة حرة بين ١٩٥٦-١٩٦٤ ، والسباح المجري «تاماس دارني»، الذي فاز بسباقي ٢٠٠ متر و٤٠٠ متر في دورتي ١٩٨٨ و١٩٩٢ ، على الرغم من كونه لا يرى إلا بعين واحدة . عرف رافع الأثقال التركي « نعيم سليمان أوغلو » (٣٣ سنة) الذي لم تكن قامته تتجاوز ١٥٠ سنتيمترا باسم « هرقل الجيب » ، لأنه كان قادرا على رفع ما يوازي ثلاثة أمثال وزنه (٩ . ٥٩ كيلوجرام) ، وقد فاز بالذهب في ثلاث دورات أوليمبية متتالية بين سنتي ١٩٨٨-١٩٩٦ .

ونقش الكوبي « فيليكس سافون» اسمه بأحرف من ذهب في السجل الأوليمبي ، حين بات ثالث ملاكم في التاريخ الأوليمبي يحرز اللقب ثلاث مرات متتالية في الوزن الثقيل (فوق ٩١ كيلوجراما) . وسبق للمجري « لازلو باب » أن أحرز اللقب ثلاث مرات متتالية أيضا في ١٩٤٨ و١٩٥٢ و١٩٥٦ . أما ملاكم الوزن الثقيل الكوبي «تيوفيليو ستيفنسون » - الذي فاز بثلاث ذهبيات في ثلاث دورات أوليمبية متتالية بين سنتي ١٩٧٢-١٩٨٠ ، دون أن يصل سوى ملاكم واحد منافس إلى الجولة الثالثة أمامه- فقد رفض عروضا مغرية باحتراف اللعبة ، على العكس من « لينوكس لويس » صاحب ذهبية الملاكمة في الوزن الثقيل في أوليمبياد سول ١٩٨٨ ، الذي انتزع بطولة العالم في هذا الوزن .

كما برز على مستوى الفرق والمنتخبات الأوليمبية المنتخب الأمريكي لكرة السلة ، الذي احتكر ذهبية اللعبة أوليمبيا منذ ١٩٣٦ ، إلى أن خسرها لأول مرة في الثانية الأخيرة من نهائي ١٩٧٢ أمام السوفيت في مباراة مثيرة للجدل . لكن «فريق الأحلام» الأمريكي في أوليمبياد ١٩٩٢ ، الذي ضم نجوم اللعبة « مايكل چوردان » ، « ماچيك چونسون » ، « لاري بيرد » ، « باتريك إيوينج » ، و « سكوتي بيبن » ، قهر جميع

المنافسين بفارق كبير من النقاط ، وهو ما تكرر مع « فريق الأحلام ٢ » في دورة أطلانطا ١٩٩٦ .

وبالنسبة لكرة القدم ، فقد كانت محظورة على المحترفين ، إلى أن تغيرت الحال جزئيا ، لكن نسور نيجيريا بقيادة « نوانكو كانو » انتزعوا اللقب الأوليمبي في كرة القدم في أطلانطا من البرازيل بقيادة « رونالدو » و « بيبيتو » ، ومن منتخب الأرجنتين القوي . أما أول مسابقة أوليمبية لكرة القدم للسيدات . . فقد انتهت بفوز المنتخب الأمريكي على نظيره الصيني أمام ٤٨١ ، ٧٦ متفرج ، احتشدوا داخل إستاد ستانفورد في ولاية جورجيا الأمريكية لمتابعة هذا النهائي المثير .

الجوهرة السوداء

لكن نجم نجوم الرياضة خلال القرن العشرين هو البرازيلي « إديسون أرانتس دوناسيمنتو » المعروف في العالم باسم « بيليه » (١٩٤٠-) ، فهو أفضل لاعب كرة قدم خلال القرن ، ولأن كرة القدم هي اللعبة الشعبية الأولى في أنحاء العالم فإنه يستحق اللقب . تألق نجم « بيليه » في كأس العالم سنة ١٩٥٨ ، عندما كان دون سن الثامنة عشرة ، خاصة حين سجل ثلاثة أهداف في مرمى فرنسا في الدور قبل النهائي ، ثم هدفين في النهائي الذي فازت به البرازيل على السويد ٥/ ٢ . وفي سنة ١٩٦٩ سجل « بيليه » هدفه رقم ألف وهو يلعب لنادي سانتوس البرازيلي . جسد « بيليه » كل ما هو رائع في تلك الرياضة حتى وصل إلى القمة وعمره ٢٩ سنة ، عندما فازت البرازيل بكأس جول ريميه بحصولها على كأس العالم للمرة الثالثة في ١٩٧٠ التي أقيمت في المكسيك ، عقب فوزها على إيطاليا ٤/ ١ . وفي ١٩٧١ لعب « بيليه » آخر مبارياته الدولية وكانت رقم ١١١ ، وبعد ثلاث سنوات اعتزل اللعب مع ناديه بعد أن أحرز ١٢٨١ هدفا في ١٣٦٣ مباراة لسانتوس . وفي سنة ١٩٧٥ عاد « بيليه » من الاعتزال ، فالتحق بصفوف نادي كوزموس الأمريكي في نيويورك مع نشأة كرة القدم في أمريكا الشمالية ، ثم اعتزل نهائيا سنة ١٩٧٧ .

حظي « بيليه » - الذي عمل في صباه ماسح أحذية - باحترام خصومه مثلما نال احترام زملائه ، مع اشتراكه وتهديفه في أربع بطولات متتالية لكأس العالم ، وإظهاره

موهبة فذة ، وروحا رياضية عالية في الملعب ، والتواضع ودماثة الخلق خارجه . ومع كل هذه القدرات كان « الجوهرة السوداء » من التواضع حتى إنه قال ذات مرة « يمكنني إحراز الأهداف من لا شيء ، ولكن هذا ليس مبعثا على الفخر بالنسبة لي ، وإنما التواضع لأنها هبة من الله » .

الأرجنتيني « دييجو أرماندو مارادونا » (٣٠ أكتوبر ١٩٦٠-) ساحر الكرة المدهش ، قاد منتخب « التانجو » الأرجنتيني للفوز بكأس العالم ١٩٨٦ ، وأحرز هدفا أسطوريا في مرمى منتخب إنجلترا ، وكان قد غش الحكم التونسي « على بن ناصر » بهدفه الأول الذي أحرزه بيده ، ثم زعم بعد ذلك أن « يد الله » أحرزت هذا الهدف ! وفي نهائيات كأس العالم في إيطاليا ١٩٩٠ خسر منتخب « مارادونا » الأرجنتيني في المباراة النهائية صفر/ ١ أمام الماكينات الألمانية . « مارادونا » الذي قاد فريق نابولى للقب بطل الدوري الإيطالي مرتين ، سقط في هوة إدمان الكوكايين فتعرض للإيقاف . وفي مونديال أمريكا ١٩٩٤ تم استبعاده بعد إثبات الفحوصات تعاطيه مخدرات ، ليثير هذا النجم الموهوب عاصفة من الجدل خارج الملعب ، توازي تألقه فوق البساط الأخضر ، الذي أحرز عليه ٣٤ هدفا في ٩٠ مباراة دولية .

« يوهان كرويف » أو « الهولندي الطائر » (٢٥ إبريل ١٩٤٧-) حاز لقب لاعب العام في أوروبا في ١٩٧١ و١٩٧٣ و ١٩٧٤ وقاد الطاحونة البرتقالية للمركز الثاني في مونديال ١٩٧٤ . بينما قاد « القيصر » الألماني « فرانز بكنباور » (١١ سبتمبر ١٩٤٥-) الماكينات الألمانية لكأس العالم ١٩٧٤ ، وكان أول ألماني يلعب ١٠٠ مباراة دولية . نجم خط الوسط الفرنسي « ميشيل بلاتيني » (المولود لمهاجرين إيطاليين في ٢١ يونيو ١٩٥٥) أحسن لاعب أوروبي في ١٩٨٤ و١٩٨٥ قاد منتخب «الديوك» للفوز بكأس أمم أوروبا سنة ١٩٨٤ ، أما « ألفريدو دي ستيفانو » الذي لعب لمنتخبي الأرجنتين وإسبانيا ، فهو لاعب متكامل ، قاد ريال مدريد لمجده في إسبانيا ، ونال الكرة الذهبية مرتين كأفضل لاعب في أوروبا في ١٩٥٧ و١٩٥٩ . . وهناك أسماء أخرى كبيرة في عالم كرة القدم مثل المجري « فيونيش بوشكاش » ، والأيرلندي « چورچ بست » ، والهولنديين « ماركو فان باستن » ، « وورد كرول » ، والبرتغالي المولود في موزمبيق « يوزيبيو » ، الذي نال الكرة الذهبية كأفضل لاعب في أوروبا سنة ١٩٦٥ .

أبطال العرب

ويتذكر عشاق كرة القدم حارسي المرمى السوفيتيين « ليف ياشين » ، و « رينات داساييف » ، واللاعبين الإنجليز « بوبي » و « چاكي شارلتون » ، و « ستانلي ماتيوز » الذي ظل يلعب حتى سن الخمسين ، ومهاجمي البرازيل « رونالدو » و « ريفالدو » و « زيكو » و « فالكاو » و « تستاو » و « ريفيلينو » و « بيبيتو » و « جارينشيا » و « جيرزينهو » ، إضافة إلى القناص الألماني « جيرد موللر » وزميله حارس المرمى « سيب ماير » ، والإيطاليين « روبرتو باجيو » « بوذا الصغير » و « باولو روسي » و « ريفا » والمدافعين « فرانكو باريزي » و « باولو مالديني » ، والفرنسيين « زين الدين زيدان » ذي الأصل الجزائري ، الذي قاد منتخب فرنسا للفوز بكأس العالم لأول مرة في تاريخها سنة ١٩٩٨ ، والفوز بكأس الأمم الأوروبية سنة ٢٠٠٠ ؛ فاختاره الاتحاد الدولي لكرة القدم أفضل لاعب في العالم في هاتين السنتين ، و « ريمون كوبا » ذي الأصل البولندي الذي أسهم في فوز منتخب فرنسا بالمركز الثالث في مونديال ١٩٥٨ ، ونال الكرة الذهبية كأفضل لاعب في أوروبا سنة ١٩٥٨ ، و « إيريك كانتونا » و « ألن جيريس » و « مكسيم بوسيس » ، و « جوست فونتين » هداف هدافي كأس العالم لكرة القدم ، والبولندي « جريجوري لاتو » هداف مونديال ١٩٧٤ ، والنسر الإسباني « إميليو بوتراجينيو » ، والروماني « چورچي هاچي » ، الذي سجل ٥٣ هدفا في ١١٩ مباراة لرومانيا ، واختير أحسن لاعب كرة قدم في بلاده خلال القرن العشرين ، والبرتغالي « لويس فيليبي ماديرا كاييرو » « فيجو » (٤ نوفمبر ١٩٧٢-) الذي فاز بلقب أفضل لاعب لسنة ٢٠٠٠ في استفتاء مجلة « وورلد سوكر » البريطانية المتخصصة ، كما نال في تلك السنة الكرة الذهبية ، التي تمنحها « فرانس فوتبول » الفرنسية المتخصصة سنويا لأفضل لاعب في أوروبا .

ومن أمريكا اللاتينية نذكر الأرجنتينيين « كلاوديو كانيجيا » ، و « ماريو كمبس » ، و « دانييل باساريللا » ، و « جابرييل باتيستوتا » ، والكولومبيين قائد خط الوسط « كارلوس فالديراما » ، والهداف الأسمر « فاوستينو أسبريا » ، ولاعبي تشيلي « مارسيلو سالاس » ، و « زامورانو » ، وهداف بيرو « تيوفيليو كوبياس » ، والمكسيكيين

المهاجم «هوجو سانشيز» وحارسي المرمى «خورخي كامبوس» و« أنطونيو كارباجال» ، والأخير مثل بلاده في خمسة نهائيات لكأس العالم على التوالي منذ بطولة ١٩٥٠ حتى بطولة ١٩٦٦ .

ومن إفريقيا ، نذكر النيجيريين : « رشيدي يقيني » و« نوانكو كانو » و« أوجستين أوكوتشا » و« فيكتور إكيبيا» و« إيمانويل إمونيكي » ، والكاميرونيين : «توماس نكونو» و« ثيوفيل أبيجا » و« روجيه ميلا » و« باتريك مبوما » ، والليبيري « چورچ وايا » ، والزامبي « كالوشا بواليا » ، والمالي « ساليف كيتا » ، والغانيين : « عبيدى بيليه » و«كريم عبد الرازق » و« إبراهيم صنداي » و« أنتوني يبواه » و« صمويل كوفور » ، والجزائريين : « الأخضر بللومي» و« رباح ماجر » و« جمال مناد » ، والمغاربة : «محمد التيمومي » و« بادو الزاكي » و« عزيز بو دربالة » و« مصطفى حاجي » و« أحمد فراس » ، والتونسيين : « طارق دياب » و« مختار النايلي » و« خالد بدرة » ، إضافة إلى المصريين : « حسام حسن » (٨ أغسطس ١٩٦٦-) و« محمود الخطيب » (٣٠ أكتوبر ١٩٥٤-) و« طاهر أبو زيد » و« مصطفى رياض » و« حسن الشاذلي » و« على أبو جريشة » و« حسن شحاتة » و« إبراهيم يوسف » و« حسين حجازي » (ديسمبر ١٨٩٠-١٩٦١) و« محمود مختار » « التتش » (المولود سنة ١٩٠٦) ، وغيرهم .

ومن آسيا ، لا يفوتنا أن نذكر من لاعبي كرة القدم في السعودية « السهم الملتهب» « ماجد عبدالله » ، و « الكوبرا » « محيسن الجمعان » ، والفنان « خالد مسعد » ، والقائد « فؤاد أنور » ، وحارس المرمى العملاق «محمد الدعيع» ، و « بيليه الصحراء » أو « مارادونا العرب » « سعيد العويران » صاحب أجمل هدف في مونديال أمريكا ١٩٩٤ ، الذي تجاوز فيه وهو يجري بالكرة أربعة لاعبين بلجيكيين قبل إيداع الكرة في المرمى . ومن الكويت نذكر الهداف « المرعب » « جاسم يعقوب » ، و « الملك » «فيصل الدخيل » ، و « الفارس الأسمر » «فتحي كميل» ، و « عبد العزيز العنبري» و« فاروق إبراهيم » و « المدفعجي » « عبدالله البلوشي » وحارس المرمى «الأمين» «أحمد الطرابلسي » ، وكلهم من جيل الثمانينيات الذهبي في الكويت . ويضاف إليهم نجوم التسعينيات «بشار عبدالله » « بشاردو » و « فرج لهيب » و« جاسم الهويدي » و«علي مروي » . ومن العراق، تبرز أسماء اللاعبين «فلاح حسن»، و« علي كاظم » ،

و«حسين سعيد»، و« أحمد راضي » وحارس المرمى « رعد حمودي » . يضاف إلى هؤلاء حارس مرمى البحرين الأكروباتي « حمود سلطان » ، والقناص القطري « منصور مفتاح » ، وهدافا الإمارات « عدنان الطلياني » و« فهد خميس » .

ومن نجمات الرياضة العربيات ، المغربية « نوال المتوكل » ، أول لاعبة عربية تحرز ميدالية ذهبية في الدورات الأوليمبية ، إذ نالت ذهبية سباق ٤٠٠ متر حواجز في دورة لوس أنجلوس ١٩٨٤ ، وسجلت رقما أوليمبيا جديدا قدره ٥٤,٦١ ثانية . الجزائرية « حسيبة بولمرقة » أول لاعبة عربية تحرز ميدالية ذهبية في بطولة العالم لألعاب القوى . نالت « بولمرقة » ذهبية سباق ١٥٠٠ متر في بطولة العالم في طوكيو ١٩٩١ ، واستعادت اللقب مرة أخرى في جوتنبرج ١٩٩٥ ، وأصبحت أول جزائرية تفوز بذهبية أوليمبية ، حين أحرزت المركز الأول في سباق ١٥٠٠ متر في دورة برشلونة ١٩٩٢ . كذلك نذكر البطلة المغربية « نزهة بدوان » (٨ سبتمبر ١٩٦٩ -) نجمة التسعينيات في سباقات العدو ، وحاملة ذهبية سباق ٤٠٠ متر حواجز في بطولة العالم لألعاب القوى في اليونان ١٩٩٧ ، وبرونزية السباق نفسه في أوليمبياد سيدني ٢٠٠٠ ، إضافة إلى كونها بطلة إفريقيا سنة ١٩٩٠ ، ونجمة الدورة العربية في سوريا سنة ١٩٩٢ ، حين حصدت سبع ذهبيات ، كما توجت بطلة دورتي ألعاب المتوسط في ١٩٩٣ و١٩٩٧ .

السورية « غادة شعاع » بطلة العالم في المسابقة السباعية لألعاب القوى ، فازت أولا بذهبية بطولة العالم في جوتنبرج بالسويد سنة ١٩٩٥ ، وسجلت رقما قدره ٦٦٥١ نقطة ، وكانت أول سورية في التاريخ تحرز ميدالية في بطولات العالم لألعاب القوى ، وأكملت « غادة » إنجازها بفوزها بالميدالية الذهبية للمسابقة نفسها في أوليمبياد أطلانطا ١٩٩٦ . المغربية « زهرة واعزيز » تألقت أخيرا ، خاصة خلال لقاء برلين الدولي لألعاب القوي الذي أقيم في سبتمبر ١٩٩٩ ؛ إذ نافست بقوة العداءة الرومانية المدهشة «جابرييلا تشابو» . لكن العداءة الجزائرية «نورية بن عيدة مراح» (١٩ أكتوبر ١٩٧٠ -) قهرت « تشابو » وفازت بذهبية سباق ١٥٠٠ متر في أوليمبياد سيدني مسجلة زمنا قدره (٤,٠٥,١٠ دقيقة) وتلتها الرومانيتان « فيوليتا تشيكيلي » و« تشابو » .

أما النجوم العرب في ألعاب القوى فمن بينهم العداء التونسي « محمد القمودي » واسمه الحقيقي « محمد التليلي بن عبد الله » ، وقد فاز بالميدالية الفضية في سباق عشرة آلاف متر في دورة طوكيو الأوليمبية سنة ١٩٦٤ ، كما نال الميدالية الذهبية في دورة المكسيك الأوليمبية سنة ١٩٦٨ في سباق خمسة آلاف متر عدوا ، وحصد ميدالية فضية في دورة ميونيخ الأوليمبية سنة ١٩٧٢ في سباق خمسة آلاف متر عدوا أيضا .

ومن العدائين العرب البارزين ، الجزائري « نور الدين مرسلي » (٣٠ سنة ، صاحب ذهبية سباق ١٥٠٠ متر في أوليمبياد أطلانطا ١٩٩٦ ، وبطل العالم ثلاث مرات في ١٩٩١و١٩٩٢و١٩٩٣) ، ومواطناه « جابر سعيد القرني » ، و« علي سعيدي سياف » ذي الاثنين والعشرين ربيعا (برونزية للأول في سباق ٨٠٠ متر ، وفضية للثاني في سباق خمسة آلاف متر ، وذلك في سيدني ٢٠٠٠) ، والمغاربة «عبد الراضي سلام » (نال فضية في أوليمبياد روما ١٩٦٠) و« سعيد عويطة »(نال ذهبية في لوس أنجلوس ١٩٨٤ ، وبرونزية في سول ١٩٨٨) و« إبراهيم بوطيب » (نال ذهبية في دورة سول الأوليمبية) و« خالد سكاح » (فاز بذهبية في برشلونة ١٩٩٢) و« رشيد البصير » (فاز بفضية في برشلونة ١٩٩٢) ، و« إبراهيم لحلافي » (نال برونزية سباق خمسة آلاف متر في سيدني ٢٠٠٠) ، و« علي الزين » (فاز ببرونزية سباق ثلاثة آلاف متر موانع في أوليمبياد سيدني) و« صلاح حسو » و« هشام القروج » ، والأخير أحرز ثلاثة ألقاب عالمية في سباقات ١٠٠٠ و١٥٠٠ و٢٠٠٠ متر عدوا ، ولكنه اكتفى بفضية سباق ١٥٠٠ متر في إحدى مفاجآت سيدني ٢٠٠٠ .

ومن قطر ، نال العداء « محمد إسماعيل » برونزية في دورة برشلونة ١٩٩٢ ، كما حصل عداء جيبوتي « أحمد صالح » على برونزية سباق الماراثون في أوليمبياد سول ١٩٨٨ . وحفر العداء السعودي « هادي صوعان » (المولود في ٣٠ ديسمبر ١٩٧٦) اسم السعودية في قائمة الدول الفائزة بميدالية أوليمبية ؛ حين أحرز لبلاده أول ميدالية أوليمبية في سيدني ٢٠٠٠ ، وكانت فضية سباق ٤٠٠ متر حواجز ، محققا زمنا قدره (٤٧,٥٣ ثانية) . ومن قبله كان أفضل إنجاز سعودي في ألعاب القوى على المستوى العالمي حصول العداء « سعد شداد الشمري » على برونزية سباق ثلاثة آلاف متر موانع في بطولة العالم في جوتبورج ، في السويد سنة ١٩٩٥ .

ويبرز اسم بطل رفع الأثقال المصري « السيد نصير » (١٩٠٥-١٩٧٤) ، الذي تفوق في رفع الأثقال لوزن خفيف الثقيل في دورة أمستردام الأوليمبية في هولندا سنة ١٩٢٨ ، وتمكن بطريقته الجديدة والتي عرفت باسم « طريقة الجمل » من انتزاع اللقب الغالي ؛ ليصبح أول بطل مصري يقف جمهور دورة أوليمبية تحية له ولعلم بلاده وسلامها الوطني . وأحرز بطل الغطس « فريد سميكة » ميداليتين أوليمبيتين (فضية وبرونزية) لمصر في تلك الدورة ، وذلك في مسابقتي السلم الثابت والسلم المتحرك ، ليصبح بذلك أول لاعب مصري وعربي يحرز ميداليتين في دورة أوليمبية . وفي الدورة الأوليمبية نفسها أحرز البطل المصري « إبراهيم مصطفى » (١٩٠٤-١٩٦٨) ذهبية وزن خفيف الثقيل في المصارعة اليونانية-الرومانية ، بينما نجح في تلك السنة أول سباح مصري في عبور المانش ، وهو « إسحق حلمي » (المولود سنة ١٩٠١) رائد السباحة الطويلة .

وتألق بطل آخر في رفع الأثقال هو « خضر التوني » (المولود في ١٥ ديسمبر ١٩١٦) ، الذي تفوق على منافسيه الألمان في أوليمبياد برلين ١٩٣٦ ، وتمكن من رفع ثلاثة أمثال وزنه لينال ذهبية الوزن المتوسط ، حتى إن « هتلر » قال له في أثناء تقليده الميدالية الذهبية : « لقد تمنيت أن تكون ألمانيا » . ونال أبطال رفع الأثقال المصريون «أنور أحمد مصباح » ، و« صالح محمد سليمان » ، و« إبراهيم شمس » ، و« إبراهيم وصيف » ، و« محمود فياض » ، و« عطية محمد حمودة » ميداليات في دورتي برلين (١٩٣٦) ولندن (١٩٤٨) الأوليمبيتين .

كما برز في رفع الأثقال العراقي « عبد الواحد عزيز » ونال ميدالية برونزية في أوليمبياد ١٩٦٠ ، واللبناني « محمد خير طرابلسي » الذي نال فضية في دورة ميونيخ ١٩٧٢ ، والقطري من أصل بلغاري « أسعد سعيد سيف » ، الذي حقق برونزية وزن ١٩٠ كيلوجراما في سيدني ٢٠٠٠ . ونال المصريان «محمود حسن» (المولود في ١٥ ديسمبر ١٩١٩) فضية ، و«إبراهيم العرابي» برونزية ، في مسابقات المصارعة في أوليمبياد لندن ١٩٤٨ ، وحصل مواطناهما « عبد العال راشد » على برونزية المصارعة لوزن الريشة في دورة هلسنكي ١٩٥٢ ، و « عيد عثمان» على فضية المصارعة في وزن الذبابة في أوليمبياد روما ١٩٦٠ ، ونال الملاكم «عبد المنعم الجندي » برونزية وزن

الذبابة في تلك الدورة ، في حين حصل اللبناني « حسن بشارة » على برونزية في المصارعة في أوليمبياد موسكو ١٩٨٠ ، ونال السوري « جوزيف عطية » فضية في أوليمبياد لوس أنجلوس ١٩٨٤ . كما نال اللبناني « زكريا شهاب » فضية ، ومواطنه «خليل طه » برونزية ، والمصري « عبد العال راشد » برونزية في دورة هلسنكي الأوليمبية سنة ١٩٥٢ .

وفي الملاكمة ، تألق « عبد المنعم الجندي » صاحب فضية روما ١٩٦٠ ، والتونسي « حبيب حالقية » (برونزية أوليمبياد طوكيو ١٩٦٤) ، والجزائريون «مصطفى موسى » ، و« محمد زاوي » ، و« حسين سلطاني » ، و«محمد علالو » (برونزية لكل من الأول والثاني في أوليمبياد لوس أنجلوس ١٩٨٤ ، وللثالث في الوزن الخفيف في أوليمبياد أطلانطا ١٩٩٦ ، وللرابع في وزن ٦٣,٥ كيلوجرام في سيدني ٢٠٠٠) ، والمغاربة « عبد الحق عشيق » ، و« محمد عشيق » ، و« الطاهر التلمساني » - المولود في ١٠ سبتمبر ١٩٨٠ - (برونزية : للأول في دورة سول ١٩٨٨ ، وللثاني في دورة برشلونة ١٩٩٢ الأوليمبية ، وللثالث في سيدني ٢٠٠٠) .

نال بطل الجودو المصري « محمد علي رشوان » (١٦ يناير ١٩٥٦-) فضية الوزن المفتوح في أوليمبياد لوس أنجلوس ١٩٨٤ ، كما استحق جائزة اللعب النظيف الدولية ، بعد أن رفض أن يلعب علي القدم المصابة لمنافسه الياباني « ياماشيتا » في نهائي المسابقة . وفي فجر أول أكتوبر ٢٠٠٠ حقق الفارس السعودي « خالد العيد » ميدالية برونزية لبلاده في فروسية القفز فوق الحواجز . كما نال الجزائري « عبدالرحمن حماد » (٢٧ مايو ١٩٧٧-) برونزية الوثب العالي في سيدني ٢٠٠٠ . وحقق الكويتي « فهيد الديحاني » (١١ أكتوبر ١٩٦٦-) أول ميدالية أوليمبية لبلاده خلال تلك الدورة ، حين نال برونزية الرماية « الحفرة المزدوجة » ، وكان قد حل ثالثا في بطولة العالم لمسابقة الرماية « الحفرة المزدوجة » في تامبيري (فنلندا) سنة ١٩٩٩ .

ويتعين أن نضيف أسماء « محمود عبد الكريم » (المولود سنة ١٩١٢) ، و«عبد الفتاح عمرو باشا » ، و« أحمد برادة » ، في لعبة الاسكواش ، والسباح المصري « عبد اللطيف أبو هيف » ؛ الذي اختير سباح القرن للمسافات الطويلة ، وهو قاهر المانش الذي اعتبره الكثيرون أشهر تماسيح النيل قاطبة ، وابن الإسكندرية «محمد نصر»

(المولود سنة ١٩١٨) ، الذي يعد أول مصري ينال لقب « مستر يونيفرس » كبطل للعالم في كمال الأجسام سنة ١٩٥٢ .

قائمة الشرف

وفي استفتاء جريدة « الإيكيب » الفرنسية لاختيار أعظم ١٠٠ رياضي في القرن جاء الاختيار كالتالي :

١ - بيليه . . (كرة قدم)

قاد البرازيل للفوز بكأس العالم في بطولتي ١٩٥٨ و١٩٧٠ ، وسجل طوال تاريخه ١٢٦٣ هدفا في ٩٧ مباراة دولية .

٢ - محمد علي كلاي . . (ملاكمة)

فاز ببطولة العالم لملاكمة الوزن الثقيل ثلاث مرات .

٣ - كارل لويس . . (ألعاب قوى)

حصل على عشر ميداليات أوليمبية منها تسع ذهبيات ، ومنها أربع في دورة واحدة .

٤ - چيسي أوينز . . (ألعاب قوى)

أحرز ٤ ميداليات ذهبية في الألعاب الأوليمبية في برلين ١٩٣٦ ، ووقف وحيدا في وجه المزاعم النازية بتفوق الجنس الآري .

٥ - خوان مانويل فانجيو . . (فورمولا واحد)

(١٩١١ -١٩٩٥) أرجنتيني ، فاز بلقب بطولة العالم « الفورمولا واحد » للسيارات خمس مرات ، وهو رقم قياسي . . وفاز بـ ٢٤ سباقا من بين ٥١ شارك فيها طوال حياته .

٦ - مايكل چوردان . . (سلة)

فاز بلقب دوري المحترفين الأمريكي لكرة السلة ٧ مرات . . وسجل طوال تاريخه ٢٩٢٧٧ نقطة .

٧ - بافو نورمي . . (ألعاب قوى)

فاز هذا البطل الفنلندي بتسع ميداليات ذهبية في ثلاث دورات أوليمبية ، منها ثلاث ميداليات سنة ١٩٢٠ .

٨ - نادية كومانتشي . . (جمباز)

أول لاعبة في تاريخ الألعاب الأوليمبية ، تحصل على ١٠ من ١٠ في حركات الجمباز في دورة مونتريال سنة ١٩٧٦ .

٩ - إيدي ميركس . . (دراجات)

حقق طوال تاريخه أكثر من ٥٢٥ انتصارا ، وفاز خمس مرات بسباق « تور دو فرانس » .

١٠ - رود لافر . . (تنس)

(١٩٣٨ -) اللاعب الوحيد الذي جمع بين ألقاب الجراند سلام مرتين .

١١ - مارك سبيتز . . (سباحة)

(١٩٥٠ -) فاز بسبع ميداليات ذهبية في دورة ميونيخ الأوليمبية في ١٩٧٢ .

١٢ - بيب روث . . (بيسبول)

يعد أعظم لاعب في تاريخ « البيسبول » .

١٣ - بيورن بورج . . (تنس)

فاز بالويمبلدون خمس مرات متتالية ، وفاز ببطولة فرنسا المفتوحة على الملاعب الرملية ٦ مرات .

١٤ - فاوستو كوبي . . (دراجات)

فاز طوال حياته القصيرة بـ١١٨ سباقا للطريق .

١٥ - إدموند هيلاري . . (تسلق الجبال)

أول إنسان ينجح في التسلق إلى أعلى نقطة فوق سطح الأرض هي قمة إيفرست .

١٦ - شوجار راي روبنسون . . (ملاكمة)

(١٩٢٠ -١٩٨٩) فاز ببطولة العالم لوزن المتوسط خمس مرات .

١٧ - بوشكاش . . (كرة قدم)

تألق مع نادي ريال مدريد الإسباني . . كما سجل ٨٣ هدفا مع منتخب بلاده خلال ٨٤ مباراة .

١٨ - إميل زاتوبيك . . (ألعاب قوى)

في دورة الألعاب الأوليمبية بهلسنكي سنة ١٩٥٢ ، حقق أعظم إنجازاته عندما جمع بين ذهبية ١٠٠٠٠م و ٥٠٠٠م والماراثون .

١٩ - ألفريدو دي ستيفانو . . (كرة قدم)

أحد أفراد فريق ريال مدريد الذهبي الذي فاز ببطولة أوروبا خمس مرات .

٢٠ - چوني ويسموللر . . (سباحة)

(١٩٠٣ - ١٩٨٤) من أعظم السباحين في النصف الأول من القرن العشرين ، وفاز بخمس ميداليات ذهبية منها ثلاث في أوليمبياد ١٩٢٤ .

٢١ - أبيبي بيكيلا . . (ألعاب قوى)

أول لاعب يفوز بذهبية الماراثون في دورتين متتاليتين .

٢٢ - بيتر بلاكي . . (شراع)

حقق انتصارات رائعة في سباقات اليخوت .

٢٣ - واين جريتزكي . . (هوكي الجليد)

(١٩٦١ -) من أفضل لاعبى هوكي الجليد في العالم ، وهو صاحب الرقم القياسي في التهديف في دوري الهوكي الأمريكي : ٨٩٤ هدفا و١٩٦٣ تمريرة و١٨٥٧ نقطة . ثمنه وصل إلى ١٥ مليون دولار .

٢٤ - فرانز بكنباور . . (كرة قدم)

قاد ألمانيا للفوز بكأس العالم كلاعب سنة ١٩٧٤ ، وكمدرب سنة ١٩٩٠ ، وفاز بالكرة الذهبية في ١٩٧٢ و ١٩٧٦ .

٢٥ - سونيا هيني . . (تزحلق فني)

(١٩١٢ - ١٩٦٩) فازت بثلاث ميداليات ذهبية في الألعاب الأوليمبية ، في دورات : ١٩٢٨ ، ١٩٣٢ ، ١٩٣٦ .

٢٦ - چاك نيكلاوس . . (جولف)

(١٩٤٠ -) فاز بـ ٢٠ بطولة كبرى للعبة ، وحقق ٧٠ انتصاراً خلال الفترة من ١٩٦٢ حتى ١٩٧٢ .

٢٧ - تومي سميث . . (ألعاب قوى)

فاز بذهبية دورة المكسيك الأوليمبية سنة ١٩٦٨ .

٢٨ - چيم كلارك . . (سيارات)

فاز بـ ٢٥ سباقا للجائزة الكبرى .

٢٩ - جارينشيا . . (كرة قدم)

سجل طوال تاريخه ٢٧٩ هدفا ، وقاد البرازيل للفوز بكأسي العالم ١٩٥٨ و١٩٦٢ .

٣٠ - چيم ثورب . . (ألعاب قوى)

أطلقوا عليه أعظم رياضي في النصف الأول من القرن العشرين .

٣١ - چو لويس . . (ملاكمة)

من أبطال العالم في الوزن الثقيل وظل ١١ سنة و ٢٥٢ يوما بطلا للعالم .

٣٢ - دون فرايزر . . (سباحة)

فازت بذهبية سباق ١٠٠م حرة في ثلاث دورات أوليمبية متتالية .

٣٣ - ميشيل بلاتيني . . (كرة قدم)

قاد فرنسا للفوز بكأس الأمم الأوروبية سنة ١٩٨٤ ، وشارك في ٨٧ مباراة دولية ، وفاز بالكرة الذهبية ثلاث مرات سنوات ١٩٨٣ و ١٩٨٤ و ١٩٨٥ .

٣٤ - جياكومو أجوشيني . . (دراجات بخارية) .

تألق في سباقات ٣٥٠ و ٥٠٠ سى سى .

٣٥ - چان -كلود كيلي . . (تزحلق ألبي)

فاز بميداليات التزحلق الألبي الثلاث في دورة الألعاب الأوليمبية الشتوية سنة ١٩٦٨ .

٣٦ - فرانسيس كيشستر . . (شراع)

بطل أسطوري ، ولد سنة ١٩٠١ ، وتوفي سنة ١٩٧٢ في إنجلترا .

٣٧ - چاك أنكوتيل . . (دراجات)

حقق ٢٠٤ انتصارات ، وفاز بسباق « تور دو فرانس » ٥ مرات .

٣٨ - بيت سامبراس . . (تنس)

أول لاعب في تاريخ التنس يحتل المركز الأول في التصنيف العالمي ست سنوات متتالية .

٣٩ - سيرجي بوبكا . . (ألعاب قوى)

أول رياضي يتجاوز حاجز الأمتار الستة في القفز بالزانة .

٤٠ - رينهولد ميسنر . . (تسلق جبال)

ولد في إيطاليا سنة ١٩٤٤ .

٤١ - يوهان كرويف . . (كرة قدم)

قاد هولندا بأسلوب الكرة الشاملة إلى نهائي كأس العالم ١٩٧٤ ، وفاز بالكرة الذهبية ثلاث مرات .

٤٢ - چون ماكنرو . . (تنس)

فاز ثلاث مرات متتالية ببطولة الولايات المتحدة المفتوحة .

٤٣ -ـ دييجو أرماندو مارادونا . . (كرة قدم)

قاد الأرجنتين للفوز بكأس العالم سنة ١٩٨٦ ، ونهائي المونديال في ١٩٩٠ .

٤٤ - چو ناماث . . (كرة قدم أمريكية)

(١٩٤٣ -) يعد أبرز لاعب لكرة القدم الأمريكية ، حصل على لقب أفضل لاعب في ١٩٦٩ .

٤٥ - إيرتون سينا . . (سيارات)

فاز ثلاث مرات ببطولة العالم ، وحقق ٤١ فوزا في ٦٥ سباقا شارك فيها .

٤٦ - بوب بيمون . . (ألعاب قوى)

فاز بذهبية الوثب الطويل في أوليمبياد المكسيك سنة ١٩٦٨ ، وسجل رقما قياسيا قدره ٩٠ ، ٨٠م وظل هذا الرقم صامدا ٢٣ سنة .

٤٧ - نعيم سليمان أوغلو . . (رفع أثقال)

حطم٤٦ رقما عالميا ، وفاز بثلاث ذهبيات في دورة سول الأوليمبية سنة ١٩٨٨ .

٤٨ - دوكي كانا موكو . . (سباحة)

شارك في أربع دورات أوليمبية ، وفاز بثلاث ميداليات ذهبية .

٤٩ - هرب إيليوت . . (ألعاب قوى)

أسترالي ، سجل رقما قياسيا في سباق ١٥٠٠م (٣,٣٥,٦ دقيقة) وفاز بذهبية روما ١٩٦٠ .

٥٠ - ويلت تشامبرلين . . (سلة)

(١٩٣٦ -١٩٩٩) هداف الدوري الأمريكي سبع مرات ، وأفضل لاعبيه أربع مرات ، سجل طوال حياته ٣١ ألفا و ٤١٩ نقطة في ١٠٤٥ مباراة شارك فيها .

٥١ - أرمين هاري . . (ألعاب قوى)

ألماني ، فاز بذهبية سباق ١٠٠م في دورة روما سنة ١٩٦٠ ، وقطع مسافة ١٠٠م في زمن قدره ١٠ ثوان سنة ١٩٦٠ في زيوريخ .

٥٢ - جاريث إدواردز . . (رجبي)

ولد في ويلز سنة ١٩٤٧ ، يعد من أبرز لاعبي الرجبي في العالم .

٥٣ - چو دي ماجيو . . (بيسبول)

(١٩١٤ -١٩٩٩) لاعب وسط وضارب متميز ، نال جائزة أفضل لاعب في الدوري الأمريكي ثلاث مرات .

٥٤ - ألبرتو خوانتورينا . . (ألعاب قوى)

فاز بذهبيتي سباقي ٤٠٠م و٨٠٠م في دورة ١٩٧٦ الأوليمبية .

٥٥ - بوبي چونز . . (جولف)

(١٩٠٢ -١٩٧١) فاز بجائزة جراند سلام (بطولات أمريكا المفتوحة وبريطانيا المفتوحة والهواة) دفعة واحدة سنة ١٩٣٠ .

٥٦ - ياسوهيرو ياماشيتا . . (جودو)

فاز في ٢٠٣ مباريات متتالية منذ سنة ١٩٧٧ حتى اعتزاله سنة ١٩٨٥ .

٥٧ - ألن بروست . . (سيارات)

سجل رقما قياسيا في سباقات الفورمولا واحد ، عندما فاز بـ ٥١ سباقا .

٥٨ - ألفريدو بيندا . . (دراجات)

فاز بسباق إيطاليا خمس مرات ، وبطولة العالم ثلاث مرات .

٥٩ - فاني بلانكرز -كوين . . (ألعاب قوى)

فازت بأربع ميداليات ذهبية من أصل ٨ سباقات ، شاركت فيها بدورة لندن سنة ١٩٤٨ .

٦٠ - جريج لوجانيس . . (غطس)

(١٩٦٠ -) فاز بأربع ميداليات ذهبية في الألعاب الأوليمبية ، وفاز ببطولة العالم خمس مرات .

٦١ - جاهانجير خان . . (إسكواش)

فاز ببطولة العالم ٦ مرات ، وببطولة بريطانيا المفتوحة عشر مرات ، ولم يهزم على مدى ٥٠٠ مباراة .

٦٢ - جرام هيل . . (سيارات)

فاز ببطولة العالم « الفورمولا واحد » في الفترة من ١٩٦٢ حتى ١٩٦٨ .

٦٣ - كريم عبد الجبار . . (سلة)

نجم دوري السلة الأمريكي ، سجل طوال حياته ٣٨ ألفا و٣٨٧ نقطة .

٦٤ - إريك تابارلي . . (يخوت)

(١٩٣١ -١٩٧٨) من أشهر نجوم مسابقات اليخوت في فرنسا .

٦٥ - چاك چونسون . . (ملاكمة)

فاز في ٧٩ مباراة ، وخسر في ٨ مباريات ، وتعادل في ١٢ .

٦٦ - كيب كينو . . (ألعاب قوى)

فاز بذهبية ١٥٠٠م في دورة ١٩٦٨ الأوليمبية ، و ٣٠٠٠م موانع في دورة ١٩٧٢ .

٦٧ - كولين ميداس . . (رجبى)

ولد في نيوزيلندا سنة ١٩٣٦ ، تألق في الفترة من ٥٧ حتى ١٩٧١ ، وشارك في ١٣٣ مباراة ودية .

٦٨ - ماچيك چونسون . . (سلة)

سجل خلال الفترة من ١٩٧٩ حتى ١٩٩١ (١٧٣٩ نقطة) .

٧٨ - أنطوان جيسنيك . . (جودو)

فاز بذهبية الوزن المفتوح في دورة طوكيو الأوليمبية ١٩٦٤ .

٧٩ - ماريثا كوخ . . (ألعاب قوى)

سجلت ١٦ رقما قياسيا ، وحصدت ميداليات أوليمبية عدة لبلادها (ألمانيا الشرقية سابقا) .

٨٠ - أولجا كوربوت . . (جمباز)

في دورة ١٩٧٢ الأوليمبية فازت بذهبية الحركات المشتركة فرق وعارضة التوازن والحركات الأرضية وفضية المتوازيين .

٨١ - ليف ياشين . . (كرة قدم)

حارس مرمى مدهش ، فاز بالكرة الذهبية سنة ١٩٦٣ ، وقاد الاتحاد السوفيتي السابق للفوز بكأس الأمم الأوروبية سنة ١٩٦٠ .

٨٢ - مارتينا نافراتيلوفا . . (تنس)

حصدت ١٦٧ بطولة طوال تاريخها ، وفازت في ١٤٣٨ مباراة ، خلال الفترة من ١٩٧٣ - ١٩٩٤ .

٨٣ - ستيف ريدجريف (تجديف)

بريطاني (٣٨ سنة) فاز بذهبية الألعاب الأوليمبية في خمس دورات متتالية (١٩٨٤ - ٢٠٠٠) .

٨٤ - كريستيان دوريولا . . . (مبارزة)

فاز ببطولة العالم أربع مرات ، وذهبية الألعاب الأوليمبية مرتين في ١٩٥٢ و١٩٥٦ .

٨٥ - مكاتي نوكاين . . (تزحلق)

فاز بأربع ميداليات ذهبية في الألعاب الأوليمبية الشتوية ..

٨٦ - ويلما رودلف . . (ألعاب قوى)

(١٩٤٠ - ١٩٩٤) أمريكية ، فازت بثلاث ذهبيات في أوليمبياد روما ١٩٦٠ .

٨٧ - إيريك هيدين . . (التزحلق السريع)

(١٩٥٨ -) أمريكي ، فاز بخمس ميداليات ذهبية في دورة الألعاب الأوليمبية الشتوية ١٩٨٠ .

٨٨ - رودلف هاربيج . . (ألعاب قوى)

فاز في ٥٥ سباقا على التوالي خلال الفترة من ١٩٣٨ حتى ١٩٤٠ .

٨٩ - چان أوفي ويلادنر . . (تنس طاولة)

فاز بذهبية برشلونة الأوليمبية ١٩٩٢ وبطولة العالم ١٩٨٩ .

٩٠ - فاسيلي ألكسيف . . (رفع أثقال)

حطم ٨٠ رقما عالميا ، وفاز بـ ٢٢ ميدالية في بطولة العالم للاتحاد السوفيتي السابق ، ولم يهزم طوال الفترة من ١٩٧٠ حتى ١٩٧٨ .

٩١ - ديان شاند . . (هوكي)

سجل أكثر من ٢٠٠٠ هدف خلال ٢٢ سنة مع منتخب بلاده .

٩٢ - ديك فوسبوري . . (ألعاب قوى)

(١٩٤٧ -) أمريكي ، فاز بذهبية الوثب العالي في الألعاب الأوليمبية سنة ١٩٦٨ .

٩٣ - بول ألفستروم . . (الألواح الشراعية)

ولد سنة ١٩٢٨ في الدنمارك ، وتألق خلال الفترة من ١٩٤٨ حتى ١٩٦٠ ، لينال ذهبية أربع دورات أوليمبية متتالية .

٩٤ - ألكسندر كاريلين . . (مصارعة)

مصارع أسطوري احتكر ذهبية وزن ١٣٠ كيلوجرامًا في المصارعة اليونانية -الرومانية لثلاث دورات أوليمبية متتالية ، حتى لقي هزيمة مفاجئة في سيدني ٢٠٠٠ على يدي الأمريكي رولون جاردنر ، وكانت الهزيمة الأولى لكاريلين منذ ١٤ سنة . ولد سنة ١٩٦٧ في روسيا . نال أيضا لقب بطل العالم تسع مرات وبطل أوروبا ١٢ مرة .

٩٥ - السير ستانلي ماتيوز . . (كرة قدم)

شارك في ٧٠١ مباراة على مدى ٣٤ سنة في الدوري الإنجليزي ، وحصل على الكرة الذهبية سنة ١٩٥٦ .

٩٦ - موريس ريتشارد . . (هوكي الجليد)

(١٩٢١ - ٢٠٠٠) مهاجم فريق « مونتريال كنديانز » ، شارك في ٩٧٨ مباراة وسجل ٥٤٤ هدفا .

٩٧ - ميتسو تسوكار . . (جمباز)

فاز بتسع ميداليات أوليمبية خلال الفترة من ١٩٦٨ حتى ١٩٧٦ .

٩٨ - ألبرتو تومبا . . (تزحلق)

(١٩٦٦ -) إيطالي ، من أبرز نجوم التزحلق الألبي ، وحصل على ثلاث ذهبيات في الألعاب الأوليمبية الشتوية .

٩٩ - روجر بانيستر . . (ألعاب قوى)

(١٩٢٩ -) طبيب إنجليزي ، سجل في يوم ٦ مايو ١٩٥٤ زمنا قدره ٣,٥٩,٤ دقيقة في سباق الميل ، وأصبح أول عداء يسجل أقل من أربع دقائق ، وأطلقوا عليه « ميل القرن » .

١٠٠ - كاتارينا ڤيت . . (تزحلق فني)

(١٩٦٥ -) ألمانية ، فازت مرتين بذهبية الألعاب الأوليمبية الشتوية (١٩٨٤ و١٩٨٨) .

* * *

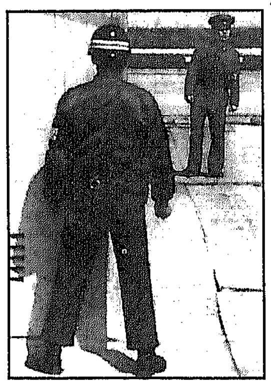


المستوطنون اليهود فى الأراضى الفلسطينية المحتلة فى مطلع الخمسينات

20

لعبة الأمم

إنها لعبة مثيرة حقا . . تسقط فيها دول وتصعد أخرى . . تنشأ دول جديدة ، وتختفي دول أو إمبراطوريات سابقة ، أسماء تتردد لأول مرة ، وأخرى تخرج من كتب التاريخ ، وثالثة تفرض فرضا بدعم من تلك القوة أو الدولة . المهم أن خريطة العالم كموج البحر ، تغيرت أكثر من مرة طوال القرن العشرين ، وتحولت من شكل إلى آخر ، تارة بسبب الحرب العالمية الأولى ، وتارة أخرى نتيجة المفاوضات في الكواليس وداخل الغرف المغلقة . ومن دول دخلت القرن العشرين منقسمة أو تعرضت للتقسيم، خلال أحداث القرن مثل ألمانيا بشطريها



توتر دائم على حدود التماس بين شطري كوريا

الشرقي والغربي وكوريا بشطريها الشمالي والجنوبي ، إلى دول توحدت مثل ألمانيا في ١٩٩١ واليمن في ١٩٩٤ . ومن دول لم تكن موجودة أصلا على الخريطة ظهرت أو توحدت مثل إسرائيل المزروعة زرعاً في قلب الوطن العربي منذ مايو ١٩٤٨ ، إلى دول خرجت من عباءة قوى تفككت أو إمبراطوريات انهارت مثل البوسنة وليتوانيا ولاتفيا وإستونيا .

إن الدول التي ظهرت أو اختفت أو حتى ابتلعتها دول أخرى ، هي حكاية من أغرب حكايات القرن العشرين وأكثرها إثارة وتشويقا .

البوسنة والهرسك على سبيل المثال ، ضمتها النمسا إليها في أكتوبر ١٩٠٨ ، بينما أعلنت بلغاريا - بتشجيع من النمسا - نفسها مملكة مستقلة عن الباب العالي ، ولكن صربيا لم تقف مكتوفة الأيدي إزاء ضم البوسنة والهرسك إلى الإمبراطورية النمساوية ، وقاتلت لكي تكون البوسنة من نصيبها ، وهو ما حدث تحت حكم جوزيف بروز تيتو ، قبل أن تعلن البوسنة استقلالها في ٣ مارس ١٩٩٢ ، وتعاني ويلات وفظائع الجرائم الصربية مرة أخرى ، ولحقت بها بعد ذلك بسنوات قلائل كوسوفا ذات السكان من أقلية ألبانية .

وحين نشبت الحرب العالمية الأولى في ١٩١٤ كانت لوزارة خارجية كل قوة أوروبية أطماعها في ضم أو ابتلاع دولة أو منطقة معينة ، فكانت فرنسا ترنو بأبصارها إلى إعادة الألزاس واللورين إلى أحضانها ، في حين رغبت ألمانيا في امتلاك مستعمرات أكثر ، والسيطرة على الشرق الأدنى . ورغبت النمسا في إذلال الصرب وانتزاع ثغر سالونيك من اليونان ، وتطلعت روسيا إلى امتلاك مضيق البسفور والدردنيل ، ونصبت شباكها لامتلاك البوسنة والهرسك ، وطمعت إيطاليا في ضم تريستا والترنتينو اليها ، ورومانيا في تملك ترانسلفانيا بعد سلبها إياها من هنغاريا ، أو تملك بسارابيا بعد انتزاعها من روسيا .

ولعل أعجب تذكار قائم لنجاح الدعاية زمن الحرب ، هو ظهور جمهورية تشيكوسلوفاكيا من بين حطام الإمبراطورية النمساوية . فإذا كانت معظم الدول نشأت نتيجة للقتال والمعارك ، أو التجمع والاستقرار ، أو نمت عن طريق الاستعمار ، فإن

تشيكوسلوفاكيا تعد بحق وليدة الدعاية . فقد تطوع الإنجليز والفرنسيون لتقديم دعم إعلامي لقضية استقلال التشيك والسلوفاك عن إمبراطورية النمسا ، وهي القضية التي قادها مازاريك وبنيش ثم تولى الرئيس الأمريكي « وودرو ولسون » مهمة رعاية تلك القضية . وحين ألّف ٤٥ ألف تشيكي من أسرى الحرب في روسيا من أنفسهم جيشا ، زحف سيرا على الأقدام عبر سيبيريا ، ثم نقلوا منها عن طريق المحيط الهادي والولايات المتحدة إلى بلادهم الأصلية . ليس عجيبا إذاً أن تدعى محطة براغ الرئيسة لا باسم قائد تشيكي بل باسم الرئيس الأمريكى « ولسون » !

لكن تشيكوسلوفاكيا في يناير ١٩٩٣ انقسمت بطريقة سلمية إلى جمهوريتي التشيك والسلوفاك . وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ١٩١٨ ، كانت قد انهارت الحكومات القديمة لروسيا وألمانيا وتفككت إمبراطوريتا النمسا والمجر ، بينما أقام البولنديون والتشيك والرومانيون والصرب حكومات وطنية جديدة في بلادهم ، وهكذا تأسست دولة جديدة من بولندا ، وأنشئت تشيكوسلوفاكيا ، ورومانيا ، واليونان ، وأعلنت هنغاريا - أو المجر - استقلالها ، وأضحت كرواتيا جزءا من مملكة يوجوسلافيا الجديدة .

خريطة جديدة تماما لأوروبا وربما للعالم خرجت من رحم الحرب العظمى ، كما أطلق عليها آنذاك . وفي ٦ ديسمبر ١٩٢١ ، وقعت الحكومة البريطانية وممثلو « الديل أيرين » الاتفاقية البريطانية الأيرلندية ، التي تقضي بمنح الاستقلال لجنوبي أيرلندا تحت رعاية التاج البريطاني . ووسط الإعصار النازي العاتي ، الذي ثار سنة ١٩٣٣ ، تحطمت جمهورية فيمار ، التي كانت قد عانت الأمرين من هبوب العواصف عليها أمدا طويلا .

ولم يحزن غير القليلين من الألمان على القضاء على النظام ، الذي أخفق في جلب الرخاء إلى بلادهم وإثارة الأمل والرجاء فى نفوسهم ، وهكذا جاء دور الحكم النازي لكي يثير القلاقل في أوروبا والعالم أجمع بسبب سياساته وأطماعه . وخلال عقد الثلاثينيات من القرن الماضي ، غزت اليابان مقاطعة منشوريا ، واحتلت إيطاليا بلاد الحبشة ، وهما مثلان صارخان لما كان يجري في تلك الفترة التوسعية من القرن العشرين .

إن غزو اليابان لمقاطعة منشوريا الصينية فى ١٨ سبتمبر ١٩٣١ ، وإعلان منشوريا دولة مستقلة باسم مملكة منشوكو في ١٥ سبتمبر ١٩٣٢ ، جلس على عرشها ملك دمية هو« بو- يي تونج » إمبراطور الصين السابق ، كان انتهاكا فاضحا لمبادئ القانون الدولي وحرمة المعاهدات ، ولكنه لم يكن سوى مقدمة لما حدث لاحقا من مآس وجرائم دول ضد دول أخرى . أما إيطاليا فقد غزت بلاد الحبشة بسهولة في أكتوبر ١٩٣٥ ، ولم يحل شهر مارس سنة ١٩٣٦ حتى كان الإيطاليون قد قضوا على كل مقاومة حربية جديدة من جانب الحبشة .

وسرعان ما ضم الألمان مقاطعة « السار » ، بناء على استفتاء أجري في يناير ١٩٣٥ ، لكن هذا فتح شهية ألمانيا الهتلرية نحو المزيد من التوسع ، فاحتلت أراضي الراين ، ناقضة بذلك معاهدة لوكارنو ، التي كانت قد وعدت قبل ذلك باحترام أحكامها ، ثم أدمجت النمسا في الرايخ الألماني بعد عمل عسكري في ١٢ مارس ١٩٣٨ . وقبل أن يفيق الآخرون ابتلع « هتلر » تشيكوسلوفاكيا ، بينما احتل الدوتشى الإيطالى « بنيتو موسولينى » ألبانيا فى ٧ إبريل ١٩٣٩ ، بينما استولى النازيون على بولندا في سبتمبر من السنة نفسها ، وأخذت روسيا تطالب فنلندا بالتنازل لها عن بعض الجزر . وخلال الحرب العالمية الثانية احتلت ألمانيا النازية الدنمارك ولكسمبورج وهولندا وبلجيكا ، كما سقطت العاصمة الفرنسية باريس في أيدي الألمان .

ولأن النار اشتعلت في ثوب العالم ، فقد أدت الحرب العالمية الثانية إلى تغييرات متلاحقة في موازين قوى الاحتلال ، وما بين كر وفر كانت بريطانيا وألمانيا وإيطاليا واليابان تتنافس على المستعمرات ، مثل : كينيا والحبشة والصومال في إفريقيا ، واليمن في آسيا . أما في أوروبا فقد احتل الألمان يوجوسلافيا واليونان ، وضموا إلى جانبهما رومانيا وبلغاريا ، وبدأ « هتلر » يخطط لغزو روسيا ، إلى أن سقطت الجيوش الألمانية في معركة ستالينجراد الدموية الفاصلة التي انتهت بتسليم الألمان في ٣١ يناير ١٩٤٣ . ولا شك أن معركة ستالينجراد ، ثم العلمين -التي بدأت في ٢٣ أكتوبر ١٩٤٢- كانتا لطمة على وجه ألمانيا النازية .

وحين بدأت ألمانيا مرحلة النهاية : أخذت القوات الروسية في اجتياح المناطق الواقعة تحت نفوذ النازيين ، وسرعان ما بدأت خريطة العالم تأخذ شكلا جديدا مرة أخرى ، بينما دفعت ألمانيا الثمن فانقسمت ما بين ١٩٤٨ و ١٩٤٩ إلى شطرين ، شرقي وغربي ، لم يتوحدا إلا في عهد المستشار الألماني السابق « هلموت كول » في أكتوبر ١٩٩١ .

وأرسلت روسيا على أثر إعلانها الحرب على اليابان قواتها إلى كوريا ، وانقسمت تلك البلاد إلى منطقتي احتلال : احتلت الولايات المتحدة الجزء الجنوبي وهو غني بأراضيه الزراعية ، واحتلت روسيا الجزء الشمالي وهو الشطر الصناعي من كوريا . وفي ٢٥ يونيو ١٩٥٠ غزت قوات من كوريا الشمالية -يزيد قوامها عن ٦٠ ألف جندي- الشطر الجنوبي في محاولة لضمه ، غير أن الولايات المتحدة نجحت في تدبير قرار يسمح بتدخل الأمم المتحدة وأرسلت قواتها ، لتشتعل حرب استمرت ثلاث سنوات ، انتهت باتفاق لوقف القتال وقع في ٢٧ يوليو ١٩٥٣ ، وتكريس الانفصال بين الشطرين الشمالي والجنوبي .

لكن شطري كوريا أجريا محادثات طوال العقد الأخير من القرن العشرين في محاولة لتوحيد شبه الجزيرة الكورية ، التي احتلتها اليابان في مطلع القرن الماضي ، ثم قام الحلفاء في مؤتمر بوتسدام (يوليو ١٩٤٥) بتقسيمها إلى دولتين : الشمالية والجنوبية ، ويفصل بين الدولتين خط عرض ٣٨ . ولم يلتق زعيما الدولتين إلا في ١٣ يونيو ٢٠٠٠ حين اجتمع الرئيسان الشمالي « كيم جونج إيل » (٥٨ سنة) والجنوبي «كيم داي جونج » (٧٤ سنة) في قمة بيونج يانج التاريخية .

وبالنسبة لأوروبا ، فما من شك في أن هذه القارة لم تعد هي أوروبا التى كانت تتنازعها أكثر من إمبراطورية في مطلع القرن العشرين ، مرورا بحربين عالميتين مدمرتين، فقد تطور الأمر بعد تشكيل جماعة الفحم والصلب الأوروبية التي ضمت ست دول هي : ألمانيا ، فرنسا ، إيطاليا ، بلجيكا ، هولندا ، ولكسمبورج (١٩٥١) ، والتوقيع على اتفاقية روما المبرمة في ١٩٥٧ ، التي أنشأت الجماعة الاقتصادية الأوروبية ، ودشنت مشروع الوحدة الأوروبية . وسرعان ما زاد عدد الأعضاء إلى ٩

بانضمام كل من الدنمارك وبريطانيا وأيرلندا (١٩٧٣) ، ثم أصبح العدد ١٠ بانضمام اليونان (١٩٨١) ، ثم ارتفع الرقم إلى١٢ بانضمام إسبانيا والبرتغال (١٩٨٦) ، واستقر حتى نهاية القرن عند الرقم ١٥ بانضمام كل من النمسا والسويد وفنلندا (١٩٩٥) .

في غضون ذلك ، تقاربت الدول الأعضاء في سياساتها الزراعية (١٩٦٢) والجمركية (١٩٦٨) و آلياتها النقدية (١٩٧٩) ، قبل أن تغير اسمها إلى الاتحاد الأوروبي ، مضيفة سياسة خارجية وأمنية مشتركة إلى نشاطها ، ومتخذة أولى خطواتها نحو إصدار عملة موحدة (١٩٩٢) ، لتصبح سوقا موحدة للبضائع والخدمات (١٩٩٣) ، وتصدر عملة « اليورو » على أن يستمر تداول العملات الأخرى للدول الأعضاء حتى سنة ٢٠٠٢ ، مع إعطائها سعر صرف ثابتا مع اليورو (١٩٩٩) . وهكذا تطور المشروع الأوروبي ليأخذ خطوات فعلية لتحقيق حلم الوحدة ، الذي راود قادة أوروبا منذ عقود طويلة .

وكان طرح العملة الأوروبية الموحدة «اليورو» في أول يناير ١٩٩٩ أهم حدث في تاريخ أوروبا وربما العالم منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، فقد جاء الحدث بعد أكثر من ٤٠ سنة على إنشاء السوق الأوروبية المشتركة ، وبعد ثماني سنوات على القرار الذي اتخذته القمة الأوروبية في ماستريخت في ١٩٩٢ . وليس من المستبعد أن يشهد القرن الحادي والعشرون وحدة أوروبا الاقتصادية ، حيث بدأت خلال عقد التسعينيات محادثات مع بعض الدول بشأن إمكان انضمامها إلى الاتحاد الأوروبي ، ونعني بذلك المحادثات مع بولندا والمجر وجمهورية التشيك وسلوفينيا وإستونيا وقبرص (١٩٩٨) ، ومع بلغاريا ورومانيا والسلوفاك ولاتفيا وليتوانيا (١٩٩٩) . كما أصبحت تركيا مرشحة للعضوية في ١٩٩٩ ، لكن دون أن يتبع ذلك إجراء محادثات في هذا الشأن مع أنقرة .

وإذا كانت أيرلندا قد تم تقسيمها في ١٩٢١ إلى شطرين ، بقي الجزء الرئيس منهما تحت إمرة المملكة المتحدة ، بينما أطلق على الشطر الجنوبي اسم جمهورية أيرلندا الحرة، فإن الحرب الأهلية اشتعلت في الجنوب (١٩٢٢ ـ ١٩٢٣) ، حيث رفض

العديد فكرة التقسيم . أما تشيكوسلوفاكيا فقد انفصلت إلى جمهوريتي التشيك والسلوفاك في ١٩٩٣ ، مثلما استقلت سلوفينيا عن يوجوسلافيا السابقة (١٩٩٠) ، وتبعتها البوسنة (١٩٩٢) ، لتستعر حرب التطهير العرقي التي شنتها القوات الصربية بقيادة السفاح « رادوفان كاراجيتش » ؛ بناء على توجيهات دكتاتور الصرب « سلوبودان ميلوسيفيتش » ، الذي عاود الكرة بالاعتداء على كوسوفا في ١٩٩٨ و ١٩٩٩ .

ومنذ انهيار الاتحاد السوفيتي في ١٩٩١ ، انفرطت حبات العقد على شكل جمهوريات تعيش صراعات عرقية ودينية تأخذ أشكالا شتى ، تطرح بدورها مطالب متعددة تتراوح بين الاستقلال وحق تقرير المصير . ففي جورجيا تجمد الصراع في ١٩٩٤ بين الحكومة والأبخاز إلى حين ، إثر اتفاق على وقف إطلاق النار . وفي الشيشان نال المقاتلون حقوقاً وصلاحيات سياسية متعددة لجمهوريتهم ، في مواجهة القوات الروسية في منتصف التسعينيات . لكن في ١٩٩٩ عادت القوات الروسية لتشن حربا شرسة لاحتواء الشيشان وتجريدها من صلاحياتها السياسية ، بدعوى مناصرة الشيشان للانفصاليين في داغستان الراغبين في الاستقلال عن روسيا .

ومن المؤكد أن صيف ١٩٧٤ كان شديد السخونة بالنسبة لجزيرة قبرص ، التي شهدت في ذلك الصيف تصعيد النزاع عليها من جانب تركيا واليونان . وأدى الانقلاب القبرصي - اليوناني اليميني على الأسقف « مكاريوس » إلى دخول القوات التركية تلك الجزيرة في ٢٠ يوليو ١٩٧٤ ، الأمر الذي انتهى إلى تكريس تقسيم قبرص إلى شطرين : الشمالي وتسيطر عليه الأقلية التركية بزعامة « رءوف دنكطاش » ولاتعترف بشرعيته سوى تركيا ، والثاني تقطنه الأغلبية المنحدرة من أصول يونانية .

وفي ديسمبر ١٩٩٩ ، ودعت الولايات المتحدة قناة بنما - التي غزتها عسكريا في ديسمبر ١٩٨٩ - الوداع الأخير بعد وجود دام قرنا ، وذلك تنفيذا لاتفاق أبرمه الرئيس الأمريكي « جيمي كارتر » في ١٩٧٧ يقضي بإنهاء السيطرة الأمريكية على المجرى المائي الرئيسي في الموعد المذكور سابقا . وفي حفل التسليم الرسمي

اختصر «كارتر» الموقف بجملة موحية وقصيرة ، حين قال لممثلي بنما أمام مجرى القناة الملاحية : « إنها لكم » .

العملاق الأصفر

أما في القارة الآسيوية ، فها هي الصين تستعيد في الأول من يوليو ١٩٩٧ جزيرة هونج كونج ، بعد ١٥٠ سنة من الاستعمار البريطاني ، كما أنها استعادت جزيرة مكاو ، والبقية تأتي بالنسبة للعملاق الصيني ، الذي يتطلع إلى استعادة تايوان وسط استعراض عضلات دوري بالأسلحة والتدريبات العسكرية .

وقد تسلمت الصين رسميا هونج كونج وسط شعور بريطاني بالأسى لغيابهم عن مستعمرة تتسم بالثراء ، وميناء يعد أكثر الموانئ ازدحاما في العالم كله . وتعهدت الصين في المقابل بالحفاظ على وضع مستقل لهونج كونج طوال السنوات الخمسين المقبلة. وهكذا يستعيد العملاق الأصفر المزيد من الأراضي والسيادة بهدوء ودون صخب ، ليؤكد بالفعل أن أكبر دولة في العالم من حيث تعداد السكان هي إحدى القوى المؤثرة فوق رقعة الشطرنج الدولية حاليا .

وفي ظل وجود قدرات تسليحية عالية ، وأسلحة نووية لدى بعض الدول الآسيوية ، تفجرت عدة بؤر للخلاف بدءاً من النزاع بين الهند وباكستان بعد حرب الانفصال في ١٩٤٧ ، والحرب حول جامو وكشمير ، مروراً بالصراع في شبه الجزيرة الكورية بين شطري كوريا ، خاصة أن كوريا الشمالية أطلقت صاروخا بعيد المدى في ١٩٩٨ ، وهو ماأثار مخاوف كوريا الجنوبية . والأزمة الكورية مازالت نقطة ملتهبة عند الطرف الشرقي لقارة آسيا ، فالصراع بين شطري كوريا لم يحسم سلميا باتجاه إعادة توحيد شبه الجزيرة الكورية ، كما أن تفاعلات هذه الأزمة بلغت الذروة في النصف الثاني من سنة ١٩٩٤ ، إثر بروز الأزمة النووية والمزاعم الغربية عن وجود نشاطات نووية شمالية لأغراض عسكرية . لكن كوريا الشمالية تعهدت في ٢١ يونيو ٢٠٠٠ بالامتناع عن إجراء اختبارات للصواريخ طويلة المدى ، بعد أن رفعت الولايات المتحدة بعض العقوبات المفروضة عليها .

ويدور نزاع حول جزر سبارتلي ؛ حيث أغرقت الفلبين في يوليو ١٩٩٩ سفينة صيد صينية . وجزر سبارتلي متنازع عليها بين الصين وإندونيسيا وماليزيا والفلبين وفيتنام . أما إندونيسيا فقد شهدت أزمات متتالية خلال ١٩٩٨ و١٩٩٩ ، انتهت ببدء مرحلة تقسيم هذا البلد الإسلامي الكبير ، فنال إقليم تيمور الشرقية استقلاله بناء على استفتاء دعمته الأمم المتحدة ، ونفذته قوات متعددة الجنسيات بقيادة أستراليا ، وفي نهاية ١٩٩٩ جاء الدور على جزر البهار « أتشيه » ، التي حاولت بدورها الانفصال عن إندونيسيا أسوة بما حدث لتيمور الشرقية ، بينما لقي ١١٦ شخصا على الأقل مصرعهم في اشتباكات طائفية بين المسلمين والمسيحيين في جزر مالوكو الإندونيسية في ١٩ يونيو ٢٠٠٠ .

وعلى أنقاض الدولة العثمانية ، تأسست الجمهورية التركية الحديثة في ١٩٢٣ وسط تأييد غربي واسع . وفي حين غزت اليابان الهند في ١٩٤٤ ، وتم تقسيم كوريا إلى شطرين في ١٩٤٨ ، ورحل القوميون الصينيون إلى تايوان ، وغزت كوريا الشمالية الشطر الجنوبي من كوريا في ١٩٥٠ قبل توقيع هدنة في ١٩٥٣ - نالت كل من لاوس وكمبوديا استقلالها في ١٩٥٤ ، لكن فيتنام تعرضت للتقسيم في السنة نفسها ، وقطعت آخر صلة لإندونيسيا بالتاج الهولندي في ١٩٥٦ ، وأقيمت دولة الاتحاد الماليزي في ١٩٦٣ وتم توحيد فيتنام في ١٩٧٦ .

ذاقت سنغافورة من كأس الحرب العالمية الثانية والاحتلال الياباني ، ثم مرت بعملية تدريجية من الحكم الذاتي بلغت ذروتها سنة ١٩٥٩ ، عندما تولى حزب العمل الشعبي السلطة . وفي تلك المرحلة الحاسمة كان دور المركز التجاري التقليدي لسنغافورة يعاني التدهور ، فرأت حكومتها أن الاستقلال الكامل والنمو الاقتصادي ممكنان فقط عبر إقامة اتحاد سياسي مع شبه جزيرة مالاياه ، وانضمت سنغافورة إلى ماليزيا لتشكلا إحدى المستعمرات البريطانية السابقة في سبتمبر ١٩٦٣ ، غير أن عضويتها انتهت بصورة مفاجئة في أغسطس ١٩٦٥ ؛ بسبب التوترات العنصرية المتزايدة الناتجة عن محاولة حزب العمل الشعبي إرغام حزب مالا الحاكم في شبه جزيرة ماليزيا على المشاركة معه في السلطة السياسية . وجاء الاستقلال صدمة كبيرة

بالنسبة إلى سنغافورة التي لم تكن مستعدة لوجود مستقل ، غير أنها أصبحت الآن من أكثر اقتصادات العالم تقدمًا .

وإذا كانت الولايات المتحدة قد سقطت في المستنقع الفيتنامي حتى خرجت منه بمآس عديدة وذكريات مريرة في منتصف السبعينيات ، فإن السوفيت وقعوا في كمين غزوٍ أفغانستان في ١٩٧٩ ولعشر سنوات تالية ، بينما أدى هذا النزف في الجسد السوفيتي -ضمن أسباب أخرى يطول شرحها- إلى تفكك وانهيار الاتحاد السوفيتي في ٢٥ ديسمبر ١٩٩١ ، وشهدت تلك السنة إعلان ثماني جمهوريات سوفيتية سابقة استقلالها وتبعتها جمهوريات أخرى لاحقًا . ويدور صراع مرير بين أذربيجان وأرمينيا على منطقة ناجورنو- قره باخ التي تبلغ مساحتها ١٧٠٠ ميل وتحيط بها الأراضي الآذرية من كل جانب ، ويسكنها نحو ٢٠٠ ألف شخص نحو ٩٠ في المائة منهم من الأرمن . كانت ناجورنو-قره باخ قد أعلنت استقلالها في يناير ١٩٩٢ مما أشعل التوتر بين جمهوريتي أذربيجان وأرمينيا منذ ذلك الوقت حتى نهاية القرن .

الأكراد كانوا من أشهر ضحايا لعبة الأمم خلال القرن العشرين ، فهم موزعون ومنتشرون في كل من العراق وإيرن وتركيا وسوريا . وخلال عقد العشرينيات تصاعد المد القومي لدى الأكراد في تركيا ، في مواجهة « مصطفى كمال أتاتورك » وقراراته ، التي حظرت التحدث باللغة الكردية وقمعت سلسلة من الانتفاضات الشعبية . وفي سنة ١٩٧٠ ، وعقب عقد من الكفاح المسلح للأكراد بحثا عن الحكم الذاتي ، تعهد العراق بمنح تمثيل سياسي للأكراد مقابل وقف إطلاق النار . . لكن هذا التعهد لم يجد طريقه إلى حيز الوجود . وفي ١٩٧٥ ، ساعد شاه إيران المقاتلين الأكراد - بتأييد من « هنري كيسنجر » ووكالة الاستخبارات الأمريكية - بهدف إضعاف الرئيس العراقي « صدام حسين » ، غير أن توقيع البلدين على اتفاقية الجزائر سنة ١٩٧٥ لتسوية الخلاف الحدودي بينهما ، أدى إلى وقف الدعم الإيراني للأكراد .

وخلال عقد الثمانينيات ، انتهج « صدام » سياسة « الأرض المحروقة » ضد الأكراد ، وأزال نحو خمسة آلاف قرية كردية ، قبل أن تنفذ قواته هجوما بالأسلحة الكيماوية على قرية حلبجة ، مما أدى إلى مقتل خمسة آلاف كردي في مذبحة بشعة ،

في حين فر مئات الألوف منهم إلى تركيا وإيران طلبا للنجاة . وفي تركيا ، خاض الأكراد – بقيادة « عبد الله أوجلان » زعيم حزب العمال الكردستاني المحظور نشاطه – معارك ضارية ضد الحكومات المتعاقبة ، إلى أن سقط « أوجلان » أسيرا في قبضة السلطات التركية .

وعلى الرغم من أن التاريخ يشير إلى أن الأمازيغ جزء من العرب ، فإن دعوات انفصالهم بدأت تتنامى في الجزائر ، بتشجيع من فرنسا وبعض دول الغرب . ويعود تاريخ المطالبة بالاعتراف باللغة والهوية الأمازيغيتين إلى سنة ١٩٧٦ ، عندما تمت مناقشة مشروع الميثاق الوطني ، الذي أقر الإسلام كدين للدولة والعربية كلغة قومية للجزائر ، وهو ما أثار حفيظة « البربر » ، خاصة في منطقة القبائل الكبرى « تيزي وزو » ، الذين رأوا فيه إنكاراً لجزء من الهوية الجزائرية وإقصاء للغة يتكلمها خمسة ملايين شخص . وقد بدأت ثورة البربر في سنة ١٩٨٠ في مدينة تيزي وزو ، وعرفت باسم « الربيع البربري » ، ثم وقعت حوادث عنف في سنتي ١٩٨٤-١٩٨٥ ، لتنشأ أحزاب بربرية ، منها حزب التجمع من أجل الثقافة والديمقراطية ، إلى جانب الجبهة الاشتراكية بزعامة « حسين آيت أحمد » ، كما تأسست جمعيات للدفاع عن اللغة البربرية . ومع المطالبة بالهوية الأمازيغية في الجزائر ، تم الاعتراف رسميا بالبعد البربري في الهوية الجزائرية سنة ١٩٩٤ ، وإدخال اللغة الأمازيغية في الإعلام والمدارس .

وفيما يتعلق بالقارة الإفريقية ، فقد دخلت القرن العشرين ، وهي ترزح تحت نير الاستعمار ، ولم يبق مستقلا في إفريقيا في مطلع القرن سوى الحبشة وليبيريا . . ومع مطلع الستينيات هبت رياح التحرر الوطني ، مما أسفر عن إسراع بريطانيا بتصفية معظم إمبراطورياتها في إفريقيا ، كما فشل الاستعمار الفرنسي في الاحتفاظ بمستعمراته في إفريقيا بعد الحرب العالمية الثانية . وقبل سنة ١٩٦٠ أصبحت ١٢ مستعمرة فرنسية دولا مستقلة .

وبحلول ١٩٦٨ كانت ٥٠ دولة إفريقية قد انضمت إلى الأمم المتحدة ، بينما أسهمت « ثورة القرنفل » في البرتغال في إبريل ١٩٧٥ في إنهاء الإمبراطورية البرتغالية ، ومنح الاستقلال لكل من أنجولا وموزمبيق وغينيا البرتغالية خلال تلك السنة . وفي سنة ١٩٦٤ انضمت جزيرة زنجبار إلى تنجانيقا ، بعد ثلاثة أشهر من إسقاط القوميين الشبان من الأفارقة حكم السلطان العربي في الجزيرة في ثورة دموية راح ضحيتها آلاف العرب ، وقعت في ١٢ يناير من تلك السنة . وتمكن الرئيس «چوليوس نيريري » خلال العقدين التاليين من تحقيق الاستقرار في بلاده . غير أن زنجبار التي ينتمي أغلب سكانها المسلمين إلى خليط من العرب والأفارقة بدأت تطالب أخيرا بالاستقلال .

لم تحقق دول القارة السوداء أي حالة من الاستقرار والتقدم بعد الاستقلال ، بل شهدت عديداً من الحروب والمنازعات المسلحة ، وكانت حروب القارة الإفريقية أكثر الحروب شراسة ودمارا . ومنذ عقد الستينيات تعرضت إفريقيا لأكثر من مائة انقلاب و٢٥ نزاعا مسلحا .

وبعد عقود طويلة من الإهمال والاستقطاب ، كان من المنتظر بعد الحرب الباردة أن تلتقط إفريقيا أنفاسها ، وتمضي قدما فى عمليات الإصلاح الاقتصادي والسياسي . ولكن على الرغم مما شهدته إفريقيا من تسوية لبعض القضايا الساخنة -كان أبرزها إنهاء التمييز العنصري في جنوب إفريقيا ، واستقلال زيمبابوي سنة ١٩٨٠ ، وناميبيا في مارس ١٩٩٠ ، وإنهاء الحرب الأهلية في موزمبيق- فقد شهدت القارة عديداً من الأزمات ، كان من أهمها الحرب الأهلية في الصومال منذ سقوط نظام الرئيس « محمد سياد بري » في ٢٦ يناير ١٩٩١ ؛ مما أدى إلى انهيار الدولة و غياب الحكومة المركزية ، وإعلان « جمهورية أرض الصومال » من جانب واحد في ١٩٩١ ، ويرأسها « محمد إبراهيم عقال » .

غير أن أهل الحل وهم شيوخ القبائل ، تغلبوا على مصالحهم القبلية والشخصية ووضعوا قادة الميليشيات المسلحة - الذين أدت خلافاتهم إلى فشل تنفيذ ١٢ مبادرة

من قبل - في موقف محرج ، ليتم في مؤتمر المصالحة الصومالية - الذي استضافته مدينة عرتا الجيبوتية في مايو ٢٠٠٠ واستمر حتى أغسطس - انتخاب « عبد القاسم حسن صلاد » رئيسا للصومال ، واختيار برلمان انتقالي برئاسة « عبد الله إسحق » ، وحكومة برئاسة « علي خليفة ديليد » ، مما أعطى بصيصًا من الأمل لهذا البلد العربي الإفريقي بعد نحو عشر سنوات من التقاتل وانهيار مؤسسات الدولة . يضاف إلى سجل الأزمات الإفريقية كل من التمرد العسكري في الكونغو برازافيل، وانقلاب سيراليون، ومن قبلهما حرب بيافرا الانفصالية في نيجيريا خلال الفترة بين ١٩٦٧ و١٩٧٠ .

وعاشت أمريكا اللاتينية النصف الأول من القرن العشرين في حالة عزلة دولية . ومنذ مطلع الخمسينيات بدأت القارة تخرج من عزلتها ، وقادت الثورة الكوبية حركات التحرر الوطني ، التي شهدتها دول القارة من الانظمة الإقطاعية وشملت : بوليفيا وفنزويلا وكولومبيا وتشيلي وجواتيمالا . كما عانت عدة دول بذور الانفصال والثورة مثل : قوات متمردي الكونترا في نيكاراجوا ، وقوات زاباتا الانفصالية في المكسيك وحركة « الدرب المضيء » في بيرو .

ومنذ السبعينيات تغيرت الصورة كثيرا في أمريكا اللاتينية ، وتعرض عديد من دولها للانقلابات العسكرية والأحكام الدكتاتورية ، سواء في تشيلي أو بوليفيا أو الأرجنتين أو الإكوادور ، وأصبحت دول القارة موزعة ما بين ديمقراطيات غربية أو رموز عسكرية . ولا ينسى أحد كيف حاولت الأرجنتين استعادة جزر فوكلاند في ١٩٨٢ ، فأرسلت بريطانيا قوات إلى الجزر لتأكيد سيطرتها عليها .

وفي ١٩٩٣ صوتت بورتوريكو للبقاء ككومنولث تابع للولايات المتحدة . وفي أمريكا الشمالية أيضا أسفر استفتاء أجري في ١٩٩٢ عن رفض الكنديين منح حكم ذاتي محدود لمقاطعة كويبك الناطقة باللغة الفرنسية ، على الرغم من أن حلم الانفصال ظل قائما لدى أهالي كويبك .

يذكر أن الرئيس الفرنسي « شارل ديجول » كان قد زار كويبك في ١٩٦٧ ، وحثَّ على حل قضية انفصال المقاطعة ، وهو ما نشطت من أجل تحقيقه الجهود خلال عقد الثمانينيات على وجه الخصوص .

استخدمت برbادوس التى كانت مستعمرة بريطانية حتى ١٩٦٦ كقاعدة للغزو الأمريكي ضد جرينادا في ١٩٨٣ ، وهو الغزو الذي استهدف التصدي لمحاولة انقلاب قادها اليساريون والسود بزعامة « موريس بيشوب » . تدخل أمريكي آخر وقع حين قامت قوات أمريكية بالتسلل إلى أراضي بنما ، واعتقال رئيسها « مانويل أنطونيو نورييجا » - رجلها السابق الذي خرج عن النص في ١٩٨٩ ، بتهمة تهريب المخدرات- بينما كانت القوات الأمريكية قد غزت من قبل جمهورية الدومينيكان في ١٩٦٥ ثم هاييتي في ١٩٩٤ لإعادة « جان برتران أريستيد » إلى السلطة . وسبق للولايات المتحدة أن غزت هاييتي سنة ١٩١٥ وبقيت فيها حتى سنة ١٩٣٤ ، حيث أنشأت القوة المشتركة للشرطة والجيش في الجزيرة . ولسنوات طويلة ، ساندت واشنطن الطاغية « فرانسوا (بابا دوك) دوفالييه » بوصفه معارضا للشيوعية .

الوعد المشئوم

ومنذ مطلع القرن العشرين وبالتحديد منذ وعد « بلفور » المشئوم ، الذي أصدره «آرثر چيمس بلفور » (١٨٤٨-١٩٣٢) وزير الخارجية البريطاني ، للورد « وولتر روتشيلد » في٢ نوفمبر ١٩١٧ ، بمنح اليهود وطنا قوميا في فلسطين ، بدأ الصراع العربي- الإسرائيلى يرخي بذيوله على منطقة الشرق الأوسط . جاء في وعد« بلفور» : « عزيزي لورد روتشيلد . . أنقل إليكم بكل السرور ، نيابة عن حكومة صاحب الجلالة، التصريح التالي ، الذي يعبر عن عطفها على الأماني اليهودية الصهيونية ، والذي عرض على الوزارة فوافقت » ، وهو : [إن حكومة صاحبة الجلالة (ملكة بريطانيا) تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين . ولسوف تبذل أقصى جهدها؛ لتيسير الوصول إلى هذا الهدف . على أنه يجب أن يفهم بصورة جلية أنه لا يجوز القيام بأي عمل من شأنه تغيير في الحقوق المدنية والدينية

للطوائف غير اليهودية في فلسطين ، أو في الحقوق والأوضاع السياسية التي يحظى بها اليهود في الأقطار الأخرى . . .] .

لقد أعطى من لا يملك ، وعدا لمن لا يستحق!

وفي مايو ١٩٤٨ تجسدت مأساة فلسطين والعرب في صورة كيان دخيل ، أقيم تحت اسم إسرائيل ، وحدثت عمليات تهجير وإجلاء وتشريد للمواطنين من أراضيهم ، وواصلت إسرائيل قضم وابتلاع الأراضي الفلسطينية والعربية تدريجيا ، حتى احتلت القدس والضفة الغربية والجولان وشبه جزيرة سيناء في حرب ٥ يونيو ١٩٦٧ . لكن مصر قادت العرب نحو استعادة سيناء وكرامة العرب في حرب العاشر من رمضان (٦ أكتوبر ١٩٧٣) ، واستكملت تحرير سيناء بالتفاوض في إبريل ١٩٨٢ ، واستردت طابا عبر مائدة المفاوضات ، وبعد اللجوء إلى التحكيم الدولي ، ليعود الحق إلى أصحابه .

وعلى الرغم مما تحقق من اتفاقات وتسويات بين إسرائيل -حليفة بريطانيا ثم الابن المدلل للولايات المتحدة لاحقا- وبين العرب ، وتوقيع إعلان مبادئ إقامة الحكم الذاتي الفلسطيني في واشنطن في ١٣ سبتمبر ١٩٩٣ عقب محادثات أوسلو السرية ، فإن الجبهات العربية - الإسرائيلية مازالت مفتوحة في جنوبي لبنان - الذي انسحبت من معظمه قوات الاحتلال في ٢٤ مايو ٢٠٠٠ ، واحتفظت بمزارع شبعا كمسمار جحا - ومرتفعات الجولان السورية المحتلة . والمنطقتان تشكلان نقطتين متفجرتين في أي مفاوضات مع إسرائيل من أجل التوصل إلى تسوية عادلة ، تقوم على أساس الانسحاب الشامل مقابل السلام الكامل ، وهو ما كانت تسعى إليه المفاوضات على المسار السوري ، التي استؤنفت لفترة قصيرة في منتصف ديسمبر ١٩٩٩ ، وتتطلع إليه المفاوضات على المسار الفلسطيني ، التي واجهت تعنتا من حكومة « بنيامين نيتانياهو » اليميني ، ثم تعرضت لمماطلات من حكومة « إيهود باراك » آخر رئيس وزراء لإسرائيل في القرن العشرين .

الغريب أن إسرائيل لم تكن سوى تعويض أراده الغرب لليهود بدعوى معاناتهم الحكم النازي ، فكان أن منحوهم فلسطين بزعم أنها « الأرض الموعودة » ، وفي ذلك ظلم وتعسف ؛ لأن الذي دفع الفاتورة في النهاية هم الفلسطينيون والعرب أصحاب الأرض والحق دون ذنب جنوه!

ولم تحصل تونس و المغرب على الاستقلال إلا في ١٩٥٦ ، ثم نالت موريتانيا الاستقلال في ٢٨ نوفمبر ١٩٦٠ ، بينما رفضت فرنسا منح الجزائر الاستقلال ، على الرغم من اندلاع ثورة دامية فيها ضد الاحتلال الفرنسي سنة ١٩٥٤ ، امتدت سبع سنوات ونصف السنة ، إلى أن تمكنت المقاومة الجزائرية -بفضل تكاتف شعبها ودعم أمتها- من إجبار الاحتلال الفرنسي على الجلوس إلى مائدة المفاوضات ، لتقرير مصير الجزائر . وهكذا جاءت اتفاقية « إيفيان » في ١٩ مارس ١٩٦٢ حول استقلال الجزائر ، والتي كللت بالاستقلال التام في يوليو ١٩٦٢ ، بينما بدأ المستوطنون الفرنسيون ينزحون عن الأرض الجزائرية ، التي خدعوا أنفسهم لفترة من الزمن بترويج أسطورة أنها مقاطعة فرنسية .

ومع ذلك فإن تجربة اتحاد المغرب العربي التي تم توقيع اتفاقيتها في ١٧ فبراير ١٩٨٩ في مراكش ، لم تكن أسعد حظا من تجارب وحدوية مماثلة في العالم العربي ، مثل اتحاد التعاون العربي الذي دفنته حرب الخليج الثانية ، ولا تجربة « الجمهورية العربية المتحدة » التي أعلنت بين مصر و سوريا في أول فبراير ١٩٥٨ ، وأجري استفتاء شعبي عليها في ٢١ فبراير من السنة نفسها ، وانفصمت في ٨ سبتمبر ١٩٦١ .

مثلت الوحدة المصرية - السورية المحاولة الأهم لتحقيق وحدة اندماجية عربية خلال القرن العشرين ، وقد لعبت الشخصية الكاريزمية للرئيس المصري الراحل «جمال عبد الناصر » دورا أساسيا في حدوث التفاعل القومي بين شعبي البلدين . غير أن الوحدة واجهت منذ لحظة ميلادها مشكلات وتحديات على جميع المستويات . فعلى المستوي المحلي وقع ارتباك في إدارة دولة الوحدة ، وحدث التنقل غير مرة بين صيغة الوزارة المركزية لعموم الدولة ، وصيغة المجلس التنفيذي لكل إقليم على حدة ،

فضلا عن تفويض « عبد الناصر » منذ أكتوبر ١٩٥٩ سلطاته في الإقليم السوري للمشير « عبد الحكيم عامر » ، الذي لم يحسن إدارة بلد لم يكن يعرف عنه الكثير .

وعلى صعيد السلطة التشريعية ، فقد تم تكوينها في يونيو ١٩٦٠ بقرار من رئيس الجمهورية العربية المتحدة (عبد الناصر) ، اختار فيه أعضاءها من بين أعضاء مجلس الأمة والنواب السابقين على إنشاء الوحدة في مصر وسوريا ، وبالتالي لم يقدر لها أن تعمل إلا لسنة واحدة ، ناهيك عن فعاليتها .

وعلى صعيد التنظيم السياسي ، لم تكن صيغة الاتحاد القومي لتصلح في بلد عرف تنظيمات قوية واصلت نشاطها السياسي غير المعلن على الرغم من قرار إلغائها . وعلى صعيد قاعدة التأييد السياسي لدولة الوحدة ، وصل الصدام بين « عبد الناصر » وحزب البعث إلى نقطة اللاعودة في ديسمبر ١٩٥٩ باستقالة القيادات البعثية من مواقعها في دولة الوحدة .

وربما كانت المشكلة أن «عبد الناصر» كان يرى في حزب البعث مجرد شريك في دولة الوحدة ، في حين كان البعث يرى أنه يجب أن يكون الشريك الوحيد لهذه الدولة ، التي بدت بلا أنصار تقريبا على المستوي الخارجي ، إما بسبب تحفظ بعض الأنظمة المجاورة على التجربة الوحدوية ، أو بسبب الموقف العدائي لإسرائيل وتركيا بوجه خاص والغرب بشكل عام من الوحدة .

وفي الخليج العربي ، يمارس مجلس التعاون الخليجي نشاطه منذ ١٩٨١ ، لكنه يسير فوق حبل مشدود بسبب الخلافات السياسية والحدودية بين عدد من الدول الست الأعضاء فيه ، وهم : المملكة العربية السعودية ، الكويت ، دولة الإمارات العربية المتحدة ، سلطنة عمان ، البحرين ، وقطر .

لكن أبرز رموز التعاون والتضامن العربي يتمثل في جامعة الدول العربية ، التي بدأت فكرتها بنداء مصري لإقامة صرح ضخم للعرب في ١٩٤٤ ، ودعوة كل من العراق ، السعودية ، سوريا ، لبنان ، اليمن ، شرق الأردن وممثل عن عرب فلسطين

للتشاور حول موضوع « الوحدة العربية » . وبالفعل تم التوقيع على بروتوكول الإسكندرية في مقر جامعة « فاروق الأول » الإسكندرية حاليا سنة ١٩٤٤ .

تم التوقيع على ميثاق الجامعة سنة ١٩٤٥ ، وفي ٢٢ فبراير ١٩٤٨ أكدت اللجنة السياسية تشجيعها لتوحيد العملة المستخدمة في الدول الأعضاء ، ثم أقر مجلس الجامعة معاهدة « الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادي » في ١٣ إبريل ١٩٥٠ ، وهي المعاهدة التي بدأ سريانها في ٢٢ أغسطس ١٩٥٢ .

وفي ٧ سبتمبر ١٩٥٣ أقر مجلس الجامعة اتفاقية بشأن مدفوعات المعاملات التجارية واشتغال رءوس الأموال فيما بين الدول الأعضاء . وفي ٥ إبريل ١٩٥٤ وافق مجلس الجامعة على اتفاقية الجنسية التي تحدد تعريف « المواطن العربي » ، وتم إقرار اتفاقية السياسة البترولية في ١٣ مارس ١٩٦٠ ، بينما أقر مجلس الوحدة الاقتصادية العربية مشروع إنشاء « السوق العربية المشتركة » في ١٣ أغسطس ١٩٦٤ . هذه القرارات وغيرها عكست رغبة في تحقيق أعلى درجات التعاون والتنسيق والتشاور على المستوى العربي ، دون أن يعني ذلك بالضرورة تحول الأحلام إلى واقع معاش . توالى انضمام الدول العربية إلى عضوية الجامعة ، وكانت آخر الدول المنضمة جمهورية جزر القمر سنة ١٩٩٣ ، ليصبح عدد الدول الأعضاء ٢٢ عضوا .

وشكلت الحرب الأهلية اليمنية ، التي اندلعت في شهر مايو ١٩٩٤ وانتهت بعد شهرين من المعارك والاشتباكات الدامية ، فصلا حاسما في تثبيت الوحدة اليمنية ، التي ظلت فترة مهددة بالتجزئة والتقسيم؛ نتيجة تعارض المواقف إزاء وسائل تطبيق هذه الوحدة بين الجنوب بقيادة نائب الرئيس « علي سالم البيض » ، والشمال بقيادة الرئيس «علي عبد الله صالح» ، وشهدت هذه الحرب معارك دامية بين قوات الشمال والجنوب في مناطق : الضالع وحضرموت وعدن ، انتهت بسقوط عدن وفرار القيادات الجنوبية من البلاد وتثبيت ركائز الوحدة اليمنية .

وفي ٢٢ سبتمبر ١٩٣٢ أسس الملك « عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود » (٢ ديسمبر ١٨٨٠–١٩٥٣) – فوق نحو ٨٠٪ من مساحة شبه الجزيرة

العربية - المملكة العربية السعودية ، التي تعد الآن قوة إقليمية مؤثرة في منطقة الخليج العربي ، أسهمت - ضمن ٢٨ دولة من بينها مصر والولايات المتحدة - في التصدي لأطماع الرئيس العراقي « صدام حسين » باحتلال الكويت وربما دول أخرى في الخليج، بعد كارثة غزو الكويت فجر ٢ أغسطس ١٩٩٠ .

وأدت حرب عاصفة الصحراء -التي بدأ الاستعداد لها في أواخر ١٩٩٠ ، وبدأت فعليا في ١٧ يناير ١٩٩١ ، وانتهت مع نهاية فبراير من السنة نفسها- إلى إجبار القوات العراقية على الانسحاب من الكويت التي كان « صدام » قد أعلنها -خلال أشهر الاحتلال السبعة- المحافظة التاسعة عشرة للعراق . . لولا أن الشرعية الدولية أعادت الحكومة الكويتية ، ليبدأ فصل آخر من مخطط مشبوه لتقسيم العراق نفسه وتجويع شعبه ، وسط أطماع إقليمية ودولية ، تسبب فيها بالدرجة الأولى سوء حسابات « صدام » ، واعتداؤه على جيرانه وتهديده للأمن الإقليمي . إن ما حدث ترك جرحا غائرا في جسد الأمة العربية نأمل أن يندمل سريعا .

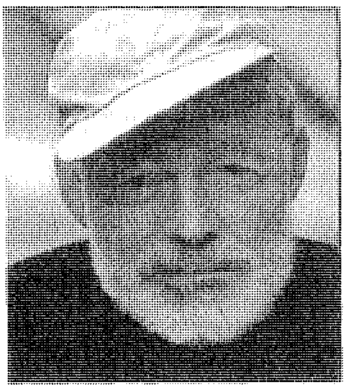
* * *



إدوارد سعيد



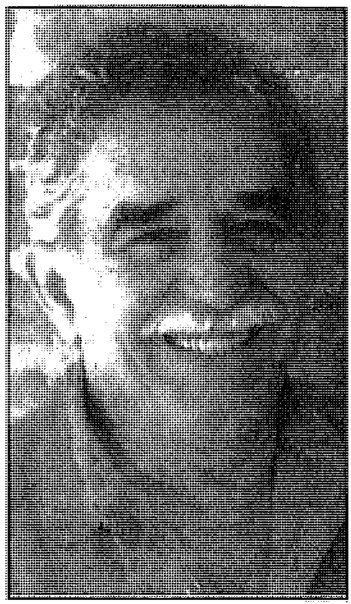
محمود درويش



إرنست هيمنجواي



ت. س. إليوت



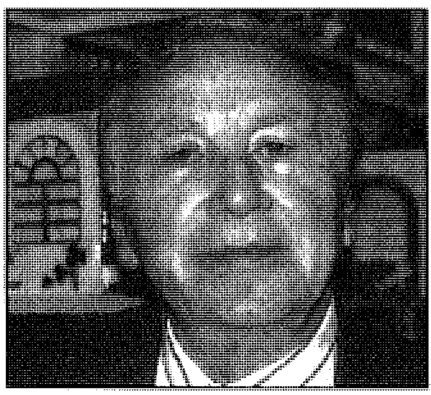
جابرييل جارثيا ماركيز

21

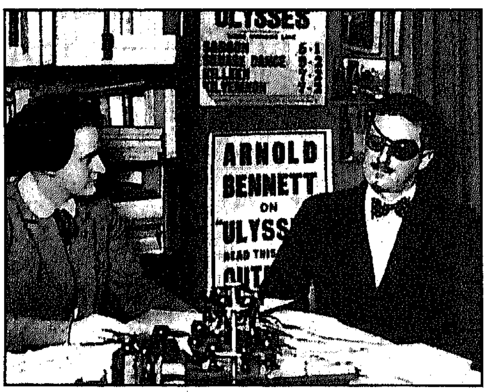
نهر من الكلمات

بأنامل تزحف فوق الأوراق ، وإبداع يجري مثل نهر متدفق العطاء ، كتب الكثيرون عبر سنوات القرن العشرين بكل لغات العالم روايات وأشعاراً اهتز لها الوجدان وتوحد معها القراء .

ومن غنائية « رابندرانات طاغور » ، إلى واقعية « نجيب محفوظ » ، مروراً بأساطير « جابريل جارثيا ماركيز » ، وسخرية « چورج برناردشو » ، وملحمية « ليو تولستوي » ، وتمرد « بابلو نيرودا » ، ورمزية « چورج أورويل » ، أصبح للكون شكل آخر .. شكل رسم ملامحه الروائيون



نزار قباني



چيمس چويس

والشعراء والمبدعون ، غرقنا في تفاصيله المدهشة ، ونحن أسرى الإعجاب بفنيات اللغة وتقنيات الكتابة ووجدانية الكلمات !

إنه قرن الكتب المثيرة للجدل ، والروايات الخالدة ، والأشعار التي تجاوزت الغزل إلى المقاومة . ومن هنا ، كانت القوى الدكتاتورية تعادي أول ما تعادي الأقلام الحرة والأعمال الإبداعية ، مثلما حدث حين أقام النازيون في ١٠ مايو ١٩٣٣ احتفالا مجنونا بحرق الكتب في الساحة المقابلة لجامعة برلين ، بمشاركة وزير الدعاية «جوزيف جوبلز » ، وسط صيحات تقول : إن كل كتاب يهدم ثقافتنا الألمانية وبيتنا الألماني ، مصيره إلى الحرق !

وحين أنشئ في سبتمبر ١٩٣٣ مجلس ثقافي للرايخ تحت إشراف الدكتور «جوبلز» ، ليحدد ما ينشر ومن ينشر ، كانت النتيجة انحطاط الثقافة الألمانية خلال الحكم النازي وهروب الكتاب والمبدعين إلى أوروبا والولايات المتحدة .

الشاعر الفرنسى « رينيه فرانسوا سولي- برودوم » (١٨٣٩-١٩٠٧) كان أول من نال جائزة نوبل في الآداب في ١٩٠١ ، ومن أشهر أعماله « ثورة الزهور » (١٨٧٤) « العدالة » (١٨٧٨) و « الوحدة » (١٨٦٩) . الألماني « تيودور مومزن » (١٩١٧-١٩٠٣) فاز بالجائزة في السنة التالية ، وهو الذي حوكم وبرئ من تهمة إهانة رئيس الوزراء الحديدي « أوتو فون بسمارك » . أما أفضل أعماله فكانت : «تاريخ روما » و « المقاطعات الرومانية » و« مسائل قانونية في الكتابة وحقوق المرأة » (١٨٤٣) . الروائي والمسرحي النرويجي « بورنستجرن بورنسن » (١٨٣٢-١٩١٠) نال جائزة نوبل في ١٩٠٣ ، ومن أهم أعماله « ماريا ستيوارت » (١٨٦٣) و « الملك » (١٨٧٧) و « الأزواج الجدد » (١٨٨٥) .

وفي ١٩٠٤ كانت نوبل في الآداب من نصيب الشاعر الفرنسي « فريدريك ميسترال » (١٨٣٠-١٩١٤) ومن أعماله « ميريو » (١٨٥٩) و « العبقرية » (١٩١٠) و « جزر من ذهب » (١٨٧٦) . المسرحي الإسباني « خوسيه إيشجاري » (١٨٣٢-١٩١٦) مؤلف « الموت على الشفاه » (١٨٨٠) فاز بالجائزة في السنة التالية ، ثم نالها بعده الروائي البولندي « هنريك سنكفيتش » (١٨٤٦-١٩١٦) مؤلف « في

بيت التتار » (١٨٨٠) و « كوفاديس » (١٨٩٨) و « الفرسان » (١٩٠٠) ، وذهبت نوبل إلى الشاعر الإيطالي « جيوزيه كاردوسكي » (١٨٢٥-١٩٠٧) مؤلف « أغنيات وإيقاعات » (١٨٩٩) و « قصائد متوحشة » (١٨٧٧) . الكاتب الإنجليزى « روديارد كبلنج » (١٨٦٥-١٩٣٦) المولود في بومباي ، نال الجائزة في ١٩٠٧ ، وهو الذي كتب « البحار السبعة » (١٨٩٧) و « كتاب الغابة » ، وعاش بقلب شرقي وعقل غربي !

السويدية « سلمى لاجرلوف » (١٨٥٨-١٩٤٠) هي أول امرأة تفوز بجائزة نوبل في الآداب ، وذلك في ١٩٠٩ ، وهي أول سيدة تنال عضوية الأكاديمية السويدية (١٩١٤) . ذاعت شهرتها بعد روايتها « قصة جوستا بيرلنج » المبنية على عادات موطنها فارملند ، وهي كثيرًا ما استقت من تلك البيئة شخصيات أعمالها اللاحقة مثل ثلاثية « عائلة لونيسكولد » (١٩٢٥-١٩٢٨) . الشاعر والمسرحي الألماني « باول يوهان لودفيج هيسه » (١٨٣٠ - ١٩١٤) نال الجائزة سنة ١٩١٠ ومن أهم كتاباته « أطفال العالم » (١٨٧٣) و « قصة رهينة » (١٨٧٧) .

وأحد أبرز الذين استحقوا الجائزة دون جدال الفيلسوف الشاعر الغنائي الهندي سير « رابندرانات طاغور » (١٨٦١-١٩٤٢) ، الذي يعد أول آسيوي ينال هذا التكريم الرفيع ، وأول مبدع من خارج أوروبا يفوز بهذه الجائزة . كان « طاغور » يستمد معظم قصصه القصيرة وأشعاره من الحياة البنغالية المعاصرة . وفي ذلك الوقت كانت «لطاغور» مواقف محددة من المشكلات الاجتماعية في بلاده : من نظام الطبقات ، وحقوق المرأة ، إلى جانب موقفه الصريح من مناهضة الاستعمار والطائفية . من مؤلفات طاغور « ديانة الإنسان » وديوانه الشهير « جيتنجالي » (باقة الأغنيات) الذي يمثل ذروة اكتمال فنه الشعري ، ومسرحياته : « عيد الخريف » و « الراجا » و « مكتب البريد » و « عيد الأمطار » .

ولعل أشهر ترجمة أوروبية لديوان « جيتنجالي » هي تلك ، التى قام بها الكاتب الفرنسي الكبير « أندريه جيد » . ويلاحظ « جيد » في مقدمة هذه الترجمة أن من الأفكار التي ترددت كثيرا في الديوان فكرة الانتظار ، كما في القصيدة الحادية والأربعين التي يقول في مقطع منها : « أنا أجلس على العشب وأتأمل السماء وأحلم

ببهاء قدومك ، فجاة ـ كل الأنوار تتوهج ، والأعلام الذهبية ترفرف على عربتك ، والواقفون على جانب الطريق يفغرون أفواههم حين يرونك تنزل عن كرسيك لترفعني من التراب ، وتجلس بجانبك هذه البنت الشحاذة ، وهي ترتعد من الخجل والزهو ، كلبلابة في نسيم الصيف . . ولكن الوقت يمضي ، ولا صوت لعجلات عربتك ، وتمر مواكب كثيرة بضجيج وصياح وأبهة .

أأنت وحدك الذي تريد أن تقف في الظلال متواريا خلفهم جميعا ، وأنا التي يجب أن تنتظر وتبكي وتذيب قلبها في شوق ضائع؟! » .

نال الروائي الفرنسي « رومان رولان » (١٨٦٦-١٩٤٤) نوبل في الآداب سنة ١٩١٥ ومن أهم أعماله « الذئاب » (١٨٩٨) و « دانتون » (١٩٠٠) ، أما الكاتب الفرنسي « أناتول فرانس » (١٨٤٤-١٩٢٤) ابن بائع الكتب في العاصمة الفرنسية باريس ، فقد أدهش الكثيرين بروايته الأولى « جريمة سيلفستر برنار » وواصل مشواره الروائي حيث قدم « تاييس » (١٨٨٩) و « الزنبقة الحمراء » (١٨٩٤) و «الآلهة عطشى» (١٩١٢) ، حتى نال جائزة نوبل في ١٩٢١ . الشاعر الأيرلندي « وليام بتلر ييتس » (١٨٦٥-١٩٣٩) الذي شملت دائرة أصدقائه كلا من « وليام موريس » ، و« چورچ برناردشو » ، و« أوسكار وايلد » . كان شاعرا فذا ، من أبرز أعماله : « مسئوليات » و« الخوذة الخضراء وأشعار أخرى » و « البجعات البرية في كول » و « الوردة السرية » (١٨٩٧) و « ظلال على البحر » (١٩٠٠) .

هذا الشاعر الذي وضع الأنطولوجيا المثيرة للجدل كتاب « أكسفورد للشعر المعاصر » (١٨٩٢-١٩٣٥) نال جائزة نوبل في الآداب في ١٩٢٣ ، قبل سنتين من اختيار أيرلندي آخر هو « چورچ برنارد شو » للجائزة نفسها . لكن « برنارد شو » (١٨٥٦-١٩٥٠) الذي بدأ حياته الأدبية برسالة لإحدى الصحف ، منح القيمة المادية للجائزة لافتتاح مؤسسة الأدب الأنجلو-سويدي . وعلى الرغم من إنتاجه الغزير من الأعمال الأدبية والمسرحية مثل « سيدتي الجميلة » و « بيجماليون » ، فإن أبرز مؤلفاته « دليل المرأة الذكية إلى الاشتراكية والرأسمالية » (١٩٢٨) و « الفتاة السمراء تبحث عن الله » (١٩٣٢) . صرخ « برنارد شو » صرخة « فولتير » في مأساة دنشواي ، وكان يعد

نفسه صحفيا قبل أي شيء آخر ، لكننا نرى فيه الفيلسوف العميق ، والمؤلف المسرحي المبدع ، والأديب المرهف ، الذي يطعم فكاهاته بالحكمة لكي يضحك الناس ويتعلموا .

الفيلسوف الفرنسي « هنري برجسون » (١٨٥٩-١٩٤١) نال جائزة نوبل في الآداب سنة ١٩٢٧ ، وربما يعود ذلك إلى تأثير كتاباته التحليلية والفلسفية في عديد من المبدعين أمثال « مارسيل بروست » و« چورچ أورويل » و« صمويل بتلر » . من أهم مؤلفات « برجسون » « تطور المعلومات » (١٨٩٦) و « أصول المعنى والأديان » (١٨٩٩) و « الطاقة الفكرية » (١٩١٩) . الروائي الألماني « توماس مان » (١٨٧٥ - ١٩٥٥) صاحب روايات : « تريستان » (١٩٠٢) و « الموت في فينيسيا » (١٩٢٢) و« دكتور فاوستوس » (١٩٤٧) التي تجمع بين الأدب والسياسة ، قاوم بإبداعه صعود النازية في ألمانيا والفاشية في إيطاليا ، واضطر إلى الإقامة في الولايات المتحدة ، ونال جائزة نوبل في ١٩٢٩ .

ومن الأسماء الكبيرة التي فازت بتلك الجائزة الروائي الأمريكي « سنكلير لويس » (١٨٥٥-١٩٥١) ونالها سنة ١٩٣٠ ، وهو مؤلف « صديقنا السيد وين » (١٩١٤) و« طريق الصفر » (١٩١٥) و « الشارع الرئيس » (١٩٢٠) ، كذلك الروائي والكاتب المسرحي البريطانى « چون جالزورثى » (١٨٦٧-١٩٣٣) وفاز بها سنة ١٩٣٢ ، وهو مؤلف « عدل » (١٩١٠) و « كوميديا حديثة » (١٩٢٩) ، والكاتب المسرحي الإيطالي «لويجي بيراند يللو» (١٨٦٧-١٩٣٦) ونالها سنة ١٩٣٤ ، وهو مؤلف « ست شخصيات تبحث عن مؤلف » و « الليلة نرتجل » و « هنري الرابع » ، والكاتب المسرحي الأمريكي « يوچين أونيل » (١٨٨٨-١٩٥٦) ونالها سنة ١٩٣٦ ، وهو مؤلف « وراء الأفق » (١٩١١) و « الإمبراطور چونز » (١٩٢٠) و « القرد الكثيف الشعر » (١٩٢٢) و « الحداد يليق بإلكترا » (١٩٣١) و « رغبة تحت شجرة الدردار » (١٩٢٤) ، والروائية الأمريكية« بيرل باك » (١٨٨٢-١٩٤٤) ونالت الجائزة سنة ١٩٣٨ ، وهي مؤلفة « الأرض الطيبة » (١٩٣١) و « المواطن » (١٩٣٩) و « الرعد » (١٩٤٣) .

كذلك تبرز أسماء مرموقة في القائمة ، مثل الروائي والشاعر الألماني « هيرمان هيسه » (١٨٧٧-١٩٦٢) ، الذي اكتسب الجنسية السويسرية سنة ١٩٢٣ ، ونال كلا من جائزة نوبل وجائزة جوتة في سنة واحدة (١٩٤٦) ، وهو مؤلف « ذئاب »

(١٩٠١) و« سيد هارتا » (١٩٢٢) و « الموت والعاشق » (١٩٣٠) ، والفرنسي « أندريه جيد » (١٨٦٩-١٩٥١) ونالها في ١٩٤٧ ، وهو مؤلف « خيانة نرجس » (١٨٩١) و « عودة الطفل الضال » (١٩٠٦) و « غير الأخلاقي » (١٩٠٣) . وفي ١٩٤٨ نال البريطاني «توماس ستيرنز إليوت » (ت . س . إليوت) جائزة نوبل ، وهو الذي يعد الأب الروحي للشعر الحديث . إليوت (٢٦ سبتمبر ١٨٨٨-٤ يناير ١٩٦٥) الذي تتلمذ على يد أساتذة كبار من بينهم « جوليسياه رويس » و« چورچ سنتيانا » و« برتراند راسل » ، هو صاحب « الأرض اليباب » التي نشرت في ١٩٢٢ ، و « حفلة كوكتيل » (١٩٥٠) و« جريمة قتل في الكاتدرائية » (١٩٣٥) .

الأديب الأمريكي « وليام فوكنر » (١٨٩٧-١٩٦٢) مؤلف « الصوت والغضب » و « بينما أرقد محتضرا » (١٩٣٠) و « ضوء في أغسطس » (١٩٣٢) و « أبسالوم أبسالوم » (١٩٣٦) ، نال جائزة نوبل في ١٩٤٩ . وفي السنة التالية نال الجائزة فيلسوف وكاتب عظيم هو « برتراند راسل » (١٨٧٢-١٩٧٠) صاحب « المعرفة الإنسانية » و « مشكلات الفلسفة » و « تاريخ الفلسفة الغربية » (١٩٤٦) .

الفرنسي « فرانسوا مورياك » (١٨٨٥-١٩٧٠) المولود في بوردو ، والذي ترجمت جميع رواياته الرئيسية إلى الإنجليزية ، نال جائزة نوبل سنة ١٩٥٢ ، ومن أهم أعماله « تريز ديكيرو » (١٩٢٧) و « صحراء الحب » (١٩٢٥) و « دروب البحر » . والغريب أنه في السنة التالية حاز الجائزة سير « ونستون تشرشل » رئيس وزراء بريطانيا خلال الحرب العالمية الثانية ، وهو مؤلف « السنوات الأولى » (١٩٣٠) و « الأحداث الكبرى المعاصرة » (١٩٣٧) ، لأسباب سياسية في المقام الأول !

لكن نوبل ردت الاعتبار إلى الأدب سنة ١٩٥٣ ، حين نالها الأمريكي المتمرد « إرنست هيمنجواي » (١٨٩٩-١٩٦١) صاحب روايات : « وداعا للسلاح » (١٩٢٩) و « العجوز والبحر » (١٩٥٢) و « الشمس تشرق أيضا » (١٩٢٦) و « لمن تدق الأجراس » (١٩٣٩) و « ثلوج كلمنجارو » (١٩٣٦) . « هيمنجواي » عمل خلال الحرب العالمية الأولى سائق سيارة إسعاف على الجبهة الإيطالية ، وتزوج أربع مرات ، وأقام في أوروبا وكوبا ، وعاقر الخمر بشراهة ، قبل أن ينتحر برصاصة أطلقها على فمه !

الفرنسي المولود في الجزائر « ألبير كامو » (١٩١٣- ١٩٦٠) نال الجائزة العالمية سنة ١٩٥٧ تقديرا لمؤلفاته ورواياته المهمة مثل « الغريب » (١٩٤٢) و « الطاعون » (١٩٤٧) و « كاليجولا » (١٩٤٥) ، قبل أن يلقى مصرعه في حادث سيارة بعد تكريمه دوليا بثلاث سنوات .

الروائي والشاعر الروسي « بوريس باسترناك » (١٨٩٠-١٩٦٠) صديق الشاعر السياسي « ماياكوفسكي » ، كتب عن تمرد « بوتمكين » و « الملازم شميت » ، وقد تحولت قصة « الدكتور زيفاجو » (١٩٥٧) إلى فيلم سينمائي ضخم بطولة « عمر الشريف » . « باسترناك » فاجأ العالم برفضه جائزة نوبل في ١٩٥٨ خوفا من أن يتعرض للنفي السياسي من الاتحاد السوفيتي آنذاك! وما هي إلا بضع سنوات أخرى حتى رفض الجائزة فيلسوف وأديب آخر هو الفرنسي « چان بول سارتر » (١٩٠٥-١٩٨٠) الذي أسهم في إرساء دعائم الفلسفة الوجودية بمؤلفاته مثل «الوجودية والإنسانية » (١٩٤٦) و « الوجود والعدم » (١٩٤٣) ، كما كتب « الذباب » (١٩٤٣) و « الأيدي القذرة » (١٩٥١) و « الغثيان » (١٩٣٩) .

الروائي الأمريكي « چون شتاينبك » (١٩٠٢-١٩٦٨) أبدع « شرقي عدن » (١٩٥٢) و « عن الفئران والرجال » (١٩٣٦) و « عناقيد الغضب » (١٩٣٩) ، نال نوبل في الآداب سنة ١٩٦٢ . كما نال الجائزة سنة ١٩٦٩ الروائي والكاتب المسرحي الأيرلندي « صموئيل بيكيت » (١٩٠٦-١٩٨٩) الذي وقع في غرام اللغة الفرنسية ، وكتب « في انتظار جودو » (١٩٥٣) و « نهاية رحلة » (١٩٥٧) و « الأيام السعيدة » (١٩٦١) .

ومن الأسماء الأدبية المهمة خلال القرن العشرين الإسبان : « خوان رامونت خيمينز » (١٨٨١-١٩٥٨) ، و« خاكينتو بينا فينتي » (١٨٦٦-١٩٧٤) ، و« كاميليو خوسيه ثيلا » (المولود سنة ١٩١٦) ، و« فيسنتي الكسندر » (١٨٩٨-١٩٨٤) ، و« خوسيه ساراماجو » (المولود سنة ١٩٢٢) .

أما من الروس فهناك « ميخائيل شولوخوف » (١٩٠٥-١٩٨٤) و« ألكسندر سولجنتسين » (١٩١٨-) ، ومن الألمان : « برتولد بريشت » (١٨٩٨-١٩٥٦) مؤلف

« أوبرا البنسات الثلاثة » (١٩٢٨) و « دائرة الطباشير القوقازية » (١٩٥٥) ، و« هينريش بول » (١٩١٧-١٩٨٥) و« جونتر جراس » (١٩٢٧-) وهو الفائز بالجائزة سنة ١٩٩٩ ، ومن الإيطاليين : « جيوزو كاردوتشي » (١٨٢٥-١٩٠٧) والروائية « جراتزيا ديليدا » (١٨٧٥-١٩٣٦) ، و« سالفاتوري كواسيمودو » (١٩٠١-١٩٦٨) ، و« إيوجنيو مونتالي » (١٨٩٦-١٩٨١) ، و« داريو فو » (المولود سنة ١٩٢٦) .

ومن اليابان « ياسوناري كواباتا » (١٨٩٩-١٩٧٢) ، و« أوي كينزا بورو » (المولود سنة ١٩٣٥) . وفاز بالجائزة من فرنسا « كلود سيمون » (المولود سنة ١٩١٣) ، و« روچيه مارتن دو جار » (١٨٨١-١٩٥٨) ، ومن النرويج الروائية « سيجريد أوندست » (١٨٨٢-١٩٤٩) ، ومن أيرلندا « شيموس هيني » (١٩٣٩-) ، ومن بولندا « فلاديسلاف ريمونت » (١٨٦٧-١٩٢٥) ، ومن أستراليا « باتريك وايت » (١٩١٢-١٩٩١) ، ومن السويد « إيفيند چونسون » (١٩٠٠-١٩٧٦) و« هاري إدموند مارتنسون» (١٩٠٤-١٩٧٨)، والطريف أنهما تقاسما الجائزة في سنة ١٩٧٤ ، ومن المكسيك « أوكتافيو باث » (١٩١٤-١٩٩٨) ، ومن الصين الروائي والكاتب المسرحي « جاو شينجيان » (٤ يناير ١٩٤٠-) هو آخر الفائزين بالجائزة في القرن العشرين ، وهو لاجئ سياسي في فرنسا التي نال جنسيتها منذ ١٩٩٨ ، الأمر الذي يفسر غضب بكين لقرار فوز هذا الكاتب بالجائزة .

كما نال جائزة نوبل في الآداب من التشيك « ياروسلاف سيفيريت » (١٩٠١-١٩٨٩) ، ومن جواتيمالا « ميجيل آنخيل إستورياس » (١٨٩٩-١٩٧٤) ، ومن ترينيداد وتوباجو « ديريك والكوت » (المولود سنة ١٩٣٠) ، ومن نيجيريا « وول سوينكا » (١٣ يوليو ١٩٣٤-) ، ومن مصر الأديب الكبير « نجيب محفوظ » ، الذي نال الجائزة في ١٩٨٨ ، وهو الذي أبدع عديداً من الروايات و المجموعات القصصية ، مثل : « الشحاذ » و « ثرثرة على النيل » و « الحرافيش » و « أولاد حارتنا » وثلاثية « بين القصرين- قصر الشوق- السكرية » و « زقاق المدق » و « خان الخليلي » و « دنيا الله » .
تمكن « نجيب محفوظ » المولود في ديسمبر ١٩١١ في حي الجمالية من التعبير عن الأصالة ، والشخصية المصرية ، وتحويل الحارة في القاهرة القديمة إلى رمز أدبي مهم ،

كما كان مشغولا بالوجود في ذاته ، وقدم مجموعة ثرية من الأنماط البشرية . وقد قالت عنه صحيفة « لوموند » الفرنسية إنه « ملك الرواية في العالم الآن » .

نال شاعر تشيلي الكبير « بابلو نيرودا » (١٩٠٤-١٩٧٣) الذي صنع اسمه من « ٢٠ قصيدة حب وأغنية يائسة» (١٩٢٤) وتولى مناصب دبلوماسية في شرق آسيا وأوروبا، وتميز بانتماءاته الشيوعية ، جائزة نوبل في الأدب في ١٩٧١ .

يقول « نيرودا » في قصيدة من ديوان « ذكريات الجزيرة السوداء » :

« من الحب الكثير ، والسير الطويل تولد الكتب
وإذا لم يكن بها قبلات أو مدن ، وإذا لم تحس بالجوع إلا الأيدي الممتلئة
إذا لم تكن بها امرأة في قطرة ، جوع ورغبة ، وغضب وطرق
لا تنفع لا شعارا ولا ناقوسا
إنها بلا عيون ، ولا يمكن أن تفتحها
ولها فم ميت من الوصايا »

ويتعين أن نشير إلى شاعرة تشيلي « جابرييلا مسترال » (١٨٨٩-١٩٥٧) ، التي نالت جائزة نوبل في الآداب سنة ١٩٤٥ ، وهي أول من ينال الجائزة من أمريكا اللاتينية ، ومن أبرز إبداعاتها « مرثيات » (١٩٢٣) و « ثالا » (١٩٣٨) . ويتألق اسم الروائي الكولومبي « جابرييل جارثيا ماركيز » ، الذى نال جائزة نوبل فى الآداب سنة ١٩٨٢ . تمكن « ماركيز » المولود في ٦ مارس ١٩٢٨ من المزج ببراعة بين الواقعية والأسطورية ، وأصبح أستاذ مدرسة الواقعية السحرية ، كما هي الحال في رواياته : «مائة عام من العزلة » (١٩٦٧) و « خريف البطريرك » (١٩٧٦) و «وقائع موت معلن» (١٩٨٢) و « الجنرال في متاهته » (١٩٨٩) و « الحب في زمن الكوليرا » (١٩٨٥) و« لا أحد يكاتب الكولونيل » (١٩٥٩-١٩٦١) و « عن الحب شياطين أخرى » (١٩٩٤) .

على أن هناك مبدعين عاشوا خلال القرن العشرين ، ولم يحصلوا على التكريم المنشود على الأقل في حياتهم ، مثل الأديب الروسي الكبير « ليو تولستوي » (١٨٢٨-١٩١٠) الذي كان طوال حياته ضميرا لأوروبا ، كما كان « غاندي » ضميرا

للهند ، وكانت مؤلفاته تحريضا على الثورة ضد الحكم القيصري في روسيا ، وهو ما حدث بعد وفاته بسنوات قلائل . من أهم مؤلفات « تولستوي » « الحرب والسلام » و« أنا كارنينا » . ومع ذلك فقد كانت نهايته مأساوية إلى حد كبير ، إذ حاصره البرد القارس ، ولفظ أنفاسه الأخيرة وهو ينتحي جانبًا في إحدى محطات السكك الحديدية في استابوفو . . يا لها من نهاية حزينة لصاحب الأعمال الملحمية التي أثرت حياة البشرية وإبداعها !

كذلك أذهل الروائي الفرنسي « مارسيل بروست » (١٨٧١-١٩٢٢) الكثيرين بأعماله الفنية ، مثل روايته « البحث عن الزمن المفقود » التي تقع في ١٣ جزءا . هذا الروائي الذي وصف النفس البشرية كما لم يصفها أحد قبله ، كان يميل إلى العزلة عن العالم ، ولشهور طويلة كان يغلق على نفسه باب غرفته المبطنة من شجر الفلين ، ويعيش على فراشه ، ويتغذى فقط على القهوة باللبن ومربى البرقوق . . وقد مات وهو في شدة البؤس .

الروائي النمساوي من أصول يهودية ألمانية « فرانز كافكا » (١٨٨٣-١٩٢٤) مؤلف « المحاكمة » (١٩٢٥) و « القصر » (١٩٢٦) و « أمريكا » (١٩٢٧) و « التناسخ » (١٩١٦) ، كان يخشى بدوره أن يصبح قبيحا ويتساقط ، وكان مصابا بفقدان الشهية والاضطراب الجنسي ، ويضع نفسه في ماء مثلج ، ويخاف كل الخوف من المرض .

أما الكاتب الأيرلندي « چيمس چويس » (٢ فبراير ١٨٨٢-١٣ يناير ١٩٤١) ، الذي ولد في دبلن وعاش فترة من حياته في باريس قبل أن يموت في زيوريخ ، فقد قال ذات يوم : « إنني أكتب باللاإنجليزية » . وهو يكاد يكون محقا في ذلك ، فروايته الملحمية « عوليس » (١٩٢٢) التي بدأ كتابتها سنة ١٩١٤ ، وسيرته الذاتية « صورة الفنان شابا » (١٩١٥-١٩١٦) ، تدهشان القارئ لصعوبتهما والحاجة إلى إعادة ترتيب الفصول بشكل معين لفهم الأحداث وسلوكيات الشخصيات . ويكفي أن نشير إلى ما قاله الأديب « چورچ أورويل » سنة ١٩٣٤ في رسالة بعث بها إلى « بريندا سوكد » : « عوليس . . . كنت أتمنى ألا أكون قد قرأتها يوما . إنها تمنحني شعورا بالدونية . . . حين أقرأ كتابا مثل هذا . . . أشعر أنني خصي » . چويس - الذي نشر له أيضا « أهل

دبلن » (١٩١٤) و « يقظة فينيجان » (١٩٣٩)- كان صـديقا للشـاعر والناقد الأمريكي « إيزرا باوند » (١٨٨٥-١٩٧٢) ، الذي يعد القوة المحركة وراء الشعر الحديث من وجهة نظر الشاعر الكبير « ت . س . إليوت » .

الروائيـة « فرجينيـا وولف » (١٨٨٢-١٩٤١) التي عـايشت الفتـرة نفسـهـا التي عايشها « چويس » ، حققت أعمالها الأدبية مثل « السيدة دالوواي » (١٩٢٥) و « إلى منزل الضوء » (١٩٢٧) نجاحا كبيرا ، لتضع قاموسا جديدا لألفاظ الحركة النسائية . رواية « رالف إيليسون » (١٩١٤-١٩٩٤) التي تحمل عنوان « الرجل الخفي » (١٩٥٢) وتبـدأ بجمـلة « أنا إنســان خفي » ، طرحت بقوة تجـربة معانـاة الأمريكيين الأفارقة في قـالب أدبي متـفـرد . ومن رموز الرواية أيضـا البـريطانيـة « باربارا كـارتلاند » (١٩٠٤-٢٠٠٠) ، التي كـتـبت ٧٢٣ رواية وكـتـابا مـعظمـهـا رومـانسي الطـابع ، ومـواطنهـا « چـون لو كـاريه » (١٩٣١-) مؤلف روايـات الإثـارة ، والأمـريكي «ستيفن كنج » (١٩٤٦-) صاحب روايات الرعب الشهيرة «البريق» ، و« كريستين » ، و « كاري » .

ومن أشـهـر شـعـراء القـرن العـشـرين كل من الأيرلندي « وليـام بتلر ييـتس » (١٨٦٥-١٩٣٩) ، « دبليـو . اتش . أودن » (١٩٠٧-١٩٧٣) ، « سـيلفـيـا بليث » (١٩٣٢-١٩٦٣) ، التي مـاتت منتـحـرة ، « روبرت فـروست » (١٨٧٤-١٩٦٣) ، اليـونانيين « قسطنينوس كـفـافـيس » (١٨٦٣-١٩٣٣) و « نيكوس كـزانتـزاكـيس » (١٨٨٣-١٩٥٧) ، الروسـية « آنا أخمـاتوفـا » (١٨٨٩-١٩٦٦) ، البـريطانيين « تيد هيوز » (١٩٣٠-١٩٩٨) و« روبرت جريفز » (١٨٩٥-١٩٨٥) الذي كتب مجموعة من أفضل أشعار الحب الحديثة ، والأمريكي « ألن جنسبرج » (١٩٢٦-١٩٩٧) رمز جماعة « جيل الغضب » ، الذي قال يوما : « إنني أرى أن أفضل العقول في جيلي قد دمرها الجنون » !

الشـاعر التـركي « ناظم حكمت » (١٩٠٢-١٩٦٣) هو أشـهـر شـعـراء القـرن العشرين في تركيا ، وأكثرهم تجديدا ، وكان صديقا لـ «چان بول سارتر » و« لويس أراجون » ، و« بابلو نيرودا » ، و« ميجيل آنخيل استورياس » . وقد تعرض للنفي في

سنة ١٩٥١ إلى الاتحاد السوفيتي السابق ، بعد أن أمضى سنوات عدة في السجون التركية ؛ بسبب أفكاره الشيوعية . وبعد أن سحبت أنقرة منه الجنسية التركية سنة ١٩٥٩ ، نال « ناظم حكمت » الجنسية البولندية ، وتوفي في موسكو .

وفي استطلاع للرأي أجرته صحيفة « لوباريزيان » الفرنسية ، ونشرت نتائجه في ٢١ ديسمبر ١٩٩٩ اختيرت رواية « أنطوان دو سانت اكزوبري » « الأمير الصغير » كأفضل كتاب خلال القرن العشرين ، متقدمة على رواية « إرنست هيمنجواي » « العجوز والبحر » . وفي المركز الثالث جاءت رواية « ألن فورنييه » (١٩٤٧-) Le Grand Meaulnes وتلتها « الغريب » لـ « ألبير كامو » ، بينما حلت « البحث عن الزمن المفقود » لـ « مارسيل بروست » في المركز السابع .

أشهر الروايات

وشهد القرن العشرون عديدًا من الأعمال الأدبية الخالدة ، مثل : « جاتسبي العظيم » و « الليل رقيق » للأديب « ف . سكوت فيتزجيرالد » ، و « ١٩٨٤ » و«مزرعة الحيوانات » للروائي « چورچ أورويل » ، و « لوليتا » و « نار شاحبة » لـ « فلاديمير نابوكوف » (١٨٩٩-١٩٧٧) ، و « عناقيد الغضب » و « عن الفئران والرجال » و« شرقي عدن » لـ « چون شتاينبك » ، و « الصوت والغضب » و « ضوء في أغسطس » لـ « وليام فوكنر » ، و « البرتقالة الآلية » لـ « أنطوني بيرجيس » (١٩١٧-١٩٩٣) ، و«شجرة تنمو في بروكلين» لـ «بيتي سميث» ، و « إيثان فروم » و « عصر البراءة » لـ « إديث وارتون » .

تضاف إلى ذلك أعمال أخرى رائعة ، مثل : « آلهة الذباب » لـ « وليام جولدنج » الفائز بجائزة نوبل في الآداب سنة ١٩٨٣ ، و « عشيق الليدي تشاترلي » و « نساء عاشقات » و « أبناء وعشاق » للروائي « دي . اتش . لورانس » ، و « المفكرة الذهبية » لـ « دوريس ليسنج » (١٩١٩-) ، و « من هنا إلى الأبد » لـ « چيمس چونز » ، و«جناحا يمامة» لـ «هنري چيمس» ، و «السيد الرئيس» لـ « ميجيل آنخيل استورياس » ، و « رباعية الإسكندرية » لـ «لورانس داريل» (١٩١٢-١٩٩٠) ، و«الأب الروحي»

لـ «ماريو بوزو» (١٩١٢-١٩٩٧)، و« قلب الظلام » لـ « چوزيف كونراد » ، و«جذور» لـ «أليكس هيلي » (١٩٢١-١٩٩٢) ، و « الرابطة الإنسـانية » لـ « سومرست موم » ، و« غرفة ذات منظر » و « ممر إلى الهند » للروائي « إي . إم فورستر » .

وكم استمتع القراء بشخصيات وأحداث روايات أخرى ، مثل : « أنطونيا الخاصة بي» و « الموت يأتي من أركبيشـوب » لـ « ويللا كاثر » ، و « قلب المسألة » لـ « جـرام جـرين » (١٩٠٤-١٩٩١) ، وهو من أبرز الذين حـجبت عنهم جـوائز الأدب العالمية لأسباب سياسية . كذلك أبدع « ثورونتون وايلدر » « جسر سان لويس ري » وكتب «چون إرفنج » (١٩٤٢-) « العالم وفقا لجارب » و « صلاة من أجل أوين ميني » ، كما قرأ العالم بشـغف « عالم جديد جميـل » لـ « ألدوس هكسـلي »، و « قتـل طائر مغرد » لـ « هاربر لي » ، و « محبوبة » لـ « توني موريسون » (١٩٣١-)الفائزة بجائزة نوبل في الآداب سـنة ١٩٩٣ ، و« ٤٥١ فهرنهايت » لـ «راي برادبري» (١٩٢٠-) ، و « الأرض الطيبـة » لـ « بيرل باك » ، و «نداء البرية» لـ «چـاك لندن» ، و « الجنـدي الطيب » لـ « فـورد مـادوكس فـورد »، و « مـدار السـرطان » لـ « هنري مـيللر » (١٨٩١-١٩٨٠) ، و « الغابة » لـ « إبتون سـنكلير » ، و « بقايا اليوم » لـلياباني الذي نال الجنسـية البريطانية « كازو إيشيجورو » (١٩٥٤-) ، و « يو . إس . ايه » لـ « چون دوس باسوس » .

ويصعب أن ننسى « موت في الأنديز » و « من قتل موليرو » لروائي بيرو الشهير «ماريو فارجاس يوسا» (١٩٣٦-) ، و « جابرييلا » و « دونا فلور وزوجيها » و « باهيا زرض جـميع القـديسين » للبـرازيلي « خورخي أمـادو » (١٠ أغـسطس ١٩١٢-٧ أغسطـس ٢٠٠١) ، و « اسـم الـوردة » للإيطـالي « أمـبرتـو إيـكـو » (١٩٣٢-) ، و« المريض الإنجليزي » للروائي الشاعر « مايكل أونداتجي » (١٩٣٧-) الذي يعيش في كندا ، و « دروس التنفس » للأمريكية « آن تيلر» (١٩٤١-) ، و « العاشق » للفرنسية «مـارجـريت دورا» (١٩١٤-١٩٩٦) ، و « فتى مناسب » للهندي « فيكرام سـيث » (١٩٤٧-) ، و « بيت الأشباح » للروائية التشيلية « إيزابيل الليندي » (١٩٤٢-) ، وعمها بالمناسبة هو « سلفادور الليندي » رئيس تشيلي الذي أسقط العسكريون حكمه في ١٩٧٣ .

يضاف إلى القائمة أعمال الروائي والشاعر الأرجنتيني الكبير « خورخي لويس بورخيس » (١٨٩٩-١٩٨٦)، ومن أبرزها: «الألف» و «أطلس»، والقصائد الإنسانية الرائعة التي وضعها شاعر داغستان الكبير « رسول حمزاتوف » ، والمسرحيات العبثية التي كتبها الفرنسي « يوچين يونيسكو » (الذي ولد في رومانيا سنة ١٩١٢ ، وتوفي في ٢٨ مارس ١٩٩٤) مثل « المغنية الصلعاء » (١٩٥٠) و « الخرتيت » (١٩٦٠) و« الكراسي » (١٩٥٢) . ومن رموز الأدب والشعر الفرنسي الحديث نذكر « جيوم أبولينير » (١٨٨٠-١٩١٨) ، و« لويس أراجون » (١٨٩٧-١٩٨٣) مؤلف «عينا إلسا » و « مجنون إلسا » ، و« بول إيلوار » (١٨٩٥-١٩٥٢) مبدع «عاصمة الألم» و« العيون الخصبة » (١٩٣٦) ، و« چاك بريفير » (١٩٠٠-١٩٧٧) مبدع « حكايات » (١٩٤٧) و « مشاهد » (١٩٥١) ، و« أندريه بريتون » (١٨٩٦-١٩٦٦) رائد ومنظر السوريالية ، « وسان چون بيرس » (١٨٨٧-١٩٧٥) الذي فتح الشعر الفرنسي على حضارات الشرق وأمريكا اللاتينية ، ومن أعماله « رياح » (١٩٤٦) و « منارات » (١٩٥٧) .

قضـايا ومصادرات

الروائي الباكستاني الأصل « سلمان رشدي » (١٩٤٧-) أثارت روايته « آيات شيطانية » غضبا واستياء واسعا فى العالم الإسلامى ، وأصدر الزعيم الإيراني الخميني فتوى بإباحة دمه في ١٤ فبراير ١٩٨٩ ، بينما دفعته الضجة المثارة حول تلك الرواية إلى الواجهة الأدبية ، ولقيت رواياته التالية ومن بينها « الأرض تحت قدميها » حفاوة كبيرة، بينما انهالت عليه الجوائز المريبة !

وفي يونيو ١٩٩٥ صدر حكم محكمة استئناف القاهرة للأحوال الشخصية ، الذي يقضي بالتفريق بين الدكتور « نصر حامد أبوزيد » وزوجته الدكتورة « ابتهال يونس » ، بعد الحكم بارتداده بناء على مؤلفاته ، وأهمها « تأويل النص » . وعلى الرغم من وقف تنفيذ الحكم في ديسمبر ١٩٩٦ ، فإنه لم يتم إلغاؤه ، في حين هاجر الدكتور « نصر أبوزيد » مع زوجته إلى هولندا هربا من مصير القتل الذي يهدده باعتباره مرتدا ، وفقا لتقرير مجمع البحوث الإسلامية ، كما أكد المستشار « محمد صميدة عبدالصمد » نائب رئيس مجلس الدولة السابق ورافع الدعوى .

وتعرض الدكتور « فرج فودة » - الذي وضع عدة كتب ينتقد فيها التيار الديني ورموزه - للاغتيال على يد شاب أمي يعمل بائع سمك ، اعتقد بأن الدكتور « فودة » كافر ومرتد ، بعد المناظرة الشهيرة التي أقيمت في معرض القاهرة للكتاب في سنة ١٩٩٢ بين الدكتور « فودة » وعدد من رموز الفكر الإسلامي .

وقبل ذلك بسنة واحدة ، حكم على « علاء حامد » - مؤلف رواية « مسافة في عقل رجل » - بالسجن لمدة سنة . كانت شرطة المصنفات الفنية قد ضبطت روايته المذكورة التي تتسم بالركاكة وضعف المستوى الفني في ١٩٩١ ، إثر تقرير من مجمع البحوث الإسلامية يفيد بأن الكتاب يتضمن أفكارا وعبارات ، تعتبر اعتداء على حرية الأديان ومكانة الأنبياء ، وتصوير الجنة بصورة مخجلة . وأمام النيابة وجهت إليه تهمة ازدراء الأديان ، وصدر ضده حكم بالحبس ، ومعه ناشر الكتاب لمدة سبع سنوات ، إلا أن الحاكم العسكري لم يصدق على الحكم وسقط بالتقادم . لكن بعد صدور روايته التالية « الفراش » التي اتهم فيها بمخالفة الآداب العامة ، صدر ضده حكم آخر بالحبس لمدة سنة .

ولم يسلم الروائي المصري الكبير « نجيب محفوظ » من أذى الإرهاب والتطرف ، إذ تعرض في ١٩٩٤ للطعن في رقبته من شاب كشفت التحقيقات معه عن أنه حاول ارتكاب الجريمة بدعوى كفر « نجيب محفوظ » بسبب ما جاء في روايته « أولاد حارتنا » (١٩٥٩) -الممنوعة من النشر في مصر منذ صدور جانب منها مسلسلا في جريدة « الأهرام » - التي أكد الجاني أنه لم يقرأها .

وفي ١٩٨٢ ، صودر كتابان للدكتور « أحمد صبحي منصور » ، هما « المسلم العاصي » و « السيد البدوي بين الحقيقة والخرافة » ، وألقي القبض عليه بتهمة إنكار السنة النبوية ، وتصاعدت القضية حتى تم فصله من الأزهر ، ثم واجه تهمة إنكار الدين ؛ بسبب تقديمه لأطروحة علمية ، ناقش فيها صحة بعض الأحاديث النبوية ، وأودع السجن لمدة ستة أشهر .

المفارقة الحقيقية أنه حين اتهم الدكتور « طه حسين » في بلاغات رسمية بدءا من ٣٠ مايو ١٩٢٦ بالطعن في القرآن الكريم في كتابه « في الشعر الجاهلي » قرر « محمد

نور » رئيس نيابة مصر بعد التحقيق حفظ الأوراق إداريا في ٣٠ مارس ١٩٢٧ ، وقال في حيثيات قراره : « إن للمؤلف فضلا لا ينكر في سلوكه طريقا جديدا للبحث حذا فيه حذو العلماء من الغربيين ، ولكن لشدة تأثر نفسه بما أخذ عنهم قد تورط في بحثه حتى تخيل ما ليس بحق أو مازال في حاجة إلى إثبات أنه حق ، فكان يجب عليه أن يسير على مهل ، وأن يحتاط في سيره حتى لا يضل ، ولكنه أقدم بغير احتياط ، فكانت النتيجة غير محمودة . وحيث إنه مما تقدم يتضح أن غرض المؤلف لم يكن مجرد الطعن والتعدي على الدين ، بل إن العبارات الماسة بالدين التي أوردها في بعض المواضع من كتابه إنما أوردها في سبيل البحث العلمي ، مع اعتقاده أن بحثه يقتضيها . وحيث إنه من ذلك يكون القصد الجنائي غير متوافر فلذلك تحفظ الأوراق إداريا » .

وقبل كتاب الدكتور « طه حسين » ، تعرض كتاب قاضي محكمة المنصورة « علي عبد الرازق » « الإسلام وأصول الحكم » لحملة مماثلة ، عقب صدوره في أول أبريل ١٩٢٥ ، أدت إلى فصله من القضاء ، بينما تولى المفكرون وعلماء الدين الرد على كتيب إسماعيل أدهم « لماذا أنا ملحد؟ » الذي ضم مقالا لهذا العالم الرياضي والناقد الأدبي نشره في أغسطس ١٩٣٧ ، دون أن يطالب أحد من خصومه برأسه ويتولى تكفيره .

وربما ذكرنا موقف هؤلاء بوصية الشيخ « محمد عبده » مفتي مصر التي قال فيها : « إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه ، ويحتمل الإيمان من وجه واحد ، حمل على الإيمان ، ولا يجوز حمله على الكفر » . وحوكم « صلاح الدين محسن » عضو اتحاد الكتاب في مصر بتهمة ازدراء الأديان في مؤلفاته . وحين صدر حكم ضده بالحبس لمدة ستة أشهر مع وقف التنفيذ في يوليو ٢٠٠٠ ، عارضت النيابة الحكم في آخر السنة وطلبت إعادة محاكمته .

يذكر أن كتبا مصرية أخرى تعرضت للمصادرة في مراحل مختلفة من القرن العشرين بسبب مضمونها ، مثل : « فقه اللغة » للدكتور « لويس عوض » ، و « الإسلام السياسي » و « الخلافة الإسلامية » و « أصول الشريعة » لـ « سعيد العشماوي » ،

و « وراء الحجاب » لـ « سناء المصري » . . إلخ . وأثيرت ضجة ضخمة في شهري إبريل ومايو ٢٠٠٠ ، بعد أن أعادت الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة في نوفمبر ١٩٩٩ طباعة رواية « وليمة لأعشاب البحر » للأديب السوري « حيدر حيدر » ، حيث اعتبرها الدكتور « محمد عباس » - وهو دكتور تحاليل طبية وليس كاتبا دينيا متخصصا - في مقال له نشرته في ٢٨ إبريل ٢٠٠٠ جريدة « الشعب » -لسان حال حزب العمل المعارض المتحالف مع الإخوان المسلمين- رواية تتطاول على الدين الإسلامي . وسرعان ما شهدت مصر مظاهرات احتجاج نظمها طلبة وطالبات جامعة الأزهر اعتبارا من ٧ مايو ، وجدلا مؤسفا بين مؤيدي ومعارضي إعادة نشر الرواية ، التي نشرت لأول مرة منذ ١٨ سنة ، ولم يعترض عليها أحد طوال تلك المدة بمثل هذه الحدة .

وفي السعودية ، حاول البعض تأليب السلطات ضد عدد من المفكرين والمبدعين خلال العقدين الأخيرين من القرن العشرين ، مثل : « سعيد السريحي » و« محمد الثبيتي » و« محمد الحربي » و« عبد الله الصيخان » و« عبد الله الغذامي » .

الكاتبة « تسليمة نصرين » (١٩٦٢-) تعرضت لحملة شرسة وتهديدات بالقتل في بنجلاديش ، بعد نشرها روايتها المتواضعة المستوى « العار » في ١٩٩٣ ، التي انتقدت فيها تمييز الإسلام للرجال على النساء ، وزعمت أن غير المسلمين يعانون الاضطهاد الديني في بلادها . وسرعان ما هاجرت إلى السويد لتقيم هناك بضع سنوات ونالت شهرة لاتستحقها ، لولا أصحاب العقول الضيقة الذين جعلوا منها ضحية .

وخلال القرن العشرين صودرت في إيطاليا رائعة « إرنست هيمنجواي » « وداعا للسلاح » سنة ١٩٢٩ ، بدعوى أن الرواية - التي تدور حول انسحاب القوات الإيطالية في أثناء الحرب العالمية الأولى - تمس الكرامة القومية . وفي سنة ١٩٢٦ فرضت بوسطن حظرا على رواية « هيمنجواي » « الشمس تشرق أيضا » كما منعت رواية « الفقراء والأغنياء » في ديترويت ونيويورك وأيرلندا ، في حين حرق النازيون

كتب « هيمنجواي » . الكاتب والأديب الفرنسي « أناتول فرانس » الذي تعده فرنسا اليوم أحد أوسمة فكرها ، تعرضت كتبه للمصادرة على يد الكنيسة الكاثوليكية الرومانية سنة ١٩٢٢ ، وشاركتها أيرلندا بحظر روايته « قصة الممثل الصامت » سنة ١٩٥٣ .

وصودرت في إنجلترا والولايات المتحدة روايات « دي . اتش . لورانس » و« چيمس چويس » . ويقول قاضي المحكمة الجزئية في الولايات المتحدة « چون إم . وولسي » الذي نظر قضية « عوليس » رواية الكاتب الأيرلندي المشهور « چيمس چويس » ، حين صودرت في الولايات المتحدة قبل سبع وستين سنة بتهمة الفحش (وقد صدرت في باريس سنة ١٩١٢ ، ولم تنشر في بريطانيا إلا في ١٩٣٦) « عوليس » ليس بالكتاب السهل الذي تتيسر قراءته ، فهو تارة واضح مفهوم ، وتارة أخرى غامض مستغلق . وعلى الرغم من أنه يبدو في مواضع مقززا ، وأنه يتضمن عديداً من الكلمات التي تعتبر عادة قذرة ، فإنني لم أجد فيه شيئا مما يمكن أن أعتبره قذارة من أجل القذارة ذاتها . فكل كلمة من كلمات الكتاب تسهم كقطعة من الموزاييك في رسم تفاصيل الصورة التي يحاول «چويس» أن ينشئها . . » .

ثم ينتهي القاضي في حكمه الصادر في ٦ ديسمبر ١٩٣٣ إلى قوله « إنني على وعي تام بأنه نتيجة لبعض مناظر في « عوليس » قد يكون شرابا قويا لا يحتمل تعاطيه شخص حساس ، حتى وإن كان طبيعيا ، ولكن رأيي المدروس ، وبعد طول تأمل ، أن « عوليس » وإن كان أثره على القارئ في مواضع كثيرة ، قد يكون مقيئا إلى حد ما ، فإنه ليس في أي موضع من مواضعه مثيرا للشهوة الجنسية . وبناء على هذا يسمح بدخول « عوليس » إلى الولايات المتحدة » .

مؤرخون وفلاسفة

« أرنولد توينبي » (١٨٨٩-١٩٧٥) مؤرخ عظيم ومفكر انجليزي كبير ، تعاطف مع الحقوق العربية خاصة في فلسطين ، حتى إنه تعرض لحملات غربية ضارية من بينها ما كتبته « سيمون دي بوفوار » في كتابها « واقع الفكر اليميني » ، بسبب موقفه الصريح

من قيام إسرائيل . من أشهر مؤلفاته « تاريخ العالم » الذي يتألف من عشرة أجزاء وكتبه في الفترة بين ١٩٣٤-١٩٥٤ ، و « العالم و الغرب » (١٩٥٢) ، و « الحرب والحضارة » (١٩٥١) . كذلك أثرت كتابات السير « أشعيا برلين » المولود في لاتفيا(١٩١٢) في التحليل الفلسفي والتاريخي للأحداث ، مثلما جرى في « مفهومان للحرية » و « مفكرون روس » .

برلين آخر نال شهرة واسعة خلال القرن العشرين ، وهو « إرفنج برلين » (١٨٨٨-١٩٨٩) وهو من أصل روسي ، لكنه أسهم بدوره في إطلاق شهرة الموسيقى الشعبية في الولايات المتحدة . كتب « إسرائيل برلين » - وهذا هو اسمه الحقيقي - أكثر من ٩٠٠ أغنية وعمل موسيقي ، نال بعضها نجاحا أسطوريا مثل « الكريسماس الأبيض » ، و « بارك الله في أمريكا » التي انتشرت خلال الحرب العالمية الثانية ، وتحولت إلى نشيد قومي غير رسمي للولايات المتحدة .

الناقد والفيلسوف الفرنسي « رولان بارت » (١٩١٥-١٩٨٠) اهتم بربط الإنتاج الذهني بالبيئة الاجتماعية وحركة المجتمع ، وانشغل بتحليل الأساطير التي تتألف منها الحياة اليومية مثل الأغنيات الشعبية ، وتحليل الموقع الاجتماعي للدراجة البخارية! من أهم مؤلفاته « الكتاب في درجة الصفر » (١٩٥٣) و « أساطير » (١٩٥٧) ، إضافة إلى « لذة النص » و « النقد والحقيقة » و « نظام الموضة » . وقد تأثر بالفكر الماركسي والوجودي والفرويدي والتركيبي ، حتى مات حين صدمته شاحنة صغيرة لدى خروجه من « الكوليج دي فرانس » في ٢٥ فبراير ١٩٨٠ .

أما مواطنه « چاك ديريدا » المولود في البيار الجزائرية سنة ١٩٣٠ ، فهو من أهم الفلاسفة ونقاد الأدب ، الذين اهتموا بالتحليل النفسي والألسنية في دراسة النص . والفيلسوف المذكور نادى بالتفكيكية لفهم وتفسير النص ، وهو صاحب مقولة «لا شيء خارج النص » . ومن موقعه كأستاذ لتاريخ النظم الفكرية في « الكوليج دي فرانس » قدم « ميشيل فوكو » (١٩٢٦-١٩٨٤) أعماله الفلسفية عن المعرفة الإنسانية ، مثل : «تاريخ الجنون » (١٩٦١) ، « النظام والأشياء » (١٩٦٦) ، و « تاريخ الجنس »

(١٩٧٦) . وقدم الفيلسوف الفرنسي « جاستون باشلار » (١٨٨٤-١٩٦٢) مؤلفات ثرية بالفكر النقدي والفلسفي ، ومن ذلك كتابه « الفكر العلمي الجديد » (١٩٣٤) .

الألماني « يورجن هابرماس » المولود في دوسلدورف سنة ١٩٢٩ ، هو من أبرز الفلاسفة وعلماء الاجتماع خلال القرن العشرين ، ومن أبرز كتبه « نحو مجتمع منطقي » (١٩٦٨) و « المعرفة والاهتمامات الإنسانية » (١٩٦٨) و « نظرية الفعل الاتصالي » (١٩٨٤) . والفيلسوف وعالم الاجتماع الألماني الأصل «هربرت ماركيوز» (١٨٩٨-١٩٧٩) أسهمت نظرياته مع أفكار الإيطالي « أنطونيو جرامشي » (١٨٩١-١٩٣٧) في تقديم رؤية تحاول تجديد الفكر الماركسي الثوري . وعلى الرغم من تشاؤمية نظرته التي عبر عنها في كتابه الشهير « الإنسان ذو البعد الواحد » ، ومؤلفه « التاريخ والوعي الطبقي » ، فإن أفكاره اعتبرت القاعدة النظرية لحركة الطلاب ، كما أن كتابه « الجنس والحضارة » (١٩٥٥) اعتبر على الدوام نوعًا من إعادة اعتبار ماركسية لنظريات « فرويد » .

كان الفيلسوف والمفكر المجري « چورچ لوكاتش » (١٨٨٥-١٩٧١) من أبرز أصوات عصره سواء في مجال المطالبة بتجديد الفكر الماركسي والاهتمام بدور الذات والوعي الفردي ، أو فيما يتعلق بدراسة فن الرواية وعلم الجمال . وقدم فيلسوف العلم وعالم الرياضيات الفرنسي « هنري بوانكاريه » (١٨٥٤-١٩١٢) ثلاثة أعمال رائدة في فلسفة العلم هي « العلم والفرض » (١٩٠٢) و « قيمة العلم » (١٩٠٥) و « العلم والمنهج » (١٩٠٨) .

ويعد مؤرخ العلوم البلجيكي المولد « چورچ سارتون » (١٨٨٤-١٩٥٦) مؤسس تاريخ العلم في الولايات المتحدة ، التي هاجر إليها سنة ١٩١٥ونال جنسيتها ، وهو الأب الروحي لجعل تاريخ العلم مبحثا نظاميا أكاديميا في القرن العشرين ، ومن أهم مؤلفاته « مقدمة في تاريخ العلم » (١٩٢٧-١٩٤٨) ، الذي يقع في ثلاثة أجزاء ويدرس هذا التاريخ حتى سنة ١٤٠٠ .

وتمثل فلسفة النمساوي « كارل بوبر » (١٩٠٢-١٩٩٤) نقطة تحول حاسمة ، فأول أعماله وأهمها « منطق الكشف العلمي » (١٩٣٤) يأتي في طليعة النصوص

المشكلة لمسار فلسفة العلم خلال القرن العشرين . وعلى دربه سار المجري « إمري لاكاتوش » (١٩٢٢-١٩٧٤) ، الذي لقي حتفه في حادث سيارة مروع ، تاركًا وراءه كتابه المهم « دلائل وتفنيدات » (١٩٧٦) .

وفي كتابه « بنية الثورات العلمية » (١٩٦٢) تحدى الفيلسوف الأمريكي « توماس كون » (١٩٢٢-١٩٩٦) فكرة التطور العلمي بشكل تراكمي غير موجه ، ليضع الوعي التاريخي في صلب فلسفة العلم .

وتمثل أعمال المفكر وأستاذ اللغويات الأمريكي اليهودي « ناعوم تشومسكي » (١٩٢٨-) والمفكر الفرنسي المسلم « روجيه « رجاء » جارودي » قيمة خاصة ؛ لأنها تفضح الأفكار والسياسات الغربية الزائفة بأسلوب دقيق ومتعمق .

أقــلام عربيـــة

في المقابل ، أسهم المصريون والعرب في إثراء الفكر والإبداع العربي والعالمي ، كما هي الحال في كتابات الشيخ « محمد عبده » (١٨٤٩-١٩٠٥) ، واللبناني « محمد رشيد رضا » (١٨٦٥-١٩٣٥) ، ومواطنه « سليمان البستاني » (١٨٥٦-١٩٢٥) الذي قدم أول ترجمة كاملة ، نظمًا ، لإلياذة « هوميروس » إلى اللغة العربية ، و« محمد فريد وجدي » (١٨٧٨-١٩٥٤) صاحب « دائرة معارف القرن العشرين » ، و« قاسم أمين » (١٨٦٣-١٩٠٨) الذي يعتبره البعض « محرر المرأة » ، و« توفيق الحكيم » (١٨٩٨-١٩٨٧) الذي وصفه البعض بأنه « عدو المرأة » ، و« عباس محمود العقاد » (١٨٨٩-١٩٦٤) ، والدكتور « طه حسين » (١٨٨٩-١٩٧٣) ، والدكتور « محمد حسين هيكل » (٢٠ أغسطس ١٨٨٨-٨ ديسمبر ١٩٥٦) ، والدكتور « أحمد لطفي السيد » (١٨٧٢-١٩٦٣) ، و« أحمد أمين » (١٨٨٧-١٩٥٤) ، و« مصطفى لطفي المنفلوطي » (١٨٧٦-١٩٢٤) ، و« مصطفى صادق الرافعي » (١٨٨٠-١٩٣٧) مؤلف « إعجاز القرآن » و « تاريخ آداب العرب » ، والمؤرخ « عبد الرحمن الرافعي » (١٨٨٩-١٩٦٧) ، و« محمد فريد أبو حديد » (١٨٩٣-١٩٦٨) ، والكاتب الساخر «عبد العزيز البشري» (١٨٨٦-١٩٤٣) ، و« عبد الرحمن الشرقاوي » (١٩٢٠-

نوفمبر ١٩٨٧) ، والدكتور « عبد الرحمن بدوي » (٤ فبراير ١٩١٧-) ، والدكتور «زكي نجيب محمود» (أول فبراير ١٩٠٥-١٩٩٣) ، و« محمود شاكر » « أبو فهر » (١٩٠٩-١٩٩٧) ، والكاتب الصحفي « محمد حسنين هيكل » (١٩٢٣-) ، و«أحمد بهاء الدين» (فبراير ١٩٢٧-٢٤ أغسطس ١٩٩٦)، والدكتور «جمال حمدان» (١٩٢٨-١٩٩٣) مؤلف « شخصية مصر » من مصر ، والسوري « محمد كرد علي » (١٨٧٦-١٩٥٣) ، الذي عارض دعاة « التتريك » حتى كاد يعدم ، والفلسطيني الدكتور « أحمد صدقي الدجاني » (١٩٣٦-) .

ومن النقاد والباحثين ، ننوه بكل من الدكتور «لويس عوض» (١٩١٥-١٩٩٠) ، والدكتور « زكي مبارك » (١٨٩٥-١٩٥٢) مؤلف « الأخلاق عند الغزالي » ، والدكتور « محمد مندور » (١٩٠٧-١٩٦٥) ، والدكتور « علي الراعي » (١٩٢٠-١٩٩٩) ، والدكتور « غالي شكري » (١٢ مارس ١٩٣٥-مايو ١٩٩٨) ، والدكتور « عبد القادر القط » (١٩١٦-) ، و« رجاء النقاش » ، والدكتور « صبري حافظ » (١٩٤١-) ، و« محمود أمين العالم » (١٨ فبراير ١٩٢٢-) ، و« فاروق عبد القادر » ، والدكتور « جابر عصفور » من مصر ، والدكتور « محمد عابد الجابري » من المغرب ، و« مالك بن نبي » من الجزائر (توفي سنة ١٩٧٣) ، والدكتور « عبد الله الغذامي » من السعودية ، والدكتور « محمد جابر الأنصاري » من البحرين ، والدكتور « خلدون النقيب » من الكويت ، ومن فلسطين : الدكتور « إدوارد سعيد » (١ نوفمبر ١٩٣٥-) مؤلف كتاب « الاستشراق » ، والدكتور « إحسان عباس » (المولود سنة ١٩٢٠) ، و« جبرا إبراهيم جبرا » (١٩٢٠-١٩٩٤) ، والأخير حمل أيضا جنسية العراق . . البلد الذي عاش طويلا في كنفه .

استمر تألق وتجدد ديوان العرب من خلال قصائد المصريين : أمير الشعراء « أحمد شوقي » (١٨٦٨-١٩٣٢) ، وشاعر النيل « حافظ إبراهيم » (١٨٧١-١٩٣٢) ، و«محمود سامي البارودي » (١٨٣٩-١٩٠٤) ، و« عبدالرحمن شكري » (١٨٨٦-١٩٥٨) ، وشاعر الأطلال « إبراهيم ناجي » (١٨٩٨-١٩٥٣) ، و« علي الجارم » (٢٥ ديسمبر ١٨٨١-٨ فبراير ١٩٤٩) ، و« أحمد زكي أبو شادي »

(١٨٩٢-١٩٥٥) ، و«شاعر الكوخ» « محمود حسن إسماعيل »ل (١٩١٠-١٩٧٧)، و«صلاح عبد الصبور» (١٩٣٠-أغسطس ١٩٨١) ، و«أمل دنقل» (١٩٤٠-١٩٨٣)، و« أحمد عبد المعطي حجازي » (١٩٣٥-) ، و« محمد عفيفي مطر » (١٩٣٩-) ، والعراقيين : « محمود مهدي الجواهري » (١٩٠٠- ١٩٩٧) ، و« بدر شاكر السياب » (١٩٢٦-١٩٦٤) ، و« جميل صدقي الزهاوي » (١٨٦٣-١٩٣٦) ، و« عبد الوهاب البياتي » (١٩٢٦-٣ أغسطس ١٩٩٩)، و« بلند الحيدري » (٢٦ سبتمبر ١٩٢٦-٦ أغسطس ١٩٩٦)، و« سعدي يوسف » (١٩٣٤-)، و« مظفر النواب » (١٩٢٤-)، و« أحمد مطر » ، والفلسطينيين : « محمود درويش » (المولود سنة ١٩٤١ في بلدة البروة قضاء عكا) ، و« سميح القاسم » (المولود في الرامة سنة ١٩٣٩)، و«توفيق زياد» (الذي ولد سنة ١٩٣٢ ولقي حتفه في حادث سيارة في يوليو ١٩٩٤) ، و« أحمد دحبور » (١٩٤٠-) ، و« عبد الكريم الكرمي » « أبو سلمى » (١٩٠٩-١١ أكتوبر ١٩٨٠) ، و«إبراهيم طوقان» (١٩٠٥-١٩٤١)، و«معين بسيسو» (١٩٢٧-١٩٨٤) ، و« خيري منصور » (١٩٤٥-) ، و« عز الدين المناصرة » (١٩٤٦-) ، والتونسي «أبو القاسم الشابي » (١٩٠٩-١٩٣٤) ، والمغربي « محمد بنيس » (١٩٤٨-) ، واللبنانيين : شاعر القطرين « مطران خليل مطران » (١٨٧٢-١٩٤٩) ، و« جبران خليل جبران » (١٨٨٣-١٩٣١) ، و« إلياس أبو شبكة » (١٩٠٣-١٩٤٧) ، و« إيليا أبو ماضي » (١٨٨٩-١٩٤٧) ، و« ميخائيل نعيمة » (١٨٨٩-١٩٨٨) ، و « شاعر الطيارة » « فوزي المعلوف » (١٨٩٩-١٩٣٠) ، و«يوسف الخال» (١٩١٧-١٩٨٧) ، و« أنسي الحاج » (المولود سنة ١٩٣٧) ، و« شوقي بزيع » (١٩٥١-) ، و« محمد علي شمس الدين » (١٩٤٢-) ، و« عباس بيضون » (١٩٤٥-) ، و« السوريين : « نزار قباني » (١٩٢٣-١٩٩٨) ، و« ممدوح عدوان » (١٩٤١-) ، و« محمد الماغوط » (١٩٣٤-) ، والسوري/ اللبناني « أدونيس » - اسمه الحقيقي « علي أحمد سعيد إسبر »- (١٩٣٠-) ، والسوداني « محمد الفيتوري » (١٩٣٠-) ، والسعوديين : «محمد حسن عواد » ، و« غازي القصيبي » (١٩٤٠-) ، و« حسن القرشي » (١٩٢٦-) ، و« عبد الله الصيخان » ، و« محمد الثبيتي » (١٩٥٢-) ، والأمير «عبد الله الفيصل» (المولود سنة ١٩٢٣)، واليمنيين : «عبدالله البردوني» (١٩٢٩-٣٠

أغسطس ١٩٩٩) ، والدكتور « عبد العزيز المقالح » (١٩٣٧-) ، والعماني « سيف الرحبي » (١٩٥٦-) ، والبحريني « قاسم حداد » (١٩٤٨-) ، والكويتيين : «أحمد مشاري العدواني» (١٩٢٣-١٩٩٠) ، و« فهد العسكر » (١٩١٧-١٩٥١) ، والدكتور « خليفة الوقيان » (١٩٤١-) . ومن العرب الذين برزوا بأشعارهم المكتوبة بلغات أخرى ، نذكر اللبناني « چورچ شحادة » (١٩٥٧-١٩٨٩) ، والجزائري «الطاهر جاعوت » (١٩٥٤-١٩٩٣) ، والمغربيين « عبداللطيف اللعبي » (١٩٤٢-) و« عبد المجيد بن جلون » (١٩٤٤-) .

أما في عالم القصة والرواية فتبرز أعمال « يوسف إدريس » (١٩٢٧-١٩٩١) ، و«يحيى حقي» (٧ يناير ١٩٠٥-١٩٩٢)، و«إحسان عبدالقدوس» (١٩١٩-١٩٩٠)، و« يوسف السباعي » (١٩١٧-١٨ فبراير ١٩٧٨) ، و« محمود تيمور » (١٦ يونيو ١٨٩٤-٢٥ أغسطس ١٩٧٣)، و« فتحي غانم » (٢٤ مارس ١٩٢٤-٢ فبراير ١٩٩٩)، و« بهاء طاهر » (١٩٣٥-) ، و«يحيى الطاهر عبد الله» (١٩٤١-١٩٨١) ، و« جميل عطية إبراهيم » (٧ أغسطس ١٩٣٧-) ، و« عبد الحكيم قاسم » (نوفمبر ١٩٣٤-١٣ نوفمبر ١٩٩٠) ، و« إدوار الخراط » (١٩٢٦-) ، و« إبراهيم أصلان » (١٩٣٩-) ، و« صبري موسى » (١٩٣٢-) ، و« صنع الله إبراهيم » (١٩٣٧-) ، و« يوسف الشاروني » (١٩٢٤-) ، و« أبو المعاطي أبو النجا » (١٩٣٢-) ، و«محمد المنسي قنديل» ، و« محمد البساطي » (١٩٣٧-) ، و« إبراهيم عبدالمجيد » (ديسمبر ١٩٤٦-) ، والدكتور « محمد المخزنجي » (١٩٤٩-) ، و « يوسف القعيد » (١٩٤٤-)، و«جمال الغيطاني» (٩ مايو ١٩٤٥-)، و«ألبير قصيري» (١٩١٣-) ، والسوريين : « حنا مينه » (١٩١٠-) و« حيدر حيدر » ، واللبنانيين : «سهيل إدريس» -مؤلف « الحي اللاتيني » - « أمين معلوف » (١٩٤٩-) ، والفلسطينيين : « غسان كنفاني » (١٩٣٦-٨ يوليو ١٩٧٢) و« إميل حبيبي » (١٩٢١- مايو ١٩٩٦) ، والجزائريين : « الطاهر وطار » (١٩٣٦-) ، و« محمد ديب » (١٩٢٠-) ، و« رشيد بوجدرة » (المولود في ٥ سبتمبر ١٩٤١) ، و« كاتب ياسين » (١٩٢٩-١٩٨٩) ، و«مولود فرعون » (١٩١٣-١٩٣٦) ، و« مولود معمري » (٢٨ ديسمبر ١٩١٧-٢٦

فبراير ١٩٨٩) ، و« رشيد ميموني » (١٩٤٥-١٩٩٥) ، و« واسيني الأعرج » (١٩٥٤-)، والمغاربة : « الطاهر بن جلون » (١٩٤٤-) ، و« إدريس شرايبي » (المولود في ١٥ يوليو ١٩٢٦) ، و« عبد الكبير الخطيبي » (١٩٣٨-) ، والسوداني «الطيب صالح» (١٩٢٩-) ، والسعودي « عبد الرحمن منيف » (١٩٣٣-) ، والليبي « أحمد إبراهيم الفقيه » ، والعراقي الأب- الكويتي الأم « إسماعيل فهد إسماعيل » (١٩٤٠-) وغيرهم ، ممن حفرت إبداعاتهم عميقا في مجرى الأدب العربي والعالمي .

ومن كتاب المسرح نذكر – على سبيل المثال لا الحصر – المصريين : « ألفريد فرج » (يونيو ١٩٢٩-) مؤلف « حلاق بغداد » و «سليمان الحلبي» و «حفلة على الخازوق»، « محمود دياب » (أغسطس ١٩٣٢-١٠ أكتوبر ١٩٨٣) مؤلف « ليالي الحصاد » ، «سعد الدين وهبة» (١٩٢٥-١١ نوفمبر ١٩٩٨) مؤلف « السبنسة » و« كوبري الناموس » و« سكة السلامة » ، « نعمان عاشور » (٢٧ يناير ١٩١٨- ٥ إبريل ١٩٨٧) مؤلف « عيلة الدوغري » و« المغماطيس » ، « ميخائيل رومان » (١٩٢٢-١٩٧٣) مؤلف « الدخان » و« الوافد » ، « يسري الجندي » (فبراير ١٩٤٢-) ، ومن سوريا : « سعد الله ونوس » (١٩٤١-١٩٩٧) مؤلف « الملك هو الملك » (١٩٧٨) و« حفلة سمر من أجل ٥ حزيران » و« مغامرة رأس المملوك جابر » ، ومن العراق : « يوسف العاني » مؤلف « رأس الشليلة » (١٩٥١) و« أنا أمك يا شاكر » (١٩٥٥) ، ومن المغرب : « الطيب الصديقي » مؤلف ومخرج « مقامات بديع الزمان الهمذاني » و«ديوان سيدي عبد الرحمن المجذوب » ، و« عبد الكريم برشيد » مؤلف « قراقوش » و« عرس الأطلس » ، ومن تونس : « عز الدين المدني » مؤلف « ثورة صاحب الحمار » (١٩٧١) و« رحلة الحلاج » (١٩٧٣) و« ثورة الزنج » (١٩٧٤)، ومن الكويت : «صقر الرشود » ، و« عبد العزيز السريع » ، وبفضلهما – وجهد « محمد النشمي » من قبلهما- شهد المسرح الكويتي أعمالا جادة ، مثل « ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ . . . بم » و« شياطين ليلة الجمعة » . كما برز في المسرح اللبناني « عصام محفوظ » – مؤلف « الزنزليخت » (١٩٦٣ ، و« كارت بلانش » (١٩٧٠)- وفي المسرح الفلسطيني : « جميل حبيب بحري » – مؤلف « الخائن » (١٩٢٤)- و« نصر الجوزي » ، الذي كتب « العدل أساس

الملك » (١٩٥٦) ، و « الدنيا أم » (١٩٥٦) .

وبرع في الشعر العامي والغنائي في مصر كثيرون ، منهم الشاعر « أحمد رامي » (١٨٩٢-١٩٨١) ، « بديع خيري » (١٨٩٣-٣ فبراير ١٩٦٦) ، «مرسي جميل عزيز» (١٩٢١-١٩٨٠) ، « حسين السيد » (١٩٢١-١٩٨٣) ، « مأمون الشناوي » (١٩١٠-١٩٩٤) ، و« بيرم التونسي » ، الذي ولد في ٤ مايو ١٨٩٣ في حي السيالة الشعبي في مدينة الإسكندرية لأب يعمل في تجارة الحرير . كانت أسرته قد نزحت إلى الإسكندرية من تونس ، بعد أن عاقبت العائلة الجد لزواجه من جارية كان السلطان التركي قد أهداها للأسرة . وفي ٢٥ مارس ١٩١٧ صحا الناس على قصيدة شعرية في جريدة « الأهالي » تهاجم المجلس البلدي ، وتسخر منه سخرية لاذعة ، فانتشرت القصيدة كالبرق في أرجاء المدينة ، وترددت على كل لسان ، وهي تحمل اسم مؤلفها «بيرم التونسي» ، الذي ينشر لأول مرة . التقى « بيرم » بـ « سيد درويش » ووضع له أوبريت « شهرزاد » ، وغنى « سيد درويش » أشهر أدواره من تأليف « بيرم التونسي » « أنا هويت وانتهيت » و« أنا المصري كريم العنصرين » ، تلك الأغنية التي سترددها الجماهير الغاضبة في ثورة ١٩١٩ .

وفي العدد ١٣ من جريدة « المسلة » التي أصدر أول أعدادها في ٤ مايو ١٩١٩ ، ينشر « بيرم » قصيدة فيها تعريض بالملك « فؤاد » ، فيصدر أمر بإغلاق « المسلة » وتعقب صاحبها الذي تم ترحيله من مصر إلى تونس في ٢٥ أغسطس ١٩٢٠ . لكنه غادر تونس بعد أربعة أشهر ، فقد تنكر له الأهل وجحدوه بسبب جدته التي كانت جارية . ومن تونس إلى فرنسا التي عمل فيها حمالا ، وعتالا يكسب قوته بالكاد .

يقول :

الأولة : مصر ، قالوا تونس ونفوني

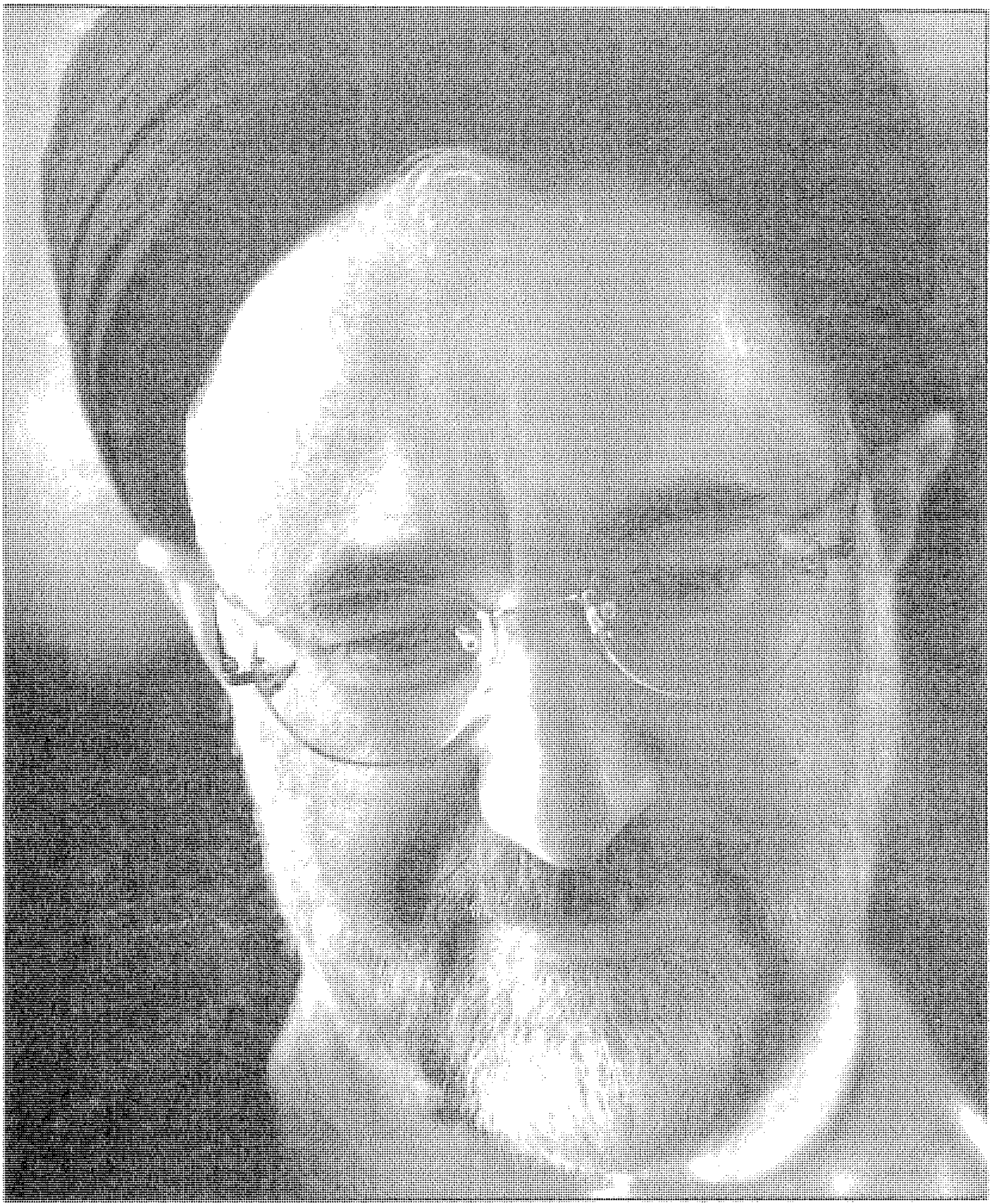
الثانية : تونس ، وفيها الأهل جحدوني

الثالثة : باريس ، وفي باريس جهلوني

ومن منفى إلى منفى ، كانت حياة « بيرم التونسي » الذي حصل على عفو ملكي بعد وفاة الملك « فؤاد » بسنتين ، ثم أنصفته ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، ومنحته الجنسية المصرية سنة ١٩٥٤ . وفي ١٩٦٠ يسلم الرئيس « جمال عبد الناصر » وسام الفنون والآداب من الدرجة الأولى لـ « بيرم التونسي » ، تقديرا لإنجازه الفني والوطني الكبير .

وفي ٥ يناير ١٩٦١ توفي « بيرم التونسي » في مدينة حلوان ، تاركا خلفه ثروة من الشعر العامي والغنائي ، تأثرت بها أسماء بارزة في عالم الشعر العامي في مصر ، مثل : « فؤاد حداد » (١٩٢٧-١٩٨٥) ، « صلاح چاهين » (١٩٣٠-١٩٨٦) ، «عبد الرحمن الأبنودي » (١٩٣٨-) ، «أحمد فؤاد نجم» (١٩٢٩-) ، «سيد حجاب» (١٩٤٠-) وغيرهم الكثير .

* * *



محمد خاتمي



فرانكلين روزفلت يتحدث أمام حشد من الأمريكيين

لم تكن مجرد كلمات ، بل كانت خطبا مؤثرة ، ألهبت الشعوب ، وأثارت المشاعر ، وغذت الانفعالات . . ألقاها زعماء وقادة وشخصيات بارزة خلال القرن العشرين . . بعض تلك الخطب كانت من أجل شن الحروب . . وبعضها الآخر استثارة للهمم دفاعا عن الوطن . . بعضها مبادرات و بعضها الآخر مؤامرات .

إنها خطب ظلت عالقة فى الأذهان ، سواء أكانت من زعيم نازي مثل « أدولف هتلر » ، أم رائد فضاء مثل الأمريكي « نيل أرمسترونج » ، الذي قال لحظة سيره فوق القمر : « لقد هبط النسر . . إنها خطوة صغيرة بالنسبة لإنسان ، وقفزة عملاقة بالنسبة للإنسانية » .

22

خطب هزت العالم



مارتن لوثر كنج

من أشهر الخطب خلال القرن العشرين ، تلك الكلمة الملهمة التي ألقاها داعية حقوق الإنسان الأمريكي « مارتن لوثر كنج » بعنوان « إن لدي حلما » ، التي ألقاها أمام ٢١٠ آلاف شخص ، تجمعوا حول نصب « لينكولن » التذكاري في العاصمة الأمريكية واشنطن في ٢٨ أغسطس ١٩٦٣ .

تتصدر هذه الخطبة قائمة أفضل الخطب التي ألقيت خلال القرن العشرين ، بسبب إجادة « مارتن لوثر كنج » عرض موضوعه وقضيته بكلمات موجزة وحماسية ، تركت أثرها عميقا في الضمير والوعي الأمريكيين . في ذلك اليوم قال داعية حقوق الإنسان أمام أكبر حشد من السود ودعاة حقوق الإنسان تشهده الولايات المتحدة : « إن لدي حلما بأن يعيش أبنائي الأربعة يوما في أمة لا تقومهم حسب لون بشرتهم ، ولكن بمضمون شخصيتهم ، بهذا الإيمان سوف نكون قادرين على تحويل النغمات الشاذة في أمتنا إلى سيمفونية جميلة للأخوة » .

يومها سار الأمريكيون السود جنبا إلى جنب عدد من كبار نجوم السينما من أنصار حقوق الإنسان أمثال « مارلون براندو » ، و« بيرت لانكستر » ، و« چودي جارلاند » ، و« بوب ديلان » ، وسمع الأمريكيون « مارتن لوثر كنج » وهو يقول لهم : « دعونا لا نرو ظمأنا للحرية بأن نشرب من كأس الحقد والضغينة » ، مؤكدا أن الكفاح السلمي سوف يستمر إلى أن تتدفق العدالة مثل الماء والحقوق مثل مجرى النهر .

ومما ورد أيضا في خطبة « مارتن لوثر كنج » يومها قوله : « إن لدي حلما له جذوره العميقة في الحلم الأمريكي ، إنني أحلم بأن يأتي يوم تنهض فيه هذه الأمة وتعي المعنى الحقيقي لأحد مبادئها أن جميع الناس خلقوا متساوين » .

ويقول باحثون من جامعة « وسكونسن-ماديسون » وجامعة « تكساس إيه آند إم » الأمريكيتين إنهم جمعوا قائمة تضم أفضل ١٠٠ خطبة باللغة الإنجليزية ، بعد استطلاع آراء ١٣٧ باحثا في فن الخطابة العامة ، واختاروا تلك الخطب وفق تأثيرها السياسي والاجتماعي وفن إلقائها . ويبدو من نتائج تلك الدراسة المهمة أن فن الإلقاء ظل حيا وحاضرا طوال القرن العشرين كوسيلة مؤثرة في الاتصال الجماهيري ، على الرغم من ظهور وسائل تكنولوجية أكثر تقدما وتعقيدا للاتصال الإعلامي .

ويشير البروفيسور « ستيفن لوكاس » ، الأستاذ المشارك في البحث المذكور وأستاذ فنون الاتصال في جامعة « وسكونسن-ماديسون » إلى أنه مع تزايد تكنولوجيا المعلومات والفيديو وأجهزة الكمبيوتر : فإن البعض افترض أن فن الخطابة بدأ يحتضر ، غير أنه على الرغم من أننا نعيش عصر الكمبيوتر فإنه لا بديل عن الخطابة العامة لقيادة الآخرين ، وحشد الجماهير وإلهامهم وإلهاب مشاعرهم .

ولعل أحدث الخطب التي هزت نفوس الكثيرين تلك التي ألقاها « إيرل سبنسر » في جنازة شقيقته « ديانا » أميرة ويلز في ٦ سبتمبر ١٩٩٧ في العاصمة البريطانية لندن ، التي عكس فيها غضب وضيق الكثير من البريطانيين من صحافة الإثارة والعائلة البريطانية المالكة . يومها قال « إيرل سبنسر » بصوت مختنق : « من بين كل تلك المفارقات حول ديانا ، وربما أعظمها ، أنها كانت الفتاة التى تحمل اسم الآلهة القديمة للصيد ، لكنها في الحقيقة أكثر شخص مطارد في العصر الحديث! » .

استخدم « إيرل سبنسر » أسلوب المقارنة والتضاد بين الأشياء للوصول إلى مبتغاه ، وترك الكلمات تتحدث عن نفسها ، وتصبح صوت الآخرين .

ومما يسترعي الانتباه أن الخطب المؤثرة تعكس بدرجة أو بأخرى أجواء العصر وتمثل لحظات حاسمة في التاريخ ، ولكن التأثير البعيد الأجل للخطبة يعتمد على الجمهور نفسه ؛ فإذا لم يكن الجمهور في وضع يسمح له بفهم وإدراك محتوى الخطبة واستيعاب الأفكار الواردة فيها وبغض النظر عن مدى جودة الخطبة نفسها ، فإن قوة وتأثير مثل تلك الكلمات قد يذهبان أدراج الرياح . عنصر العاطفة مهم أيضا ولا يقل بأي حال عن قوة الإلقاء وجودة النص ، ولذا فإن زعيما مثل « ونستون تشرشل » رئيس وزراء بريطانيا خلال الحرب العالمية الثانية ، كان بارعا إلى حد كبير في التأثير في جمهوره . . ليس بسبب إجادته استخدام اللغة الإنجليزية في صياغة خطبه فحسب ، بل أيضا بفضل قدرته على ضبط انفعالاته ، وإضفاء جو حماسي أو عاطفي على الخطب وقت اللزوم .

وخطبة « تشرشل » الخاصة بالحرب العالمية الثانية ، التي ألقاها أمام مجلس العموم البريطانى في ١٨ يونيو ١٩٤٠ ، مازالت عالقة في الأذهان . وفي ١٣ مايو ١٩٤٠ ،

وبينما كانت قوات الزعيم النازي « أدولف هتلر » تتقدم نحو دنكرك ، حشد «تشرشل» الأمة في بريطانيا بشخصيته وعزيمته من خلال خطاب ألقاه في لندن قال فيه : « إنني لا أملك شيئا أقدمه سوى الدم والكدح والدموع والعرق . . انني أشعر بالثقة بأن قضيتنا لن تعاني الفشل بين الرجال . في هذا الوقت أشعر بأنني قادر على الزعم بمساندة الجميع ، وأقول هيا إذًا دعونا نذهب إلى الأمام معا بقوتنا الموحدة » .

وحين أخفقت المقاومة الفرنسية في التصدي لجحافل قوات «هتلر » ، عرف رئيس الوزراء البريطاني أن بريطانيا مطالبة بأن تقف وحدها - آنذاك - ضد أطماع « هتلر » ، وأيقن أن معركة بريطانيا قد بدأت ، و قال « تشرشل » : « دعونا نلزم أنفسنا بواجباتنا ، وأن نحمل أنفسنا أنه إذا كانت الإمبراطورية البريطانية والكومنولث التابع لها سوف يستمران لمدة ألف سنة أخرى ، فإن الناس سيقولون كانت هذه أفضل ساعاتهم » .

الطريف أن القائمة الأمريكية لأفضل ١٠٠ خطبة خلال القرن العشرين - التي اختارتها الدراسة المذكورة - تشمل ٢٢ خطبة ألقتها نساء ، بمن في ذلك السيدتان الأوليان : « هيلارى كلينتون » قرينة الرئيس الأمريكي السابق« بيل كلينتون » ، و«بربارا بوش » قرينة الرئيس الأمريكي الأسبق « چورچ بوش » . أما على مستوى سيدات بريطانيا فتبرز خطبة « مارجريت ثاتشر » رئيسة وزراء بريطانيا ، التي ألقتها فى ٢٠ مايو ١٩٨٢ في العاصمة لندن أمام مجلس العموم البريطاني ؛ دفاعا عن سياساتها في أزمة فوكلاند ، التي تحولت إلى حرب ضد الأرجنتين حول تلك الجزر . فقد قالت «ثاتشر» في ذلك الخطاب : « إن خطورة الموقف سوف تبدو واضحة للمجلس والأمة . إن هناك أياما عصيبة تنتظرنا ، غير أن بريطانيا سوف تواجهها باقتناع بأن قضيتنا عادلة ، وبيقين بأننا كنا نفعل كل شيء معقول لتأمين تسوية يمكن التفاوض بشأنها » .

ومن الخطب النسائية الشهيرة تلك التي ألقتها فى لندن « إيميلين بانكهيرست » (١٨٥٧-١٩٢٨) زعيمة الحركة النسائية في بريطانيا في ١٧ أكتوبر ١٩١٢ ، حين قالت في سياق تأكيد التزامها بحركة « سفراجيت» (أنصار حق المرأة في التصويت) النسائية : « إننا في جيش « سفراجيت » لدينا مهمة عظيمة ، بل أعظم مهمة عرفها العالم . إنها تحرير نصف الجنس البشري ومن خلال تلك الحرية نحمي النصف الآخر . إنني أدعو هذا الاجتماع إلى التمرد » !

« طوني دولان » كتب خطاب « إمبراطورية الشر » الشهير للرئيس الأمريكي الأسبق « رونالد ريجان » ، الذي نعت فيه الاتحاد السوفيتي السابق بهذا النعت . جرت وقائع الخطاب في العاصمة واشنطن في ٢٨ يناير ١٩٨٦ ، وقال فيه « ريجان » مخاطبا الشعب الأمريكي عقب كارثة انفجار المكوك الفضائي « تشالينجر » بعد ثوان من إطلاقه : « إن المستقبل لا ينتمي إلى صاحب القلب الضعيف . . إنه ينتمي إلى الشجاع . إن طاقم المكوك « تشالينجر » كانوا يسحبوننا إلى المستقبل . . ونحن لن ننساهم وهم يلوحون بتحية الوداع ، وهم يسقطون على الأرض « ليلمسوا وجه الله » .

والجملة الأخيرة مقولة مأخوذة عن شعر « رحلة مرتفعة » لطيار الحرب العالمية الثانية « چون جيليسبي ماجي » .

يقول كاتب الخطاب دولان : « بعد مائة سنة من الآن ، فإن المؤرخين سوف يرون بوضوح الدليل على كيف كنا ننظر بوضوح وسطحية أيضا إلى زمننا » .

وهو محق في ذلك فقد انهار الاتحاد السوفيتي ، ولم يعد « إمبراطورية الشر » -على الأقل بالنسبة للولايات المتحدة- واختلفت كثيرا قواعد اللعبة السياسية بعد زمن الحرب الباردة وخروج موسكو من حلبة سباق القوى الدولية ، ولو بشكل مؤقت .

وحين تنازل الملك « إدوارد الثامن » عن العرش البريطاني حتى يتزوج المرأة التي أحبها ، وهي سيدة مطلقة تدعى « واليس سمسون » ، ألقى خطابا شهيرا وذلك في لندن في ١٠ ديسمبر ١٩٣٦ . يومها قال « إدوارد الثامن » : « بعد تفكير طويل وقلق ، قررت التنازل عن العرش . . . إن العبء الذي يستقر فوق كتفي شخص ذي سيادة ، ثقيل جدا لدرجة أنه يمكن فقط تحمله في ظروف مختلفة عن تلك التي أجد نفسي فيها الآن» .

وفي خطاب تنصيبه رئيسا للولايات المتحدة في العاصمة الأمريكية واشنطن في ٤ مارس ١٩٦١ ، وضع « چون كيندي » معايير جديدة لخطب تولي المنصب الرئاسي في الولايات المتحدة ، إذ قال : « وهكذا ، يا رفاقي الأمريكيين لا تسألوا ماذا يمكن أن تفعلوا لبلدكم ، رفاقي مواطني العالم ، لا تسألوا ماذا يمكن أن تفعله أمريكا لكم ،

ولكن ماذا يمكن أن تفعل بلدكم من أجلكم ، سلوا ماذا يمكن أن تفعلوا معا من أجل حرية الإنسان » .

الرئيس الأمريكي « فرانكلين روزفلت » ألقى خطابا في العاصمة واشنطن في ٤ مارس ١٩٣٣ بمناسبة توليه منصبه الرئاسي في محاولة لإزالة كابوس الكساد الكبير الذي عم الولايات المتحدة آنذاك ، فقال : « إن هذه الأمة العظيمة سوف تتحمل كما تحملت وسوف تنتعش وتزدهر . وهكذا ، باديء ذي بدء دعوني أؤكد اعتقادي المهم بأن الشيء الوحيد الذي يتعين أن نخشاه هو الخوف نفسه ، الخوف الذي بلا اسم ولا سبب ولا مبرر ، الذي يشمل جهودنا المطلوبة لتحويل التقهقر إلى تقدم » .

أما الرئيس الأمريكي « ليندون چونسون » فقد ألقى خطابا في العاصمة واشنطن في ١٥ مارس ١٩٦٥ ، أوصى خلاله بالموافقة على قانون التصويت أمام جلسة مشتركة لمجلسي الشيوخ والنواب . وقال « چونسون » في خطابه الذي أدى إلى تمرير هذا القانون الانتخابي : « هذا البلد العظيم الغني الذي لا يهدأ ، يستطيع أن يوفر الفرصة والتعليم والأمل للجميع . . الجميع من السود والبيض . . الجميع من الشمال والجنوب ، من أصحاب الأسهم وعمال الصرف الصحي . هؤلاء هم الأعداء : الفقر والجهل والمرض . . ليس الإنسان وليسوا جيراننا الرفاق . . هؤلاء الأعداء سوف نتجاوزهم » .

ويرى البعض أن من أفضل خطب « فرانكلين روزفلت » تلك التي لم ينطق فيها حرفا واحدا! فقد حدث أن زار مستشفى عسكريا في منطقة بالمحيط الهادي ، وكان عديد من المصابين فقدوا إما أذرعهم وإما أرجلهم خلال المعارك الحربية ، وببساطة شديدة نزع « روزفلت » البطانية عن مقعده المتحرك حتى يرى الجنود الجرحى قدميه القعيدتين ، بينما أخذ يتحرك بمقعده داخل غرف المستشفى .

وخلال خطاب « رياح التغيير » الذي ألقاه رئيس وزراء بريطانيا « هارولد ماكميلان » (١٨٩٤-١٩٨٦) في مدينة كيب تاون سنة ١٩٦٠ ، اعترف « ماكميلان » بحتمية استقلال الدول الإفريقية ، وقد وضع بعد استقالته من منصبه مؤلفا في ١٩٦٦ يحمل العنوان الذي اشتهر به خطابه الشهير : « رياح التغيير » . وفي أثناء خطاب كان

« ماكميلان » يلقيه أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة في ٢٩ سبتمبر ١٩٦٠ ، خلع الزعيم السوفيتى « نيكيتا خروتشيف » حذاءه وأخذ يضرب به فوق المكتب احتجاجا ، فرد ماكميلان قائلا : « السيد الرئيس ، ربما نستطيع الحصول على ترجمة ، إذ لم أتابع ما تريد قوله » . وفي البيت الأبيض الأمريكي ، لم تشفع علامات التأثر البادية على وجه الرئيس الأمريكى « ريتشارد نيكسون » له في أثناء إلقائه خطاب استقالته من منصبه في ٨ أغسطس ١٩٧٤ .

وفي خطاب تاريخي ألقاه عبر شاشات التليفزيون في ٢٥ ديسمبر ١٩٩١ ، أعلن الرئيس السوفيتي « ميخائيل جورباتشيف » استقالته من منصبه كرئيس للاتحاد السوفيتي ، معلنا بذلك سقوط قلعة الشيوعية في العالم ، وزوال الاتحاد السوفيتي من على خريطة العالم السياسية . وقال « جورباتشيف » في خطابه الذي أذيع على الهواء مباشرة في أكثر من دولة من دول العالم : « إنه في ضوء الأوضاع الراهنة ، وبعد الإعلان عن تشكيل الكومنولث الجديد للدول المستقلة ، فإنني أنهي دوري كرئيس للاتحاد السوفيتي » . وأكد « جورباتشيف » - الذي بدا متجهما - أنه ليس سعيدا على الإطلاق لفشله في الحفاظ على وحدة الاتحاد السوفيتي ، والإبقاء على الجمهوريات السوفيتية معا . وقال : « إن الأحداث سارت في طريق مختلف حيث أصبح الاتجاه نحو تفكيك أوصال الدولة وانفصال الجمهوريات هو الاتجاه السائد » .

وفي يوليو ١٩٩٧ استعادت الصين جزيرة هونج كونج بعد أكثر من ١٥٠ سنة من الاحتلال البريطاني . وقال « تونج تشي هوا » الحاكم الجديد للجزيرة في حفل التسلم والتسليم : « ستصبح هونج كونج المكان الذي يفخر بأصوله واستقراره وحريته وديمقراطيته ومجتمعه المزدهر » .

ومن فوق منبر الأمم المتحدة أيضا تحدث « ياسر عرفات » كرئيس لمنظمة التحرير الفلسطينية في ١٣ نوفمبر ١٩٧٤ قائلا في خطاب شهير : « جئتكم أحمل بندقيتي في يد ، وغصن الزيتون في اليد الأخرى . لا تسقطوا غصن الزيتون من يدي ! » ، في دعوة فلسطينية صريحة إلى السلام العادل والشامل في الشرق الأوسط .

وأثار « هتلر » الحماس في صفوف المؤيدين لأفكاره النازية المتعصبة ، طوال عقد الثلاثينيات حتى نهاية الحرب العالمية الثانية وانتحاره في ١٩٤٥ ، بينما أثار الرئيس العراقي « صدام حسين » ضجة دعائية واسعة في صيف ١٩٩٠ ، حين هدد بحرق نصف إسرائيل بالأسلحة الكيميائية ، وبعدها استدار ليحتل جارته الكويت فجر ٢ أغسطس ١٩٩٠ ! وقبلها كان « صدام » قد أشعل - مع إطلالة عقد الثمانينيات - نار الحرب العراقية - الإيرانية ، في خطاب أعلن فيه إلغاء اتفاقية الجزائر الموقعة مع إيران ، ومزق نص المعاهدة علنا ، مما مهد الطريق أمام حرب السنوات الثماني بين البلدين التي استنزفت مقدرات البلدين ، وأزهقت أرواح أبناء الشعبين .

وفي النهاية ، وافق الزعيم الإيراني « الخميني » في ١٩٨٨ على التسوية السلمية مع العراق وفق قرار دولي ، ووصف قبوله بذلك بأنه أصعب من « تجرع السم » .

وتمر الأيام والسنوات ، ويأتي الرئيس الإيراني المعتدل « محمد خاتمي » في منتصف أغسطس ١٩٩٧ ليلقي خطابا تليفزيونيا ، تحدث فيه إلى الشعب الإيراني قبل توجهه إلى معقل المتشددين في مجلس الشورى ، قال فيه : « بيني وبينكم الشعب الإيراني . . قرروا ما تريدونه ، وسيبقى للشعب الحكم الأخير » .

كلمة السر : ديليسبس

وفي مصر والعالم العربى ، تبرز خطب الزعيمين الوطنيين « سعد زغلول » و« مصطفى كامل » . ويكفي أن نشير إلى الخطبة الشهيرة التي ألقاها « سعد زغلول » في شبرا ، وأدت إلى اشتعال مظاهرات ٢٥ مايو ١٩٢٥ ، التي سقط خلالها عشرات القتلى والجرحى من الجانبين ، وانتهت بسقوط حكومة « عدلي يكن » نفسها . كانت الخلافات قد احتدمت بين « سعد زغلول » وحكومة « عدلي يكن » بسبب الصراع حول رئاسة وفد مصر إلى مفاوضات الاستقلال . وجاءت كلمات سعد زغلول واضحة صريحة ، إذ قال إن حكومة عدلي يكن لا تمثل الأمة « لا حقيقة ولا حكما بل تمثل سلطة الحماية المفروضة عليكم » . الأدهى من ذلك أن الزعيم الكبير اعتبر رئاسة «عدلي يكن» لوفد المفاوضات « معناها أن چورچ الخامس (ملك بريطانيا آنذاك) يفاوض چورچ الخامس » .

وتبقى في الذاكرة خطب الرئيس الراحل « جمال عبد الناصر » ، خاصة الخطاب الذى ألقاه يوم ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٦ في الإسكندرية ، فقد ذكر « عبد الناصر » المستمعين بالمهانة ، التي كان يفرضها المحتل على شعب مصر قبل قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . . قال « عبد الناصر » : « لقد أعادت الثورة للشعب كرامته ، بعد أن كان قد سلبها المندوب السامي البريطاني ثم السفير البريطاني . . فيما بعد » .

وأخذ « عبد الناصر » يشرح كيف أرادت واشنطن معاقبة مصر ؛ لأنها رفضت الدخول في أحلاف عسكرية ، كما أرادت أن تفسد علاقاتها الاقتصادية مع الدول التي تتعامل معها .

وجاءت العبارة التي كان « عبد الناصر » متفقا عليها مع المهندس «محمود يونس» لتنفيذ قرار تأميم قناة السويس حين قال : « لقد أشعرني مستر بلاك بأنني أجلس أمام فرديناند ديليسبس » ، واستطرد قائلا : « ووفقا لتوجيهات ديليسبس القاسية مات ما يزيد عن مائة ألف عامل مصري اشتركوا في حفر القناة . . قناة لاتخصهم ولا تخص بلدهم ، ولكن تخص شركة أجنبية ، امتصت الأرباح العائدة لا لمصالح مصر ولكن لزيادة ثراء أصحاب الشركة . . ولكن أيام الاستغلال الأجنبي قد ولت ، ومن ثم ينبغي أن تعود القناة وأرباحها إلى مصر » .

وقرأ « عبد الناصر » قرار التأميم ، الذي نصت مادته الأولى على ما يلي : » تؤمم الشركة العالمية لقناة السويس البحرية (شركة مساهمة مصرية) وتنتقل إلى الدولة جميع ما لها من أموال وحقوق وما عليها من التزامات ، وتحل جميع الهيئات واللجان القائمة حاليا على إدارتها ، ويعوض المساهمون وحملة حصص التأسيس عما يملكونه من أسهم وحصص بقيمتها المقدرة ، بحسب سعر الإقفال السابق على تاريخ العمل بهذا القانون في بورصة الأوراق المالية بباريس ، ويتم دفع هذا التعويض بعد إتمام استلام الدولة لجميع أموال وممتلكات الشركة المؤسسة » . وأنهى عبد الناصر خطابه بصيحة هزت الجماهير : « سوف نبني السد العالي ، وسوف نعيد حقوقنا المسلوبة » . لقد كان تأميم قناة السويس « ضربة معلم » لاستقلال إرادة العرب . . . وخطوة دعمت شعبية « عبد الناصر » في أنحاء العالم العربي .

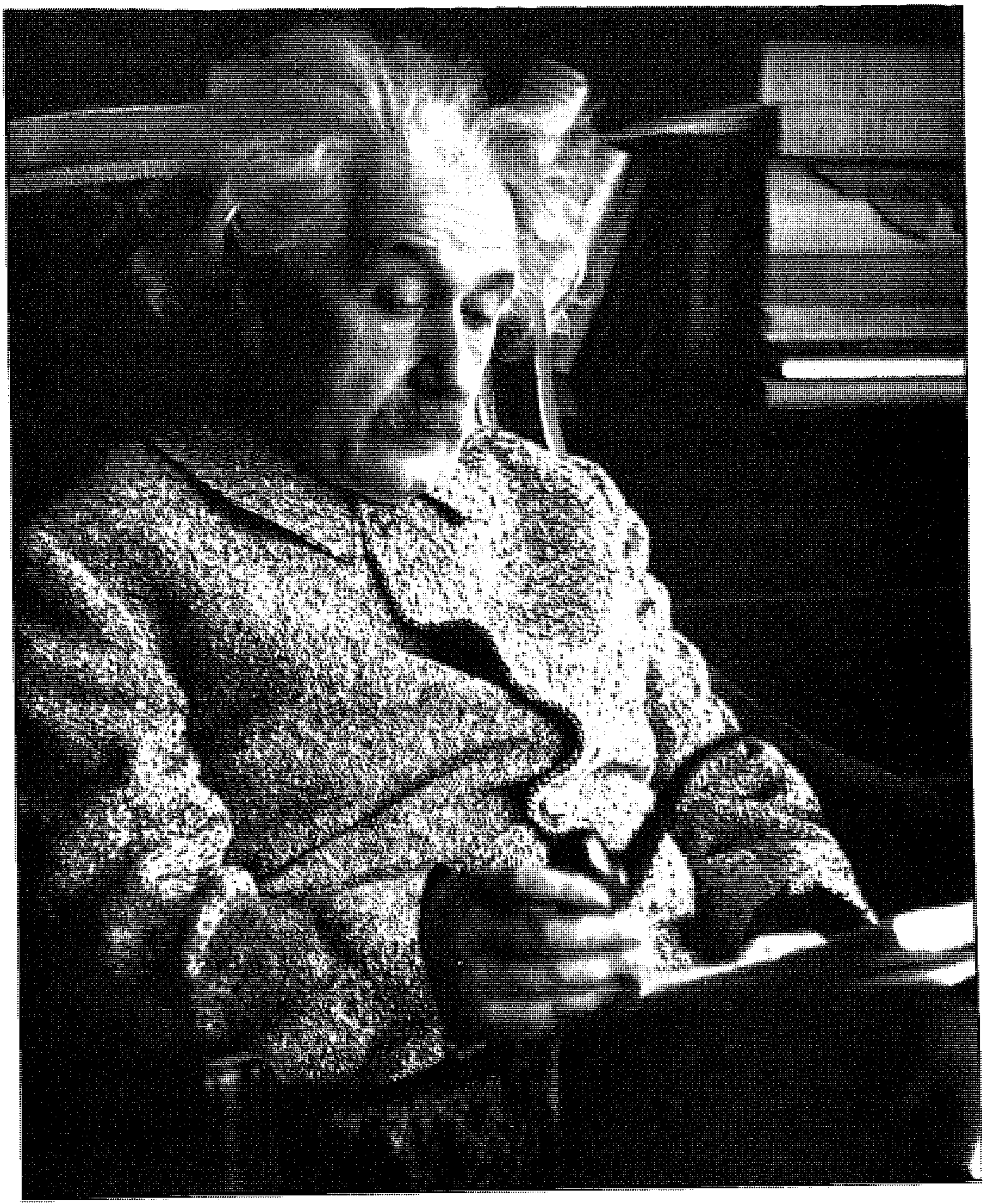
ولا ينسى أحد الخطاب التاريخي الذي ألقاه الرئيس « حسنى مبارك » بمناسبة رفع علم مصر فوق سيناء الحبيبة في ٢٥ إبريل ١٩٨٢ واستردادها بعد طول غياب . . لقد هز الرئيس « مبارك » مشاعر المصريين والعرب في هذا الخطاب ، الذي جاء في توقيت حساس ومنعطف مهم بالنسبة لمصر وسائر دول المنطقة .

كذلك فإن خطاب التنحي الذي ألقاه « عبد الناصر » في ٩ يونيو ١٩٦٧ تعقيبًا على هزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧ ، أخرج المصريين والعرب إلى الشوارع في رد فعل عفوي في ٩و ١٠ يونيو ، إعلانا عن استمساكهم باستمرار « عبد الناصر » في السلطة . تحدث « عبد الناصر » في خطابه ، الذي وجهه إلى الأمة عن تطورات الأزمة ، مؤكدا أن «أمامنا الآن عدة مهام عاجلة » حددها بإزالة آثار العدوان وإدراك درس النكسة . ثم قال « نصل الآن إلى نقطة مهمة في هذه المكاشفة بسؤال أنفسنا : هل معنى ذلك أننا لا نتحمل مسئولية في تبعات هذه النكسة ؟ وأقول لكم بصدق - وبرغم أية عوامل قد أكون بنيت عليها موقفي في الأزمة - فإنني على استعداد لتحمل المسئولية كلها . . ولقد اتخذت قرارا أريدكم جميعا أن تساعدوني عليه . . لقد قررت أن أتنحى تماما ونهائيا عن أي منصب رسمي وأي دور سياسي . . وأن أعود إلى صفوف الجماهير . . أؤدي واجبي معها كأي مواطن آخر . . إن قوى الاستعمار تتصور أن « جمال عبد الناصر » هو عدوها . . وأريد أن يكون واضحا أمامهم أنها الأمة العربية كلها وليس « جمال عبد الناصر » . والقوى المعادية لحركة القومية العربية تحاول تصويرها دائما بأنها إمبراطورية لـ « عبد الناصر » . . وليس ذلك صحيحا . . لأن أمل الوحدة العربية بدأ قبل « جمال عبد الناصر » وسوف يبقى بعد « جمال عبد الناصر » .

وخلال السنوات التالية لهذا الحدث بدأت مرحلة جديدة من تاريخ مصر ، بلغت ذروتها بحرب العاشر من رمضان المجيدة في ٦ أكتوبر ١٩٧٣ ، التي ألقى بعدها الرئيس الراحل « أنور السادات » خطابا تاريخيا وجهه إلى شعب مصر ، مؤكدا أن إرادة المصري وإصراره على استرداد حقوقه وكرامته يفوقان بكثير أساطير إسرائيل من خط بارليف إلى قوات جولدا مائير - التي ماتت كمدا في ١١ إبريل ١٩٧٤ - وموشى ديان وإسحق رابين .

واهتز العالم وهو يستمع إلى خطاب الرئيس « السادات » أمام مجلس الشعب ، الذي أعلن فيه مبادرته بأنه مستعد للذهاب إلى أي مكان حتى إلى الكنيست الإسرائيلي نفسه من أجل السلام . المفاجأة الحقيقية أن « السادات » أقدم فعلا على خطوات لم يكن أي زعيم عربي يجرؤ على القيام بها - على الأقل علنا ، إذ زار العاهل الأردني الملك « حسين » إسرائيل سرا مرات عدة - ففي ١٩ نوفمبر ١٩٧٧ زار السادات القدس المحتلة ، ليلقي في اليوم التالي خطابا مثيرا للجدل أمام الكنيست الإسرائيلي ، وفي ٢٦ مارس ١٩٧٨ وقع مع رئيس الوزراء الإسرائيلي اليميني المتطرف « مناحيم بيجن » اتفاقية الصلح في قمة « كامب ديفيد » تحت رعاية الرئيس الأمريكي - آنذاك - «چيمي كارتر» .

* * *



ألبرت أنشتاين



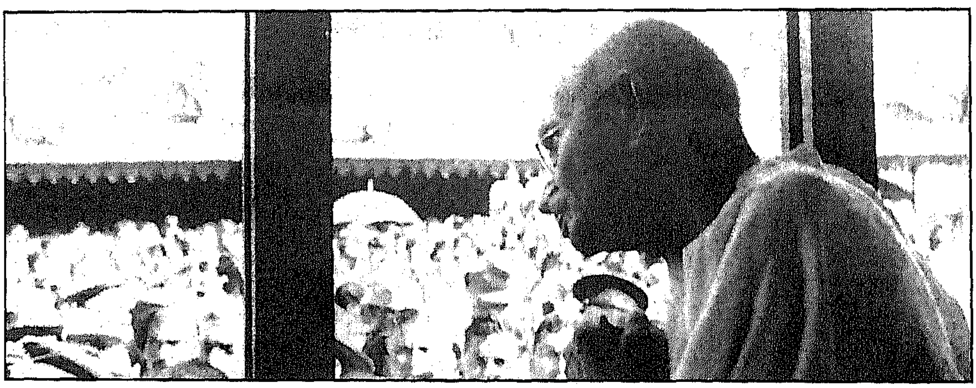
ونستون تشرشل

يا له من حشد من الشخصيات التي صنعت أحداث القرن العشرين !

ثروة طائلة من الأبطال و الأشـرار ، الساسة والثوار ، الحكام والمتمردين ، ظهروا خلال القرن الماضي . بعضهم هز العالم بالوصول : « المهاتما غاندي » في البحر لاستخراج الملح ، الدكتاتور « لينين » في محطة فنلندا . البعض الآخر أثار دهشة العالم برفضهم المغادرة : داعية حقوق الإنسان الأمريكية السوداء « روزا باركس » ، التي رفضت يوما ترك مقعدها في حافلة بدعوى أنه مخصص للبيض فقط ، ذلك الشاب الذي تصدى بجرأة يحسد عليها لدبابة قرب ميدان تيان آن مين خلال

23

أينشتاين .. انتصار العلم



المهاتما غاندي

مظاهرات الطلبة المؤيدين للديمقراطية في الصين في نهاية الثمانينيات . كما بر
مناضلون من أجل الحرية ، كان بوسعهم أن يجعلوا الحرية رمزا مضيئا وأملا منشو
حتى من خلف أسوار سجن برمنجهام ، وأحد سجون جنوب إفريقيا ، أو حتى ف
حوض للسفن في جدانسك البولندية .

وفي القرن العشرين ، صنع البعض أسماءهم ، بعد أن نجحوا في صنع آلا
تنتج وأخرى تفكر ، واكتشفوا عقاقير وطعوما ضد عدوى الأمراض ، وجزيئا
أوضحت أسرارا جديدة عن الحياة فوق الأرض منذ بدء الخليقة .

ولمعت شخصيات ألهمتنا بعبارات وردت على ألسنتهم سواء أكانت عبارا
تبعث على الأمل أم الألم ، مثل كلمات رئيس وزراء بريطانيا « ونستون تشرشل
خلال الحرب العالمية عن الصمود ، وتهديدات الدكتاتور الألماني « أدولف هتلر
والتحية النازية «هايل» ! ولذا فإن اختيار شخصية القرن يعد شيئا بالغ الصعوبة والدقة
وربما كان معيار الاختيار الذي اعتمدت عليه مجلة « تايم » الأمريكية في عدد
التذكاري عن أبرز شخصية خلال القرن العشرين ، هو الشيء الذي يمكن أن يعد ذكر
لذلك القرن المنصرم . ووسط ضبابية وتشابك الأحداث وأبطالها ، يمكن أن نميز ثلا
أشياء : الصراع الرهيب بين الشمولية و الديمقراطية ، وقدرة الأشخاص الشجعان عل
مقاومة السلطة بهدف تأمين وتأكيد الحقوق المدنية ، وانفجار المعرفة العلمية والتقن
التي كشفت عن أسرار الكون وساعدت على دعم حرية التفكير والأسواق .

وبالنسبة للمفهوم الأول ، فإن هناك أسماء بعينها تبرز بقوة مثل « الفوهرر
«أدولف هتلر» المتهم بارتكاب جرائم قتل جماعية ، وتدفق اللاجئين وتشريد الأبر
واحتلال الدول بالقوة . وعلى مسافة منه يبرز نجم آخر في عالم القتل هو الدكتاتو
السوفيتي « فلاديمير لينين » ، الذي بنى على الأيديولوجية الشيوعية نظاما شموليا
وحشيا ، وهكذا أهدى « لينين » إلى كل من « چوزيف ستالين » في الاتحاد السوفيتي
و« ماو تسي تونج » في الصين ، وإلى حد ما « هتلر » في ألمانيا ، أسلوب وتكتيكا
الحكم بقبضة من حديد .

وعلى الرغم من ذلك فإن كل هؤلاء هم جانب مظلم من أحداث القر
العشرين ، ولذا فقد اختارت مجلة « تايم » شخصا له جاذبيته - من وجهة نظرها

كبطل مناضل من أجل الحرية ، ونعني بذلك الرئيس الأمريكي «فرانكلين روزفلت» ، الشخص الوحيد الذي اختارته « تايم » ثلاث مرات من قبل باعتباره رجل السنة ، وذلك في سنوات ١٩٣٢ ، ١٩٣٤ ، ١٩٤١ . وترى المجلة الأمريكية - وهذا أحد أسباب الاختيار في تقديرنا - أن « روزفلت » ساعد على إنقاذ الرأسمالية من تحد خطير ، أي فترة الكساد الكبير ، كما حشد الصفوف للتصدي للفاشية .

ومن القيادات والزعامات الأخرى البارزة ، « ونستون تشرشل » رئيس وزراء بريطانيا الذي تصدى لأطماع « هتلر » قبل أن يدخل الساحة « روزفلت » ، وكان الأمر آنذاك أكثر صعوبة .

« هاري ترومان » ، رئيس أمريكي آخر امتلك القوة اللازمة للتصدي للسياسة التوسعية للسوفيت ، أما الرئيس الأمريكي « رونالد ريجان » والزعيم السوفيتي « ميخائيل جورباتشيف » ، فقد أسهما في نقل الصراع بين القوتين الرئيستين في العالم إلى مرحلة جديدة . وتشير المجلة أيضا إلى دور مؤثر لبابا الفاتيكان « يوحنا بولس الثاني » ، وهو بولندي الجنسية ، لكن المجلة تخلص إلى أهمية وتأثير « روزفلت » بوصفه تولى منصبه الرئاسي في مطلع ١٩٣٣ ، في الأسبوع نفسه الذي نال فيه « هتلر » صلاحيات طارئة في ألمانيا ، وعلى الرغم من كون البطالة في الولايات المتحدة قد قفزت خلال ثلاث سنوات من ٤ ملايين عاطل إلى ١٢ مليونا ، أي مالا يقل عن ربع القوة العاملة آنذاك ، فإن « روزفلت » نجح في مواجهة الظروف الاقتصادية العصيبة داخليا ، والتحديات والأخطار النازية والفاشية خارجيا .

كما تنوه « تايم » بدور تشرشل الذي قاد بريطانيا في أشد اللحظات العصيبة التي مرت بها في تاريخها إلى أفضل أوقاتها - على حد تعبيره - وتمكن من وضع حد للمد النازي الهائل وللأطماع السوفيتية ، وأثبت دعمه للديمقراطية . وربما رأت المجلة - للتخلص من حرج الموقف - أن تختار « تشرشل » بوصفه رجل النصف الأول من القرن العشرين !

حقوق الإنسان

وبالنسبة للمفهوم الثاني من الاختيار ، وهو الحقوق المدنية ، فإن القرن العشرين كان عصر الوحشية والعنصرية . لكن « المهاتما غاندي » اتبع أسلوبا فريدا من نوعه هو

« الساتياجراها » (المقاومة السلمية) و « أهيمسا » (التي تجسد الحب الذي يبقى بينما تزول كل صور العنف) . وهكذا قاد « غاندي » شعبه للمقاومة السلمية ، وهو الذي قال ذات يوم : « إن عدم العنف هو أكبر قوة يملكها الجنس البشري ، إنه أقوى حتى من أشد الأسلحة فتكا وتدميرا التي صنعها بنو الإنسان » .

جانب من تلك القوة يعود إلى رؤيته القائمة على تطهير المجتمع عن طريق تطهير روحه أولا ، لقد كان « غاندي » - والحق يقال - شخصية فذة ، قادت الشعب الهندي نحو التخلص من نير الاحتلال البريطاني . ويقول العالم الفذ « ألبرت اينشتاين » : « إن الأجيال القادمة لن تصدق إلا بصعوبة أن شخصية مثل غاندي كانت موجودة بشحمها ولحمها وسارت فوق الأرض » .

إن حياة « غاندي » اتسمت بالعصيان المدني ، حين كان محاميا شابا في جنوب إفريقيا ، إذ تعرض للتفرقة العنصرية داخل إحدى قاعات المحاكم لمجرد كونه ذا بشرة داكنة . . يومها رفض « غاندي » تلك التفرقة ، وذلك التحيز ، وظل معتصمًا طوال تلك الليلة داخل المحكمة . وتصاعدت وتيرة المقاومة السلمية في ١٩٣٠ ، حين كان في سن الحادية والستين ، حين قطع مع أتباعه مسيرة ٢٤٠ يوما للحصول على ملحهم من البحر مباشرة ، في تحد كبير للقوانين والضرائب الاستعمارية البريطانية . وبحلول الوقت الذي وصل فيه إلى البحر ، كان الآلاف قد انضموا إليه في مسيرته ، بينما احتذى به آلاف آخرون على امتداد ساحل الهند . وانتهى الأمر باعتقال ٦٠ ألف شخص من بينهم « غاندي » ، ولكن بدا واضحا من الذي سيخرج منتصرا في تلك المعركة .

لم يعش « غاندي » حتى يرى كل أحلامه تتحقق ، فقد نالت الهند استقلالها في نهاية الأمر ، غير أن الحرب بين الهندوس والمسلمين اشتعلت ، على الرغم من جهوده المبذولة للتهدئة ، وذلك في المخاض الدموي الذي أسفر عن مولد باكستان ، ثم اغتيل غاندي وهو في طريقه لأداء صلواته على يد هندوسي متعصب ، غير أن روحه وفلسفته أسهمتا في تغيير وجه القرن العشرين .

وكان من أبرز ورثته داعية حقوق الإنسان الأمريكي « مارتن لوثر كنج الابن » ، الذي أعلن ذات يوم أنه إذا كانت البشرية ستتطور فإنه لا مناص لها من أن تتبع نهج

« غاندي » . و« كنج » الذي بدأ في دراسة « غاندي » وهو في الكلية ، كان متشككا في إيمان المهاتما بسياسة المقاومة السلمية ، غير أنه تغير تدريجياً وحين وقعت مقاطعة الحافلات العامة للمطالبة بمساواة السود الأمريكيين بالبيض ، كتب قائلا : « إن أسلوب غاندي في المقاومة السلمية كان واحدا من أقوى الأسلحة المتاحة للسود في نضالهم من أجل الحرية » .

وهكذا كشفت مقاطعة الحافلات العامة ، والاعتصامات ، ومسيرات التظاهر من أجل الحرية ، وأخيرا مسيرة « سيلما » المشهورة باسم « يوم الأحد الدامي » فوق جسر أدمون بيتوس ، عن أن طريقة «غاندي» كانت الأصوب والأفضل في لحظات المواجهة .

ومن بعد « غاندي » ، جاء تلميذه النجيب « نلسون مانديلا » ، الذي نظم حملة في ١٩٥٢ لتحدي «قانون العبور» في جنوب إفريقيا العنصرية آنذاك ، والذي كان يفرض حظرا على دخول السود مدن الأقلية البيضاء . كذلك يتذكر العالم « روزا باركس » التي رفضت التخلي عن مقعدها فى حافلة مونتجمرى ، وفق القوانين العنصرية التي كانت تحكم الولايات المتحدة حتى ما بعد النصف الأول من القرن العشرين . هي روح « غاندي » إذًا التي دفعت « مانديلا » إلى الثورة ضد الحكم العنصري في جنوب إفريقيا ، وقادت دعاة حقوق الإنسان الأسود إلى مقاومة التفرقة والتمييز ضد الآخرين في الولايات المتحدة .

إن روح « غاندي » هي التي دفعت أيضا شخصا أعزل إلى التصدي لطابور من الدبابات ، التي كانت تتهادى باتجاه ميدان تيان آن مين في الصين ، وجعلت زعيم حركة « تضامن » العمالية في بولندا « ليخ فاونسا » يقود رفاقه من عمال بولندا إلى تنظيم إضراب عن الطعام ، بينما نظمت البريطانية « إيميلين بانكهيرست » أكثر من إضراب عن الطعام ؛ دفاعا عن حقوق الحركة النسائية ، وهكذا أيضا تظاهر الطلبة الأمريكيون احتجاجا على السقوط الأمريكي في مستنقع الحرب في فيتنام ، وأخذوا يحرقون أوراقهم مستلهمين روح « غاندي » .

عصر المعرفة

ويبقى المفهوم الثالث الذى اتخذت منه مجلة « تايم » الأمريكية معياراً لاختيار أبرز شخصيات القرن ، ونعني بذلك المعرفة العلمية والتقنية . وإذا كان من الصعب أن نقارن تأثير رجال الدولة بالعلماء ، فإن التطورات المذهلة والإيقاع اللاهث للاكتشافات العلمية ، التي شهدها القرن الماضي جعلت العلماء في كثير من الأحيان في مرتبة لا تقل أهمية ولا تأثيرا عن الساسة والقادة العسكريين .

كانت « تايم » قد اختارت « وليام الفاتح » (١٠٢٧-١٠٨٧) بوصفه شخصية القرن الحادي عشر ، والقائد العربي المسلم « الناصر صلاح الدين » (١١٣٨-١١٩٣) كشخصية القرن الثاني عشر ، و«جنكيز خان » (١١٦٧-١٢٢٧) كشخصية القرن الثالث عشر ، والفنان « جيوتو » (١٢٦٧-١٣٣٧) كشخصية القرن الرابع عشر ، ومخترع الطباعة « يوحنا جوتنبرج » (١٣٩٥-١٤٦٨) كشخصية القرن الخامس عشر ، والملكة « إليزابيث الأولى » (١٥٣٣-١٦٠٣) كشخصية القرن السادس عشر ، والعالم « إسحق نيوتن » (١٦٤٢-١٧٢٧) كشخصية القرن السابع عشر ، و« توماس چيفرسون » (١٧٤٣- ١٨٢٦) الذي شارك في صياغة إعلان الاستقلال الأمريكي كشخصية القرن الثامن عشر ، والمخترع الشهير « توماس إديسون » (١٨٤٧-١٩٣١) كشخصية القرن التاسع عشر .

وهكذا يبدو واضحا أن القادة العسكريين والساسة بدأوا يفسحون الطريق تدريجيا للعلماء والمخترعين كأبرز شخصيات القرون العشرة الماضية . كان القرن الثامن عشر على سبيل المثال قد تميز بأنه قرن رجال الدولة ، ففي ١٧٧٦ وحدها برز «توماس چيفرسون» ، و« بنيامين فرانكلين » ، اللذان وضعا إعلان الاستقلال الأمريكي ، بينما نشر « آدم سميث » كتابه «ثورة الأمم» ، وقاد « چورچ واشنطن » القوى الثورية في أمريكا . وفي المقابل كان القرن السابع عشر - بغض النظر عن وجود قادة بارزين أمثال « لويس الرابع عشر » - هو قرن العلم : « جاليليو » الذي سعى لاستكشاف الجاذبية والمجموعة الشمسية ، و« ديكارت » الذي طور الفلسفة الحديثة ، و« إسحق نيوتن » الذي اكتشف قوانين الحركة والجاذبية . وفي القرن السادس عشر ،

برز الفنانون أو المثقفون بشكل خاص : « مايكل أنجلو » و « ليوناردو دافنشي» و« وليام شكسبير » ، الذين صنعوا وأبدعوا الروائع ، بينما كانت الملكة « إليزابيث الأولى » بإصلاحاتها الشاملة ترسى مصطلح « العصر الإليزابيثي » .

وحين يتعلق الأمر بالقرن العشرين ، فإنه سوف يظل مرتبطا في الأذهان ، كما هي الحال بالنسبة للقرن السابع عشر ، بالتطورات المثيرة في مجال العلوم والتكنولوجيا . وهكذا فإن العبقرية العلمية تركت بصمة مهمة ومؤثرة على القرن الماضي ، بما يفوق بكثير الأثر الذي تركه رجال السياسة والقادة العسكريون . وهنا تنتصر مجلة « تايم » للعلم في عددها التذكاري عن شخصية القرن العشرين ، حين يقع اختيارها على العالم الفذ « ألبرت أينشتاين » الذي كان يرى أن السياسة لها تأثير لحظي ، أما المعادلة العلمية فهي تملك صفة الاستمرارية والبقاء لفترات أطول بكثير .

دعونا فقط ننظر إلى السنة التي ولد فيها القرن العشرون ، حين زار متحف باريس في ١٩٠٠ نحو ٥٠ مليون زائر أي ما يفوق تعداد سكان فرنسا ، ليشاهدوا البرقيات اللاسلكية ، وأشعة « إكس » ، وأجهزة التسجيل . هكذا كتب المؤرخ الرومانسي « هنري آدمز » معلقا على ما شاهده في باريس قائلا : « إنه قرن جديد ، وما نطلق عليه اسم الكهرباء هو رمزها الأعلى » .

في سنة ١٩٠٠ بدأ العالم يحل ألغازا ، ويفك طلاسم الذرة : « ماكس بلانك » أطلق النظرية الكمية باكتشاف انبعاث الذرة من حزمة أشعة ، كما بدأ رحلة فك ألغاز العقل ، فقد نشر عالم النفس الكبير « سيجموند فرويد » كتابه « تفسير الأحلام » في تلك السنة . « ماركوني » كان يستعد بدوره لإرسال إشارات لاسلكية عبر المحيط الأطلنطي ، بينما ذهب الأخوان « رايت » إلى كيتي هوك لصنع طائرتهما ، في حين تخرج طالب غير واعد يدعى « ألبرت أينشتاين » أخيرا -وبعد صعوبة- في الكلية في تلك السنة ، وسرعان ما اكتشف العالم خطأ « تشارلز ديول » مدير مكتب براءة الاختراع الأمريكي ، الذي قال في السنة السابقة « كل شيء قد تم اختراعه بالفعل » !

فقد شهدت مجالات علمية عدة تطورات كبيرة لدرجة أن كلا من تلك المجالات كانت قادرة على إفراز مرشحها لسباق شخصية القرن . ولنبدأ بالطب والدواء ، ففي

١٩٢٨ تمكن الباحث الأسكتلندي الشاب « الكسندر فلمنج » من اكتشاف البنسلين بالمصادفة ، حين ترك صحنا به بكتيريا داخل المعمل ثم ذهب في إجازة ، ولما عاد لاحظ أن هناك مادة منعت نمو الجراثيم . وسرعان ما اكتشف « فلمنج » البنسلين ، الذي يساعد على إنقاذ أرواح أعداد كبيرة من البشر تفوق عدد ضحايا حروب القرن مجتمعة .

ويمكن أن نعتبر « فلمنج » أحد رموز البحث العلمي خلال القرن الماضي ، شأنه في ذلك شأن «يوناس سالك» و« ديفيد هو » ، اللذين حاربا الأمراض ، لكن «فلمنج» لم يفعل شخصيا الكثير عقب لحظة الاكتشاف لتطوير البنسلين ، ولا كانت الحرب ضد الأمراض المعدية ناجحة في البداية بالشكل ، الذي يجعلها اللحظة المحورية في القرن العشرين .

التقدم الأكبر على المستوى البيولوجي خلال القرن الماضي ، كان في ٢٨ فبراير ١٩٥٣ ، حين طار « فرانس كريك» من الفرحة في كامبريدج ، وأعلن أنه نجح مع شركة « چيمس واطسون » في « اكتشاف سر الحياة » . كان « واطسون » قد وضع اسكتشا كيميائيا لحامض DNA ، الذي يعد المادة النووية الأولية في الجسم الحي . وربما كان اكتشاف الحامض النووي المذكور هو الكشف العلمي الذي عرفناه في القرن العشرين ، وينتظر أن يكون له تأثيره الكبير في القرن الحادى والعشرين ، فالعالم كان قد اقترب كثيرا في نهاية القرن العشرين من رسم خريطة متكاملة لنحو ١٠٠ ألف جين وراثي تم تشفيرها من جانب ٣ مليارات زوج من الحامض النووي . وهذا سوف يفتح الطريق أمام عقاقير جديدة ، والمزيد من التطور في مجال الهندسة الوراثية وعلاج الأطفال ، وهم لا يزالون في أرحام أمهاتهم .

غير أن هناك شيئين ضد التصويت لمصلحة « واطسون » و« كريك » كشخصية القرن ، أولهما أن دورهما - على العكس من « أينشتاين » كعالم ، أو « تشرشل » كسياسي - كان من الجائز أن يلعبه غيرهما إذا لم يكونا موجودين ، إذ إن شخصا مثل « لينوس بولنج » كان على مسافة أشهر قلائل من إطلاق صيحة « وجدتها » ، إضافة إلى ذلك . . فإن القرن العشرين ليس بأي حال قرن الهندسة الوراثية ، وإن كان القرن الحادي والعشرون مرشحا لأن يكون كذلك .

ولكن ماذا عن علماء التكنولوجيا؟ هناك على سبيل المثال « هنري فورد » ، الذي دفع مجال الإنتاج الجماعي للعربات ، وسرعان ما أصبحت السيارة أحد أهم المنتجات الاستهلاكية خلال القرن العشرين .

وأسهم « ولبور » و« أورفيل رايت » في تحويل حلم الطيران إلى حقيقة في ١٩٠٣ ، وهو تطور مهم كان له أثره البارز في السلم والحرب على حد سواء ، إذ ظهرت الطائرات المدنية والتجارية ، مثلما صنع الإنسان الطائرات الحربية . كما عرف العالم عصرا جديدا للمعلومات ، وفي ١٩٢٧ تمكن « ميلو فرانسوورث » من تفكيك صورة متحركة إلكترونيا وتحويلها إلى غرفة أخرى ، وقال : « هأنتم ترون التليفزيون الإلكتروني » . ولكن صراعا آخر نشب بظهور المخترع الشهير « فلاديمير زوريكين » ، الذي حاول إثبات أحقيته بالاختراع . وخلال عقد الثلاثينيات ، وصف « ألن تورنج » الكمبيوتر ، ثم ظهر رواد آخرون أمثال « چون فون نيومان » و« چون أتناسوف » و«چي . بريسبر إيكيرت » و« چون موتشلي » .

في غضون ذلك ظهرت مجموعة أخرى من العلماء ، أمثال « إنريكو فيرمي » و«جي . روبرت أوبنهايمر » ، تمكنت من حل أسرار الذرة بطريقة مختلفة ، أدت إلى صنع السلام الذي حسم الحرب العالمية الثانية ، وفى ١٩٤٧ اخترع « وليام شوكلي » -الذي اقترح ذات يوم تعقيم السود لمنعهم من توريث جيناتهم الدنيا !- وفريقه في مختبرات ومعامل بيل « الترانزستور » ليبدأ العصر الرقمي . وبعد عقد من ذلك التاريخ قدم « روبرت نويس » و« چاك كيلبي » طرقًا أحدث وأعقد لاستخدام الترانزستور ، من خلال ما أصبح يعرف لاحقا باسم شرائح « الميكروشيب » .

وهناك أسماء عدة تستحق أن تذكر لدورها في صنع شبكة الإنترنت ، التي بدأت في ١٩٦٩ كشبكة تربط بين أجهزة الكمبيوتر الجامعية ، ثم انطلقت في ١٩٧٤ حين نشر « فينت كيرف » و« روبرت كان » بروتوكولا مكن أي جهاز كمبيوتر على الشبكة من نقل وبث المعلومات لأي جهاز آخر ، ثم لعب « تيم برنرز- لي » في ١٩٩٠ دورا في إنشاء الشبكة العالمية للمعلومات « دبليو . دبليو . دبليو » ، التي جعلت الإنترنت أكثر تداولا وشعبية .

أي شخص من هؤلاء الذين وردت أسماؤهم يستحق الذكر ضمن قائمة أبرز شخصيات القرن ، لكن أيا منهم لم يسهم في تطور العلم والتكنولوجيا بالقدر ، الذي قام به العالم الكبير « ألبرت أينشتاين » ، حتى تحول إلى رمز للمعرفة الإنسانية خلال القرن العشرين .

وربما لهذا السبب - أو حتى لكونه رمزا لاضطهاد اليهود في أوروبا وما إلى ذلك من دوافع دعائية تعيد تذكير العالم بأن اليهود عانوا كثيرا - اختارت مجلة « تايم » « أينشتاين » ليكون مع « روزفلت » و« غاندي » أبرز شخصيات القرن الماضي .

عبقرية .. وندم

ويعد « أينشتاين » مفتاح الحل بالنسبة لكثير من الطلاسم العلمية ، من القنبلة الذرية إلى الكون . وحين ننظر إلى الوراء طوال السنوات المائة الماضية ، فإننا نتذكر حتما النضال من أجل الحرية والحقوق المدنية ، ولكن فوق كل شيء فإننا سوف ندرك كيف أسهم العلم والتكنولوجيا في تغيير شكل الحياة إلى حد كبير .

ولقد أسهم « أينشتاين » - المولود في مدينة أولم الألمانية في ١٤ مارس ١٨٧٩ ، والمتوفى في ١٨ إبريل ١٩٥٥ - في تطوير نظرية النسبية ، التي ترفض مفهوم الحركة المطلقة ، وتشرح كيف تبدو الحركة والسرعة والكتلة مختلفة ، اعتماداً على ملاحظة الإنسان . في نظرية النسبية يأخذ الزمن بعداً إضافيًا ، كالطول والعرض والارتفاع ، مما يعني وجود كون رباعي الأبعاد يطلق عليه اسم الزمن الفضاء . ويقول «أينشتاين» : إن الجاذبية ما هي إلا تشويه لذلك البعد ، يتضح أكثر ما يتضح بالقرب من الأجسام الكبيرة . وبما أن الضوء يسير في الفضاء في خط مستقيم ضمن محيط الفضاء . . فإن حزمة الضوء تنحني مع انحناءات هذا المحيط . وقد تم قياس هذا الانحناء لأول مرة في ١٩١٩ ، فكان بمنزلة تأكيد لنظرية « أينشتاين » . أدت هذه النظرية المعقدة إلى إرساء قواعد تطورات تكنولوجية هائلة ومذهلة في مختلف مجالات العلوم ، بما في ذلك الجاذبية ودراسة الفضاء ، والتفجير النووي ، مما جعلها أساسا للقنبلة الذرية .

فاز « أينشتاين » بجائزة نوبل في الفيزياء سنة ١٩٢١ ، وفي ١٩٣٣ هاجر إلى الولايات المتحدة وحصل على عمل في جامعة برينستون ، وبعد سنة تمت مصادرة

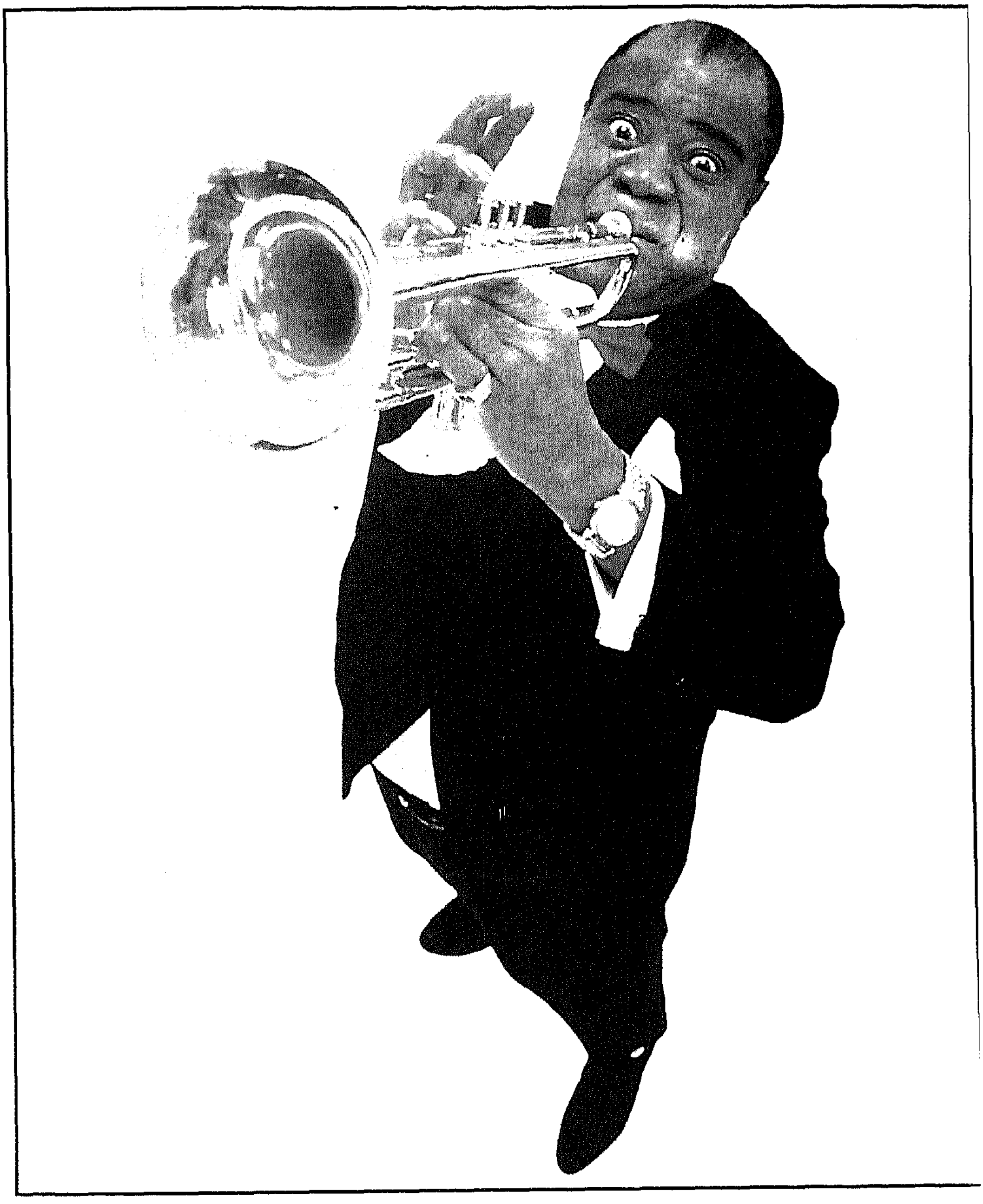
جميع أملاكه التي تركها وراءه في ألمانيا على أيدي الحكومة النازية على أساس أنه يهودي . وفي قرن سوف يذكر بشكل خاص على أنه قرن العلوم والتكنولوجيا ، خاصة قدرتنا على فهم واستيعاب قوى الذرة والكون ، فإن شخصا واحدا يبرز وينفرد -على حد قول « تايم » - كنموذج مثالي وعبقري للعقل وللتفكير في عصرنا ، هذا البروفيسور الطيب الشارد الذهن الذي يتميز بشعره الأشعث ونظراته الثاقبة ، الذي مزج بين الإنسانية والعبقرية الاستثنائية ، حتى أصبح وجهه رمزا ، واسمه علامة على النبوغ : « ألبرت أينشتاين » .

وكان « أينشتاين » مسئولا بدرجة جزئية عن قرار الرئيس الأمريكي « فرانكلين روزفلت » مواصلة صنع القنبلة الذرية ، فقد كتب رسالة إلى الرئيس الأمريكي في ١٩٣٩ يحذر فيها من أن الألمان قد يكررون التجارب الأمريكية باستخدام اليورانيوم ، ويتصور في هذا الصدد أن تلك التجارب قد تؤدي إلى صنع قنبلة شديدة القوة .

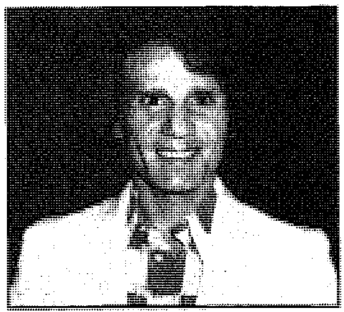
ولكن الأيام مرت حتى جاء ذلك اليوم الذي قال فيه « أينشتاين » آسفا ونادما : لو أنني كنت أعلم ، لاخترت أن أكون صانع أقفال!

مات « أينشتاين » في أثناء نومه ، وبعد حرق جثته ظل دماغه مغمورا في محلول خاص لدى الدكتور « توماس هارفي » الطبيب في مستشفى برينستون . وفي الثمانينيات تم تشريح الدماغ ، فلم يجد فيه الذين شرحوه شيئا غير عادي ، لكنه يظل الدماغ الذي تخيل البعد الرابع ، والذي حرر الإنسان من القيود التي تقيده إلى الزمن وإلى الفضاء المطلقين .

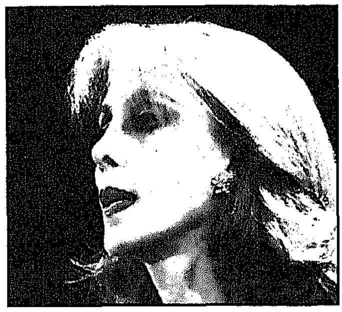
* * *



لويس أرمسترونج عازف الجاز الشهير



عبد الحليم حافظ



فيروز

24

نغم في حياتنا

لم تكن مجرد إيقاعات موسيقية بل ألحان هزت القلوب ، إنها أنغام من كل بقاع الأرض ، التي أبدعها المؤلفون الموسيقيون فتحولت إلى سيمفونيات وباليهات وأوبرات وكونشرتوهات ، أو أصبحت ألحانا تغنى بها أصحاب الأصوات التي رسخت طويلا في الأسماع والأذهان .

ومن موسيقى « سترافنسكي » و«رحمانينوف » إلى صوت « إديث بياف » و«ماريا كالاس » و« إلتون جون » . . ومن غناء فريق « البيتلز » البريطاني ، إلى فريق « بي چيز » الأمريكي ، وبينهما « إلفيس بريسلي » « ملك » الروك آند رول !



فريق « البيتلز » البريطاني

ومن أغنيات « سيد درويش » و« عبد الحليم حافظ » ، إلى ألحان « محمد عبد الوهاب » و« رياض السنباطي » و« بليغ حمدي » و« فريد الأطرش » وشدو « أم كلثوم » و« فيروز »ومواويل « صباح فخري » و« ناظم الغزالي » ، يبقى النغم ، ويعيش اللحن ، ونترنم بالأغنية التي تقاوم الزمن بعبقرية الإيقاع وروعة الأداء .

ومن أبرز الأعمال الموسيقية والغنائية خلال القرن العشرين « بلياس وميليزاند » لـ « كلود ديبوسي » (١٩٠٢) و« مدام بترفلاي » لـ « جياكومو بوتشيني » (١٩٠٤) ، و« أنشودة الأرض » لـ « جوستاف ماهلر » (١٩٠٩) وأوبرا « فارس الوردة » لـ « ريتشارد شتراوس » (١٩١٠) والسيمفونية الرابعة لـ « يان سيبليوس » (١٩١١) و« بتروشكى » لـ « إيجور سترافنسكي » ، و« المهرج الممسوس » لـ « أرنولد شونبرج » (١٩١٢) .

وربما تكون موسيقى القرن العشرين لم تبدأ بباليه « طقوس الربيع » ، ولكنه لا يوجد عمل مثله على مستوى العالم أكثر مرادفة للحداثة الموسيقية . وحين عرضت « طقوس الربيع » في ٢٩ مايو ١٩١٣ ، تبين للجميع مدى عبقرية «إيجور سترافنسكي» (١٧ يوليو ١٨٨٢-٦ إبريل ١٩٧١) ، وهو ابن مغن روسي شهير ، وتلميذ نجيب في عالم الأوركسترا للموسيقى الكبير « ريمسكي كورساكوف » ، والواقع أن الأداء المفرط فى القوة جعل من لحن باليه « سترافنسكي » الأكثر شهرة وألفة ، واستمتع عشاق الموسيقى والنغم بأحد مؤلفات الإسباني « مانويل دي فال » ، وهو « ليال في حدائق إسبانيا » ، الذي يتميز بالحس المرهف ، والإيقاعات الإسبانية الخالصة ، التي لا تخطئها الأذن ، كذلك فإن « كونشرتو الكمان » من سير« جي بروكوفيف » (١٩١٧) تميز بالأسلوب الشبابي ، وهو من الأعمال المبهجة لـ « بروكوفيف » ، قبل فترة وجيزة من مغادرته روسيا لمدة ١٨ سنة قضاها في المنفى .

المؤلف الموسيقي وعازف البيانو الشهير « سيرجي رحمانينوف » (١٨٧٣-١٩٤٣) الذى أشاد به يوما « تشايكوفسكي » ، أبدع أوبرا « الفارس البائس » و« فرانسيسكادا ريمني » وقدمهما ما بين سنتي ١٩٠٤ و١٩٠٦ . السير « إدوارد إلجار » قدم في ١٩١٩ كونشرتو للتشيلو من مقام مي صغير ، وهو يعكس الدمار الذي خلفته الحرب العالمية الأولى . أما « ألبان برج » فقد أبدع أوبرا « فوتشيك » في ١٩٢١ ، التي تتحول إلى

صرخة ألم تنعي فقدان الإيمان . ووضع « ليوش ياناتشيك » « حالة ماكروبولوس » (١٩٢٥) وقدم « سترافنسكي » « أبوللو » (١٩٢٨) و« سيمفونية المزامير » (١٩٣٠) ، و« موريس رافيل » « كونشرتو البيانو من مقام صول » (١٩٣١) ، و« كورت فيل » « الخطايا السبع المميتة » (١٩٣٣) ، و« بيلا بارتوك » - الذي يعد أهم مؤلف موسيقي في القرن العشرين بعد « سترافنسكي » - « الرباعية الوترية رقم٥ » (١٩٣٤) .

وفي السنة نفسها ، سعى « بول هيندميث » (١٨٩٥-١٩٦٣) المؤلف الموسيقي الألماني البارز إلى إحياء التقاليد الموسيقية الألمانية - النمساوية ، من خلال نزع الطابع الفاجنري عنها ، ليقدم أوبرا « ماتيس الرسام » (١٩٣٨) ، ومن قبلها أبدع « كارديلاك » (١٩٢٦) .

أما « سيرجي رحمانينوف » الذى تأثر بتيارات الحداثة ، فقد أبدع فى السنة نفسها « رابسودي على لحن لباجانيني » ، كذلك قدم الأمريكي « چورج جرشوين » « بورجي وبيس » . وتتضاعف أهمية أفضل مؤلف أغنيات أمريكي بوصفه مؤلف سلسلة من الأعمال الكلاسيكية ، التى نسج فيها موسيقى « الچاز » و« البلوز » والأغنية الشعبية ، مع مهارة وحساسية متزايدتين باطراد . ولم تحصد أوبرا أمريكية أخرى إطلاقا مثل النجاح الجماهيري ، الذي حققته « بورجي وبيس » ، ولم تبق أوبرا أمريكية أخرى في الذاكرة مثلها .

السير « وليام والتون » الذى سيطر على الموسيقى البريطانية طوال الثلاثينيات ، قدم في ١٩٣٥ السيمفونية رقم ١ من مقام مي خفيض صغير . « بيلا بارتوك » قدم موسيقى للوتريات وآلات النقر والسلستا ، ووضع « سيرجى بروكوفيف » « بيتر والذئب » و« روميو وچولييت » في ١٩٣٦ . وتعد « روميو وچولييت » من أكثر الباليهات التي ألفت في القرن العشرين شعبية ، وفي هذا العمل الدرامي الرائع ، يكشف « بروكوفيف » عن حساسية خارقة لشخصيته ، ومزاجية ينطبق عليها تماما تعبير « شكسبيرية » .

وبعد أن أهمل طويلا باعتباره مقلدا غير مهم ، أصبح « فرانسيس بولانك » في نهاية المطاف أعظم مؤلف موسيقي فرنسي في عصر ما بعد الانطباعية . وعلى الرغم

من تأثره الشديد بـ « سترافنسكي » ، فإنه نجح مع ذلك في أن يبقى صاحب أسلوب متفرد تماما ، وهو ما اتضح في « ذات نهار . . ذات ليل » (١٩٣٧) . وبعد أن اعتبر « الطفل المزعج » في مجال الموسيقى في سنوات الحكم السوفيتي الأول ، سرعان ما أصبح « ديمتري شوستاكوفتش » عدواً للنزعة المحافظة الفظة لمسئولي الثقافة لدى «ستالين» ، وكان « رده » هو السيمفونية الخاصة التي ألفها في ١٩٣٧ ؛ وفقا لنهجه الرومانسي الجديد الذي تكرر في سوناتا البيانو السابقة (١٩٤٢) .

وبالنسبة للولايات المتحدة . . فإن « آرون كوبلاند » يعد من أفضل المؤلفين الموسيقيين، وقد قدم في ١٩٤١ « سوناتا للبيانو »، وهي مقطوعة صعبة ترتبط بالألحان الشعبية للباليه التي شاعت في الأربعينيات . كذلك أبدع « كوبلاند » « ربيع أبالاشي » (١٩٤٤) . « بنچامين برتين » الذي عاش حياته محافظا ثوريا ، وحرص طوال مسيرته الفنية على تقديم أساليب مدهشة جديدة لإعادة صياغة أبسط الأفكار الهارمونية ، ومن ذلك « سيرينادة لتينور وهورن والوتريات » (١٩٤٣) ، كما وضع « رالف فوجان وليامز » السيمفونية الخامسة من « مقام ري » (١٩٤٣) التي أهداها لـ « سيبليوس » ، وهي عبارة عن تأملات غنية حافلة بالغنائية ، تلخص أفضل ما كان في الموسيقى البريطانية بين « إلجار وبنجامين بريتن » .

وعاش « ريتشارد شتراوس » (١٨٦٤-١٩٤٩) مؤلف « دون چوان » و« فارس الوردة » في عصر قمة الحداثة ، وعايش ما بعد الحرب العالمية الثانية ليصبح آخر المؤلفين الموسيقيين الرومانسيين ، ومن أعماله الخالدة « أربع أغنيات أخيرة » (١٩٤٨)، وقدم « أوليفر ميسيان » سيمفونية « تورانجاليل » (١٩٤٩) ، ووضع « صمويل باربر » « أغنيات الناسك » (١٩٥٣) ، و« فرانسيس بولانك » « الكرميليات » (١٩٥٦) ، و« ميكلوش روز » « كونشرتو الكمان » (١٩٥٦) ، أما « ديميتري شوستاكوفتش » فقد أبدع أيضا « الرباعية الوترية رقم ٨ من مقام دو الصغير » (١٩٦٠) و« السيمفونية رقم ١٤ » (١٩٦٩) .

القلب المحطم

وكم استمتع الجمهور بالموسيقى المختلفة مثل « الريجي » و« الروك آند رول » و« البلوز » وغيرها ، كما استمع الجمهور إلى فريق « البيتلز » الغنائي أسطورة عقد الستينيات بأعضائه : « چون لينون » ، « بول مكارتني » ، « چورچ هاريسون » ، و« رنجو ستار » . وذاعت شهرة أغنية « فندق القلب المحطم » للمغني «إلفيس بريسلي» التي استمع إليها الجمهور لأول مرة في ١٧ يناير ١٩٥٦ ، ومن يومها أطلق على «بريسلي» لقب « الملك » وكذلك « أبو الروك آند رول » ، وهو الذي هز عشاق الموسيقى الغربية لسنوات طوال على إيقاعات الروك ، التي لها جذور عميقة في « الريتم » و« البلوز » .

« سام فيليبس » الذي أنتج أول الأعمال البارزة لـ« بريسلي » سنة ١٩٥٥ في استوديو « صن ريكوردز » في ممفيس ، اعترف بأنه كان يبحث في « بريسلي » عن «صوت أسود داخل فتى أبيض البشرة» وهكذا عثر فيليبس على ضالته ، والذي جمع بين موسيقى « الروك » لـ« تشاك بيري » (صاحب أغنية Roll Over Beethoven سنة ١٩٥٦) وإيقاع « البلوز » لـ« مادي ووكرز » . ولكن « الملك » فقد بعضا من شهرته ، قبيل نهايته ، حين تعرض المغني وكاتب الأغنيات الموهوب « بادي هولي » لحادث طائرة أودى بحياته .

وفي سنة ١٩٦٥ قدم « بيت تاونسند » أغنية The Who's ، التي اعتبرت أشبه بالنشيد القومي لجيل الشباب المزهو بنفسه ، حيث لمست وترا لدى المناهضين للثقافة ، ورسخت في الأذهان الجملة الغنائية القائلة « أتمنى أن أموت قبل أن أشيخ » . تألقت موسيقى الروك في موطنها حتى فبراير ١٩٦٤ ، حين برز فريق موسيقى البوب البريطاني « البيتلز » في استعراض « إد سوليفان » سنة ١٩٦٤ الذي شاهده ٧٠ مليون متفرج ، وتميز الفريق بالجاذبية والحيوية وأدار أعماله « بريان إيبشتاين » ، الذي نجح في قيادة « المدهشون الأربعة » لغزو الولايات المتحدة من خلال الموسيقى البسيطة والأنغام المحبوبة . لكن هذا الفريق الغنائي - الذي عقد أول جلسة تسجيل غنائية له سنة ١٩٦٢ ، وحققت ٢٠ من أغنياته المركز الأول في سباق الأغنيات - تعرض للانفصال سنة ١٩٧٠ بسبب الخلافات بين أعضائه .

وفي السبعينيات ظهر الفريق الغنائي الأمريكي Bee Gees الذى يتكون من ثلاثة أشقاء ، انضم إليهم أحيانا الشقيق الرابع « آندي » الذي مات شابا بسبب إدمانه الكوكايين ، وقدم هذا الفريق عدة أغنيات شهيرة مثل Stayin' Alive و Saturday Night Fever (١٩٧٧) .

وتمكن المغني والشاعر الغنائي الأمريكي« بوب ديلان » (٢٤ مايو ١٩٤١-) المولود باسم « روبرت ألان زيمرمان » ، من إعطاء دفعة قوية لموسيقى البوب ، خاصة بعد مشاركته في مهرجان نيوبورت للموسيقي الشعبية في سنة ١٩٦٥ . قدم « ديلان » أغنيتي The Times They Are a-Changin و Blonde on Blonde (١٩٦٤-١٩٦٦) ، وفي ١٩٩٨ فازت أغنيته Time Out of Mind بجائزة Grammy كأفضل ألبوم غنائي في تللك السنة . وفي ١٩٨٤ ترددت أغنية Material Girl التي أدتها « مادونا » على ألسنة الملايين من الفتيات اللاتي بدون مقتنعات بما تقوله كلمات الأغنية : « إننا نعيش في عالم مادي ، أنا فتاة مادية » !

و« مادونا لويس فيرونيكا شيشوني » ، المولودة في باي سيتي من أعمال ميتشيجان في الولايات المتحدة في ١٦ أغسطس ١٩٥٨ ، أمريكية من أصل إيطالي ، لم تكن معروفة بأكثر من شعرها الأسود الداكن ، الذي دأبت على صبغه بألوان أخرى بعد أن أصبحت مشهورة . كان أبوها مهندس السيارات كاثوليكيا متزمتا : فقد منع أولاده -بمن فيهم نجمة التليفزيون اللاحقة- من مشاهدة التليفزيون! لكن «مادونا» التي تحولت إلى أيقونة جنسية في الثمانينيات ، وأثارت حنق الفاتيكان بسبب فيديو «الصلاة» الذي تغني فيه بينما الصلبان تحترق ، حققت نجاحها البارز الأول في عالم «البوب » سنة ١٩٨٤ مع أغنية « هاليداي ، لتتحول تلك المغنية التي تزوجت من البريطاني « جي ريتشي » في ديسمبر ٢٠٠٠ إلى رمز للغناء والإثارة معا .

كما فجرت أغنية Smells Like Teen Spirit لفريق نيرفانا سنة ١٩٨١ مشاعر جيل من الشباب الضائع ، الذي نشأ بعض أفراده في بيئة مفككة ، وتبنى أفكارا مشوشة ، ومال إلى التشاؤم .

ليلة لا تنسى

ولا ينسى عشاق موسيقى « الجاز » تاريخ ٧ يوليو ١٩٥٦ ، إذ يعد العرض الذي قدم في تلك الليلة من أفضل عروض الجاز خلال القرن العشرين ، فقد كانت آخر ليلة من مهرجان موسيقى الجاز في نيويورك . وليلتها قاد الفرقة الكبرى «ديوك إيلينجتون» لتقديم العرض الكلاسيكي « ديمينوندو وكريسيندو في بلو » مع عازف الساكسفون التينور « بول جونسالفز » ، الذي أدى بأسلوب لم يسبق له مثيل .

بعدها بخمسة أسابيع ، نشرت مجلة « تايم » الأمريكية صورة « إيلينجتون » على غلافها ، وهي تقول إن هذا الحدث يعد نقطة تحول في المسيرة الفنية ، لأن فرقة «إيلينجتون» كانت مرة أخرى أكثر الأشياء إثارة في مجال الموسيقى . إن أسلوب المؤلف الموسيقي يضم رقي الكونشرتو وإثارة « الجاز » ، وتنحدر موسيقى « الجاز » -شأنها فى ذلك شأن « البلوز » - من الأمريكيين السود ، وكان من أبرز رموزها «لويس أرمسترونج» ، الذي يعد عمله الموسيقي « الخمسة الساخنة » خلال عقد العشرينيات من القطع الموسيقية الرائعة ، كما يبرز اسم عازف الكلارنيت وقائد الفريق الموسيقى « بيني جودمان » في عزفه كونشرتو في قاعة كارنيجي في ١٩٣٨ ؛ إذ يتميز عرض موسيقى الجاز المذكور بأنه مدهش ومثير .

خريطة المبدعين

ويعد « مانويل دي فايا » (١٨٧٦-١٩٤٦) أهم مؤلف موسيقي إسباني خلال القرن العشرين ، وبفضله وجدت إسبانيا مكانا لها على خريطة العالم الموسيقية . وليس مستغربا أن ينتمي هذا الفنان الإسباني إلى الأندلس ، ولعل هذا يفسر ذلك السحر الغامض الذي تشع به بعض أعماله ، مثل باليه « الحب الساحر » وعمله السيمفوني الكبير « ليال في حدائق إسبانيا » .

نحو ثلثي قرن هي المدة التي تفصل بين أول وآخر مؤلفات البريطاني « رالف فون وليامز » (١٨٧٢-١٩٥٨) ، ومع ذلك فإنه لم يكرر نفسه ولم يتجمد ، على الرغم من نزوعه البريطاني للمحافظة . كتب « فون وليامز » تسع سيمفونيات ليس بينها اثنتان

متشابهتان في الطابع ، ومن أشهرها السيمفونية السادسة « مي الصغير » والسيمفونية الثانية « لندن » .

ويبرز الموسيقي البريطاني الذي ينحدر من أسرة اسكندنافية « جوستاف هولست » (١٨٧٤-١٩٣٤) ، وأشهر أعماله السيمفونية الكورالية سنة ١٩٢٤ و« الكواكب » . ويعد « بنجامين بريتن » (١٩١٣-١٩٧٦) مؤسس الأوبرا الإنجليزية الحديثة إبداعا وأداء ، ومن أهم مؤلفاته أوبرا « بيتر جرايمز » وأوبراه الأخيرة « الموت في البندقية » التي وضعها سنة ١٩٧٣ .

ومن الدول الإسكندنافية ، برع الفنلندي « جان سيبليوس » (١٨٦٥-١٩٥٧) صاحب الرنين الأوركسترالي الخاص ، والتناول المبتكر للبناء الموسيقي بعقلية معمارية فذة لم تتكرر منذ « بيتهوفن » ، إضافة إلى الفنلندي « روبرت كايانوس » (١٨٥٦-١٩٣٣) ، والدنماركي « كارل نيلسن » (١٨٦٥-١٩٣١) الذي يطلق عليه البعض لقب « سيبليوس الدنمارك » ، والسويدي « داج فيرين » (١٩٠٥-١٩٨٦) و«كارل بلومدال» (١٩١٦-١٩٦٨) . ويعد « أرنولد شونبرج » (١٨٧٤-١٩٥١) أبرز موسيقي أنجبته النمسا ، بينما تجلى نضج « جياكومو بوتشيني » (١٨٥٨-١٩٢٤) في أوبرا « توسكا » (١٩٠٠) و« مدام بترفلاي » .

المجري« بيلا بارتوك » (١٨٨١-١٩٤٥) هو إحدى العبقريات الموسيقية خلال القرن العشرين ، فقد كان خصب الخيال ، جرئ الابتكار ، وتميز باستيعابه وتوظيفه للموسيقى الشعبية المجرية . من أشهر أعمال « بارتوك » أوبرا « قصر الدوق ذي اللحية الزرقاء » (١٩١١ ولكن لم تعرض حتى ١٩١٨) وباليه « الأمير الخشبي » سنة ١٩١٦ ، وباليه « الحكيم الصيني العجيب » . ولم يكتسب المؤلف الموسيقي المجري « سلطان كوداي » (١٨٨٢-١٩٦٧) شهرته كمؤلف قومي فحسب ، بل تميز أيضا بجهوده المتصلة في البحث في الفولكلور ، واهتمامه بنشر الثقافة الموسيقية بين الأطفال والشباب ، وأكبر مؤلفاته الكورالية أوراتوريو « المزمور المجري » (١٩٢٣) . وعاش الروماني « چورچ إنسكو » (١٨٨١-١٩٥٥) حياة موسيقية بالغة الثراء ، وأشهر مؤلفاته « الرابسوديات الرومانية » ، بينما قدم اليوناني « ميكيس ثيودوراكيس » (١٩٢٥-) موسيقى قادرة على تحريك الجماهير ، وقد وفق بصفة خاصة في الموسيقى

التصويرية للمسرح والسينما ، التي كتب فيها إلكترا وسورباس « زوربا » وموسيقى فيلم Z وغيرها .

ويمثل البولندي « كارول شيمانوفسكي » الجيل الانتقالي بين « شوبان » والمدارس التجريبية ومؤلفيها المعاصرين التقدميين ، أمثال « لونوسلافسكي » و« سيروتسكي » وغيرهما . ومن أعماله باليه « هارنازي » وأوبرا « هاجيت » . وأهم أوبرات التشيكي «لايوش ياناتشيك» (١٨٥٤-١٩٢٨) هي « يينوفا » (١٩٠٤) و« رحلات السيد بروتشيك » (١٩١٧) .

وينفرد « إيجور سترافنسكي » بين مؤلفي القرن العشرين بمكانة رفيعة ، وهي مكانة تكاد تقارب « بيتهوفن » أو « فاجنر » . وضع « سترافنسكي » موسيقى باليه « فايربيرد » أو « عصفور النار » ، و« بتروشكا » و« طقوس الربيع » .

أما أشهر أعمال « آرام خاتشاتوريان » (١٩٠٣-١٩٧٨) ، الذي ينحدر من أصل أرميني كونشرتو البيانو (١٩٣٦) . ومن تركيا يعد « أحمد عدنان سايجون » (١٩٠٧-يناير ١٩٩٢) من الأسماء الكبيرة في عالم التأليف الموسيقي ، وله مؤلفات مهمة للكورال والأوركسترا ، أشهرها جميعا أوراتوريو « يونس إمري » (١٩٤٦) على أشعار للشاعر الصوفي التركي « يونس إمري » (من القرن الثالث عشر) ، وبذلك العمل كتب « سايجون » أول أوراتوريو إسلامي ، للغناء المنفرد والأوركسترا بأسلوب شرقي رائع .

وفي الولايات المتحدة كان « چورج جرشوين » (١٨٩٨-١٩٣٧) هو المؤلف الذي أزالت موسيقاه الحواجز بين موسيقى الترفيه والموسيقى الجادة ، وبين موسيقى أمريكا الخفيفة وتقاليد أوروبا العريقة ، وهو الذي رفع موسيقى « الچاز » من برودواي إلى قاعة كارنيجي . وفي ١٩٢٤ قدم للجمهور الرابسودية الزرقاء (أو بأسلوب البلوز) للبيانو ، التي لقيت نجاحا ساحقا ، واعتبرت نقطة تحول في الموسيقى الأمريكية ، لأنها جلبت معها بقاعة الكونسير مزاجًا جديداً تماما يتسم بالحيوية . ويعد الأمريكي «تشارلز آيفز » (١٨٧٤-١٩٥١) أول من ارتاد طرقا مجهولة وعرة نحو موسيقى أمريكية حقة . قدم « آيفز » أربع سيمفونيات ، ومن أهم ما وضع أغنياته البالغة التنوع والابتكار ويبلغ عددها ١١٤ أغنية ، لكن الجمهور لم يدرك آنذاك قيمة أعماله التي سبقت عصره .

ويعتبر « آرون كوبلاند » (١٩٠٠-١٩٩٠) صاحب الفضل في وضع موسيقى أمريكية ذات جذور محلية تبلغ آفاقا عالمية ، ومن مؤلفاته باليه « الفتى بيلي » (١٩٣٨) و« روديو » (١٩٤٢) و« ربيع أبالاشي » (١٩٤٤) ، وأوبرا « العاصفة الثانية » . وينظر إلى « روي هاريس » (١٨٩٨-١٩٧٩) على أنه مثال الموسيقى القومية الأمريكية ، وقد كتب ١٦ سيمفونية خلال الفترة بين ١٩٣٣-١٩٧٩ أشهرها سيمفونيته الثالثة وهي ذات حركة واحدة تنقسم داخليا إلى خمسة أقسام ، ما بين تراجيدي وغنائي وريفي . . إلخ .

« آنا صوفيا سيسيليا » التي اشتهرت باسم « ماريا كالاس » (١٩٢٣-١٩٧٧) هي سوبرانو متميزة من القرن العشرين . هذه السوبرانو المولودة في الولايات المتحدة ، والتي تعلمت في أثينا ، تربعت على قمة الغناء الأوبرالي في الخمسينيات والستينيات . التينور الإيطالي « لوتشيانو بافاروتي » (١٩٣٥-) من الأصوات الأوبرالية الشهيرة ، وقد شارك بالغناء في افتتاح كأس العالم لكرة القدم في إيطاليا ١٩٩٠ .

ومن أمريكا اللاتينية تبرز أعمال البرازيلي « هايتور فيلا لوبوس » (١٨٨٧-١٩٥٩) الذي يعد أشهر مؤلفي القارة اللاتينية عالميا وأثراهم خيالا ، والمكسيكي « كارلوس تشافيز » (١٨٩٩-١٩٧٨) ، الذي أجاد التعبير عن مبادئ الثورة المكسيكية ، والأرجنتيني « ألبرتو جيناستيرا » (١٩١٦-١٩٨٣) الذي استلهم ثلاثة أعمال موسيقية له من موسيقى وادي البامباناس الخصيب في الأرجنتين ، والتشيلي «بيدرو الليندي» (١٨٨٥-١٩٥٩) .

كروان الغناء الفرنسي «إديث بياف » (١٩١٥-١٩٦٣) بدأت مع والدها في السيرك ، ثم تحولت في سن الخامسة عشرة إلى مغنية في الشارع ، وأطلق عليها اسم «بياف» أي العصفورة . قدمت أول أداء غنائي لها في ١٩٣٦ ، وساعدها « موريس شيفاليه » لتصبح مغنية من طراز فريد ، ومن أعمالها الغنائية الشهيرة « كلا . . لست آسفة على أي شيء » و« حياتي الوردية » .

ومن الأصوات الفرنسية المتميزة أيضا المغنية « ميراي ماتيو » ، كذلك المغنية «داليدا» (١٩٣٣-١٩٨٧) ، ابنة حي شبرا التي هزت قلوب الفرنسيين بغنائها ، مثلما

صدمتهم بنبأ انتحارها في مايو ١٩٨٧ . اليونانية « نانا موسكوري » (٦٥ سنة) ذات الصوت العبقري الرقيق ، قدمت عبر ٤٠ سنة في عالم الغناء تسجيلات بيعت منها ٣٠٠ مليون نسخة ، ونالت أكثر من ٣٠٠ أسطوانة ذهبية وبلاتينية وماسية .

ولا ينسى البريطانيون كيف بكوا لدى سماعهم المغني الشهير سير «إلتون چون» ، وهو يغني « شمعة في مهب الريح » في وداع أميرة ويلز « ديانا » « أميرة القلوب » التي لقيت مصرعها في حادث سيارة في نهاية أغسطس ١٩٩٧ . و« إلتون چون » (المولود سنة ١٩٤٧ باسم ريجينالد كينيث دوايت) هو أحد أشهر نجوم موسيقى البوب منذ السبعينيات ، ومن أشهر أغنياته « لا تطلق علي النار . . إنني فقط عازف البيانو » (١٩٧٣) و« رجل أعزب » (١٩٧٩) . أما « فرانك سيناترا » (١٢ ديسمبر ١٩١٥-١٤ مايو ١٩٩٨) الذي حظي بشعبية جارفة في الولايات المتحدة ، وقام بجولات دولية خلال السبعينيات ، واشتهر بالغناء والمشاركة في الأفلام مثل « من هنا إلى الأبد » الذي نال عنه جائزة الأوسكار (١٩٥٤) و« المخبر » (١٩٦٨) ، فقد كان صاحب أغنيات رومانسية شهيرة .

المغنية الأمريكية « أريثا فرانكلين » (٢٥ مارس ١٩٤٢-) التي غنت في جنازة « مارتن لوثر كنج » ، ومناسبة تولي« بيل كلينتون » مهام منصبه كرئيس للولايات المتحدة ، نالت ١٧ جائزة جرامي . هذه المغنية التي حملت لقب « ملكة الروح » هي أول سيدة يوضع اسمها في قاعة الشهرة لمغني الروك آند رول ، وذلك في سنة ١٩٨٧ . وقبل ظهور « أريثا فرانكلين » ، شهد القرن العشرون نبوغ عدد من المغنيات السمراوات ، مثل : مغنية موسيقى الچاز « إيلا فيتزجيرالد » (١٩١٨-) ، « جيرترود «ما» ريني » (١٨٨٦- ١٩٣٩) المعروفة بلقب « أم موسيقى البلوز » ، « بيسي سميث » (١٨٩٤-١٩٣٧) التي وصفت بأنها « إمبراطورة البلوز » حيث بيعت ٧٥٠ ألف نسخة من أولى تسجيلاتها Down Hearted Blues سنة ١٩٢٣ ، وبلغ إجمالي ما بيع من أعمالها ما بين ٦ ملايين-١٠ ملايين نسخة ، و« بيلي هوليداي » (١٩١٥-١٩٥٩) ، التي تعد أشهر مغنية چاز خلال القرن الماضي . واعتبرت « ديانا روس » (٢٦ مارس ١٩٤٤-) من ألمع المغنيات في النصف الثاني من القرن العشرين .

كذلك برز « لويس أرمسترونج » (٤ أغسطس ١٩٠١-٦ يوليو ١٩٧١) عازف الترومبيت وصاحب الأسلوب الغنائي المميز ، الذي بدأ تسجيل Hot Five and Hot Seven سنة ١٩٢٥ ، وتألق في فيلم متروجولدوين ماير الموسيقي High Society سنة ١٩٥٦ ، وتربعت أغنيته Hello, Dolly! على قمة سباق الأغنيات سنة ١٩٦٤ . وإلى جانبه برز العازفون والمغنون السود « تشارلي باركر » (١٩٢٠-١٩٥٥) ، « كوينسي جونز » (١٩٣٣-) ، « ميلز ديفيز » (١٩٢٦-١٩٩١) ، « ديوك إيلينجتون » (١٨٩٩-١٩٧٤) ، و« ينتون مارساليس » (١٩٦١-) ، « أوتيس ريدنج » (١٩٤١-١٩٦٧) ، « جيمس براون» (١٩٢٨-) ، برنس «روجر نيلسون» (٧ يونيو ١٩٥٨-) ، و« مايكل جاكسون » (٢٩ أغسطس ١٩٥٨-) ، الذي اشتهر بغرابة أطواره ومحاولته تغيير ملامحه ولون بشرته عبر جراحة التجميل ومستحضرات التبييض ، والذي باع ألبومه Thriller الصادر سنة ١٩٨٢ نحو ٤١ مليون نسخة .

وتشير آخر طبعات القرن العشرين من كتاب « جينيس » للأرقام القياسية إلى أن أول ٢٠ أغنية في قائمة أعلى ٤٠ أغنية دخلا في تاريخ بريطانيا :Top Of The Pops All-Time Top 40 (1964-2000) كانت كالتالي :

1- Relax - Frankie Goes To Hollywood

2- She Loves You - The Beatles

3-My Way - Frank Sinatra

4- I Love You Because - Jim Reeves

5- Bohemian Rhapsody - Queen

6-(Everything I Do) I Do It For You - Bryan Adams

7- Love Is All Around - Wet Wet Wet

8- Rivers of Bablyon/Brown Girl In The Ring - Boney M

9- Albatross - Fleetwood Mac

10- Think Twice - Celine Dion

11- Release Me - Engelbert Humperdinck

12- The Last Waltz - Engelbert Humperdinck

13- Tears - Ken Dodd

14- Tie A Yellow Ribbon Round The Old Oak Tree

15- All Right Now - Free
16- Imagine - John Lennon
17- Amazing Grace - Judy Collins
18- Young Girl - Gray Puckett and The Union Gap
19- I Will Always Love You - Whitney Houston
20- You're The One That I Want - John Travolta and Olivia Newton-John

فنــان الشــعب

وعلى المستوى العربي ، تبرز أسماء بارزة في مجال الموسيقى ، من بينها « سيد درويش » (١٧ مارس ١٨٩٢-١٥ سبتمبر ١٩٢٣) ، الذي قدم ألحانا تعبر عن مشاعر شعب مصر في مختلف الأحداث الوطنية التي مر بها خاصة ثورة ١٩١٩ ، وكان لنشيد « بلادي بلادي » الذي استوحاه من كلمات الزعيم « مصطفى كامل » «بلادي بلادي لك حبي وفؤادي » أكبر الأثر في جماهير الشعب . ومن أعمال « سيد درويش » « فنان الشعب » نذكر أوبريت « شهر زاد » ولحن « قوم يا مصري » كلمات « بديع خيري » .

كما نذكر المؤلف الموسيقي المصري « يوسف جريس » (١٨٩٩-١٩٦١) ، الذي يعد أول عربي يكتب أعمالا للأوركسترا السيمفوني ، وعاصر « جريس » اثنين من زملائه هما : «حسن رشيد» (١٨٩٦-١٩٦٩) و« أبو بكر خيرت » (١٩١٠-١٩٦٣). ومن الثلاثة تكون جيل رواد التأليف الموسيقي في مصر ، وكان لجهود هؤلاء الرواد الثلاثة أكبر الأثر في الحياة الفنية في مصر من ناحية ، وفي تمهيد الطريق أمام جيل تال من مؤلفي الموسيقى الذين جاءوا بعدهم ، مثل « عزيز الشوان » (١٩١٦-١٩٩٣) ، الذي جاءت مؤلفاته متنوعة شملت الأوبرا والباليه والسيمفونية والكونشرتو والمتتالية ، ومن أشهر أعماله أوبرا « أنس الوجود » ، و« عبد الحليم نويرة » (١٩١٦-١٩٨٥) الذي استطاع تقديم مؤلفات موسيقية مصرية الطابع والجذور ، كما استفاد من علوم الموسيقى الأوروبية ، وجعل الأوركسترا ينطق بموسيقى عربية أصيلة .

وتضم قائمة أبرز الموسيقيين المصريين والعرب خلال القرن العشرين ، « كامل الرمالي » (المولود في ١٩٢٢) ، و« علي إسماعيل » (١٩٢٢-١٩٧٤) الذي طرق

مجال الغناء ووضع موسيقى الأفلام ببراعة شديدة ، وعطية شرارة (المولود في ١٩٢٣)، و« رفعت جرانة » (من مواليد ١٩٢٤) ، و« جمال عبد الرحيم » (١٩٢٤-١٩٨٨) ، و« حليم الضبع » (١٩٢٤-) ، والدكتور « سيد عوض » (١٩٢٦-) ، و« طه ناجي » (١٩٣٠-) ، و« عمر خيرت » (١٩٤٨-) ، و« راجح داود » (١٩٥٤-) ، و« عمار الشريعي » (١٩٤٨-) ، و« رمزي يسى » ، وغيرهم الكثير .

ومن لبنان يبرز كل من « وديع صبرا » الذي تعمق في دراسة الموسيقى في كونسرفتوار باريس ، وأنشأ في وطنه « دار الموسيقى » التي تحولت لاحقا إلى «الكونسرفتوار القومي اللبناني » ، وتمكن من مد الجسور بين الموسيقى الغربية والشرقية في مؤلفاته ، وأبرزها : « رعاة كنعان » و« الملكان »، وكذلك « توفيق سكر » ، و«بوغوص جلاليان » ، و« عبد الغني شعبان » ، و« حليم الرومي » ، والدكتور « وليد غلمية » ، والأب « يوسف خوري » ، و« سلفاتور عرنيطة » ، و« توفيق الباشا » (١٩٤٥-) الذي تتميز مؤلفاته بالمزج بين الموسيقى الغربية والشرقية ببراعة ، ومن أشهر أعماله «اسق العطاش » وسيمفونية « السلام » . كما برز من سوريا الشيخ « علي الدرويش » (١٨٨٤-١٩٥٢) ، والشيخ « عمر البطش » (١٨٨٥-١٩٥٠) ، و« توفيق الصباغ » (١٨٩٢-١٩٦٤) ، و« محمد قدري دلال » (١٩٤٦-) ، ومن العراق : «رشيد القندرجي » (١٨٦٦-١٩١٤)، و« الملا عثمان الموصلي المكفوف » (١٨٥٠-١٩٢٣)، و« محمد القبانجي » (المولود سنة ١٩٠٤) ، والعازفون : « صالح شميل » ، « ويوسف بتوني » ،و« محيي الدين حيدر » ، و« منير بشير » ، و« نصير شمة » ، ومن تونس « أحمد الوافي » (١٨٥٠-١٩٢١) حامل التراث الموسيقي واللحن الشامل .

أما في عالم التلحين والغناء على المستوى العربي . . فيتعين أن نشير إلى الشيخ « سلامة حجازي » (٤ فبراير ١٨٥٢-٤ أكتوبر ١٩١٧) ، و« داود حسني » (١٨٧٠- ١٩٣٧) ، وموسيقار الأجيال « محمد عبد الوهاب » (١٣ مارس ١٨٩٧- مايو ١٩٩١)، و«رياض السنباطي» (١٩٠٦-١٩٨١)، و«بليغ حمدي»

(١٩٣٤-١٩٩٣)، و« محـمـد الموجي » (١٩٢٣-١٩٩٥) ، و« فـريد الأطرش » (١٩١٠- ١٩٧٤)، و«سـيـد مكاوي » (١٩٢٦-١٩٩٧) ، و« زكـريا أحـمـد » (١٨٩٦-١٩٦١) الذي يلقب بالشيخ زكريا؛ لأنه بدأ حياته طالبا في الأزهر الشريف ، و« محـمـد القـصـبجي » (١٨٩٢- ١٩٦٦) ، و« كـامل الخلعي » (١٨٧٩-١٩٣٨) المشهور بكنية « عصفور الشوارع » ، والشيخ « إمام عيسى » (١٩١٧-١٩٩٥) ، و«كمال الطويل » (١٩٢٢-) ، والأخوين « عاصي » (١٩٢٣-٢١ يونيو ١٩٨٦) و«منصور رحباني » ، اللذين أسسا مدرسة خاصة في الموسيقى والغناء ، وكذلك العندليب الأسمر « عبد الحليم حافظ » (٢١ يونيو ١٩٢٩-٣٠ مارس ١٩٧٧) ، و«محمد فوزي » (١٩١٨-١٩٦٦) ، و«كارم محمود » (١٩٢٢-١٩٩٥) ، و« وديع الصافي » (١٩٢١-) ، و« مارسيل خليفة » (١٩٥٠-) ، وأستاذي المواويل : «العراقي ناظم الغزالي » (١٩٢١-سبتمبر ١٩٦٣) ، والسوري « صباح فخري » (١٩٣٣-) .

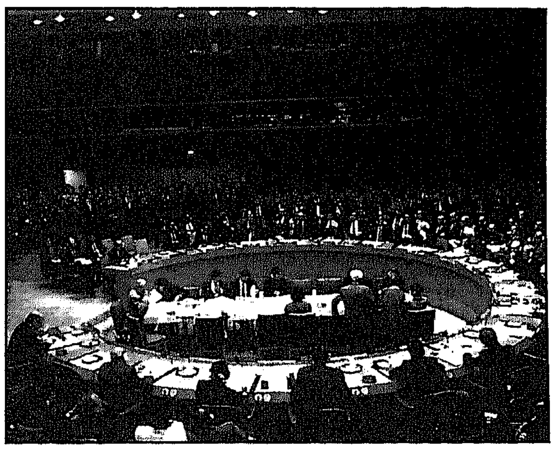
ومن الأصوات النسائية ، تقف بمفردها على القمة سيدة الغناء العربي « أم كلثوم » (٣٠ ديسمبر ١٨٩٨-٣ فبراير ١٩٧٥) ، التي ولدت في قرية طماي الزهايرة في محافظة الدقهلية ، وانطلقت نجوميتها من القاهرة إلى أنحاء العالم العربي ، بفضل أغنياتها الفريدة ، مثل : « الأطلال » ، و« أمل حياتي » ، و« سلوا قلبي » ، و« أنا في انتظارك » ، و« سلوا كئوس الطلا » ، و«رق الحبيب» ، و« ثورة الشك » ، و«أنساك» ، و«هجرتك» ، و« الحب كده » ، و« هذه ليلتي » ، و« ولد الهدى » ، و« سيرة الحب » . كما تتألق كل من « ليلى مراد » (١٧ فبراير ١٩١٨-١٩٩٥) ، وسفيرتنا إلى النجوم « فيروز » ، و« أسمهان » (١٩١٢-١٤ يوليو ١٩٤٤) صاحبة «ليالي الأنس في فيينا» ، و« ماجدة الرومي » (١٣ ديسمبر ١٩٥٦-) .

إنه جسر طويل من الغناء والطرب ، أمتعنا وأدهشنا وتحول إلى نغم رائع فى حياة الكثير منا .

* * *



كلينتون وعرفات ورابين وبيريز خلال توقيع اتفاقية السلام في واشنطن ١٩٩٣



مجلس الأمن الدولي

فوق البوارج الحربية ، وداخل الغرف المغلقة ، وأمام عدسات المصورين ، عقد عديد من المؤتمرات الرئيسة والمؤثرة خلال القرن العشرين . بعض تلك المؤتمرات أسهم في رسم ملامح جديدة للنظام العالمي ، وبعضها الآخر هدم أسس ذلك النظام بجرة قلم ، بل إننا لا نبالغ إذا قلنا إن بعضا منها لا يستحق إلا وصف « مؤامرات » !

وفي حين كانت تلك الاجتماعات تشمل عشرات الدول ، فإن مؤتمرات أخرى مثل مؤتمر يالطا اكتفت بثلاثة أشخاص فقط . . لكن ذلك كان كافيا لتقسيم العالم .

25

مؤتمرات .. ومؤامرات



قمة يالطا جمعت بين روزفلت وتشرشل وستالين

المؤتمرات والقمم لم تكن كلها إذًا خيرا . . والحقيقة أن عددا لا بأس به منها كان يخطط لتقسيم مناطق النفوذ واستكمال حلقات التآمر على هذه الدولة أو تلك . . وما أخطرها من قمم . وإذا كان مؤتمر لاهاي الذي عقد سنة ١٩٠٧ قد توسع في تحديد قواعد وإجراءات التحكيم الدولي ليدعم التوجه نحو السلام في مواجهة المنافسة المتزايدة بين القوى الإمبريالية ، فإن سياسة التحالفات حاولت التوصل إلى الأمن المنشود ، مثلما حدث بالنسبة إلى الحلف الثلاثي (ألمانيا ، النمسا والمجر ، وإيطاليا) ، الذي تم تجديده في سنة ١٩٠٢ ثم في ١٩٠٧ ، وكذلك الحال بالنسبة إلى الحلف الأنجلو-ياباني (١٩٠٢) ، والاتفاق الودي بين فرنسا وبريطانيا (١٩٠٤) والاتفاقية الأنجلو-روسية (١٩٠٧) والصداقة الألمانية-العثمانية . ومن رحم هذه التحالفات ولدت اتفاقيات سرية مشبوهة ، لعل من أهمها اتفاقية سايكس-بيكو (١٦ مايو ١٩١٦) ، التي أبرمت لتقسيم دول الشرق الأوسط بين بريطانيا وفرنسا ، إضافة إلى روسيا القيصرية .

في ١٤ أغسطس ١٩٤١ ، وبينما كانت ألمانيا تظفر بانتصار تلو انتصار ، اجتمع « روزفلت » و« تشرشل » على ظهر البارجة « برنس أوف ويلز » (أمير ويلز) ، وأصدرا بيانا رسميا عرف باسم « تصريح الأطلنطي » ، تضمنت الفقرة الثامنة منه إشارة إلى ضرورة إقامة تنظيم دولي جديد بعد انتهاء الأعمال الحربية القائمة ، وكان هذا التصريح من المراحل المبكرة لإقامة الأمم المتحدة لاحقا .

وفي مؤتمر موسكو في أكتوبر ١٩٤٣ ، جاء في البيان الختامي : « إن حكومات الولايات المتحدة وجمهوريات الاتحاد السوفيتي والصين أدركت ضرورة إنشاء تنظيم دولي عام في أقرب وقت ممكن ، يقوم على مبدأ المساواة في السيادة بين كل الدول المحبة للسلام ، ويكون لجميع الدول -صغيرها وكبيرها- حق الانضمام إليه للمحافظة على السلام والأمن الدوليين » ، وجاء فيه أيضا أنه « من أجل المحافظة على السلام والأمن الدوليين ، والعمل على توطيد القانون والنظام ، وقيام الضمان العام ، تتشاور تلك الحكومات عند الاقتضاء مع أعضاء آخرين من الأمم المتحدة ؛ للقيام بعمل مشترك لمصلحة الأسرة الدولية » .

وفي ٢١ أغسطس ١٩٤٤ اجتمعت الولايات المتحدة وإنجلترا والاتحاد السوفيتي السابق في « دمبارتن إكس » إحدى ضواحي واشنطن ، واتفقت هذه الدول في ٧ أكتوبر ١٩٤٤ على المقترحات ، التي عرفت باسم « مقترحات دمبارتن إكس » ، التي تسعى إلى إقامة تنظيم دولي يعرف باسم الأمم المتحدة ، يكون من أهدافه حفظ السلم والأمن الدوليين . وبعد ذلك اجتمع « روزفلت » و« تشرشل » و« ستالين » في ٥ فبراير سنة ١٩٤٥ في يالطا المطلة على ساحل البحر الأسود ، وكان من شأن الاجتماع تنظيم المرحلة الأخيرة من مراحل الحرب ، وتوزيع مناطق النفوذ بين الدول الثلاث سرا ، علاوة على بلورة فكرة التنظيم الدولي الجديد .

مؤتمر سان فرانسيسكو

على أن أهم المؤتمرات في هذا الشأن هو مؤتمر سان فرانسيسكو ، الذي اجتمعت فيه جميع الدول التي وقعت تصريح الأمم المتحدة ، وأعلنت الحرب على قوات المحور قبل أول مارس ١٩٤٥ ، وكان عددها ٥٠ دولة من بينها الدول الدائمة ، وهي الدول الأربع التي اشتركت في المؤتمرات السابقة ، والتي وضعت مقترحات «دمبارتن إكس» ، والدول المدعوة ، هي التي أعلنت الحرب على المحور كما ذكرنا .

الدول الخمسون التي وقعت ميثاق سان فرانسيسكو اعتبرت كلها أعضاء أصليين في الأمم المتحدة ، وسرعان ما ارتفع عدد الدول الأعضاء إلى ما يقرب من أربعة أمثال هذا الرقم ، مع انتهاء القرن العشرين .

ومن أوروبا التي كانت قلب وسبب الصراع الدامي ، خلال حربين عالميتين مدمرتين اكتوى العالم بهما ، بدأت مرحلة أخرى ومؤتمرات مختلفة نحو توحيد الصفوف عن طريق الدعوة إلى التعاون السلمي ، ونبذ الحروب ، ووقف سباق التسلح بين القوى الكبرى . وفي العاصمة الفنلندية هلسنكي ، عقد في أغسطس ١٩٧٥ مؤتمر الأمن والتعاون الأوروبي ، الذي نجم عنه توقيع وثيقة هلسنكي التاريخية التى شملت ٣٠ ألف كلمة ، وضعت تلك الوثيقة التى وقعها رؤساء دول وحكومات ٣٥ دولة (٣٣ دولة أوروبية إضافة إلى الولايات المتحدة وكندا) أساس

التعاون بين دول الغرب ، ودعت إلى منع استخدام القوة أو التهديد باستخدامها في العلاقات المتبادلة لهذه الدول .

ومن أبرز ما تضمنته الوثيقة الإشارة إلى عدم جواز تغيير الحدود ، واحترام حقوق الإنسان والحريات الأساسية . لكن الحديث عن حقوق الإنسان كان مجرد مناورة غربية للإيقاع بدول الكتلة الشرقية ، أدت في النهاية إلى تحقيق الانهيار الكبير الذي بدأ يتوالى كمسلسل مفاجئ في شرقي أوروبا اعتبارا من ١٩٨٩ .

ويتعين ألا ننسى أن حلف شمال الأطلنطي « الناتو » كان وليد معاهدة وقعت في ٤ إبريل ١٩٤٩ ، ضمت في عضويتها ١٣ دولة أوروبية إضافة إلى الولايات المتحدة وكندا ، أما حلف وارسو -الذى سقط وانتهى بعد سقوط الكتلة الشرقية- فقد خرج إلى حيز الواقع في ١٤ مايو ١٩٥٥ ، عقب انضمام ألمانيا الغربية سابقا إلى حلف شمال الأطلنطي ، وهو ما اضطر الاتحاد السوفيتي -سابقا- إلى إعادة تقويم استراتيجيته الدفاعية في أوروبا ، وانتهى به إلى الاستبدال بسلسلة مواثيق دفاعه الثنائية مع دول شرقي أوروبا الشيوعية منطقة عسكرية جماعية جديدة .

ويرى الكثيرون أن مؤتمر فرساي الذي بدأ في باريس في يناير ١٩١٩ ، كان سببا رئيسا في غرس بذور التوتر والاضطراب على الخريطة العالمية ؛ لأن هذا المؤتمر أعاد رسم الخريطة السياسية في القارة الأوروبية وفي منطقة الشرق الأوسط ، بناء على حسابات ونتائج الحرب العالمية الأولى . كما لعب مؤتمر فرساي دورا في دق المسمار الأخير في عدد من الإمبراطوريات والقوى السائدة آنذاك ، وفي مقدمتها إمبراطورية النمسا والمجر التي كان يحكمها آل هابسبورج ، والإمبراطورية الروسية التي اقتلعتها رياح الثورة البلشفية وأنهت حكم آل رومانوف ، والإمبراطورية العثمانية التي انهارت لتأخذ منطقة الشرق الأوسط شكلا آخر مختلفا عن ذي قبل .

وإذا كان مؤتمر فرساي -الذي شمل خمسة مؤتمرات متتالية عقدت في أماكن مختلفة- قد فرض شروط معاهدة السلام بين الدول المتحاربة في الحرب العالمية الأولى ، فإن شروطه كانت مجحفة بكل المقاييس . حضر المؤتمر الأول في فرساي ،

الذي أصبح عنوان المؤتمرات الخمسة في نهاية الأمر ، ٢٧ دولة سعت لإرساء قواعد محددة للتعامل مع ألمانيا المهزومة في الحرب العالمية الأولى ، وأعقب ذلك عقد أربعة مؤتمرات أخرى ، هي : سان جيرمان ونويي وتريانون وسيفر ، وأسهمت في تحديد أسس الصلح مع النمسا والمجرو بلغاريا وتركيا .

وفي تركيا تصدى « كمال أتاتورك » للشروط الجائرة ، التي فرضت على بلاده بموجب معاهدة سيفر ، مما أدى في النهاية إلى إجراء تعديلات على « سيفر » في معاهدة جديدة يطلق عليها معاهدة « لوزان » .

ومن رحم تلك التسويات والمصالحات ، ظهرت دول جديدة، مثل دول البلطيق : إستونيا ولاتفيا وليتوانيا ، كما عادت بولندا إلى الوجود بعد غياب دام قرنا أو أكثر ، وكذلك تشيكوسلوفاكيا والمجر بعد تقسيم كعكة إمبراطورية النمسا والمجر ، وأرمينيا ، إضافة إلى عديد من الدول العربية بعد انهيار وتفكك الإمبراطورية العثمانية . ولأن ألمانيا كانت أكثر من تعرض للظلم بناء على معاهدة فرساي بعد تحديد حجم جيشها ، واقتطاع جزء من أراضيها ، فقد كان ذلك سببا في تراكم الشعور القومي الألماني بأنها ترزح تحت حصار دولي ، مما أدى في النهاية إلى وصول « أدولف هتلر » إلى السلطة بالانتخاب وقيادته الحزب النازي إلى مشروعات طموح تغذي مشاعر الألمان بالتفوق ، قبل أن ينقلب على جيرانه ، في محاولة استعادة مناطق رأى أن ألمانيا أحق بفرض السيادة عليها ، واستمرت أطماعه حتى التهم عديداً من الدول المجاورة ، وتسبب في اتساع نطاق الحرب العالمية الثانية .

وفي يالطا عقد مؤتمر شهير شارك فيه الرئيس الأمريكي المقعد « فرانكلين روزفلت» ، ورئيس الوزراء البريطاني « ونستون تشرشل » ، والزعيم السوفيتي «چوزيف ستالين» . أدى هذا المؤتمر إلى رسم ملامح النظام العالمي في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية . ولعل توقيت إقامة هذا المؤتمر هو المؤشر الرئيس على أهدافه ، إذ عقد بعد استسلام ألمانيا النازية بأسابيع في ٥ فبراير ١٩٤٥ ، واستمر لمدة ستة أيام . تم خلال المؤتمر تقسيم الكعكة الألمانية ، ففي حين تم الاعتراف بدور لروسيا في المناطق التي حررتها القوات الروسية من الاحتلال الألماني ، جرى الاتفاق على تقسيم ألمانيا ،

وتشاور الزعماء الثلاثة حول سبل عدم تكرار صعود القوة الألمانية مرة أخرى بعد تجريدها من مصادر قوتها ، ومنعها من التسلح بالعتاد والجنود المدربين بشكل يهدد أمن واستقرار أوروبا .

بل إن الزعماء الثلاثة ناقشوا -عبر سبعة اجتماعات متلاحقة- مستقبل بولندا ، ووضعوا الأسس التي أقيمت عليها منظمة الأمم المتحدة فيما بعد ، بما في ذلك حق النقض « الفيتو » ، الذي تنفرد به خمس دول فقط من المجتمع الدولي .

وعقد في وقت لاحق مؤتمر آخر في مدينة بوتسدام الألمانية قرب برلين بعد خمسة أشهر من يالطا ، وفور استسلام ألمانيا دون شروط . ويرى كثير من المحللين السياسيين أن جذور الحرب الباردة تكمن في الاختلافات التي ثارت بين الدول الغربية والاتحاد السوفيتي السابق حول تقسيم ألمانيا ، وحول الكيفية التي تساعد على إقامة توازن قوى جديد على المستويين الأوروبي والعالمي ، بعد أن وضعت الحرب أوزارها ، وبسبب السياسات التي انتهجتها روسيا الستالينية لبلشفة دول شرق أوروبا ، وتحويلها إلى توابع تدور في فلكها ، وكذلك بسبب الاتجاهات المتطرفة المعادية للشيوعية ، التي سادت في الولايات المتحدة « المكارثية » .

الخلاص

وحين اصطلى العالم بنيران الحرب العالمية الأولى التي تسببت في خسائر بشرية ومادية جسيمة ، سعى الساسة إلى الخلاص من ويلات الحرب . وفي ٨ يناير ١٩١٨ قدم الرئيس الأمريكي « وودرو ولسون » اقتراحا بتأسيس عصبة الأمم ، وتم إقرار ميثاق عصبة الأمم خلال مؤتمر باريس في ٢٨ إبريل ١٩١٩ ، وأصبح يشكل القسم الأول من معاهدة فرساي بين الحلفاء من جهة وألمانيا والنمسا والمجر وبلغاريا من جهة أخرى . . ودخل الميثاق حيز التنفيذ في ١٠ يناير ١٩٢٠ بعضوية ٤٢ دولة ، غير أن « ولسون » أخفق في الحصول على موافقة أعضاء الكونجرس الأمريكي ؛ لإقرار مشروع معاهدة فرساي ، والانضمام إلى العصبة .

لكن المفارقة أن ألمانيا انضمت إلى العصبة في ١٩٢٦ ، والاتحاد السوفيتي في وقت متأخر في ١٩٣٤ . وتناولت عصبة الأمم نحو ٤٠ نزاعا وقضية دولية من ١٩٢٠ إلى ١٩٤٠ ، لكن النجاح لم يكن حليفها في كثير منها ، كما أنها فشلت في مواجهة النزاع العسكري ، حين احتلت إيطاليا الفاشية بزعامة « بنيتو موسوليني » جزيرة كورفو اليونانية في ١٩٢٣ .

وخلال عقد الثلاثينيات ، غزت اليابان منشوريا في ١٩٣١ ، كما بسطت نفوذها على الصين تحديا للعصبة . ألمانيا بدورها ابتلعت النمسا وتشيكوسلوفاكيا ، بينما احتلت إيطاليا إثيوبيا وألبانيا في ١٩٣٥ ، ليتضح للجميع إخفاق عصبة الأمم في التصدي للتوسع العسكري لدول المحور ، ثم تجمد نشاطها تمامًا خلال فترة الحرب العالمية الثانية من ١٩٣٩-١٩٤٥ .

ويعتبر مؤتمر باندونج تجسيدا حيا لسياسات الحياد وعدم الانحياز في السياسة الدولية ، وهو المؤتمر الذي عقد في الفترة بين ١٨-٢٤ إبريل ١٩٥٥ ، بناء على مبادرة من رؤساء حكومات دول مشروع كولومبو ، وهي : باكستان والهند وبورما وسيلان -التي تغير اسمها إلى سريلانكا فيما بعد- وإندونيسيا . وضم المؤتمر ٢٩ دولة إفريقية وآسيوية ، واجتمع في جو مشبع بروح الكراهية للاحتلال ، على اعتبار أنه السبب الرئيس وراء معظم المشكلات السياسية والاقتصادية والعنصرية ، التي عانتها هذه الدول وعرقلت نموها وتطورها .

وقد شاركت مصر الدول الأخرى في الحركة الصاعدة في إقرار مبدأ عدم الانحياز ؛ لأنه كان في رأيها يمثل ضرورة قصوى ، يحتمها الدفاع عن السلام والأمن الدوليين في مواجهة أوضاع الصراع والانقسام بين الدول الكبرى ، وكان من أبرز المشاركين في إنشاء الحركة الزعيم الراحل « جمال عبد الناصر » ، والزعيم الهندي «جواهر لال نهرو» ، والزعيم اليوجوسلافي «چوزيف - أو چوزيبب - بروز تيتو » .

وعلى المستوى العربي ، فقد تم توقيع الميثاق ، الذي أنشئت بموجبه جامعة الدول العربية في ٢٢ مارس ١٩٤٥ ، وعقد عديد من مؤتمرات القمة العربية ، التي

اهتمت بتعزيز التعاون العربي ومواجهة العدوان الإسرائيلي ، كما حدث في قمة الخرطوم -عقب هزيمة يونيو ١٩٦٧ - ذات اللاءات الثلاث : « لا صلح ، لا تفاوض ، لا اعتراف » . كما شرعت القمم العربية في دعم التضامن العربي والنهوض بالأمة وتجاوز الخلافات كما حدث في آخر القمم العربية خلال القرن الماضي ، تلك التي استضافتها مصر في أكتوبر ٢٠٠٠ .

وفي المقابل انحرفت بعض القمم العربية عن هذا الهدف مثلما حدث في القمة العربية التي حاولت عزل مصر عن الصف العربي ، في حين أن قمة بغداد التي ضمت زعماء مجلس التعاون العربي أعقبتها بأشهر قلائل كارثة الغزو العراقي الغادر للكويت فجر ٢ أغسطس ١٩٩٠ في مفارقة غريبة ، وجرح عربي لم يندمل بعد ، بينما قضت أطماع الرئيس العراقي « صدام حسين » على مجلس التعاون العربي في مهده .

وعلى مستوى مسيرة السلام في الشرق الأوسط ، فإن مؤتمر مدريد الذي عقد في العاصمة الإسبانية في نهاية أكتوبر ١٩٩١ مهد الأرضية للمفاوضات العربية - الإسرائيلية ؛ من أجل التوصل إلى سلام عادل وشامل ودائم في المنطقة ، لكن قطار التسوية توقف أكثر مما تحرك في طريق البحث عن السلام المنشود بسبب تطرف وتعنت قادة تل أبيب .

* * *

26

ثوار وعروش

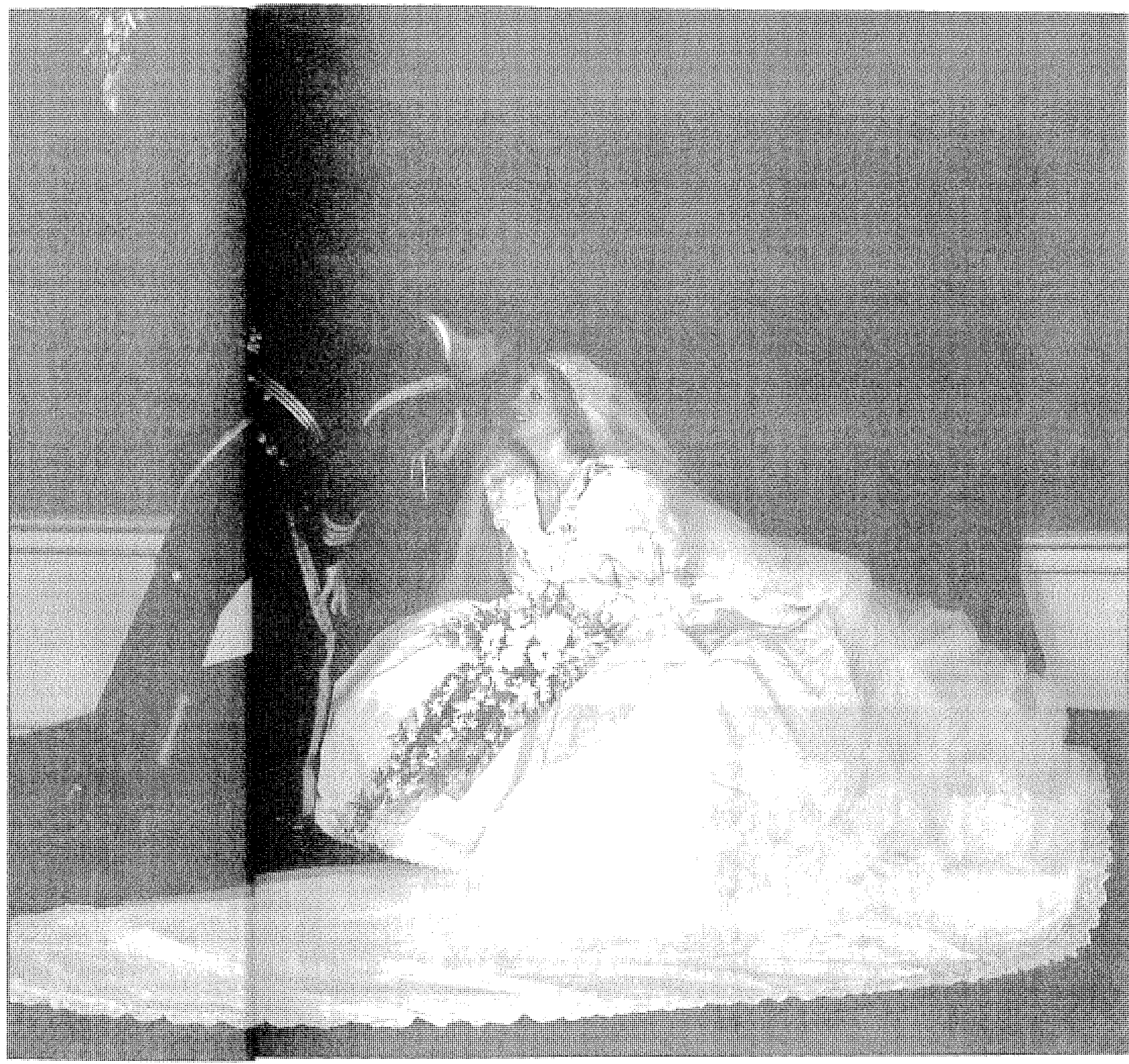
خيط رفيع ، ظل يربط دائما بين الثوار والعروش خلال القرن العشرين ، وعلى الرغم من أن الطرفين على طرفي نقيض ، فإن الأقدار كانت ترتب لهما مجرى آخر ، حتى إنهما كثيرا ما تبادلا الأدوار : تارة عرش ، وتارة أخرى ثورة!

وفي حين كان الثوار ينظمون الحركات السرية ويدبرون الانقلابات ، ويوزعون المنشورات ، حرص أصحاب العروش على التشبث بالسلطة حتى آخر . . جندي موالٍ لهم !

ومن هنا بدأت لعبة القط والفأر التى سبقت بزمن طويل حكاية « توم » و« چيري» الأبدية !



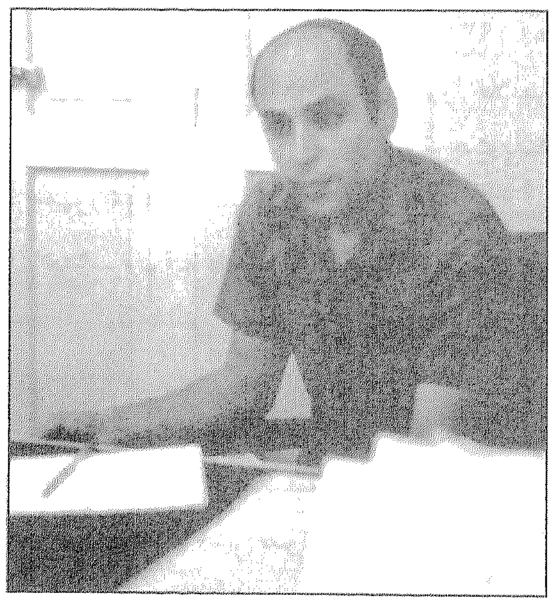
تشي جيفارا مع فيدل كاسترو في سنة ١٩٦٠



الأميرة ديانا مع الأمير تشارلز في صورة الزفاف



شاه إيران ..
وعرش الطاووس الذي سقط



أبو نضال في مكتبه في مطلع السبعينيات

وفي ١٩٤٨ ، عقب الملك « فاروق » ملك مصر آنذاك أمام دبلوماسي بريطاني علي سقوط خمسة عروش بعد الحرب العالمية الثانية بقوله : « لن يكون هناك قريبا سوى خمسة ملوك : ملوك بريطانيا ولعبة الورق » !

ولقد أثبتت الأيام صحة هذه المقولة ، إذ توالى سقوط العروش الملكية ، بما في ذلك عرش « فاروق » نفسه عقب ثورة ٢٣ يوليو١٩٥٢ ، التي أجبرته على التنازل عن الحكم ومغادرة مصر دون رجعة على ظهر يخته « المحروسة » . وفي مطلع القرن ، كان الملوك والأمراء يحكمون أوروبا ، باستثناء فرنساوسويسرا وسان مارينو . إلا أن الحروب والثورات وانهيار الإمبراطوريات سرعان ما غيرت من ملامح الصورة . وفي ١٩١٠ سقطت الملكية غير الشعبية في البرتغال ، لتتخذ الجمهورية الجديدة إجراءات عنيفة ضد خصومها في السنة التالية .

وكانت الصين – التي توالت على حكمها عائلات معينة على مدار أربعة آلاف سنة– من أولى الممالك الرئيسة التي تسقط خلال القرن العشرين ؛ إذ أعلنت جمهورية في ١٩١٢ ، قبل أن يقود « ماو تسي تونج » (في ١٩٣٤–١٩٣٥) عشرة آلاف جندي في المسيرة الطويلة للثورة التي استمرت ١٢ شهرا ، عبروا خلالها ١٨ سلسلة جبلية و٢٨ نهرا ، وقطعوا ستة آلاف ميل ، وهي المسيرة التي توجت بانتصار «ماو » ورفاقه في ١٩٤٠ وإعلان جمهورية الصين الشعبية .

وكان القرن العشرون قد طلع على الصين ، وهي تحت حكم « تزو– هي » (ومعناها الأم الحنون المباركة) التي سيطرت على مقادير البلاد خلال الفترة بين ١٨٦٠–١٩٠٨ وكانت تسمى « بوذا العجوز » لجهلها وفسادها . « تزو– هي » التي تحولت من محظية الإمبراطور « هيسان – فنج » إلى وصية على العرش إلى أن يكبر ابنها من الإمبراطور ، انتهى بها الأمر مكتئبة مذمومة ، بينما كان ثوار « البوكسرز » (أو الملاكمين) يقاومون التدخل الأجنبي بقوة ، لينتهي الأمر بزوال حكم أسرة المانشو على يد الثوار الوطنيين في أكتوبر ١٩١١ .

وأدت الحرب العالمية الأولى إلى انهيار إمبراطورية النمسا والمجر ، التي ضعفت تماما بعد وفاة « فرانز – جوزيف » في ١٩١٦ عقب ٦٨ سنة ، قضاها على كرسي

العرش . . وأسهمت هزيمة ألمانيا في انهيار إمبراطوريتها واندلاع الثورات (انتفاضة سبارتاكوس الفاشلة في يناير ١٩١٩)وسقوط عرش القيصر فيلهلم (أو غليوم) .

ومن روسيا واليابان والدول الإسكندنافية إلي اليونان ، التي شهدت إرسال الملك «قسطنطين» إلي المنفى في ١٩٦٧ ، ولحق به الملك « محمد إدريس السنوسي » بعد ثورة الفاتح من سبتمبر في ١٩٦٩ في ليبيا . وسقط آخر ملوك أفغانستان في ١٩٧٣ ، ولقي إمبراطور إثيوبيا « هيلا سيلاسي » المصير نفسه بعد ذلك التاريخ بسنة واحدة ، كما سنرى لاحقا .

حنـين وأمـل

على أن الملوك ورثة العرش السابقين لم يفقدوا رصيدهم لدى بعض الشعوب . فقد استقبل « ألكسندر كاراديورديفيتش » - أو ولي عهد يوجوسلافيا السابق الأمير « ألكسندر » (٥٥ سنة) - بحفاوة لدى زيارته لبلاده في أكتوبر ٢٠٠٠ ، عقب سقوط الدكتاتور « سلوبودان ميلوسيفيتش » ، وانتخاب الرئيس الجديد « فويسلاف كوستونيتشا » المؤيد لعودة الملكية إلى يوجوسلافيا . كذلك فإن « سيميون » - الذي فقد عرشه في بلغاريا سنة ١٩٤٥ وهو في سن الثامنة - كان في استقباله لدي عودته إلى مسقط رأسه لأول مرة سنة ١٩٩٦ نحو ١٠٠ ألف شخص ، احتشدوا في الميدان الرئيس في العاصمة صوفيا لتحيته .

وأجبر « ميشيل » على التخلي عن عرشه في رومانيا سنة ١٩٤٥ وهو في سن الثامنة عشرة . وعقب سقوط نظام الدكتاتور الشيوعي « نيقولاي تشاوشيسكو » سنة ١٩٨٩ ، أصبح الملك المعزول ذا شعبية كبيرة ، بعد أن استعاد جنسية بلاده ، على الرغم من أنه لم يعرب يوما عن رغبته في أن يصبح ملكا لرومانيا .

ملك ألبانيا السابق « ليكا زوج » (٦١ سنة) الذي يعيش في مزرعة خارج جوهانسبرج في جنوب إفريقيا ، حكم عليه غيابيا سنة ١٩٩٧ لمشاركته في مسيرة شهدتها العاصمة الألبانية تيرانا ، ووقعت فيها مصادمات دامية . ويؤكد ليكا زوج أن شعب بلاده يحن إلى أيام الملكية ، وأن استفتاء أجري سنة ١٩٩٧ كشف عن تأييد نحو ٧٠٪ من الناخبين - وليس ٣٥٪ كما تقول الحكومة - للنظام الملكي .

« إرنستو جيفارا دي لاسيرنا » أو « تشي جيفارا » المولود في ١٤ يونيو ١٩٢٨ في روزاريو بالأرجنتين ، هو أشهر رموز الثورة خلال القرن العشرين ، بلحيته التي تغطي معظم وجهه ، وزيه العسكري وملامحه الصارمة . انضم « جيفارا » في ١٩٥٥ إلى « فيدل كاسترو » في المكسيك وأبحر مع قواته إلى كوبا ، ثم قاد القوات الثورية في معركة حاسمة في ١٩٥٨ ، قبل أن يصبح في العام التالي جزءا من النظام الكوبي الذى أطاح بالحكم الدكتاتوري .

وفي ١٩٦٥ ترك « جيفارا » الحكومة لقيادة الثورة في الأرجنتين والكونغو ، لكنه أخفق في مسعاه الثوري ، ثم حاول تنظيم ثورة في بوليفيا أملا في أن تمتد بدورها إلى أنحاء أمريكا اللاتينية ، إلى أن وقع في أسر الجيش البوليفي . لحظة إعدام « جيفارا » وهو في سن التاسعة والثلاثين فى ٩ أكتوبر ١٩٦٧ و أضفت مسحة أسطورية أخرى على شخصيته ، إذ يقال إنه صرخ في وجه الملازم « ماريو تيران » الذي نفذ فيه حكم الإعدام في لا هيجيرا قائلا : « أطلق النار يا جبان ، إنك فقط ستقتل رجلا ! » . واليوم لا يذكر أحد اسم قاتل « جيفارا » ، بينما تنتشر حمى السلع والمنتجات التي تحمل اسم أو صورة هذا الثائر ، من الألبومات الغنائية إلى القهوة في متجر لينين في العاصمة الفنلندية هلسنكي ، ومن مواقع وصفحات الإنترنت إلى ساعة « ريفولسيون » التي أنتجتها شركة سواتش السويسرية ، وتي شيرت « تشي » الذي يحمل صورة هذا المناضل ، ويباع في شوارع العاصمة الكوبية هافانا .

وربما استلهمت ولاية تشيباس المكسيكية من « جيفارا » روح المقاومة ، فقد اندلعت ثورة المزارعين في تشيباس في الأول من يناير سنة ١٩٩٤ ، مما أدى إلى مقتل ٦٠ ثائرا و ٤٠ جنديا حكوميا ، لتبدأ سلسلة من المعارك والمجازر المتبادلة بين المتمردين والقوات الحكومية ، راح ضحيتها كثيرون ، من بينهم ٤٥ شخصا معظمهم من النساء والأطفال كانوا يختبئون داخل كنيسة ، حين نفذ فيهم الجنود حكما جائرا بالإعدام في ٢٢ ديسمبر ١٩٩٧ . كانت الثورة المكسيكية سنة ١٩١٠ قد أدت إلى نشوب حروب أهلية وتدخل الولايات المتحدة (في ١٩١٤ ، ١٩١٦ ، و١٩١٧) إلى أن أجريت إصلاحات على ملكية الأراضي ، وأصبح الدستور أكثر ديمقراطية سنة ١٩١٧ .

وفي الولايات المتحدة برز ثائرون ضد عنصرية البيض أمثال « مارتن لوثر كنج » الابن (١٩٢٩ - ١٩٦٨) و« روزا باركس » التي ولدت في ٤ فبراير ١٩١٣ ، وكانت أول من رفض التنازل عن مقعده من السود لشخص أبيض في حافلة في ١ ديسمبر ١٩٥٥ ، وكانت تلك جريمة لا تغتفر في نظر العنصرية البيضاء ! كما تبرز أسماء « مالكوم إكس » و« فرانز فانون » و« ماريان أندرسون » و« ماركوس جريفي » وغيرهم . كما قاد سيزار تشافيز مظاهرات «عمال المزارع المتحدون» ضد السياسات الأمريكية .

على أن ثورة أخرى ضد العنصرية انطلقت من جنوب إفريقيا ، كانت الأبرز فى القرن العشرين ، إذ قاد المناضل « نلسون مانديلا » المولود فى ١٩١٨ شعب بلاده للخروج من نفق حكم الأقلية العنصرية من البيض ، ودفع ثمن ذلك قضاءه نحو ٢٧ سنة في السجون . وفي ١٩٩٠ أطلق سراح « مانديلا » ، وفي سن الحادية والسبعين عاد إلى الساحة السياسية وتولى رئاسة جنوب إفريقيا بعد إلغاء القوانين العنصرية ، لتمسح بلاده أحزانها أخيرا ، وتنعم بالحرية والديمقراطية والتسامح ، وهي مبادئ أرساها خلال فترة رئاسته ، قبل أن يترك السلطة إثر انتخاب « تابو مبيكي » رئيسا لجنوب إفريقيا في منتصف ١٩٩٩ .

وفي الفلبين اغتيل زعيم المعارضة « بنينو أكينو » الابن لدى عودته من المنفى الأمريكي في ١٩٨٣ ، وذلك بعد أن أطلق عليه الرصاص لحظة هبوطه من الطائرة ، لتشتعل الثورة الشعبية ضد الدكتاتور « فرديناند ماركوس » ، وتقود الأرملة « كورازون أكينو » تلك الثورة حتى وصلت إلى السلطة ، عبر انتخابات الرئاسة سنة ١٩٨٦ وأصبحت رئيسة للفلبين .

وفي ميانمار زعيمة المعارضة « أونج سان سوكي » الحائزة على جائزة نوبل للسلام ، وعلى الرغم من كل القيود المفروضة عليها في ميانمار (بورما السابقة) فإنها صاحبة مقولة « إننا سوف نقضي على تقليد أن من يملك أفضل الأسلحة هو الذي يصل إلى السلطة » .

ومن « الدالاي لاما » (المولود سنة ١٩٣٥ باسم تنزن جياستو) ، الذى يعيش في المنفى مطالبا بحق التبت في الانفصال عن الصين ، إلى « ليخ فاونسا » (١٩٤٣ -)

الكهربائي في أحواض السفن بمدينة جدانسك البولندية ، الذي قاد حركة « تضامن » العمالية للثورة على النظام الشيوعي بدءا من ١٩٨١ . لحظتها خاطب « فاونسا » المتظاهرين ، قائلا : « لن نخضع للعنف » مؤكدا أهمية الثورة السلمية . وفي ١٩٨٩ ، انهارت الكتلة الشيوعية وتولت حركة « تضامن » رئاسة الحكومة ، ليصبح « فاونسا » في السنة التالية رئيسا لبولندا .

وللنساء نصيب من الثورة ، ومن أمثلة ذلك الثائرة الألمانية « روزا لكسمبورج » (١٨٧٠-١٩١٩) ، وكانت من زعماء الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني . أسست « روزا لكسمبورج » مع « كارل ليبكنخت » حزب سبارتاكوس ، خلال الحرب العالمية الأولى . لكن « روزا » ألقي القبض عليها مع « ليبكنخت » وقتلهما الجنود في أثناء نقلهما إلى السجن في ١٥ يناير ١٩١٩ .

عرش الطاووس

وفي إيران حكم « رضا شاه بهلوى » إيران خلال الفترة (١٩٢٥-١٩٤١) . وقد تزعم انقلابا في ١٩٢١ وحكم حكما دكتاتوريا بعد أربع سنوات ، وأسس أسرة «بهلوي» ، بل إنه غير الاسم من فارس إلى إيران ، وبدأ سلسلة إصلاحات ، إلى أن خلعه البريطانيون ، وخلعه ابنه « محمد رضا شاه بهلوي » ، الذي تزوج « فوزية » شقيقة فاروق الأول ، ثم « ثريا أصفاندرياي » قبل أن يرتبط بـ « فرح ديبا » . وفي ١٩٧١ ، وفي أثناء محاولة تحديث بلاده أقام الشاه ما أطلق عليه « حفل القرن » في العاصمة الفارسية القديمة بيرسبوليس ، وضمت قائمة المدعوين أسماء لامعة ، وبدت الرفاهة وعلامات البذخ مكونا أساسيا للحفل : فقد بدا عرش الطاووس في ذروته . وفي قائمة الطعام كان الطاووس المحشو بالفواجرا هو الطبق الرئيس . كان الاحتفال أسطوريا ، لكن النهاية المحتومة وقعت ، حين نجحت الثورة الإيرانية بقيادة « الخميني » في إطاحة الشاه ، فاضطر إلى الهرب إلى المنفى ، حيث أقام في القاهرة بناء على دعوة الرئيس « أنور السادات » ، إلى أن مات متأثرا بدائه العضال ، وكمده على العرش الضائع .

أما « الخميني » الذي عاد إلى العاصمة الإيرانية طهران في أول فبراير ١٩٧٩ ، فقد مضى قدما في السيطرة على إيران ، وبدأ في تصدير الثورة ، التي كان من أبرز عناصرها تجار « البازار » وعديد من التنظيمات اليسارية والدينية ، قبل أن تتخذ الثورة مسارا دينيا محافظا . خاضت إيران بعد الثورة حربا شرسة ضد العراق (١٩٨٠-١٩٨٨) ، أطلقت عليها حرب السنوات الثماني ، بينما كان « الخميني » قد بدأ عهده باحتجاز الرهائن الأمريكيين في السفارة الأمريكية بطهران اعتباراً من نوفمبر ١٩٧٩ ، ولمدة استمرت نحو ٤٤٤ يوما ، وأطلق على الولايات المتحدة اسم « الشيطان الأكبر » إلى أن اضطر إلى تجرع « سم » وقف إطلاق النار مع العراق ، ولفظ أنفاسه الأخيرة في ١٩٨٩ .

وتأرجحت إسبانيا طوال القرن العشرين بين الثوار والملكيين ، فقد حافظ « ألفونسو » الثالث على حياد إسبانيا خلال الحرب العالمية الأولى ، وأيد دكتاتورية « بريمو دي ريفيرا » (١٩٠٣-١٩٣٠) لكنه طرد في ١٩٣١ عند قيام الجمهورية . وأدى انتخاب ائتلاف راديكالي في ١٩٣٦ إلى ثورة عسكرية ، وكسب القوميون الحرب الأهلية الدموية في ١٩٣٩ ، وأقام الدكتاتور « فرانسيسكو فرانكو » دولة نقابية ، ومالت إسبانيا الفاشية للمحور في الحرب العالمية الثانية ، وإن ظلت رسميا على الحياد وأعلن قانون الوراثة في ١٩٤٧ إسبانيا ملكية ذات مجلس للوصاية ، و« فرانكو » رئيسا للدولة ، على أن يعين مجلس الوصاية خلفه .

لم يكن « خوان كارلوس » المولود سنة ١٩٣٨ مرشحا لتولي عرش إسبانيا ، إذ كان ينتمي إلى فرع فقير ومعدم من عائلة البوربون يعيش في العاصمة الإيطالية روما . وفي ١٩٥٤ وافق الجنرال « فرانكو » على أن يلي دون خوان « دي بوربون » (وهذا هو اسمه الأصلي) حفيد « ألفونسو الثالث عشر » ، والده في السلطة . وفي ١٩٦٩ ، اختير رسميا من جانب « فرانكو » بوصفه ملك المستقبل ، وأسهم في ذلك الأمر لسبب غريب ، هو أن الفرع الرئيس من المرشحين للعرش كان مصابا بمرض الهيموفيليا الموروث عن جين يعود إلى « فيكتوريا » ملكة بريطانيا .

وعقب وفاة « فرانكو في » ١٩٧٥ ، تولى « خوان كارلوس » العرش وقاد إسبانيا نحو ملكية دستورية ، وحين عارض العسكريون تلك الخطوة ودبروا محاولة انقلاب في ١٩٨١ ، حشد العاهل الإسباني بنفسه القوات لإنقاذ الديمقراطية ، مما جعله ذا شعبية طاغية .

وتعد إمارة موناكو أصغر دول العالم من حيث المساحة ، بل إن معظم دخل تلك الإمارة من إيراد كازينوهات القمار الشهيرة ، في حين لا يتجاوز عدد المواطنين فيها سوى بضعة آلاف . ومع ذلك فإن الشهرة الأكبر للإمارة تأتي من عائلتها المالكة ، وعلى رأسها « رينيه الثالث » (١٩٢٣-) و« رينيه لوي هناي ماكسنس برتران دو جريمالدي » - اسمه بالكامل - تولى العرش خلفا لجده « لويس الثانى » في ١٩٥٠ بوصفه الأمير رقم ٢٦ من عائلة « جريمالدي » التي يعود تاريخ حكمها إلى ١٢٩٧ ، وفي ١٩٥٦ تزوج « رينيه » الممثلة الأمريكية « جريس كيلي » ، التي أنجب منها ابنه الوحيد ووريثه « ألبير » (١٩٥٨) و« كارولين » (١٩٥٧) و« ستيفاني »(١٩٦٥) .

لكن « جريس كيلي » لقيت مصرعها في حادث سيارة في ١٤ سبتمبر.١٩٨٢ ، بينما عاشت الابنتان « كارولين » و« ستيفاني » حياة حافلة بالغراميات والفضائح وتجارب الزواج الفاشلة ، واكتفى الابن « ألبير » بلقب الأمير الأعزب في تلك الإمارة التي لابد لاعتلاء عرشها من موافقة الحكومة الفرنسية ، وذلك بمقتضى معاهدة ١٩١٨ .

واستغلت اليابان نمو قوتها الصناعية لتوسيع إمبراطوريتها ، وغذى النصر في الحرب ضد روسيا (١٩٠٤-١٩٠٥) وبالتحديد في معركة تسوشيما البحرية سنة ١٩٠٥ ، في تأكيد سيطرة اليابان على كوريا (ضمتها سنة ١٩١٠) ومنشوريا (استولت على بورت آرثر سنة ١٩٠٥) . ومع إطلالة القرن العشرين ولد إمبراطور اليابان « هيروهيتو » (١٩٠١-١٩٨٩) وهو الإمبراطور رقم ١٢٤ من تلك العائلة الحاكمة ، وأول أمير ياباني يزور الغرب وذلك في ١٩٢١ . تولى « هيروهيتو » السلطة في ١٩٢٦ خلفا لوالده ، وكان قد صار وصيا في ١٩٢١ . اتسم عهد « هيروهيتو » بنشاط ملحوظ لعسكرة اليابان وخوض حروب هجومية ضد الصين (١٩٣١-١٩٣٢) و(١٩٣٧-١٩٤٥) وضد الولايات المتحدة (١٩٤١-١٩٤٥) ، انتهت بإسقاط القوات

الأمريكية قنبلتين ذريتين على مدينتي هيروشيما وناجازاكي . وتحت الاحتلال الأمريكي أعلن « هيروهيتو » في ١٩٤٦ تخليه عن الاعتقاد بألوهية الإمبراطور ، ومنح بلاده السنة التالية دستورا جديدا يحرمه من كل سلطة حقيقية ، لتبدأ اليابان مرحلة حكم إمبراطوري دستوري ، له طابع ديمقراطى .

وبعد وفاته تولى ابنه « أكيهيتو » السلطة ، وأصبحت زوجته « ميتشيكو » الإمبراطورة ، بينما اختار ولى العهد الأمير « ناروهيتو » زوجته « ماساكو » من عامة الشعب مثلما هي الحال بالنسبة للإمبراطورة « ميتشيكو » .

وحين قامت الثورة الروسية في ١٩٠٥ ، بعد هزيمة روسيا في حربها ضد اليابان ، اضطر « نيقولا الثاني » إلى منح دستور برلماني ، وأخذ القيصر يستعيد سلطته المطلقة ، وأيد الحركة القومية السلافية . وبعد هزيمة القوات الروسية في الحرب العالمية الأولى وانتشار الخراب الاقتصادي ، شبت ثورة فبراير ١٩١٧ ، فأسقطت الحكم القيصري في مارس ، وأعقبتها الثورة الشيوعية ، التي أسقطت حكومة « ألكسندر كيرينسكي » الاشتراكية المعتدلة في نوفمبر ١٩١٧ في انقلاب دموي لتختفي روسيا القديمة تحت الأنقاض ، ويبدأ حكم البلاشفة . وخاض الجيش الأحمر المؤيد للبلاشفة حربا أهلية مدمرة في صيف ١٩١٨ ضد أنصار الحكم الملكي والفوضويين والقوميين (الأوكرانيين والجورجيين والبولنديين) ، استمرت حتى ١٩٢٠ ، إلى جانب مواجهات أخرى ضد وحدات صغيرة من الأمريكيين والبريطانيين والفرنسيين واليابانيين (١٩١٨-١٩١٩) .

ومثل سلالة البوربون الإسبانية ، ورث « آل رومانوف » (١٦١٣-١٩١٧) جين الهيموفيليا ونزف الدم من الملكة « فيكتوريا » ، غير أن إصابة ولي العهد الأمين «ألكسيس» أصابت العائلة الحاكمة في مقتل ، فقد وقعت « ألكسندرا » زوجة القيصر في حبائل المعالج السيبيري غريب الأطوار « راسبوتين » ، وبدأت تتخذ قرارات كانت لها عواقب أشبه بالكارثة . أما القيصر « نيقولا الثاني » ، الذي اشتهر بضعف إرادته فلم يملك سوى إفساح الطريق أمام الحرب والاضطرابات ، وتنازل عن العرش في ١٥ مارس ١٩١٧ ، ليتمكن الثوار البلاشفة في النهاية من ارتكاب مذبحة قضت على عائلة رومانوف المالكة ، داخل قبو في إيكاتنبرج في ١٦ يوليو ١٩١٨ .

وفي إثيوبيا ، توج « هيلا سيلاسي » (١٨٩١-١٩٧٥) إمبراطورا في ١٩٣٠ ، وكان قبل ذلك أميرا على رأس تافاري . قاد « هيلا سيلاسي » ثورة في ١٩١٦ على « ليج ياسو » حين اعتنق الأخير الإسلام ، فأجبره على النزول عن العرش ، و أجلس « جوديث » ابنه « منليك » على العرش ، وجعل نفسه وصيا قبل أن يتوج إمبراطورا . سعى « هيلا سيلاسي » إلى تطوير المؤسسات فى بلاده ، واستقر في إنجلترا بعد الغزو الإيطالي للحبشة (١٩٣٥-١٩٣٦) قبل أن يعود في ١٩٤١ بعد تحرير إثيوبيا على يد القوات البريطانية .

وفي مطلع الستينيات لعب « هيلا سيلاسي » دورا مهما فى إنشاء منظمة الوحدة الإفريقية . غير أن المعارضة القائمة ضده منذ ١٩٦٠ ، والمجاعة التي اجتاحت إثيوبيا فى ١٩٧٣ أدتا إلى فوضى اقتصادية ، وإضرابات صناعية ، وحالة تمرد شاملة في صفوف القوات المسلحة ، ليتم عزل الإمبراطور في السنة التالية لمصلحة ولي العهد ، على الرغم من السماح له بالعودة إلى قصره في أديس أبابا . ونجح « منجستو هيلا مريام » في إسقاط « هيلا سيلاسي » ، وقاد حكما متشددا ذا نزعة يسارية ، ولكن انتهى الأمر بسقوط « هيلا مريام » ، ووصول الحركات الثورية إلى السلطة في إثيوبيا مرة أخرى في نهاية الثمانينيات بقيادة « ميليس زيناوي » .

ثورة القرنفل

وإذا كانت البرتغال أول قوة استعمارية في أوروبا ، فإنها كانت آخر القوى الاستعمارية في العالم رحيلا عن مستعمراتها القديمة في إفريقيا . ولقد احتاج الأمر أن يقوم في البرتغال نظام حكم عسكري تقدمي ، برز إثر انقلاب إبريل ١٩٧٤ الذي أطاح بحكومة « سالازارية » ، وحمل اسم « ثورة القرنفل » لأنه كان انقلابا سلميا نال تأييدا شعبيا كبيرا . وسارع الانقلابيون إلى منح عديد من المستعمرات البرتغالية القديمة استقلالها خلال سنة ١٩٧٥ ، وهي أنجولا وموزمبيق وغينيا البرتغالية .

وفي تلك النقطة البعيدة التي تقبع في المحيط الهادي ، التي تعرف باسم تيمور الشرقية ، قاد « زانانا جوسماو » شعب الجزيرة إلى الاستقلال عن إندونيسيا بعد ٥٠٠

سنة من الاحتلال البرتغالي و٢٤ سنة من السيطرة الإندونيسية . « جوسماو » المولود سنة ١٩٤٦ في قرية صغيرة شرقي العاصمة ديلي ، عمل مدرسا ومفتشا وصحفيا ، قبل أن يصبح في ١٩٨١ زعيما للمقاومة ، لكنه سقط في قبضة القوات الإندونيسية في ١٩٩٢ . ومن سجنه طالب « جوسماو » بحق تيمور الشرقية في الاستفتاء على الاستقلال ، وأخذ يكتب الشعر والخطابات إلى الشعب لكي يبقى حلم الاستقلال حيا لديهم . وفي أكتوبر ١٩٩٩ أطلق سراح « جوسماو » ، بينما كانت تيمور الشرقية تبدأ مرحلة جديدة انتهت باستقلالها .

ومن السجن إلى السلطة ، كانت حياة الكاتب والسياسي التشيكي « فاتسلاف هافيل » المولود في العاصمة التشيكية براغ في ١٩٣٦ ! « وهافيل » الذى كان يحتفظ عادة بفرشاة أسنانه فى جيبه، نظرا لكثرة مرات اعتقاله من جانب السلطات الشيوعية ، ذاق طعم السجن لفترات متفاوتة ، كانت أطولها حين عوقب بالسجن لمدة أربع سنوات ونصف السنة فى ١٩٧٩ . وفى فبراير ١٩٨٩ تعرض للسجن لكن أطلق سراحه بعد ذلك بثلاثة أشهر ، وما إن حل شهر ديسمبر من السنة نفسها حتى انتخب رئيسا عن طريق الانتخاب المباشر ، وذلك بعد أن أسقطت الثورة الشعبية الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي الحاكم .

وفي بولندا ، أشعلت الزيادة الطفيفة على أسعار اللحوم شرارة الثورة في يوليو ١٩٨٠ ، ليبرز اسم « ليخ فاونسا » واتحاد نقابات « التضامن » العمالية وسط تأييد من جانب المثقفين والكنيسة لهذه الحركة الثورية ، التي أجبرت السلطات البولندية على التعامل معها وتوقيع اتفاق في جدانسك أواخر أغسطس ١٩٨٠ ، أعطى « التضامن » شرعيتها .

وعلى الجانب الآخر من أوروبا ، مازالت العائلة البريطانية المالكة بقيادة الملكة « إليزابيث الثانية » المولودة في ١٩٢٦ تحكم الجزر البريطانية ، بينما تعصف المشكلات الخاصة بحياة أبنائها ، بدءا من ولي العهد الأمير « تشارلز » الذى طلق أميرة ويلز «ديانا» قبل رحيلها في حادث سيارة مأساوي في نهاية أغسطس ١٩٩٧ ، وواصل غرامياته مع المطلقة « كاميلا باركر » ، حتى إن البعض تصور أنه سيكرر يوما ما حدث

لـ « إدوارد الثامن » ، الذي تنازل عن العرش البريطاني بسبب حبه ورغبته فى الزواج بمطلقة أخرى هي الأمريكية « بيسي واليس » في ١٩٣٦ . ومن أجل الحب تخلى «إدوارد الثامن» عن العرش ، وتزوج من يحب ، حتى توفي سنة ١٩٧٢ .

وفي النرويج ، ليس من حق العائلة المالكة التدخل على أي نحو في شئون السياسة العامة للدولة ، وليس لأعضائها الحق في التصويت في الانتخابات . وإذا كان «هارالد الخامس» ملك النرويج ملتزما بتلك التقاليد ، فإن ولي عهده الأمير « هوكون الخامس » (٢٦ سنة) بدأ في آخر سنوات القرن العشرين في ممارسة دور عام ، وإبداء آراء سياسية ، مما استرعى انتباه وسائل الإعلام النرويجية .

وربما كان ضروريا ألا نغفل دور وتأثير جماعات العنف الثوري في أنحاء العالم خلال القرن العشرين . ففي اليابان - على سبيل المثال - ظهرت منظمة « الجيش الأحمر » ، التي نفذت في مايو ١٩٧٢ هجوما في مطار تل أبيب تعبيرا عن تأييد القضية الفلسطينية ، أدى إلى مقتل ثلاثة من عناصر « الجيش الأحمر » و ٢٦ شخصا آخرين .

وفي ألمانيا برزت « عصابة بادار-ماينهوف » حسب تسمية وسائل الإعلام الألمانية لها . لكن قيادات « الجيش الأحمر » سقطوا الواحد تلو الآخر ، في حين اعتقلت الشرطة الألمانية « أندرياس بادار » - أحد « أساطير الإرهاب » في أوروبا - وعددا آخر من قيادات « بادار-ماينهوف » و« الجيش الأحمر » يوم ٢ يونيو ١٩٧٢ . وفي ١٥ سبتمبر ٢٠٠٠ سقط « إجناثيو جارثيا أريجي » زعيم حركة « إيتا » الانفصالية في إقليم الباسك الإسباني ، عندما اعتقل في بلدة بيدار في الباسك الفرنسي .

وعجزت الإمبراطورية العثمانية عن الصمود في وجه التغيير ؛ بسبب الفساد المستشري والصراعات الداخلية ، فضاعت منها الأراضي الواحدة تلو الأخرى ، وفقدت في سنة ١٩١٢ وجودها في معظم أنحاء أوروبا لمصلحة صربيا ، اليونان ، الجبل الأسود ، وبلغاريا . وابتلعت إيطاليا الأراضي الليبية في السنة نفسها ، بينما كانت بريطانيا قد استولت على سيناء (١٩٠٦) . وأجبرت ثورة الأتراك السلطان سنة

١٩٠٨ على استعادة الدستور ، وإجراء عدد من الإصلاحات الاجتماعية والاهتمام بالتصنيع .

وتمكن « مصطفى كمال أتاتورك » (١٨٨٠-١٩٣٨) - الذي يعني لقبه «أبو الترك»- من قيادة بلاده إلى التخلص من الإمبراطورية العثمانية . فقد خرج عن طاعة السلطان « محمد السادس » ، وأقام حكومة منافسة في أنقرة التي أصبحت العاصمة الجديدة في ١٣ سبتمبر ١٩٢٣ . وكان « أتاتورك » قد أعلن في ٤ نوفمبر ١٩٢٢ إلغاء السلطنة ، وعقد في السنة التالية معاهدة لوزان مع الحلفاء ، وأقام جمهورية تركيا في ٢٩ أكتوبر ١٩٢٣ ، وانتخب رئيسا لها ، وظل محتفظا بالسلطة طوال حياته . جمهورية فتية في أنقرة ، وخليفة في الآستانة ، وضع شاذ ظل قائما لخمسة أشهر (أكتوبر ١٩٢٣-مارس ١٩٢٤) ، قبل أن يوافق المجلس الوطني على إلغاء الخلافة في ٣ مارس ١٩٢٤ ، ليدخل « مصطفى كمال » قصر ضولمة بغجة الذي كان يقيم فيه « عبد المجيد » ، آخر خلفاء آل عثمان .

وبعد عقود عدة شهدت تركيا ظهور اسم الثائر الكردي « عبد الله أوجلان » ، زعيم حزب العمال الكردستاني المحظور نشاطه ، الذي حملته أنقرة مسئولية مقتل ٢٩ ألف شخص . قاد « أوجلان » - المولود في شانلي أورفه سنة ١٩٤٨- العناصر الكردية المطالبة بالاستقلال عن تركيا لشن هجمات ، وخوض معارك ضارية ضد القوات الحكومية ، وكبدها خسائر بمليارات الدولارات ، إلى أن سقط في قبضة السلطات التركية بعد عملية خطف ناجحة في ١٥ فبراير ١٩٩٩ ، حوكم بعدها وصدر ضده في ٢٩ يونيو ١٩٩٩ حكم بالإعدام ، لكنه لم ينفذ بموجب صفقة سياسية بين تركيا والاتحاد الأوروبي ، تقضي بفتح الباب أمام انضمام تركيا إلى الاتحاد الأوروبي مقابل عدم تنفيذ الحكم في « أوجلان » .

قائد المقاومة الشيشانية« شامل باساييف » المولود سنة ١٩٦٥ لقن القوات الروسية دروسًا مؤلمة في أكثر من مناسبة . ففي ١٩٩١ خطف طائرة في روسيا متجهة إلى تركيا؛ لممارسة ضغوط على الكرملين ، وفي ١٩٩٢ و١٩٩٣ قاتل مع الانفصاليين في أبخازيا ، وقاتل إلى جانب الأذريين في ناجورنو-قرة باخ ، وفي ١٩٩٥ اعتقل أكثر من ألف رهينة في مستشفي في جنوب روسيا للمطالبة بوقف العمليات العسكرية ضد

الشيشان . وفي ١٩٩٦ عاد إلى العاصمة الشيشانية جروزني ، قبل أن يقود الحرب في داغستان والشيشان ضد الروس عبر القوقاز ، ويتعرض لبتر جزء من قدمه خلال المعارك .

وفي أفغانستان برز دور « أحمد شاه مسعود » في معارك المجاهدين الأفغان ضد الاحتلال السوفيتي منذ نهاية السبعينيات . وهذا الثائر (٤٩ سنة) الذي درس الهندسة ويتكلم الفرنسية بطلاقة يحمل لقب « أسد وادي بانشير » ، وكلمة بانشير بالأفغانية تعني « الأسود » ، فهو أسد الأسود ، وأحيانا يسميه أنصاره « روبن هود أفغانستان » . تولى منصب وزير الدفاع في حكومة المجاهدين ، التي تشكلت برئاسة « صبغة الله مجددي » عقب سقوط الحكم الشيوعي في أفغانستان ، ثم أصبح وزير الدفاع في حكومة « برهان الدين رباني » المعارضة لحكم حركة « طالبان » .

واندلعت في الأراضي الفلسطينية المحتلة ثورات عدة ، من بينها ثورة القدس ضد الإنجليز في ١٩٢٠ ، وثورة البراق التي اشتعلت في ٢٩ أغسطس ١٩٢٩ ، وقد بدأت بمصادمات بين الفلسطينيين واليهود قرب حائط البراق في سبتمبر ١٩٢٨ ، ثم استمرت نحو سنة وأسفرت عن سقوط عشرات القتلى من الجانبين . وفي ١٩٣٦ وقعت ثورة شاملة ضد اليهود والاحتلال البريطاني . وفي ٨ ديسمبر ١٩٨٧ ، انطلقت الانتفاضة الفلسطينية من مخيم جباليا للاجئين ، ولقنت الإسرائيلين درسا عظيما في المقاومة استمر لسنوات ، ودفع إسرائيل لقبول التفاوض مع ممثلي الشعب الفلسطيني .

ومن أشهر رموز الثورة والمقاومة الفلسطينية الحاج « أمين الحسيني » (١٨٩٦-١٩٧٤) ، الذي تخرج في الكلية الحربية في اسطنبول ، وانضم إلى المناضلين المحيطين بـ « عزيز علي المصري » . وحين اندلعت الحرب العالمية الأولى وبدأت أولى حركات الاستقلال العربية ، انضم « الحسيني » إلى الجيش الشريفي . شارك في ثورة القدس ثم هرب إلى الأردن ، قبل أن يعود في عهد السير « هربرت صموئيل » المفوض السامي البريطاني في فلسطين ، وعين « الحسيني » مفتيا لبيت المقدس . لكنه فر في ١٩٣٧ إلى لبنان فالعراق ، بعد أن حاول الإنجليز اعتقاله بتهمة التحريض على الثورة .

وفي العراق أسهم « أمين الحسيني » في حركة « رشيد عالي الكيلاني » ، ثم فر عقب فشلها إلى روما ومنها إلى برلين ، وساند الدعاية الهتلرية الموجهة إلى العرب نكاية في الإنجليز . وحين انتهت الحرب العالمية الثانية اعتقل « الحسيني » في فرنسا في ١٩٤٥ ، لكنه تمكن من الهرب عائدا إلى فلسطين عن طريق مصر ولبنان ، وهناك ترأس الهيئة العربية العليا ، وصار عليه أن يخوض عديداً من المعارك ضد الأجيال الجديدة من الزعامات الفلسطينية حتى توفي في لبنان في ٤ يوليو ١٩٧٤ . وتحفظ الذاكرة اسم المناضل « عز الدين القسام » (١٨٨٢-١٩٣٥) الذي قاد ثورة الفلسطينيين في ١٩٣٤ حتى استشهد .

أما الرئيس الفلسطيني « ياسر عرفات » المولود في ٢٤ أغسطس ١٩٢٩ باسم «محمد عبدالرحمن عبدالرءوف عرفات القدوة » ، فقد ولد في القاهرة (حسب أوراقه الرسمية) أو في القدس (حسب قوله شخصيا) ، ودرس الهندسة في جامعة القاهرة (١٩٥٢-١٩٥٦) ، وشارك في تأسيس أول خلية لحركة « فتح » في أكتوبر ١٩٥٩ حين كان يعمل لفترة مهندسا في الكويت . تمكنت « فتح » تحت قيادته من بسط سيطرتها على منظمة التحرير الفلسطينية التي تأسست في ١٩٦٤ بدعم عربي ، ونالت اعترافا رسميا من الأمم المتحدة في ١٩٧٤ . و« الختيار » « عرفات » الذي تعرض لعدة ضربات، من مذبحة « أيلول الأسود » ضد الفلسطينيين في الأردن في سبتمبر ١٩٧٠ ، والصراع بين الفصائل الفلسطينية ، والتورط في الحرب الأهلية اللبنانية ، والحصار ثم الرحيل من لبنان في ١٩٨٣ ، مزج بين النضال والدبلوماسية في كثير من مواقفه ، حتى تمكن من توقيع اتفاقيات سلام مع الإسرائيليين - مازالت منقوصة بسبب التعنت الإسرائيلي - بدءا من محطة أوسلو واتفاق « غزة-أريحا ١ » في ١٩٩٣ ، ليعود إلى قطاع غزة وأجزاء من الضفة الغربية ، ويقيم سلطة الحكم الذاتي للفلسطينيين فوقها سنة ١٩٩٤ .

لكن « فاروق قدومي » الذي يرأس الدائرة السياسية ، وهو ما يقابل منصب وزير الخارجية في السلطة الوطنية الفلسطينية ، اختلف مع « عرفات » حول اتفاق أوسلو الذي رفض التوقيع عليه . « قدومي » (٧١ سنة) الذي يحمل لقب « أبو اللطف » ،

ولد في قرية بالقرب من نابلس في الضفة الغربية ، وبعد أن انتهى من دراسة المرحلة الثانوية جاء إلى مصر ودرس الاقتصاد في الجامعة الأمريكية في القاهرة . أسس «قدومي » مع « عرفات » حركة « فتح » ، ثم أصبح عضوا في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية سنة ١٩٦٩ ، وتولى رئاسة الدائرة السياسية من سنة ١٩٧٤ ، واحتفظ بالمنصب على الرغم من خلافه مع رفيق الكفاح « عرفات » .

من جانب آخر ، نفذت عناصر تابعة لفصائل المقاومة والثورة الفلسطينية -خاصة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين تحت قيادة « چورچ حبش » - عمليات فدائية ، وخطف طائرات ؛ بقصد لفت الأنظار إلى عدالة القضية الفلسطينية . أما « فتح- المجلس الثوري » - أو « جماعة أبو نضال » - فقد أسسها « صبري البنا » (المولود في يافا سنة ١٩٣٧-) الذي عرف باسم « أبو نضال » . ونفذت هذه الجماعة عديدًا من حوادث خطف الطائرات والاغتيالات ، وتورطت في الهجوم على مطاري روما وفيينا سنة ١٩٨٥ ، واغتيال « صلاح خلف » « أبو إياد » أحد أبرز قادة « فتح » في تونس سنة ١٩٩١ .

ومنذ ١٩٠٠ ، بدأت الحركة القومية تظهر في المنطقة العربية ، وظهرت جمعيات سرية تدعو للانشقاق عن الخلافة العثمانية ، وفي ١٠٩٤ تم توقيع الاتفاق السري بين فرنسا وبريطانيا على تقسيم أملاك الخلافة العثمانية في الوطن العربي ، ثم تولى «الشريف حسين» حكم الحجاز في ١٩٠٨ ، وهو الذي كان متنمرا للخلافة العثمانية التي فقدت في السنة نفسها بلغاريا . وفي ١٩١٣ اقتطعت من الخلافة العثمانية ألبانيا ومقدونيا وتراقيا ، التي تم تقسيمها بين بلغاريا واليونان . وبعد اندلاع الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ انتهت السيادة العثمانية على مصر ، قبل أن يعلن « الشريف حسين » سنة ١٩١٦ في مكة المكرمة الثورة على الخلافة العثمانية بتحريض من بريطانيا ، وأعلنت فرنسا وبريطانيا بعد ذلك اتفاقية « سايكس بيكو » ، وفيها قسمت أملاك الخلافة العثمانية . وفي حين نشطت الحركات القومية في المنطقة العربية ، أجهز «مصطفى كمال أتاتورك » على البقية الباقية من الخلافة العثمانية .

ولقد ارتبطت نشأة الفكر القومي العربي بأيدي المارونيين من خريجي الكلية الإنجيلية في بيروت ، التي تحولت فيما بعد إلى الجامعة الأمريكية . ولاشك أن أحد

جوانب الفكرة قد استهدف فصل العرب عن الخلافة الإسلامية ؛ تمهيدا لتصفية الإمبراطورية العثمانية . وأسهم ثلاثة مسيحيين من خريجي المعهد العلمي نفسه في بناء أحزاب استنادا إلى الفكر القومي . وأول الثلاثة « أنطون سعادة » الذي أنشأ الحزب القومي السوري . وقبل أن يشتد عود الحزب ، خاض في مستنقع المؤامرات ، ودارت الدائرة على الحزب بقوة حين أقدم « يونس عبد الرحيم » عضو الحزب على اغتيال « عدنان المالكي » ، رئيس الشعبة الثالثة بالأركان العامة للجيش السوري في إبريل ١٩٥٥ .

الشخص الثاني هو « ميشيل عفلق » الذي أنشأ حزب البعث . وحين التقى «عفلق» مع « أكرم الحوراني » و« صلاح البيطار » زعيمي الحزب الاشتراكي ، تقرر دمج الحزبين في حزب واحد حمل اسم البعث العربي الاشتراكي ، و أسهم الثلاثة في صناعة مجد الحزب ، عندما قرروا خوض تجربة الوحدة مع مصر تحت قيادة الرئيس « جمال عبد الناصر » في ١٩٥٨ . لكن الحزب سرعان ما شارك في مؤامرة الانفصال سنة ١٩٦١ ، وبعدها يتوالى مسلسل الانقلابات العسكرية ، ثم ينقسم الحزب إلى جناحين، أحدهما سوري والثاني عراقي، وبالانقسام تبدأ رحلة العداوة بين الجناحين.

والثالث هو « چورچ حبش » الذي أنشأ حركة القوميين العرب في ١٩٥٢ ، ثم أنشأ الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين مع هزيمة يونيو ١٩٦٧ . و« الحكيم » « حبش » الذي بدأ حياته طبيبا باطنيا ، تماما مثل رفيق كفاحه الدكتور « وديع حداد » الذي انشق لاحقا ، لم ينس أن يعيد صياغة الفكرة القومية على ضوء الفكر الماركسي اللينيني ، ثم يميل بالفكرة إلى الاتجاه الماوي فيما بعد . وتتجه الجبهة بنشاطها إلى خطف الطائرات اعتبارا من نهاية عقد الستينيات ، ويصل النشاط إلى ذروته في سبتمبر ١٩٧٠ ، عندما تنجح الجبهة في اختطاف ثلاث طائرات إلى الأردن ، ليجرى تفجيرها ويدفع الفلسطينيون الثمن في أحداث « أيلول الأسود » سنة ١٩٧٠ بالخروج من الأردن والتوجه إلى بيروت . لكن « حبش » اختار أن يستقيل من منصبه أخيرا ، بعد أن جرت مياه كثيرة تحت النهر بالنسبة للقضية والثورة الفلسطينية .

وفي ٥ سبتمبر ١٩٧٢ نفذت منظمة « أيلول الأسود » الفلسطينية عملية اقتحام مقر الفرق الرياضية الإسرائيلية المشاركة في دورة ميونيخ للألعاب الأوليمبية ، مما أدى إلى مصرع ١١ إسرائيليا ، ومقتل خمسة فدائيين بعد تبادل إطلاق النار مع قوات الشرطة الألمانية الغربية .

المهاتما وسعد باشا

ويعد « موهانداس كرمشند غاندي » (١٨٦٩-١٩٤٨) أبرز رموز الثورة خلال القرن العشرين . هذا الرجل الأسمر النحيل الذي تعلم في الهند وإنجلترا ، واشتغل بالمحاماة في ١٨٨٩ ، وسافر إلى جنوب إفريقيا للدفاع عن حقوق الهنود بها ، قبل أن يعود إلى الهند في ١٩١٥ ، ويبدأ رحلته الطويلة نحو انتزاع حق الهند في الاستقلال . اتبع « غاندي » نظاما شديد التقشف في معيشته ، ونادى بوحدة الجنس البشري في ظل المحبة والعدالة والإخاء .

ذاق « غاندي » أصنافًا من الاضطهاد والسجن على أيدي الاحتلال الإنجليزى لبلاده ، فنظم حركة المقاومة السلبية « الساتيا جراها » وسلسلة من الحملات ضد الحكم البريطاني . انتخب مرات عدة رئيسا لحزب المؤتمر القومي الهندي ، ولقب بالمهاتما « الروح العظيمة » . هذا الزعيم الذي ألهم شعب الهند روح الاستقلال ، لم يستبعد اللجوء إلى القوة للحصول على الحقوق ، وأكد الحاجة إلى السلاح في حالات ومواقف معينة ، إذ قال ذات يوم : « حينما يتراوح الاختيار بين الجبن والعنف . . فإنني أفضل استخدام السلاح للدفاع عن الكرامة ، بدلا من البقاء كشاهد عاجز على امتهان الكرامة » .

و« غاندي » - الذي اغتاله هندوسى متعصب في ٣٠ يناير ١٩٤٨ ، متهما إياه بالتضحية بمصالح الهندوس لاسترضاء المسلمين- أشاد في أكثر من مناسبة بثورة ١٩١٩ في مصر ، وأكد تأثره بأفكار وقومية قائدها « سعد زغلول » (١٨٥٧-١٩٢٧) زعيم حزب الوفد ، الذي سعى لاستقلال مصر بالطرق السلمية المشروعة . انفجرت ثورة ١٩١٩ - في ٨ مارس من تلك السنة - بعد اعتقاله وثلاثة من رفاقه ونفيهم إلى

مالطا . وامتدت الثورة -التي قادها الطلاب والعمال والمحامون وبرز فيها الأزهريون والنساء - من القاهرة والإسكندرية إلى المدن والقرى المختلفة مثل مدينة زفتى ، وتولت المدن الأخرى في أثناء الثورة إدارة شئونها بشكل مستقل ، مثل مدينتي المنيا وأسيوط . هذا الزعيم القومي الكبير ، الذي اعتقله الإنجليز مرة أخرى مع خمسة من أعضاء وفد التفاوض مع الإنجليز عقب مظاهرات ٢٥ مايو ١٩٢٥ ، وانتقاده سياسات حكومة « عدلي يكن » ، ونفي إلى سيشل لكنه نقل لأسباب صحية إلى جبل طارق ، أفرج عنه في إبريل ١٩٢٣ ، فعاد إلى مصر ، وفاز في الانتخابات فوزًا مبينًا ، فألف وزارته الشعبية في ١٩٢٤ .

سافر « سعد زغلول » - الذي تغنى باسمه المصريون خلال معركة الاستقلال - إلى لندن لمفاوضة « رامزي مكدونالد » ، ولكن المفاوضات فشلت ، غير أنه لم ييأس وواصل قيادة الوطنيين في مطالب مصر العادلة و المشروعة . ولا شك أن « سعد زغلول » الذي انتخب رئيسا لمجلس النواب في ١٩٢٥ ، ثم لمجلس النواب الائتلافي في السنة التالية ، كان زعيما قوميا كبيرا ، شأنه في ذلك شأن كثير من زعماء مصر القوميين ومن بينهم « مصطفى كامل » .

وكان « مصطفى كامل » (١٨٧٤-١٩٠٨) الذي تخرج في مدرسة الحقوق ثم بجامعة تولوز بفرنسا ، قد نذر حياته للمطالبة بجلاء قوات الاحتلال البريطانية عن مصر ، وكان يضع في اعتباره هدفا واحدا هو الجلاء ، وعدوا واحدا هو الاحتلال . أصدر «مصطفى كامل» صحيفة « اللواء » في ١٩٠٠ ثم « اللواء » الفرنسية والإنجليزية ، وكون الحزب الوطني في ١٩٠٧ . غير أن الجهد الكبير الذي بذله في سبيل الدفاع عن القضية المصرية أثر تأثيرا شديدا في صحته فتوفي شابا ، وخلفه « محمد فريد » في رئاسة الحزب الوطني . و« محمد فريد » (١٨٦٧-١٩١٩) الذي تخرج في مدرسة الحقوق في ١٨٨٧ ، تعرض للسجن لأسباب سياسية ، وأنفق معظم ثروته في سبيل القضية المصرية . سافر هذا الزعيم القومي إلى أوروبا ، وتنقل بين دولها داعيا إلى قضية بلاده ، إلى أن توفي في برلين ، وتم دفن جثمانه في القاهرة ، بعد أن تبرع تاجر مصري بتكاليف شحن الجثمان!

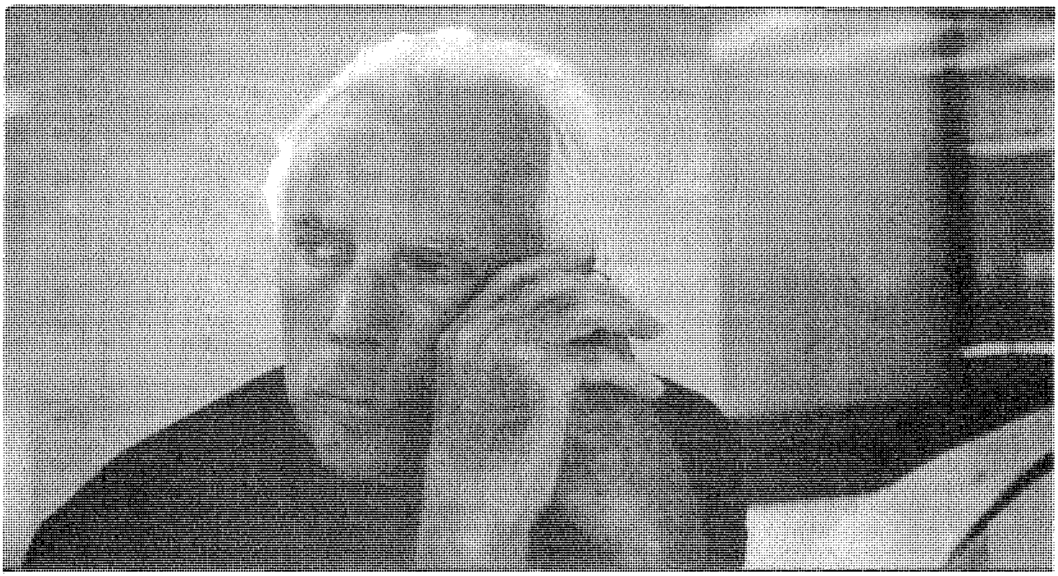
وأسهمت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ في الإطاحة بحكم ملكي فاسد ، وعزل الملك « فاروق » الذي غادر مصر منفيا إلى غير رجعة . وبعد نجاح حركة الضباط الأحرار في إنهاء الحكم الملكي ، عين مجلس قيادة الثورة « محمد نجيب » رئيسا لجمهورية مصر في ١٨ يونيو ١٩٥٣ ، ومن بعده تولى الزعيم « جمال عبد الناصر » المولود في ١٩١٨ السلطة ، وانتخب رئيسا للجمهورية في الاستفتاء الذي أجري في ٢٣ يونيو ١٩٥٦ ، وقاد مصر خلال مرحلة دقيقة من تاريخها حتى توفي في ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ . وتولى الرئيس « محمد أنور السادات » (١٩١٨-١٩٨١) أحد الضباط الأحرار ، السلطة خلفا لـ « عبد الناصر » ، وشهد عهده انتصار العاشر من رمضان في ٦ أكتوبر ١٩٧٣ الذي أعاد الكرامة لمصر وللعرب ، ثم اغتيل خلال عرض عسكري في أكتوبر ١٩٨١ ، ليتولى السلطة الرئيس « حسني مبارك » (مايو ١٩٢٨-) أحد أبرز قادة نصر أكتوبر المجيد .

وأسهم في استقلال دول منطقة المغرب العربي ثوار بارزون . فهذه المنطقة العربية الواقعة على الضفة الجنوبية من أوروبا ، ذاقت الأمرين من ويلات الاحتلال الأوروبي، الفرنسي والإيطالي على وجه الخصوص ، ولذا فهي لا تزال تحفظ أسماء أبطال قاوموا الاحتلال الأوروبي ، أمثال « عبد القادر الجزائري » الذي قاد معركة الدفاع عن هوية الجزائر ، و« عبد الكريم الخطابي » (١٨٨٢-١٩٦٣) الذي خاض مواجهة شرسة ضد فرنسا وإسبانيا في المغرب، وأعلن جمهورية الريف في١٩ سبتمبر ١٩٢٩ ، و« عمر المختار » (١٨٦٠-١٩٣١) الذي تصدى ببسالة للاحتلال الإيطالي في ليبيا حتى وقع في الأسر وأعدم شنقا .

وإذا كانت الأمم المتحدة قد وافقت على منح ليبيا استقلالها في ١٧ نوفمبر ١٩٥٠ ، ثم أعلنت « مملكة ليبيا المتحدة » دولة مستقلة ذات سيادة في ديسمبر ١٩٥١ ، فإن العقيد « معمر القذافي » (١٩٤٢-) قاد « ثورة الفاتح » ضد الحكم الملكي في أول سبتمبر ١٩٦٩ . وفي تونس قاد « الحبيب بورقيبة » (١٩٠٢-٢٠٠٠) الحركة الوطنية ضد الاحتلال ، وتعرض للسجن والنفي لمدة تقرب عشر سنوات ، قبل حصول تونس

على الاستقلال في ١٩٥٦ ، لينتخب رئيسا للمجلس التأسيسي يوم ٢٥ مارس١٩٥٦ ، ويشكل بعد ذلك أول حكومة في عهد الاستقلال يوم ١٤ إبريل ١٩٥٦ ، ثم عينه المجلس التأسيسي - عند إعلانه الجمهورية - أول رئيس لتونس . ظل « بورقيبة » في هذا المنصب حتى ٧ نوفمبر ١٩٨٧ ، حين تولى مسئولية الحكم ورئاسة الجمهورية « زين العابدين بن علي » (١٩٣٦-) ، بعد الإعلان عن مرض « بورقيبة » وعدم قدرته على القيام بأعباء الحكم ، وفق ما قررته لجنة طبية وقتذاك .

* * *



أرماني



كوكو شانيل



كلوديا شيفر

الموضة : هل هي « شيك » له رصيد . . أم عمل قبيح تمارسه نساء جميلات؟

ما بين المسافتين تطل تقليعات الأزياء برأسها ، بدءا من البنطلون الحريمي ، ومرورا بالسوستة والجينز والاستريتش و« الكاچوال» ، ووصولا إلى البكيني .

لقد شقت الملابس غير الرسمية طريقها بقوة خلال القرن العشرين ، وسط إعجاب البعض وصدمة البعض الآخر . أزياء وصيحات القرن الماضي صممها فنانون مبتكرون وارتدتها عارضات رشيقات ، وتبناها نجوم السينما وقلدها الباقون ،

27

ثمن الأناقة



ناعومي كامبل

ولكن للشهرة ثمنا ، وللأناقة فاتورة فادحة يدفعها أولا الذين صنعوا أو روجوا لهذه الخطوط الجديدة والألوان اللافتة للأنظار . . إنها فاتورة قد تصل قيمتها إلى الحياة نفسها !

شهدت السنوات المائة التي شكلت تاريخ القرن العشرين موجة من التغييرات في الطريقة التي يرتدي بها الناس ملابسهم ، يكفي أن نشير إلى ملمح بسيط صدم الكثيرين خلال القرن الماضي : النساء مرتديات البنطلون !

واليوم ، يعد هذا الأمر عادياً في خزانة أي امرأة ، التي قد تضم بنطلونات تتنوع ما بين الجينز والشورتات ، أو الجوارب الشفافة ، أو الاستريتش ، أو ملابس التدريب الرياضية . لكن هذا التغيير كان كبيرا ومؤثرا في مطلع القرن العشرين ، على الرغم من أن بذوره تم غرسها منذ عقد الثمانينيات في القرن التاسع عشر ، وهو ما قوبل بالرفض من جانب الرجال والاعتراض آنذاك .

غير أن رياح الحرب العالمية الأولى هبت على الجميع ، وجعلت من ارتداء المرأة للبنطلونات خلال تلك الفترة ظاهرة شائعة ، وفي حين كان الرجال في الغرب يقاتلون على الجبهات المختلفة ، شاركت المرأة في المجهود الحربي .

وفي مصانع الذخيرة ظهرت المرأة جنبا إلى جنب مع الرجل ، ارتدت مثله «الأوفرول» بينما ارتدت المزارعات في الريف البنطلون لأداء عمل الرجال في الحقول ، وبدأت المرأة الغربية تدير خطوط السكك الحديدية والحافلات العامة والخدمة البريدية ، وهي ترتدي في الأغلب الأعم البنطلون .

وبعد عودة السلام إلى العالم لم تتخل الكثيرات عن ارتداء البنطلون ، بل إنهن اعتبرنه رمزا للاستقلال . وفي أواخر العشرينيات بدأت فساتين المرأة تنحسر تدريجيا ، لتكشف جمال الساقين ، بينما أخذ البعض منهن في ممارسة عادة التدخين بوصفها -من وجهة نظرهن- رمزا للتحرر!

وفي الثلاثينيات بدت النجمة المعروفة « مارلين ديتريتش » ، بطلة فيلم « الملاك الأزرق » أخاذة في الزي الرياضي للرجال ، واعتبرت « كوكو شانيل » رائدة أزياء

«حمام الشمس» ؛ إذ عرضت البشرة البرونزية في ١٩١٨ كرمز للجمال الأنثوي ، بينما كانت تلك البشرة تعد فيما سبق رمزا للعمالة اليدوية والفقر . وقدمت « كوكو شانيل » - التي ولدت في قرية سومور الفرنسية ، وتوفيت في فندق ريتز الفخم - بمساعدة الكيميائي « إرنست بوكس » لنساء العالم العطر الشهير « شانيل ٥ » ، الذي طرح في الأسواق داخل قارورة ذات شكل أخاذ في ٥ مايو ١٩٢٣ ، ومن هنا جاء الرقم (٥) في اسم العطر الذي تهافتت عليه النساء ودوخ الرجال . « شانيل » هي التي قال عنها ذات يوم الكاتب الفرنسي الشهير « أندريه مالرو » : « من هذا القرن ، ستبقى ثلاثة أسماء في فرنسا : ديجول ، بيكاسو ، وشانيل » .

وبالروح نفسها ولد كثير من الملابس النسائية ، خاصة حمالات الصدر ، لتتحرر المرأة أخيرا من « الكورسيه » الذي كان يخنق جسدها .

سجلت براءة اختراع أول حمالة صدر في ١٢ فبراير ١٩١٤ على يد « ماري فيلبس چاكوبس » ، التي قدمت خلال عرض أزياء حمالة صدر تتألف من منديل وإبر لإحكام شده إلى الجسد ، بمساعدة خادمتها الفرنسية ، ولأنها لم تكن سوى فتاة ساذجة في الرابعة عشرة من عمرها ، فقد وافقت بسهولة على بيع براءة الاختراع إلى « ورنرز » مقابل مبلغ لا يتعدى ١٥٠٠ دولار . ثم مرت الأيام وعرض « هاري ونستون » من تصميمه في ١٩٩٧ أغلى حمالة صدر في العالم ، وقيمتها ٧ ملايين دولار ، لأنها مرصعة بمائة قطعة ألماس .

وعقب المظاهرة التي أحرقت فيها السيدات حمالات الصدر خلال عقد الستينيات ، تحولت الملابس الداخلية مرة أخرى إلى رمز لتحرر المرأة الغربية ، كما حدث لاحقا مع المغنية والممثلة الأمريكية « مادونا » في حمالة صدرها ، التي صممها « چان بول جوتييه » ، إذ تحدت « مادونا » الجميع حين رأت أن تلك القطعة الخاصة من ملابسها صممت ليراها الآخرون لا لتختفي خلف الملابس الخارجية .

وشارك الرجل في ثورة الملابس الخاصة من خلال استعانته بأقمشة مختلفة لتصميم وصنع تلك الملابس ، بدءا من الريون « الحرير الصناعي » في ١٩٢٤ ،

والنايلون في ١٩٢٧ ، التي استخدمت على نطاق واسع خلال عقد الأربعينيات ، وتبعها البوليستر في الخمسينيات ، وصولا إلى الأقمشة الطبيعية والاستريتش خلال التسعينيات .

أما السوستة (الياي) التي تعد الآن عنصرا أساسيا فى عديد من قطع الملابس ، فقد كانت من مواليد العقد الأول من القرن الماضي ، واستخدمت بشكل مبدئي للجاكيتات الواقية فى البحرية الأمريكية . ولم تكن السوستة واسعة الانتشار حتى عقد الثلاثينيات على يد « إلزا شياباريللي » ، التي تعد من أوليات مصممات الأزياء اللاتي استخدمنها في تصميماتهن .

تطور الأقمشة والسوستة كان جزءا من موجة عامة باتجاه الإنتاج الضخم في عالم الأزياء ، الذي بدأ خلال عقد العشرينيات ، في ظل التوسع في إقامة محال التجزئة ، وبدا أن مصممي الأزياء في العاصمة الفرنسية باريس هم الذين يرسمون طريق الموضة ، مع تميز خاص لـ « شانيل » في نشر أحدث التقليعات فى صفوف العامة ، فقد تمكنت « شانيل » من اختراع « الثوب الأسود الصغير » ، وهو ما وصفه « سيسيل بيتون » يوما ما بأنه « زي متواضع » ، لكنه تحول بمرور الأيام إلى زي يمكن أن ترتديه أي امرأة عادية المستوى ، لتصبح دوقة أو حتى أميرة ، مع فارق وحيد هو أن ثوب السيدة البسيطة سيكون مصنوعا عادة من الريون بدلا من الحرير .

و ظهر في إيطاليا سنة ١٩٣٧ لأول مرة حذاء بكعب عال ، يصل ارتفاعه إلى ١٢ سنتيمترا ، ترتدي معه المرأة جوربا من النايلون بطول الساق .

القطعة بريچيت

وبحلول الخمسينيات ، بدت هناك بالفعل مؤشرات على التحرك باتجاه ارتداء الملابس غير الرسمية ، التي أصبحت ملمحا أساسيا للملابس خلال النصف الثاني من القرن العشرين ، وهكذا نالت الطبقة الوسطى فرصة أكبر للاقتراب أكثر من الطبقات الأرستقراطية ، خاصة مع تزايد القوة الشرائية للمرأة ، وتحسن مستوى تقنيات

التصنيع، وظهور ملابس ذات نوعيات راقية معروضة للبيع، بأسعار في حدود إمكانات عدد كبير من النساء .

موجة من التغييرات في المجتمع الغربي و بوجه خاص أسلوب شعور المرأة بذاتها، تجسدت في فيلم الإثارة « وخلق الله المرأة » بطولة نجمة الإغراء الفرنسية «بريچيت باردو » . ويقول مؤرخ الأزياء الشهير « كولين مكدويل »إن ما حدث يتلخص في أنه فجأة تحولت أكثر النساء جاذبية إلى قطة تتميز بالإثارة ، كما يراها الشباب .

وفي الماضي ، كانت النساء يبحثن عن الأناقة ، ولكن لا أحد -شابا كان أم عجوزا- اهتم بها مثلما حدث خلال عقد الستينيات ، وهو التغيير الذي ظل قائما حتى نهاية القرن ، كما يوضح « مكدويل » . لقد تحول عقد الستينيات إلى نقطة فاصلة بين عالمين متباعدين لكل منهما رؤيته الخاصة للأزياء والملابس . إن « ستينيات التحول » دفعت بدورها العاصمة البريطانية لندن إلى احتلال الصدارة في مجال الأزياء طوال ذلك العقد ، بينما أبدى جيش من مصممي الأزياء اهتمامهم بتصميم ملابس الشباب فقط دون غيرهم . وبسرعة كبيرة ، زادت « ماري كوانت » - التي دشنت عصر قصة الشعر الشهيرة « ألا جارسون » أو تسريحة الصبي في ١٩٦٤ - من ارتفاع كعب الحذاء لتولد « الچيبات » القصيرة ، بينما تم الاستغناء عن الجوارب الواسع ؛ ة لتظهر بدلا منها الجوارب الضيقة ، ولمع نجم الأحذية ذات الأعناق العالية « البوت » ، لتزداد مساحة الجاذبية والإثارة .

وبحلول ١٩٦٥ كان في باريس أقل من ٤٠ مصمم أزياء معترفا بهم من جانب غرفة مصممي الأزياء - الهيئة المنظمة للأزياء في فرنسا - مقابل أكثر من ١٠٠ منهم قبل الحرب العالمية الثانية .

« إيف سان لوران » كان أول مصمم أزياء يعي وينتبه إلى اتجاه الريح ؛ ليطرح بدوره مجموعة من الملابس الجاهزة للارتداء ، التي اعتبرت مستقلة تماما عن تصميماته الأخرى . افتتح « سان لوران » متجره « ريف جوش بوتيك » على الضفة اليسرى في

٢٦ سبتمبر ١٩٦٦ . وبحلول الساعة الرابعة مساء اليوم نفسه ، كان «إيف سان لوران» قد باع ملابس بقيمة إجمالية قدرها ٢٤ ألف دولار .

رمز الچينز

الچينز بدا بدوره زيا عالميا للشباب ، ووصل إلى ذروته مع استخدام عديد من مصممى الأزياء له ، وظهور علامات تجارية عدة ؛ مما أدى إلى خفض الأسعار بشكل ملحوظ خلال عقد السبعينيات . هذه الملابس ذات الأقمشة القوية بدأت تأخذ طابعا آخر في بلدة نيم الفرنسية ، حتى أطلق عليها أحيانا اسم « چينز دونيم » أى چينز من بلدة نيم ، إذ انتقلت من مجرد ملابس يرتديها عمال المناجم خلال عقد الخمسينيات من القرن التاسع عشر خلال فترة حمى البحث عن الذهب ، أو من مجرد ملابس يرتديها رعاة البقر والمزارعون ، إلى تقليعة شبابية ذائعة الصيت .

وفي منتصف القرن العشرين ، اعتبر الچينز رمزا للشباب فى الولايات المتحدة ، خاصة بعد أن تبناه نجم السينما « چيمس دين » ، وظهر به مع « تي شيرت » أبيض في أفلامه الثلاثة . وعلى الرغم من أن الچينز والدونيم قد تراجعا من حيث الشعبية فيما بعد ، فإنهما احتفظا بمكانة مستقرة نسبيا في عالم الموضة .

شقت الملابس غير الرسمية طريقها بقوة إلى عالم الأزياء ، اعتبارا من نهاية عقد الثمانينيات ، خاصة مع تزايد الاهتمام بالرشاقة ، و انتشار رياضات التدريب وخفض الوزن والاحتفاظ باللياقة مثل « الإيروبيكس » ، وبروز حصص الرقص وضبط الوزن . وهكذا تحولت الملابس الرياضية بأشكالها المختلفة إلى منافس قوي للچينز ؛ باعتبارها متربعة على قمة الملابس غير الرسمية « الكاچوال » ، بينما برزت إلى الوجود بدلات التدريب غالية الثمن ، لتكون صاحبة الكلمة الأخيرة في أناقة الباحثين والباحثات عن رياضي أخاذ .

في الوقت نفسه ، وفي ظل التدفئة المركزية وأجهزة تكييف الهواء فى عديد من الأماكن ، تضاءلت تدريجيا المسافة بين ملابس الصيف والشتاء ، وأصبحت منطقة رمادية غير واضحة المعالم ، إذ يمكن الآن - على سبيل المثال لا الحصر - ارتداء

الچينز والـ « تي شيرت » على مدار العام ، كما أنهما قد يصبحان رداء النجوم والأثرياء ، مثلما يمكن أن يكونا زي البسطاء في الشوارع . . فقد أصبحت الأناقة متاحة للجميع !

أبرز التواريخ

ويمكن القول إن أبرز عشرة تواريخ في مجال الأزياء خلال القرن العشرين ، هي كالتالي : في ١٩١٣ ، حين تمكن « جديون سندباك » السويدي الذي يعمل في الولايات المتحدة ، من تطوير السوستة الحديثة للملابس . وفي ١٢ فبراير ١٩١٤ ، تم تسجيل براءة اختراع أول حمالة صدر ، وفي الفترة بين ١٩١٤ - ١٩١٨ ، قدمت « كوكو شانيلو » (١٩ أغسطس ١٨٨٣-١٠ يناير ١٩٧١) في عرض عام البشرة البرونزية ، التي تشير إلى تعرض جسد عارضة الأزياء للشمس ، في ثورة جديدة على الفكرة التقليدية والاجتماعية للون البشرة .

وفي ١٩٢٤ تم اختراع الريون ، بينما في ١٩٢٧ اخترع النايلون الذي استخدم في الجوارب النسائية منذ الأربعينيات ، وفي ١٩٥٦ قادت « بريچيت باردو » عبر فيلمها «و خلق الله المرأة» ثورة جديدة لصورة النساء وجاذبيتهن ، وحين حلت سنة ١٩٦٥ كانت « ماري كوانت » ابنة العاصمة البريطانية لندن قد أطلقت موضة الميني چيب ، التي تحولت إلى ثورة نسائية خلال عقد الستينيات .

وفي ١٩٦٦ افتتح « إيف سان لوران » أول متاجره « ريف جوش بوتيك » في باريس ؛ ليقدم رؤية جديدة للأزياء . وفي ١٩٧٠ ظهر الچينز كرداء عالمي يفضله الشباب ، أما خلال الثمانينيات . . فقد خطفت بدلات التدريب الرياضية مكان الچينز كأبرز ملابس « الكاچوال » .

وبالمناسبة ، فإن التصميمات المبتكرة طالت حتى ملابس البحر والمايوهات ، التي تطورت منذ صيف ١٩٤٦ على يدي الفرنسي « رار » ، ولمعت على أيدي المخرج «روچيه فاديم» في فيلم « بريچيت باردو » « وخلق الله المرأة » في ١٩٥٦ ، الذي ظهرت فيه بملابس البحر على شاطئ الريفيرا الفرنسية . وفي ١٩٦٢ ، ظهرت

«ڤينوس» أخرى بملابس البحر هي النجمة « أورسولا أندرس » خلال فيلم « دكتور نو » للعميل السري « چيمس بوند » . وفغر الكثيرون أفواههم ، واتسعت أحداقهم لدى متابعتهم النجمة الحسناء « راكيل و يلش » ، وهي ترتدي قطعتي قماش صغيرتين ، فوق جسدها الفائر في فيلم « مليون سنة قبل الميلاد » في ١٩٦٥ .

وفي ١٩٧٨ أظهرت « شيريل تاريجس » كم هو البكيني مثير على عارضة أزياء شابة . وعلى شاطيء الكاريبي قدمت « ديانا » ملابس سباحة أخاذة في ١٩٩٢ ، بينما جعلت الممثلة « باميلا أندرسون » للمايوه طابع إثارة خاصة عبر مسلسل « باي ووتش » (أو « حراس الخليج ») ، بينما أطلقت « شانيل » في عرض باريس موجة جديدة من « البكيني » في ١٩٩٦ بمناسبة ذكرى الميلاد الخمسين لهذا المايوه !

ومن رموز تصميم الأزياء خلال القرن العشرين « كريستيان ديور » ، الذي أخرج الأزياء من حالة التقشف التي مرت بها خلال الحرب العالمية الثانية ، عندما قدم للعالم ما سماه « المظهر الجديد » سنة ١٩٤٧ ، قبل أن يرحل عن عالمنا في أواخر ١٩٥٧ . وسرعان ما برز إلى الوجود « إيف سان لوران » ، الذي أظهر لمسات رائعة وهو في سن الحادية والعشرين ، حتى قيل آنذاك إن مصمم الأزياء المذكور « أنقذ فرنسا » بفضل نجاحه في جعل فرنسا قبلة طالبي الأناقة .

ومن الأسماء الأخرى التي ظهرت خلال القرن العشرين « چورچيو أرماني » ، الذي قدم بدلات نسائية اعتبرت رمز الأناقة خلال عقدي الثمانينيات والتسعينيات ، و« كارل لاجرفيلد » الذي تولى مهمة التصميم في « شانيل » حتى نهاية القرن ، والفرنسي « بول بواريه » الذي قدم قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى أزياء ، غيرت مجرى تصميم الملابس من خلال فستان « الخط المستقيم » ، الذي اعتبر رمز عقد العشرينيات . ونضيف إلى القائمة الأمريكي « أوسكار دي لارنييتا » ، و« أوبيرو دوجيفتش » ، و« مايكل جيفريس » ، و« جود جاليانو » ، و« ألكسندر ماكوين » ، و« كريستيان لاكرو »ا ، و« چان كولونا » ، و« رالف لورين » و« فالنتينو » ، و« چيفري بين » ، و« جياني فرساتشي » .

والأخير يعد رمزا للأناقة وثمنا لها في آن معا . فقد فوجئ عالم الموضة الراقية صباح ١٥ يوليو (١٩٩٩) بخبر اغتيال مصمم الأزياء الإيطالي « فرساتشي » ، صديق النجوم ومبتكر أجرأ الصيحات عبر السنوات العشر السابقة لذلك التاريخ ، أمام مدخل منزله الفاخر في ميامي بولاية فلوريدا الأمريكية ، حيث أرداه الشاذ « أندرو كونانان » قتيلا برصاصتين في رأسه وهو عائد من مطعم « نيوز كافيه» ، الذي اعتاد تناول قهوته الصباحية فيه . وهكذا بكت الأجساد والألوان والممثلات الرشيقات - من « مادونا » و« برينس » و« إلتون جون » و« رومان بولانسكي » و«هيلينا بونام كارتر » و« جيمي لي كيرتيس » و« ميج ريان » و« ديمي مور » ودوقة يورك « سارة فيرجسون » وأميرة ويلز « ديانا » - هذا الرجل الذي ارتدت تصميماته كبرى عارضات الأزياء ، مثل « كلوديا شيفر » ، و« ليندا إيفانجليستا » ، و«سيندي كروفورد » ، و« ناديان أورمان » ، و« ياسمين » ، و« كارلا بروني » ، و«هيلينا كريستنسن » ، و«إيڤا هيرزيجوفا » ، و« إيل ماكفرسون » ، و« ناعومي كامبل» - التي عرضت في ١٩٩٨ أغلى چاكيت في العالم وقيمته مليون دولار وأزراره من الزمرد ، ومرصع بالأحجار الكريمة - وغيرهن من صاحبات القامات المناسبة لخياله المبتكر .

الفاتورة الباهظة

وعارضات الأزياء تميزن منذ السبعينيات بنحافة شديدة ، مما فرض على العارضات « السوبر » نظاما غذائيا صارما للحفاظ على رشاقتهن ، وأدى ذلك إضافة إلى أضواء الشهرة إلى أن يدفعن ثمنا غاليا من حياتهن الخاصة . فخلال عقد التسعينيات ، حاولت السمراء « ناعومي كامبل » الانتحار ، وخسرت «سيندي كروفورد » زوجها النجم « ريتشارد جير » ، وانفصلت « كيت موس » عن صديقها النجم « چوني ديب » ، الذي شاركها في نزوات تعاطي المخدرات والليالي الصاخبة .

وبعد خطبة « صورية » طويلة انفصلت الألمانية « كلوديا شيفر » عن خطيبها «الساحر» العالمي « ديفيد كوبرفيلد » ، لترتبط بآخر ، ولتقتحم مع « سيندي كروفورد » و« إيل ماكفرسون » عالم السينما . كذلك طلقت العارضة الشهيرة « كريستي برنكلي » من زوجها المغني « بيلي چويل » في خريف ١٩٩٤ ، بينما عصفت الخلافات والخيانات باستقرار زواج « چيري هول » من المغني « ميك جاجر » .

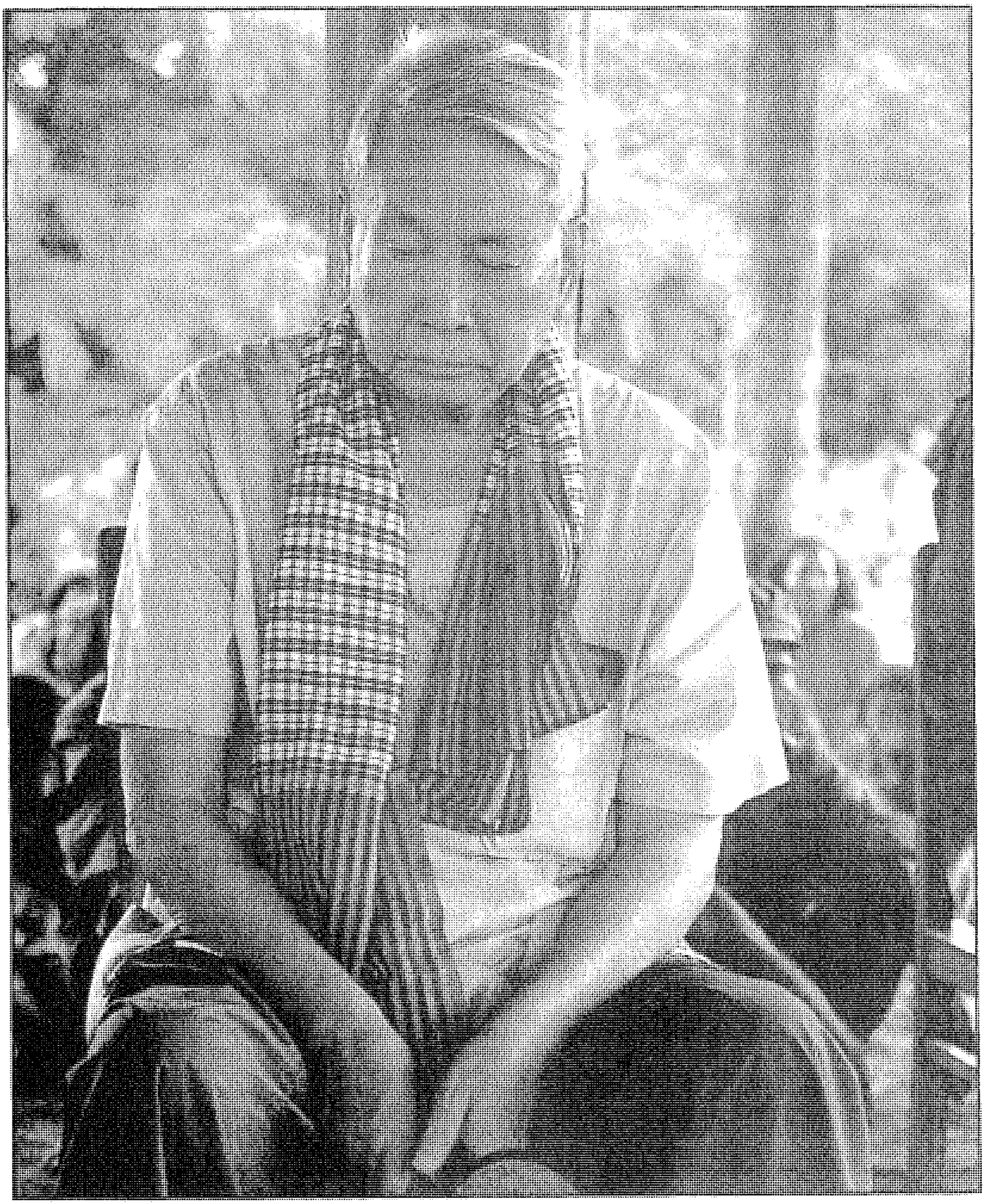
وإذا كان البعض يتحدث عن موت عروض الأزياء ، فإن ما حدث في باريس وروما ولندن ونيويورك حتى نهاية القرن الماضي يشير إلى وجود مبالغة في هذا التصور . وفي ظل كتب نشرت حول عالم الأزياء مثل كتاب « مايكل جروس » الموديل : العمل القبيح للنساء الجميلات » الصادر في ١٩٩٥ ، نقرأ الكثير حول العالم السري لعروض الأزياء والعارضات السوبر ، من تعاطي مخدرات ، وعلاقات غرامية غريبة الأطوار ، كل ذلك ثمنا للشهرة والأضواء المسلطة عليهن بقوة أكثر من اللازم ، وضغوط العمل والحركة بنظام معين ، علاوة على الوعي بأن عمر عارضة الأزياء قصير نسبيا . بل إن بلدا مثل فنزويلا التي اشتهرت بارتفاع نسبة الفاتنات فيها -هناك أربع فنزويليات حصدن لقب ملكة جمال الكون ، وخمس لقب ملكة جمال العالم ، واثنتان لقب ملكة الجمال الدولية - انتشرت فيه عيادات التجميل ، حتى أصبحت ظاهرة محلية شعبية . فنزويلا التي تصدر النفط ، تصدر عارضات الأزياء أيضا ، لكن « عارضة الأزياء التي تريد العمل في فنزويلا أو في الولايات المتحدة تحتاج إلى تكبير صدرها ، أما إذا أحبت العمل في أوروبا فالصدر يجب أن يكون أصغر حجما ، والعيادات تؤمن للعارضات ما ترغبن فيه من مواصفات وعمليات زرع السليكون » حسبما يقول الدكتور « چورچ ليون » ، الذي يعمل جراح تجميل في فنزويلا .

وفي البرازيل فإن كثيراً من الراغبات في أن يكن عارضات شهيرات على خطى البرازيلية « جيزيل بندشين » (٢٠ سنة) ، يعشن تحت سيطرة ميزان الحمام ، وقد يكن مرشحات قويات لاضطرابات في الأكل . وهن في كثير من الأحيان لا يتورعن عن أي

أمر يكون من شأنه تعزيز حظوظهن في النجومية ، سواء أكان هذا يعني تلقي دروس مكثفة في اللغة الإنجليزية ، أو الخضوع لتقويم الأسنان ، أو جراحة تجميل لشد الأذن للخلف ، أو لشفط بعض الدهون . بعض العارضات يذهبن إلى حد تعاطي هرمونات النمو لبلوغ الذرى العالية لممرات عروض الأزياء . وهذا مجرد مثال يكشف عن الثمن المطلوب لاقتحام عالم أو صناعة الجمال .

لقد أصبحت عارضات الأزياء نجمات أشهر من ممثلات السينما ، واستحوذت عليهن الهواجس والإحساس بالتوتر ، مما أدى في أحيان كثيرة إلى إقدامهن على الانتحار ، وما أبهظه من ثمن للنجومية !

* * *



بول بوت



بنيامين نتانياهو

سمها « رشوة » ، « بقشيش » ، « زيت تليين » ، « بايول » أو أي اسم آخر . . فكلها في النهاية أسماء عدة للفساد المالي ، ذلك السرطان المستشري الذي يصيب أكثر ما يصيب الزعماء وكبار المسئولين والقيادات الحزبية على امتداد خريطة العالم ، من الولايات المتحدة إلى روسيا ، ومن إيطاليا إلى إسبانيا ، ومن الأرجنتين إلى البرازيل ، ومن كوريا الجنوبية إلى اليابان ، ومن الهند إلى باكستان ، ومن ألبانيا إلى زائير سابقا أو الكونغو الديمقراطية حاليا .

« هلموت كول » المستشار الألماني السابق ، تحول بين ليلة وضحاها من بطل قومي أسهم في توحيد شطري ألمانيا إلى

28

سقوط الرجل الكبير



سوهارتو

شخصية منبوذة ، حتى من أقرب المقربين إليه من رجال حزب الاتحاد الديمقراطي المسيحي ، الذي انهارت سمعته ، و فقد شعبيته ، وصدم الشعب الألماني لفتح التحقيق القضائي رسميا مع المستشار الألماني السابق بتهمة خيانة الأمانة ؛ لتلقيه ١,٥ مليون مارك (ما بين ٧٥٠ ألفا إلى مليون دولار) من الهبات بين ١٩٩٣ و ١٩٩٨ من مصادر سرية .

« كول » الذي تزعم حزبه ٢٥ سنة ، تولى منها منصب المستشارية الألمانية لفترة ١٦ سنة ، اعترف قبل انتهاء ١٩٩٩ بأن جزءا من تمويل صندوق الحزب الديمقراطي المسيحي لم يتم وفقا للقوانين الألمانية وأسلوب تمويل الحزب ، مشيرا إلى أنه حصل على ٣٠٠ ألف مارك ألماني في الفترة المذكورة سابقا لتمويل نشاط حزبه في ألمانيا الشرقية سابقا دون تسجيل هذه المبالغ في حساب الحزب ، بدعوى أن مانحيها أصروا على الاحتفاظ بأسمائهم سرا لا يعلن عنه .

لكن التحقيقات كشفت عن أن الرقم الحقيقي لهذه المنح غير القانونية يفوق بكثير ماذكره « كول » في اعترافاته ، وأن الرقم قد يصل إلى نحو خمسة ملايين مارك ألمانى . وظهر بعد ذلك أن حزب كول حصل سرا على تبرعات نقدية بالملايين من وسيط في تجارة السلاح ، يدعى « كارل هاينز شرايبر » ، ومن شركة ألمانية شهيرة بطريقة غير قانونية لتوريد صفقة دبابات حديثة تدعى « الثعالب » للسعودية في أثناء أزمة الخليج في ١٩٩٠ .

الرئيس الأمريكي « بيل كلينتون » كان موضع اتهامات مالية في أكثر من مناسبة ، سواء فيما يخص فضيحة « وايت ووتر » ، التي فاحت رائحتها في النصف الأول من التسعينيات ، أو فضيحة تمويل حملته الانتخابية للرئاسة سنة١٩٩٦ بمساعدات ، حصل عليها من رجل أعمال من أصل صيني يدعى « چون هوانج » . وفي المقابل فإن الرئيس الروسي السابق « بوريس يلتسين » - الذي اختار آخر أيام سنة ١٩٩٩ لإعلان استقالته من منصبه ، وإسناد المهمة إلى خليفته المختار « فلاديمير بوتين » - أحاطت به شبهات التورط في عمليات غسيل أموال وعلاقات هو وابنته مع عصابات المافيا ؛ الأمر الذي دفع السلطات السويسرية إلى تجميد ١٢ حسابا مصرفيا قيمتها ١٥ مليون دولار للاشتباه في علاقة « يلتسين » المالية بهذه الأموال الغامضة . وفي مارس ١٩٩٨ انتخب

أهالي نيزني نوفجورود الروسية بفضل الرشاوى الانتخابية السجين «أندريه كليمنتيف» عمدة المدينة ، على الرغم من سوابقه الجنائية ، مما وضع السلطات الروسية في مأزق .

وعقب اندلاع المظاهرات العارمة في إندونيسيا التي انتهت بتنحي الدكتاتور «سوهارتو» (١٩٢١-) عن السلطة في ١٩٩٨ ، بدأت فصول الفساد المالي لعائلة «سوهارتو» تنكشف للجميع . فقد كشفت التحقيقات عن امتلاك عائلة « سوهارتو » استثمارات وعقارات وأسهم مجموعة بنوك وشركات بمليارات الدولارات ، في حين أعلن رئيس إندونيسيا المنتخب « عبدالرحمن واحد » في يونيو ٢٠٠٠ أن « سوهارتو » سوف يعيد ٢٥ مليار دولار إلى الدولة ، مقابل وقف التحقيقات ضده ، لكن شيئا من هذا لم يحدث .

وفي ٢٢ سبتمبر ٢٠٠٠ دين « ماندالا بوترا « تومي » هوتومو » (٣٨ سنة) الابن الأكبر لـ « سوهارتو » بالتورط في قضية استيلاء على أراض بقيمة ١١ مليون دولار . وامتلك « تومي » مشروعات عدة ، من صناعة السيارات إلى الشحن ، والتنقيب عن البترول والغاز ، والنقل . كما يملك « تومي » مع شقيقه « سيجيت » (٤٨ سنة) بنك أوتاما ، في حين تدير الشقيقة « توتوت » (٥١ سنة) مشروعات عقارية ومحطات للطاقة ، وتشرف الشقيقة « تيتيك » (٤١ سنة) على شركات مالية وعقارية ، وأخرى في مجال الاتصالات .

واتهم صندوق النقد الدولي الرئيس الكيني « دانيال أراب موى » بإهدار أموال وضرائب تقدر قيمتها بنحو ٤٠٠ مليون دولار ، وهو ما يعادل ٦ في المائة من الناتج الاقتصادي السنوي لكينيا .

وفي جمهورية التشيك ، اضطر رئيس الوزراء السابق « فاتسلاف كلاوس » إلى الاستقالة في ١٩٩٧ بعد ثبوت وجود مخالفات في عمليات تمويل حزبه . واهتزت المكسيك حين دين « راءول ساليناس » شقيق الرئيس السابق « كارلوس ساليناس » بتهمة جمع ثروة تقدر بنحو ١٢٥ مليون دولار بطرق غير مشروعة . وفي يونيو ١٩٩٨ سعت السلطات الروسية لتسلم رجل الأعمال « أندريه كوزلينكوف » من اليونان ؛ للتحقيق معه حول سر اختفاء أكثر من ١٨٠ مليون دولار من اللجنة الروسية الرسمية للمعادن النفيسة ، خاصة بعد أن ألمح الرجل إلى تورط عدد من الكبار في هذا الفساد المالي .

وفي إسبانيا صدر الحكم بالسجن لمدة ٢٤ سنة ضد « لويس رولدان إيبانيز » ، الرئيس السابق لشرطة الحرس المدني ، بعد إدانته بالفساد والتهرب الضريبي ، خاصة بعد الكشف عن حيازته ١٠ ملايين دولار على الأقل في بنك سنغافوري ، و ٢ ، ١١ مليون دولار أخرى في حساب ببنك سويسري ، يحمل اسمه مع أصدقاء له . ومن مخبئه في فندق فاخر في العاصمة اليابانية طوكيو ، بعث رئيس بيرو « ألبرتو فوچيموري » - الياباني الأصل - عبر جهاز الفاكس إلى البرلمان بقرار استقالته من منصبه ، بينما لم يكتف النواب بالتخلص منه ، واستمسكوا بحقهم في عزله على أساس « عجزه الأخلاقي » ومحاكمته ، واختاروا المحامي والسياسي المخضرم «فالنتين بانياجوا » رئيسا مؤقتا للبلاد في نوفمبر ٢٠٠٠ . كانت استقالة « فوچيموري » المفاجئة في الخارج ، محاولة للهرب من تحقيق محتمل في الداخل ، عقب اتهامه بالفساد المالي، والتورط مع رئيس المخابرات وذراعه اليمنى « فلاديمير مونتسينوس » في تصفية المعارضين ، إلى جانب التلاعب في نتائج انتخابات الرئاسة ، التي أجريت في مايو ٢٠٠٠ ، التي زعم أنها أسفرت عن فوزه .

في دولة لاتينية أخرى هي فنزويلا ، أقصي الرئيس « كارلوس أندريز بيريز » في مايو ١٩٩٣ بسبب الاتهامات المالية الموجهة ضده ، لتتم إدانته في يونيو ١٩٩٦ بالفساد وإساءة التصرف في ٥ , ١٧ مليون دولار من المال العام ، بينما سارع رئيس البرازيل الأسبق « كولور دي ميلو » إلى الاستقالة ، قبل انتهاء مهلة قضائية منحت له للتخلي عن منصبه وإلا انكشف المستور .

ولم يكن بارون المخدرات الكولومبي « بابلو إسكوبار » رئيسا ولا زعيما ، وإنما كان نموذجا لرجل العصابات ، الذي يملك مليارات الدولارات التي جمعها من الاتجار في المخدرات - خاصة الكوكايين - انطلاقا من بلدته ميديين ، ورمزا لنفوذ المال في عالم السياسة . وعلى الرغم من كونه قاتلا لايعرف معنى الرأفة بخصومه ، فإنه حظي بشعبية كبيرة في صفوف الفقراء الذين اعتبروه « روبن هود كولومبيا » ، بفضل أعماله ومشروعاته الخيرية! لكن أسطورة « إسكوبار » انتهت في ديسمبر ١٩٩٣ حين اقتحم المئات من رجال الشرطة مخبأه وأطلقوا عليه وابلا من الرصاص ، ردا على مقاومته اليائسة بمسدسه . و« إسكوبار » الذي لقي مصرعه وهو في سن الرابعة والأربعين ،

وظف جيشه الخاص المؤلف من نحو ألف مسلح لتصفية خصومه من رجال العصابات والقضاة والمحققين والسياسيين والصحفيين ، وبطبيعة الحال رجال الشرطة الذين قتل ٤٠٠ منهم . كان « إسكوبار » - الذي اقتنى يوما سيارة « بونتياك » كانت مملوكة لرجل العصابات « آل كابوني » - قد هرب من السجن في السنة السابقة لمقتله ، إلا أن القوات الكولومبية الخاصة بمساعدة وكالة الاستخبارات الأمريكية « سي . آي . ايه . » توصلت إلى مخبئه بعد تعقبها مكالمة أجراها مع ابنه « خوان بابلو » ، فاقتحمت المكان واصطادت الصيد الثمين .

وربما لم يسعف الوقت دكتاتور الفلبين الراحل « فرديناند ماركوس » وزوجته « إيميلدا » ، إذ سقطا أمام الثورة الشعبية والانتخابات التي أجريت في ١٩٨٦ ، وهربا إلى هاواي . وعقب وفاة « ماركوس » فى ١٩٨٩ ، تعين على أرملته « إيميلدا » - التى تركت وراءها ثلاثة آلاف زوج من الأحذية - أن تواجه اتهامات بالفساد والتحايل المالي بمبالغ ، تقدر بعدة ملايين من الدولارات .

وفي حين تبخرت طموحات الوزير البريطاني « جوناثان أيتكن » بسبب الاتهامات المالية والأخلاقية التي وجهت اليه في أواخر التسعينيات ، بعد أن كان ينظر إليه كصاحب مستقبل سياسي مشرق ، فإن الرئيس العراقي « صدام حسين » متهم أيضا - من جانب البعض - بتكوين ثروة طائلة مع أفراد عائلته ، بينما شعب العراق المغلوب على أمره يدفع ثمن العقوبات الاقتصادية الدولية والغزو العراقي للكويت في ٢ أغسطس ١٩٩٠ .

بنك متحرك

« موبوتو سيسي سيكو » رئيس زائير المخلوع ، كان أشبه ببنك متحرك أو بيت مال متنقل ، لأنه لم يكن يسافر خارج بلاده إلا ومعه ملايين الدولارات ، اعتاد أتباعه المقربون أن يحملوها في حقائب ضخمة محكمة الإغلاق ، وحيثما كان يتوقف يباشر في توزيع المظاريف المحشوة دولارات أو فرنكات على الذين أدوا له خدمات .

رئيس زائير السابق كان يتصرف كرجل أعمال كبير ، يسخر أجهزة دولته لخدمة مصالحه ، ويستفيد من صفته الرسمية للتنقل عبر الحدود الدولية ، دون الخضوع لمراقبة أجهزة الأمن أو الجمارك ، وينعم بحصانته الرئاسية ليظل فوق الشبهات . لكنه كان

قبل أي شيء آخر رجل أعمال ، يتاجر في الذهب والألماس والحجارة الكريمة الأخرى ، ويشتري الأسهم ويبيعها متعاملا مع عدد كبير من الشركات الدولية . حدث ذلك قبل سنوات من قيادته الانقلاب الذي جاء به رئيسا للجمهورية سنة ١٩٦٥ ، إذ كان رئيسا لأركان الجيش في جمهورية الكونغو كينشاسا ، وهي التسمية السابقة للدولة التي حملت منذ ١٩٧١ اسم زائير ، قبل أن تتحول إلى الكونغو الديمقراطية ، بعد سقوط « موبوتو » في ١٩٩٧ على أيدي « لوران كابيلا » ورجاله !

ومن ابن طباخ ورقيب سابق في الجيش كان يتقاضى أجرا شهريا ، لا يزيد عن نحو مائة دولار ، إلى رئيس أركان سنة ١٩٦٠ ، ثم رئيس دولة في ١٩٦٥ ، يفتح عينيه على الثروات الطائلة والفساد ، الذي يعد أسرع طريقة للإثراء غير المشروع ، حتى أصبح « موبوتو » الشريك الأول لمعظم الاستثمارات الأجنبية في بلاده .

ثروة دكتاتور زائير المخلوع الذي وصفته الصحفية « كوليت بريكمان » ذات يوم بـ « الديناصور » قدرت بأكثر من عشرة مليارات دولار ، شملت ودائع مالية في معظم المصارف العالمية ، وكميات كبيرة من الحلي والجواهر والأحجار الكريمة في صناديق خاصة ، إلى جانب ممتلكات عقارية وفيلات في بلجيكا وفرنسا وسويسرا والبرتغال والمغرب والبرازيل والسنغال وكوريا الجنوبية . . إلخ !

« موبوتو » ترك بعد ٣٢ سنة من الحكم عجزا في ميزانية بلاده يقدر بأكثر من مليار دولار ، وهو الذي كان يزعم أنه يقرض خزانة الدولة ملايين الدولارات من جيبه الخاص !

وإلى جانب جرائمه ضد معارضي نظامه ، أظهرت التحقيقات أن « أباتشا » استولى هو وبطانته على ٣.٢ مليار دولار من البنك المركزي ، خلال السنوات الخمس التي حكم فيها نيجيريا . أما « فوداي سنكوح » زعيم جبهة الثورة المتحدة في سيراليون فقد كان يسيطر على مناجم الألماس في منطقة نفوذه منذ سنة ١٩٩١ ، وهو ما كان يضمن له تدفقات مالية لا تقل عن ١٥٠ مليون جنيه استرليني سنويا ، فضلا عن حصيلة العمل في تهريب المخدرات والأسلحة والرقيق الأبيض والأسود . . . وهكذا صار الرجل - الذي بدأ حياته مصور أفراح ، ومأذونا - زعيم عصابة ، وأمير حرب يتبعه الآلاف ، وله شأن في صياغة سياسة بلاده ، قبل سقوطه واعتقاله !

البيروقراطيون في اليابان الذين اشتهروا بطهارة اليد ، لم يسلموا بدورهم من هذا الداء ، إذ انكشفت فضائح داخل وزارة المالية اليابانية نفسها مما أدى إلى انتحار « شوكي أراي » المسئول السابق في الوزارة ، كما اتهم مسئولون آخرون بالتورط ماليا مع عصابات « الياكوزا » (والمسمى يعني « غير صالح لشيء»!) . وبسبب الفضائح الخاصة أيضا استقال رئيس الوزراء الياباني « نوبورو تاكيشيتا » ، وسلفه « سوسكي أونو » في سنة واحدة هي ١٩٨٩ .

ولا ننسى آخر رئيس وزراء لليابان في القرن العشرين ، « يوشيرو موري » ، لاعب الرجبي المتحمس ، الذي كافح في سنة ٢٠٠٠ من أجل الخلاص من فضائح تورطه مع العاهرات وأباطرة الجريمة المنظمة . واضطر الرئيس الصيني « جيانج زيمين » إلى إعلان الحرب على الـ « جوانداو » أو فساد المسئولين ، خاصة بعد أن تكشفت في ١٩٩٥ فضيحة قيمتها ٢ ، ٢ مليار دولار ، تورط فيها زعيم الحزب الشيوعي السابق في بكين « تشين اكسيتونج » ونائبه « وانج باوسين » الذي تخلص من حياته ليفلت من الفضيحة .

حكومة « بنازير بوتو » رئيسة وزراء باكستان سابقا سقطت بدورها سنة ١٩٩٦ ، واتهمت « بوتو » وزوجها « عاصف علي زرداري » بسرقة ما يزيد عن مليار دولار من أموال الدولة ، مما اضطر السلطات السويسرية إلى تجميد ١٧ حسابا مصرفيا للزوجين وشركائهما ، بينما برزت إلى السطح اتهامات لهما بغسيل الأموال . آخر رؤساء الفلبين خلال القرن العشرين ، « جوزيف إسترادا » ، وهو ممثل من الدرجة الثانية ، تم عزله من منصبه ، ومحاكمته في قضايا اختلاس أموال وابتزاز وفساد ، بينما أصبحت نائبته « جلوريا مكاباجال أرويو » (٥٢ سنة) رئيسة للبلاد .

قروض مجانية

بنك « كريدي ليونيه » أكبر بنك في أوروبا ، ومن أكبر مصارف العالم عانى في مطلع ١٩٩٤ عجزا قدره سبعة مليارات فرنك فرنسي ، أي أكثر من ٢٥ ، ١ مليار دولار . التحقيقات أثبتت آنذاك أن هذا العجز يعود إلى سوء الإدارة ، ومنح قروض ضخمة لرجال أعمال ، أقل ما يقال عنهم إن علامات الاستفهام تحيط بهم : رجال

أسماؤهم مقرونة بفضائح مالية ، ومغامرات اقتصادية ، قد يكون بعضهم بريئا من بعضها ، ولكن جميعهم ضالع في جزء منها .

وبين هذه الأسماء يكفي ذكر الإعلامي الإنجليزي « روبرت مكسويل » ، الذي استدان الملايين وهرب بها في ظروف غامضة (سقط يخته وغرق ودفن في إسرائيل) . علاوة على رجل أعمال آخر ، هو النائب الفرنسي « برنار تابى » رئيس نادي مارسيليا خلال عصره الذهبي ، الذي استدان أيضا ملايين الفرنكات ، وتهرب من سدادها فأصبح ملاحقا قضائيا لا يكاد ينتهي من دعوى حتى يقع في دعوى أخرى ، حتى دخل السجن ، وخسر الكثير من اسمه وطموحاته .

بل إن الاتهامات المالية في فضيحة « كريدي ليونيه » طالت أيضا رئيس وزراء فرنسا بيير بيريجوفوا » السابق ، الذي انتحر في ١٩٩٣ ، وقيل إن الرجل انتحر بسبب تبذير مالي كان قد دعمه « أدبيا » على الأقل ، ووصل الأمر إلى حد محاولة جر اسم الرئيس الراحل « فرانسوا ميتران » ؛ إذ اتهمه ضمنا النائب اليميني « فيليب أوبرجيه » عضو لجنة المال النيابية بأنه مسئول عن سماح البنك بمنح قروض لشخصيات ، تحظى بدعم مؤسسة الرئاسة الفرنسية في عهده .

أما « رولان دوما » وزير الخارجية الفرنسي الأسبق ، فقد تكشفت أسرار فساده المالي ، الذي تورطت فيه أيضا عشيقته « كريستين دوفييه چونكور » ، وذلك في نهاية عقد التسعينيات . وأثبتت التحقيقات أن « دوما » كان على علم بالمصادر المشبوهة للمبالغ التي أنفقتها عليه عشيقته السابقة ، بدءا من الحذاء الذي قدمته له وسعره ١١ ألف فرنك فرنسي ، ووصولا إلى الشقة التي وضعتها تحت تصرفه وقيمتها نحو ٦٤ مليون فرنك .

و«دوفييه چونكور » التي كانت مسئولة العلاقات العامة في شركة «إلف» النفطية الفرنسية ، كلفت من قبل الشركة باستغلال علاقتها « بدوما » حين كان وزيرا للخارجية ، لحمله على الموافقة على بيع فرقاطات فرنسية إلى تايوان ، بوصفه عضوا في لجنة السلاح . وأسهمت العشيقة السابقة مباشرة في الكشف عن عدم تردد « دوما » في الاستفادة مما كانت تقدمه إليه بتمويل من « إلف » عبر الأقوال ، التي تقدمت بها إلى القضاء ، انتقاما منه لتخليه عنها لدى دخولها السجن . وعلى الرغم من قوة الأدلة في « فضيحة إلف » ، وشهادة صديقته السابقة « ناهد » ابنة وزير الدفاع السوري العماد

«مصطفى طلاس» ، وأرملة رجل الأعمال السوري الراحل « أكرم عجة » ، عن تقاضي « دوما » عمولات كبيرة عن صفقات سلاح في الفترة ، التي حكم فيها الاشتراكيون ما بين ١٩٨١ و١٩٩٣ ، فإن « دوما » الذي يشغل منصب رئيس المجلس الدستوري -ثالث أرفع منصب في الجمهورية الفرنسية وقت تفجر الفضيحة- قد أحيلت قضيته للقضاء للفصل فيها .

وفي اليونان ، اتهم « أندرياس باباندريو » رئيس الوزراء الراحل بقائمة طويلة من الفضائح المالية والاجتماعية والأخلاقية ، طوال عقد الثمانينيات وحتى منتصف التسعينيات . لكن « باباندريو » نجح في ١٩٩٣ - بعد ثلاث سنوات من إسقاطه في الانتخابات وإقصائه عن الحكم- في العودة إلى السلطة وهو في سن الرابعة والسبعين ، وإلى جواره زوجته الحسناء « ديميترا » ، تلك المضيفة الجوية السخية الجسم والقلب (طولها ١٨٠ سنتيمترا وحدود قلبها ١١٥ سنتيمترا) التي ارتبط معها بعلاقة حميمة قبل أن يطلق زوجته الأمريكية ليتزوجها ، ولتصبح الحليلة بعد أن كانت الخليلة !

وفي إيطاليا ، إذا تساءلت قائلا : من هي الشخصية الأكثر شعبية . . السياسى أم رجل الأعمال أم المغنى أم لاعب الكرة؟ فإن الإجابة ستدهشك بعض الشيء . . الشخصية الأقرب إلى الناس هي قاضي التحقيق ، فالأخير أصبح رمزا للاستقامة ونظافة اليدين ، في ظل الفساد المالي والرشاوى والفضائح المالية ، التي طالت عديداً من الشخصيات السياسية ، طوال عقود عدة من القرن العشرين .

وفي فبراير ١٩٩٢ أطلق قاضي التحقيق في مدينة ميلانو« أنطونيو دي بيترو » عملية « ماني بوليت » ، أي « الأيدي النظيفة » في هذه المدينة الواقعة في « المثلث الصناعي » الإيطالي ؛ لملاحقة الفاسدين والمرتشين على حساب الدولة . وكانت النتيجة أنه خلال أشهر من بدء الحملة تم التحقيق مع ٤ آلاف شخص من السياسيين والمنتخبين المحليين والإداريين ورجال الأعمال ، واتهم نحو ٣٠٢٦ منهم ، بينما أدين ٤٦٠ بتهم الفساد ، وانتحر ١٠ من المتهمين . الغريب أنه خلال النصف الأول من ١٩٩٣ ، استقال سبعة وزراء بسبب ضلوعهم في فضائح كبيرة ، بينما فضل سبعة أشخاص مشهورين الانتحار .

أما رمز الرموز التى سقطت في الوحل فهو « جوليو أندريوتي » ، الذي شغل منصب رئيس الوزراء سبع مرات ، وكان وزيرا للخارجية في حكومات متعاقبة ، وقد

اختير لعضوية مجلس الشيوخ لمدى الحياة . أحدث اتهام « أندريوتي » - الرجل الشهير بقامته الهشة ، وانحناءته المعروفة - بالتواطؤ مع المافيا وتغطيتها ، ومنع العدالة من ملاحقة أعضائها والتعاطي معها والإفادة من دعمها ومن أموالها ، فعل القنبلة السياسية التي ضربت إيطاليا في الصميم .

وجاء اتهام « أندريوتي » في تقرير من مئات الصفحات ، أعده القضاة في مدينة باليرمو في صقلية ، وتضمن اعترافات بعض كبار أعضاء المافيا الذين وضعت العدالة الإيطالية يدها عليهم ، وقبلوا التعاون معها مقابل تخفيف عقوباتهم ، فقد أكد « التائبون » من أعضاء المافيا أن أندريوتي كان على علاقة مباشرة بزعماء مافيا « كوزا نوسترا » المتجذرة في صقلية ، وأنه التقاهم شخصيا وساعدهم واعتمد عليهم ، بينما كانت المافيا تقتل السياسيين وقضاة التحقيقات ، وأبرزهم القاضي «جيوفاني فالكوني»، الذي اغتيل في مايو ١٩٩٢ . وأكثر ما أثار غضب الإيطاليين شهادة رجل المافيا السابق « بالدوتشيو دي ماجيو » بأنه رأى « أندريوتي » في ١٩٩٧ ، وهو يطبع قبلة الاحترام الصقلية على وجه زعيم المافيا « سالفاتوري « الوحش » ريينا » .

مسلسل « أندريوتي » الذي أفلت ببراعة من التهم المنسوبة إليه ، بعد محاكمة أربع سنوات طال أيضا صديقه وغريمه « بتينو كراكسي » ، الذي رحل عن عالمنا في ١٩ يناير ٢٠٠٠ ، إثر نوبة قلبية داهمته في منطقة الحمامات في تونس . و« كراكسي » كان الزعيم التاريخي للحزب الاشتراكي الإيطالي ، وهو بلغة الأرقام أطول من عمل رئيسا للحكومة الإيطالية عقب الحرب العالمية الثانية . لكن « كراكسي » تحول في التسعينيات إلى موضع ١٤ تحقيقا قضائيا ، كلها تتهمه بالفساد والارتشاء والإثراء ومخالفة القوانين والاستيلاء على أموال الغير والاحتيال على قانون تمويل الأحزاب . وقد اضطر « كراكسي » إزاء هذا السيل من التهم والفضائح إلى الاستقالة من قيادة الحزب الاشتراكي .

يضاف إلى « أندريوتي » و« كراكسي » ، سقوط كل من « جياني دي ميكليس » وزير الخارجية الأسبق ، و«چيورچيو فالفا» ، وكان وزيرا لامعا بسبب اتهامه بالفساد ، و« سالجو أندو » وزير الدفاع الذي اتهم بانتهاك القانون الانتخابي وجنح أخرى ، و« كلوديو مارتلي » وزير العدل الأسبق ، الذي اتهمته العدالة بتلقي عمولة قيمتها ثلاثة ملايين دولار في عملية بناء محطة كهربائية ، ورجلي الصناعة « كارلو دي

بنيديتي » و« راؤول جارديني » ، والأخير أقدم علي الانتحار بعد ثبوت منحه رشى ، قدرها ٩٤ مليون دولار خلال سنة ١٩٩٠ وحدها لأحزاب سياسية بقصد شراء تأييد هذه الأحزاب لصفقاته التجارية ، التي اشترى بها بثمن بخس أسهم الحكومة في أكثر من شركة .

وبعد تولي « سيلفيو بيرلوسكوني » رئاسة الحكومة الإيطالية في منتصف ١٩٩٤ ، تورط في عدة فضائح مالية أطاحت به ، فقد تورطت شركة « فيننفست » التي تخص «بيرلوسكوني» في صفقة شراء استوديوهات « مترو جولدين ماير » العالمية ؛ إذ ساعد «بيرلوسكوني» رجلي الأعمال الإيطاليين اللذين اشتريا هذه الاستوديوهات ، ودعمهما بكفالته لدى عدة بنوك ومنها « كريديه ليونيه » الفرنسي .

أما رجلا الأعمال فهما « فلوريو فيوريني » و« جيان كالو باريتي » ، الأول دخل السجن في ١٩٩٢ في جنيف؛ بسبب إفلاس شركته السويسرية ، والآخر تعرض للملاحقة قضائيا في فرنسا ، واتهم في إحدى الولايات الأمريكية بالتزوير والشهادة الزور .

لجأ « بيرلوسكوني » وشقيقه « باولو » إلى دعم رجلي الأعمال السابقين ، بل إن شركة رئيس وزراء إيطاليا سابقا تعهدت بدفع ١٥٠ مليون دولار ؛ لسد العجز في الشراء ، لكنها لم تدفع إلا ١٠٠ مليون دولار فقط ، مما أدى إلى استدانة المبلغ المتبقي من بنك إيطالي هو « إل بنكو دي نوفار » ، بكفالة من « بيرلوسكوني » نفسه ، وبتوقيع شقيقه « باولو » المتورط في الصفقة . وهكذا سقط « بيرلوسكوني » رئيس الوزراء الذي تعهد بتطهير إيطاليا من الفساد ، في مستنقع الرشوة وسوء الذمة المالية ، قبل أن يعود في الانتخابات العامة التي أجريت في سنة ٢٠٠١ رئيسا للوزراء!

وفي ٢١ مايو ٢٠٠٠ أعلنت وسائل الإعلام السورية أن « محمود الزعبي » رئيس الوزراء السابق (٦٢ سنة) قد انتحر بعد أسبوعين من إعلان محاكمته بتهم تمس نزاهته ، وطرده من حزب البعث الحاكم ، حيث كان عضوا في أعلى هيئاته القيادية . وقد أطلق « الزعبي » رصاصتين على رأسه من مسدسه ، بعد انهيار عصبي تعرض له -حسب رواية الإعلام السوري - عقب طرده من الحزب واتهامه بالفساد ، وبذلك يصبح أول رئيس وزراء عربي يقدم على الانتحار حسب معلوماتنا .

وفي سنة ٢٠٠٠ وجه الاتهام إلى عدد من النواب في مصر بالفساد المالي في قضية عرفت باسم « نواب القروض » ، التي شملت حصول المتهمين على قروض تزيد قيمتها عن مليار جنيه مصري من بنوك النيل والمهندس وفيصل الإسلامي وقناة السويس ، دون تقديم ضمانات تكفي للسداد ، مما عرض أموال تلك البنوك للخطر . وأحيل المتهمون في القضية للمحاكمة بتهم عدة من بينها التربح ، والحصول على أموال من بنوك بمساعدة مسئولين في تلك البنوك . وضمت الدعوى ٣٢ متهما من كبار رجال الأعمال ، وأربعة نواب في مجلس الشعب شغل أحدهم من قبل منصبا وزاريا ، وكان رئيس لجنة خطة الموازنة في المجلس ، وكان آخران رئيسين لمجموعتين برلمانيتين ، أحدهما ابن وزير سابق ، بينما الثاني ابن محافظ سابق ، والرابع شقيق للمياردير اتهما معا في القضية . كما شملت القضية رؤساء مجالس إدارات ومديري عموم في خمسة بنوك قومية . وترافع في القضية أعلام المحامين في مصر ، وبعد شهور من صدور الأحكام أعيد النظر في القضية ، وجرى الإفراج عن المتهمين بعد تسوية أغلب القروض المصرفية محل الدعوى .

هدايا « بيبي »

وفي إسرائيل ، اتهم رئيس الوزراء السابق « بنيامين نيتانياهو » وزعيم « الليكود » المستقيل في ١٩٩٩ باستغلال أموال أحد رجال الأعمال في إصلاح منزله الخاص ، خلال السنوات الثلاث التي قضاها في الحكم . وعندما سقط « نيتانياهو » في الانتخابات ، طالب رجل الأعمال الدولة بدفع هذه الأموال ، كما خضع « بيبي » وزوجته « سارة » لتحقيقات أمنية لساعات طوال عقب مداهمة منزلهما وتفتيشه ، بتهمة عدم تسليم الهدايا التي تلقاها إلى الدولة بعد خروجه من السلطة ، كذلك فإن التحقيقات اتهمت « نيتانياهو » بالتورط في فضيحة « آرييه درعي » الزعيم السابق لحركة « شاس » الدينية الإسرائيلية ، ووقوعه في فخ فساد الذمم .

أما الرئيس الإسرائيلي « عيزرا فايتسمان » فقد اتهم بتلقي مبالغ ، تقدر بنحو نصف مليون دولار من رجل أعمال وتاجر أقمشة يهودي فرنس ، يقيم في إمارة

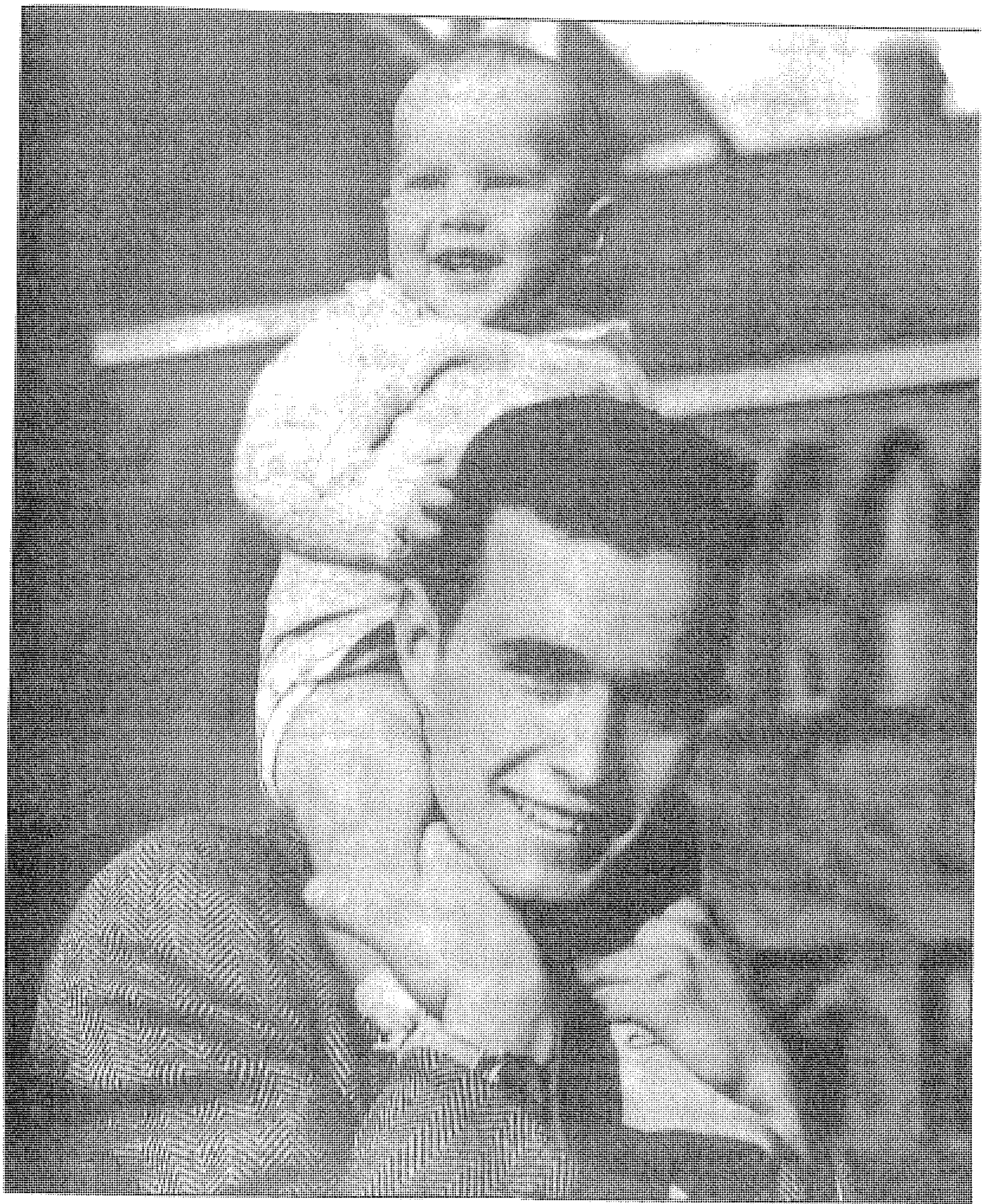
موناكو يدعى « إدوار ساروس » ، مقابل خدمات مِن بينها الحصول على بطاقة «لاجيء جديد » قبل أن يتنازل عن الجنسية الإسرائيلية في ١٩٩٣ ، مخالفا بذلك القوانين . الغريب أن « فايتسمان » دفع عن نفسه هذه الاتهامات بقوله إنه اعتبر هذه الأموال «منحة من صديق قديم » !

واتهم الصحفي الإسرائيلي « يوآب يعقوب » ، الذي كشف عن ملابسات هذه القضية ، « فايتسمان » بالحصول على ٣,٥ مليون دولار في ١٩٨٤ من حزب العمل الإسرائيلي ، وتحديدا من المسئول المالي للكيبوتزات (المستوطنات الزراعية) في الحزب في حينه « ديفيد بلاس » ، مقابل دعمه تشكيل حكومة وحدة وطنية بزعامة « شيمون بيريز » .

و« فايتسمان » هو أول رئيس في تاريخ إسرائيل ، يخضع لاستجواب في قضية رشوة واحتيال ، بعد أن سبقه إلى ذلك رئيس الوزراء الإسرائيلي « إسحق رابين » ، في قضية حسابه البنكي المشترك مع زوجته ليا في الولايات المتحدة . يومها قدمُ « رابين » استقالته ، أما « فايتسمان » فقد أصر على خوض المواجهة للدفاع عن سمعته حتى النهاية . . نهايته هو بالطبع ! فقد انتخب مرشح «الليكود» «موشيه» كتساف (المولود في إيران سنة ١٩٤٥) رئيسا ثامنا لإسرائيل في ٣١ يوليو ٢٠٠٠ ، خلفا لـ «فايتسمان » .

« إيهود باراك » آخر رئيس للحكومة الإسرائيلية في القرن العشرين ، اتهم أيضا بالتحايل على القانون باستخدام تبرعات اليهود في الولايات المتحدة ودول غربية أخرى في حملته الانتخابية ، بعد تمريرها عبر جمعيات لا تسعى للربح ؛ للهروب من الضرائب كوسيلة للالتفاف على قانون تمويل الأحزاب . بل إن مراقب الدولة قرر تغريم حزب العمل الإسرائيلي ٣,٢ مليون دولار ، بينما اعترف « باراك » بوجود مخالفات ، لكنه قال إنها فنية وإدارية لاتستوجب إحالتها إلى التحقيق الجنائي ، بزعم أن قانون تمويل الحملات الانتخابية لا ينطبق على حملته ، حيث تمت الموافقة عليه قبل تعديل النظام السياسي ليكون انتخاب رئيس الوزراء الإسرائيلي بالاقتراع المباشر .

* * *



چورج بوش الأب يحمل بوش الابن .. رئيسان أمريكيان في صورة نادرة

29

عصر الأزمات

تماما مثلما يجد أحدهم النار مشتعلة في ثوبه ، وجد العالم نفسه محاصرا بسلسلة من الأزمات المتتالية خلال القرن العشرين . ومن أزمة إلى أخرى ، كان العالم يلهث في محاولة لإخماد تلك الحرائق المشتعلة ، والقنابل الموقوتة المهددة بانفجار قد تصيب شظاياه الآخرين .

وخلال القرن العشرين شهد المجتمع الدولي مجموعة من الأزمات انفجرت على امتداد خريطة العالم ، من ڤيتنام وكمبوديا وشبه الجزيرة الكورية ، إلى أوغندا ونيجيريا – التي عانت أزمة انفصال إقليم بيافرا الغني بالنفط – وموزمبيق ، ومن جزر فوكلاند –



تقسيم شبه الجزيرة الكورية أدى إلى مآسٍ إنسانية

التي تسببت في حرب بين الأرجنتين وبريطانيا في ١٩٨٢- إلى أوجادين التي حركت الصراع بين الصومال وإثيوبيا .

شهدت إيران أزمة حكومة « محمد مصدق » في ١٩٥٣ ، وأزمة الرهائن الأمريكيين الذين ظلوا رهائن حصار السفارة الأمريكية في طهران ٤٤٤ يوما بدءا من ٤ نوفمبر ١٩٧٩ إلى ٢٠ يناير ١٩٨١ . أما تركيا فقد شهدت عدة أزمات ، لعل آخرها وأبرزها تلك التي نجمت عن اختطاف ومحاكمة « عبدالله أوجلان » ، زعيم حزب العمال الكردستاني المحظور نشاطه ، وتوتر العلاقات التركية- الأوروبية بسبب الحكم بإعدام « أوجلان » في ١٩٩٩ .

تعرف الأزمة الدولية بأنها الصورة الأكثر دراماتيكية والأشد كثافة للصراعات التي تجرى داخل النظام الدولي ، والتي تتوقف دون نقطة الحرب الساخنة . وتؤدي الأزمات الدولية بطبيعتها إلى تنشيط احتمال الحرب ، بحيث يغدو عاملا مركزيا في تصور أطرافها ، بما لذلك من تأثير قوي ومباشر في مسلكهم منها .

ومن أبرز أزمات القرن العشرين تلك التي وقعت بين الغرب والاتحاد السوفيتي سابقا حول برلين . بدأت الأزمة في صورتها العنيفة في ١٩٥٨ ، ثم تفاقمت حدتها في ١٩٦١ بصورة هددت بنشوب حرب نووية بين الكتلتين ، غير أنه عن طريق الجهود الدبلوماسية المكثفة أمكن في النهاية تطويق الأزمة والتغلب على مضاعفاتها .

ترتبط جذور أزمة برلين باستراتيجية الاتحاد السوفيتي السابق ، بالنسبة للمشكلة الألمانية ، واستهدفت أساسا الحصول على اعتراف الغرب بألمانيا الديمقراطية أو الشرقية سابقا ، ثم إنهاء الاحتلال الغربى لبرلين الغربية . ولتحقيق ذلك الهدف وجه الاتحاد السوفيتي في نوفمبر ١٩٥٨ إنذاراً للغرب ، مفاده أنه قبل نهاية ستة أشهر سيعمل على إنهاء الاحتلال الرباعي لبرلين ، وتحويلها إلى مدينة حرة ، وأنه سينقل سلطاته في برلين الشرقية ، وكذلك الممرات المؤدية إلى غرب برلين إلى حكومة ألمانيا الشرقية . كان قصد السوفيت من هذا الإجراء إجبار الغرب على التعامل مباشرة ورسميا مع حكومة ألمانيا الشرقية للاتفاق حول التدابير ، التي تؤمن لهم حق الوصول

إلى برلين . كذلك أعاد الاتحاد السوفيتي ترديد اقتراحه الخاص بالوحدة الألمانية ، والداعي إلى إشراك شطري ألمانيا في اتحاد كونفيدرالي على أساس مبدأ التمثيل المتساوي . كان السبب في استمساك السوفيت بهذا المبدأ هو تخوفهم من أن يؤدي فارق الإمكانات بين الطرفين إلى امتصاص الجزء الألماني الشرقي ، داخل هذه الدولة الجديدة .

لكن الغرب عارض هذه المقترحات السوفيتية بشدة؛ لما اشتملت عليه من أضرار جسيمة للمصالح الغربية في ألمانيا وأوروبا . كما كان الإنذار السوفيتي تحديا خطيرا للسياسة الأمريكية ولاستراتيجيتها المعلنة في أوروبا . الصورة بدت متشابكة ومعقدة إلى حد كبير ، بين معارضة ألمانيا الغربية تغيير وضع برلين ، وتأييد فرنسا موقف الحكومة الألمانية ، وممارسة بريطانيا ضغوطاً باتجاه التفاوض مع موسكو بشأن برلين . وتدريجيا بدأت الولايات المتحدة تتحول من اتجاهها العنيف السابق ؛ لتأخذ بوجهة النظر البريطانية .

وبناء على مبادرة من وزير الخارجية الأمريكي « جون فوستر دالاس » عقد مؤتمر لوزراء الخارجية في جنيف في صيف ١٩٥٩ ، لبحث سبل تسوية الأزمة . وفي مطلع ١٩٦٠ هدد الزعيم السوفيتي « نيكيتا خروتشيف » أمام مجلس السوفيت الأعلى بأنه إذا أخفقت المحاولات المبذولة لعقد معاهدة صلح مع شطري ألمانيا ، فإن موسكو ستقدم مع دول أخرى على توقيع معاهدة من شأنها دعم ألمانيا الشرقية ، مهما تكن النتائج . واستمرت المشكلة معلقة دون حسم بين الطرفين ، حتى بعد تغيير حكومة « أيزنهاور » ، ووصول « جون كيندي » إلى رئاسة الولايات المتحدة في يناير ١٩٦١ .

بلغ التدهور بين الطرفين الغربي والسوفيتي حول المشكلة ذروته في أغسطس ١٩٦١ ، وضاعف من حدة التوتر إقامة ألمانيا الشرقية في ١٣ أغسطس ١٩٦١ حائطا في برلين لمنع هجرة الأفراد بين شطري برلين . . لكن الأيام دارت وسقط حائط برلين تحت معاول الثورة في ١٩٨٩ .

تأميم القناة

وتعد أزمة السويس التي نشبت في يوليو ١٩٥٦ إثر تأميم مصر الشركة البحرية العالمية لقناة السويس وإخضاعها لسيادتها الوطنية ، علامة مهمة في القرن العشرين . ويمكن القول إن مصر نفذت إجراء التأميم ، بعد أن سحبت الحكومة الأمريكية -وتلتها في ذلك كل من بريطانيا والبنك الدولي للإنشاء والتعمير- عرضها لتمويل مشروع السد العالي . كان هدف أمريكا من ذلك إحراج مصر دولياً بالتشكيك في قوة مركزها الاقتصادي ، والزعم بأنها لم تكن قادرة على الوفاء بالتزاماتها المالية الدولية ، بسبب الأعباء الاقتصادية المرهقة التي ألقتها على عاتقها صفقات الأسلحة السوفيتية . وهذا السبب الذي ساقته الحكومة الأمريكية لتبرير قرارها يعكس بجلاء كيف كانت متأثرة - إلى حد بعيد - بكسر مصر احتكار السلاح في الشرق الأوسط وخروجها من دائرة النفوذ الغربي .

وبعد خطاب ألهب حماس المصريين ، أعلن الرئيس الراحل « جمال عبدالناصر » تأميم قناة السويس ، وكان رد فعل الدول الغربية الكبرى الثلاث : الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا إزاء هذا القرار ، هو إصدار بيان جاء فيه أن التأميم تم بقرار منفرد من جانب حكومة مصر دون تفاوض أو تشاور مسبق مع الدول المنتفعة بالملاحة في قناة السويس ، أو مع الدول الأطراف في معاهدة القسطنطينية المبرمة في ١٩٨٨ . وزعمت بريطانيا أن التأميم يهدد حرية الملاحة في القناة ، ونوهت إلى ضرورة عقد مؤتمر دولي ، يضم بعض الدول المنتفعة بالقناة لمناقشة الآثار المترتبة على عملية التأميم .

ردت الحكومة المصرية من جانبها على تلك المزاعم بأن ذكرت أن شركة القناة لم تخرج عن كونها شركة مصرية ، تخضع للقوانين المصرية إعمالاً لنظرية السيادة ، مؤكدة أن التأميم لا يؤثر في التزامات مصر الدولية بموجب معاهدة ١٨٨٨ أو بمقتضى اتفاقية الجلاء المعقودة في ١٩٥٤ .

أعقب ذلك عقد مؤتمر دولي في لندن حضرته ٢٤ دولة من بين الدول التي تستخدم قناة السويس ، وقد تعاطف معظمها مع سياسة الغرب المتشددة إزاء مصر .

لكن الحكومة المصرية رفضت فكرة عقد مؤتمر دولي لمناقشة مسألة تتصل بصميم سياساتها القومية ، واعتبرت ذلك تدخلا دوليا غير مقبول في شئونها الداخلية .

اقترحت الدول الغربية الكبرى الثلاث في مؤتمر لندن وضع قناة السويس تحت سلطة إدارة دولية ، لكن مصر رفضت مقترحات التدويل جملة وتفصيلا ، وكان رأيها أن مشروعات التدويل لم تكن إلا قناعا يستر ما يمكن وصفه بالاستعمار الجماعي فوق منطقة القناة ، الذي يسعى إلى الحلول محل السيطرة المنفردة لبريطانيا التي تم التخلص منها بقرار التأميم .

واقترحت مصر بدورها عقد مؤتمر ، تدعى ؛ إليه حكومات الدول الموقعة على معاهدة ١٨٨٨ وحكومات الدول المستخدمة للقناة لإعادة النظر في المعاهدة والبحث في عقد اتفاقية دولية جديدة . غير أن الغرب رفض هذا الاقتراح وقرر تشكيل لجنة خماسية أطلق عليها « لجنة منزيس » وإرسالها إلى مصر ؛ لإقناعها بقبول القرارات الصادرة عن مؤتمر لندن . وقد باءت مهمة اللجنة بالإخفاق التام ، إزاء إصرار مصر على ضرورة الاستقلال بإدارة القناة التي تقع في أراضيها .

وفي سبتمبر ١٩٥٦ أعلن رئيس وزراء بريطانيا « أنطونى إيدن » في مجلس العموم إنشاء « هيئة المنتفعين » ، التي قال إنها ستكون ذات طابع مؤقت وتتحمل مسئولية إدارة القناة وتحصيل رسوم العبور فيها ، وتمارس حقوق المنتفعين بالقناة نيابة عنهم . لكن مصر انتقدت هذه الهيئة الجديدة المقترحة ، وأعلنت أنها لن تعترف بها ، ثم أحيلت المشكلة إلى مجلس الأمن ، الذي وافق في ١٣ أكتوبر ١٩٥٦ على ستة مبادئ ، وطالب الأطراف المعنية مباشرة بالأزمة بأن تتخذها أساسا للتفاوض مع مصر ، وهي مبادئ تدعو إلى كفالة حرية العبور لجميع الدول في القناة بلا تمييز ، واحترام سيادة مصر على القناة .

كان مقررا أن تبدأ المفاوضات المباشرة بين مصر من جهة ، وبريطانيا وفرنسا من جهة أخرى في جنيف في ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ ؛ أي في اليوم نفسه الذي أقدمت فيه إسرائيل - بالتهديد المسبق مع هاتين الدولتين - على العدوان عسكريا على مصر ،

ممهدة بذلك لما أصبح يعرف بحرب السويس . ففي ٣٠ أكتوبر ١٩٥٦ تقدمت بريطانيا وفرنسا بإنذار موجه ضد مصر ، جاء فيه أن الحرب القائمة بينها وبين إسرائيل من شأنها تعطيل حرية الملاحة في قناة السويس ، ثم طلبت الحكومتان إيقاف كل العمليات الحربية ، والتراجع عشرة أميال عن قناة السويس ، على أن تقبل مصر احتلال القوات البريطانية والفرنسية منطقة بورسعيد والإسماعيلية والسويس ، مع إعطاء مصر مهلة في غضون ١٢ ساعة على الأكثر .

رفضت مصر فورا هذا الإنذار ، وأعقب ذلك تدخل عسكري سافر ضد مصر وعدوان ثلاثي . لكن صمود مصر وصلابة موقف قيادتها السياسية ومعارضة الرأي العالمي لهذا العدوان ، والأزمة العنيفة التي أحدثها هذا التدخل على علاقات بريطانيا بشركائها في الكومنولث ، وانتهاج القوتين العظميين آنذاك -واشنطن وموسكو- موقفا مضادا لهذا التدخل الغربي ، واشتعال المنطقة العربية بالسخط إزاء هذا العدوان السافر . . كل هذا أسهم في وضع نهاية لهذه الحرب ، و من ثم انسحاب الدول المتدخلة في النهاية في إطار الترتيبات ، التي أشرفت الأمم المتحدة على تنفيذها .

أزمة الصواريخ

كانت أزمة الصواريخ الكوبية في أكتوبر ١٩٦٢ نقطة الذروة في توتر العلاقات الأمريكية -الكوبية من جهة ، كما كانت نذيراً باندلاع مواجهة نووية شاملة بين موسكو وواشنطن من جهة أخرى .

ترجع جذور الأزمة إلى التدخل السوفيتي في كوبا منذ ١٩٦١ بالمساعدات الاقتصادية والعسكرية الضخمة؛ لإضعاف سياسات الاحتواء وتدابير الحظر الاقتصادي التي ضربتها الولايات المتحدة حول كوبا ، وشاركتها فيها منظمة الدول الامريكية كلها ، واستهدفت إسقاط نظام « فيدل كاسترو » في كوبا ، وبالتالي تصفية تلك القاعدة ؛ لتصدير الشيوعية إلى منطقة أمريكا اللاتينية بأكملها .

شملت المساعدات العسكرية السوفيتية لكوبا إقامة قواعد لإطلاق الصواريخ داخل الأراضي الكوبية ، مع إرسال مجموعة من الفنيين العسكريين السوفيت الذين

أوكلت إليهم مهمة تشغيل تلك القواعد . أحدثت هذه المبادرة السوفيتية في إحدى دول أمريكا اللاتينية رد فعل عنيفا في الولايات المتحدة ، وبخاصة في أوساط الكونجرس ؛ لمايشكله ذلك من تهديد مباشر للأمن القومي الأمريكي .

في أغسطس١٩٦٢ ، وكرد فعل لمضاعفة السوفيت شحناتهم من الأسلحة لكوبا ، وفي ضوء تقارير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية حول الدلالات الاستراتيجية لهذه الإجراءات السوفيتية - قررت الحكومة الأمريكية إجراء استطلاع جوي فوق كوبا ، كشف عن وجود تجهيزات من الصواريخ السوفيتية المتوسطة المدى في مرحلة التركيب ، إضافة إلى وجود أسراب من قاذفات القنابل السوفيتية . وبدلا من لجوء الولايات المتحدة للاحتجاج المباشر لدى الاتحاد السوفيتي على سياسته في كوبا ، أو رفع الأمر إلى الأمم المتحدة للتصرف فيه ، فضلت واشنطن التحرك بشكل منفرد .

وهكذا شرعت الحكومة الأمريكية في فرض حصار بحري حول الشواطئ الكوبية ؛ حتى يتخذ « خروتشيف » قرارا بسحب الصواريخ السوفيتية من كوبا . . اقترن بتنفيذ الحصار الأمريكي دعوة مجلس الأمن ومجلس منظمة الدول الأمريكية إلى الانعقاد العاجل ؛ لإبلاغهما بتطورات الموقف في منطقة الكاريبي . وفي حين أيدت منظمة الدول الأمريكية استخدام القوة المسلحة لإيقاف شحنات الأسلحة السوفيتية إلى كوبا ، نفى السوفيت في مجلس الأمن عن هذه الأسلحة الصفة الهجومية المنسوبة إليها ، مؤكدين أنها كانت مجرد أداة تستخدمها كوبا لردع أي هجوم أمريكي ضدها ، خاصة أن حملة خليج الخنازير كانت لاتزال ماثلة في الأذهان .

وناشد الأمين العام للأمم المتحدة القوتين العظميين الالتزام بضبط النفس لتسوية الأزمة سلميا . وقد وافق كينيدي على الدعوة إلى التقاضي ، بشرط استمرار الحصار حول كوبا لحين التوصل إلى نتيجة تقبلها واشنطن . ولاحت بوادر استجابة سوفيتية لضغوط الحصار الأمريكي ، حين استدارت عائدة بعض السفن السوفيتية المحملة بالأسلحة التي كانت في طريقها إلى كوبا .

وأعلن « خروتشيف » أنه يقبل سحب قواعد صواريخه من كوبا ؛ بشرط أن تفعل الولايات المتحدة الشيء نفسه بالنسبة لقواعد صواريخها في تركيا . لكن كيندي رفض العرض السوفيتي المشروط .

وفعلا وافق الاتحاد السوفيتي على فك صواريخه ، ونقلها خارج كوبا تحت إشراف الأمم المتحدة . وفي المقابل ، تعهد كيندي بعدم العودة إلى استئناف غزو كوبا ، وبإنهاء إجراءات الحصار البحري لها عندما تنتهي الأمم المتحدة من إشرافها على عملية نقل الصواريخ .

ربيع براغ

ومن أخطر الأزمات الدولية التي نشبت في الستينيات بعد أزمة الكاريبي وأزمة الحرب الفيتنامية ، الأزمة التي نتجت عن تدخل قوات حلف وارسو- بقيادة السوفيت- في تشيكوسلوفاكيا في ٢٠ أغسطس ١٩٦٨ ، وعرفت دوليا بالأزمة التشيكية . . ترجع أسباب هذه الأزمة الدولية إلى ظروف التغير السياسي الداخلي في تشيكوسلوفاكيا ، وإلى طبيعة البرنامج الإصلاحي الذي تبناه « ألكسندر دوبتشيك » الأمين العام للحزب الشيوعي التشيكي ، لاشتمال هذا البرنامج على عدد من الاتجاهات والأهداف التي أحدثت ضجة هائلة في الغرب ، مما أثار الاتحاد السوفيتي وغيره من دول حلف وارسو سابقا ، ودفعهم إلى التدخل بالقوة العسكرية لإحباط هذه العملية والتصدي لها في مهدها .

جاء التدخل العسكري السوفيتي في تشيكوسلوفاكيا لإجهاض هذا البرنامج الإصلاحي بعد رد الفعل الهستيري لدى أجهزة الإعلام الغربية تجاهه ، مما دفع موسكو إلى اتخاذ موقف عسكري لإسقاط « دوبتشيك » ومجموعته من السلطة .

وفي البيان الرسمي الذي أذاعته الحكومة السوفيتية في ٢١ أغسطس ١٩٦٨ لتوضيح الملابسات ، التي أحاطت بهذا التدخل العسكري الذي أطلق عليه اسم « ربيع براغ »جاء أن ازدياد خطورة الموقف في تشيكوسلوفاكيا أثر في المصالح الحيوية للاتحاد السوفيتي والدول الاشتراكية الأخرى . غير أن المجلس الوزاري لحلف شمال

الأطلنطي أصدر في ١٦ نوفمبر ١٩٦٨ بيانا ، هاجم فيه هذا الإجراء الذي نفذته مجموعة دول حلف وارسو ، ودعا موسكو إلى الامتناع عن اللجوء إلى القوة والتدخل في شئون الدول الأخرى .

سرعان ما تلاشت الزوبعة الدولية العنيفة التي أثارها التدخل العسكري السوفيتي في تشيكوسلوفاكيا ، بعد أن تم حسم الموقف الداخلي في براغ لمصلحة موسكو ، وعقب صدور «مبدأ بريجنيف» الذي ضمنه السوفيت تصميمهم على مقاومة أي تغييرات محتملة ، يكون من شأنها تهديد سلامة الجماعة الاشتراكية وأواصر التضامن التي تجمع بينها .

ووقعت مواجهة بين ألبانيا والاتحاد السوفيتي السابق ، انتهت بإعلان ألبانيا في ١٢ سبتمبر ١٩٦٨ انسحابها رسميا من حلف وارسو . وفي ٢ سبتمبر من تلك السنة طالبت موسكو ألمانيا الغربية سابقا بالكف عن التدخل في شئون شرقي أوروبا ، مهددة باحتمال غزوها للشطر الغربي من ألمانيا ، لولا أن كلا من الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا حذرت السوفيت في ١٧ سبتمبر من الإقدام على مثل تلك الخطوة . ووقعت أزمة بين الصين والاتحاد السوفيتي السابق ، ظهرت بوادرها في صورة حملات إعلامية متبادلة في إبريل ١٩٦٤ .

وفي سبتمبر من تلك السنة ، رفضت موسكو الاعتراف بأي حقوق للصين في سيبيريا . وفي أكتوبر تم الإعلان عن تفجير القنبلة الذرية الأولى للصين ، ثم أعلن عن تفجير قنبلتين ثانية وثالثة في مايو ١٩٦٥ ومايو ١٩٦٦ على التوالي . وفي أكتوبر ١٩٦٦ طردت موسكو جميع الطلبة الصينيين من أراضيها ، ثم أدانت في نوفمبر من تلك السنة الثورة الثقافية في الصين . وظل التوتر قائما بين الجانبين حتى شهر يوليو من سنة ١٩٧٠ ، حين فتحت صفحة جديدة من العلاقات بين البلدين .

وإثر حصول الكونغو مباشرة على استقلالها من بلجيكا في ١٩٦٠ ، أصبحت مهددة بخطر نشوب حرب أهلية واسعة فيها بسبب إعلان « مواس تشومبي » رئيس مقاطعة كاتانجا - أغنى مقاطعات الكونغو - تمرده على الحكومة المركزية ، وانفصاله

عن دولة الكونغو الجديدة . دفع هذا الإجراء الانفصالي بكل من « چوزيف كازافوبو » رئيس الكونغو ، و« باتريس لومومبا » رئيس حكومتها المركزية إلى طلب مساعدات عسكرية خارجية ؛ لقمع حركة « تشومبي » الانفصالية والقضاء عليها .

وعلى الفور دعا الأمين العام للأمم المتحدة « داج همرشولد » مجلس الأمن الدولي إلى الانعقاد؛ لبحث أزمة الكونغو . وفوض مجلس الأمن « همرشولد » في مهمة تشكيل قوة طوارئ دولية تابعة للأمم المتحدة ، وإرسالها إلى منطقة الصراع في الكونغو . وزاد من تعقيد الصراع الناشب في الكونغو - آنذاك - تدهور العلاقات بين « كازافوبو » و« لومومبا » ، الذي اعتبر مسئولا عن محاولة تدويل هذا الصراع الداخلي ، ودفعه إلى بؤرة الحرب الباردة الدائرة بين الكتلتين السوفيتية والغربية . وخوفا من العواقب التي ستترتب على اتساع نطاق الصراع في الكونغو ، أصدر « كازافوبو » قرارا في سبتمبر ١٩٦٠ بإعفاء « لومومبا » من منصبه .

وبدت قوات الأمم المتحدة بحجمها والإمكانات المتاحة لها آنذاك عاجزة عن مواجهة الموقف المتدهور في الكونغو ؛ مما ألقى على مجلس الأمن مسئولية إقرار إجراءات أخرى إضافية لتعزيز الوجود العسكري للأمم المتحدة في الكونغو ، ولاحتواء الأزمة ، قبل أن تتحول إلى حرب إفريقية-أوروبية واسعة النطاق . غير أن موسكو اعترضت على اتخاذ إجراءات إضافية عن طريق مجلس الأمن أبعد من تلك التي اتخذت بالفعل ، ولجأت إلى حق « الفيتو » لعرقلة إصدار قرارات جديدة في هذا الشأن . وبعد مناقشات حامية الوطيس في الجمعية العامة للأمم المتحدة ، أصدرت توصيتها بمواصلة الأمين العام للمنظمة الدولية جهوده لتقديم المساعدة الضرورية للحكومة المركزية في الكونغو ، كما دعت إلى إقامة لجنة وساطة إفريقية - آسيوية للبحث في كيفية تسوية أزمة الكونغو . لكن اعتقال المناضل « لومومبا » - الذي نقل إلى إقليم كاتانجا ، حيث أعلن عن مصرعه أو بمعني أدق اغتياله في ١٧ يناير ١٩٦١- أثار موجة سخط دولية ، وزاد من تردي الموقف في الكونغو . من ذلك -على سبيل المثال- أن نائب « لومومبا » السابق في رئاسة الحكومة المركزية « أنطوان جينزنجا » أقام حكومة مناوئة لـ « كازافوبو » في ستانلي فيل وشرع في مد سيطرته إلى أجزاء أخرى من

الكونغـو! كـما أن الخـلاف بين « كـازافوبو » وبين ممثل الأمـين العام للأمم المتحـدة في الكونغو « راشوار ديال » انتهى باستقالة « ديال » من مهمته .

إزاء هذا التحدي لسلطة الأمم المتحدة ، عمدت المنظمة الدولية إلى تعزيز قواتها في الكونغو حتى بلغ تعدادها عشرين ألفا ، كما أعدت برنامجا ضخما لمساعدة وتنمية الكونغو . وفي أغسطس ١٩٦١ تشـكلت في الكونغو حـكومة وحـدة وطنية برئاسة « سيريل أودولا » ، دون أن يؤدي ذلك إلى تحقيق الهدف المطلوب بدرجة كافية . وفي أواخر ١٩٦١ تفاقمت حدة الصراع العسكري في الكونغو بعد أن أصبحت قوات الأمم المتحدة متورطة فيه ضد قوات الانفصاليين في كاتانجا ، الذين استعانوا بعناصر من المرتزقة الأوروبيين إلى جانبهم . وزاد من سوء الوضع مصرع « همرشولد » في حادث سقوط طائرته في شمال روديسيا ، حيث كان في طريقه آنذاك لاجتماع مع « تشومبي » لتسوية النزاع .

وعلى الرغم من تعهد« تشومبي » في « إعلان كيتونا » باحترام الوحدة الوطنية للكونغو . . فإنه رفض التقيد بأية إجراءات عملية لوضع هذا التعهد موضع التطبيق ، لتتضح أبعاد مراوغاته لإنجاح خطته الانفصالية ، وبالتالي لم تجد القوات الدولية مفرا من تطويقه وإحكام الحصار المضروب حوله .

وفي ديسمبر ١٩٦٢ ، احتلت القوات الدولية مدينة إليزابيث فيل وغيرها من المدن الاستراتيجية في إقليم كاتانجا ، ليعلن عندها « تشومبي » استعداده لوضع حد لعملية الانفصال واتجاهه للانسحاب مؤقتا من الحياة السياسية العامة في الكونغو ، وليغادر إقليم كاتانجا الغني بالألماس إلى باريس .

في فبراير ١٩٦٣ أعلن الأمين العام للمنظمة الدولية أن الأمم المتحدة أنجزت تقريبا الهدف المتعلق بصيانة الوحدة الإقليمية للكونغو . وفي يونيو ١٩٦٤ تم سحب قوات الطوارئ الدولية نهائيا من الكونغو ، بعد أن تكبدت الأمم المتحدة أعباء مالية فادحة كادت تنتهي بها إلى الإفلاس والانهيار .

تعود أزمة كشمير بدورها إلى تقسيم الهند في ١٩٤٧ ، بعد أن كانت خاضعة لحكم بريطانيا . ونتيجة للصراع على كشمير بين الهند وباكستان وقعت الحرب ثلاث مرات على الأقل بين البلدين ، وكاد نطاق الحرب يتسع بين الجانبين في ١٩٩٩ .

وفي ١٩٩٤ نجحت الإدارة الأمريكية في إيجاد حل لأزمة السلطة في هاييتي وتجنب مواجهة خطيرة في كوريا ، بينما تسببت الأزمة في البوسنة ثم في كوسوفا في تجدد الحديث عن ازدواجية المعايير الغربية ، وفي حدوث انقسام داخل حلف شمال الأطلنطي « الناتو » ؛ خاصة في ظل تعارض الآراء داخل القارة الأوروبية بشأن سبل احتواء هاتين الأزمتين الناجمتين عن الجرائم الصربية البشعة ضد المدنيين العزل في البوسنة وكوسوفا بغرض التطهير العرقي .

واهتزت الولايات المتحدة من الداخل حين سجل مواطن أمريكي على شريط فيديو وقائع اعتداء رجال الشرطة بالضرب الوحشي ، بعد مطاردة بالسيارات على الأمريكي الأسود « رودني كنج » في ٣ مارس ١٩٩١ . وبعد أن عرضت محطة تليفزيون محلية مقاطع من شريط الفيديو ، عرض على المستوى القومي ، ليطلق سراح « كنج » ولتبدأ فصول أزمة بين السود والبيض في المجتمع الأمريكي ، استمرت تداعياتها خلال الأشهر التالية ، وشهدت إعلان حالة طوارئ في عدد من المدن والولايات الأمريكية .

وإذا كان الاتحاد السوفيتي السابق قد أثار أزمة باجتياحه بودابست في ١٩٥٦ ، فإن روسيا في عهد الرئيس« بوريس يلتسين » ، تعرضت لسلسلة من الأزمات خلال النصف الثاني من عقد التسعينيات ، كانت العنوان الأبرز لمواجهات نهاية القرن .

وفي الانتخابات الرئاسية الأمريكية التي أجريت في نوفمبر ٢٠٠٠ ، وقعت أزمة سياسية دامت ٣٦ يوما ، حين أثيرت الشكوك حول هوية الفائز في تللك الانتخابات . ففي ليلة ٧ -٨ نوفمبر أعلنت وسائل الإعلام أن المرشح الجمهوري « جورج ووكر بوش » قد انتخب ليصبح الرئيس الثالث والأربعين للولايات المتحدة . لكن المرشح الديمقراطي « آل جور » اعترض على النتيجة ، ودفع بوجود أخطاء في نتائج انتخابات

الولاية الحاسمة فلوريدا ، خاصة في ظل إبطال أكثر من ١٩ ألف بطاقة اقتراع في مقاطعة بالم بيتش في الولاية . واشتبك « بوش » (٦ يوليو ١٩٤٦-) نجل الرئيس الأمريكي الأسبق « چورچ بوش » ، مع « جور » (٣١ مارس ١٩٤٨-) نائب الرئيس الأمريكي « بيل كلينتون » في معركة حامية الوطيس ، شاركت فيها المحاكم والصحافة ، خاصة أن « جور » تفوق في الاستفتاء الشعبي (إجمالي أصوات الناخبين) بفارق يزيد عن ٣٠٠ ألف صوت ، لكنه خسر سباق المجمع الانتخابي (نظام منح الأصوات الانتخابية في كل ولاية للفائز ، بينما يخرج الخاسر خالي الوفاض) بفارق ضئيل . وبعد أخذ ورد حول سوء النظام الانتخابي ، وعدم دقة بطاقات الاقتراع وعملية الفرز الآلي ، ومرافعات قانونية ونقاش في المحكمة الفيدرالية العليا ، حسم السباق لمصلحة « بوش » الابن ، الذي أصبح الرئيس الأمريكي المنتخب في ١٣ ديسمبر ٢٠٠٠ .

وفي كلمة وجهها إلى الشعب الأمريكي استغرقت ثماني دقائق ، أعلن « جور » قبوله قرار المحكمة الفيدرالية العليا الأمريكية ، على الرغم من عدم اتفاقه مع الرأي الذي كانت المحكمة أصدرته بأن إعادة الفرز اليدوي للأصوات يواجه مشكلات دستورية . أما « بوش » فقد دعا في كلمة استغرقت عشر دقائق إلى المصالحة القومية ، والعمل من أجل مصلحة الولايات المتحدة . باختصار شديد ، لقد كشفت تلك الانتخابات عن نقاط ضعف كثيرة في التجربة « الديمقراطية » الأمريكية .

وشهدت مصر عديداً من الأزمات ، منه على سبيل المثال - لا الحصر - أزمة ٢ فبراير ١٩٤٢ ، حين حاصرت دبابات الاحتلال البريطاني قصر عابدين لإجبار الملك « فاروق » على إسناد رئاسة الحكومة إلى زعيم حزب الوفد « مصطفى النحاس » ، فأذعن الملك للضغوط ليأتي الوفد إلى السلطة بدعم بريطاني هذه المرة!

وفي ١٨ يوليو ١٩٧٢ ، أي بعد نحو ستة أشهر من زيارته لموسكو طالبا تزويد مصر بأسلحة حديثة ، أعلن الرئيس المصري « أنور السادات » الاستغناء عن خدمات ٢٠ ألف خبير عسكري وغير عسكري سوفيتي موجودين في مصر .

كان طرد الخبراء السوفيت ضربة موجعة لمصالح موسكو في الشرق الأوسط ، جاءت من الرجل الذي ضرب في مايو ١٩٧١ أقوى حلفاء موسكو في السلطة في مصر ، وهو ما عرف بثورة مايو ، ثورة التصحيح ، أو انقلاب مايو . . . حسب الموقف السياسي من تلك الأزمة الشهيرة التي استبعدت وحاكمت عدة قيادات ووزراء . وفي ١٨ و١٩ يناير ١٩٧٧ اندلعت مظاهرات الطعام ، أو مظاهرات الجوع ، احتجاجا على رفع أسعار السلع الضرورية حسب نصيحة صندوق النقد الدولي ، ونزل الجيش إلى الشارع للسيطرة على الموقف ، واضطرت الحكومة إلى التراجع عن قراراتها ، في حين وصف الرئيس « السادات » ما جرى بأنه « انتفاضة حرامية » ، ورآها المعارضون انتفاضة شعبية .

وفي ٩ إبريل ١٩٥٧ ، أحبط الملك « حسين » انقلابا ضد نظامه في الأردن بقيادة الجنرال « أبو نوار » ، بينما وقعت في المغرب أحداث الصخيرات ، التي كانت عبارة عن محاولة انقلاب عسكري نفذه طلاب الكلية العسكرية ، الذين حاصروا في ١٠ يوليو ١٩٧١ القصر الملكي في الصخيرات قبل الهجوم عليه ، وأطلقوا الرصاص ليسقط ٢٨ قتيلا من بينهم وزير السياحة المغربي والسفير البلجيكي لدى المغرب . لكن العاهل المغربي الملك « الحسن الثاني » (١٩٢٩-١٩٩٩) نجا من تلك الأحداث العصيبة ، التي انتهت بمحاولة الانقلاب الفاشل .

وبعد ثلاثة أيام عقدت السلطات المغربية مجلس حرب أصدر أحكاما بالإعدام ضد عديد من قادة محاولة الانقلاب . شملت الأحكام عشرة ضباط منهم أربعة برتبة جنرال . أدت أحداث الصخيرات إلى تشدد السلطات المغربية في مواقفها تجاه المعارضة ، بينما انتحر - وقيل تمت تصفية - الجنرال « أوفقير » .

وفي سنتي ١٩٠٥ و١٩١١ وقعت أزمتان أو مواجهتان بين الألمان والفرنسيين بسبب المغرب ، وكان ذلك أحد أوجه التوتر الدولي الناجم عن سباق التسلح ، الذي تمثل آنذاك في بدء تشغيل السفينة الحربية البريطانية دريدنوت ، وتوسيع ألمانيا قناة كيل سنة ١٩٠٦ .

ولا شك أن أحــداث « أيلول الأســود » التي جــرت بين السلطات الأردنيــة والفدائيين الفلسطينيين تعد من الأزمات المؤسفة التي هزت العالم العربي . وأثمرت جهود الرئيس المصري « جمال عبد الناصر » عن وقف حمام الدماء العربي ، بعد اجتماعات عاجلة عقدت في القاهرة بمشاركة قيادتي الجانبين في ٢٧ سبتمبر ١٩٧٠ ، قبل أن يتوفى « عبد الناصر » في اليوم التالي ! ولكن في ١٣ يوليو ١٩٧١ تجددت المصادمات الدامية بين الجانبين ، وأدت إلى وقوع خسائر فادحة في الأرواح . وبحلول ١٩ يوليو ١٩٧١ ، كانت السلطات الأردنية قد اعتقلت ما لا يقل عن ١٥٠٠ فلسطيني ، بينما نشطت الوساطات العربية لاحتواء الموقف وإنهاء الأزمة المتفجرة .

* * *



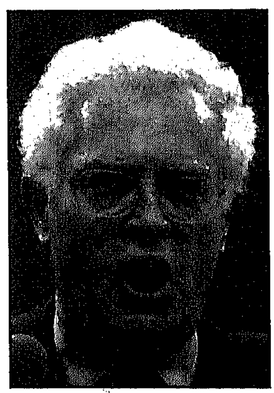
سيلفيو بيرلوسكوني رئيس وزراء إيطاليا

في نهاية العقد الأول من القرن العشرين أصيبت أوروبا والعالم بالذعر ؛ بسبب موجة « لليسار در » التي انطلقت من موسكو عقب ثورة أكتوبر ١٩١٧ ، لتنشر «المطرقة والمنجل » رمز الشيوعية . وفي الثلاثينيات تكررت حالة الفزع ثانية ، ولكن هذه المرة مع صعود موجة « لليمين در » وبروز الحركة النازية ومن قبلها الفاشية .

وما بين اليمين واليسار شهدت مناطق كثيرة في العالم لعبة الكراسي الموسيقية ؛ في حين دفع ملايين البشر حياتهم ثمنًا لهذه الأرجوحة السياسية الغريبة !

30

لليمين در.. ولليسار أيضا


الاشتراكي ليونيل چوسبان


الديجولي چاك شيراك


اليميني المتطرف چان ماري لوبن

بدأ ظهور الأيديولوجيات بعد الحرب العالمية الأولى وثورة أكتوبر الاشتراكية في الاتحاد السوفيتي سابقا ، وإن كان ازدهارها الحقيقي كقوى ملهمة لحركات التحرير القومية والثورية ضد الاستعمار لم يتبلور إلا بعد الحرب العالمية الثانية . ويمكن بسهولة ملاحظة أن القومية بمفاهيمها المتعددة ، والماركسية بتطبيقاتها المتباينة كانت أكثر الأيديولوجيات تأثيرا في الحركات السياسية في العالم الثالث خلال تلك الفترة .

وإذا كانت أوروبا قد شهدت ظهور النازية في ألمانيا ، والفاشية في إيطاليا خلال عقد الثلاثينيات ، فإن الأيديولوجيات تراجعت جزئيا في أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية خلال عقدي الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين . وهذا يرجع أساسا إلى انهيار النماذج والتجارب المتعصبة كالفاشية والنازية والعنصرية ، وأبرز أمثلتها نظام جنوب إفريقيا العنصري ، حتى إلغاء سياساته في ٢ فبراير ١٩٩٠ ، وارتفاع مستوى معيشة الطبقات الدنيا ؛ بسبب التحول التدريجي من الاستغلال الرأسمالي الفظ إلى دولة الرفاهة ، وما ترتب على ذلك من تقليص المنازعات الطبقية والحزبية . وربما يضيف البعض أن خطة مارشال - المنسوبة إلى وزير الخارجية الأمريكي « چورچ مارشال » (١٨٨٠-١٩٥٩)- لمساعدة وإعادة إعمار دول أوروبا عقب الحرب العالمية الثانية ، كانت تهدف في الأساس حماية أوروبا من المد الشيوعي .

وعلى الرغم من ذلك ، أدت الأوضاع المتفجرة والمأساوية خلال الستينيات إلى ظهور بعض الأيديولوجيات والحركات اليسارية التي تبنت خط الصراع المكشوف مع السلطة على جانبي الأطلنطي ، مثل : حركات السلام المعادية لحرب فيتنام والتسلح النووي ، وحركات الحقوق المدنية للزنوج ، والفهود السود ، والحركات الطلابية ، والحركة النسائية .

اليمين الجديد

وخلال عقدي السبعينيات والثمانينيات ، عادت الأيديولوجيات التقليدية إلى الصدارة في الدول الغربية مرة أخرى بفعل الأزمات الاقتصادية ، خاصة ظاهرة التضخم . وفي حين أسفرت التفاعلات السياسية والعسكرية عن ظهور الأيديولوجيات والحركات اليسارية السابق ذكرها ، فإن الأوضاع الرجراجة المصاحبة

للأزمة في الثمانينيات أفـرزت قوى اليمين الجـديد المتطرف ، ممثـلا في » الريجانية « – نسـبـة إلى الرئيس الأمـريكي الأسبق « رونالد ريجـان » – التي وصـفت الكرملين بالشيطان الأكبر .

كما ظهرت حركات يمينية متطرفة خلال الثمانينيات والتسعينيات في دول مثل اليابان ، والنمسا بزعامة « يورج هايدر » ، وفرنسا بزعامة « جان ماري لوبن » ، وألمانيا بزعامة « فرانز شونهوبر » ، وفي إيطاليا بقيادة « أومبرتو بوسي » ، إضافة إلى أسماء من عينة « ريتشارد باتلر » زعيم جماعة الشعوب الآرية ، الذي عاش في ولاية إيداهو الأمريكية .

ومابين صراع المصالح داخل معسكر الأيديولوجية الرأسمالية ، الذي أفرز حربين عالميتين وصعود نجم النازية تحت حكم « أدولف هتلر » ، والفاشية بقيادة « إل دوتشي » «بنيتو موسوليني» ، فإن الاشتراكية والماركسية اتسمت بدورها بخلافات فكرية حادة ، وإن كان من أخطرها تلك التي وقعت بعد ثورة أكتوبر ١٩١٧ ، بين المنادين بثورة دائمة من أتباع «تروتسكي» (الذي اغتيل لاحقا في منفاه) وأنصار بناء الاشتراكية في دولة واحدة من المؤيدين لـ « جوزيف ستالين » . كما تعمقت الخلافات بين قيادتي الاتحاد السوفيتي والصين في ١٩٦٣ حول عدة قضايا سياسية وأيديولوجية ، خاصة أن الزعيم الصيني « ماو تسي تونج » لم يكن راضيا عن سياسات ومواقف الكرملين بشكل عام .

فـ « بنيتو موسوليني » – المولود في ١٨٨٣ – أطلق على منظمته السياسية التي أسسها في إيطاليا سنة ١٩١٩ مسمى الفاشية ، وقد جاءت به إلى السلطة في ١٩٢٢ ، لتتحول الفاشية من مجرد منظمة إلى أيديولوجية ونظام حكم ، وأصبح رمز الحبال ورأس البلطة معبرا عن الوحدة الوطنية (الحبال) تحت إمرة القيادة السياسية (رأس البلطة) .

وعلى الرغم من أن البعض يوسع نطاق الفاشية لتشمل النازية الألمانية وحزب الكتائب الإسباني ، فإن المصطلح في معناه الدقيق يقتصر على نظام الحكم والمذهب ، اللذين ازدهرا في إيطاليا تحت قيادة « موسوليني » من ١٩٢٢ حتى هجوم الحلفاء على إيطاليا في الحرب العالمية الثانية ، وإعدام « موسوليني » رميا بالرصاص ، وتعليق جثته من القدمين في ميدان عام بمدينة ميلانو !

وفاشية « موسوليني » مثل نازية « هتلر » برمزها الشهير (الصليب المعقوف) ، نجحت في كسب تأييد جموع الجماهير الغفيرة ، على الرغم من تضحيتها بالفرد وحريته لحساب شخص اعتباري هو الدولة . وربما لا ينافسهما في تلك الجماهيرية سوى النظم « الثيوقراطية » ، التي تقوم على مبادئ دينية تحرك الجماهير مثلما هي الحال في إيران « الخميني » ، التي أسقطت نظام شاه إيران في ١٩٧٩ ، واعتبرت أمريكا الشيطان الأكبر . كذلك فإن النظم والقيادات الثورية يكون لها مفعول السحر في الجماهير ، مثلما هي الحال بالنسبة « لتشي جيفارا » ، الثائر الأرجنتيني الذي شارك في ثورة كوبا ، وقاد حركة التمرد المناوئة للحكم في بوليفيا حتى سقط في الأسر ، ونفذ فيه حكم الإعدام في ٩ أكتوبر ١٩٦٧ .

ويتعين أن نشير إلى أن الأحزاب الأوروبية الفاشية بلغت مستويات متباينة من النفوذ في الفترة بين ١٩١٩-١٩٤٥ ، التي غالبا ما يشار إليها بفترة الفاشية . ولم تكن الفاشية ظاهرة محلية مقصورة على إيطاليا أو ألمانيا ؛ إذ قامت حكومات فاشية خلال الفترة المذكورة في أجزاء من شرقي أوروبا ، ومنها حكومة « زانكوف » في بلغاريا ، وحكومة « بيلسودسكي » في بولندا ، وحكومة « جومبوسي » في المجر . وحتى في البلاد التي لم تستول فيها الأحزاب الفاشية على الحكم ، كانت أحيانا تتمتع بنفوذ قوي ، مثل الاشتراكيين القوميين البلجيكيين ، والحزب الفلمنكي الاشتراكي القومي ، واتحاد الفاشيين البريطاني . وذهب مؤرخون إلى القول بأن جماعات فاشية فرنسية اقتربت كثيرا من الاستيلاء على الحكم سنة ١٩٣٤ .

وقد ظهرت في إيطاليا عدة جماعات وطنية متطرفة بعد ١٩١٨ ، وأهمها جماعة القوميين ، بزعامة « أنريكو كوراديني » ، وجماعة « الفيلق » بزعامة « جابريللي دانونزيو » ، والماركسيين المارقين الذين تركوا الحزب الاشتراكي ، وعلى رأسهم «موسوليني» صاحب الميليشيا المسماة « سكواد ريستي » ، التي استولت على الحكم بالزحف على روما في ١٩٢٢ .

أما في ألمانيا فقد بدأ الحزب النازي كإحدى الجماعات الوطنية المتعصبة التي ظهرت في ألمانيا بعد هزيمتها في الحرب العالمية الأولى ، فأنشئ حزب العمال الألماني

بزعامة « أنطون دركسلر » في مدينة ميونيخ في يناير ١٩١٩ ، وكان بين مؤسسيه «إرنست روم » ، و« ديتريش إيكهارت » ، و« أدولف هتلر » . وبدأ الحزب يعلن عن نفسه باسم الحزب الاشتراكي القومي في ١٩٢٠ ، وتمت لـ« هتلر » السيطرة عليه في ١٩٢١ .

قضم « هتلر » من جهته معظم الكعكة الأوروبية قطعة فقطعة ، ودولة فدولة ، ولم يكتف بذلك بل كان يخطط للقضاء على الشيوعية ومحوها من على وجه الأرض. وإذا كان « هتلر » قد حارب الشيوعيين وهزمهم في ألمانيا نفسها في مطلع الثلاثينيات ، حين فاز في الانتخابات العامة ، فإنه سقط لاحقا أمام صلابة المقاومة والشتاء القارس في ستالينجراد . وعلى الرغم من أن « هتلر » عقد معاهدة عدم اعتداء مع السوفيت في ١٩٣٩ -ليضمن عدم اعتراض موسكو على احتلاله بولندا- فإنه بادر إلى غزو الاتحاد السوفيتي في يونيو ١٩٤١ ، ولم يأت إعلان الحرب من جانب ألمانيا ، إلا بعد أن كانت القوات الألمانية داخل الأراضي السوفيتية في عملية زحف سريع ، حتى إنه ما إن حل شهر ديسمبر حتى كان الألمان على أبواب موسكو .

لكن قسوة الشتاء ، وصمود الشعب الروسي أسهما - كما أسلفنا - في قهر «هتلر» ونظامه النازي ، الذي انهار على الرغم من وجود مؤيدين له ظهروا ثانية ، خلال الثمانينيات والتسعينيات من حركة النازيين الجدد التي انتشرت مجددا في أوروبا .

أما « ستالين » (١٨٨٠-١٩٥٣) المولود في جمهورية جورجيا ، فهو الذي استخدم سلطته بعد وفاة « لينى » في ١٩٢٤ لعزل وتصفية أبرز منافسيه في الحزب الشيوعي على زعامة الاتحاد السوفيتي السابق ، خاصة « تروتسكي » و« بوخارين » .

وبحلول سنة ١٩٢٩ برز « ستالين » كزعيم أوحد في الدولة السوفيتية والحزب الشيوعي ، وقتل أكثر من مليون شخص في القلاقل التي وقعت في مطلع الثلاثينيات ، وأرسل نحو ثمانية ملايين آخرين إلى معسكرات الاعتقال في غضون ثلاث سنوات . وإذا كان ستالين قد ترك روسيا من الناحيتين الاقتصادية والسياسية أقوى مما كانت عليه

في العشرينيات ، فإنه ترك فيها أيضا نظاما سياسيا أشد قسوة وطغيانا ؛ مما كان عليه الحال إبان حكم « لينين » .

في كمبوديا تنفس الملايين الصعداء بعد وفاة السفاح الأحمر « بول بوت » في إبريل ١٩٩٨ ، وهو الذي قاد حركة « الخمير الحمر » للاستيلاء على السلطة في ١٩٧٥ ، وحين أقصي من الحكم في ١٩٧٩ كان قد اتهم بقتل أكثر من مليون شخص !

الزعيم الشيوعي الفيتنامي « هو شي منه » ومن بعده الجنرال « فونجوبين جياب » هزا السياسة الأمريكية خلال الستينيات ، مثلما سحقا المواقع الفرنسية في معركة ديان بيان فو سنة ١٩٥٤ . وقد أدى النصر في معركة ديان بيان فو إلى كسر إرادة الفرنسيين في مواصلة الحرب .

أما في النزاع اللاحق ضد الأمريكيين ، عندما سيطر الشيوعيون على البلاد شمال خط عرض ١٧ ، وسعوا إلى توحيد البلاد بالقوة ، فقد أدت رغبة الشيوعيين في الاستمرار في المعارك العسكرية على الرغم من الخسارة الكبيرة إلى استمرار القتال بين الجانبين الفيتنامي والأمريكي .

وظل زعيم كوريا الشمالية « كيم إيل سونج »ومن بعده ابنه ووريثه فى السلطة «كيم جونج إيل » صداعا في رأس الولايات المتحدة ، التى تخشى المد اليساري في شبه الجزيرة الكورية منذ منتصف القرن العشرين ، حين اجتازت قوات كوريا الشمالية خط عرض ٣٨ الفاصل بينها وبين كوريا الجنوبية فى يونيو ١٩٥٠ . أما « ماو تسي تونج » الزعيم الصيني الشهير وصاحب « الثورة الثقافية » خلال عقد الستينيات ، فقد أزعجت سياساته الحمراء الإدارات الأمريكية المتعاقبة منذ توليه السلطة وحتى وفاته في ١٩٧٦ . و« ماو » الذى قاد جيش الفلاحين كزعيم للحزب الشيوعي الصيني ، كان خصما عنيدا لواشنطن ؛ خاصة بعد أن أيدت الأخيرة استقلال تايوان .

ومنذ ثورة ١٩١٧ وتأسيس الاتحاد السوفيتى وحتى نهاية عقد الثمانينيات ، ظل قادة الكرملين الشغل الشاغل للقوى الغربية وبخاصة الولايات المتحدة ، وأصبحت سياسات « ستالين » و« خروتشيف » ومن بعدهما « ليونيد بريجنيف » ووزير

خارجيته «أندريه جروميكو » « السيد لا » وصولا إلى « ميخائيل جورباتشيف » ، هي القضية الأساسية التي تهتم بها واشنطن ؛ نظرا لتأثير المد الأحمر السوفيتي على دول شرق أوروبا وكوبا والصين وكوريا الشمالية وغيرها من المناطق المؤثرة على الخريطة الدولية .

وفي إفريقيا هبت مع رياح الثورة والاستقلال بدءا من منتصف الخمسينيات وخلال عقد الستينيات ، موجة اشتراكية واسعة النطاق كان لها صداها في مصر وغانا ومالي وغيرها من الدول . وعلى الطريق القومي التحرري برز في إفريقيا كل من « جمال عبد الناصر » في مصر ، « أحمد سيكوتوري » في غينيا ، « سامورا ميتشيل » في موزمبيق ، « أميلكار كابرال » في جزر الرأس الأخضر ، و« ليوبولد سنجور » في السنغال . ربما كان آخر نماذج التحول السياسي في إفريقيا خلال القرن العشرين هو ما شهدته غانا ، التي انتخبت في ٢٨ ديسمبر ٢٠٠٠ زعيم المعارضة « چون كوفور » (٦٣ سنة) رئيسا للبلاد خلفا للطيار الحربي السابق « چيري رولينجز » ؛ الذي حكم البلاد لمدة ١٩ سنة ، بعد انقلابين نفذهما في سنتي ١٩٧٩ و١٩٨١ ، قبل أن يرتدي عباءة الحكم المدني منذ سنة ١٩٩٢ . ويعد « كوفور » أول رئيس في تاريخ غانا ما بعد الاستقلال (منذ ٤٣ سنة) ، يحصل على منصبه بأسلوب ديمقراطي هادئ عقب انتخابات تقليدية .

وفي جولة الإعادة للانتخابات الرئاسية في السنغال التي أجريت في ١٩ مارس ٢٠٠٠ ، فاز مرشح الحزب الديمقراطي المعارض « عبد الله واد على » الرئيس « عبده ضيوف » ، ليجرى انتقال سلمي للسلطة ، أنهى احتكاراً دام ٤٠ سنة انفرد خلالها الحزب الاشتراكي بالسلطة .

الجيش والكنيسة

ويرى البعض أنه على الرغم من ظهور بعض رجال الدين المؤيدين للحركة التقدمية في أمريكا اللاتينية ، فإن التيار المحافظ في الكنيسة والمرتبط عادة بالسياسات الأمريكية يبقى هو المسيطر ، إلى جانب الجيش الذي تشهد على نفوذه الانقلابات

العسكرية اليمينية والفاشية المتعددة . أما دور المثقفين في المجال السياسي فغامض نوعًا ما ، وهم في الأغلب الأعم أوروبيو الثقافة .

وحين حكمت نيكاراجوا جبهة « الساندينستا » برئاسة « دانييل أورتيجا » - الذى خرج من السلطة عقب انتخابات فبراير ١٩٩٠ - هاجت الولايات المتحدة وماجت ، وسعى الرئيس الأمريكي - آنذاك - « رونالد ريجان » ؛ للقضاء على هذا الخطر اليساري، وتمويل حركة متمردي الكونترا بالمال والسلاح . وخلال عقد الثمانينيات زادت الولايات المتحدة المعونات المقدمة إلى السلفادور وحدها من ٦٠ إلى ١١٠ ملايين دولار ، في محاولة لمنع سقوطها بين يدي قوى يسارية مناوئة لواشنطن . كما تدخلت واشنطن لدعم حكومة هندوراس ضد ثوار جبهة « فارابوندو مارتي » .

وفي ١١ سبتمبر ١٩٧٣ ، تكللت بالنجاح المساعي الأمريكية لإسقاط رئيس « تشيلي سلفادور الليندي » . وقد تدخلت الولايات المتحدة في هذا البلد اللاتيني ؛ خوفا من سقوط تشيلى في قبضة التيار اليساري . أسفر الانقلاب الدموي عن صعود العسكر بقيادة الدكتاتور « أوجستو بينوشيت » ، الذي فرض الأحكام العرفية وصفى المعارضين . لكن « بينوشيت » لم ينج من الملاحقة القضائية بعد اعتزاله السلطة ولجوئه إلى بريطانيا طلبا للعلاج في ١٩٩٩ ، حين طلبت إسبانيا وجماعات حقوق الإنسان تسليمه للسلطات الإسبانية لمحاكمته على سجله الأسود .

وفي ١٩٥٢ سيطر رئيس كوبا السابق « فلجنشيو باتيستا » على مقاليد الحكم في البلاد ، وأسس نظاما دكتاتوريا اتسم بالقسوة والفساد ، ليبدأ الثائر « فيدل كاسترو » في حشد العناصر الثورية في ١٩٥٦ ، ولتتصاعد وتيرة المواجهات في ١٩٥٨ بعد أن أطلق « كاسترو » شعار الثورة الدائمة . وإثر هروب « باتيستا » من البلاد في ١ يناير ١٩٥٩ ، أصبح هناك فراغ في السلطة مهد لوصول « كاسترو » إلى سدة الحكم ، واختياره رئيسا للوزراء في ١٦ فبراير من السنة نفسها ، وبدء سلسلة من الإجراءات الاقتصادية ذات الطابع الاشتراكي في كوبا .

وبسبب المخاوف الأمريكية من التيار الشيوعي الزاحف انطلاقا من كوبا - كاسترو ، تأزمت العلاقات ، وفرضت الولايات المتحدة حصارا اقتصاديا على كوبا

منذ ١٩٦٢ وحتى نهاية القرن العشرين . وفي إبريل ١٩٦١ نزل إلى شواطئ كوبا ١٤٠٠ كوبي كانوا يخططون لإسقاط حكومة « فيدل كاسترو » بعد سنتين من تسلمه زمام السلطة . وكانت المخابرات الأمريكية قد سلحت ودربت هؤلاء الكوبيين ، وأوحت إليهم بأن الرئيس الأمريكي « چون كنيدي » لن يتخلى عنهم . لكن القوات الكوبية هزمتهم ، وألقت القبض عليهم خلال يومين ، في حين لم ترسل الولايات المتحدة أي مساعدة لتجنب هزيمتهم .

وعلى الرغم من أن هذه المحاولة المضادة للثورة الكوبية فشلت فشلا ذريعا ، فإن «كاسترو» افترض أن الولايات المتحدة ستقوم بمحاولة أخرى ، وكان « كاسترو » قد أمم جميع الشركات الأمريكية في كوبا ، وقطع العلاقات الاقتصادية والدبلوماسية معها ، وأعلن نفسه ماركسيا وتقرب كثيرا من الاتحاد السوفيتي سابقا . وبناء على ذلك ، طلب من رئيس الوزراء السوفيتي آنذاك « نيكيتا خروتشيف » معونات عسكرية من شأنها أن تصد أي هجوم أمريكي محتمل ، وبالفعل أرسل « خروتشيف » أسلحة نووية إلى كوبا ، تسببت لاحقا في أزمة بين واشنطن وموسكو في ١٩٦٢ .

وفي أوروجواي ، تعود السياسات الاشتراكية إلى وقت مبكر ، وبالتحديد إلى سنة ١٩١١ ؛ إذ كانت الطاقة الكهربائية والهاتف والسكك الحديدية ومصافي البترول ، مملوكة للدولة . ومع ذلك ، فقد تمتع أهالي أوروجواي بمستوى معيشي مرتفع نسبيا ، إلى أن تأثرت البلاد بالفيضانات والمجاعة وارتفاع معدل التضخم في مطلع الستينيات . وظهرت في ١٩٦٣ حركة « توبا ماروس » ، التي اعتبرت الكاسترووية خيرا من الماركسية للعالم الثالث .

وفي الأرجنتين ، سيطرت البيرونية – نسبة إلى « خوان بيرون » رئيس الأرجنتين الأسبق – على الساحة السياسية أغلب سنوات النصف الثاني من القرن العشرين ، معتمدة على مبادئ العدالة الاجتماعية ، والسيادة الوطنية على الاقتصاد . وفي ١٩٦٨ ، وقع انقلاب عسكري في بيرو أسقط الرئيس « فرناندو تيري » ، ونفذ القادة العسكريون سياسات اشتراكية شملت تأميم البترول ، وفي السنة نفسها تسلم السلطة في بنما الجنرال التقدمي « عمر توريخوس » ، الذي استحدث إصلاحات مهمة ،

بينما تولت حكومة إصلاحية تحت قيادة « فيكتور باز إستنسورو » تأميم المناجم وتحسين أوضاع المواطنين في بوليفيا خلال الفترة بين ١٩٥١-١٩٦٤ .

غير أن الانقلابات العسكرية ، وتبدل التحالفات ، أديا إلى تقهقر الحركة اليسارية في أمريكا اللاتينية تباعا ، فظهرت الحكومة اليمينية في بوليفيا وتشيلي ، وانهارت « توبا ماروس » في أوروجواي ، وظهر الجنرال « مانويل أنطونيو نورييجا » في بنما . . إلخ . ولقد شهدت السنوات بين ١٩٧١-١٩٧٨ فترات عصيبة وتقلبات غريبة في التوجهات السياسية للسلطة في عديد من دول القارة اللاتينية . ففي بوليفيا شهدت البلاد أسوأ فترة تعذيب واعتقالات خلال حكم الدكتاتور « هوجو بانزر » ، وهي الفترة التي شهدت أيضا تربع الجنرال « بينوشيت » على جثث أبناء تشيلي . وشهدت الأرجنتين مصرع عشرات الألوف على يدي الجنرال « خورخي فيديلا » ، الذي كانت لعبته المفضلة إلقاء المعتقلين أحياء من الطائرات إلى المحيط ، ليكونوا طعاما للأسماك المتوحشة .

وفي سنة ٢٠٠٠ ، عاد « بينوشيت » إلى بلاده بعد إفلاته من السجن في أوروبا ؛ عقابا له على جرائم اتهم بارتكابها خلال حكمه الدكتاتوري الذي استمر ١٧ سنة ، بينما فشل انقلاب أبيض شارك فيه عسكريون في الاحتفاظ بالسلطة في الإكوادور في ٢١ يناير ٢٠٠٠ ، بعد عزل الرئيس المكروه بشدة ، « جميل معوض » .

وفي ٢ يوليو ٢٠٠٠ انتخب « فيشنتي فوكس كيسادا » (٥٨ سنة) المدير السابق لشركة كوكاكولا ليصبح الرئيس رقم ٦٢ للمكسيك ، في خطوة أنهت سيطرة الحزب الثوري التأسيسي على مقاليد الحكم في المكسيك لمدة ٧٩ سنة .

وأدى التطور الدراماتيكي من مرحلة الستالينية إلى مرحلة الجورباتشيفية -إن صح التعبير- إلى وقوع بركان سياسي ، تبلور في سنة ١٩٨٩ في صورة انهيار أركان الكتلة الشرقية ، ونشوب ثورات دول شرقي أوروبا تباعا طوال سنة ١٩٨٩ ، ثم سقوط سور برلين في نوفمبر من السنة نفسها ، وإتمام الوحدة الألمانية في صيف ١٩٩٠ ، وحل حلف وارسو بعد قمة مؤتمر الأمن والتعاون الأوروبي في باريس في نوفمبر ١٩٩٠ التي أعلنت انتهاء الحرب الباردة .

هل بقي إذًا من الشيوعية شيء؟ الإجابة الموضوعية تؤكد أن الشيوعيين السابقين تعلموا من الدرس ، وبعضهم تولى الحكم في جمهوريات سوفيتية سابقة مثل جورجيا (إدوارد شيفاردنادزه وزير الخارجية السوفيتي في عهد جورباتشيف) . كما أن زعيم الحزب الشيوعي الروسي في نهاية القرن العشرين « جينادي زيوجانوف » اعتبر منافسا قويا للرئيس الروسي السابق « بوريس يلتسين » ، عبر صناديق الاقتراع وداخل البرلمان .

وإذا كانت فرنسا قد شهدت عبر جمهورياتها المتلاحقة لعبة الكراسي الموسيقية مابين اليمين واليسار ، ومابين الجنرال « شارل ديجول » والرئيس الاشتراكي « فرانسوا ميتران » الذي توفي بعد تركه السلطة متأثرا بإصابته بالسرطان ، فإن فرنسا التقت في نهاية القرن عند معادلة رئيس يميني (چاك شيراك) أو « البلدوزر » كما يطلقون عليه ، ورئيس وزراء اشتراكي (ليونيل جوسبان) . وبينهما يبرز اسم « چان ماري لوبن » زعيم اليمين المتطرف ، الذي يرفع شعارات معادية للمهاجرين العرب والأجانب .

« فرانكو » بلغ رتبة جنرال وهو في سن الثالثة والثلاثين ، وعندما تولى يمين الوسط مقاليد الحكم في إسبانيا سنة ١٩٣٤-١٩٣٥ ، استدعي لإخماد ثورة يسارية ، وعين رئيسا للأركان العامة . وحين عاد اليسار شبه الثوري إلى الحكم في مطلع ١٩٣٦ ، أرسل « فرانكو » إلى جزر الكناري الإسبانية ، وكان «فرانكو» نصيرا - متأخرا نوعا ما - للحركة العسكرية اليمينية التي قامت ضد اليسار في يوليو ١٩٣٦ . وفشل الانقلاب ، لتنشب حرب أهلية استمرت ثلاث سنوات . وسرعان ما برز كشخصية رئيسة إلى جانب « القوميين » ضد اليساريين ، وظل « فرانكو » رئيسا لإسبانيا من ١٩٣٦ حتى وفاته في ١٩٧٥ .

وبعد نضال طويل ومرير ضد الغزاة وجيش « التشكنيك » اليميني بقيادة العقيد « ميخائيلوفيتش » ، انتصر جيش الأنصار بزعامة « جوزيب بروز تيتو » (١٨٩٢-١٩٨٠) ، وأقيمت دولة اشتراكية في يوجوسلافيا في نوفمبر ١٩٤٥ . أقام « تيتو » نظامه في البداية على نمط أقره الدكتاتور السوفيتي « ستالين » ، لكن الروس أخذوا يلاحظون تدريجيا أن « تيتو » يعتمد على حب مواطنيه أنفسهم ، وبالتالي لم يكن يعتمد على موسكو ، فحاولوا عزله داخل الحركة الشيوعية العالمية وإسقاطه .

ورد « تيتو » على ذلك بقطع كل صلة بنظام « ستالين » وحلفائه في أوروبا الشرقية والصين . وبعد وفاة « ستالين » أعاد الزعيم السوفيتي « خروتشيف » العلاقات الطبيعية مع يوجوسلافيا ، بينما شهدت السنوات الأخيرة من عهد « تيتو » دورا بارزا ليوجوسلافيا ضمن حركة عدم الانحياز . وبعد وفاة الزعيم الشيوعي « تيتو » في ٤ مايو ١٩٨٠ ، تفككت يوجوسلافيا وبدأت تغير جلدها تماما .

شيوعية خاصة

كذلك قاد « أنورخوجة » ألبانيا نحو شيوعية من طراز خاص ؛ إذ كان شيوعيا متشددا ، وقد خاب أمله في الدول الشيوعية -بما في ذلك الاتحاد السوفيتي- واحدة بعد الأخرى ، وابتعد عنها عندما تبنت سياسات أكثر تحررا من وجهة نظره . والتزم «خوجة» (١٩٠٨-١٩٨٥) حتى وفاته بسياسة « ألبانيا المنيعة » أي سياسة اعتماد ألبانيا على نفسها . وبعد رحيله واصل نهجه الرئيس « رامز عليا » ، ولكن ألبانيا الفقيرة تخلت عن شيوعيتها في التسعينيات ، وبدأت تنفتح ببطء على العالم الخارجي . وفي السنوات الأخيرة من العقد العشرين ، أصبحت الراديكالية سمة شائعة فى المجتمعات الغربية المعاصرة ، حتى إن الصحفي الأمريكي « توم وولف » استحدث مصطلح «الشياكة الراديكالية » ، مشيرا بها إلى انتشار موضة تبنى وجهات نظر راديكالية ويسارية بين مفكري الطبقة الوسطى في المجتمعات الغربية ، كأحد أساليب تحقيق صعود يعتد به للسلم الاجتماعي ، وربما إلى السلطة أيضا !

الطائفية التي كانت وبالا على العالم خلال القرن العشرين ، ووضعت لها أطر تشريعية في بعض الأحيان لاحتوائها وتنظيمها على مستوى توزيع السلطة كما هي الحال في لبنان ، كانت حاضرة بقوة في أكثر من دولة أو حدث سياسي .

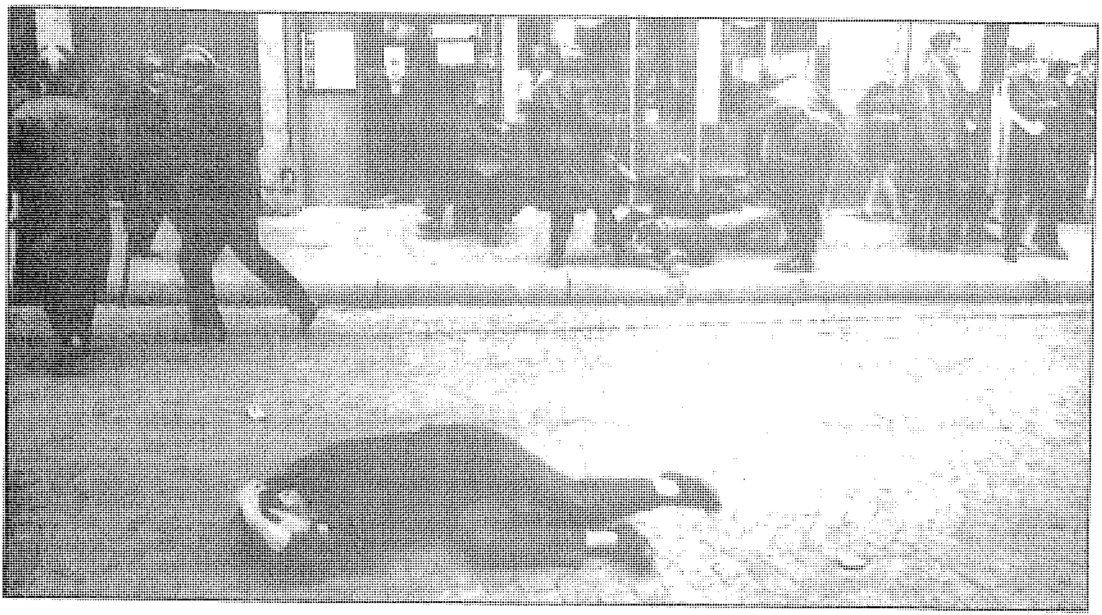
تعد الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية التي ظهرت في أوروبا عقب الحرب العالمية الثانية بدورها نموذجا لمفهوم الطائفية ؛ إذ إنها تكونت أساسا للاعتراض على الأوضاع السائدة ، وتأسست على مثاليات عليا . لكن النجاح الذي حققته تلك الأحزاب على المستويين الشعبي والرسمي أفقدها حماسها لمثالياتها ، فوقعت في فخ التوفيق ومن ثم

التنميط ، فكان أن بدأت دورة جديدة من حركات معارضة لتلك الأحزاب مثل جماعة « سبارتاكوس » في ألمانيا .

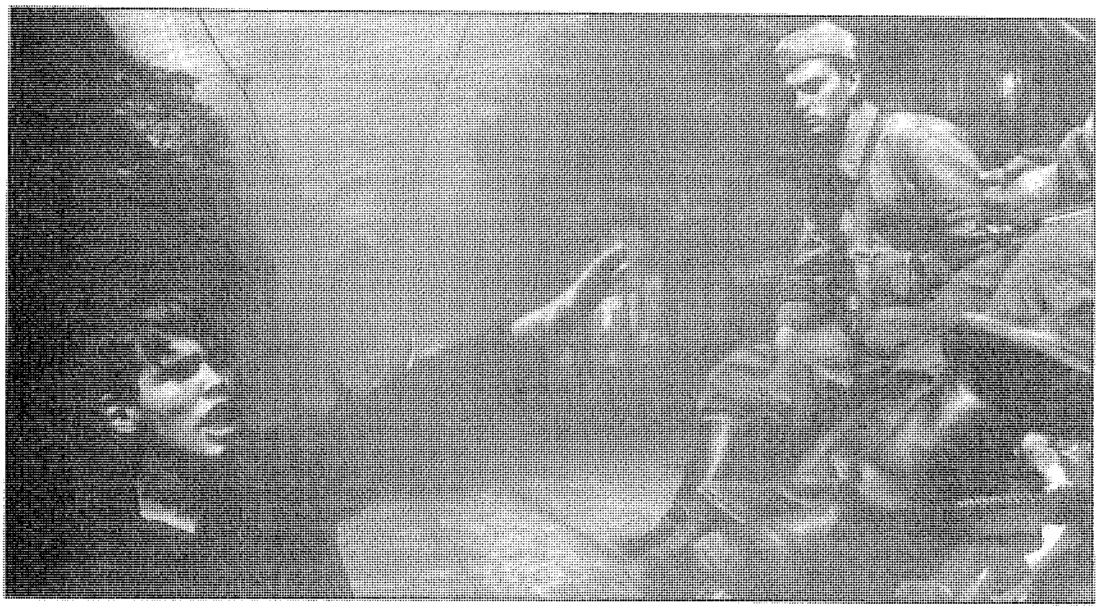
وفي يوجوسلافيا السابقة ، بدأت موجة الطائفية تسود خلال عقدي الثمانينيات والتسعينيات ، وأصبح لها رموز مثل الرئيس الصربي « سلوبودان ميلوسيفيتش » -الذي أسقطه الشعب أخيرا في أكتوبر ٢٠٠٠ ، ثم قدم للمحاكمة أمام محكمة لاهاي الدولية كمجرم حرب في يونيو ٢٠٠١- وزعيم صرب البوسنة « رادوفان كاراجيتش » (١٩ يونيو ١٩٤٥-) ، والجنرال السفاح « راتكو ملاديتش » ، وجميعهم من مجرمي الحرب ، الذين ارتكبوا المذابح والفظائع ضد مسلمي البوسنة وألبان كوسوفا ، خلال العقدين الأخيرين من القرن العشرين .

أما في إسرائيل ، فإن تجربة اليسار التي حملت معها أسماء مثل « شيمون بيريز » و« إسحق رابين » و« إيهود باراك » ، وتجربة اليمين التي قادت إلى السلطة أسماء مثل « إسحق شامير » و« بنيامين نيتانياهو » ، تشير إلى عدم وجود اختلافات واضحة بين المعسكرين السياسيين ، باستثناء أن رجلا مثل « نيتانياهو » اختار سياسة قتل السلام في الشرق الأوسط ، بينما فضل خليفته في السلطة « باراك » - بالتواطؤ مع السفاح « أريبل شارون » الذي اقتحم ساحة الحرم الشريف في سبتمبر ٢٠٠٠ ليشعل انتفاضة الأقصى-الموت البطئ للسلام !

* * *



باريس ساحة حرب خلال مظاهرات الطلبة



طالب تشيكي يتظاهر ضد الجنود السوفييت في سنة ١٩٦٨

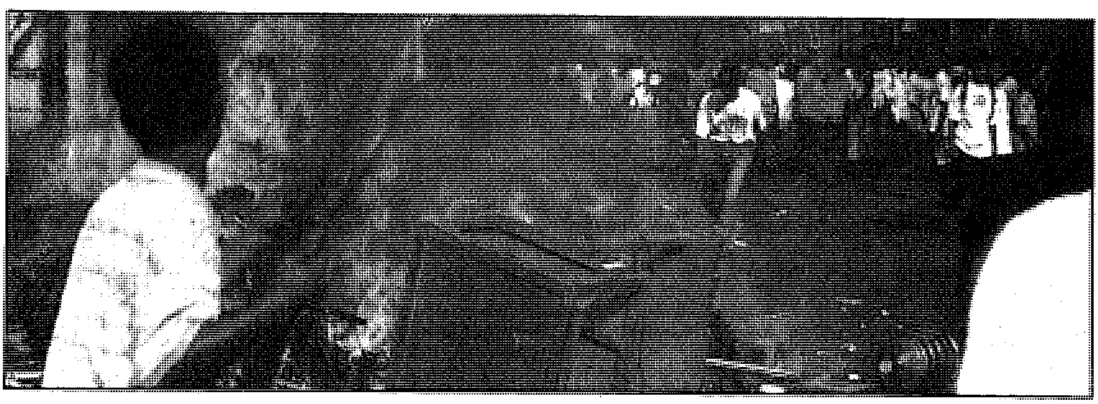
31

فتش عن الطلبة

داخل الفصول الدراسية وقاعات المحاضرات ، ينمو شيء آخر غير العلم والمعرفة والصداقة بين الزملاء . . إنه التمرد والرغبة في التغيير ، وإعادة صياغة كل شيء وأي شيء .

الطلاب في خلال القرن العشرين هم الذين قادوا الثورة في فرنسا في مايو ١٩٦٨ ، وفي « ربيع براغ » ضد القوات الروسية في السنة نفسها ، وهم الذين أسهموا في سقوط جدار برلين في نوفمبر ١٩٨٩ .

هؤلاء هم الذين يقودون دوما رياح التغيير ، حتى وإن كان ذلك للأسوأ حين كانوا وقود الفاشية في إيطاليا منذ العشرينيات ، والنازية في ألمانيا في الثلاثينيات !



« فصل ١٩٩٨ » أسقط سوهارتو دكتاتور إندونيسيا

حتى اليوم يشير الفرنسيون إلى « جيل ٦٨ » للدلالة على قوة وقدرة الشباب - وبخاصة الطلاب - على تحدي السلطة . . هذا الجيل الذي كرهه المحافظون وأعلى من شأنه اليسار في فرنسا ، كان مجرد رمز لثورة وتمرد الأجيال الجديدة في كل مكان : من إيطاليا ، إلى ألمانيا الغربية سابقا ، وبريطانيا ، وحتى إسبانيا الفاشية ، وبولندا الشيوعية ، وتشيكوسلوفاكيا .

وفي الأسبوع الأول من شهر مايو سنة ١٩٦٨ شهدت فرنسا أسوأ معارك شوارع منذ تحريرها في ١٩٤٤ ، بل إن نحو ٣٠ ألف طالب احتجزوا داخل الحرم الجامعي في ٦ مايو ١٩٦٨ بأوامر من عميد السوربون « چان روش » ، واجهوا القنابل المسيلة للدموع التي أطلقتها عليهم قوات مكافحة الشغب ، بإقامة المتاريس وإلقاء الزجاجات الحارقة ورص الحجارة فوق بعضها البعض لعرقلة السير . بدأت جذور المواجهة قبل ذلك التاريخ بنحو شهرين ، ففي ٢٠ مارس ١٩٦٨ ، ألقي القبض على ستة طلاب عقب تنظيم مظاهرة معادية للوائح الجامعية الجامدة ، والحرب الأمريكية في فيتنام . وفي اليوم التالي بدأ اعتصام جماعي في حرم جامعة نانتير . وفي ٣ مايو قامت قوات الشرطة - التي اتهمت بالعنف والوحشية مما أثار ضدها الطلاب - بإجلاء الطلاب عن حرم الجامعة ، الذين كان يقودهم « دانييل كون- بيندي » ، وكانوا يرفعون شعارات من عينة « أيتها الثورة . . إنني أحبك » و« الحظر ممنوع » .

تحول الحي اللاتيني بدوره إلى ساحة قتال في السادس من مايو ، وتركز التوتر حول ميدان سان چيرمان ، حيث أصيب ما يقرب من ألف شخص ، من بينهم ٣٤٥ رجل شرطة هاجمتهم « فرق الكوماندوز » التي شكلها الطلبة . وفي ٧ مايو أخذت حشود الطلاب تردد هتافات وأناشيد شيوعية قرب قوس النصر ، لتشتعل حدة المواجهات التي ساند فيها العمال الطلبة لتصاب فرنسا بالشلل التام . وبعد أن أصبح عدد المشاركين فى الإضراب مليوني شخص ، وفي ١٩ مايو ١٩٦٨ ، عاد الرئيس الفرنسي « شارل ديجول » من زيارة رسمية إلى رومانيا ، وقال في خلال اجتماع طارئ للحكومة الفرنسية : « نعم للإصلاحات . . لا للتخريب » .

وفي ٣٠ مايو أعلن « ديجول » - تحت ضغوط شديدة تطالب باستقالته - أنه لن يستقيل من منصبه الرئاسي ، ولن يقيل رئيس وزرائه « چورچ بومبيدو » ، مؤكدا أن

فرنسا مهددة بحركة دكتاتورية شيوعية غير مشروعة . وسرعان ما منح «ديجول» أجهزة الأمن صلاحيات أوسع لقمع مظاهرات الطلبة ، وفرض قيودًا اقتصادية لمنع هروب الأموال من فرنسا ، ثم حل الجمعية الوطنية « البرلمان » ، ودعا إلى انتخابات عامة .

منح الناخبون ديجول وحزبه فوزا مريحا عبر صناديق الاقتراع ، في حين انخفض عدد مقاعد الشيوعيين واتحاد اليسار في البرلمان إلى النصف . وفي المقابل ، أعاد الطلاب إقامة المتاريس من هياكل السيارات المحترقة وإشعال النيران فيها ، وهم يهتفون « الانتخابات خيانة » !

وحين انتهت تلك الموجة من الاحتجاجات التي شارك فيها ثلاثة ملايين طالب وعامل على ضفاف نهر السين ، كان الطلاب يتفاخرون بأنهم « حرروا » يوما الحي اللاتيني ، وبأن الرئيس « ديجول » اختفى في بادن-بادن ليضمن لنفسه ولاء الجيش ، وبأنهم حاصروا الشانزليزيه حين أراد « ديجول » إصدار أوامر بإطلاق الرصاص على المتظاهرين ، إلا إن ما أفشل مسعاه أن قواته تذكروا أن أبناءهم موجودون وسط هؤلاء المتظاهرين .

كانت ثورة الطلاب في « سنة المتاريس » من أكثر الثورات عنفا في تاريخ فرنسا والغرب منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية ، حيث كانت أشبه بثورة أخلاقية نظمها «اليسار الجديد » رفضًا للطابع الاستهلاكي الذي غرق فيه المجتمع ، مما دفعهم للتمرد على كل سلطة حكومية كانت أو أبوية .

وفي « ربيع براغ » أو المواجهة الدامية بين الشعب التشيكي والقوات الروسية الغازية في أواخر ١٩٦٨ ، برز دور الطلاب بقوة . فقد تصدى الطلاب للدبابات الروسية لدعم السياسات الإصلاحية في تشيكوسلوفاكيا ، وفي يونيو ١٩٦٩ أعلن عن حل اتحاد الطلبة ، ليثور هؤلاء الطلبة على الرغم من القمع الشديد الذي تعرضوا له .

وتكرر سيناريو مشابه في « أكتوبر البولندي » في ١٩٥٦ ، وفي الانتفاضة المجرية في السنة نفسها . والشيء المؤكد أن الطلاب كانوا في طليعة المتظاهرين ، الذين قادوا حمى التغيير في أنحاء شرقي أوروبا بعد سقوط الشيوعية ، وقد كانوا أصحاب أكثر نسبة من المعاول التي أسقطت جدار برلين في ٩ نوفمبر ١٩٨٩ .

وفي ١٩٦٨ أيضا احتل الطلاب مكاتب رئيس جامعة كولومبيا في نيويورك ، وتصرفوا كما لو أنهم اقتحموا البيت الأبيض ، احتجاجًا على الحرب الأمريكية في فيتنام ، وسرعان ما بادر « هنري كيسنجر » ، داهية السياسة الأمريكية في النصف الثاني من القرن ، العشرين للبحث عن مخرج سريع يعيد الجنود الشباب إلى بلادهم . اكتسبت الحركات الطلابية الأمريكية قوتها من حركة الحقوق المدنية في الستينيات ، حين تدفق الآلاف من الطلبة إلى الجنوب للانضمام إلى السود في المظاهرات السلمية التي دعا إليها داعية الحقوق المدنية « مارتن لوثر كنج » . وعلى الرغم من أن الطلبة المشاركين في تلك المظاهرات كانوا يتسمون بالتلقائية ، ويرفعون شعارات مثالية ، فإنهم أدركوا خلال هذه المظاهرات مدى قدرتهم على التأثير في القرار السياسي .

وربما كانت المظاهرات في الجامعات الأمريكية - مثل كولومبيا وبرينستون - فرصة مهمة لتأكيد الموقف السياسي للطلاب ، سواء ضد الحرب في فيتنام أو استخدام الموارد العلمية بالجامعات في الأبحاث العسكرية الأمريكية . وفي ١٥ أكتوبر ١٩٦٩ نظم شباب الجامعات الأمريكية أضخم مظاهرة احتجاج ضد الحرب الفيتنامية ، شارك فيها أعضاء من الكونجرس وبعض رجال الأعمال . وقد قام آلاف الطلاب في مختلف الولايات الأمريكية بزيارة المنازل ، مرددين عبارة « جئنا لزيارتكم قبل أن نموت في فيتنام » !

سقوط الطاووس

وفي إيران ، كان سقوط عرش الطاووس في يناير ١٩٧٩ مستغربًا ، ولكنه كان حتميا .. مستغربا لأن الشاه « محمد رضا بهلوي » حكم دون معارضة مستمرة لمدة ٢٥ سنة ، وكان لديه جيش قوامه ٤٠٠ ألف رجل ، وكانت لديه أجهزة أمن فعالة ، ودخل اقتصادي ضخم من عائدات النفط ، وكان لديه بوليس سري خطير «السافاك» . لكن السقوط كان حتميا لأن سياساته صارت مرفوضة شعبيا ، وبالتالي ابتعد عنه الفلاحون ، وعلماء الدين ، والطبقة الوسطى ، والطلبة .

بدأت بوادر المعارضة للشاه تظهر في ١٩٧٧ ، فانفجرت الكراهية المكبوتة ، واشتعل الغضب فى أنحاء إيران ، لكن الشاه أمر الجيش والشرطة بسحق المعارضين . وفي يناير ١٩٧٨ نظم طلبة المعهد الديني في مدينة « قم » مظاهرات عنيفة فى الشوارع

تأييدا لـ « للخميني » ، فأطلقت الشرطة النيران عليهم وقتلت عددا منهم . وبعد ٤٠ يوما تكررت المظاهرات وحوادث القتل .

وفي سبتمبر وقعت المظاهرات في طهران ، فأعلن الشاه الأحكام العرفية . وما إن حل ٨ سبتمبر ١٩٧٨ حتى أطلقت الشرطة النيران على حشد من المتظاهرين في ميدان جالة ؛ مما أدى إلى مقتل المئات من الطلاب والشباب . أطلق على هذه المذبحة اسم « يوم الجمعة الأسود » ، واتخذ الميدان ومشهد الشهداء كنقطة انطلاق لجميع المظاهرات .

تولى الطلاب ترويج الدعاية الثورية لـ « الخميني » داخل الجامعات وفي أوساط الشعب ، وكانوا ينقلون تعليمات ورسائل « الخميني » ، التي تصل يوميا من ضواحي باريس إلى طهران . ونتيجة مظاهرات الطلاب والعمال ، هرب الشاه من إيران في ١٦ يناير ١٩٧٩ ، بينما عاد « الخميني » إلى طهران ، وأعلن في ١١ فبراير ١٩٧٩ قيام «الجمهورية الإسلامية » . وحين شعر الطلاب الإيرانيون بالغضب للجوء الشاه المخلوع إلى الولايات المتحدة ، وتخوفوا من الأنباء التي ترددت حول مساعدة واشنطن للشاه المعزول للقيام بثورة مضادة ، اقتحم نحو ٤٠٠ طالب من الموالين لـ « الخميني » السفارة الأمريكية في طهران في ٤ نوفمبر ١٩٧٩ ، واحتجزوا ٥٣ رهينة مطالبين بتسليم الشاه .

كان هؤلاء الرهائن سلاحا قويا لدى الطلاب الثائرين . وفي لحظة من الإهمال سمحت السفارة الأمريكية لملفاتها بالوقوع في أيدي المحاصرين ، وبدأ الطلاب في تجميع المستندات التي تحويها تلك الملفات ، ليتم الكشف عن - وإلقاء القبض على - عديد من السياسيين ، الذين كانوا يتعاملون مع الأمريكيين قبل الثورة ، وجرى إعدام بعضهم .

ونتيجة أزمة احتجاز الرهائن على مدى ٤٤٤ يوما ، تم تجميد الأرصدة الإيرانية في الولايات المتحدة ، وفرض حظر على واردات البترول الإيرانية ، وتسببت تداعيات هذا الحصار في فوز المرشح الجمهوري « رونالد ريجان » على الرئيس الأمريكي « جيمي كارتر » مرشح الحزب الديمقراطي في انتخابات الرئاسة الأمريكية ، التي أجريت سنة ١٩٨٠ . وتم أخيرا الإفراج عن الرهائن في ٢٠ يناير ١٩٨١ .

ولكن الثورة الإيرانية دارت دورة شبه كاملة ، ليعود الطلاب منذ منتصف عقد التسعينيات ليقودوا مسيرة الاعتداء . وفي يوليو ١٩٩٩ تظاهر الطلاب ضد قرار مجلس الشورى الإيراني الخاص بإغلاق صحيفة « سلام » الليبرالية ، مما اعتبره الطلاب تقييدا لحرية الرأي والتعبير ، ونكوصا عن المسيرة الديمقراطية . وعلى الرغم من اقتحام قوات الشرطة الحرم الجامعي في طهران ، فإن الطلاب الإيرانيين واصلوا المطالبة بالإصلاح السياسي . طلاب آخر سنوات القرن العشرين في إيران أكثر اعتدالا وانفتاحا على العالم الخارجي ، حيث كانوا الجسر الذي أوصل « محمد خاتمي » إلى منصب الرئاسة في إيران في ٢٣ مايو ١٩٩٧ .

وفي أفغانستان ، ظهرت حركة « طالبان » لأول مرة في ٣ نوفمبر ١٩٩٤ ، وتردد اسم حركة طلاب وخريجي المدارس الدينية لأول مرة فى وسائل الإعلام ؛ بعد إنقاذها لقافلة المساعدات الباكستانية لسكان هرات وقندهار ، التي كان قد أوقفها القائد الميداني « منصور أغا » التابع لجماعة جيلاني ، وسرعان ما بدأت مسيرة « طالبان » لبسط سيطرتها على معظم الأراضي الأفغانية ، حتى إن الحركة بزعامة « الملا محمد عمر » وصلت الى مشارف العاصمة كابول بعد ثلاثة أشهر فقط ، وذلك في ٤ فبراير ١٩٩٥ ، بعد إحكام سيطرتها على مناطق نفوذ « قلب الدين حكمتيار » . رجال « طالبان » أو طلاب المدارس الدينية استولوا على كابول في ٢٧ سبتمبر ١٩٩٦ ، وأعدموا في ليلة دخولهم العاصمة كابول الرئيس الأفغاني السابق « نجيب الله » المعروف بموالاته لموسكو .

وحين انتهى القرن العشرون ، كانت «طالبان» تسيطر على أكثر من ثلثي الأراضي الأفغانية ، وتحارب على أكثر من جبهة ، أبرزها ضد قوات « أحمد شاه مسعود » ، وقوات حزب « الوحدة » الشيعي الذي أعلنت « طالبان » عن مقتل زعيمه « عبد العلي مزاري » في غربي كابول في ١١ مارس ١٩٩٥ . أما على الصعيد الداخلي ، فإن طلاب وخريجي المدارس الدينية الذين يسيطرون على حركة « طالبان » منعوا التليفزيون والفيديو وتعليم البنات ، وعاقبوا من يحلق اللحية ، أو من تخرج سافرة .

ولاينسى أحد مظاهرات الطلاب للمطالبة بالديمقراطية في ميدان تيان آن مين أو « السلام السماوي » في العاصمة الصينية بكين ؛ فهذه المظاهرات التى بدأت في إبريل

١٩٨٩ لتأييد زعيم الحزب الشيوعي الأسبق « هوياو بانج » ، ثم تحولت إلى مظاهرات حاشدة تطالب بالديمقراطية ، لفتت أنظار العالم أجمع . وبفضل الطلبة وجهودهم المحمومة ضد قبضة الحزب الشيوعي الصيني ، تم حشد العمال والموظفين والمفكرين للانضمام إلى صفوفهم والمطالبة بالتغيير الجذري للممارسات الديمقراطية في الصين .

لكن السلطات الصينية لجأت إلى لغة القمع ، وأجبرت الطلاب على مغادرة الميدان ، ومازالت الصورة الشهيرة لشاب أعزل يتحدى دبابة في قلب هذا الميدان نموذجا لروح الثورة والتمرد ، لدى طلاب الصين في وجه القبضة الحديدية لحكومة بكين .

وإذا كانت نهاية الستينيات قد شهدت موجة من الاحتجاجات الطلابية ، اجتاحت أوروبا واليابان والولايات المتحدة ، ثورة على القوانين الجامعية والحرب الفيتنامية والقيم المادية ، فإن دور الطلبة غير منكور في إسقاط نظام حكم سوهارتو في إندونيسيا ، وإجباره على أن يقول في خطاب استقالته بعد ٣٢ سنة في الحكم : « إنني أسألكم المغفرة إذا حدثت مني أي أخطاء » . وإذا كان البعض يقول إن قوة الشعب هي التي أسقطت سوهارتو ونظام حكمه الفاسد ، فإن الأصح أن يقال إن الطلاب أو «فصل ١٩٩٨ » كما أطلق عليهم ، هم الذين أجبروا السلطة في إندونيسيا على قبول التغيير .

ومثلما خرج الطلبة الإندونيسيون في ١٩٦٨ للاحتجاج على النظام ، فقد تدفقوا على الشوارع بدءا من ١٢ مارس حتى ١٢ إبريل ١٩٩٨ ؛ احتجاجا على نظام «سوهارتو» وسياسة رفع الأسعار . وفي ٢٣ إبريل وقعت مواجهة دامية في جزيرة بالي ومدينة ميدان بين الطلبة وقوات الشرطة ؛ لتتصاعد وتيرة المصادمات خلال شهر مايو ، ولتقتل قوات الأمن ستة طلاب في جامعة تريسكاتي في ١٢ مايو . وبعد يومين فقط لقي ٥٠٠ شخص مصرعهم بسبب المظاهرات في جاكرتا ضد « سوهارتو » ، الذي أجبر على الاستقالة نزولا على رغبة الشعب في الإصلاح والتغيير .

وفي ماليزيا ، خاض المتظاهرون - وأغلبهم من الطلاب - معركة ضد حكومة « محاضر محمد » رئيس الوزراء ، تأييدا لنائبه السابق « أنور إبراهيم » ، الذي حكم

عليه في ٨ أغسطس ٢٠٠٠ بالسجن لمدة تسع سنوات، بعد إدانته باتهامات مثيرة للجدل بالفساد المالي والأخلاقي .

وفي ٩ ديسمبر ١٩٨٧ هبت رياح الانتفاضة من قطاع غزة لتمتد إلى أنحاء الضفة الغربية لتهتز الأرض تحت أقدام سلطات الاحتلال الإسرائيلية ـ وهكذا تمكن الصبية وصغار الشبان - ومعظمهم من طلاب المدارس والجامعات - من إثارة الذعر في صفوف الحكومة والقوات الإسرائيلية ، وتصدوا بالحجارة لجنود الاحتلال وهم يستخدمون الذخيرة الحية والطلقات المطاطية وبعض الأسلحة المحرمة دوليا . ولم تفلح سياسة « إسحق رابين » - وكان وزيرا للحرب فى الحكومة الإسرائيلية آنذاك- التي حملت مسمى « تكسير العظام » في إسكات ثورة الشباب في أنحاء الأراضي المحتلة .

ودخل الشباب والطلاب الفلسطينيون بشكل شبه يومي في معارك شوارع مع القوات الاسرائيلية ، التي كانت تطلق النار على المتظاهرين ، وتحرق المنازل ، وتقطع الأشجار ، وتغلق الأسواق ، وتعتقل وتصيب هؤلاء الشباب ، دون أن تنال من عزيمتهم .

وفي مصر ، كان الطلاب هم وقود ثورة ١٩١٩ ، وهم الذين تصدوا للاحتلال البريطاني مطالبين بالاعتراف بمصر دولة مستقلة ذات سيادة . وانتهت مظاهرة ٩ مارس ١٩١٩ باعتقال نحو ٣٠٠ طالب ، واستخدمت قوات الاحتلال الرصاص ضد المتظاهرين في ١٠ مارس ، لكن الثورة امتدت إلى أنحاء مصر ، في حين خطا الطلاب - بفدائيتهم ومظاهراتهم ودورهم في توعية المجتمع بأهمية الاستقلال بالحركة الوطنية- خطوة مهمة . وأدت العمليات الفدائية الناجحة التي نفذها الطلاب ضد الانجليز والمتعاونين مع الاحتلال إلى إزعاج المحتل ، ودفعه للتفكير في حمل عصاه والجلاء عن مصر .

ويشير المؤرخون إلى أن الطلبة والمثقفين هم أول من استجاب لنداء الثورة ، وتبعتهم الطبقة العاملة . ثم انتقلت الثورة إلى الفلاحين في القرى بعد ثلاثة أيام فقط دون تخطيط أو تدبير .

بل إن الطلاب في مصر كشفوا عن رغبة فى تنظيم صفوفهم إلى حركة عامة منذ فبراير ١٩٠٦ ، حين نظم نحو ٢٧٥ طالبا اجتماعا في حديقة الأزبكية ، وقدموا تسعة مطالب للمسئولين عن إحدى المدارس العليا .

كما شكل الطلاب جمعيات للعمل الوطني ، وقد وقعت محاولة لإطلاق النار على الخديو « عباس حلمي الثاني » في الأستانة ، وفشلت محاولتا اغتيال السلطان « حسين كامل » في ٨ إبريل ١٩١٥ وفي ٩ مايو ١٩١٥ ، تعبيراً عن رفض الطلاب للحماية البريطانية على مصر .

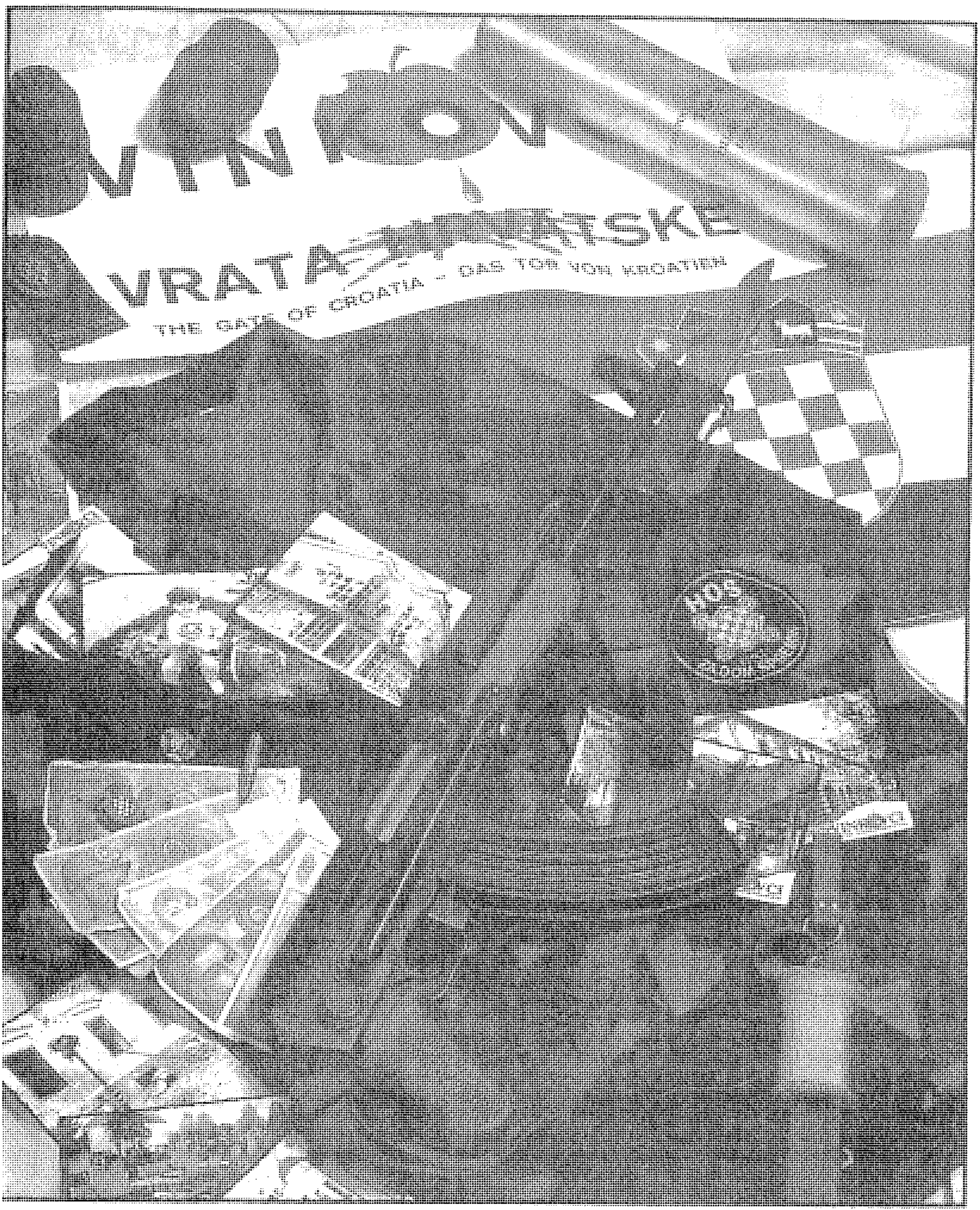
وبرز دور الطلاب في انتفاضة ١٩٣٥ الطلابية التى جاءت احتجاجا على تصريح وزير الخارجية البريطاني هور ، الذي كشف عن حقيقة الموقف البريطاني من تطلعات الحركة الوطنية المصرية . ولعب الطلاب دورا خطيرا في أحداث ١٩٤٦ ، إذ كانت الانتفاضة الطلابية آنذاك ثورة ضد الانجليز والموالين لهم ، مهدت ضمن أسباب أخرى لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

وفي فبراير ونوفمبر ١٩٦٨ انفجرت مظاهرات الطلبة احتجاجا على الأحكام الهزيلة ضد القادة المتسببين في هزيمة يونيو ١٩٦٧ ، وكانت أول مظاهرة معارضة منذ ثورة يوليو ١٩٥٢ ، وقد امتدت من جامعة القاهرة إلى بقية جامعات مصر ، وتعرضت للقنابل المسيلة للدموع في الشوارع ، وهو مشهد تكرر في مظاهرات الطلبة في السبعينيات .

ولا يمكن أن نغفل مظاهرات الطلبة المصريين في السنوات الأخيرة من القرن العشرين ، احتجاجا على العدوان الإسرائيلي المتكرر ضد الشعب الفلسطيني الأعزل ، مطالبة بموقف عربي وإسلامي موحد تجاه قوى البطش الظالمة . وكذلك المظاهرات التي قام بها طلاب جامعة الأزهر سنة ٢٠٠٠ ، احتجاجًا على إعادة نشر وزارة الثقافة المصرية رواية « وليمة لأعشاب البحر » للروائي السوري « حيدر حيدر » .

إن هذه المواقف القوية والثورية - وأحيانا المندفعة - تؤكد أن الطلبة ، على اختلاف أجناسهم ، بل واختلاف الأهداف التي يسعون إلى تحقيقها ، كانوا لاعبًا رئيسًا لا يستهان به في حسابات السياسة وقادتها .

* * *



المال والسلاح أهم ما يشغل بال المرتزقة

32

بندقية للإيجار

« جنود المال » ، « الأوز البري » ، «بنادق للإيجار » وغيرها من المسميات والألقاب تطلق على المرتزقة ، الذين لايتعدون كونهم «قتلة مأجورين» أو«كلاب حرب» على حد وصف الكاتب البريطاني «تيم ريبلي » .

هؤلاء الجنود المأجورون يأتون عادة من دول غربية ، ليخوضوا بالوكالة حروب الآخرين - وهم عادة من دول العالم الثالث - طمعا في المال بشكل أساسي .

وفي تلك الحروب ، يرتكب المرتزقة عادة المذابح والمجازر الوحشية حتى ضد المدنيين الآمنين . إن هؤلاء المرتزقة الذين ينضمون إلى قوات أو جيوش أجنبية بمقابل



تدريبات شاقة يخضع لها الجنود المرتزقة



مرتزقان بريطانيان خلال حرب البوسنة

مادي ، لهم في بعض الأحيان دوافع غريبة لخوض الحروب ، من بينها تأييد أيديولوجيات معينة ، أو روح المغامرة والبحث عن الإثارة في ميادين القتال !

الغريب أن معظم هؤلاء المرتزقة من الجنود السابقين ، الذين عجزوا عن روتين الحياة المدنية ، بعد أن أصبح العمل الوحيد من وجهة نظرهم هو خوض الحروب . فعديد من الجنود يحاولون التنفيس عن رغباتهم المكبوتة في القتال والقتل ، لذا نجد البعض منهم يصبح مستشارا أمنيا ، وحارسا خاصا ، أو رجل أمن في مرقص . أما الآخرون فإن هناك فريقا منهم يحملون أسلحتهم ، ويتجهون طواعية إلى مناطق الحرب والنزاع في العالم .

وخلال القرن العشرين ، برزت إلى الوجود أربعة أنواع من الجنود المرتزقة ، أولها الجنود المدعومون رسميا أو من الحكومة ، أي الجنود الأجانب الذين يدرجون رسميا ضمن القوات المسلحة النظامية ، وهم عادة يحظون بتأييد ومساندة حكوماتهم . من هؤلاء على سبيل المثال مقاتلو الجورخا النيباليين ، الذين يخدمون في الجيش البريطاني . كما تؤجر بعض الحكومات أفرادا من قواتها المسلحة أو من المجندين السابقين لدول أخرى ؛ خاصة دول العالم الثالث ، كجزء من تعاقدات لتزويد تلك الدول بالأسلحة المتقدمة تكنولوجيا .

النوع الثانى من المرتزقة هو القوات التي تشارك في « عمليات منفية » ؛ أي إن الحكومات حين ترغب في التدخل سرا في دول بعيدة عنها جغرافيا لأسباب سياسية معقدة ، وتريد أن تتدخل دون ضجة تذكر ، فإنها تلجأ عادة إلى المرتزقة ، أو من يطلق عليهم عادة اسم « مستشارون أمنيون خصوصيون » . وتتميز مثل هذه العمليات العسكرية بأنها يمكن نفي التورط فيها إن سارت الأمور على غير ماتخطط وتشتهي تلك الحكومة . وخلال القرن العشرين ، استعانت حكومات كل من بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة وإسرائيل وغيرها من الدول بمثل هؤلاء المرتزقة لتنفيذ عمليات سرية .

المجموعة الثالثة من المرتزقة هم المتعاقدون غير المتفرغين ، أو المرتزقة الكلاسيكيون ، الذين يقاتلون لمصلحة أي أحد إذا كان المقابل مجزيا ، وهم عادة

يتورطون في أعمال دون علم أو موافقة حكوماتهم ، وهؤلاء يعملون للحكومات ، جماعات التمرد ، والشركات المتعددة الجنسيات ، أو المنظمات الإجرامية . . لا فرق !

والمجموعة الأخيرة هم المتطوعون من الأفراد ، الذين يقاتلون في حروب خارجية لأسباب فردية أو أيديولوجية أكثر منها مادية . وهؤلاء يعترضون على إطلاق اسم «المرتزقة» عليهم ، مؤكدين أنهم لا يقاتلون لأسباب شخصية . وأغلب المتطوعين الأجانب الذين قاتلوا في يوجوسلافيا سابقا كانوا لا يتلقون أموالا ، ولكنهم كانوا يقاتلون تأييدا لجهة أو جماعة عرقية أو دينية معينة .

حدث هذا في أفغانستان وفي البوسنة وغيرهما . وفي الصومال ، اعتقل البلجيكي « چورچ روجيو » في يوليو ١٩٩٧ أحد مجرمي الحرب ، الذين تورطوا في المذابح العرقية التي شهدتها بوروندي في سنة ١٩٩٤ . اختار روجيو -المولود في ١٢ أكتوبر ١٩٥٧- التورط في تلك المذابح ، بعد شعوره بالسأم والفشل في حياته السابقة في بلجيكا ، مما دفعه إلى السفر إلى بوروندي ، وتأييد قضية الهوتو ضد التوتسي . ويقال إنه شارك في إبادة المئات في مذابح بوروندي العرقية ، في حين أطلق عليه الأهالي لقب « الصرصار البلجيكي » !

وبغرض البحث عن الإثارة - وربما طمعا في الحصول على الجنسية - فإن الكثيرين يحاولون الانضمام إلى الفرقة الأجنبية الفرنسية . ويتعين أن نشير إلى أن المادة ٤٧ من مبادئ جنيف تحظر الجنود المرتزقة إذا كانوا يحاربون بدافع الربح المادي ، أو يتقاضون مبالغ تفوق ما يحصل عليه الجنود النظاميون . ومع ذلك ، فإن المرتزقة انتشروا خلال القرن العشرين بشكل ملحوظ .

وبحلول ١٩١٤ عاش المرتزقة غير المتفرغين عصرا ذهبيا ، بعد أن تحولت القارة الأوروبية إلى ساحة قتال بسبب اندلاع الحرب العالمية الأولى . وإلى جانب الجيوش النظامية ظهرت جماعات المرتزقة ، خاصة أن الخسائر الجسيمة في صفوف الجنود دفعت الدول والحكومات إلى الاستعانة بالمرتزقة . وحتى منتصف عقد الثلاثينيات واندلاع الحرب الأهلية الإسبانية ، بدأت أعداد كبيرة من الأوروبيين في خوض الحروب بالوكالة في دول أجنبية .

وقد دعت الحكومة الجمهورية الإسبانية ذات الميول اليسارية إلى قبول متطوعين لمواجهة المتمردين اليمينيين ، الذين كان يقودهم آنذاك الجنرال « فرانكو » ؛ مما أدى إلى تشكيل « الألوية الدولية » الشهيرة . وسرعان ما انضم الآلاف من الشباب البريطانيين والفرنسيين والألمان والأمريكيين وغيرهم من المناهضين للفاشية إلى الجهود الرامية لمناصرة الحكومة الإسبانية .

وعلى الرغم من أنها لم تكن تضم مرتزقة بالمعنى الدقيق ، فإن « الألوية الدولية » تحولت إلى نموذج لأجيال تالية من الشباب الباحثين عن المغامرة والقتال ؛ من أجل قضية يرون أنها تستحق الدفاع عنها ؛ بغض النظر عن مدى صحة تلك الرؤية .

ونال المتمردون اليمينيون في الحرب الأهلية الإسبانية دعما من جانب نماذج أخرى من المرتزقة شاع انتشارها عقب الحرب العالمية الأولى . وبالنسبة للجنرال «فرانكو» فإن قواته ضمت الكتيبة الأجنبية الإسبانية التي كانت – أسوة بنظيرتها الفرنسية – لا تضم سوى المقاتلين غير الإسبان .

لكن الحال تغيرت في ١٩٨٣ ، حين أصبحت الجنسية الإسبانية شرطا للانضمام إلى تلك الكتيبة . كما ساندت « فرانكو » كتيبة « الكوندور » الألمانية ، التي ضمت مجموعة من الجنود الألمان أو المتطوعين ، الذين حاربوا سرا مع القوات الإسبانية طوال تلك الحرب الأهلية . ويمكن القول بأن هزيمة ألمانيا خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية جعلت منها مصدرا أساسيا للمرتزقة في العالم في النصف الأول من القرن العشرين ، بدءا من « ماكس بوير » الذي عمل مستشارا لحكومة « شيانج كاي شيك » سنة ١٩٣٠ ، ووصولا إلى المرتزقة في أنحاء أمريكا اللاتينية وفي تركيا زمن «كمال أتاتورك » الذي استقدم خبراء عسكريين ألمان .

ولم تكد الحرب العالمية الثانية تضع أوزارها ، حتى بدأت الحرب الباردة التي استوعبت فوائض خفض قوات الجيوش المتحاربة سواء المنتصرة منها أو المهزومة ، حيث انتهت الحال بعديد من العناصر الشابة من النمساويين والهولنديين ممن انضموا إلى قوات العاصفة النازية ؛ لكي يحاربوا في الهند الصينية وفي الجزائر لحساب فرنسا كشرط لحصولهم على عفو عن جرائم الماضي واستعادتهم حق المواطنة ، فيما عرف لاحقا بالفيلق الخامس الفرنسي ، الذي ضم جنسيات أوروبية وآسيوية وإفريقية ،

شكلت جيلا جديدا من المرتزقة في السنوات الأولى ، التي أعقبت استقلال الدول الإفريقية في مطلع الستينيات .

وخلال العقود التى أعقبت الحرب العالمية الثانية ، أصبح المرتزقة أحد عناصر عديد من الحروب ، التي انتشرت كالوباء عشية الحرب الباردة واستقلال الدول الخاضعة للاحتلال . وخلال الفوضى العالمية الجديدة طوال عقد التسعينيات ، عاد المرتزقة من جديد للقتال فوق أراضي القارة الأوروبية ، بعد أن كانوا متتشرين خارج تلك القارة لعقود طويلة مضت . وبدلا من انتهاء ظاهرة المرتزقة عقب الحرب الباردة ، اتخذت تلك الظاهرة شكلا وغطاء وآباء روحيين جددا! فقد وصلت الحال في روسيا بعد انهيار الاتحاد السوفيتي إلى وجود نحو ٨٠٠ ألف شركة أمن خاصة وشركات مرتزقة ، ووصلت نسبة عناصر الأمن في شركات الارتزاق تلك إلى رجال الأمن الرسميين التابعين للدولة ٣ : ١ ، وهي الأرقام نفسها السائدة في الولايات المتحدة . واعتمدت تلك الشركات -وبعضها في إسرائيل جنوب إفريقيا- على إغراء رجال المخابرات السوفيتية السابقة « كي . جي . بي » ماديا ومعنويا .

مطلوب وظيفة

وخلال عقدي الستينيات والسبعينيات ، لجأت وكالات تشغيل المرتزقة إلى الإعلان في الصحف البريطانية ، وكانت الإعلانات تحوي عادة النص التالي: «مطلوب كوماندوز سابقون ، مظليون وقوات مشاة ، وأعضاء القوات الجوية الخاصة «إس . إيه . إس » للعمل في الخارج » . وخلال عقد التسعينيات ، أصبحت تجارة المرتزقة أكثر تعقيدا من ذي قبل ، حين كان المرتزقة متورطين في حروب أهلية عنيفة ودموية في الكونغو وإقليم بيافرا النيجيري .

كان زعماء المرتزقة آنذاك يجندون الرجال علنا للمشاركة في وحدات قتالية . أما الآن فإن المرتزقة الذين يعملون أحيانا كحرس خاص للشخصيات المهمة ، أو يحرسون المنشآت البترولية أو التعدينية ، أو مستشارين للتدريب ، يتم تجنيدهم سرا وبعيدا عن الأعين . وأحد الأسباب الشائعة لانهيار عمليات المرتزقة هو الخلاف حول الأجر ، خاصة حين تمتنع الجهة الممولة عن الوفاء بالتزاماتها المادية ، أو حين تزعم أن هؤلاء

المرتزقة لم ينفذوا الشق المطلوب منهم في الصفقة . وكان الجنود المرتزقة في الكونغو خلال عقد الستينيات يحصلون على عقود بالغة التعقيد ، تغطي جميع أوجه حياتهم اليومية ، إضافة إلى تأمين على الحياة . وكانت حكومة الكونغو هي التي رعت تلك العقود ، بدعم من وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية « سي . آي . إيه » وحكومة بلجيكا ، ولذا كان المرتزقة واثقين من الحصول على مستحقاتهم ، وحتى في حالة وفاتهم . . فإن أقاربهم سيحصلون على تلك الأموال .

أما في حالة العمليات العسكرية المؤقتة ، فإن المرتزقة الذين يقاتلون لمصلحة جماعات تمرد أو منظمات غير حكومية ، تغيب الثقة عنهم . فإذا انتهى القتال بالهزيمة أو أطيح بزعيم التمرد في انقلاب ، فإن الصفقة قد تنتهي بالفشل وضياع « مستحقات » هؤلاء القتلة المأجورين . وفي تلك الحالة . . فإن تلك الأموال تتحول إلى الشغل الشاغل للمرتزقة . وفي ١٩٧٦ ، وجد المرتزقة في أنجولا أنفسهم مضطرين إلى التراجع والانسحاب عبر الغابات إلى حدود زائير ، بعد أن لقيت جماعة التمرد « إف . إن . إل . إيه » راعية الصفقة هزيمتها عسكريا .

أما الجنود المحترفون منهم فكانوا يحملون معلبات احتياطية للمأكل والمشرب ، بينما اضطر آخرون إلى التسول أو التنقل بمساعدة المدنيين وسط الغابات ، ليسقط بعضهم في أيدي القوات المنتصرة ، وليحاكموا كمجرمي حرب . وسرعان ما أعدم بعض المرتزقة الذين حوكموا ، بينما أمضى الكثيرون منهم سنوات طويلة داخل سجون أنجولا .

وخلال عقد التسعينيات ، أدت الحرب في يوجوسلافيا سابقا إلى اهتمام إعلامي واسع بظاهرة المرتزقة المحتملين ، التى تشير إلى فئة الجنود المحبطين والشبان العاطلين والمبهورين بشخصية « رامبو » السينمائية ، التي جسدها نجم هوليوود « سلفستر ستالوني » ، والمجرمين الخطرين الذين يقاتلون على الجبهة لأسباب مختلفة . وفي ١٩٩١ ، انتشرت في كرواتيا مجموعات المرتزقة ، التي قاتل أفرادها من أجل استقلال تلك الجمهورية عن الاتحاد اليوجوسلافي ، ثم شاركوا في الحرب ضد مسلمي البوسنة حيناً ، والقوات الصربية حيناً آخر !

ولعل أشهر شركات تجنيد المرتزقة هي الشركة الأمريكية « إم. بى. آر. بي » ، التي تأسست في ١٩٨٧ ، وحققت أرباحاً وصلت إلى ٥١ مليون دولار بعد ذلك التاريخ بتسع سنوات . تضم الشركة مجموعة من الجنرالات الأمريكيين المتقاعدين ، وهي تجند أكثر من ٢٠٠٠ جندي أمريكي سابق ، وعديد من المجندين والمقاتلين السابقين من أنحاء العالم. وتتعاون هذه الشركة مع البنتاجون ووزارة الخارجية الأمريكية وجهاز الاستخبارات « سي. آي. إيه » .

وخلال الحرب الأهلية في البوسنة حصلت تلك الشركة في يوليو ١٩٩٦ على صفقة تقدر قيمتها ببضعة ملايين من الدولارات؛ لإرسال مرتزقة وأسلحة إلى الحرب في البوسنة. كذلك برزت شركات « ساند لاين » و« النتائج الحاسمة » و« أوميجا » البريطانية ، و« بول باريل » و« أباك » الفرنسيةو« سارسين » ، ولكل منها مكاتب تمثيل ومقار في عديد من دول العالم ، وهي توفر خدمات لقوات مرتزقة خاصة في إفريقيا . وتتنافس شركات إسرائيلية ، مثل : « صلاح الدين » و« ليف دان » و« الشبح الفضي » على الفوز بقطعة من كعكة الارتزاق الإفريقية ، وتنافسها في ذلك شركات من جنوب إفريقيا .

وبالعودة إلى عقد الستينيات ، سنجد أن إفريقيا كانت مركزاً عالمياً وجنة لتجارة المرتزقة؛ بسبب تشابك اهتمامات الحكومات وجماعات التمرد والمصالح الاقتصادية والغربية ووكالات الاستخبارات بالقارة السمراء ، التي كانت تتحرك نحو الاستقلال . وبعد ثلاث سنوات من الحرب في إقليم كاتاناجا في ١٩٦١ عاد المرتزقة إلى الكونغو بدعم من الكولونيل « مواس تشومبي » ، الذي اختير في خطوة مفاجئة رئيساً للوزراء عقب ثورة مدعومة من الصين وكوبا في شرقى البلاد . سعت الاستخبارات الأمريكية إلى إلحاق الهزيمة بقوات التمرد ، وأقنعت بدورها « تشومبي » باستئجار قوة قوامها ألف جندي مرتزق لدعم جيش الكونغو . أطلق على تلك القوة اسم « كوماندو ٥ » ، وكان يقودها رجل أيرلندي مقره جنوب إفريقيا يدعى « مايك هوار » ، وأطلق عليه اسم « مايك المجنون » .

استعان « هوار » بخدمات الضباط المحترفين من ذوي الخبرة . وناشدت حكومة الكونغو الأمم المتحدة حمايتها من المتمردين ؛ مما أدى إلى إرسال ٢٠ ألف جندي إلى

كاتاناجا لتنشب حرب بين المتمردين والقوات الدولية انتهت بانتصار الأخيرة ، وأدت إلى تحول المرتزقة الأوروبيين إلى رمز مكروه في أنحاء دول العالم الثالث المستقلة حديثاً .

وعقب مغادرة « هوار » الكونغو في نوفمبر ١٩٦٥ ، توزع الجنود المرتزقة على مختلف الجهات المتناحرة في تلك البلاد . فقد تم استبعاد « تشومبي » من رئاسة الحكومة على يد الجنرال « موبوتو سيسي سيكو » ، الذي حكم البلاد بعد ذلك لأكثر من ٣٠ سنة . وتورطت بعض وحدات المرتزقة المتبقية في محاولة انقلاب لإسقاط «موبوتو» في ١٩٦٧ ، وحاولت إحدى تلك المجموعات - وكانت تحت قيادة الفرنسي « بوب دينار » - تحريض أهالي كاتاناجا للثورة عقب شن عملية غزو باستخدام الدراجات من أنجولا المجاورة. وفي شرقي الكونغو ، تمكنت مجموعة أخرى من المرتزقة -بقيادة البلجيكي الكولونيل « چان شرام » ولقبه « بلاك چاك » - من السيطرة على بلدة بوكافو الحدودية . لكن محاولة الانقلاب باءت بالفشل ، بينما لقي «تشومبي» - الأب الروحي للمرتزقة في الكونغو - مصرعه في ١٩٦٩ خلال فترة سجنه .

كذلك الحال في إقليم بيافرا الذي حاول الاستقلال عن نيجيريا خلال الستينيات ؛ إذ استعان الكولونيل « تشوكويميكا » أوجوكو ، قائد حركة الانفصال بالمرتزقة لدعم صفوف قواته في مواجهة الجيش النيجيري . وعلى العكس من « تشومبي » في الكونغو ، لجأ « تشوكويميكا » إلى مرتزقة لايملكون خبرات قتالية عالية لخوض المعارك في بيافرا خلال سنة ١٩٦٧ . قاد المجموعة الأولى من المرتزقة فرنسي يدعى «روبير فوكيه» ، الذي قاتل في كاتاناجا من قبل ، ثم تولى المهمة الألماني « رولف شتاينر » بعد فشل « فوكيه » في المهمة . غير أن « شتاينر » خسر أيضاً فطرده قائد الانفصاليين فى بيافرا مقيداً بالأغلال ، مما أدى إلى إصابته بانهيار عصبي . ظهر «شتاينر» بعد ذلك في السودان لمساعدة المتمردين ضد حكومة الخرطوم . وانتهت المهمة مرة أخرى بكارثة ، واعتقل « شتاينر » في أوغندا وأرسل ثانية إلى السودان ، ليخضع لما يسمى أول محاكمة علنية معاصرة لمرتزق في أغسطس ١٩٩٠ ، وتم خفض عقوبة الإعدام ضده إلى السجن مدى الحياة ، ثم أطلق سراحه بعد ذلك بثلاث سنوات .

عاشت إفريقيا في هدوء بعيداً عن المرتزقة ، حتى انهارت الإمبراطورية الاستعمارية للبرتغال في أنجولا في ١٩٧٥ . وفي ظل وجود ثلاث جماعات تقاتل من أجل السلطة ، ساندت الاستخبارات الأمريكية جبهة « إف . إن . إل . إيه » لتجنيد مرتزقة بريطانيين بالاستعانة بجهود رجل الجبهة في انجلترا وهو الطبيب رونالد تيلفورد ، الذي نشر إعلاناً في الصحف بحثاً عن هدفه من المرتزقة . أحد هؤلاء المرتزقة كان مجنداً بريطانياً مفصولاً يدعى « كوستاس چورچيو » ، الذي لمعت شهرته تحت اسمه الحركي في المعارك : الكولونيل « كالان » . انضم هؤلاء المرتزقة إلى أنجولا عبر المرور بزائير في أواخر ١٩٧٥ . وخلال عملية استطلاعية ، تمكن الكولونيل « كالان » من إلحاق خسائر ضخمة في صفوف القوات والأسلحة لجبهة معادية مما صنع شهرته .

وتدفق المزيد من المرتزقة على أنجولا في يناير ١٩٧٦ ، لدعم جبهة «إف . إن . إل . إيه » التي تعد الأضعف والأصغر وسط القوات الثلاث . وبعد هزيمة جنود « كالان » - الذي اختير قائداً إثر هجومه الناجح - عقب سلسلة من المواجهات الدامية ، سقط الرجل في أيدي قوات جبهة ثانية في أنجولا هي « إم . بى . إل . إيه » ، في حين تم تعيين قائد آخر يدعى « مكاليس » . لكن هؤلاء المرتزقة الذين ارتكبوا مذابح بشعة لقوا هزيمة منكرة تعد الأسوأ في تاريخ تجنيد المرتزقة البريطانيين ، بينما حكم على « كالان » وثلاثة من رفاقه بالإعدام .

قــوة أوميجــا

قاد المرتزقة عدداً من الانقلابات السياسية في أنحاء إفريقيا بدرجات متفاوتة من النجاح . وفي يناير ١٩٧٧ وقعت محاولة انقلاب في بنين ، نفذها ٦٠ مرتزقاً أبيض و٣٠ مرتزقاً أسود ، بقيادة « بوب دينار » ، الذي سبق له خوض الحرب في الكونغو . توجه هؤلاء المرتزقة إلى المطار في عاصمة بنين ذات يوم أحد هادئ ، وسرعان ما سيطروا على برج المراقبة بعد التغلب على الحراس ، وتحركت « قوة أوميجا » - كما أطلق هؤلاء المرتزقة على أنفسهم - باتجاه القصر الرئاسي ، وتمكنوا من تحييد ثكنات الجيش . وكان الهدف قتل رئيس بنين داخل مقره الرئاسي ، قبل شن الهجوم المخطط له سلفا .

وبمجرد قتل الرئيس كانت خطة المرتزقة للسيطرة على محطة الإذاعة لإعلان خصمه -والممول لصفقة قيمتها نصف مليون دولار- رئيساً جديداً للبلاد . لكن لحسن حظه ، كان رئيس بنين غير موجود في مقره آنذاك ، فسارع إلى محطة الإذاعة مع قواته ، لتفشل مهمة هؤلاء المرتزقة ، الذين تراجعوا إلى المطار ، وهربوا على متن طائرة كانت في انتظارهم .

وبعد سنة واحدة من ذلك التاريخ ، عاود « دينار » الظهور بعد أن جند مجموعة من « قوة أوميجا » السابقة ، ودفع لكل فرد من أفرادها ألف دولار مقدماً ، وتوجه بهم إلى جزر القمر . . توجهت القوة إلى قصر الرئاسة بعد تغلبها على الجنود والحرس الخاص ، وانتظرت بعد ذلك الممول الرئيس للعملية - ويدعى « أحمد عبدالله » - لكي يعلن استيلاءه على السلطة . ولتجنب أي انقلاب مضاد ، نفذ المرتزقة حكم الإعدام في « علي صالح » رئيس جزر القمر آنذاك ، وعين « دينار » وزيراً للدفاع في الحكومة الجديدة بعد حصوله على جنسية هذا البلد ، بينما أصبح ٥٠ من جنوده المرتزقة العماد الأساسي لحرس الرئيس الجديد .

وبحلول ١٩٨٩ أقدم « دينار » ورجاله على قتل الرئيس « أحمد عبد الله » ، وشنوا انقلاباً مضاداً ، واستولوا على السلطة لمدة أسبوعين ، قبل أن ترسل الحكومة الفرنسية ٣٠٠ جندي لاستعادة زمام الأمور في البلاد . وفي نهاية سبتمبر ١٩٩٥ قاد الفرنسي « دينار » خمسين مرتزقا تحركوا من جنوب إفريقيا لتنفيذ انقلاب آخر في الجزيرة ، وخلع الرئيس « سعيد محمد جوهر » ، لكن الحكومة الفرنسية لم تقر هذا الانقلاب ، وأرسلت قوات خاصة أحبطت الانقلاب .

وانتهى الأمر بالمرتزق « دينار » - الذي قاتل يوما في اليمن القوات الجمهورية الموالية للرئيس المصري « جمال عبد الناصر » ، مثلما ساند « تشومبي » ضد « لومومبا » في الكونغو ، وناصر انفصاليي إقليم بيافرا في نيجيريا ، ولعب دورا مؤثرا في انقلابات بنين وجزر القمر- في سجن لوسانتيه في باريس لمدة تسعة أشهر . ويتردد أنه كان نزيل زنزانة في نهاية الممر ، الذي توجد به زنزانة إرهابي مرتزق آخر هو « راميريز سانشيز » ، أو « كارلوس » المشهور بلقب « ابن آوى » .

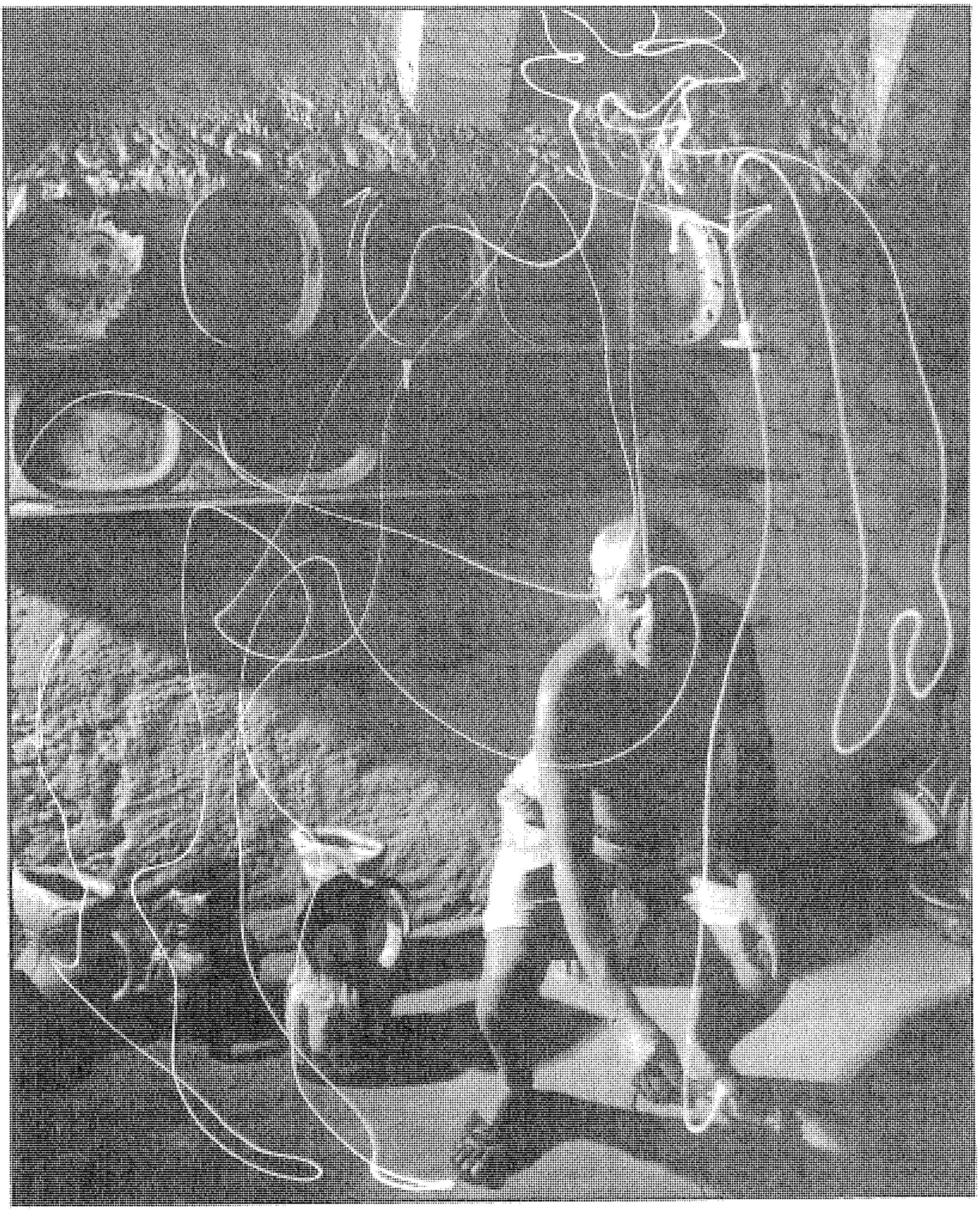
واضطلع المرتزقة بتدريب وتسليح الميليشيات القبلية لعدد من الحكام الأفارقة ، الذين لا يثقون في ولاء الجيش لهم ، مثلما حدث حين تعـاقد رئيس الكونغو برازافيل « دينيس ساسو نجويسو » (١٩٤٣-) مع شـركات مرتزقة فرنسية لتدريب وتسليح حرسه الخاص ، الذي عرف باسم « وحدات الكوبرا » ، بينما تعاقد غريمه « باسكال ليسوبا » - الذي تولى الحكم في ٢٠ أغسطس ١٩٩٢ ، قبل أن يعود « نجويسو » إلى السلطة في سنة ١٩٩٧ - مع شركات إسرائيلية وجنوب إفريقية لتدريب وتسليح ميليشياته القبلية من الزولو . أما خصمهما الثالث « برنار كولايلاس » فتعاقد مع شركات بلجيكية لتدريب وتسليح قواته الخاصة ، التي أطلق عليها اسم « النينجا » .

ونتيجة لصعود أنظمة موالية لموسكو إلى السلطة في كل من أنجولا وموزمبيق في ١٩٧٥ ، شعرت أنظمة الأقلية العنصرية البيضاء في روديسيا وجنوب إفريقيا بالقلق ، وبالتالي شهدت تلك المنطقة على مدار ١٥ سنة معارك، كان للمرتزقة دور بارز فيها . . وحتى خلال « حرب التحرير » في روديسيا استعانت حكومة « إيان سميث » - رئيس حكومة روديسيا العنصرية - بالمرتزقة ، خاصة من بريطانيا وجنوب إفريقيا وكندا وفرنسا خلال الفترة بين ١٩٦٥-١٩٨٠ .

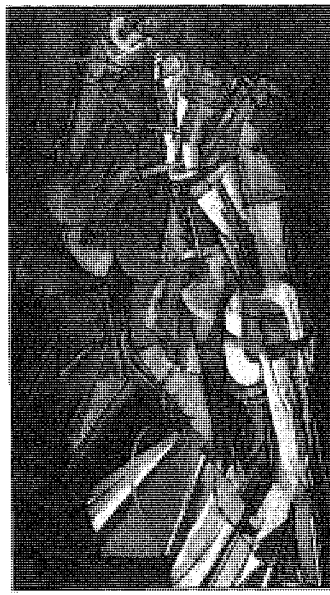
وظهر في تلك الحرب « بيتر مكاليس » الذي شارك في حرب أنجولا من قبل ، وكتب فيما بعد مذكراته التي تحمل عنوان « زمن الزناد » . وقد ظهر المرتزقة أيضاً خلال الحروب في كل من موزمبيق وأوغندا وزائير وبوتسوانا وأنجولا وسريلانكا والبوسنة .

أما في لبنان ، فقد ظهرت ميليشيات ما يسمى «جيش لبنان الجنوبي» العميلة لإسرائيل مع إعلان الرائد العميل «سعد حداد» « استقلال » المناطق المسيحية في جنوب لبنان في ١٨ إبريل ١٩٧٨ ، تحت اسم زائف وزائل : « دولة لبنان الحرة » ، إلى أن لجأ نحو ٦٥٠٠ من عناصرها إلى تل أبيب عقب الانسحاب الإسرائيلي من جنوب لبنان في ٢٤ مايو ٢٠٠٠ .

* * *



بابلو بيكاسو



لوحة مارسيل روشان
«عارية تهبط سلماً» (١٩١٢)

33

أحلام بالألوان

تختصر الألوان والأنامل التي تخط المشاعر فوق الورقة البيضاء ، المسافات والأزمنة ، وتتجاوز حدود الخيال لتسبح فوق بحيرة من الأحلام والرؤى المبدعة . لغة الأنامل لها سحرها ، وفيها شحنة متدفقة من أجواء أثيرية ، عبرت عن عالم الواقع حينا ، وصورة العقل الباطن حينا آخر ، وأبجدية الحلم وهستيريا التجريد في أحيان أخرى !

وهل هناك ما هو أكثر تعبيراً عن القرن العشرين من لوحة « بابلو بيكاسو » الشهيرة «جرنيكا » (١٩٣٧) ، التي جسدت بشاعة الحرب ، وأثر القنابل التي قصفت بها الطائرات الألمانية سوق قرية « جرنيكا » شمال إسبانيا في إبريل ١٩٣٦؟ إن هذه



سلفادور دالي



بهجت عثمان

اللوحة -التي قرر الكونجرس الأمريكي في مايو ١٩٧٨ إعادتها إلى إسبانيا ، وكان في استقبالها في ١٠ سبتمبر ١٩٨١ حرس شرف رسمي ، لدى نقلها على متن طائرة أمريكية إلى مطار مدريد- هي رمز الفن والحرية والسلام .

إن لوحات« بيكاسو » - الذي عاش مراهقا حتى سن التسعين - و«هنري ماتيس» (١٨٦٩-١٩٥٤) و« أميديو موديلياني » (١٨٨٤-١٩٢٠) و« إدجار ديجا » (١٨٣٤-١٩١٧) و«چيورچيو دي كيريكو » (١٨٨٨-١٩٧٨) صاحب « الطريق » و «الوحدة»، و«سلفادور دالي»(١٩٠٤-١٩٨٩) - صاحب « الصلب » (١٩٥١) و« العشاء الأخير » و« استمرار الذاكرة » - ورائد الانطباعية الأشهر « كلود مونيه » (١٨٤٠-١٩٢٦) و« أوجست رينوار » (١٨٤١-١٩١٩) وغيرهم الكثير . . تعد مرآة لقرن حافل بالعديد من الأحداث الجسام والتطورات ، التي لهث وراءها بنو البشر .

ومن « النداء » (١٩٠٢) لـ « بول جوجان » إلى « غرفة الإفطار » (١٩٣٠-١٩٣١) لـ « بيير بونار » (١٨٦٧-١٩٤٧) ، و« الأخوات الثلاث » (١٩١٥) و« الفنان والموديل » (١٩١٧) لـ « ماتيس » و« الإفطار » (١٩١٤) لـ « چورچ براك » (١٨٨٢-١٩٦٣) ، و« امرأة » (١٩١٧- ١٩١٨) لـ « موديلياني » و« أغنية حب » (١٩١٤) لـ « دي كيريكو » ، و« ولادة الرغبات السائلة » لـ « دالي » ، و« السكركير » (١٩١٩) لـ « موريس أوتوريللو » (١٨٨٣-١٩٥٥) ، و« تركيب بالأحمر والأصفر والأزرق » (١٩٣٧-١٩٤٢) للهولندي « بيت موندريان » (١٨٧٢-١٩٤٤) . . يتضح لنا مدى التأثير العميق للرسم بالأنامل المبدعة في تجسيد أفكار ورؤى إنسان القرن العشرين .

حين أطل القرن العشرون كانت مدرسة الانطباعية الجديدة قد بلغت مرحلة النضج ، فهذه الحركة التي عاشت حتى ١٩٠٥ لجأت إلى أسلوب « التنقيط » ، أي الابتعاد عن مزج لونين لاشتقاق لون ثالث ، بل وضع الألوان خالصة على شكل نقط صغيرة الحجم .

وتختلف طريقة وضع هذه النقط تبعًا للمساحة والصورة ، فالنقط الصغيرة تصلح للمساحة الصغيرة ، وتكبر النقط وتستطيل على اللوحات الكبيرة وتسمى «التقسيم» .

أشهر رواد الانطباعية الجديدة ممن لحقوا بالقرن العشرين « دي تولوز-لوتريك » (١٨٦٤-١٩٠١) الذي تجسمت على لوحاته معالم باريس وأسرار حي مونمارتر ،

و« بول جوجان » (١٨٤٨-١٩٠٣) ، و« بول سيزان » (١٨٣٩-١٩٠٦) ، الذي دخل ميدان فن الرسم ليعيد تشكيل الطبيعة في لوحاته المبدعة .

وفي ١٩٠٥ تحققت توقعات الرسام العالمي « فانسان فان جوخ » (١٨٥٣-١٨٩٠) بأن يصبح الرسم أكثر رقة ، وأقرب إلى الموسيقى ، وأقل شبها « بالنحت » . هذه الكلمات تحققت بفضل مجموعة من الفنانين بجميع تفاصيلها إلا واحدا ؛ فاللون الأبرز في أعمالهم لم يبدأ رقيقا بل على العكس كان عنيفا وهادرا . وحين نظر الناقد الفني « لويس فوكسيل » إلى لوحاتهم في صالون الخريف في ١٩٠٥ ، ذكر « الحيوانات المتوحشة » ليعطي بذلك هؤلاء الفنانين تعبير المدرسة الحوشية ، أو « الوحشية » . تميزت تلك المدرسة الفنية بالجمع بين الجموح والانضباط ، ولدى النظر إلى روادها الذين اتخذوا مواقف متطرفة ، نجد من ناحية « موريس دي فلامنك » (١٨٧٦-١٩٥٨) الذي اشتهر بأسلوب التكثيف اللوني (الفرشاة المشبعة Impasto) الذي لم يتردد في الاعتراف بأنه يحاول الرسم «بقلبه وأحشائه دون الاهتمام بالأسلوب» ، بينما يقول « هنري ماتيس » : « إن الإدراك هو كل شيء بالنسبة لي ، لذا ينبغي أن تكون هناك رؤية واضحة لكل شيء منذ البداية » .

وفي حين يصرخ « فلامنك » قائلا : « الوحشية هي أنا » فإن « ماتيس » كان القائد الفعلي لهذه المجموعة أو المدرسة الفنية ، إذ اجتمع حوله « ماركيه » و« كاموان » و«مانجان» و« چان بي » وحتى « ديران » نفسه الذي كان صديقا لـ « فلامنك » . و«ماتيس» (١٨٦٩-١٩٥٤) هو أستاذ اللون بلا منازع ، إذ استخدم اللون الخالص في لوحاته بلا انقطاع ، وتذكرنا حيوية نغماته اللونية بـ « فان جوخ » و« جوجان » .

وفي نحو ١٩١٣ انساق « ماتيس » وراء المثال التكعيبي ، وجعل عمله أقل غنائية وأشد صرامة . وفي ١٩٣٠ طرأ تغير ملحوظ على فنه استعاد به جرأته . وسار على طريق الوحشية أيضا « راءول دوفي » (١٨٨٧-١٩٠٣) الذي تميز برشاقة الخطوط الموجزة ، علاوة على اختزالات ذكية ورموز مبتكرة ، وهو مثير حين يبدو رسمه كأنه «خربشة » عابرة! كذلك برز « ألبرت ماركيه » (١٨٧٥-١٩٤٧) الذي انضم إلى الحركة الوحشية بسبب صداقته لـ « ماتيس » ، وكان يجيد رسم المناظر الطبيعية والمدنية والموانيء والسواحل الزاخرة بالنشاط الإنساني .

وتميزت المدرسة التعبيرية الألمانية (١٩٠٥-١٩٣٠) بالتنوع الشديد ، وقد أسهم في تطويرها « فاسيلي كاندينسكي » ، وقد ابتعدت عن تمثيل الأشياء للتعبير عن أشكال وألوان متجددة بعيدة عن العالم المادي وتميزه بقدر من الغنائية . وشهدت مدينة درسدن في ١٩٠٥ مولد هذه المدرسة التي عرفت باسم « القنطرة » ، وكانت تضم في البداية أربعة فنانين من الشباب ، هم : « فريتز بليل » و« إرنست لودفيج كيرشنر » و« إيريش هيكل » و« كارل شميث روتلوف » ، والتحق بهم بعدئذ « ماكس بكشتاين » و« أوتو موللر » . مارس هؤلاء درجات لونية حادة نافذة قوية ، وكان « كيرشنر » (١٨٨٠-١٩٣٨) أبرز رواد المجموعة ، وتألق أيضا « إميل نولده » (١٨٦٧-١٩٥٦) .

التبلور

وفيما بين ١٩٠٧ و١٩٠٨ احتدم النقاش بين شباب الرسامين الذين دخلوا ميدان الفن الحديث ، حول فكرة « رسم ما نشعر به . . لا ما نراه » . ووسط هذا الجدل استكانت النفوس إلى مصطلح جديد ، خرجت به جامعة السوربون لوصف الابتكارات الفنية ، ونعني بذلك البللور أو « التبلور » ، وأصبح هذا المصطلح مصدرا خصبا للوحات ما قبل الحرب العالمية الأولى . وتميز في هذا الاتجاه « براك » ، كما تجنب «بيكاسو» قدر المستطاع إظهار الخطوط المنحنية، واستمر بالخط المستقيم في قوة .

وفي حين كان« براك » (١٨٨٢-١٩٦٣) قريبا من « بيكاسو » في أثناء الفترة التكعيبية ، فإنهما في الأساس مختلفان جدا ، فبينما تقدم « بيكاسو » (٢٥ أكتوبر ١٨٨١-٨ إبريل ١٩٧٣) بنوبات وطفرات ، وكان في عجلة من أمره على الدوام ، فإن تطور « براك » جاء متأنيا منطقيا . . وبينما عالج الأول الأشياء والكائنات البشرية بطريقة غير مبالية ، فإن الثاني عالجها بتواضع وشفقة . لكن « بيكاسو » ظل أكثر الرسامين ثورية في القرن العشرين ، فقد قلب المفاهيم رأسا على عقب بعنف واستخفاف مثلما هي الحال في لوحتيه التكعيبيتين « امرأة مع كلب » (١٩٦٢) و« حياة ساكنة مع سمك » (١٩٢٢) .

وتكعيبية « بيكاسو » مستلهمة من طبيعة بلاده إسبانيا ، ذات التراكيب الهندسية القوية التخطيط ، وهو ما بدا واضحا في لوحة « أبو الهول » (١٩٥٣) . والنوع الذي

مال إليه « بيكاسو » من الفن التكعيبي يعتمد تماما على الغريزة ، حيث يبطش فيه بالقيم الجمالية بخطوط وألوان متوحشة .

وارتبطت التكعيبية أيضا بلوحات « ماتيس » ؛ نظرا لأن بعض أعماله بدت كأنها مجموعة من المكعبات الصغيرة ، ولها جذورها في أعمال الفنان الفرنسي « بول سيزان» .

امتدت التكعيبية حتى عقد العشرينيات ، وبرز من رموزها الإسباني « خوان جريس » (١٨٨٧-١٩٢٧) و« فرنان ليجيه » (١٨٨١-١٩٥١) و« روبير ديلوني » (١٨٨٥-١٩٦٣) ، الذي قال ذات يوم : « كنت تكعيبيا انطباعيا ، وأعتقد أنني بقيت هكذا » . والتكعيبية هي الأسلوب المميز للرسام الفرنسي من أصول روسية « مارك شاجال » (١٨٨٩-١٩٨٥) ، الذي أقيم معرض خاص بلوحاته في برلين سنة ١٩١٤ . ركز شاجال في بعض أعماله على الجيتار ، الغليون ، ثمار التفاح ، و هؤلاء الذين يلعبون ورق « الكوتشينة » . كان يرسم أعمال الشعراء والروائيين في لوحات ، وقد تفرع أسلوبه في البداية من أسلوب « سيزان » . من أشهر لوحاته : « باقة العاشقين الطائرين » (١٩٤٧) « راكبة الحصان في السيرك » (١٩٣١) ، « الموسيقار » (١٩١٢) ، و« أنا و قريتي » (١٩١١) .

أما « الأورفيزم » فهي بدعة تعني تبسيط التكعيبية إلى مسطحات ومساحات من الألوان المنسجمة التوزيع . أطلق عليها هذه التسمية في ١٩١١ الشاعر « جيوم أبولينير » وهو يصف لوحة لـ« روبير ديلوني » ، الذي تبعه آخرون مثل « ماكدونالد رايت » و«مورجان راسل» . الفن التعبيري بدوره هو اتجاه يعتمد فيه الفنان على شخصيته وأسلوبه ، وقد دعا إليه الفنان النرويجي « إدوارد مونخ » (١٨٦٣-١٩٤٤) والنمساوي « أوسكار كوكوشكا » (١٨٨٦-١٩٨٠) ، وكانت هستيرية الاثنين ، إلى جانب شطحات غيرهما من أعضاء جماعتي « القنطرة » و« الفارس الأزرق » ، الدعائم والأسس التي قام عليها الفن التعبيري ، الذي يعتبر أيضا امتداداً لفن « فان جوخ » و« جوجان » ، واستمرارا لفن الحركة الوحشية على أيدي فنانين عملوا بوحي من أعماق نفوسهم ، أمثال : « ماكس بيكمان » (١٨٨٤-١٩٥٠) و« چيمس أنسور »

(١٨٦٠-١٩٤٩) و« جورج روو » (١٨٧١-١٩٥٨) و« حاييم سوتين » (١٨٩٣-١٩٤٣) و« نولده » .

ويمكن ملاحظة الخصائص الفنية للتعبيرية في لوحات« مونخ » « اليوم التالي » (١٩٠٩) و« روو » و « الطائر الأزرق » ، وأعمال الفنان الشهير « أميديو موديلياني » مثل « امرأة » (١٩١٧-١٩١٨) و« رجل مع غليون » (١٩١٨) و« متخلفون » (١٩١١) . وينفرد « موديلياني » بأسلوب خاص بين التكعيبيين والوحشيين ، يعتمد فيه على تبسيط اللون ، وإن يكن قد شارك التكعيبيين الاهتمام بالنحت البدائي والأقنعة الزنجية في النحت الذي مارسه بين ١٩٠٩-١٩١٥ ، قبل أن يهتم بدراسة اللوحات الشخصية والجسد الأنثوي اعتبارا من ١٩٢٠ .

و« موديلياني » الذي عاش حياة بوهيمية ، تكاتفت ظروف الحرمان والفقر والمخدرات والسل لتقضي عليه في سن مبكرة . كذلك برز « مارك شاجال » بلوحاته التي تقوم أساسا على العلاقة بين الكائنات البشرية والأشياء ، التي تتميز بأنها تتحدث عن لقاءات تتم في عالم ، لا تحكمه القوانين الكونية المألوفة .

وفي ٢٢ فبراير ١٩٠٩ صدرت جريدة « الفيجارو » الباريسية لتطالع القراء بمقال كتبه الشاعر الإيطالي « مارينتي » ، وموضوع المقال كان يدور حول إعلان الحرب على جميع المحاولات الفنية التي سماها الشاعر الفنون الرجعية ، ليعزز دعوته إلى فن جديد يسمى فن المستقبل . وعلى الرغم من أن الإعلان الأول طبع في باريس ، فإن «المستقبلية » كانت حركة إيطالية صرفة ، ولم يكن لها في قمة تألقها سوى قلة من الأتباع ، إذ لاقت تأييدا من الرسامين « أمبرتو بوتشيني » (١٨٨٢-١٩١٦) و« كارلو كارا » (١٨٨١-١٩٦٦) و« لويجي رسولو » (١٨٨٥-١٩٤٧) و« چياكومو بالا » (١٨٧١- ١٩٥٨) و« چينو سيفيريني » (١٨٨٣-١٩٦٦) .

كان الهدف بالنسبة لـ « مارينتي » هو « تمجيد الحركة الهجومية ، والأرق المحموم، والخطوة السريعة ، والوثبة الخطيرة ، والصفعة على الوجه ، والضربة من قبضة اليد » ! لقد هاجموا الإعجاب بالرسوم والمعايير القديمة ، ودانوا الماضي وما يمثله، وتطلعوا إلى الغد . وعلى الرغم من أن تلك الحركة لم يكن لها غد طويل - إن

صح التعبير - فإنها أسهمت في تقديم لوحات ذات حركات مستمرة تجسد الانفعالات النفسية وتهتم بما أطلقوا عليه البعد الرابع ، للنفاذ إلى جوهر الأشياء .

وفي ١٩١٩ أسس المهندس المعماري « فالتر جروبيوس » مدرسة تقدمية للفنون في مدينة فايمار سماها « باوهاوس » أي « بناء البيت » ؛ ليناهض بها النظم الأكاديمية التي كانت متبعة في مدارس الفن في ألمانيا آنذاك . وكانت وجهة نظر « جروبيوس » تنحصر في إيجاد طبقة من الفنانين ؛ ليعملوا على إزالة الحواجز التي تفصل بين الفنون التشكيلية بأنواعها ، حتى يعود الفن إلى سيرته الأولى ، وحدة متكاملة من العمارة والتصوير والنحت والفنون الفرعية . وانضم إلى تلك المدرسة - التي استمدت تعاليمها من تاريخ ومعتقدات ألمانيا الاجتماعية - مجموعة من الفنانين أمثال « ليونيل فينينجر » والسويسري « بول كليه » (١٨٧٩-١٩٤٠) و« أوسكار شليمر » و« موهولي ناجي » .

تأثير الحرب

كان للحرب العالمية الأولى تأثير ذو شقين في تطور فن القرن العشرين ، فقد تحولت مراكز النشاط من فرنسا وألمانيا إلى نيويورك وسويسرا المحايدة . في غضون ذلك اكتسب موقف رفض القيم الفنية السائدة آنذاك - والتي وضع أسسها التكعيبيون والتعبيريون - فحوى سياسة جديدة في ضوء الحرب .

كانت الدادية ، وهي حركة عالمية معقدة ، حملة على التقاليد الفنية والسياسة معا ، وهي لم تقتصر على مجموعة الرسامين فحسب . ففي زيوريخ ، حيث اتخذت اسمها الذي عرفت به في ١٩١٦ ، كان مؤسسوها في الأصل الشاعر الروماني «تريستان تزارا » والأديبين الألمانيين« هوجو بول » و« ريتشارد هلسنيك » والرسام والنحات الألزاسي « هانز آرب » ، وتولى اثنان من الرسامين الفرنسيين ، هما : «مارسيل دوشان » و« فرانسيس بيكابيا » ، حملها إلى نيويورك .

اعتبر « آرب » (١٨٨٧-١٩٦٦) أول المنادين بالنزعة الدادية ، وكان يضع رسوما نافرة مبنية على أشكال عضوية مبسطة ، إلى درجة أنها كانت تبدو مضحكة ، و« ترمي

إلى إطلاع البرجوازي على بلاهة عالمه » على حد قوله . وكان « مارسيل دوشان » (١٨٨٧-١٩٦٨) في تلك الأثناء يسعى في نيويورك لإثبات أن الشيء الجاهز الصنع قد يرقى إلى مستوى العمل الفني . وهكذا أضاف شاربا إلى الموناليزا وعرضها في ١٩٢٠ .

أما « بيكابيا » فقد رسم « الماكينات الساحرة » . وامتدت الدادية بعد الحرب إلى مراكز أخرى واتسمت بالنزعة العدمية ، والرغبة في هز النفوس بجميع الوسائل الممكنة . استخدم عدد من الداديين تقنية الملصقات التي استحدثها « بابلو بيكاسو » و« براك » لتحقيق ذلك ، فصنع « كورت شفايتزر » (١٨٨٧-١٩٤٨) قطعا فنية من النفايات ، بينما راح « ماكس إرنست » (١٨٩١-١٩٧٦) يربط أجزاء من رسوم شعبية ومنقوشات لابتكار أشكال غير معقولة .

ما إن خفتت حدة الاهتمام بالدادية ، حتى بدأ في باريس منذ ١٩٢٤ وما بعدها نمو حركة جديدة في إطار الدادية نفسها ، استغلت المصطلح الذي ابتدعه الناقد والمؤلف المسرحي الفرنسي « جيوم أبولينير » ، وهو يصف لوحات « شاجال » خلال موسم ١٩١١-١٩١٢ ، وسمت نفسها (السوريالية) . استوحت السوريالية كثيراً من أفكارها من فلسفة ونظريات « سيجموند فرويد » (١٨٥٦-١٩٣٩) النفسية . وفي البيان السوريالي الأول عرف « أندريه بريتون » (١٨٩٦-١٩٦٦) السوريالية بأنها «التلقائية النفسية الخاصة التي تحاول استكشاف العقل الباطن » . وقد استخدمت السوريالية أول ما استخدمت في المجال الأدبي ، ومنه انتقلت إلى الفن التشكيلي ، وأصبحت تعني إسباغ رؤى العقل الباطن والأحلام والأخيلة المسرفة على العمل الفني، متحللة من قيود العقل الواعي والتقاليد الشكلية .

ومن رموز هذه الحركة الفنية الألماني « ماكس إرنست » ، والبلجيكي « رينيه ماجريت » (١٨٩٨-١٩٦٧) والإسباني « سلفادور دالي » . والأخير رسم موضوعات مثيرة مستمدة من علم التحليل النفسي ، وكان يهوى التكوين السوقي للمطبوعات العادية ، وقدم رسوماته في أكثر من عمل سينمائي ، واشترك مع « لويس بونويل » في إنتاج فيلمين سورياليين، هم :ا « الكلب الأندلسي » Le Chien Andallou و« العصر الذهبي » ، وتميز بشاربه المعقوف إلى أعلى ، وتصرفاته اللافتة للأنظار .

كما برزت أسماء أخرى في عالم السوريالية مثل الإسباني « خوان ميرو » (١٨٩٣-١٩٨٣) ، الذي ابتكر لغة فنية رمزية تتميز بأسلوب خيالي زخرفي وبألوان

متألقة ، فيها لمسة الفكاهة والمرح على غرار بول كليه . كما يبرز في الاتجاه نفسه كل من « دي كيريكو » و« إيف تانجي » (١٩٠٠-١٩٥٥) ، وتميز الأخير بتقنيات خاصة في الرسم ، وأبدع تكوينات « أميبية » الشكل تفيض في لوحاته وتبدو كأنها أشباح .

وكان الفن التجريدي أقوى مظهر درامي لمحاولة رسامي القرن العشرين دحض النظرية القائلة إن على الفن أن يمثل مظاهر الأشياء . ومع حلول ١٩٠٠ ، كان التصوير الشمسي قد أخذ يحل محل الرسم الواقعي ، فأدى الرواج المتزايد للتصوير الشمسي ، وقد اقترن بأفكار جديد خاصة بطاقة الرسم والنحت التعبيرية ، إلى مولد التجريد .

نشأ الفن التجريدي بين ١٩١٠ و ١٩١٨ في أماكن عدة ، ففي ميونيخ توصل « فاسيلي كاندينسكي » (١٨٦٦-١٩٤٤) إلى إنجاز رسم يكاد يكون غير تمثيلي سنة ١٩١٢ . هذه اللوحات البعيدة عن الزخرفة التي أبدعها « كاندينسكي » تحاول التعبير عن الروح « السرية » التي تسكن الكون . حين تخلى عن رسم الأشخاص لم يكن يحلم بأن يدير ظهره للطبيعة ، بل على العكس ، سعى إلى التوحد معها .

لكن في أمستردام وموسكو ، بدأ الفنانون للمرة الأولى ينتجون أعمالا مركبة من أشكال خالصة ، لم تكن مستمدة بوعي من الطبيعة .

ففي موسكو جاءت أعمال « كازيمير ماليفيتش » (١٨٧٨-١٩٣٥) ، نتيجة لمحاولته تحديد أبجدية « الأشكال الهندسية البسيطة » ، التي تبدو إذا وضعت على خلفية بيضاء مشبعة بالحركة في الفضاء غير المتناهي . في الوقت نفسه ابتكر « فلاديمير تاتلين » (١٨٨٥-١٩٥٣) « البنائية » بأبنيته الديناميكية ، المركبة من قطع من الزجاج والمعدن والأسلاك ، معلقة أحيانا من زاوية إلى أخرى .

انضم إلى « تاتلين » الرسام الروسي « ألكسندر دودشنكو » ، بينما قدم « بيت موندريان » في هولندا فنا تجريديا لم يكن مستمدا من الأشياء الطبيعية . مر «موندريان» على مرحلة التكعيبية حين انتقل للعيش في باريس سنة ١٩١١ . كان صديقا لـ « براك » و« بيكاسو » ، لكنه مالبث أن افترق عنهما لشعوره بضرورة استخلاص « نتائج منطقية من التكعيبية لن يتسنى لهما استخلاصها أبدا » .

وهكذا انصرف « موندريان » إلى « نزع الطبيعة » من فنه تماما ، وأخذ يركب رسوما هندسية من خطوط مستقيمة سوداء وبقع ملونة . يمثل « موندريان » أحد طرفي

نقيض مما بينهما الرسم التجريدي ، وكان الطرف الآخر غنائية « كاندينسكي » في الفترة بين ١٩١٠ و١٩٢٠ . مهما يكن ، فقد حققت التجريدية الغنائية خطوات متقدمة سريعة ، وكسبت عددا من المؤيدين ، كان بعضهم موهوبين حقا ، وحازوا شهرة عالمية مثل « چان فوتربيه » (١٨٩٨-١٩٦٤) في فرنسا ، كما فجر « وولز » (١٩١٣-١٩٥٣) عاطفته المتدفقة ورؤاه الحالمة على قماش لوحاته .

الأسلوب الحيوي

إلى جانب هذه التطورات قام الرسام الألزاسي « آرب » برسم الأشكال العضوية بأسلوب تجريدي يدعى « الأسلوب الحيوي الشكل » (البيو مورفي) . وقادته شراسة الدادية الباكرة إلى إطلاق ألقاب مضحكة على رسومه النافرة ومنحوتاته مثل « قميص السرة والرأس » ، كما أدخلت علاقاته مع السورياليين في باريس بعد ١٩٢٤ اتجاها «حيوي الشكل » داخل السوريالية .

بعد ١٩٢٢ أخذت البنائية الروسية وجهة نفعية وتحولت إلى تجارة ، فتراجع وانحسر فن « ماليفيتش » الصوفي . لكن في الوقت نفسه ، كان بعض الفنانين في ألمانيا من أمثال «لازلو موهولي ناجي» (١٨٩٥-١٩٤٦) يدعمون التطورات «البنائية» . وفي فرنسا تبنى فنانون من أمثال « سيزار دوميلا » و« چان جوران » الخط الأشد جمودا الذي سلكه « موندريان » ، في حين استحدث« بن نيكلسون » (١٨٩٤-١٩٨٢) في لندن أسلوبا هندسيا ابتداء من ١٩٣٣ ، كما فعل ذلك أيضا « بورجوين ديلر » و« فريتز جلارنر » في نيويورك .

وتعد التعبيرية التجريدية تطورا رئيسا في الفن التجريدي ، وقد ظهرت في نيويورك وضمت مجموعة من الأساليب الفردية . كان أوسع أصحابها أثرا بعد ١٩٤٣ هوج« اكسون بولوك » (١٩١٢-١١ أغسطس ١٩٥٦) صاحب لوحة « إيقاع الخريف » (١٩٥٠) الذي مات في حادث سير ، وبعد ١٩٤٧ الهولندي « فيليم دي كونيج » (١٩٠٤-١٩٩٧) صاحب لوحتي « الموجة » (١٩٤٢-١٩٤٤) و« امرأة . أنا » (١٩٥٠-١٩٥٢) . وكان يكمن وراء هذا التطور الرغبة في التأكيد السوريالي للعملية الإبداعية نفسها ، المقترنة برغبة التحرر من القيود الضيقة للفن الهندسي التجريدي والبنية التكعيبية .

وبعد ١٩٤٧ ، جذب أسلوب « اللوحات السائلة » لـ « بولوك » الانتباه إلى حركة يد الفنان ، وتحدى بصورة حاسمة الأشكال التجريدية الضيقة ، التي سادت العشرينيات والثلاثينيات . وبذلك ظهر نوع جديد تماما من الرسم التجريدي ، تمثل في لوحة «أسود وأبيض » لـ « بولوك » . وقد اقتفى أثر هذا الفنان آخرون ، حافظوا على استقلالهم الفردي ، مثل « فرانز كلاين » (١٩١١-١٩٦٢) ، الذي بدأ سنة ١٩٥٠ يرسم لوحات من الأبيض والأسود مثل « الزعيم » .

الواقعية الجديدة

وحين بلغ النزاع بين الرسامين الغنائيين والعقلانيين ذروته في نحو سنة ١٩٥١ ، ظهرت الواقعية الجديدة استفزازية ، طموحا ، فنية ، في كل من باريس ونيويورك . ويمكن القول بأن « الواقعية الجديدة » في فرنسا و« الفن الشعبي » أو « البوب » في أمريكا متقاربان في التوجه إلى حد كبير . وسار عمل الواقعيين الجدد الفرنسيين في خط مواز لعمل « روبرت راوشينبرج » (١٩٢٥-) - صاحب لوحة « مونوجرام » الشهيرة (١٩٥٥-١٩٥٩) وكذلك لوحة « الوادي » (١٩٥٩) ، التي يقال إنها تركت أثرا واضحا على برنامج وكالة « ناسا » الأمريكية لغزو الفضاء - و« چونز » ، بعد أن انضم إليهم « اروزنكويست » و« توم ويسلمان » (المولود سنة ١٩٣١) و« چيم داين » والنحات « چورج سيجال » (١٩٢٤-٢٠٠٠) و«كلايس أولدنبرج » و«آندي وارهول» (١٩٢٦-١٩٨٧) ، بينما انتقل « روي ليختنشتاين » (١٩٢٣-١٩٩٧) من الرسم التجريدي إلى الرسوم الشعبية المسلسلة .

وعلى الرغم من أن الواقعيين الجدد والفنانين الشعبيين تقاسموا الافتتان بالأشياء العادية الشائعة نفسها ، فإنه يتعين عدم الخلط بينهما . فكل حقيقة يومية تقدمها الواقعية الجديدة الباريسية في كامل عريها كانت مادة للفن الشعبي كذلك . أما الفن الأمريكي فقد اختلف عنها ؛ لأنه استخدم تقنيات الاتصال الجماهيري كالإذاعة والصحافة . وعلى الرغم من أن الفن الشعبي انتشر في أوروبا وحظي باهتمام أجيال جديدة من الفنانين ، فإنه لم يجد جمهورا ، ولم يحظ الأسلوب الشخوصي الجديد المستورد من الولايات المتحدة بصدى واسع في مدارك وثقافة القارة الجديدة . أما الفن البصري « الأوب » فقد وجد فنانين يزاولونه وجمهورا يرحب به في الولايات المتحدة

وفي غيرها . وفي ١٩٦٥ نظم متحف الفن الحديث في نيويورك معرضا للأعمال البصرية بعنوان « العين المستجيبة » ، سرعان ما أعقبته عروض أخرى في عدد من صالات العرض الفنية ، مما أعطى زخمًا أكبر ، بعد أن خبت الفورة الكامنة في الفن الشعبي .

ويبقى أن الواقعية الأمريكية عاشت ذروة تألقها في الفترة بين مطلع القرن العشرين حتى ١٩٤٥ ، وجمعت رسامين من عدة توجهات ، لكنهم اتفقوا على الملاحظات الواقعية للمشاهد التي يرسمونها ، وكان من أبرز رموزها « إدوارد هوبر » (١٨٨٢-١٩٦٧) صاحب لوحة « من جسر وليامزبري » (١٩٢٨) .

وربما تعين أن نشير إلى بعض الأسماء المهمة الأخرى في عالم الفن التشكيلي ، مثل : الإيطالي « فرانكو چنتيليني » (١٩٠٩-١٩٨١) الذي تذكرنا أعماله بـ «جويا» و«دوميه» و« شاجال » ، مع اختلاف المدارس الفنية التي ينتمون إليها ، و« وليام هلمان هونت » (١٨٢٧-١٩١٠) ، و« آرشيل جوركي » (١٩٠٤-١٩٤٨) ، و« خوليو جونزاليس » (١٨٧٦-١٩٤٢) ، و« چون سارجنت » (١٨٥٦-١٩٢٥) ، و« فرديناند هودلر » (١٨٥٣-١٩١٨) ، و« فلوريس فيرستر » (١٨٦١-١٩٢٧) ، و« هنري فانتان لاتور » (١٨٣٦-١٩٠٤) ، و« لوفيس كورنث » (١٨٥٨-١٩٢٥) ، و« إيجور شيل » (١٨٩٠-١٩١٨) ، والأمريكية « چورچيا أوكيف » (١٨٨٧-١٩٨٦) التي قدمت رسومها شبه التجريدية دراسات جديدة في تصوير الورد ، والرسام المكسيكي « دييجو ريفيرا » (١٨٨٦-١٩٥٧) ، الذي جمع بين واقعية الفن الشعبي والدعاية الثورية مع لمحات من الرموز البيزنطية والأزتيكية ، ومن أشهر لوحاته « رجل عند مفترق الطرق » (١٩٣٣) ، وزوجته الرسامة المكسيكية المبدعة « فريدا كالو » (١٩٠٧-١٩٥٤) ، التي استطاعت أن تخط لنفسها نهجا خاصا وأسلوبا فريدا في التصوير ، خاصة تصوير الذات في إشراقاتها وتجلياتها وبواطنها التي لا تدرك ، كما هو واضح في لوحاتها «الحضن المتداخل » (١٩٤٩) و« الإطار » (١٩٣٨) و« القيصرة الباكية » (١٩٤٨) .
ويعد النحات الإنجليزي « هنري مور » (١٨٩٨-١٩٨٦) من أهم رواد النحت المعاصر ، وكان ثائرا على المدرسة الأكاديمية ، بينما تأثر بالنحت المكسيكي والزنجي والمصري القديم في أعماله المبتكرة التي تهتم بالعلاقة بين الكتلة والفراغ .

رمـوز عربيـة

ومن أبرز رمـوز الفن التشـكيلي في مـصـر والعـالـم العـربي ، خـلال القـرن العشرين :

« محمد ناجي » (١٧ يناير ١٨٨٨-٥ إبريل ١٩٥٦) مؤسس فن التصوير المصري الحديث ، وصاحب لوحة « الخبيز » الشهيرة ، و« محمود سعيد » (٨ إبريل ١٨٩٧-١٩٦٤) زهرة فناني جيل الرواد وصاحب لوحات « الرسول » و« ذات العيون العسلية » (١٩٤٣) و« المرأة والقلل » (١٩٣٠) و« البشـارة » (١٩٥٠) ، و« راغب عيـاد » (١٠ مارس ١٨٩٢-١٩٨٢) ، الذي عني بتصوير الحياة الشعبية ، وبيئة الفلاح ، ودراسة الحيوان ، و« يوسف كامل » (١٨٩١-١٩٧١) الرسام الانطباعي ، و« أحمد صبري » (١٨٨٩-١٩٥٥) الرسـام الأكاديمي ، و« منير كنعان » (١٩١٨-١٩٩٩) ، و« حسين بيكار » (٢ يناير ١٩١٢-) ، المولود في حي الأنفوشي في مدينة الإسكندرية .

ومن لبنان تألق الفنانون التشكيليون : « قيصر الجميل » (١٨٩٨-١٩٦٩) ، «مصطفى فروخ» (١٩٠٢-١٩٥٧) ، و« صليبـا الدويهي » (المولود سنة ١٩١٢) ، والنحات « يوسف الحويك »، ومن العراق برز «عبد القادر رسام » (١٨٨٩-١٩٥٢) ، والحاج « سليم الموصلي » ، والنحات « جواد سليم » (١٩٢٠-١٩٦١) ، والخزاف «سعد شاكر» . وفي سوريا ذاع صيت « توفيق طارق » (١٨٧٥-١٩٤٠) ، و« ميشيل كـرشـه » (١٩٠٠-١٩٧١) ، و« عبـد الوهاب أبو السعـود » (١٨٩٧-١٩٥١) ، و«چورچ خوري » ، وبرز النحاتان « فتحي محمد » (١٩١٧-١٩٥٨) ، و« محمود جلال » (١٩١١-١٩٧٣) ، في حين برز في ليبيـا « عوض أعبيدة » ، وفي تونس «بيحيى التركي» ، و« علي بن سالم » بأسلوبه الزخرفي الشرقي ، و« عمار فرحات » بلوحاته الوجهية ، و« جلال عبد الله » رسام المنمنمات ، و« الزبير التركي » ، إلى جانب النحات « الهادي السلمي » .

ويعد « محمد راسم » رائد الفن التشكيلي في الجزائر ، وجاء بعده « الزواوي معمري » ، و« محمد أزميرلي » . وفي المغرب نبغ « أحمد رياطي الطنجي » الذي اهتم بتصوير الحياة الاجتماعية ، و« محمد سرغيني » ، و« أحمد الشرقاوي »

(١٩٣٤-١٩٦٧) ، و« الجيلالي غرباوي » (١٩٣٠-١٩٧١) ، والنحاتان « محمد مليجي » ، و« مولاي أحمد إدريس » .

ومن المبدعين أيضا « صبري راغب » (المولود في ٣ ديسمبر ١٩٢٠) ، الذي رسم عديدًا من الشخصيات الشهيرة ، مثل : الجنرال « فرانكو » رئيس إسبانيا سنة ١٩٥٨ ، ورئيس إندونيسيا « أحمد سوكارنو » سنة ١٩٥٩ ، والرئيس السوري « شكري القوتلي» سنة ١٩٥٦ .

كذلك نذكر « سيف وانلي » (١٩٠٦-١٩٧٩) ، الذي نال شهرة واسعة في رسم الراقصين والممثلين، وشقيقه «إبراهيم أدهم وانلي» (١٩٠٨-١٩٥٩)، و« عبدالغني أبو العينين » (١٩٢٩-١٩٩٨) ، و« جاذبية سري » المولودة سنة ١٩٢٥ ، و« إنچي أفلاطون » (١٩٢٤-١٩٨٧) صاحبة لوحة « أحلام معتقلة » ، و« نازلي مدكور » (١٩٤٩-) ، و« عباس شهدي » (١٩١٨-١٩٩٩) ، و« چورچ البهجوري » (١٩٣٥-) فنان الخط الواحد ، وهو صاحب مدرسة خاصة في رسم الوجوه ، و«عبدالعزيز درويش » (١٩١٨-١٩٨١) صاحب لوحة « مهرج السيرك » ، ومن أشهر أعماله الجدارية تلك التي تبلغ ٢٣ مترًا بارتفاع ثلاثة أمتار في مجمع المحاكم في شارع الجلاء في القاهرة، و« محمد حامد عويس » (١٩١٩-) صاحب لوحات «الصيادين» و« القيلولة » و« وردية الليل » و« الحصاد » ، و« حسن محمد حسن» (١٩٠٦-١٩٩٠) صاحب لوحات « المسيح يصلب مرتين » و« عائدون » و« حريق المسجد الأقصى » و« المشردون » التي تعكس حسه القومي ، و« محمد حسن » (١٨٩٢-١٩٦١) الذي أحيا دور « الفنان الصانع » الذي شهدته مصر الفرعونية ، و« جمال السجيني » (١٩١٧-١٩٧٧) ، و« الدسوقي فهمي » (المولود سنة ١٩٣٨) ، و« صلاح طاهر » (١٩١١-) بلوحاته الثرية الزاخرة بالمعاني ، و« حسن فؤاد » (١٩٢٦-١٩٨٥) ، و«كامل مصطفى » (١٩١٧-١٩٨٢) ، و« حامد ندا » (١٩٢٤-١٩٩٠) صاحب لوحة « الفتاة والحصان » ، و« عبد الهادي الجزار » (٢٣ مارس ١٩٢٥- ١٩٦٦) ، الذي اعتقلته السلطات سنة ١٩٤٩ بسبب رسمه لوحة « الكورس الشعبي » أو « الجوع » المحفوظة حاليا في متحف الفن الحديث في القاهرة .

ولا يفوتنا الحديث عن نجوم آخرين في مجال الفنون الجميلة من أبرزهم المثال المصري « محمود مختار » (١٨٩١-١٩٣٤) ، الذي تعتبر أعماله امتدادا للفن المصري

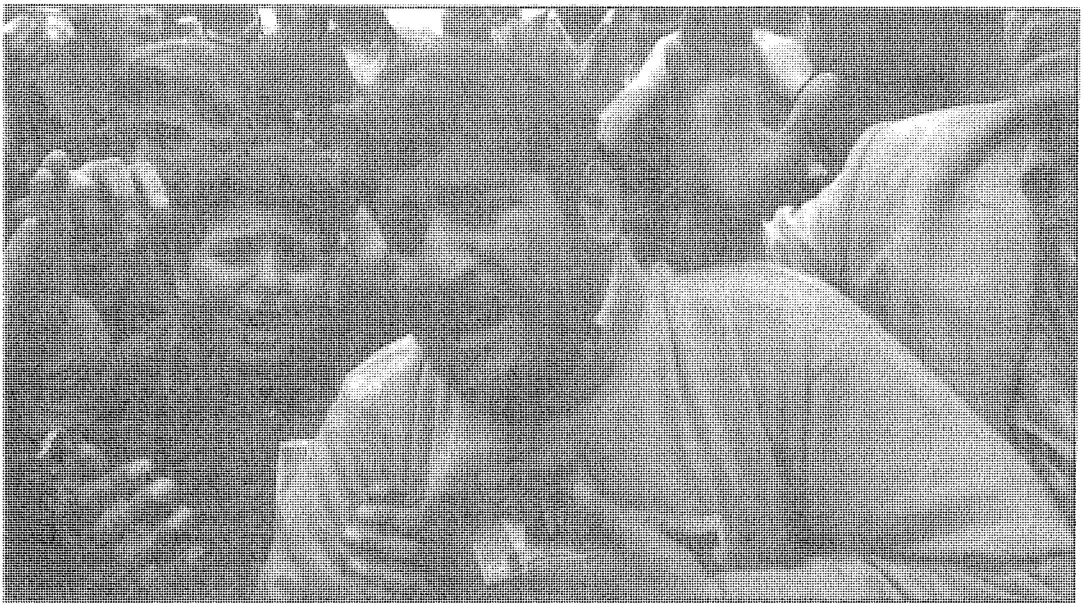
القديم ، ومن أشهر أعماله الميدانية تمثال نهضة مصر ، وتمثال « سعد زغلول » ، وله متحف يحمل اسمه في القاهرة يضم مجموعة كبيرة من أعماله الفنية

ويعد المثال «أنطون حجار» (٢٦ نوفمبر ١٨٩٣-١٩٦٢) من الأسماء البارزة من الرعيل الأول للفنون الجميلة ، وقد أبدع مجموعة كبيرة من التماثيل النصفية لكبار الشخصيات المصرية والدولية ، مثل تماثيل : «سعد زغلول» (١٩٢٧) و« محمود مختار » (١٩٣٥) و« الشيخ سلامة حجازي » (١٩٣١) و« أحمد ماهر باشا » (١٩٤٥) و« چورچ أبيض » (١٩٤٨) و« خليل مطران » (١٩٤٧) و« لورانس العرب » والجنرال الفرنسي « جوفر » (١٩١٧) ، إلى جانب تمثاله العملاق « ست الكل » ، الذي يمثل فلاحة مصرية واقفة في اعتداد وقد حملت بين يديها أعواد نباتات ترمز إلى الخير .

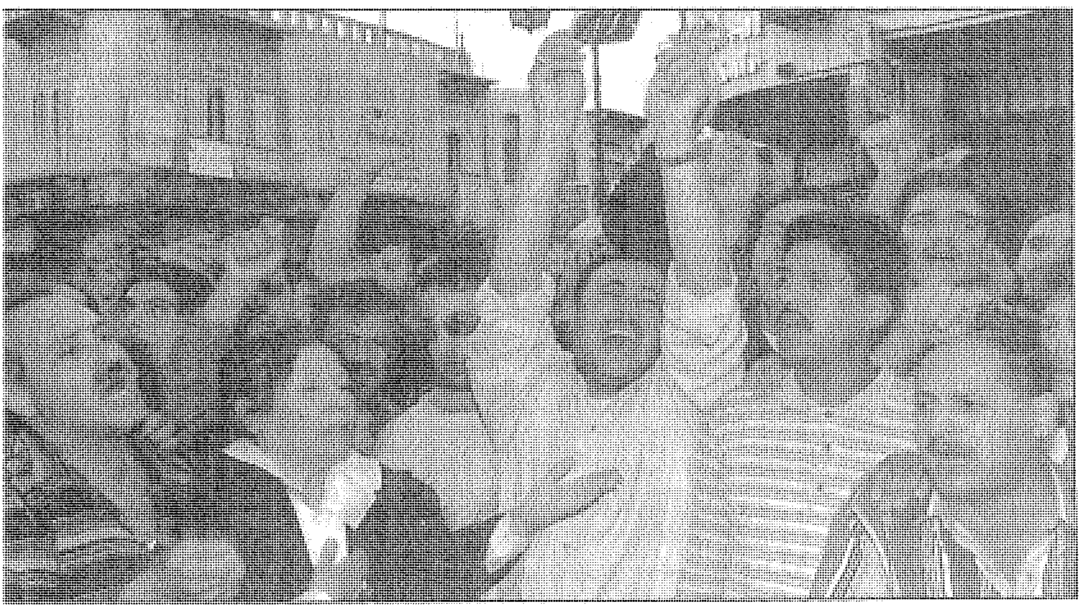
ولعلنا نضيف إلى القائمة بعض رسامي الكاريكاتير في مصر والعالم العربي ، مثل الفلسطيني « ناجي العلي » (١٩٣٨-١٩٨٧) ابن قرية الشجرة ، التي تقع بين الناصرة وطبريا في الجليل الشمالي من فلسطين ، الذي اغتيل برصاصة أصابت رأسه في العاصمة البريطانية لندن؛ بسبب أعماله الناقدة للأوضاع العربية المتردية التي ظل شاهدا عليها « حنظلة » بطل رسوماته الكاريكاتيرية ، الذي يعد رمزا للضمير الجمعي للشعب العربي الفلسطيني ، وكذلك السوري « عدنان فرزات » ، واللبناني « محمود كحيل »، والليبي « محمد الزواوي » .

ومن مصر : « الكسندر هاكوب صاروخان » (١٨٩٨-١٩٧٧) ، الذي ولد في أرداتورج في أرمينيا ، واستقر في مصر منذ سنة ١٩٢٤ ، وتفرغ للكاريكاتير السياسي ، و« محمد عبد المنعم رخا » (١٩١١- إبريل ١٩٨٩) ، و« صلاح چاهين » (١٩٣٠-١٩٨٦) الفنان والشاعر المبدع في أكثر من مجال ، و« عبد السميع عبد الله » (١٩١٦-٥ يناير ١٩٨٥) ، و« بهجت عثمان » (٢٧ سبتمبر ١٩٣١-٢ يونيو ٢٠٠١) ، و«زهدي» - اسمه الحقيقي «طه إبراهيم العدوي» - (١٩١٧-١٩٩٤) ، و« إيهاب شاكر » (١٩٣٣-)، و«مصطفى حسين» (١٩٣٧-) ، و«جمعة فرحات» (٢ إبريل ١٩٤١-) ، و« أحمد حجازي » ، و«چورچ البهجوري» (١٩٣٢-) ، وكذلك «محيى الدين اللباد » (١٩٤٠-) .

*   *   *



أردنيون يبكون في أثناء جنازة الملك حسين

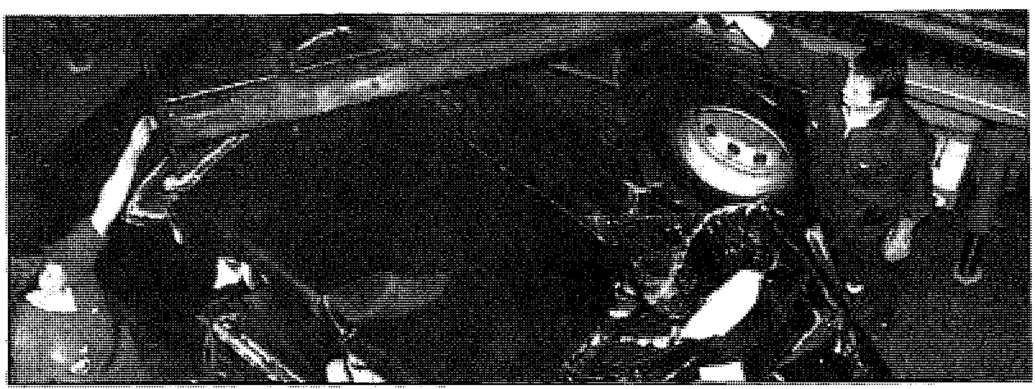


حزن وصدمة في الشارع السوري عقب وفاة الرئيس السوري حافظ الأسد

34

زعماء .. في جنازة

في وداع المشاهير في أنحاء العالم تظهر حقيقة مشاعر الشعوب تجاههم ، وكلما ازداد حجم الجنازة وأعداد المشيعين ، كان ذلك مؤشرا على أن صاحب الجثمان شخص يحظى بشعبية واسعة ، وحب كبير من جانب جمهور المشيعين . . وعلى مر التاريخ المعاصر ، أقيم عديد من الجنائز الضخمة لتشييع مشاهير من ساسة وفنانين ووطنيين ، وتبين للجميع - من خلال مراسم تلك الجنائز - مدى الشعبية الطاغية والحب الكبير ، اللذين يحظى بهما أصحابها ممن غادروا دنيانا . . ومن جنازة : « ديانا » إلى جنازة «المهاتما غاندي» ، و« جون كيندي » ، و«ونستون تشرشل» ، «وجمال



بعد مصرعها في حادث مؤسف .. أقيمت جنازة ضخمة ومؤثرة للأميرة « ديانا »

عبد الناصر» ، و« أنور السادات » ، و« الملك حسين » ، و« الملك الحسن الثاني » وغيرهم ، نلتقط هذه اللمحات السريعة عن قصص أشهر الجنازات في القرن العشرين .

أحدث جنازة ضخمة شهدها العالم أخيرا ، هي جنازة « ديانا » أميرة ويلز في سبتمبر ١٩٩٧ ، التي شارك فيها ٦ ملايين شخص ، احتشدوا على امتداد الطريق من كاتدرائية وستمنستر حتى منزل عائلتها في ألثورب . وكان الموكب الجنائزي قد غادر قصر كينجستون في صباح اليوم ، وغطت النعش ألوان الملكية البريطانية ، إضافة إلى ثلاث باقات من الزهر الأبيض ، بينما جرت عربة المدافع التي حملت النعش ستة جياد ، محاطة بـ« الويلش جاردز » المشهورين بزيهم الأحمر ، وقبعاتهم السوداء العالية .

وطاف الموكب طوال ساعتين أحياء لندن التاريخية ، وسط جو من الوجوم كانت تقطعه بين الحين والآخر صيحات نحيب وبكاء ، بينما هتف البعض الآخر « ديانا . . نحبك » ، وألقى البعض الآخر باقات الورد على الموكب الحزين .

وبعد انتهاء الصلاة على الجثمان ، تجمعت حشود كبيرة على الطريق بين لندن وألثورب - مسقط رأس الأميرة « ديانا » ، الواقع على بعد ١٢٠ كيلومترا شمال غرب العاصمة البريطانية - وخرجت ملكة بريطانيا « إليزابيث الثانية » سيرا على الأقدام إلى مدخل قصر بكنجهام الملكي ، لانتظار الموكب ، أما الأمير « تشارلز » وولداه « وليام » و« هاري » ، فقد ساروا خلف النعش في المرحلة الأخيرة التي سبقت الوصول إلى الكاتدرائية .

وكم تأثر البريطانيون وهم يستمعون إلى المطرب « إلتون چون » يردد خصيصًا لهذه المناسبة الحزينة أغنية « شمعة في مهب الريح » .

وإذا قلبنا في أوراق الذاكرة فسنعود إلى ٣٠ يناير ١٩٤٨ ، عندما اغتيل الزعيم المناضل في الهند « المهاتما غاندي » ، بعد أن أطلق عليه مواطن هندوسي متعصب اسمه « ناتورام جودس » الرصاص ثلاث مرات، ليصرخ « غاندي »، وهو يقول : « رام . . رام » أي « يا إلهي . . يا إلهي » قبل أن يلفظ آخر أنفاسه بعد ذلك بنحو ٢٥ دقيقة .

وقد لف جثمان « غاندي » بملاءة بيضاء من القطن ، وترك وجهه مكشوفا ، بينما تناثرت حول الجثمان أوراق الورد ، في حين شارك مليونا شخص في تشييع جثمانه على ضفاف نهر « جومنا » وهم يبكون وينتحبون لرحيل هذا الزعيم الهندي ، الذي نذر نفسه من أجل السلام واستقلال الهند . وقد ألقي رماد رفاته -وفق الطقوس الهندوسية- في نهر « جومنا » ، بينما كان « بانديت نهرو » - رئيس وزراء الهند آنذاك - يحث الحشود الغاضبة على عدم اللجوء إلى العنف ، تعبيرا عن حزنهم على رحيل « غاندي » .

مشهد مهيب آخر جرت وقائعه في بريطانيا ، عندما توفي الملك « چورج السادس» ، الذي ارتقى العرش البريطاني بعد تنازل شقيقه الأكبر « إدوارد الثامن » سنة ١٩٣٦ بهدف الارتباط بالمرأة التي أحبها والزواج بتلك السيدة المطلقة وهي « واليس سمسون » .

وطوال سنوات حكمه ، حاول « چورج السادس » أن يقترب أكثر من عامة البريطانيين خاصة خلال سنوات الحرب العالمية الثانية ، التي رفض فيها أن يغادر قصر بكنجهام الملكي الذي تعرض للقصف . ولدى وفاته سنة ١٩٥١ ، أقيمت له جنازة ضخمة ، شاركت فيها وريثته على عرش بريطانيا الملكة « إليزابيث الثانية » ، واحتشد المشيعون على جانبي الطريق إلى وندسور؛ لإلقاء النظرة الأخيرة على نعش الرجل ، الذي حكم بريطانيا خلال أحرج سنوات تاريخها المعاصر .

وتولت ستة أحصنة رمادية سحب العربة العسكرية ، التي نقلت الجثمان إلى المقبرة، بينما جر جندي خلف العربة حصانا لا يركبه أحد ، في تقليد عسكري يرمز إلى سقوط أحد المحاربين الأبطال .

الوداع .. تشرشل

وبعد حياة حافلة بالانتصارات السياسية والعسكرية ، شيع البريطانيون جثمان رئيس وزرائهم الشهير « ونستون تشرشل » في ٣٠ يناير ١٩٦٥ ، سارت الجنازة في شوارع لندن ، وسط ٣٠٠ ألف من مشيعي « تشرشل » ، الذي توفي عن عمر يناهز ٩٠ سنة في ٢٤ يناير ١٩٦٥ .

تم لف نعش « تشرشل » بعلم بريطانيا ، وتولت عربة عسكرية نقل الجثمان من كنيسة وستمنستر إلى كاتدرائية سانت بول ، التي أقيمت فيها مراسم الجنازة ، وحضر المراسم في الكاتدرائية ٣ آلاف شخص ، من بينهم ملكة بريطانيا « إليزابيث الثانية » ، التي كسرت التقاليد الملكية المتبعة ، وانتظرت وصول الجثمان إلى الكاتدرائية ، شأنها في ذلك شأن غيرها من عامة البريطانيين .

وعقب انتهاء المراسم ، نقل النعش وسط شوارع لندن وبكاء الجماهير إلى تاور بيتر ، على ضفاف نهر « التيمس » ، وأطلقت ١٧ طلقة مدفعية تحية للسياسي البارع ، الذي قاد بريطانيا خلال الحرب العالمية الثانية ، ثم نقل النعش عبر النهر إلى محطة «واترلو » قبل وصوله إلى اكسفورد شاير ، التي دفن فيها جثمان « تشرشل » ، وبالتحديد في مقبرة « بلادون تشرش يارد » ، إلى جانب جثمان والديه ، وعلى مسافة قصيرة من قصر بلينهايم الذي عاشت فيه عائلة « تشرشل » طوال قرنين من الزمان .

وفي ليلة ٥ مارس ١٩٥٣ توفي الطاغية « جوزيف ستالين » وخرجت صحيفة « البرافدا » الرسمية مجللة باللون الأسود ، بينما كان السوفيت - بمن في ذلك دائرة المقربين من « ستالين » - لا يصدقون أنه مات ، ويخشون أن تكون مجرد إغماءة أو غيبوبة ! وربما فسر ذلك سر تزاحم السوفيت ووقوفهم في طابور طويل ، امتد إلى نحو عشرة كيلومترات لإلقاء النظرة الأخيرة على جثمان « ستالين » الذي تم تحنيطه .

وحضر ٥٠ ألف شخص جنازة الزعيم الأمريكي الأسود « مارتن لوثر كنج » ، الذي اغتيل في ٤ إبريل ١٩٦٨ . أقيمت مراسم الجنازة في أطلانطا بولاية چورچيا الأمريكية ، وشارك فيها ممثلون عن الحكومة الأمريكية ، ووقعت مصادمات عنيفة بين الأمريكيين السود ورجال الشرطة خلال تشييع الجثمان ، لقي خلالها عدد من المتظاهرين ورجال الشرطة مصرعهم ، في حين أصيب آخرون بجروح .

وبعد اغتيال « مارتن لوثر كنج » بنحو شهرين ، وفي ٥ يونيو ١٩٦٨ اغتيل السيناتور « روبرت كينيدي » مرشح الحزب الديمقراطي للانتخابات الرئاسية الأمريكية ، وشيع جثمانه عشرات الألوف من الأمريكيين ، وتقدمهم أفراد عائلة « كينيدي » التي فقدت الشقيقين « چون » و« روبرت » في غضون أقل من خمس سنوات .

الشعلة الموقـدة

وفي ٢٥ نوفـمـبـر ١٩٦٣ ، ووسط أجـواء مـفـعـمـة بالحـزن والأسى ، شـيع الأمريكيون جثمان رئيسهم الشاب « جون كينيدي » ، الذي اغتيل بالرصاص في أثناء زيارة له لدالاس بولاية تكساس الأمريكية ، وجرت مراسم دفن « كينيدي » في مقبرة « أرلنجتون » القومية ، بينما كانت أرملته « جاكلين كينيدي » ترتدي السواد ، وتغطي وجهها بغطاء أسود شفاف ، وأوقدت « جاكلين » في أثناء مراسم الجنازة شعلة إلى جوار قبر « كينيدي » ، لتظل رمزا للرئيس الأمريكي الراحل ، الذي تم نقل جثمانه إلى المقبرة ، فوق عربة عسكرية من مبنى « الكابيتول » الذي كان موجودا فيه بعد اغتياله .

وخيم الصمت التام فوق واشنطن في أثناء تشييع جثمان « كينيدي » ، الذي سار خلفه عشرات الألوف من ممثلي ٩٣ دولة ، إلى جانب الزوجة الجميلة « جاكلين » ، التي اختارت أن تسير خلف الجثمان طوال الطريق من البيت الأبيض ، حتى كاتدرائية سانت ماثيو للرومان الكاثوليك ، وشارك في التشييع أيضا الأمير « فيليب » ، ممثلاً لملكة بريطانيا إليزابيث الثانية ، وكذلك رئيس وزراء بريطانيا - آنذاك - « أليك دوجلاس هيوم » .

ونقلت سيارة خاصة طفلي الرئيس الراحل ، وهما : « كارولين » « ٦ سنوات آنذاك » و« جون » « ٣ سنوات » إلى الكاتدرائية ، وعقب انتهاء المراسم في الكاتدرائية ، رفع « جون » الابن يده إلى جانب رأسه تحية لجثمان والده ، وهو في الطريق إلى مقبرة أرلنجتون ، في صورة نادرة ، بكى خلالها الطفل الصغير دموعًا ساخنة على فراق والده .

وشهد جنازة الرئيس المصري الراحل « أنور السادات » في أكتوبر ١٩٨١ ، عدد من كبار الشخصيات الدولية ، وأقيمت المراسم وسط إجراءات أمنية مشددة على امتداد طريق النصر ، وصولا إلى النصب التذكاري الذي دفن فيه « السادات » بعد أيام قلائل من اغتياله في حادث المنصة الشهير ، في أثناء عرض عسكري أقيم بمناسبة ذكرى انتصارات حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، ولم يشارك في تشييع جثمان « السادات » من القادة والزعماء العرب سوى الرئيس السوداني الأسبق « جعفر نميري » ، بينما حضرها عدد من رؤساء الدول الأجنبية !

وفي ٧ يناير ١٩٨٩ ، توفي إمبراطور اليابان المثير للجدل « هيروهيتو » ، عن عمر يناهز ٨٧ سنة ، وفي ٢٤ فبراير من السنة نفسها ، أقيمت جنازته الرسمية ، وهي تعد الأضخم في تاريخ آسيا المعاصر ، إذ بلغ عدد مشيعيه أكثر من نصف مليون شخص ، من بينهم ممثلو ١٦٣ دولة . واحتشد المشيعون على جانبي شوارع العاصمة طوكيو ، على الرغم من هطول الأمطار ، بينما تم نقل نعش الإمبراطور الراحل إلى حدائق «شينجو كوجيوين » الإمبراطورية ، وأقيمت بعد ذلك مراسم « الشنتو » اليابانية ، قبل وضع الجثمان في مقبرة إلى جوار قبر والده .

وسار نحو نصف مليون شخص وراء نعش « إيفا بيرون » - زوجة الجنرال « خوان بيرون » ، رئيس الأرجنتين الراحل - وذلك بعد وفاة « إيفيتا » التي كانت يوما ما ممثلة للإذاعة والسينما ، بعد ارتباطها في سن السادسة عشرة بزوج يعمل في مجال السياسة . كانت « إيفا بيرون » قد مارست نشاطا سياسيا ، وحصلت على نفوذ قوي أيام حكم زوجها لبلاده ، ونظمت اتحادات النساء العاملات ، وأيدت حق المرأة في التصويت ، كذلك إلزامية التعليم الديني في مدارس الأرجنتين .

وفي جنازتها المهيبة بعد وفاتها متأثرة بمرض السرطان في ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٢ ، بكى الأرجنتينيون هذه السيدة التي أحبوها ، ورددوا الأغنية الشهيرة التي يقول مطلعها : « لا تبك من أجلي يا أرچنتين » ، وحمل عديد من أنصار « إيفيتا » صوراً ضخمة لها .

وانفطر قلب شعب فرنسا بعد وفاة قائد مهم ، هو الچنرال « شارل ديجول » فى نوفمبر ١٩٧٠ ، ونفذ المشرفون على الجنازة وصيته الدقيقة ، بأن تكون مراسم تشييعه بسيطة دون بهرجة ، وأن تتم في مسقط رأسه ، وهي قرية كولومبي لي ديو إيجليسيس ، ولم يحضر الجنازة أي من أعضاء الحكومة الفرنسية آنذاك بناء على طلبه!

وتضمنت الوصية - التي نفذت بدقة - دعوة رجال ونساء فرنسا إلى تشييع جثمانه ، وبالفعل شارك عشرات الألوف في الجنازة ، وحاولوا تتبع مسار النعش ، على الرغم من ضيق الشوارع والأزقة في قرية ديجول . ولف نعش الرئيس الفرنسي الراحل بعلم فرنسا ، ونقل في الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم ١٢ نوفمبر ١٩٧٠ إلى

الكنيسة فوق عربة عسكرية، بينما أخذت أجراس الكنيسة تقرع حدادا على «ديجول»، وكانت أرملة الرئيس الفرنسي الراحل موجودة في الكنيسة وحدها مع عدد من أفراد الأسرة والمقربين من « ديجول » .

ووفق ما ذكره معلق راديو فرنسا في وصف الجنازة ، فإنها كانت شديدة البساطة والتأثير في النفوس، بينما وضع نصب تذكاري من الرخام شاهدًا على قبر «ديجول» .

وفي المقابل احتشد ٦ آلاف شخص في نوتردام بالعاصمة الفرنسية باريس ، في جنازة رمزية لـ « ديجول » ، وشارك في مراسم هذه الجنازة زعماء العالم ، ومن بينهم الرئيس الفرنسي - آنذاك - « چورچ بومبيدو » ، والرئيس الأمريكي « ريتشارد نيكسون » ، والسوفيتي « بودجورني » ، وولي عهد بريطانيا الأمير « تشارلز » ، و« أنديرا غاندي » رئيسة وزراء الهند ، وشاه إيران ، وإمبراطور إثيوبيا .

وفي مساء اليوم نفسه ، تحدى مئات الألوف من الفرنسيين برودة الطقس والرياح العاصفة والأمطار ، ونظموا مسيرة من الشانزليزيه إلى قوس النصر ، وهم في صمت مطبق حزنا على رحيل « ديجول » .

وحين مات « مصطفى كمال أتاتورك » في ١٠ نوفمبر ١٩٣٨ ، تحولت تركيا كلها إلى مأتم كبير ، وسار وراء جنازته الشباب والكهول ممن يؤمنون بأفكاره واتجاهاته ، وهم يبكون رمز تركيا الحديثة .

وفي ٢٥ يوليو ١٩٩٩ شيعت جنازة العاهل المغربي الراحل الملك « الحسن الثاني » في مشهد مهيب شارك فيه نحو ٥٠ رئيس دولة ، ومئات الألوف من المغاربة الذين عبروا عن حزنهم على رحيل مليكهم بطريقة أثرت سلبًا على الإجراءات الأمنية المتخذة لضمان حسن سير موكب التشييع . وكانت مراسم التشييع الأطول زمنًا ومكانا من نوعها ، فقد استغرقت نحو ست ساعات ، وقطع المشاركون في مسيرة التشييع نحو ثلاثة كيلومترات هي المسافة الفاصلة بين القصر الملكي في الرباط ، ومسجد حسان -الذي يشرف على نهر أبي رقراق - حيث دفن جثمان الملك « الحسن الثاني » بالقرب من ضريح والده الملك « محمد الخامس » الذي توفي سنة ١٩٦١ . بدأت مراسم التشييع قرابة الساعة الرابعة بعد الظهر ، حيث سجي الجثمان في القاعة ، التي كان من

عادة الملك الراحل أن يشارك فيها خلال شهر رمضان المبارك في الدروس الدينية في القصر الملكي في الرباط ، وألقى عليه الملوك والرؤساء والمسئولون الأجانب والعرب المشاركون النظرة الأخيرة .

وفي نحو السادسة والربع ، أخرج نعش الملك الراحل من القصر ، وكان ملفوفا بعلم أخضر كتبت عليه آيات قرآنية بالأحرف الذهبية . وحمل النعش على الأكتاف لمسافة قصيرة ، وبدأت مسيرة التشييع التي استمرت نحو ساعتين ونصف الساعة . ووضع الجثمان على عربة مدفع سار خلفها العاهل المغربي الجديد الملك « محمد السادس » (٣٦ سنة) وشقيقه الأمير « رشيد » وأفراد عائلته ، ثم المسئولون المغاربة ، وعدد من الضيوف ، تقدمهم الرئيسان الأمريكي « بيل كلينتون » والفرنسي « جاك شيراك » .

وفي يوم الاثنين الموافق ٨ فبراير ١٩٩٩ ، شيع جثمان العاهل الأردني الملك «حسين» في مشهد لايقل مهابة ولا تأثيرا ، بحضور ابنه الملك « عبد الله بن الحسين » (٣٨ سنة) الذي خلف والده في الحكم ، وعدد كبير من زعماء العالم ، يتقدمهم الرئيس الأمريكي « بيل كلينتون » وثلاثة من الرؤساء الأمريكيين الذين سبقوه ، والرئيس الروسي « بوريس يلتسين » ، والرئيسان المصري « حسني مبارك » والسوري « حافظ الأسد » .

وخرج نحو مليون سوري لتشييع جثمان « الأسد » (٤ أكتوبر ١٩٣٠-١٠ يونيو ٢٠٠٠) في موكب جنائزي مهيب في ١٣ يونيو ٢٠٠٠ . وانتحبت السيدات المتشحات بالسواد وسط خضم متلاطم من المشيعين ، الذين حملوا صورا للرئيس السوري الراحل - الذي قاد بلاده من ١٩٧١ حتى وفاته - ونجله « بشار » الذي انتخب رئيسا لسوريا خلفا لأبيه . وحمل المشيعون ملصقات تحمل عبارات مثل « الألم كبير . . والأمل كبير » و« نبايعك يا بشار » .

وتدفق آلاف المواطنين السوريين ، وقد اعتصرهم الحزن على الطريق المؤدية من مقر إقامة الرئيس السوري الراحل إلى ساحة الأمويين في وسط العاصمة السورية دمشق ، التي اكتست بالسواد ، بينما اصطف جنود مسلحون على الجانبين بامتداد الطرق الستة المؤدية إلى ساحة الأمويين ، التي تحولت إلى كتلة بشرية .

تقدم « بشار » المشيعين خلف النعش ، وسار ضمن الموكب الذي تحرك على إيقاع الموسيقى الجنائزية « ماهر الأسد » الشقيق الأصغر لـ « بشار » ، و« جميل الأسد » الشقيق الأصغر للرئيس السوري الراحل ، وعدد من كبار المسئولين . ألقى نظرة الوداع على نعش « الأسد » عدد من كبار الشخصيات العربية والأجنبية ، في مقدمتهم الرؤساء : المصري « حسني مبارك » ، والجزائري «عبد العزيز بوتفليقة» ، والفلسطيني « ياسر عرفات » ، واللبناني « إميل لحود » ، والسوداني « عمر البشير » ، واليمني «علي عبد الله صالح » ، وأمير الكويت الشيخ « جابر الأحمد الصباح » ، و« طه معروف » نائب الرئيس العراقي ، و« مادلين أولبرايت » وزيرة الخارجية الأمريكية .

وحلقت طائرة هليكوبتر فوق الموكب ، حملت جثمان « الأسد » الملفوف بعلم سوريا من منطقة المالكي الراقية مقر إقامة الأسد على عربة مدفع في ساحة الأمويين متوجهة إلى قصر الشعب على حافة جبل قاسيون -الذي تقبع عند سفحه دمشق الفيحاء- حيث سجي جثمانه لمدة خمس ساعات قبل نقله إلى مطار المزة ، لينقل جوا إلى اللاذقية قرب بلدة القرداحة مسقط رأسه التي دفن فيها . وبعد صلاة الجنازة في مسجد ناعسة- الذي سمي باسم والدة الزعيم الراحل- تم دفن الجثمان بمدافن الأسرة، ربما بجوار نجله الراحل « باسل » ، الذي لاقى حتفه في حادث سيارة سنة ١٩٩٤ .

جنـازة المليـون

وتعد جنازة الرئيس المصري الراحل « جمال عبد الناصر » مؤثرة بحق ، إذ كانت أول جنازة يسير فيها الملايين من أكثر من بلد عربي وإفريقي . فقد توفي في ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ ، وأقيمت له جنازة ضخمة يوم الخميس الموافق الأول من أكتوبر ١٩٧٠ ، شارك فيها بضعة ملايين من جموع الشعب المصري ، لدرجة أن النعش الموضوع على عربة مدفع بدا كما لو أنه نقطة بيضاء في بحر أسود . ومنذ الساعة السادسة والدقيقة الأربعين من صباح يوم الخميس - حيث فتحت العيادة التي كان يرقد فيها جثمان «عبد الناصر » منذ يوم الاثنين - وصراخ الجماهير يخترق قصر القبة حزنًا على الفقيد ، الذي بدأت إجراءات غسله وتكفينه قبل أن يضمه نعش لف بعلم مصر ، ويحمله ثمانية من الضباط إلى القاعة الكبيرة المواجهة لمكتبه ، التي كان يستقبل فيها

وفود العالم ، ثم يخرج من القصر الجمهوري للمرة الأخيرة ، وحرس الشرف يؤدون التحية الأخيرة لرئيسهم . . وسيارة الإسعاف تحمله إلى الطائرة الهليكوبتر ، ثم تحلق الطائرة رقم ١٠٢٩ وهي تحمل الجثمان في الجو ، وتدور فوق منزل الزعيم وفوق قصر القبة دورة الوداع ، ثم تأخذ طريقها إلى نادي الجزيرة على ارتفاع منخفض ، تتطلع إليها العيون من خلال ضباب الدمع .

وأصبح الطريق من مبنى مجلس قيادة الثورة - حيث تبدأ الجنازة - إلى مسجد « جمال عبد الناصر » - حيث يوارى الجثمان الثرى - مفروشا بالبشر . وفي الساعة العاشرة وعشر دقائق ، وصلت سيارة إسعاف بيضاء متجهة بظهرها إلى مدخل مبنى مجلس قيادة الثورة ، وتوقفت لفتح أبوابها واتجه إليها عشرة من ضباط الحرس الجمهوري لحمل النعش ، وامتدت مئات الأيدي إلى النعش صارخة بالبكاء ، ثم حملته الأيدي المرتعشة إلى المنصة .

وبدأت محاولات لإفساح الطريق أمام عربة المدفع السوداء لتصل إلى النعش ، غير أنها توقفت على بعد ثلاثة أمتار منه ، وتدافع عدد من ضباط الحرس الجمهوري في محاولة مستميتة للإحاطة بالنعش وحمله إلى العربة ، واستغرقت عملية عبور الأمتار الثلاثة وسط كتلة البشر عشر دقائق ، استطاع بعدها الضباط أن يضعوا النعش فوق العربة التي اصطف على جانبيها حرس شرف من ٤٠ ضابطا برتبة لواء .

واستعدت الوفود للتحرك مع الجنازة ، وتحركت عربة المدفع خارجة من مبنى مجلس قيادة الثورة ، وأخذت موقعها أمام الملوك والقادة والزعماء - ممن جاءوا للمشاركة في تشييع الجثمان - الذين كان يقف أبناء « عبد الناصر » وإخوته أمامهم وخلف المدفع . وأعطيت شارة بدء الجنازة ، وبدأت طلقات المدافع تدوي في جميع أنحاء مصر وداعا وحزنا ، وبدأت عربة المدفع تتحرك ببطء . لكن جنازة « عبد الناصر » لم تسر رسمية غير عشرة أمتار فقط ، ثم تراجعت كل الترتيبات ، وانهدمت الحواجز ، لتحيط بها الجموع وتذوب التشكيلات التي تتقدم عربة النعش في بحر الجماهير . وكانت هناك ثلاث سيارات مدرعة تشق طريقا أمام عربة المدفع التي تحمل الجثمان ،

لكن السيارات المدرعة ذابت هي أيضا في البشر ودموع الناس . وتقرر أن تسحب عربة المدفع التي تجرها الخيول - إنقاذا للموقف - من الركب ، وأن تحمل النعش عربة مدرعة ، لتستطيع اجتياز الزحام الشديد .

وضعت الترتيبات بحيث ينتهي وداع الجماهير للجثمان عند ميدان العباسية ، ثم يترك الجثمان لأسرة الزعيم الراحل لكي يواروه الثرى . غير أن اندفاع الجماهير كان أقوى من الترتيبات ، ليستمر التشييع إلى أن يصل الجثمان إلى مسجد « جمال عبد الناصر » في منشية البكري . وبجهد خارق تمكن رجال الجيش والحرس الجمهوري من حمل الجثمان إلى المسجد ، ليؤم شيخ الجامع الأزهر الشيخ الدكتور « محمد الفحام » صلاة الجنازة على الفقيد ، وبعدها نقل الجثمان ليسجى في قبر ملحق بالمسجد ، بينما سرب من المقاتلات المصرية يزمجر في الأجواء ، والمدافع تطلق ٢١ طلقة في تحية وداع للزعيم الراحل .

بكى المشيعون أحد كبار الزعماء العرب في تلك الفترة ، وعلا هتاف « الله أكبر . . ناصر . . ناصر » و« الوداع يا جمال يا حبيب الملايين ، ثورتك ثورة كفاح عشتها طول السنين » ، وسار وراء الجنازة كبار الشخصيات العامة المصرية والأجنبية ، في الوقت الذي خرج فيه الملايين في الدول العربية في مسيرات تشييع يكون فيها الزعيم العربي .

وفي الرابعة من بعد ظهر يوم ١٠ فبراير ١٩٠٨ ، وافى الأجل الزعيم الوطني المصري « مصطفى كامل » ، وعلى الرغم من أن « دانلوب » ، المستشار البريطاني لوزارة المعارف « التعليم حاليا » ، أمر بمنع التلاميذ من ترك المدارس والاشتراك في تشييع جثمان « مصطفى كامل » ، فإنهم لم يحفلوا بأمره ، ووثبوا فوق الأسوار العالية ، واقتحموا الأبواب المغلقة .

ويقول « قاسم أمين » في وصف جنازة « مصطفى كامل » : « ١١ فبراير سنة ١٩٠٨ . . يوم الاحتفال بجنازة « مصطفى كامل » ، هو المرة الثانية التي رأيت فيها قلب مصر يخفق . المرة الأولى كانت يوم تنفيذ حكم دنشواي « ضد مصريين أبرياء

اتهموا بقتل جنود بريطانيين » ، أما في يوم الاحتفال بجنازة صاحب « اللواء » ، فقد ظهر ذلك الشعور ساطعًا في قوة جماله ، وانفجرت فرقعة هائلة سمع دويها في العاصمة . . ووصل صدى دويها إلى جميع أنحاء القطر ، هذا الإحساس الجديد ، هذا المولود الجديد الذي خرج من أحشاء الأمة ، من دمها وأعصابها ، هو الأمل الذي يبتسم في وجوهنا البائسة ، هو الشعاع الذي تسيل حرارته إلى قلوبنا الجائعة الباردة . . هو المستقبل » .

بل إن الزعيم القومي المصري « سعد زغلول » قال في مذكراته عن جنازة «مصطفى كامل» التي شارك فيها نحو ربع مليون مشيع ، وقد سار تلاميذ جميع المدارس الثانوية العالية والخصوصية في الجنازة ، كل مدرسة وراء علم مخصوص مجلل بالسواد ، مكتوب عليه اسمها ، وساد الصمت ، كأن على رءوسهم الطير ، وعلت أصوات الكثير بالبكاء والنحيب ، وكان التلاميذ يحملون بالتبادل النعش على الأعناق ، ونظم كثير من الشعراء والكتاب مراثي فيه .

كذلك شيع نحو ١٠٠ ألف شخص جنازة « مصطفى النحاس » - الزعيم التاريخي لحزب الوفد المصري - بعد وفاته في ٢٣ أغسطس ١٩٦٥ ، بينما يروي التاريخ أنه لم يسر سوى نفر قليل من المشيعين في جنازة الزعيم المصري « عمر مكرم » بعد وفاته سنة ١٨٢٢ ، منفيا عن مدينته التي يحبها في دمياط !

ومنعت وزارة الداخلية في حكومة « عبد الهادي باشا » الاحتفال بتشييع جثمان الشيخ « حسن البنا » - المرشد العام للإخوان المسلمين- عقب اغتياله في ١٢ فبراير ١٩٤٩ ، ولم يشارك في التشييع سوى أبيه وأمه وزوجته وأخواته ، الذين خرجوا بنعشه في صمت في ساعة مبكرة من صباح يوم الجنازة ، وتولى والده - الذي كان في التسعين من العمر - غسل وتكفين « البنا » ، وحمل نعشه بمساعدة ثلاث سيدات من أسرته ، التي خلت وقتها من الرجال وكان معظمهم معتقلين !

سار الموكب الفريد في شوارع خالية من المارة ، نظرا لأن الوقت كان مبكرا ، وامتلأت هذه الشوارع فقط برجال الأمن ، حتى وصل الموكب إلى جامع قيسون للصلاة ، فوجدوا الجامع خاليا تماما من الخدم ، فصلى عليه والده !

أمـا جنازة كل من سيـدة الغناء العـربي « أم كلثـوم » ، التي تـوفيت في ٣ فبـراير ١٩٧٥ ، والعندليب الأسمر « عبد الحليم حافظ » ، الذي توفي في ٣٠ مارس ١٩٧٧ ، فقد شارك فيـهـما مئات الألوف من المشيعين ، الذين بكوا من قلوبهم لرحيل اثنين من أجـمل الأصوات الغنائيـة العـربيـة لعدة عـقـود مضت . كـانت السلطات المصرية قـد حاولـت تأخير نبأ وفاة « أم كلثوم » رسميا ، على الرغم من انتشاره بين الناس ؛ خـوفا من تدفق الجماهير الحـزينة ، وانفجار بركان الحزن في شوارع مصر والعالم العـربي . شـارك في تشييع جثمـاني « أم كلـثـوم » و« عبـد الحليم حـافظ » ، ممثلون رسـميـون للرئيس المصري - آنذاك - « أنور السـادات » ، بينما أغمي على الكثيرين خلال مراسم التشيـيع ، بسـبب الزحـام الخانق ، وتوتر الأعـصاب لفقد هذين العـملاقين في عـالم الغنـاء العـربي . كان « السـادات » نفسـه قد أصـيب بالإغمـاء في أثنـاء تشـييع جثمان « عبد الناصر » !

❊ ❊ ❊

المراجـــع

أولا : المراجع باللغة العربية :

ــــــ (١٩٩٩) تسلسل للحروب الكبرى في الألفية الثانية ، لندن ، وكالة رويترز (خدمة اللغة العربية) ، ١٨ أكتوبر .

ــــــ (١٩٩٩) ثورة ١٩١٩/ ٨٠ عاما (عدد خاص) ، أيام مصرية : القاهرة ، ٤ يوليو ، العدد ٩ .

ــــــ (١٩٩٩) حكم مصر في ١٠٠ عام : من الخديوية إلى السلطنة ومن الملكية إلى الجمهورية (عدد خاص) ، أيام مصرية : القاهرة ، ١٢ أكتوبر ، العدد ١٠ .

ــــــ (١٩٩٩) التقرير الاستراتيجي العربي ١٩٩٨ ، مؤسسة الأهرام : القاهرة .

ــــــ (١٩٩٥) جيران في عالم واحد : نص تقرير لجنة « إدارة شؤون المجتمع العالمي » (ت : مجموعة من الباحثين) ، سلسلة عالم المعرفة : الكويت ، العدد ٢٠١ ، سبتمبر .

ــــــ (٢٠٠٠) حصاد الذاكرة : القرن العشرون في أحداثه وعلاماته . . العقد الثامن ، الحياة : لندن ، العدد ١٣٤٦٣ ، ٢٠ يناير ، ص . ١٥-١٨ .

ــــــ (١٩٨٩) السياسة بين السائل والمجيب (ج ١ و٢) (ت : مركز الأهرام للطباعة والنشر : القاهرة .

ـــــ (دون تاريخ) السياسة بين السائل والمجيب (ج ٣) (دون مترجم) مؤسسة آدم للنشر والتوزيع : مالطا .

ـــــ (١٩٩٩) عباقرة القرن ، مجلة العلم (القاهرة) ، العدد ٢٧٦ ، سبتمبر ، ص . ٦-٦٣ .

ـــــ (١٩٩٦) الفن السابع في مائة عام : قرن من السحر ، مجلة القافة العالمية ، العددان ٧٤ و٧٥ (عدد خاص) ، يناير ومارس ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب : الكويت .

ـــــ (٢٠٠٠) الفنان بريشته ، النصف الآخر (ملحق خاص تصدره مجلة نصف الدنيا) ، مؤسسة الأهرام : مصر ، العدد ١٢ ، ٣٠ إبريل .

ـــــ (٢٠٠٠) القرن شخصيات وأحداث ، البيان (ملحق خاص) ، الإمارات العربية المتحدة، العدد ٧ ، ٢٠ يناير .

ـــــ (١٩٩٩) قصة قرن ، الأهرام (ملحق خاص) العدد ٤١٢٩٦ ، ٣٠ ديسمبر .

ـــــ (٢٠٠٠) ١٠٠ سنة في ذاكرة التاريخ (٣ أجزاء) ، كتاب الجمهورية ، دار التحرير : القاهرة .

ـــــ (١٩٨٤) معجم أعلام الفكر الإنساني (المجلد الأول) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب : القاهرة .

ـــــ (١٩٥٣) الموسوعة العربية الميسرة ، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر : القاهرة .

ـــــ (١٩٦٨) موسوعة الهلال الاشتراكية ، دار الهلال : القاهرة .

ـــــ (١٩٩٨) مونيكا وكلينتون فضيحة العصر : النص الكامل لتحقيقات المدعي الأمريكي ، دار الهلال : القاهرة .

ـــــ (٢٠٠٠) نساء في السلطة ، مجلة المعلومات : سوريا ، العدد ١٤٦ ، ٢٤ مايو ، ص . ٢٢-٢٣ .

أبو حمد ، عرفان (١٩٧٩) أعلام من أرض السلام ، شركة الأبحاث العلمية والعملية ، جامعة حيفا : حيفا .

أبوالروس ، أيمن (١٩٩٠) أشهر الجواسيس ، مكتبة ابن سينا : القاهرة .

أبو عامود ، محمد سعد (١٩٩٢) جماعات الإسلام السياسي والعنف في الوطن العربي ، دار المعارف : القاهرة .

أبو لسان ، مصطفى (١٩٩٩) القرن العشرون في علاماته ومغامراته الانعطافية (٤) الفضاء : خطوة صغيرة للإنسان . . قفزة عملاقة للبشرية ، الوسط : لندن ، العدد ٤١١ ، ١٣ ديسمبر ، ص . ٤٢-٤٧ .

أحمد ، أحمد يوسف (١٩٨٨) الصراعات العربية-العربية (١٩٤٥-١٩٨١) : دراسة استطلاعية ، مركز دراسات الوحدة العربية : بيروت .

أرجمان ، يوسف (١٩٩٣) ثلاثون قضية استخبارية وأمنية في إسرائيل (ت : دار الجليل) ، دار الجليل : عمان .

أرمسترونج ، هـ . س . (١٩٥٢) مصطفى كمال الذئب الأغبر (دون مترجم) كتاب الهلال ، العدد ١٦ ، يوليو ١٩٥٢ ، دار الهلال : القاهرة .

الإمام ، صلاح (١٩٩٢) حدث في مثل هذا اليوم ، مدبولي الصغير : القاهرة .

أمزيان ، محمد سلام (١٩٧١) عبد الكريم الخطابي وحرب الريف ، مطبعة المدني : القاهرة .

باربر ، بنجامين (١٩٩٨) عالم ماك : المواجهة بين التأقلم والعولمة (ت : أحمد محمود) ، المجلس الأعلى للثقافة : القاهرة .

الببلاوي ، حازم (٢٠٠٠) النظام الاقتصادي الدولي المعاصر من نهاية الحرب العالمية الثانية إلى نهاية الحرب الباردة ، سلسلة عالم المعرفة : الكويت ، العدد ٢٥٧ ، مايو .

بخيت ، السيد (وآخرون) (٢٠٠٠) حضارة الحاسوب والإنترنت ، كتاب العربي ، العدد (٤٠) ، ١٥ أبريل ، مجلة العربي : الكويت .

بدران ، إبراهيم وفارس ، محمد أسعد (إعداد) (١٩٧٨) موسوعة العلماء والمخترعين ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر : بيروت .

البدري ، حنان (٢٠٠٠) الجاني في حادث الطائرة المصرية ، دار الخيال : القاهرة-لندن .

بدوي ، جمال (١٩٨٨) نظرات في تاريخ مصر ، سلسلة تاريخ المصريين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب : القاهرة .

البعلبكي ، منير (١٩٩٩) المورد : قاموس إنكليزي - عربي (الطبعة ٣٣) ، دار العلم للملايين : بيروت .

بلاك ، إيان بلاك وموريس ، بيني (١٩٩٢) حروب إسرائيل السرية : تاريخ الأجهزة الاستخبارية الإسرائيلية (ت : عمار جولاق وعبد الرحيم الفرا) ، الأهلية للنشر والتوزيع : عمان .

بهجت ، أحمد رأفت (إعداد) (١٩٩٦) مصر مائة سنة سينما ، مهرجان القاهرة السينمائي الدولي العشرون : القاهرة .

بوزلو ، چون (١٩٩٢) ستيفن هوكنج العبقري والكون (ت : مصطفى إبراهيم فهمي) ، كتاب الهلال ، العدد (٤٩٨) ، يونيو ، دار الهلال : القاهرة .

تايلور ، فيليب (٢٠٠٠) قصف العقول : الدعاية للحرب منذ العالم القديم حتى العصر النووي (ت : سامي خشبة) ، عالم المعرفة : الكويت ، العدد ٢٥٦ ، أبريل .

التميمي ، عبد المالك خلف (١٩٨٣) الاستيطان الأجنبي في الوطن العربي : المغرب العربي-فلسطين-الخليج العربي . . دراسة مقارنة ، سلسلة عالم المعرفة : الكويت ، العدد٧١ ، نوفمبر .

توفيق ، أشرف (١٩٩٨) وقيدت ضد مجهول : الملف السري للموت الغامض ، مكتبة رجب : القاهرة .

توفيق ، سعد الدين (١٩٦٩) قصة السينما في مصر ، كتاب الهلال ، العدد (٢٢١) ، أغسطس ، دار الهلال : القاهرة .

توماس ، جوردون (١٩٩٩) التاريخ السري للموساد (ت : أحمد عمر شاهين ومجدي شرشر) ، كتاب سطور : القاهرة .

جاليانو ، آدواردو (١٩٩٤) الشرايين المفتوحة لأمريكا اللاتينية : تاريخ مضاد (ت : أحمد حسان وبشير السباعي) ، دار النيل : الإسكندرية .

الجزائري ، سعيد (١٩٩٠) أسمهان ضحية الاستخبارات ، رياض الريس للكتب والنشر : لندن .

جيتس ، بيل (١٩٩٨) المعلوماتية بعد الإنترنت (طريق المستقبل ، سلسلة عالم المعرفة : الكويت ، العدد ٢٣١ ، مارس .

حافظ ، صلاح الدين (١٩٨٢) صراع القوى العظمى حول القرن الإفريقي ، سلسلة عالم المعرفة : الكويت ، العدد ٤٩ ، يناير .

حبيب ، علي عباس (١٩٩٩) الفدرالية والانفصالية في إفريقيا : دراسات تحليلية عن إرتريا -جنوب السودان - بيافرا ، مكتبة مدبولي : القاهرة .

حسن ، أحمد (٢٠٠٠) أشرار العالم ، كتاب اليوم ، عدد فبراير ، دار أخبار اليوم : القاهرة .

حمودة ، عادل (١٩٨٥) اغتيال رئيس . . بالوثائق : أسرار اغتيال أنور السادات (الطبعة الثانية) ، سينا للنشر : القاهرة .

حمودة ، عادل (١٩٨٧) سيد قطب من القرية إلى المشنقة . . تحقيق وثائقي (الطبعة الثانية) ، سينا للنشر : القاهرة .

حمودة ، عادل (١٩٩٥) صلاة الجواسيس : الإسلام والسعودية والمخابرات الأمريكية ، دار سفنكس : القاهرة .

حمودة ، عادل (٢٠٠٠) عشت في قرنين ، مكتبة الأسرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب : القاهرة .

الخولي ، سمحة (١٩٩٢) القومية في موسيقا القرن العشرين ، عالم المعرفة : الكويت ، العدد ١٦٢ ، يونيو .

الخولي ، يمنى طريف (٢٠٠٠) فلسفة العلم في القرن العشرين : الأصول-الحصاد-الآفاق المستقبلية ، عالم المعرفة : الكويت ، العدد : ٢٦٤ ، يناير .

دافيز ، دانيال ف . ولنجر ، نورمان (١٩٩٠) تاريخ الولايات المتحدة منذ ١٩٤٥ (ت : عبدالعليم إبراهيم الأبيض) ، الدار الدولية للنشر والتوزيع : القاهرة-الكويت-لندن .

دحلي ، أحمد حسن (١٩٩٤) جنوب إفريقيا : كل الطرق تؤدي إلى العنف ، الوسط : لندن، العدد ١١٨ ، ٢ مايو ، ٣٦-٣٧ .

الدسوقي ، محمد كمال (١٩٦٩) تاريخ ألمانيا ، دار المعارف : القاهرة .

دكروب ، محمد (١٩٨٧) شخصيات وأدوار في الثقافة العربية الحديثة ، مؤسسة الأبحاث العربية : بيروت .

دكروري ، هناء (١٩٩٩) العالم في قرن : المظاهرات الطلابية من باريس إلى بكين وجاكرتا . . صرخات احتجاج غاضبة لتغيير الواقع ، الأهرام : مصر ، ١٨ ديسمبر ، ص . ٥ .

دكمجيان ، ريتشارد هرير (١٩٩٢) الأصولية في العالم العربي (ت : عبد الوارث سعيد) ، دار الوفاء : المنصورة (مصر) .

الراعي ، علي (١٩٩٩) المسرح في الوطن العربي (الطبعة الثانية) ، عالم المعرفة : الكويت ، العدد ٢٤٨ ، أغسطس .

الرافعي ، عبد الرحمن (١٩٩٩) ثورة ١٩١٩ : تاريخ مصر القومي من ١٩١٤ إلى ١٩٢١ (طبعة جديدة غير مرقمة) ، مهرجان القراءة للجميع ، مكتبة الأسرة : القاهرة .

ربيع ، محمد محمود ومقلد ، إسماعيل صبري (محرران) (١٩٩٤) موسوعة العلوم السياسية (جزءان) ، جامعة الكويت .

رحال ، باسم (٢٠٠٠) القرن العشرون في علاماته ومغامراته الانعطافية (٦) : عصر المرأة ، الوسط : لندن العدد ٤١٤ ، ٣ يناير ، ص . ٣٦-٦٣ .

رزق ، يونان لبيب (٢٠٠٠) ديوان الحياة المعاصرة ، الحلقة ٣٣٤ : قيام تركيا الجديدة ، الأهرام : القاهرة ، ٢٩ يونيو ، ص . ٧ .

رفاعي ، عبدالعزيز (١٩٧٠) إفريقيا والعلاقات السياسية الدولية في عهد الاستقلال ، مكتبة الأنجلو المصرية : القاهرة .

رياض ، محمود (١٩٨١) مذكرات محمود رياض (ج ١) البحث عن السلام . . والصراع في الشرق الأوسط ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر : بيروت .

رياض ، محمود (١٩٨٦) مذكرات محمود رياض (ج ٢) الأمن القومي العربي . . بين الإنجاز والفشل ، دار المستقبل العربي : القاهرة .

رياض ، محمود (١٩٨٦) مذكرات محمود رياض (ج ٣) أمريكا والعرب ، دار المستقبل العربي : القاهرة .

الريس ، رياض نجيب (١٩٩٠) جواسيس العرب : صراع المخابرات الأجنبية (الطبعة الثانية) ، رياض الريس للكتب والنشر : لندن .

الزركلي ، خير الدين (١٩٨٤) الأعلام : قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين (الطبعة السادسة) ، دار العلم للملايين : بيروت .

زكي ، عبد الحميد توفيق (١٩٩٠) أعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة ، تاريخ المصريين (العدد : ٣٥) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب : القاهرة .

زكي ، عبد الحميد توفيق (١٩٩٣) المعاصرون من رواد الموسيقى العربية ، تاريخ المصريين (العدد : ٦٠) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب : القاهرة .

الزواوي ، محمود عبد الرحمن (١٩٨٨) جوائز الأوسكار ، كتاب الهلال ، العدد ٤٥٣ ، سبتمبر ، دار الهلال : القاهرة .

السابق ، جروان (١٩٧٤) معجم اللغات الوسيط : إنكليزي - فرنسي - عربي ، دار السابق للنشر : بيروت .

سالم ، لطيفة محمد (١٩٨٩) فاروق وسقوط الملكية في مصر (١٩٣٦-١٩٥٢) ، مكتبة مدبولي : القاهرة .

السبكي ، آمال (١٩٩٩) تاريخ إيران السياسي بين ثورتين (١٩٠٦-١٩٧٩) ، عالم المعرفة : الكويت ، العدد٢٥٠ ، أكتوبر .

ستيبانوفا ، ي .أ . (١٩٧٩) ماركس : سيرة حياته (ت : فهد كم نقش) ، دار التقدم : موسكو .

سعودي ، محمد عبدالغني (١٩٨٢) الجغرافية والعلاقات السياسية الدولية ، المكتبة النموذجية : القاهرة .

سعودي ، محمد عبد الغني (١٩٨٠) قضايا إفريقية ، عالم المعرفة : الكويت ، العدد ٣٤ ، أكتوبر .

سعيد ، حسين (إشراف) (١٩٧٢) الموسوعة الثقافية ، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر : القاهرة - نيويورك .

سلامة ، أحمد رجب (١٩٩٩) من قتل هؤلاء؟ : الاغتيال السياسي المعاصر ، دار الإسراء : عمان .

موسى ، رءوف سلامة (٢٠٠٠) موسوعة أحداث أعلام مصر والعالم ، دار المستقبل : القاهرة والإسكندرية ، مكتبة المعارف : بيروت .

سلامة ، غسان (١٩٨٧) المجتمع والدولة في المشرق العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية : بيروت .

سنكلير ، أندرو ولختهايم ، جورج وويليامز ، ريموند (١٩٩٤) ثلاثة وجوه للثورة : غيفارا - لوكاش - أورويل (ت : ماهر الكيالي) ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر : بيروت .

الشافعي ، حسن محمود (٢٠٠٠) قمم ورموز على طوابع البريد ، الهيئة العامة لقصور الثقافة : القاهرة .

شاؤول ، بول (١٩٨٧) كتاب الشعر الفرنسي الحديث (١٩٠٠-١٩٨٥) (الطبعة الثانية) ، دار الفارابي : بيروت .

شعبان ، سعد (١٩٩٧) الطريق إلى المريخ ، عالم المعرفة : الكويت ، العدد ٢٢٨ ، ديسمبر ١٩٩٧ .

صالح ، نور (١٩٧٣) جواسيس غيروا مجرى التاريخ : دراسة عن الحرب العالمية الثانية ، دار المعارف : القاهرة .

صبور ، محمد صادق (١٩٩٤) مناطق الصراع في العالم ، دار المعارف : القاهرة .

طلعت ، ياسر (١٩٩٤) موسوعة كأس العالم : قصة كأس العالم من أوروجواي ١٩٣٠ إلى أمريكا ١٩٩٤ ، مدبولي الصغير : القاهرة .

عارف ، محمد (٢٠٠٠) نجوم عربية في سماء الهندسة والعلوم العالمية للقرن العشرين ، الحياة: لندن ، العدد ١٣٤٤٩ ، ٥ يناير ، ص . ١١ .

عباس ، محمود (١٩٩٥) طريق أوسلو : موقع الاتفاق يروي الأسرار الحقيقية للمفاوضات ، (الطبعة الخامسة) ، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر : بيروت .

عبد السميع ، عمرو (٢٠٠٠) قراءة في تقرير اللجنة القومية الأمريكية لمواجهة الإرهاب (٢) : الخسائر في الشرق الأوسط محدودة بفضل الإجراءات المضادة ، الأهرام : القاهرة ، ١ يوليو ، ص . ٧ .

عبد القادر ، سيد (١٩٩٩) دماء على ثوب القرن العشرين : قصص أشهر الجرائم والمجرمين في ١٠٠ سنة ، (دون ناشر) .

عبد المعطي ، عفاف (٢٠٠٠) فتحي غانم قاصا ، الهيئة العامة لقصور الثقافة : القاهرة .

عبد الواحد ، حسين و رجب ، محمد (١٩٩٨) الليالي الحمراء في البيت الأبيض : النص الكامل لتقرير ستار عن فضيحة كلينتون ومونيكا ، أخبار اليوم : القاهرة .

عرفة ، عبد السلام صالح (١٩٩٣) المنظمات الدولية والإقليمية ، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان : مصراته (ليبيا) .

عريان ، عماد (٢٠٠١) الديمقراطيات الناشئة . . واقع مضطرب ومستقبل غامض من إندونيسيا إلى بيرو ، فصلية الديمقراطية ، مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية : القاهرة، العدد (٢) ، ربيع ٢٠٠١ ، ص . ١٥٩-١٦٤ .

العريس ، إبراهيم (١٩٩٩) القرن العشرون في علاماته ومغامراته الانعطافية (١) : أقصر العصور في تاريخ البشرية طبعته الحروب والكوارث والنجاحات والمتواليات الهندسية ، الوسط : لندن ، العدد ٤٠٨ ، ٢٢ نوفمبر ، ص . ٤٦-٥١ .

عصفور ، جابر (٢٠٠٠) هوامش على دفتر التنوير (الطبعة الثالثة) ، الهيئة العامة لقصور الثقافة : القاهرة .

العطار ، مختار (٢٠٠٠) آفاق الفن التشكيلي على مشارف القرن العشرين ، دار الشروق : القاهرة .

عطية الله ، أحمد (١٩٦٣/ ١٩٧٩) القاموس الإسلامي (خمسة أجزاء) ، مكتبة النهضة المصرية : القاهرة .

عكاشة ، ثروت (١٩٩٠) المعجم الموسوعي للمصطلحات الثقافية ، مكتبة لبنان/ الشركة المصرية العالمية للنشر-لونجمان : القاهرة/ بيروت .

علام ، محمد عبد الهادي (٢٠٠٠) الدبلوماسية المصرية في التسعينات : الانتقال إلى نظام دولي جديد ، دار إيجي مصر : القاهرة .

عودة ، عبدالملك (١٩٩٥) إفريقيا ومتغيرات ٩٤ ، كتاب الأهرام الاقتصادي ، العدد ٨٧ ، أبريل ، مؤسسة الأهرام : القاهرة .

غالي ، بطرس بطرس و عيسى ، محمود خيري (١٩٧٩) المدخل في علم السياسة (الطبعة السادسة) ، مكتبة الأنجلو المصرية : القاهرة .

غانم ، يحيى (٢٠٠٠) الارتزاق العسكري في إفريقيا . . الشيطان يعظ (ج١) : من «الكونديتيري» في الحملات الصليبية إلى مايك «المجنون» بالقارة السوداء! ، جريدة «الأهرام» ، ٢٥ سبتمبر ، ص ٦ .

غانم ، يحيى (٢٠٠٠) الارتزاق العسكري في إفريقيا . . الشيطان يعظ (ج٢) : التحول من السرية إلى العلنية ومن التعامل مع أجهزة دول إلى شركات عملاقة ، جريدة «الأهرام» ، ٣٠ سبتمبر، ص ٧ .

غزالي ، عبدالحليم (١٩٩٩) طالبان العمائم والمدافع والأفيون : أمراء الجهاد المضاد في أفغانستان ، دار الخيال : القاهرة-لندن .

غفوزديف ، يوري والكسندروف ، يوري (١٩٨٣) غرينادا : الإرهاب الأمريكي يتصاعد . . وثائق ووقائع وتعليقات (دون مترجم) ، وكالة نوفوستي : موسكو .

غويتيسولو ، خوان (١٩٩٦) دفاتر العنف المقدس : سراييفو-الجزائر-غزة/ أريحا-الشيشان (ت : طلعت شاهين) ، مصر العربية للنشر والتوزيع : القاهرة .

فرج ، السيد (١٩٨٨) رواد الرياضة في مصر ، مركز الأهرام للترجمة والنشر : القاهرة .

فرغلي ، إبراهيم (٢٠٠٠) حيدر حيدر لن يكون الأخير : قائمة الكتاب المطلوبين للإعدام ، الأهرام العربي : مصر ، العدد ١٦٩ ، ١٧ يونيو ، ص . ٧٢-٧٣ .

فريد ، سمير (٢٠٠٠) نجوم وأساطير في السينما المصرية ، مهرجان القراءة للجميع ، مكتبة الأسرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب : القاهرة .

فريد ، سمير (١٩٩٨) السينما العربية المعاصرة ، المجلس الأعلى للثقافة : القاهرة .

فشر ، هـ . أ . ل . (١٩٨٤) تاريخ أوروبا في العصر الحديث (١٧٨٩-١٩٥٠) الطبعة الثامنة (ت : أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع) ، دار المعارف : القاهرة .

فهمي ، عبدالرحمن (إعداد) (١٩٧١) يوميات زعيم الهيبيز مانسون ، كتاب الجمهورية (جزءان) ، كتاب الجمهورية العددان (٢٦) و(٢٧) ، دار التحرير : القاهرة .

فؤاد ، حسن (٢٠٠٠) جورج حبش . . الحكيم ، الأهرام العربي : مصر ، العدد ١٦٦ ، ٢٧ مايو ، ص . ١١ .

فولات ، ايريش (١٩٨٧) عين داود : عمليات الوحدات السرية الإسرائيلية (ت : أسيمة جانو) ، مكتبة مدبولي : القاهرة .

فولكمان ، إرنست (١٩٩٩) الجواسيس : عملاء سريون غيروا مجرى التاريخ (ت : مصطفى الرز) ، مكتبة مدبولي : القاهرة .

قابيل ، محمد (١٩٩٩) موسوعة الغناء المصري في القرن العشرين ، تاريخ المصريين (العدد : ١٣٩) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب : القاهرة .

قاسم ، محمود (١٩٩٥) موسوعة جائزة نوبل ، مكتبة مدبولي : القاهرة .

قاسم ، محمود ، ووهبي ، يعقوب (١٩٩٧) موسوعة الممثل في السينما المصرية (١٩٢٧-١٩٩٧) ، دار الأمين : القاهرة .

قاسم ، محمود (١٩٩٦) الأدب العربي المكتوب بالفرنسية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب : القاهرة .

قاسم ، محمود (٢٠٠٠) موسوعة أدباء نهاية القرن العشرين ، الدار المصرية اللبنانية : القاهرة

قطب ، مجدي (١٩٩٧) فضائح وأسرار من كواليس السياسة والمخابرات ، مكتبة العسلي : القاهرة .

الكاتب ، عبد الحميد (١٩٩٣) حكاية أتاتورك والإسلام ، كتاب اليوم ، العدد ٣٤٤ ، دار أخبار اليوم : القاهرة .

كاشمور ، إيليس (٢٠٠٠) صناعة الثقافة السوداء (ت : أحمد محمود) ، المشروع القومي للترجمة ، المجلس الأعلى للثقافة : القاهرة .

كلارك ، باريت (١٩٦٥) يوجين أونيل : دراسة في حياته وأدبه المسرحي (ت : حسن محمود عباس) ، المكتبة العصرية : صيدا - بيروت/ مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر : بيروت - نيويورك .

كوبر ، أرتيميس (١٩٩٦) القاهرة في الحرب العالمية الثانية (ت : محمد الخولي) ، دار الموقف العربي : القاهرة .

كوك ، دافيد أ . (١٩٩٩) تاريخ السينما الروائية - الجزء الأول (ت : أحمد يوسف) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

كولترمان ، أودو (١٩٨٢) معماريون معاصرون في الوطن العربي ، فنون عربية ، العدد ١ ، المجلد ٢ ، دار واسط للنشر : لندن ، ص . ٥٦-٧٣ .

كيسلر ، رونالد (١٩٩٥) فضائح البيت الأبيض (ت : حسن صابر) ، كتاب اليوم ، عدد أكتوبر ، دار أخبار اليوم : القاهرة .

لونا ، جوسيبي دي (١٩٩٧) موسوليني (ت : عادل دمرداش) الهيئة المصرية العامة للكتاب : القاهرة .

متولي ، محمود (١٩٨٥) مصر . . وقضايا الاغتيالات السياسية (ج١) ، كتاب الحرية : القاهرة .

المحلاوي ، حنفي (١٩٩٧) وقائع اغتيال حكام مصر بين الفشل والنجاح ، نهضة مصر : القاهرة .

محمد ، أنور (١٩٩٠) وراء كل ديكتاتور امرأة ، دار إيه . إم . : القاهرة .

محمد ، محسن (١٩٨٧) من قتل حسن البنا؟ (الطبعة الثانية) ، دار الشروق : القاهرة .

مقلد ، إسماعيل صبري (١٩٧٩) الاستراتيجية والسياسة الدولية : المفاهيم والحقائق الدولية ، مؤسسة الأبحاث العربية : بيروت .

مصطفى ، أحمد عبد الرحيم (١٩٧٨) الولايات المتحدة والمشرق العربي ، عالم المعرفة : الكويت ، العدد ٤ ، أبريل .

مصطفى ، هالة (١٩٩٥) الدولة والحركات الإسلامية المعارضة في عهدي السادات ومبارك ، مركز المحروسة للنشر : القاهرة .

منتصر ، صلاح (٢٠٠٠) الذين غيروا القرن العشرين ، مركز الأهرام للترجمة والنشر : القاهرة .

ميلمان ، يوسي ورافيف ، دان (١٩٩٠) جواسيس المخابرات الإسرائيلية : تاريخ وجغرافيا (ت : دار الجليل) ، دار الجليل : عمان .

نصيف ، مجدي (١٩٧٦) شيلي الثورة والثورة المضادة ، دار الثقافة الجديدة : القاهرة .

نيفينز ، آلان و كوماجر ، هنري ستيل (١٩٩٠) موجز تاريخ الولايات المتحدة (ت : محمد بدرالدين خليل) ، الدار الدولية للنشر والتوزيع : القاهرة-الكويت-لندن .

النقيب ، خلدون حسن (١٩٩١) الدولة التسلطية في المشرق العربي المعاصر ، مركز دراسات الوحدة العربية : بيروت .

النمنم، حلمي (١٩٩٨) الرائدة المجهولة : زينب فواز (١٨٦٠-١٩١٤)، دار النهر : القاهرة .

النيهوم ، الصادق (إشراف) بهجة المعرفة : موسوعة علمية مصورة ، المجموعة الثانية : مسيرة الحضارة (٣ أجزاء) ، الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان : طرابلس (ليبيا) .

الهرماسي محمد عبد الباقي (١٩٨٧) المجتمع والدولة في المغرب العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية : بيروت .

هيرست ، دافيد (دون تاريخ) البندقية وغصن الزيتون ، الهيئة العامة للاستعلامات : مصر ، سلسلة كتب مترجمة ، رقم ٧٣٧ .

هيكل ، محمد حسنين (١٩٨٨) حرب الثلاثين سنة ، الجزء الأول : سنوات الغليان ، مركز الأهرام للترجمة والنشر .

وهبة ، مجدي والمهندس ، كامل (١٩٨٤) معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب (الطبعة الثانية) ، مكتبة لبنان : بيروت .

ويلسون ، إ . ن . (١٩٩٨) العرش البريطاني أسرار وفضائح (ت : حسن صبري) ، كتاب الهلال ، العدد ٥٧١ ، يوليو ، دار الهلال : القاهرة .

ويلسون ، ج . ب . ل . (١٩٦٨) معجم الباليه (ت : محمود خليل النحاس وأحمد رضا) ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر : القاهرة .

ثانيا: المراجع باللغة الإنجليزية:

____ (1997) The Cassell Atlas of World History, Cassell: London.

____ (1994) Chambers Dictionary of World History, Chambers: UK.

_____ (1997) Chronicle of the Cinema: 100 Years of the Movies Dorling Kindrsley: London- New York- Sydney- Moscow.

____ (1989) Chronicle of the 20th Century, Longman:London.

____ (1997) Diana..An Extraordinary Life, Issue no.1, De Agostini: UK.

____ (1993) Encyclopedia of World Literature in the 20th Century (vol. 5), Contiuum: New York.

____ (1997) Great Events of the 20th Century, Time Books: New York.
____ (1999) The Guinness Book of Records, Guinness Publishing:
____ (2000) End of the Millennium, Saudi Gazette, (Saudi Arabia), 1st January, pp. 1-16.
____ (1994) The Hutchinson Dictionary of World History, Helicon: Oxford.
____ (1997) The Hutchinson Encyclopedia, BCA: London.
_____ (1999) The Hutchinson Factfinder: Facts. Figures. Dates. Events, Helicon: Oxford.
______ (1999) Images of '99, Year in Review, Arab Times: Kuwait (Special Section), 30-31 December.
____(1982) Merit Students Encyclopedia (vol.14), Macmillan Educational Company: New York.
_____ (1999) Millennium Milestones, Arab Times: Kuwait (Special Section), 30- 31 December.
_____ (1995) Nerve Gas Terror, Newsweek: New York, 3 April, pp. 11-16.
___ (1996) The 100 Greatest Films Ever Made, Empire, (U.K.), pp. 72-82.
____ (1999) 100 Heroes and Icons of the 20th Century, Time magazine (New York), 14 June.
_____ (1997) Person of the Century, Time magazine (New York), 31 December.
____ (2000) Rich List 2000, The Sunday Times: UK, 19 March.
____ (1998) Time Out Film Guide, Penguin Books: London.
____ (1992) Top 10 Films, Sight and Sound, (U.K.), pp. 18-36.
____ (1989) The 20th Century: A Chronicle in Pictures, Gallery Books: New York.
______(1995) The View From the Far Right, Newsweek: New York, 1 May, pp. 28- 30.
____ (1992) Variety Movie Guide, Hamlyn: London.
___ (2001) The World Almanac and Book of Facts: 2001, World Almanac Education Group: New Jersey.

______ (1999) Years of Horror, Years of Hope, Al-Ahram Weekly (20th Century Special Issue), 30 December.

Ambrose, K. (1949) The Ballet Lovers Companinon, Adam and Charles Black: Edinburgh.

Anspanger, F. (1989) The Dissolution of the Colonial Empires, Routledge: London.

Arnold, P. (1995) Great Crimes and Trials of the 20th Century, BCA: London- .New York.

Ash, R. (1997) The Top 10 of Everything, Dorling Kindersley: London-New York.

Baron, B. (1994) The Women's Awakening in Egypt: Culture, Society and The Press, New Haven, Yale University Press: London.

Besserglik, B. (1999) Loss of Faith Favours Burgeoning of Beliefs, AFP (Paris), 16 August.

Besserglik, B. (1999) War Shapes the World in a Blood-Soaked Century, AFP (Paris), 28 November.

Besserglik, B. (1999) Science, Public Hygiene Bring "Revolution in Longevity," AFP (Paris), 30 November.

Blundell, N. & Constable, N. (1995) Scandals: Shocking Events That Scandalised the World, Chancellor Press: UK.

Callery, S. (1995) Scandals: Gripping Accounts of the Exposed, Quintet: Australia.

Cross, R. (1996) World War II in Photography, Parragon: UK.

Cunliffe, M. (ed.) (1971) The London Times: History of Our Times, W.W. Norton
& Company.Inc: New York.

Danielson, V. (1997) The Voice of Egypt: Umm Kulthum, Arabic Songs, and Egyptian Society in the Twentieth Century, The University of Chicago Press: Chicago & London.

Ebeid, H., Fahmy, F. & El-Sherif, O. (2000) 25 Arab Leaders of the 20th Century, Pharaohs: Cairo, January Issue, pp. 56-72.

Fernandez-Armesto, F. (1995) Millennium: The History of Our Last Thousand Years, QPD: London.

Fernandez-Armesto, F. (1997) The Times Guide to the Peoples of Europe (revised edition), Times Books: London.

Heater, D. (1996) Our World This Century, Oxford University Press: New York.

Hodgson, G. (1995) People's Century (2 vols.), BBC Books: London.

Honderich, T. (ed.) (1995) The Oxford Companion to Philosophy, Oxford University Press: New York.

Jaffe, H. L. C. (1980) Pablo Picasso, Doubleday & Company: New York.

Jennings, P. & Brewster (1998) The Century, Doubleday: New York & London.

Katz, E. (1994) The Film Encyclopedia (2nd ed.), Harper Perennial: New York.

Kennedy, M. (1994) The Oxford Dictionary of Music(2nd edition), Oxford University Press: New York.

Hall, T. (ed.) (1996) They Died Too Young: The Brief Lives and Tragic Deaths of the Mega-Star Legends of Our Time, Parragon: UK.

Landry, C. (1999) Ballots, Bullets and the Box Shape 20th Century Politics, AFP (Paris), 29 November.

Lane, B. (1995) Chronicle of 20th Century Murder, Virgin Publishing Ltd. : UK.

Lewis, J. E. (1994) Eye-Witness the 20th Century: Eye-Witness Accounts of the Moments the Moments That Shaped Our Century, Robinson: London.

Magnusson, M. (1990) Chambers Biographical Dictionary (5th ed.), W & R Chambers Ltd.: Edinburgh.

Mailer, N. (1992) Marilyn, Chancellor Press: London.

Masland, T. & Barry, J. (1996) Buried Terror, Newsweek: New York, 8 April, pp. 22-25.

McLynn, F. (1999) Famous Trials: Cases That Made History, Chancellor Press: London.

Michel, H. (1975) The Second World War, Andre Deutsch: London.

Morgan, R. & Perry G. (1997) 1000 Makers of the Cinema, Thames and Hudson Ltd.: London.

Nawrat, C. & Hutchings, S. (1995) The Sunday Times Illustrated History of Football: The Post-War Years, Chancellor Press: London.

Nicholls, C. S. (ed.) (1996) The Hutchinson Encyclopedia of Biography, Helicon: Oxford.

Ohlin, P. (1999) From Doll's House to White House?, AFP (Paris), 17 August.

Ousby, I. (1996) The Cambridge Guide to Literature English, Cambridge Univer
sity Press: UK.

Pallot, J. & Levich, J. (1996) Virgin Film Guide (5^{th} ed.), Cine Books: London.

Polmar, N. &Allen, T. B. (1997) Spy Book: The Encyclopedia of Espionage, Greenhill Books: London.

Ripley, T. (1997) Mercenaries: Soldiers of Fortune, Parragon: UK.

Roberts, J. M. (1999) Twentieth Century: The History of theWorld, 1901 to 2000, Viking: New York.

Robertson, P. (1991) The Guiness Book of Movie Facts & Feats (4^{th} ed.), Guiness Publishing: London.

Ulyanovsky, R. (1980) Present-Day Problems in Asia and Africa: Theory, Politics, Personalities, Progress Publishers: Moscow.

Waller, P. & Rowett, J. (1995) Chronology of the 20^{th} Century, Helicon: Oxford.

Williams, N. & Waller, P. (1996) Chronology of the Modern World (1763-1992) (2^{nd} ed.), Helicon: Oxford.

ثالثا : مواقع بحث على شبكة الإنترنت :

www.angelfire.com/ok3/nesa/
www.arabworldbooks.com/authors/default.html
www.awu-dam.com/ind-dalil.htm
www.britannica.com
www.cultural.org.ae
www.geocities.com/soho/gallery/2845/paint8.html
www.geocities.com/soho/gallery/2845/paint9.html
www.geocities.com/soho/gallery/2845/paint10.html
www.geocities.com/soho/gallery/2845/paint11.html
www.geocities.com/soho/gallery/2845/paint12.html
www.geocities.com/soho/gallery/2845/paint13.html
www.i-cias.com/i-e.o/index.htm
www.maraya.net
www.nilecinema.com
www.nobelchannel.com
www.nobelprizes.com
www.sis.gov.eg/egyptian/culture/

■●■●■

المحتويات